الرافدين على الجلالين

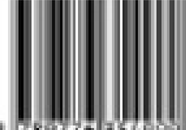
بسم الله الرحمن الرحيم

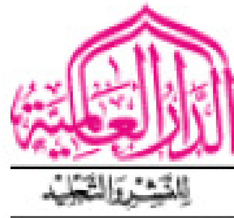
الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الرابع والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتكُمْ} إذَا نَطَقْتُمْ {فَوْق صَوْت النَّبِيّ} إذَا نَطَقَ {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} إذَا نَاجَيْتُمُوهُ {كَجَهْرِ بعضكم لبعض} بل دون ذلك إجلالاله {أَنْ تَحْبَط أَعْمَالكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أَيْ خَشْيَة ذَلِكَ بِالرَّفْعِ وَالْجَهْر الْمَذْكُورَيْنِ وَنَزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَخْفِض صَوْته عِنْد النَّبِيّ ﷺ كَأَبِي بَكْر وَعُمَر وَغَيْرهمَا رضي الله عنهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن أبي مليكة؛ قال: كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر -قال نافع: لا أحفظ اسمه- فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)}؛ فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه؛ يعني: أبا بكر.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٤٥، ٧٣٠٢) من طريق يسرة بن صفوان اللخمي ووكيع بن الجراح كلاهما عن نافع بن عمر الجمحي المكي عن ابن أبي مليكة به.

قال الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٥٩٠): "ثم هذا السياق صورته الإرسال؛ لكن =

=

ظهر في آخره: أن ابن أبي مليكة حمله عن عبد الله بن الزبير، وسيأتي في هذا الباب الذي بعده التصريح بذلك".

وتقدم ذكره في أول السورة.

وأخرجه الترمذي في "جامعه" (٥/ ٣٨٧ رقم ٣٢٦٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (رقم ٤١ - قطعة من المجلد ١٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٦) من طريقين عن مؤمل بن إسماعيل ثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير؛ قال: إن الأقرع بن حابس قدم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله! استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله! فتكلما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)}، فكان عمر بن الخطاب بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه، قال: وما ذكر ابن الزبير جده؛ يعني: أبا بكر.

ومؤمل؛ ضعيف سيئ الحفظ، وخالفه ثقتان، روياه عن نافع به مرسلًا، ورواه هو موصولًا؛ ولذلك قال الترمذي عقبه: "هذا حديث حسن غريب، وقد روى بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسل، ولم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير".

هذا مع مخالفته في المتن لمن دقق بين اللفظين؛ ولذلك لما ذكر الحافظ رواية مؤمل هذه عند الترمذي قال: "وهذا يخالف رواية ابن جريج وروايته أثبت من مؤمل بن إسماعيل".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)}؛ جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من

=

=

أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي سعد بن معاذ، فقال: "يا أبا عمرو! ما شأن ثابت؟ آشتكى؟ "، قال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ؛ فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: "بل هو من أهل الجنة".

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٦١٣، ٤٨٤٦)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١١٩) وهذا لفظه.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية؛ قال ثابت بن قيس: فأنا كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، أجهر له بالقول؛ فانا من أهل النار؛ فقعد في بيته، فتفقده رسول الله ﷺ وسأل عنه، فقال رجل: إنه لجاري ولئن شئت لأعلمن لك عليه، فقال: "نعم"، فأتاه؛ فقال: إن رسول الله ﷺ تفقدك وسأل عنك؛ فقال: نزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية، وأنا كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله ﷺ وأجهر له بالقول؛ فأنا من أهل النار، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره؛ فقال: "بل هو من أهل الجنة"، فلما كان يوم اليمامة؛ انهزم الناس، فقال: أُفٍّ لهؤلاء وما يعبدون، أُفٍّ لهؤلاء وما يصنعون، يا معشر الأنصار! خلوا لي بشيء لعلي أصلى بحرها ساعة، قال: ورجل قائم على ثلمة، فقتَل وقُتل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٥، ٧٦) من طريق ابن عليه ثنا أيوب عن عكرمة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٦/ ٦٢١): "روى ابن سعد بإسناد صحيح -أيضًا- من مرسل عكرمة".

=

=

وعن قتادة: كانوا يرفعون ويجهرون عند النبي ﷺ، فوعظوا ونهوا عن ذلك.
أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٥) من طريقين عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد.
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في قيس بن شماس.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥١) ونسبه لابن مردويه.
وعن عطاء الخراساني؛ قال: قدمت المدينة، فلقيت رجلًا من الأنصار، قلت: حدثني حديث ثابت بن قيس بن شماس؛ قال: قم معي، فانطلقت معه حتى دخلت على امرأة، فقال الرجل: هذه ابنة ثابت بن قيس بن شماس فاسألها عما بدا لك، فقلت: حدثيني، قالت: سمعت أبي يقول: لما أنزل الله على رسول الله ﷺ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية؛ دخل بيته، وأغلق عليه بابه، وطفق يبكي، ففقده رسول الله ﷺ؛ فقال: "ما شأن ثابت؟ "، فقالوا: يا رسول الله! ما ندري ما شأنه؛ غير أنه قد أغلق عليه باب بيته فهو يبكي فيه، فأرسل رسول الله ﷺ فسأله: "ما شأنك؟ "، قال: يا رسول الله! أنزل الله عليك هذه الآية، وأنا شديد الصوت؛ فأخاف أن أكون قد حبط عملي، فقال: "لست منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير"، قالت: ثم أنزل الله على نبيه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان:١٨]؛ فأغلق عليه بابه، وطفق يبكي فيه، فافتقده رسول الله ﷺ، وقال: "ثابت ما شأنه؟ "، قالوا: يا رسول الله! والله ما ندري ما شأنه؛ غير أنه قد أغلق عليه بابه وطفق يبكي، فأرسل إليه رسول الله ﷺ، فقال: "ما شأنك؟ "، قال: يا رسول الله! أنزل الله عليك: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} والله إني لأحب الجمال وأحب أن أسود قومي، قال: "لست منهم، بل تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، ويدخلك الله الجنة بسلام"، قالت: فلما كان يوم اليمامة؛ خرج مع

=

=

خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب، فلما لقي أصحاب رسول الله ﷺ قد انكشفوا؛ فقال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثم حفر كل منهما لنفسه حفرة، وحمل عليهم القوم، فثبتا حتى قتلا، وكانت على ثابت يومئذ درع له نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم؛ إذ أتاه ثابت بن قيس في منامه، فقال له: إني أوصيك بوصية إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه: إني لما قتلت أمس؛ مر بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس يستن في طوله وقد أكفأ على الدرع برمة وجعل فوق البرمة رحلًا، فائت خالد بن الوليد؛ فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله؛ فأخبره أن عليّ من الدين كذا وكذا، ولي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فإياك أن تقول هذا حلم؛ فتضيعه، فأتى الرجل خالد بن الوليد فأخبره، فبعث إلى الدرع فنظر إلى خباء في أقصى العسكر؛ فإذا عنده فرس يستن في طوله فنظر في الخباء؛ فإذا ليس فيه أحد، فدفعوا الرجل؛ فإذا تحته برمة، ثم رفعوا البرمة؛ فإذا الدرع تحتها، فأتوا به خالد بن الوليد، فلما قدموا المدينة؛ حدث الرجل أبا بكر برؤياه؛ فأجاز وصيته بعد موته، ولا يعلم أحد من المسلمين جوزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس.

أخرجه ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١/ ٢٤١ رقم ٣١٤، ٣/ ٤٦١-٤٦٣ رقم ١٩٢١، ٦/ ١٧٠، ١٧١ رقم ٣٣٩٩)، وفي "الجهاد" (٢/ ٥٦٠-٥٦٢ رقم ٢٢٥)، وابن المنذر؛ كما في "فتح الباري" (٦/ ٦٢١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٧٠، ٧١ رقم ١٣٢٠)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٦/ ٤١٥، ٤١٦)، والروياني في "مسنده" (٢/ ١٧٤، ١٧٥ رقم ١٠٠٢)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣٥٩٠ رقم ٨٠٩١)، والبغوي في "معجم الصحابة" (ق

=

=

٥٦- ق ٥٧)، والتيمي في "دلائل النبوة" (رقم ٣٠٩- ط الحداد)، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٣٨، ٣٩ رقم ٤١٠٨- المسندة)، والحاكم (٣/ ٢٣٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٣٥٦)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (١/ ١٩٤- هامش الإصابة) من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عطاء الخراساني. وسنده ضعيف؛ عطاء الخراساني؛ صدوق يهم كثيرًا، ويرسل ويدلس؛ كما في "التقريب".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٣٢٢): "وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنت ثابت بن قيس صحابية؛ فإنها قالت سمعت أبي". اهـ.

قلنا: قد نص الحافظ على أن عطاء لم يسمع من أحد من الصحابة؛ فإما أن تكون هذه المرأة تابعية وعليه؛ فهي مجهولة، وإما صحابية ويكون هنالك وهم أو تخليط من عطاء نفسه؛ فإن الحفاظ نصوا على أنه لم يدرك أيّ صحابي -والله أعلم-.

وسكت عنه الحاكم والذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٠) وزاد نسبته لابن مردويه والخطيب في "المتفق والمفترق".

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحجرات: ٢]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: "يقول: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ٢]، أي:" لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي عند مخاطبتكم له".

قال الطبري: "يقول: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام،

=

=

وتغلظون له في الخطاب".

قال سهل:" أي: لا تخاطبوه إلا متفهمين".

قال الزجاج:" أمرهم الله ﷻ بتبجيل نبيه عليه السلام، وأن يغضوا أصواتهم".

قال السعدي:" وهذا أدب مع رسول الله ﷺ، في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له، صوته معه، فوق صوته".

قال ابن كثير:" هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته... فقد نهى الله ﷻ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: «أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا»، وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائما".

قال عبيد: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} ،... الآية، هو كقوله: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣]، نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضا وأمرهم أن يشرفوه ويعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة".

قال الحسن:" يقول: لا تقولوا: يا محمد، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله".

قوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات: ٢]، أي:"، ولا تجهروا بمناداته كما يجهر بعضكم لبعض".

قال الطبري: "يقول: ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا: يا محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله".

قال ابن قتيبة:" أي: لا ترفعوا أصواتكم عليه كما يرفع بعضكم صوته على

=

=

بعض".

قال الفراء:" يقول: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله- يا رسول الله، يا أبا القاسم".

قال السعدي: أي: "ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره، في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به".

قال ابن كثير:" ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: {وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ}، كما قال: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣]".

قال الزجاج:" أمرهم أن يخاطبوه بالسكينة والوقار، وأن يفضلوه في المخاطبة، وذلك مما كانوا يفعلونه في تعظيم ساداتهم وكبرائهم، ومعنى: {كجهر بعضكم لبعض}، أي: لا تنزلوه منزلة بعضكم من بعض، فتقولوا: يا محمد خاطبوه بالنبوة، والسكينة والإعظام".

قال مجاهد:" قال لا تنادوه نداء، ولكن قولا لينا يا رسول الله".

قال قتادة:" كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فوعظهم الله، ونهاهم عن ذلك". وفي رواية:" يرفعون، ويجهرون عند النبي ﷺ، فوعظوا، ونهوا عن ذلك".

قوله تعالى: {أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]، أي:" خشية أن تبطل أعمالكم، وأنتم لا تشعرون، ولا تُحِسُّون بذلك".

قال ابن قتيبة:" أي: لئلا تحبطَ أعمالكم".

=

=

قال الفراء:" معناه: لا تحبط ".

قال الطبري:" يقول: أن لا تحبط أعمالكم فتذهب باطلة لا ثواب لكم عليها، ولا جزاء برفعكم أصواتكم فوق صوت نبيكم، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض، وأنتم لا تعلمون ولا تدرون".

قال الزجاج: "معناه" لا تفعلوا ذلك فتحبط أعمالكم، والمعنى: لئلا تحبط أعمالكم.. وهذا إعلام أن أمر النبي - ﷺ- ينبغي أن يجل ويعظم غاية الإجلال، وأنه قد يفعل الشيء مما لا يشعر به من أمر النبي - ﷺ- فيكون ذلك مهلكا لفاعله أو لقائله".

قال ابن كثير:" أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بَالا يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالا يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض» ".

قال النحاس:" {وأنتم لا تشعرون}، قيل: أي: لا تشعرون أن أعمالكم قد حبطت". قال السعدي:" فإن في عدم القيام بذلك، محذورًا، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه، من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصوتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}، الآية الأولى فيها النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في أي شيء، سواء من الأقوال أو الأفعال أو غيرها، أما هذه الآية فهي في رفع الصوت وإن لم يكن هناك تقدم في الأحكام من تحليل أو تحريم أو إيجاب، يقول الله ﷻ: {لا

=

ترفعوا أصوتكم فوق صوت النبي} فإذا خاطبك النبي ﷺ بصوت فاخفض صوتك عن صوته، وإذا رفع صوته فارفع صوتك لكن لابد أن يكون دون صوت الرسول عليه الصلاة والسلام ولهذا قال: {لا ترفعوا أصوتكم فوق صوت النبي}.

{ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض} يعني لا تنادونه بصوت مرتفع، كما ينادي بعضكم بعضًا، بل يكون جهرًا بأدب وتشريف وتعظيم، يليق به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا كقوله: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا}. يعني إذا دعاكم لشيء فلا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم لبعض، إن شئتم أجبتم وإن شئتم فلا تجيبوا، بل يجب عليكم الإجابة، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} وهنا قال: {ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بعضكم لبعض} كذلك أيضًا لا تنادونه بما تتنادون به، فلا تقولون: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وما أشبه ذلك.

{أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ردَّة عن الإسلام توجب حبوط العمل، ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه جهوري الصوت، وكان من خطباء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما نزلت هذه الآية تغيَّب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي

=

ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولًا يسأله، فقال: إن الله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصوتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟» قال: بلى رضيت، فقُتل رضي الله عنه شهيدًا في وقعة اليمامة، وعاش حميدًا، وسيدخل الجنة بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام ولذلك كان ثابت رضي الله عنه ممن يُشهد له بأنه من أهل الجنة بعينه؛ لأن كل إنسان يشهد له النبي ﷺ بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكل إنسان يشهد له بأنه في النار فهو في النار، وأما من لم يشهد له الرسول ﷺ فنشهد له بالعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل النار، أو من أهل الجنة إلا من شهد له الله تعالى ورسوله ﷺ.

ففي هذه الآية الكريمة بيان تعظيم الرسول ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجهر له بالقول كجهره لسائر الناس، وأنه لا يجوز له أن يرفع صوته على صوت الرسول عليه الصلاة والسلام ولما نزلت هذه الآية تأدَّب الصحابة رضي الله عنهم بذلك حتى كان بعضهم يكلمه مسارَّة ولا يفهم الرسول ﷺ ما يقول من إسراره، حتى يستثبته مرة أخرى، وفي هذه الآية دليل على أن كل من استهان بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام فإن عمله حابط؛ لأن الاستهانة بالرسول عليه الصلاة والسلام ردَّة، والاستهزاء به ردَّة كما قال الله تعالى في المنافقين الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء- يعنون الرسول ﷺ وأصحابه- أرغب بطونًا- يعني أوسع- ولا

=

=

أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسنًا، فأنزل الله هذه الآية، ولما سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني نتكلم بكلام لا نريده، ولكن لنقطع به عنا عناء الطريق، فأنزل الله هذه الآية. {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} . ولهذا كان الصحيح أن من سب الرسول عليه الصلاة والسلام كان كافرًا مرتدًّا، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذًا بحق رسول الله ﷺ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوح الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي.

مسألة: المعنى الصحيح لمحبة النبي ﷺ وانقسام الناس فيها.

اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب لنبينا ﷺ على القلب واللسان والجوارح حقوقًا زائدة على مجرد التصديق بنبوته، كما أوجب سبحانه على خلقه من العبادات على القلب، واللسان، والجوارح أمورًا زائدة على مجرد التصديق به سبحانه. وحرم سبحانه لحرمة رسوله- مما يباح أن يفعل مع غيره- أمورًا زائدة على مجرد التكذيب بنبوته.

فمن تلك الحقوق حقه ﷺ بأن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كما دلت على ذلك الأدلة من القرآن والسنة والتي سيأتي ذكرها.

(فحب النبي ﷺ من أعظم واجبات الدين)

فهذه المحبة الواجبة له ﷺ هي من محبة الله، فهي حب لله وفي الله، ذلك لأن محبة الله توجب محبة ما يحبه الله، والله يحب نبيه وخليله ﷺ، فوجب بذلك محبته حقًا، فهي متفرعة عن محبة الله وتابعة لها، واقتران ذكرها مع محبة الله في القرآن والسنة إنما هو للتنبيه على أهميتها وعظم منزلتها.

وبمقتضى هذه المحبة يجب موافقة الرسول ﷺ في حب ما يحبه، وكره ما يكرهه،

=

=

أي بتحقيق المتابعة له فيحب بقلبه ما أحب الرسول، ويكره ما كرهه الرسول، ويرضى بما يرضى الرسول، ويسخط ما يسخط الرسول، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض.

وقد انقسم الناس في فهمهم لهذه المحبة إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: أهل الإفراط.

القسم الثاني: أهل التفريط.

القسم الثالث: الذين توسطوا بين الإفراط والتفريط.

أما أصحاب القسم الأول: فهم الذين بالغوا في محبته بابتداعهم أمورًا لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، ظنًا منهم أن فعل هذه الأمور هو علامة المحبة وبرهانها.

ومن تلك الأمور احتفالهم بمولده، ومبالغتهم في مدحه، وإيصاله إلى أمور لا تنبغي إلا لله تعالى ومن ذلك قول قائلهم:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم.

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها... ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ، ومن بعض علومه علم اللوح والقلم لأن (من) للتبعيض، فماذا للخالق جل وعلا؟

إضافة إلى صرف بعض أنواع العبادة له كالدعاء، والتوسل، والاستشفاع، والحلف به، والطواف، والتمسح بالحجرة التي فيها قبره ﷺ إلى غير ذلك من البدعيَّات والشركيَّات التي تفعل بدعوى المحبة للرسول ﷺ، وهي أمور لم يشرعها الله ورسوله ﷺ ولم يفعلها الصحابة رضوان الله عليهم الذين عرفوا بإجلالهم وتقديرهم ومحبتهم لرسول الله ﷺ، وإضافة إلى ذلك فإن ما يقوم به

=

=

هؤلاء هي أمور مخالفة لما جاء به الشارع، بل هي أمور قد حذر الشارع من فعلها، ولقد صار حظ أكثر أصحاب هذا القسم منه ﷺ مدحه بالأشعار والقصائد المقترنة بالغلو والإطراء الزائد الذي حذر منه الشارع الكريم، مع عصيانهم له في كثير من أمره ونهيه، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه.

فيا ترى أي محبة هذه التي يخالف أصحابها شرع نبيهم، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، فكرهوا ما أحب الله ورسوله، وأحبوا ما كرهه الله ورسوله. فكيف تكون لهؤلاء محبة وهم قد ابتدعوا ما ابتدعوه من أمور لم تشرع في الدين، ونعلم أن رسول الله ﷺ قد تبرأ ممن ابتدع في هذا الدين فقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد).

والذي يجب على أمثال هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول وتعظيمه إنما تكون بتصديقه فيما أخبر به عن الله، وطاعته فيما أمر به، ومتابعته، ومحبته وموالاته، لا بالتكذيب بما أرسل به، والإشراك به والغلو فيه، فهذا لا يعدو كونه كفرًا به، وطعنًا فيما جاء به ومعاداة له.

كما يجب عليهم أن يفرقوا بين الحقوق التي يختص بها الله وحده، وبين الحقوق التي له ولرسله، والحقوق التي يختص بها الرسول، فقد ميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفتح: ٩]، فالتعزير والتوقير للرسول والتسبيح بكرة وأصيلًا لله، وكما قال: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، فالطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى لله وحده وكما يقول المرسلون: أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ [نوح: ٣].

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول ﷺ لا تنال بدعائه والاستغاثة به، فتلك أمور صرفها لغير الله يعد شركًا مع الله، فالله وحده هو الذي يدعى، ويستغاث به،

=

=

فهو رب العالمين، وخالق كل شيء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو القريب الذي يجيب الداع إذا دعاه، وهو سميع الدعاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا...

أما أصحاب القسم الثاني: فهم أهل التفريط الذين قصروا في تحقيق هذا المقام فلم يراعوا حقه ﷺ في وجوب تقديم محبته على محبة النفس والأهل والمال. كما لم يراعوا ماله من حقوق أخرى كتعزيره، وتوقيره، وإجلاله، وطاعته، واتباع سنته، والصلاة والسلام عليه، إلى غير ذلك من الحقوق العظيمة الواجبة له.

والسبب في ذلك يعود إلى إحدى الأمور التالية أو إليها جميعًا وهي:

أولًا: إعراض هؤلاء عن سنة نبيهم ﷺ وعن اتباع شرعه بسبب ما هم عليه من المعاصي، وإسرافهم في تقديم شهوات أنفسهم وأهوائهم على ما جاء في الشرع من الأوامر والنواهي.

ثانيًا: اعتقاد الكثير أن مجرد التصديق يكفي في تحقيق الإيمان، وأن هذا هو القدر الواجب عليهم، ولذا تراهم يكتفون بالتصديق بنبوة محمد ﷺ، دون تحقيق المتابعة له، وهذا هو حال أهل الإرجاء الذين يؤخرون العمل عن مسمى الإيمان، ويقولون إن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو تصديق القلب وإقرار اللسان، وما أكثرهم في زماننا هذا.

ثالثًا: جهل الكثير منهم بأمور دينهم بما فيها الحقوق الواجبة له ﷺ، والتي من ضمنها محبته ﷺ، فكثير من الناس- ولا حول ولا قوة إلا بالله- ليس لهم من الإسلام إلا اسمه وليس لهم من الدين إلا رسمه.

فالواجب على هؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم، وأن يقلعوا عن غيهم، وما هم عليه من المعاصي والذنوب التي هي سبب نقصان إيمانهم، وضعف محبتهم، وبعدهم عما يقربهم إلى الله تعالى.

=

=

كما يجب عليهم أن يعلموا أن مجرد التصديق لا يسمى إيمانًا بل الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان، فليس لأحد أن يخرج العمل عن مسمى الإيمان، فلذلك يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله أن يطيع الله ورسوله، ويتبع ما أنزل الله من الشرع على رسوله ﷺ، فبذلك يحصل الإيمان، فإن الاتباع هو ميزان الإيمان، فبحسب اتباع المرء يكون إيمانه، فمتى ما قوي اتباعه قوي إيمانه والعكس بالعكس.

كما يجب عليهم معرفة أمور دينهم وبخاصة الواجب منها، والتي من ضمنها معرفة ما للمصطفى ﷺ من الحقوق الواجبة، فلقد ذم الله تبارك وتعالى أولئك النفر الذين لم يعرفوا ما للنبي ﷺ من حق في عدم رفع الصوت عند مخاطبته أو مناداته، ووصفهم الله بأنهم لا يعقلون قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ [الحجرات: ٤]، وفي السورة نفسها أثنى على الذين عرفوا حق المصطفى ﷺ فقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [الحجرات: ٣]، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [الزمر: ٩]. وليعلم هؤلاء أنه لا يتحقق لهم إيمان ولا محبة إلا باتباعهم للمصطفى ﷺ، واقتدائهم بسنته، والسير على نهجه وهداه.

أما القسم الثالث: فهم الذين توسطوا بين الطرفين السابقين أهل الإفراط وأهل التفريط. فأصحاب هذا القسم هم السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، الذين آمنوا بوجوب هذه المحبة حكمًا، وقاموا بمقتضاها اعتقادًا وقولًا وعملًا. فأحبوا النبي ﷺ فوق محبة النفس، والولد، والأهل، وجميع الخلق امتثالًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فجعلوه أولى بهم من أنفسهم تصديقًا لقوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [الأحزاب: ٦]، وأيقنوا بوجوب أن يوقى

=

=

بالأنفس والأموال طاعة لقوله تعالى: مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ [التوبة: ١٢٠]. وقاموا بمقتضى هذه المحبة اعتقادًا وقولًا وعملًا بحسب ما أو جب الله لنبيه ﷺ من حقوق على القلب واللسان والجوارح من غير إفراط ولا تفريط. فآمنوا وصدقوا بنبوته ورسالته وما جاء به من ربه ﷻ. وقاموا- بحسب استطاعتهم- بما يلزم من طاعته، والانقياد لأمره، والتأسي بفعله، والاقتداء بسنته، إلى غير ذلك مما يعد من لوازم الإيمان برسالته.

قال تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [الحشر: ٧] وامتثلوا لما أمر به سبحانه وتعالى من حقوق زائدة على مجرد التصديق بنبوَّته وما يدخل في لوازم رسالته.

فمن ذلك امتثالهم لأمره سبحانه بالصلاة عليه والتسليم قال تعالى: إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [الأحزاب: ٥٦]. وما أمر به سبحانه من تعزيره وتوقيره قال تعالى: وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ. فتعزيره يكون بنصره، وتأييده، ومنعه من كل ما يؤذيه ﷺ.

وتوقيره: يكون بإجلاله وإكرامه، وأن يعامل بالتشريف، والتكريم، والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار.

ويدخل في ذلك مخاطبته بما يليق قال تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وحرمة التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، وحرمة رفع الصوت فوق صوته وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ

=

=

أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [الحجرات: ١ - ٣].

فقاموا بهذه الأمور امتثالًا وطاعة لأمر الله تبارك وتعالى، وأدوا ما فرض عليهم من الحقوق الأخرى التي يطول ذكرها.... وهم مع قيامهم بهذه الأمور لم يتجاوزوا ما أمروا به، فلم يغالوا ولم يبالغوا كما فعل أهل الإفراط الذين وصفوا النبي ﷺ بأمور لا تنبغي لغير الله كعلم الغيب، وصرفوا له أمورًا لا يجوز صرفها لغير الله كدعائه، والسجود له، والاستغاثة به والطواف بقبره.

بل هم مؤمنون بأن ما أكرم الله به نبيه ﷺ من النبوة، والرسالة، والرفعة، وعظم القدر، وشرف المنزلة، كل ذلك لا يوجب خروجه عن بشريته وعبوديته لله قال تعالى: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: ٩٣].

واعتقدوا أنه ليس من المحبة في شيء الغلو في حقه وقدره ووصفه بأمور قد اختص الله بها وحده، بل علموا أن في هذا مخالفة ومضادة لتلك المحبة، ومناقضة لما أمر به سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقوله لأمته: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [الأعراف: ١٨٨].

فكل غلو في حقه ﷺ ليس من محبته في شيء بل يعد مخالفة لما أمر به فيجب الابتعاد عن ذلك والحذر من عقوبته قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كما يعد مشاقة للرسول ﷺ. قال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: ١١٥]، ولذا فإنه يجب الحذر من

=

=

حال الغلاة الذين غلوا في حق النبي ﷺ بما ابتدعوه من الأمور التي لم يشرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله، بل حذر الله ورسوله منها.

وقد يظن البعض بأن السير على منهج أهل التوسط فيه انتقاص من قدر النبي ﷺ وغمط لحقه، والأمر على عكس ما يظنون فالذي يعتقده السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين أن الحق الواجب أن يثنى على النبي ﷺ بما هو أهل له من الخصائص الثابتة له التي خصه الله بها، والفضائل العظيمة التي شرفه بها، والصفات الحقيقية والخلقية التي كان عليها، وذلك للتعرف وتعريف الناس بفضله ومكانته وعظيم قدره عند الله وعند خلقه حتى يتأسى ويقتدى به في أقواله وأفعاله، فهو الأسوة والقدوة عليه أفضل الصلاة والتسليم قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا [الأحزاب: ٢١].

فمن صميم المحبة له ﷺ الاشتغال بمعرفة سيرته بقصد التأسي والاقتداء بما كان عليه من كريم الخصال، ومحاسن الأفعال والأقوال. وكذا معرفة شمائله، ودلائل نبوته التي تعمق إيمان المسلم بصدق نبوته، وتزيد في محبته وتعظيمه ﷺ. ولقد اهتم السلف بهذه الجوانب وأولوها رعايتهم واهتمامهم، فاعتنوا بتأليف المؤلفات التي أوضحت هذه الجوانب وأبرزتها، فقد ألفت لهذا الغرض كتب الشمائل التي اعتنت بذكر صفاته وأحواله في عباداته، وخلقه، وهديه، ومعاملاته، كما ألفت كتب الدلائل التي اعتنت بدلائل وعلامات نبوته ﷺ.

هذا بالإضافة إلى ما كتب في الفضائل والخصائص التي كانت للنبي ﷺ. كما اعتنوا بأصل هذه الجوانب جميعها ألا وهو سيرته الشريفة ﷺ، فقد ألفت لهذا الغرض المؤلفات التي اعتنت بحياته منذ ولادته إلى وفاته، وضمت في جوانب ذلك الحديث عن نشأته، وبعثته، وما حدث له من الأمور قبل الهجرة وبعدها،
=

وما كان من أمر دعوته، وغزواته، وسراياه، وما يتعلق بهذه الجوانب وغيرها مما هو داخل في سيرته. فقد دونت هذه الجوانب جميعها وخدمت بقصد أن يتأسى الناس به ﷺ، وأن يتعرفوا على كمال ذاته ﷺ وما تميز به من صفات، وتفرد به من أخلاق، لتزيد تلك المعرفة من محبتهم له، وتنميتها في قلوبهم، ولتبعث في نفوسهم تعظيمه وإجلاله.

وبهذا يعلم أن أهل التوسط لم ينتقصوا من قدره ﷺ، بل حفظوا وحافظوا على كل ما من شأنه أن يضمن استمرارية محبة الأمة وتعظيمها له.

فهذه حال أهل التوسط وهذا هو منهجهم، فمن أراد أن يسير على النهج القويم، ويسلك الصراط المستقيم فعليه بسبيل أهل الإيمان وطريقهم، ألا وهو الكتاب والسنة، فذاك طريق الحق، والحق أحق أن يتبع.

وهذا منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، فقد كانت محبتهم للنبي ﷺ تحكمها قواعد الكتاب والسنة، فما أمر به الشارع ائتمروا به، وما نهى عنه الشارع انتهوا عنه، ولم يحكموا في هذه المحبة عواطفهم وأهواءهم كما فعل أهل الإفراط الذين زلت بهم أقدامهم بسبب غلوهم في حقه، ذاك الغلو الذي دفعهم إليه تحكيم أهوائهم، وهو غلو ما أنزل الله به من سلطان، بل إن نصوص الشرع تنص على تحريمه، وإنه ليصدق وصف أهل الإفراط بقوله تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [القصص: ٥٠].

فخلاصة القول في هذا الجانب أن المفهوم الصحيح لمحبته ﷺ يتمثل في ذلك المفهوم الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم. ذلك المفهوم المستمد من آيات القرآن ونصوص السنة والذي لم يخرج عنهما قيد أنملة.

=

وقد يظن البعض من الناس أن له الحق في التعبير عن محبته للنبي ﷺ بما يراه ويستحسنه من الأمور، من غير أن يراعي في ذلك قواعد الشرع وأصوله، وهذا الصنف من الناس تراه منساقًا مع عواطفه، جاعلًا لها حق التشريع في هذا الدين. فتراه يغلو في حق النبي ﷺ حتى كمل به إلى بعض مراتب الألوهية. وتراه يبتدع في دين الله أمورًا تصل إلى حد العظائم. وتراه يقدم على الشركيات والكفريات. وكل ذلك بدعوى محبة النبي ﷺ ولقد حكم الله ﷻ بالضلال على هذا الصنف فقال تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ [القصص: ٥٠].

فالمتبعون لعواطفهم وأهوائهم المحكمون لها، لابد وأن يكونوا نابذين لهدي الله المتمثل في الكتاب والسنة، واللذين يشتملان على قواعد هذا الدين وأصوله والتي من ضمنها تحريم الابتداع في الدين والإحداث فيه، وتحريم الغلو بشتى مظاهره وأشكاله، وتحريم الشرك بمختلف صوره وألوانه.

ولذلك حكم الله بضلالهم وغوايتهم، وبعدهم عن الصراط المستقيم. فحري بأمثال هؤلاء أن يقلعوا عن غيهم، وأن يحكموا في عواطفهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

فمحبة النبي ﷺ من الدين، وتحقيقها يكون عن طريق ما شرع في هذا الدين، لا عن طريق البدع وما تهواه النفوس، فالبدع قد حذرنا نبينا ﷺ منها بقوله: (اكم ومحدثات الأمور) وهذا الحديث يعني في هذا المقام أن ليس لأحد الحق في التعبير عن محبة النبي ﷺ إلا بما جاء به النبي ﷺ، فعلى المسلم أن يدرك هذا الأمر، وليحذر من سبل أهل الضلال والانحراف.

قال تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام: ١٥٣].

وإن الناظر في أحوال أولئك المفتونين بالبدع تحت دعوى محبة النبي ﷺ يجد

=

=

أنهم قد رغبوا في تلك الأمور المبتدعة لأنها أمور لا مشقة فيها على النفس، فجعلوها بدلًا مما يجب عليهم من الأعمال والطاعات التي تشق على نفوسهم الضعيفة المريضة، فالمحبة عند هؤلاء تنحصر في مظاهر التعظيم اللساني المليء بالغلو والشرك، والمقترن بالاجتماع على موائد الطعام والذي لا يخلو في بعض الأحيان من المنكرات والمحرمات.

ويحق للمرء أن يتساءل: أي محبة هذه التي تجيز لهؤلاء أن يبتدعوا في دين الله بزيادة أو نقص، أو تغيير أو تبديل؟ لاشك أن فعل هذه الأمور يناقض المحبة ويضادها جملة وتفصيلًا، ولا عذر لفاعلها فيما أقدم عليه وإن كان فعل ذلك بحسن نية، فحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين، فلقد كان جل ما أحدث أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم عن حسن نية، فمازالوا على حالهم تلك حتى صارت أديانهم على غير ما جاءت به رسلهم.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يتمسك بتلك البدع تقليدًا لمشائخه أو عشيرته أو أهل بلده. إلى غير ذلك من العصبيات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي أعمت بصائر الكثير منهم وأضلتهم عن سبيل الله.

ولقد كان من الحري بهؤلاء أن يقتدوا بصحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا أشد الأمة محبة للنبي ﷺ، وأشدهم تعظيما له، وكانوا أحرص الناس على الخير ممن جاء بعدهم، والذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في هذا السبيل. فلقد كان من سنن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم على اتباع النبي ﷺ لأنهم يؤمنون بأن منشأ محبته وثباتها وقوتها إنما يكون بمتابعته ﷺ في أقواله، وأفعاله، وسلوكه، وتصرفاته.

كما أنهم يؤمنون بأن الابتداع في الدين يضاد تلك المحبة وينافيها ولذلك لم يعهد عنهم أنهم ابتدعوا أشياء من عند أنفسهم لإظهار محبتهم للنبي ﷺ كما ابتدع

=

=

المتأخرون ما ابتدعوه من البدع تحت ستار المحبة والتعظيم له ﷺ. فإذا كان هذا هو شأن الصحابة فيما أثر عنهم من الآثار وهم المشهود لهم بأنهم أشد الأمة وأفضلها محبة وتعظيمًا للنبي ﷺ، أفلا يسع من جاء بعدهم ما وسعهم، فيتركوا تلك الأمور المبتدعة التي أحدثت من بعدهم، والتي لم يأذن بها الله ولم تكن من هدي رسول الله ﷺ، ولا من عمل أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، ومن لم يتسع له ما اتسع للصحابة رضي الله عنهم، فلا وسع الله عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

فعن قتادة قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: (من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

مسألة: وجوب توقيره وتعظيمه ﷺ.

إن تعظيم النبي ﷺ، وإجلاله، وتوقيره، شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة. ذلك لأنه ليس كل محب معظمًا، ألا ترى أن الوالد يحب ولده ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه.

والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم. والسيد قد يحب مماليكه، ولكنه لا يعظمهم. والمماليك يحبون ساداتهم ويعظمونهم.

فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة.

فمن حق النبي ﷺ على أمته أن يهاب ويعظم ويوقر ويجل أكثر من كل ولد لوالده، ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة له مما يزيد على لوازم الرسالة، وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز قال تعالى: لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ [الفتح: ٩].

=

=

وقال تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: ١٥٧].

فأبان أن حق الرسول ﷺ في أمته أن يكون معززًا موقرًا مهيبًا. وأخبر سبحانه أن الفلاح إنما يكون لمن جمع بين الإيمان به وتعزيره، ولا خلاف في أن التعزير هاهنا التعظيم.

وفي الجمع الحاصل في الآيتين بين الإيمان به وتعظيمه، تنبيه وإرشاد إلى أن القيام بحقوقه ﷺ يعد من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان العبد إلا به. قال الحليمي: (فمعلوم أن حقوق رسول الله ﷺ أجل، وأعظم، وأكرم، وألزم لنا، وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم، والآباء على أولادهم، لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا، وأبداننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأهلينا، وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لما إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم. فأية نعمة توازي هذه النعم، وأية منة تداني هذه المنن. ثم إنه جل ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار. ووعدنا باتباعه الجنة. فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العلا هذه الدرجة. فحق علينا أن نحبه، ونجله، ونعظمه، ونهابه أكثر من إجلال كل عبد سيده، وكل ولد والده. وبمثل هذا نطق القرآن، ووردت أوامر الله جل ثناؤه).

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه ﷺ وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه ومن تلك الآيات ما يلي:

١- قوله تعالى: لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا [النور: ٦٣] (ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعوا رسول الله ﷺ بغلظ وجفاء، وأمر لهم أن يدعوه بلين وتواضع).

وروى الطبري بسنده عن مجاهد في تفسيرها فقال: (أمرهم أن يدعوه يا رسول الله

=

=

في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم).
وعن قتادة قال: (أمرهم أن يفخموه ويشرفوه).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: (خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهى أن يقولوا: يا محمد، أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدًا من الأنبياء، فلم يدعه باسمه في القرآن قط، بل يقول يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [الأحزاب: ٢٨] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ [الأحزاب: ٥٠] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ [الأحزاب: ١] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [الأحزاب: ٤٥] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ [الطلاق: ١] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ [التحريم: ١] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [المائدة: ٦٧] يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ [المزمل: ١ - ٢] يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ [المدثر: ١ - ٢] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ [الأنفال: ٦٤].
مع أنه سبحانه قال: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ [البقرة: ٣٥] قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ [البقرة: ٣٣] يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ [هود: ٤٦] يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا [هود: ٧٦] يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ [الأعراف: ١٤٤] يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ [ص: ٢٦] يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ [المائدة: ١١٠]).
وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذا كنا في باب العبارة عن النبي ﷺ علينا أن نفرق بين مخاطبته والإخبار عنه. فإذا خاطبناه كان علينا أن نتأدب بآداب الله تعالى حيث قال: لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا [النور: ٦٣] فلا تقول يا محمد، يا أحمد، كما يدعو بعضنا بعضًا بل نقول: يا رسول الله، يا نبي الله. والله سبحانه

=

=

وتعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ [البقرة: ٣٥] يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ [هود: ٤٨] يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ [طه: ١١- ١٢] يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ [آل عمران: ٥٥].

ولما خاطبه ﷺ قال: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ [الأنفال: ٦٤] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ [المائدة: ٤١] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [المائدة: ٦٧] يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ [المزمل: ١] يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [المدثر: ١٠] فنحن أحق أن نتأدب في دعائه وخطابه.

وأما إذا كنا في مقام الإخبار عنه قلنا: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله) وقلنا: محمد رسول الله وخاتم النبيين، فنخبر عنه باسمه كما أخبر الله سبحانه لما أخبر عنه ﷺ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب: ٤٠] وقال: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا [الفتح:٢٩] وقال: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ [آل عمران: ١٤٤] وقال: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ [محمد: ٢].

فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل.

٢- وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الحجرات:

=

=

١ - ٥] فهذه الآيات اشتملت على جملة من الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يجب أن يعاملوا به الرسول ﷺ من التوقير، والاحترام، والتبجيل، والإعظام وهذه الآداب هي:

أولًا: أنه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

قال ابن كثير في معناها: (أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ.

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقدم بين يدي الله ورسوله).

وقال الحليمي عند تعليقه على هذه الآية: (والمعنى لا تقدموا قولًا أو فعلًا بين يدي قول رسول الله ﷺ وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر دين أو دنيا، بل أخروا أقوالكم وأفعالكم إلى أن يأمر رسول الله ﷺ في ذلك بما يراه، فإنكم إذا قدمتم بين يديه كنتم مقدمين بين يدي الله عز وجل، إذ كان رسوله لا يقضي إلا عنه، وَاتَّقُوا اللهَ أي احذروا عقابه بتقديمكم يين يدي رسول الله ومعاملته بما يوهم الاستخفاف به، ومخالفة شيء مما يأمركم به عن الله بوحي متلو أو بوحي غير متلو إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي سميع لما تقدمونه بين يدي رسوله ﷺ، أو تأتونه اقتداء به واتباعًا له، عليم بما يكون منكم من إجلاله أو خلاف ذلك، فهو يجزيكم بما سمعه ويعلمه منكم).

=

ولقد تأدب الصحابة مع ربهم ومع رسولهم، فما عاد بعد نزول هذه الآية مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله ﷺ أن يدلي به، وما عاد أحد يقضي برأيه في أمر أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول النبي ﷺ.

حتى كان الرسول ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله. ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ- سأل في حجة الوداع: أي شهر هذا؟.. قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال: فأي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا بلى... الحديث. فهذه صورة من الأدب، ومن التحرج، ومن التقوى التي انتهى إليها الصحابة بعد سماعهم ذلك النداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السميع العليم.

ثانيًا: أنه حرم رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وهذا من باب الأدب مع النبي ﷺ في الحديث والخطاب، ومن التوقير الذي يجب له، ذلك التوقير الذي ينعكس على نبرات أصوات الصحابة ليتميز بذلك شخص الرسول ﷺ بينهم ويميز مجلسه فيهم، فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ [الحجرات: ٢].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: (هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين، أن

=

لا يرفعوا أصواتهم يين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فعن ابن أبي مليكة قال: (كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بن مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ الآية) قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر).

فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حيًّا وفي قبره ﷺ دائمًا.

ثم نهي عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة من عداه، بل يخاطب بسكينة، ووقار، وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ كما قال: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وقوله عز وجل: أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالًا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض.

=

=

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه ورغب فيه فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى أي أخلصها لها، وجعلها أهلًا ومحلًا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

وجاء في الكشاف عند تفسير هذه الآيات قوله: (أعاد النداء عليهم- أي في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك هممهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم، وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملًا بما يحدوه عليه، وارتداعًا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله: لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق. غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول البين المقرب من الهمس، الذي لا يضاهي الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه: وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من

=

=

جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو أو ما أشبهه، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى، الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها).

(ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفرادًا وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته والتحدث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيرًا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ بعد وفاته كحرمته في حياته).

ثالثًا: أن الله تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه فقال: أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال: وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة ، فكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ، ولكن لهم ما يجب عليهم وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبب إليهم التوبة والإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة.

=

قال الحليمي: (في هذه الآية يسلي الله نبيه ﷺ بما أخبره من أن الذين يصيحون خارج منزله ولا يصبرون حتى يخرج إليهم إنما حملهم على ذاك جهلهم وقلة عقلهم وأكثرهم لا يهتدون إلى ما يلزمهم من تعظيمك في حال مخاطبتك).

٣- وقال تعالى: مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ [التوبة: ١٢٠].

قال الحليمي: (فأعلمهم أن نفس الرسول ﷺ أكرم، وأشرف، وأزكى، وأجمل من أنفسهم، فلا يسعهم من ذلك أن يصرفوا أنفسهم عما لا يصرف نفسه عنه، فيتخلفوا عنه إذا خرج لجهاد أعداء الله معتذرين من شدة حر، أو طول طريق، أو عوز ماء، أو قلة زاد، بل يلزمهم متابعته ومشايعته على أي حال رضيها لنفسه، وفي هذا أعظم البيان لمن عقل، وأبين الدلالة على وجوب تعظيمه وإجلاله وتوقيره).

٤- وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ [الأحزاب: ٥٣].

فنهاهم سبحانه وتعالى عن أن يعاملوا رسول الله ﷺ بالتوسع في الانبساط والاسترسال كما يعامل من لا يهاب ولا يتقى، فيدخل بيته بغير إذنه إذا دعاهم إلى طعام لم ينضج، وأحاطوا به منتظرين إدراكه، وإذا حضر الطعام ودخلوا وطعموا لزموا مجالسهم مستأنسين بالمحادثة، وأخبرهم أن ذلك منهي عنه، إذ كان النبي ﷺ قد تأذى منه ويستحى أن يكلمهم، كما أدبهم فيما ينبغي عليهم تجاه معاملتهم مع أزواجه ﷺ، وهذا كله مما يدل على ماله ﷺ من التعظيم، والاحترام.

٥- وقد جاء بعد هذه الآيات الأمر بالصلاة والسلام عليه ﷺ حيث قال تعالى: إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

=

[الأحزاب: ٥٦].

ووجه إيصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما كان من الواجب على المكلفين تعظيم النبي ﷺ برفع الأذى عنه، وإظهار شرفه وكرامته، فذكر الله تعالى القسم الأول- أي رفع الأذى- في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ [الأحزاب: ٥٣] إلى آخرها وذكر القسم الثاني- أي إظهار شرفه وكرامته- في هذه الآية الثانية، وبدأ بالأول لأن دفع المفاسد أهم.

وأيضًا لما أرشد الله تعالى المؤمنين إلى تعظيمه ﷺ بتعلم سلوك طريق الأدب معه في أشياء كثيرة تتعلق بحياته وموته إظهارًا لشرفه، وتعظيمًا له، عقبه بما يدل على أنه تعالى أيضًا معظم لشأنه أيضًا، وكذلك ملائكته المقربون حملة العرش وحفظته، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وفيه بيان لمنقبة عظيمة له ﷺ، فإن الملك قد يأمر بإكرام شخص ولا يكون عنده بمكان، فأزيل هذا التوهم، وبين أنه أكرم الخلق على ربه تعالى.

٦- وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [الأحزاب: ٥٧- ٥٨]

فالله تعالى من تعظيمه لنبيه ﷺ حفظ له كرامته، وصان له حقه، ففرق بين أذاه وأذى المؤمنين، فأوجب على من آذى النبي ﷺ اللعن والطرد من رحمته، وهذا حكم على من آذاه بالكفر، وفي الآخرة له العذاب المهين ومصيره إلى جهنم وبئس المصير. بينما حكم على من آذى المؤمنين بالبهتان والإثم، والفرق يين الحكمين ناتج عن الفرق بين حق النبي ﷺ وحق غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في استدلاله بهذه الآية على وجوب قتل من آذى النبي ﷺ: (ودلالتها من وجوه:

=

=

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصًا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم. بين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله شيئًا واحدًا فقال تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ [التوبة:٢٤] وقال تعالى: وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ [آل عمران: ١٣٢] في مواضع متعددة، وقال تعالى: وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ [التوبة: ٦٢] فوحد الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن إرضاء الله إرضاء للرسول، وإرضاء الرسول فيه إرضاء لله، وقال أيضًا: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ [الفتح: ١٠] وقال أيضًا: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول الأنفال: ١ []

وجعل شقاق الله ورسوله، ومحادة الله ورسوله، وأذى الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله شيئًا واحدًا، فقال: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ [الأنفال: ١٣] وقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ [المجادلة: ٢٠] وقال تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ [التوبة: ٦٣] وقال: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ [النساء: ١٤].

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد

=

=

له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابًا مهينًا، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرًا، فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم، لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا تثبت في حقه...).

ومما يوضح ذلك أن سب النبي ﷺ قد تعلق به عدة حقوق:

أ- حق الله سبحانه من حيث كفر برسوله، وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسِل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

ب- وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصًا أمته، فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به، بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بوساطته وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم، وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم، وأولادهم، وآبائهم، والناس أجمعين.

ج- وتعلق به حق رسول الله كلها من حيث خصوص نفسه، فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصًا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه، وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة.

٧- وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [البقرة: ١٠٤].

=

=

قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار، نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ وتبجيلًا له، لأن معناها ارعنا نرعك، فنهوا عن قولها، إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم، بل حقه أن يرعى على كل حال.

وقيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرعونة، فنهي المسلمون عن قولها قطعًا للذريعة، ومنعًا للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظة، وقيل غير هذا.

٨- وقال تعالى: وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا [الأحزاب: ٥٣].

ففي هذه الآية حرم الله على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده لأن ذلك يؤذيه، وجعله عظيمًا عند الله تعظيمًا لحرمته ﷺ، فحرم تعالى على الأمة ما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضًا، وذلك تمييزًا لنبيه ﷺ وتعظيمًا لشأنه. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: لو قد توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة.

ولو أن أحدًا أقدم على هذا الأمر فنكح أزواجه أو سراريه لكانت عقوبته في الشرع هي القتل جزاء له بما انتهك من حرمته، والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلًا كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي اذهب فاضرب عنقه فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد فيها، فقال له علي أخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فهذا الرجل أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لما قد استحل من حرمته، ولم يأمر بإقامة حد الزنا، لأن إقامة حد الزنا ليس هو ضرب الرقبة، بل إن كان محصنًا رجم، وان كان غير محصن جلد، ولا يقام عليه الحد إلا بأربعة شهداء أو بالإقرار المعتبر، فلما أمر النبي ﷺ بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصنًا أو غير محصن علم أن قتله لما انتهكه من حرمته... فلما تبين أنه

=

=

كان مجبوبًا علم أن المفسدة مأمونة منه...).

وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد أوجب الله على الأمة احترام أزواج النبي ﷺ وجعلهن أمهات في التحريم والاحترام.

فقال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ [الأحزاب: ٦] ففي هذه الآية رفع الله مقام أزواج النبي ﷺ وبوأهن منزلة عالية، وهي منزلة الأمومة لجميع المؤمنين، وفي ذلك من الحرمة والاحترام، والتوقير، والإكرام، والإعظام ما يوجب على كل مسلم أن يحفظ لهن هذا الحق ويؤديه على الوجه المطلوب منه شرعًا.

وهذه المنزلة لأمهات المؤمنين هي من التشريف والتعظيم الذي أعطاه الله للنبي ﷺ.

٩- وقال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور: ٦٢- ٦٣].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبيًا ورسولًا، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه.... وجاء في (الكشاف) عند تفسير هذه الآيات: (أراد الله ﷻ أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله

=

=

مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ [النور: ٦٢] وضمنه شيئًا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدق بصحة الإيمان، وعرض بالمنافقين وتسللهم لواذًا).

وبهذه النصوص يتبين للمسلم أن حقوق رسول الله ﷺ أجل، وأعظم، وأكرم، وألزم لنا وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم، والآباء على أولادهم، لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا، وأبداننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأهلينا، وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لأمر إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم، فأية نعمة توازي هذه النعم، وأية منة تداني هذه المنن. ثم إنه جل ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار، ووعدنا باتباعه الجنة، فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العلا هذه الدرجة.

فحق علينا إذًا أن نحبه، ونجله، ونعظمه، ونهابه، فبهذا نكون من المفلحين: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: ١٥٧] فالآية بينت أن الفلاح إنما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره، ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم ، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع.

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ [الفتح: ٨-٩].

وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه: وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب

=

=

المخاطبة والتحدث إليه ومجالسته. قال ابن تيمية: (فالتسبيح لله وحده، والتعزير والتوقير للرسول، والإيمان بالله ورسوله).

فهذه الآيات وغيرها نزلت لتبين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

مسألة: نواقض الإيمان بالنبي ﷺ.

إن مما ينبغي معرفته بعد توضيح معنى الإيمان بالنبي ﷺ، وتبيين شروط الشهادة ومراتبها، أن تعرف نواقض هذا الأمر ومبطلاته حتى يحترز المسلم من الوقوع فيها، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...) الحديث.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أعظم هذه الأمة إيمانًا لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير، وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي.

ولمعرفة نواقض الإيمان به ﷺ نقول:

لما كان الإيمان به ﷺ يعني تصديقه وتصديق ما جاء به ﷺ، والانقياد له، فإن الطعن في أحد هذين الأمرين ينافي الإيمان ويناقضه. فالنواقض على هذا الاعتبار يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الطعن في شخص الرسول ﷺ.

القسم الثاني: الطعن فيما أخبر به الرسول ﷺ مما هو معلوم من الدين بالضرورة، إما بإنكاره أو بانتقاصه.

=

=

القسم الأول: الطعن في شخص الرسول ﷺ:

ومما يدخل تحت هذا القسم نسبة أي شيء للرسول عليه الصلاة والسلام مما يتنافى مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده، فيكفر كل من طعن في صدق الرسول ﷺ، أو أمانته، أو عفته، أو صلاح عقله ونحو ذلك.

كما يكفر من سب الرسول ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نفسه، أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه أو العيب له، فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب يقتل كفرًا، وكذلك من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام، وهُجر ومنكر من القول وزور، أو عيره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو تنقصه ببعض العوارض البشرية الجائزة المعهودة لديه.

فالساب إن كان مسلمًا فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم.

وإن كان ذميًا فإنه يقتل أيضًا في مذهب مالك وأهل المدينة، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث، وهو المنصوص عن الشافعي نفسه كما حكاه غير واحد.

وهذا الحكم على الساب والمستهزئ، يستوي فيه الجاد والهازل بدليل قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ، لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، (فالسب المقصود بطريق الأولى)، وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جادًا أو هازلًا فقد كفر.

وقد رُوي عن رجال من أهل العلم منهم ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن

=

=

أسلم، وقتادة- دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك رجل منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ما يلتفت إليه، ولا يزيده عليه.

فهؤلاء لما تنقصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه، واستهانوا بخبره أخبر الله أنهم كفروا بذلك وإن قالوه استهزاء فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟.

ومن الأدلة على كفر الطاعن في شخص الرسول ﷺ قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا [الأحزاب: ٥٧].

واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرًا.

وفي هذه الآية قرن الله بين أذى النبي ﷺ وأذاه، كما قرن في آيات أخر بين طاعته وطاعة نبيه، وفى هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة النبي ﷺ، وليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

=

=

ومن الأدلة الواردة في السنة حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:
قال رسول الله ﷺ: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟، قال: نعم...) الحديث. فعلم من هذا الحديث أن من آذى الله ورسوله كان حقه أن يقتل كما قتل كعب بن الأشرف، والأدلة من الكتاب والسنة على هذه المسألة كثيرة ولا مجال لاستيعابها هنا.

- الإجماع: وقد أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، وكذلك حكى غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره.

وقال الإمام إسحاق بن راهوية أحد الأئمة الأعلام: (أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا مما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ، أو قتل نبيًا من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ أنه كافر بذلك وإن كان مقرًا بكل ما أنزل إليه). وقال الخطابي: (لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله). وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

ومن المعلوم أن سب النبي ﷺ تعلق به عدة حقوق:

١ - حق الله سبحانه:

من حيث كفر برسوله، وعادى أفضل أوليائه، وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى، وإنكار لكلامه، وأمره، وخبره، وكثير من صفاته.

٢- وتعلق حق جميع المؤمنين:

من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم به، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصًا أمته فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به، بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا

=

=

والآخرة بواسطته وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم، وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم، وأولادهم، وآبائهم، والناس أجمعين.

٣- وتعلق حق رسول الله ﷺ به من حيث خصوص نفسه، فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصًا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة، فإن هتك عرضه وعلو قدره قد يكون أعظم عنده من قتله، فإن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره كما أن موته لا يقدح في ذلك، بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه، وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم، ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة...

وبهذا يعلم أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في غيره من الأمور كالكفر والمحاربة.

وبما تقدم ذكره من الأدلة يتضح انتقاض إيمان من طعن في شخص الرسول ﷺ بسب، أو استهزاء، أو انتقاص سواء كان في ذلك جادًا أو هازلًا.

ويستثنى من ذلك المكره بدليل قوله تعالى: إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ [النحل: ١٠٦] فالآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهًا وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، وروى أن مما قاله أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله ما تركت حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، فقال: إن عادوا فعد) وفي ذلك أنزل الله: إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ، ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على

=

=

الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل...

القسم الثاني: من نواقض الإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الطعن فيما أخبر به الرسول لا- مما هو معلوم من الدين بالضرورة- إما بإنكاره أو انتقاصه.

فإذا اجتمعت الشروط التالية في المنكر وهي:

أ- أن يكون ذلك الأمر المنغص من الأمور التي أجمعت عليها الأمة، وأن يكون من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة: أي أن يكون علمه منتشرًا كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وعموم رسالته.

ب- أن لا يكون المنكر حديث عهد بالإسلام لا يعرف حدوده، فهذا إذا أنكر شيئًا من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة جهلًا به فإنه لا يكفر.

ج- أن لا يكون المُنكِر مكرهًا على ذلك، فإن المكره له حكم آخر كما قدمنا ذلك.

والمُنكِر في هذه الحالة يحكم بكفره وانتقاض إيمانه. والمنتقص لأمور الدين إذا كان غير مكره فإنه يكفر سواء كان جادًا في ذلك أم هازلًا.

والأمثلة على هذا القسم كثيرة جدًا نذكر منها على سبيل المثال ما يختص بجانب الإيمان برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أولًا: أن يعتقد أن غير هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون القانون الوضعي على حكم الشرع، ويصفون الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة التطور، وهذا من أعظم المناقضة لشهادة أن محمدًا رسول الله.

ثانيًا: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو عمل به فهو كافر.

=

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣).

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتهمْ عِنْد رَسُول الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ} اخْتَبَرَ {الله قُلُوبهمْ لِلتَّقْوَى} أَيْ لِتَظْهَر مِنْهُمْ {لَهُمْ مَغْفِرَة وَأَجْر عَظِيم} الجنة ونزل في قوم

=

ثالثًا: اعتقاد الإنسان أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ. ولهذا الأمر صورتان:

الأولى: أن لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول ﷺ عظيم القدر علمًا وعملًا، وأنه يجوز تصديقه وطاعته، ولكنه يقول إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدًا، ويرى أنه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، وهذا هو قول الفلاسفة الصابئة، وهذا القول لا ريب في كفر صاحبه، فمن نواقض الإسلام أن يعتقد الإنسان عدم كفر المشركين، ويرى صحة مذهبهم، أو يشك في كفرهم.

وهذا القول هو الذي ينادي به في وقتنا الحاضر من يدعون إلى وحدة الأديان، ويروج لهم في ذلك الماسونية اليهودية.

الثانية: من يرى طلب العلم بالله من غير خبره، أو العمل لله من غير أمره، وهؤلاء وإن كانوا يعتقدون أنه يجب تصديق الرسول أو تجب طاعته، لكنهم في سلوكهم العلمي والعملي غير سالكين هذا المسلك، بل يسلكون مسلكًا آخر إما من جهة القياس والنظر، وإما من جهة الذوق والوجدان، وإما من جهة التقليد، وما جاء عن الرسول إما أن يعرضوا عنه وإما أن يردوه إلى ما سلكوه.

وإضافة إلى هذه النواقض فإن الإيمان بالنبي ﷺ ينتقض أيضا بالنواقض العامة الأخرى للإسلام.

جاؤوا وَقْت الظَّهِيرَة وَالنَّبِيّ ﷺ فِي مَنْزِله فَنَادَوْهُ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن محمد بن قيس بن شماس؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ}؛ قال: قعد ثابت في الطريق يبكي، قال: فمرّ به عاصم بن عدي من بني العجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟! قال: هذه الآية أتخوّف أن تكون نزلت فيّ وأنا صيّت رفيع الصوت، قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء، قال: فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي، فشدي على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار، حتى إذا خرج عطفه؛ قال: لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ، قال: وأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: "اذهب فادعه لي"؛ فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبة، قال: فخرجا؛ فأتيا نبي الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ "ما يبكيك يا ثابت؟! "، فقال: أنا صيّت، وأتخوّف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ}، فقال له رسول الله ﷺ: "أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟ "؛ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله؛ فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٦/ ٦٢٠) من طريق زيد بن الحباب ثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه به.

وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٨٦ رقم ١٣١٦) من طريق زيد بن =

=

الحباب ثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ثني أبي ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٣٢١): "وأبو ثابت بن قيس بن شماس لم أعرفه، ولكنه قال: ثني أبي ثابت بن قيس، فالظاهر أنه صحابي؛ لكن زيد بن الحباب لم يسمع من أحد من الصحابة". وفي الطريق الأولى إسماعيل هذا؛ مجهول؛ لم يوثقه إلا ابن حبان، وروى عنه الزهريّ، وأبو ثابت هذا؛ مجهول، وانظر: "تعجيل المنفعة" (ص ٣٦- ٣٧).

وبالجملة؛ فالإسناد ضعيف.

وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٣٥٥ بسند صحيح عن الزهري قال: أخبرني إسماعيل بن محمد بن ثابت، عن أبيه: أن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله! لقد خشيت أن أكون قد هلكت، قال رسول الله ﷺ: "ولِمَ؟ "، قال: نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل وأجدني أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهر الصوت؛ فقال رسول الله ﷺ: "يا ثابت! ألا ترضى أن تعيش حميدًا؛ وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟ "، قال: بلى يا رسول الله! قال: فعاش حميدًا، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب. وهذا سند ضعيف؛ فيه إسماعيل؛ مجهول كما تقدم.

أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

قلنا: ولم يخرجا لإسماعيل ولا لأبيه.

وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" (رقم ٢٧٧٠- موارد)، وابن سعد، والدارقطني في "غرائب مالك"؛ كما في "الفتح" (٦/ ٦٢١)، والطبراني في "الكبير" (رقم ١٣١٢، ١٣١٤، ١٣١٥)، وأبو نعيم "في دلائل النبوة" (ص ٥٢٠)، و"معرفة

=

=

"الصحابة" (٣/ ٢٢١ رقم ١٣٠١)، والروياني في "المسند" (٢/ ١٧٣ رقم ١٠٠١)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (١/ ١٩٣ - هامش الإصابة) من طرق عن الزهري عن إسماعيل بن محمد بن ثابت: أن ثابت بن قيس الأنصاري؛ قال: يا رسول الله! لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: "لِمَ؟ "، قال: قد نهانا الله أن نحمد بما لم نفعل وأجدني صاحب الحمد، ونهانا الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت؛ فقال رسول الله ﷺ: "يا ثابت! ألا ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟ "، قال: بلى يا رسول الله! قال: فعاش حميدًا وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب.

وهذا سند ضعيف -أيضًا-؛ فيه علة أخرى مع جهالة إسماعيل، وهي أنه لم يدرك جده؛ فهو على هذا مرسل.

ولذلك قال البخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ٣٧١): "روى عنه الزهري؛ مرسل". اهـ.

وقال الحافظ: "وهذا مرسل قوي الإسناد"، وقال -أيضًا-: "وهو مع ذلك مرسل؛ لأن إسماعيل لم يلحق ثابتًا".

وأخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (رقم ٢٠٤٢٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٣٥٥) عن معمر عن الزهري: أن ثابت بن قيس (فذكره).

وهذا معضل.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} [الحجرات: ٣]، أي:" إن الذين يَخْفِضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها لتقواه".

قال الطبري: يقول:" هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، هم الذين

=

=

اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، يعني لاتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها".

قال ابن كثير:" ندب الله ﷻ، إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه ".

عن مجاهد، قوله: "{امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}، يقول: أخلص الله قلوبهم".

قال قتادة:" أخلص الله قلوبهم فيما أحب".

قال ابن قتيبة:" أي: أخلَصَها للتقوى".

قال سهل:" أي: أخلص نياتهم له".

قال أبو عبيدة: {امْتَحَنَ} " من: المحنة، امتحنه اصطفاه".

قال الفراء:" أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده، ويسقط خبثه".

قال الزجاج: المعنى:" اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين- كما تقول: قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة. تأويله: قد اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خلصت الذهب والفضة فعلمت حقيقة كل واحد منهما".

قال النحاس:" ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب وفي هذا، دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحًا لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى".

قال مجاهد:" كتب إلى عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا

=

=

يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل لها؟ فكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها: {أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} ".

عن أبي الدرداء قال: "لا تزال نفس أحدكم شابة من حب الشيء ولو التقت ترقوتاه من الكبر إلا الذين امتحن الله قلوبهم وقليل ما هم".

قوله تعالى: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ٣]، أي:" لهم من الله مغفرة لذنوبهم وثواب جزيل، وهو الجنة".

قال الطبري: "يقول: لهم من الله عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها لهم (وأجر عظيم) يقول: وثواب جزيل، وهو الجنة".

عن ابن جريج، في قوله: "{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، {ورِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة".

عن قتادة: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}:" مغفرة لذنوبهم".

عن قتادة:" {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً} لذنوبهم، {وَأَجْرًا عَظِيمًا} في الجنة".

وقال العثيمين: ثم أثنى الله تعالى على الذين يغضون أصواتهم عند الرسول ﷺ فقال: {إن الذين يغضون أصوتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم} لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أي يخفضونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغض، قال الله تعالى: {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} أعاد الإشارة {أولئك} تعظيمًا لشأنهم ورفعة لمنزلتهم، لأن {أولئك} من أسماء الإشارة الدالة على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بيانًا لرفعة منزلتهم وعلوها.

=

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤).

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَك مِنْ وَرَاء الْحُجُرَات} حُجُرَات نِسَائِهِ ﷺ جَمْع حُجْرَة وَهِيَ مَا يُحْجَر عَلَيْهِ مِنْ الْأَرْض بِحَائِطٍ وَنَحْوه وَكَانَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ نَادَى خَلْف حُجْرَة لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوهُ فِي أَيّ حُجْرَة مُنَادَاة الْأَعْرَاب بِغِلْظَةٍ وَجَفَاء {أَكْثَرهمْ لَا يَعْقِلُونَ} فِيمَا فَعَلُوهُ مَحَلّك الرَّفِيع وَمَا يُنَاسِبهُ مِنْ التعظيم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥).

=

{امتحن الله قلوبهم}. قال العلماء: معناها أخلصها للتقوى، فكانت قلوبهم مملوءة بتقوى الله ﷻ ولهذا تأدَّبوا بآداب الله تعالى التي وجه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: {لهم مغفرة وأجر عظيم}، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الصلاح صلاح القلب، لقوله: {امتحن الله قلوبهم للتقوى}. وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الذي هو محل القلب ثلاث مرات: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا» ولا شك أن التقوى تقوى القلب، أما تقوى الجوارح وهي إصلاح ظاهر العمل، فهذا يقع حتى من المنافقين: {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم} لكن الكلام على تقوى القلب التي هي بها الصلاح، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك. وبعض الناس يفعل المعاصي كإسبال الثوب مثلًا، أو حلق اللحية، أو شرب الدخان، وتنهاه وتخوِّفه من عقاب الله، فيقول: التقوى هاهنا، كأنه يزكي نفسه، وهو قائم بمعصية الله، فنقول له بكل سهولة: لو كان ما هنا متقيًا لكانت الجوارح متقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا} أَنَّهُمْ فِي مَحَلّ رَفْع بِالِابْتِدَاءِ وَقِيلَ فَاعِل لِفِعْل مُقَدَّر أَيْ ثَبَتَ {حَتَّى تَخْرُج إلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاَللَّه غَفُور رَحِيم} لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ وَنَزَلَ فِي الْوَلِيد بْن عُقْبَة وَقَدْ بَعَثَهُ النَّبِيّ ﷺ إلَى بَنِي الْمُصْطَلِق مُصَدِّقًا فَخَافَهُمْ لِتِرَةٍ كَانَتْ بَيْنه وَبَيْنهمْ فِي الْجَاهِلِيَّة فَرَجَعَ وَقَالَ إنَّهُمْ مَنَعُوا الصَّدَقَة وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ فَهَمَّ النَّبِيّ ﷺ بِغَزْوِهِمْ فجاؤوا مُنْكِرِينَ مَا قَالَهُ عَنْهُمْ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس: أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد! اخرج إلينا، فلم يجبه؛ فقال: يا محمد! إن حمدي زين، وإن ذمي شين؛ فقال: "ذاك الله"؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}.

أخرجه أحمد في "المسند" (٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١/ رقم ٨٧٨) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/ ٣٢١ رقم ١٥٠٠) -، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢/ ٣٨٨ رقم ١١٧٨)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢/ ٤٠٧ رقم ١٠٣٣)، وابن قانع في "معجم "الصحابة" (١/ ٦٨)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٢) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/ ٣٢٢ رقم ١٥٠١) -، وابن الأثير في "أسد الغابة" (١/ ١٣٠)، والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣ رقم ١٥٠٣) وغيرهم من طرق عن موسى بن عقبة عن أبي سلمة به.

وسنده صحيح، وصرح أبو سلمة بسماعه من الأقرع عند الطبري.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٨): "واحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلا؛ فهو مرسل".

=

=

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٢) بعد أن زاد نسبته للبغوي في "المعجم": "بسند صحيح".

وكذا قال في "لباب النقول" (ص ١٩٦).

وله شاهد من حديث البراء بن عازب بنحوه: عند الترمذي (رقم ٣٢٦٧)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٣١٩ رقم ٥٣٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧) من طريق الحسين بن واقد عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء به. وسنده ضعيف؛ لأن أبا إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعن، ثم هو مع ذلك مختلط، ولم يذكروا أن الحسين بن واقد سمع منه قبل الاختلاط.

وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

وصححه العلامة الألباني في "صحيح الترمذي" (رقم ٢٦٠٥).

وله شاهد آخر من مرسل قتادة في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}: أن رجلًا جاء النبي ﷺ فناداه من وراء الحجرات؛ فقال: يا محمد! إن مدحي زين وإن شتمي شين، فخرج إليه النبي ﷺ؛ فقال: "ويلك ذاك الله، ويلك ذاك الله"؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وله شاهد ثالث من مرسل الحسن؛ قال: أتى أعرابي إلى النبي ﷺ من وراء حجرته، فقال: يا محمد! يا محمد! فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: "ما لك ما لك؟! "، فقال: تعلم أن مدحي لزين وأن ذمي لشين؛ فقال النبي ﷺ: "ذاكم الله"؛

=

=

فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧، ٧٨): ثنا ابن حميد؛ قال: ثنا مهران عن المبارك بن فضالة عن الحسن به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن حميد؛ ضعيف الحديث واتهمه الإمام أحمد وغيره بالكذب.

الثالثة: المبارك بن فضالة؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: مهران وابن أبي عمر العطار؛ صدوق له أوهام سيئ الحفظ.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: جاء أناس من العرب إلى النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل؛ فإن يكن نبيًا؛ فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكًا؛ نعش في جناحه، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، قال: ثم جاؤوا إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد! فأنزل الله على نبيه ﷺ: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}، قال: فأخذ نبي الله بأذني فمدّها؛ فجعل يقول: "قد صدق الله قولك يا زيد! قد صدق الله قولك يا زيد! ".

أخرجه مسدد بن مسرهد وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى في "مسانيدهم"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٣٩، ٤٠ رقم ٤١٠٩، ٤١١٠)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٦٠، ١٦١ رقم ٧٨٢٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ٢١٠، ٢١١ رقم ٥١٢٣)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٨ - ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٢٣) عن المعتمر بن سليمان عن داود الطفاوي عن أبي مسلم البجلي عن زيد به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أبو مسلم البجلي؛ مجهول لم يرو عنه إلا الطفاوي، ولم يوثقه إلا ابن حبان؛ ولذلك قال الذهبي في "ميزان الاعتدال": "لا يعرف"، وفي "التقريب":

=

=

"مقبول".

الثانية: داود الطفاوي؛ ليّن الحديث؛ كما في "التقريب".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٨): "وفيه داود بن راشد الطفاوي وثّقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات!! ".

وقال البوصيري: "رواته ثقات!! ".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٩٥)، و"الدر المنثور" (٧/ ٥٥٢): "بسند حسن!! ".

وعن حبيب بن أبي عمرة؛ قال: كان بشر بن غالب ولبيد بن عطارد أو بشر بن عطارد ولبيد بن غالب وهما عند الحجاج جالسان، يقول بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}؛ فذكرت ذلك لسعيد بن جبير؛ فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية؛ أجابه: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، قالوا: أسلمنا ولم يقاتلك بنو أسد.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧): ثنا ابن حميد قال: ثنا مهران عن سفيان عن حبيب به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: مهران؛ سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ متروك الحديث، متهم بالكذب.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) وزاد نسبته لابن المنذر.

وعن سعيد بن جبير: أن تميمًا ورجلًا من بني أسد بن خزيمة استبا؛ فقال الأسدي: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)} أعراب بني تميم، فقال سعيد: لو كان التميمي فقيهًا؛ إن أولها في بني تميم، وآخرها في بني أسد.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣)، وقال: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج؛ قال: أخبرت عن سعيد بن جبير به. وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، وجهالة المخبر لابن جريج.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: قال رجل من بني أسد لرجل من بني تميم -وتلا هذه الآية-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}: بني تميم {لَا يَعْقِلُونَ}، فلما قام التميمي وذهب؛ قال سعيد بن جبير: أما إن التميمي لو يعلم ما أنزل في بني أسد؛ لتكلم، قلنا: ما أنزل فيهم؟ قال: جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أسلمنا طائعين وإن لنا خلقًا؛ فأنزل الله ﷻ: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن مجاهد؛ قال: هم أعراب بني تميم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ١٩٥ رقم ١٥١٦) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قدم وفد بني تميم -وهم سبعون رجلًا، أو ثمانون رجلًا؛ منهم: الزبرقان بن بدر، وعطارد بن معبد وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث، وعمرو بن أهتم- المدينة على رسول الله ﷺ، فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سدة، حتى أتوا منزل رسول الله ﷺ، فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف: يا محمد! اخرج إلينا، يا محمد! اخرج إلينا، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! إن مدحنا زين وإن شتمنا شين، نحن أكرم العرب؛ فقال رسول الله ﷺ: "كذبتم؛ بل مدحة الله الزين،

=

وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"، فقالوا: إنا أتيناك لنفاخرك (فذكره بطوله)، وقال في آخره: فقام التميميون فقالوا: والله؛ إن هذا الرجل لمصنوع له، لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا، وقال شاعره فكان أشعر من شاعرنا، قال: ففيهم أنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ} من بني تميم {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، قال: هذا كان في القراءة الأولى، {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٤) ونسبه لابن إسحاق وابن مردويه.

ثم رأينا سنده في كتاب الزيلعي: "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٣٠، ٣٣١)؛ فقد أخرجه ابن مردويه في "تفسيره" من طريق ابن إسحاق: ثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. والكلبي كذاب ونحوه شيخه أبو صالح.

وعن جابر بن عبد الله؛ قال: جاء بنو تميم إلى النبي ﷺ، فنادوا على الباب: يا محمد! اخرج إلينا؛ فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فسمعهم النبي ﷺ؛ فخرج عليهم وهو يقول: "إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين"، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال رسول الله ﷺ: "ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا"، فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم: قم فاذكر فضلك وفضل قومك، فقام فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانا أموالًا نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير الأرض ومن أكثرهم عدة ومالًا وسلاحًا، فمن أنكر علينا قولنا؛ فليأت بقول هو أحسن من قولنا، وفعال هي خير من فعالنا، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: "قم فأجب"، فقام فقال: الحمد لله؛ أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، دعا المهاجرين والأنصار من بني عمه -أحسن الناس وجوهًا وأعظمهم أحلامًا- فأجابوا، فالحمد لله الذي =

=

جعلنا أنصاره ووزراء رسوله وعزًا لدينه، فنحن نقاتل الناس؛ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها؛ منع نفسه وماله، ومن أباها؛ قتلناه، وكان رغمه من الله تعالى علينا هينًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم: قم يا فلان! فقل أبياتًا تذكر فيها فضلك وفضل قومك، فقام الشاب فقال:

نحن الكرام فلا حي يفاخرنا ... فينا الرؤوس وفينا يقسم الربع

ونطعم الناس عند القحط كلهم ... من السديف إذا لم يؤنس القزع

إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت، فانطلق إليه الرسول، فقال: وما يريد مني وقد كنت عنده؟ قال: جاءت بنو تميم بشاعرهم وخطيبهم، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم، فأرسل إليك تجيبه؛ فجاء حسان، فأمره رسول الله ﷺ أن يجيبه، فقال حسان:

نصرنا رسول الله والدين عفوة ... على رغم سار من معد وحاضر

ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى ... إذا طاب ورد الموت بين العساكر

ونضرب هام الدارعين ونتمي ... إلى حسب من جرم غسان قاهر

فلولا حياء الله قلنا تكرمًا ... على الناس بالحقين هل من منافر

فأحياؤنا من خير من وطئ الحصى ... وأمواتنا من خير أهل المقابر

قال: فقام الأقرع بن حابس؛ فقال: إني والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء، وقد قلت شعرًا فأسمعه، فقال: "هات"، فقال:

أتيناك كما يعرف الناس فضلنا ... إذا فاخرونا عند ذكر المكارم

وإنا رؤوس الناس من كل معشر ... وأن ليس في أرض الحجاز كوارم

وإن لنا المرباع في كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم

=

=

فقال رسول الله ﷺ: "قم يا حسان! فأجب"؛ فقال:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالًا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى ... ردافتنا من بعد ذكر الأكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلو الله ندًا وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبي بدارم

وإلا ورب البيت مالت أكفنا ... على هامكم بالمرهفات الصوارم

قال: فقام الأقرع بن حابس فقال: إن محمدًا المولى، إنه والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولًا، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر، ثم دنا من النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: "ما نصرك ما كان قبل هذا"، ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ، وأنزل الله هذه الآية: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} إلى قوله: {وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٩- ٢٦١)، والثعلبي في "تفسيره" (٩/ ٧٣- ٧٥) من طريق معلى بن عبد الرحمن ثنا عبد الحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر به.

ومعلى هذا؛ رافضي خبيث متهم بالوضع.

وعن الزهري وسعيد بن عمرو؛ قالا: بعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان -ويقال: النحام العدوي- على صدقات بني كعب من خزاعة، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة؛ فاستنكر ذلك بنو تميم، وأبوْا، وابتدروا القسي، وشهروا السيوف، فقدم المصدق على النبي ﷺ؛ فأخبره؛ فقال: "من لهؤلاء القوم؟ "، فانتدب لهم عيينة بن بدر

=

الفزاري، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارسًا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فأغار عليهم منهم؛ فأخذ أحد عشر رجلًا، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًا، فجلبهم إلى المدينة، فقدم فيهم عدة من رؤساء بني تميم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، والأقرع بن حابس، ورياح بن الحارث، وعمرو بن الأهتم.
ويقال: كانوا تسعين أو ثمانين رجلًا، فدخلوا المسجد وقد أذّن بلال بالظهر، والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فعجلوا واستبطؤوه فنادوه: يا محمد! اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ وأقام بلال، فصلى رسول الله ﷺ الظهر ثم أتوه، فقال الأقرع: يا محمد! ائذن لي؛ فوالله إن مدحي لزين وإن ذمي لشين، فقال له رسول الله ﷺ: "كذبت؛ ذلك الله تبارك وتعالى"، ثم خرج رسول الله ﷺ فجلس، وخطب خطيبهم وهو عطارد بن حاجب، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: "أجبه"؛ فأجابه، ثم قالوا: يا محمد! ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: "أجبه"؛ فأجابه بمثل شعره، فقالوا: والله؛ لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولهم أحلم منا، ونزل فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}، وقال رسول الله ﷺ في قيس بن عاصم: "هذا سيد أهل الوبر"، وردّ عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسبي، وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد.
أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (١/ ٢٩٣، ٢٩٤): نا محمد بن عمر الواقدي نا محمد بن عبد الله عن الزهري، وثنا عبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو به. والواقدي؛ متروك.
* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ} [الحجرات: ٤]، أي:"

=

إن الذين ينادونك -أيها النبي- من وراء حجراتك بصوت مرتفع".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن الذين ينادونك يا محمد من وراء حجراتك، والحجرات: جمع حجرة".

قال مجاهد:" يعني: أعرابا من بني تميم".

قال ابن قتيبة:" هو رجل واحد ناداه: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج إليه النبي، ﷺ، فقال: «ويلك، ذاك الله جل وعز». ونزلت الآية".

قال البراء:" جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين، فقال: «ذاك الله تبارك وتعالى» ".

ويقرأ: «حُجَرات»، بفتح الجيم: استثقالا للضمتين. وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع.

قوله تعالى: {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤]، أي:" أكثرهم ليس لهم من العقل ما يحملهم على حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، وتوقيره".

قال الطبري:" يقول: أكثرهم جهال بدين الله، واللازم لهم من حقك وتعظيمك".

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «وأكثرهم بنو تميم لا يعقلون».

عن الحسن البصري -من طريق حُريث بن السائب- قال: "كنت أدخل بيوت أزواج النبيِّ- ﷺ- في خِلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقفها بيدي".

عن عطاء الخُراسانيّ، قال: "أدركت حُجَر أزواج رسول الله- ﷺ- مِن جَريد النَّخل، على أبوابها المُسُوح مِن شَعر أسود، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ؛ يأمر بإدخال حُجَر أزواج رسول الله- ﷺ- في مسجد رسول الله- ﷺ -، فما رأيتُ يومًا أكثر باكيًا مِن ذلك اليوم. فسمعتُ سعيد بن المسيّب يقول يومئذ: واللهِ، لوددِتُ أنّهم تركوها على حالها، ينشأ ناسٌ مِن أهل المدينة، ويقدم القادم مِن أهل الأُفُق فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته، فيكون ذلك مما يُزَهِّد الناسَ

=

=

في التكاثر والتفاخر فيها، يومئذ أبو أُمامة بن سهل بن حنيف: لَيْتها تُرِكَتْ فلم تُهدم حتى يُقْصِر الناس عن البناء، ويرون ما رضي الله لنبيّه، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده".

وقال العثيمين: هذه الآية تشير إلى قوم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان معهم قوم جُفاة لا يقدرون الأمور قدرها، فجعلوا ينادون النبي ﷺ من وراء حجراته- أي حجرات نسائه- ويرفعون أصواتهم بذلك يريدون أن يخرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليهم، يقول الله في هؤلاء: {أكثرهم لا يعقلون} يعني ليس عندهم عقل، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لأن العقل عقلان: عقل رشد، وعقل تكليف، فأما عقل الرشد فضده السفه، وأما عقل التكليف فضده الجنون، فمثلًا: إذا قلنا: يشترط لصحة الوضوء أن يكون المتوضىء عاقلًا مميزًا، فالمراد بالعقل هنا عقل التكليف، وإذا قلنا: يشترط للتصرف في المال أن يكون المتصرف عاقلًا، أي عقل رشد، يحسن التصرف، فالمراد بقوله هنا: {أكثرهم لا يعقلون} أي عقل رشد؛ لأنهم لو كانوا لا يعقلون عقل تكليف لم يكن عليهم لوم ولا ذم، لأن المجنون فاقد العقل لا يلحقه لوم ولا ذم، وهذا واضح، وقوله: {أكثرهم لا يعقلون} يفهم منه أن بعضهم يعقل وأنه لم يحصل منه رفع صوت، بل هو متأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال الطبري: يقول: "ولو أن هؤلاء الذين ينادونك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيرا لهم عند الله، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله عنه".

قال الحسن:" ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم، فعظّموك ووقّروك؛ لكان لهم خيرًا".

=

=

قال مقاتل:" يعني: بالخير، لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لأطلقتهم مِن غير فداء".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ٥]، أي:" والله غفور لما صدر عنهم جهلا منهم من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة".

قال الطبري: يقول:" الله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصية الله بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك، وفي غيره؛ رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه".

قال مقاتل:" {واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لقولهم: يا محمد، ألا تخرج إلينا".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

وقال العثيمين: ثم قال تعالى: {ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم} أي لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم من بيتك، وتكلمهم بما يريدون لكان خيرًا لهم في أنهم يلتزمون الأدب مع النبي ﷺ وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يأته أحد في حاجة إلا قضاها، إذا كان يدركها، وهو أحق الناس بقول الشاعر:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

{والله غفور رحيم} في قوله: {والله غفور رحيم} إشارة إلى أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه- جل وعلا- أنه يغفر ويرحم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الله لا يغفر الشرك به، ويغفر ما دون ذلك، أي سوى الشرك لمن يشاء، فكل أحد أذنب ذنبًا دون الشرك مهما عظم فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ما لم يتب، فإذا تاب فلا عذاب، لقوله تعالى: {والذين لا يدعون

=

=

مع الله إلها ءاخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا}.
وقلنا: إن الآية تدل على أن الله غفر لهم ورحمهم؛ لأن الله ختم الآية بقوله: {والله غفور رحيم} وهذا يدل على أنه غفر لهم ورحمهم، ولذلك قال العلماء في قول الله تعالى في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، قال: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأَرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأَرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الأَخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم}.
أخذ العلماء من هذه الآية أن هؤلاء المفسدين المحاربين لله ورسوله، إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم العذاب، واستدلوا بأن الله ختم الآية بقوله: {فاعلموا أن الله غفور رحيم} أي قد غفر لهم فرحمهم، وهذه مسألة ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها في الآيات، إن ختم الآية بعد ذكر الحكم دليل على ما تقتضيه هذه الأسماء التي ختمت بها الآية، ولهذا قرأ رجل فقال: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم} فسمعه أعرابي عنده فقال له: أعد الآية، فأعادها وقال: {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم} قال له: أعد الآية، فأعادها فقال: ... {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله عزيز حكيم} فقال: الآن أصبت، ثم علل فقال: لأنه لو غفر ورحم ما قطع، ولا تتناسب المغفرة والرحمة مع القطع، لكنه عز وحكم فقطع، فتأمل هذا الفهم فإنه مفيد جدًّا، والشاهد من هذا أن قوله تعالى: {ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِق بِنَبَإٍ} خَبَر {فَتَبَيَّنُوا} صِدْقه مِنْ كَذِبه وَفِي قِرَاءَة فَتَثَبَّتُوا مِنْ الثَّبَات {أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا} مَفْعُول لَهُ أَيْ خَشْيَة ذَلِكَ {بِجَهَالَةٍ} حَال مِنْ الْفَاعِل أَيْ جَاهِلِينَ {فَتُصْبِحُوا} تَصِيرُوا {عَلَى مَا فَعَلْتُمْ} مِنْ الْخَطَأ بِالْقَوْم {نَادِمِينَ} وَأَرْسَلَ ﷺ إِلَيْهِمْ بَعْد عَوْدهمْ إِلَى بِلَادهمْ خَالِدًا فَلَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلَّا الطَّاعَة وَالْخَيْر فَأَخْبَرَ النَّبِيّ بذلك[1].

=

لكان خيرًا لهم والله غفور رحيم} يدل على أن الله غفر لهم ورحمهم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحارث بن ضرار الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت في الإسلام وأقررت، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، فقلت: يا رسول الله! أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي؛ جمعت زكاته، فيرسل إليّ رسولُ الله ﷺ رسولًا لإبّانِ كذا وكذا لآتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث بن ضرار، وبلغ الأبّان الذي أراد أن يبعث إليه رسول الله ﷺ؛ احتبس عليه الرسول، فلم يأته؛ فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد كان وقت لي وقتًا؛ ليرسل إليّ ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ خلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق؛ فرق فرجع، فقال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي؛ فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى

=

=

الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة، فلقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فرجع إليه، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته ولا أتاني، فلما أن دخل الحارث على رسول الله ﷺ؛ قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ "، قال: لا، والذي بعثك ما رأيت رسولك ولا أتاني، ولا أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولك؛ خشية أن يكون سخط من الله ورسوله، قال: فنزلت فيّ الحجرات: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)} إلى قوله تعالى: {فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)}.

أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، والبخاري في التاريخ الأوسط (١/ ١٩٣ رقم ٣١٨)، وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (٢/ ٦٨)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤ رقم ٣٣٩٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٥٣)، وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ١٧٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٢، ٢٦٣)، وابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٦/ ١٦٦ و ١٦٦- ١٦٧) وغيرهم، والحديث ضعفه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٢٧١- ٢٧٢)، وضعفه القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" (ص ١٠٢) بقوله: وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت في ذلك -أي في شأن الوليد. وقيل: في علي والوليد في قصة أخرى- وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح روءسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع ﷺ من مسه، فمن يكون في مثل هذه السنن يرسل مصدقا، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل هذا

=

=

الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ، وهذا الحديث الذي ذكره ابن العربي (إن الوليد سيق يوم الفتح في جملة الصبيان... الحديث) ضعفه المعلمي في الأنوار الكاشفة (٢٨٩)، وقد حسن الحديث بعض أهل العلم بشواهده قال ابن عبد البر في "الاستيعاب (٣/ ٦٣٢): ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عزوجل (إن جاءكم فاسق بنبأ) نزلت في الوليد بن عقبة، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند (٣٠/ ٤٠٥): حسن بشواهده دون قصة إسلام الحارث بن ضرار، وهذا إسناد ضعيف لجهالة دينار والد عيسى، وهو الكوفي مولى عمرو بن الحارث، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه عيسى، وقال ابن المديني: لا أعرفه، ومع ذلك ذكره ابن حبان في "الثقات" ٤/ ٢١٨. عيسى بن دينار ثقة، ومحمد بن سابق صدوق، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦١): طرقه فيها مقال، ولكن له شواهد يحسن بها.

وعن أم سلمة رضي الله عنها؛ قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلًا في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة، فسمع بذلك القوم؛ فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قال: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون، قال: فبلغ القوم رجوعه، قال: فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلًا مصدقًا فسررنا بذلك وقرّت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق؛ فخشينا أن يكون ذلك غضبًا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن بصلاة العصر، قال: ونزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)}.

أخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٣٢)،

=

=

و"المطالب العالية" (٩/ ٤٠ رقم ٤١١١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٣/ ٣٢٦ رقم ٩٦٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة. وهذا سند ضعيف؛ مداره على موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وبه أعله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١١)، وثابت لم يوثقه إلا ابن حبان (٤/ ٩٥) وقال: "روى عنه أهل المدينة"؛ فمثله يكون في عداد المجهول -والله أعلم-.

وقال الحافظ في "الكاف الشاف" (ص ١٥٦ رقم ١٨٠): "وفيه موسى بن عبيدة؛ وهو ضعيف".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٦) وزاد نسبته لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ} الآية؛ قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط ثم أحد بني عمرو بن أمية ثم أحد بني أبي معيط إلى بني المصطلق؛ ليأخذ منهم الصدقات، وإنه لما أتاهم الخبر؛ فرحوا، وخرجوا ليتلقوا رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه؛ رجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة؛ فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم؛ أتاه الوفد، فقالوا: يا رسول الله! إنا حُدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن يكون رده كتاب جاءه منك؛ لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ الله من غضبه وغضب رسوله؛ فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٩/ ٥٤، ٥٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٦)، وابن

=

=

عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٧) كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٦).
وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.
وعن علقمة بن ناجية؛ قال: بعث إلينا رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا، فسار حتى إذا كان قريبًا منا -وذلك بعد وقعة المريسيع-؛ رجع؛ فركبنا في أثره، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أتيت قومًا في جاهليتهم أخذوا اللباس ومنعوا الصدقة، فلم يغير ذلك النبي ﷺ حتى نزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)}، وأتى المصطلقون النبي ﷺ إثر الوليد بطائفة من صدقاتهم يسوقونها، ونفقات يحملونها، فذكروا ذلك له، وأنهم يطلبون الوليد بصدقاتهم فلم يجدوه، فدفعوا إلى رسول الله ﷺ ما كان معهم، وقالوا: يا رسول الله! بلغنا مخرج رسولك فسررنا، وقلنا: نتلقاه، فبلغنا رجعته؛ فخفنا أن يكون ذلك من سخطه علينا، وعرضوا على النبي ﷺ أن يشتروا منه ما بقي، فقبل منهم الفرائض، وقال: "ارجعوا بنفقاتكم لا نبيع شيئًا من الصدقات حتى نقبضه"، فرجعوا إلى أهليهم، وبعث إليهم من يقبض بقية صدقاتهم.
أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٨/ ٦- ٧ رقم ٤)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٤/ ٣٠٩، ٣١٠ رقم ٢٣٣٥) -ومن طريقه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٤/ ٢١٧٥ رقم ٥٤٥٣)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٣/ ٥٨٥)-، وابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٦) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٨)-، والهيثم

=

=

بن كليب في "مسنده" -ومن طريقه ابن عساكر (٦٦/ ١٦٨)- عن يعقوب بن حميد بن كاسب نا عيسى بن الحضرمي بن كلثوم بن علقمة بن ناجية عن جده عن أبيه به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٠): "رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور!! وبقية رجاله ثقات".

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني وليعة، وكانت بينهم شحناء في الجاهلية، فلما بلغ بني وليعة استقبلوه؛ لينظروا ما في نفسه، فخشي القوم، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني وليعة أرادوا قتلي ومنعوني الصدقة، فلما بلغ بني وليعة الذي قال الوليد عند رسول الله ﷺ؛ أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! لقد كذب الوليد، ولكن كانت بيننا وبينه شحناء؛ فخشينا أن يعاقبنا بالذي كان بيننا، فقال رسول الله ﷺ: "لينتهين بنو وليعة أو لأبعثن إليهم رجلًا عندي كنفسي، يقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم وهو هذا"، ثم ضرب بيده على كتف علي بن أبي طالب، قال: وأنزل الله في الوليد: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم "الأوسط" (٤/ ١٣٣، ١٣٤ رقم ٣٧٩٧)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الفتح السماوي" (٣/ ١٠٠٢) من طريق عبد الله بن عبد القدوس ثنا الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

=

=

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الأعمش؛ مدلس وقد عنعنه.

الثانية: عبد الله بن عبد القدوس؛ ضعيف.

وعن مجاهد في قوله تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ}؛ قال: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه نبي الله ﷺ إلى بني المصطلق؛ ليصدقهم؛ فتلقوه بالهدية، فرجع إلى محمد ﷺ، فقال: إن بني المصطلق جمعت لتقاتلك.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٨، ٧٩)، وآدم بن إياس؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٧) -ومن طريقه البيهقي في "السنن الكبرى" (٩/ ٥٥) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٩)- من طرق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن قتادة في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)} وهو ابن أبي معيط الوليد بن عقبة، بعثه نبي الله ﷺ مصدقًا إلى بني المصطلق، فلما أبصروه؛ أقبلوا نحوه، فهابهم؛ فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه فلما جاؤوا؛ أخبروا خالدًا أنهم مستمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا؛ أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى نبي الله ﷺ، فأخبره الخبر؛ فأنزل الله ﷻ ما تسمعون، فكان نبي الله يقول: "التبين من الله والعجلة من الشيطان".

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٩)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٩) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

=

=

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وعن الحسن: أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله! إن بني فلان -حيًا من أحياء العرب، وكان في نفسه عليهم شيء، وكانوا حديثي عهد بالإسلام- قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله، قال: فلم يعجل رسول الله ﷺ، ودعا خالد بن الوليد، فبعثه إليهم، ثم قال: "ارمقهم عند الصلاة، فإن كان القوم قد تركوا الصلاة؛ فشأنك بهم، وإلا؛ فلا تعجل عليهم"، قال: فدنا منهم عند غروب الشمس، فكمن حيث سمع الصلاة، فرمقهم؛ فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس، فأذن ثم أقام الصلاة، فصلوا المغرب؛ فقال خالد بن الوليد: ما أراهم إلا يصلون، فلعلهم تركوا غير هذه الصلاة، ثم كمن حتى إذا جن الليل وغاب الشفق أذن مؤذنهم فصلوا، قالوا: فلعلهم تركوا صلاة أخرى، فكمن، حتى إذا كان في جوف الليل فتقدم حتى أظل الخيل بدورهم؛ فإذا القوم تعلموا شيئًا من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرأونه، ثم أتاهم عند الصبح؛ فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن ثم أقام فقاموا فصلوا، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار؛ إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: هذا خالد بن الوليد، وكان رجلًا مشنعًا، فقالوا: يا خالد! ما شأنك؟ قال: أنتم والله شأني، أتي رسول الله ﷺ؛ فقيل له: إنكم كفرتم بالله وتركتم الصلاة؛ فجعلوا يبكون، فقالوا: نعوذ بالله أن نكفر بالله أبدًا، قال: فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى رسول الله ﷺ، وأنزل الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا}؛ قال الحسن: فوالله؛ لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها المرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٧- ٥٥٨) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

=

=

وعن عكرمة: أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يصدقهم، فلم يبلغهم ورجع، فقال لرسول الله ﷺ: إنهم عصوا، فأراد رسول الله ﷺ أن يجهز إليهم؛ إذ جاء رجل من بني المصطلق، فقال لرسول الله ﷺ: سمعنا أنك أرسلت إلينا؛ ففرحنا به واستبشرنا به، وإنه لم يبلغنا رسولك، وكذب؛ فأنزل الله فيه -وسماه فاسقًا-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٨) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قال ابن كثير:" قد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق.

قلت وهو حسن بمجموع هذه الطرق.

قال الفخر الرازي:"ما ذكره المفسرون من أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة حين بعثه إلى بني المصطلق، إنْ كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت من خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهو ضعيف، لأن الوليد لم يقصد الإساءة إليهم، وحديث أحمد يدل على أن الوليد خاف وفرق (فزع) حين رأى جماعة الحارث، فظن أنها خرجت لحربه، فرجع وأخبر رسول الله ﷺ بما أخبره ظنًا منه أنهم خرجوا لقتاله، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ "الفسق" على الوليد شيء بعيد، لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا".

وقال الزرقاني:"ولا يُشْكَل تسميته فاسقا بإخباره عنهم بذلك على ظنه للعداوة ورؤية السيوف، وذلك لا يقتضي الفسق، لأن المراد الفسق اللغوي، وهو الخروج =

=

عن الطاعة، وسماه فاسقًا لإخباره بخلاف الواقع على المبعوث إليهم، لا الشرعي الذي هو من ارتكب كبيرة أو أصر على صغيرة، لعدالة الصحابة".

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن جاءكم فاسق بخبر فتثبَّتوا من خبره قبل تصديقه ونقله حتى تعرفوا صحته".

قال الطبري: يقول:" يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله {إن جاءكم فاسق بنبإ} عن قوم {فتبينوا} ".

قال سهل:" باطنها تأديب من بلغه ذمّه من أحد بأن لا يعجل بعقوبته ما لم يتعرف ذلك من نفسه".

قال السمعاني:" الفاسق -هاهنا-: هو الكذاب. وأما في اللغة: فهو الخارج عن طاعة الله".

قال الضحاك:" إذا جاءك فحدّثك أنّ فلانًا، أنّ فلانة، يعملون كذا وكذا مِن مساوئ الأعمال، فلا تصدّقه".

عن عبد الرحمن بن إسحاق، قال: "شهدت سالم [بن عبد الله بن عمر]، والقاسم [بن محمد بن أبي بكر] وسألهما أميرُ المدينة عن رجل قال لرجل: يا فاسق؟ فقرأ هذه الآية: {إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} وقالا: الفاسق: الكذّاب، يُعزَّر أسواطًا".

و «الفسق» لغة: الخروج عن الشيء، أو القصد، وهو الخروج عن الطاعة، والفسق: الفجور، والعرب تقول: إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها، وفسق فلان في الدنيا فسقًا: إذا اتسع فيها، وهوّن على نفسه، واتسع بركونها لها، لم يضيّقها عليه، ورجل فاسق، وفسيق وفُسَق: دائم الفِسْق، والفويسقة الفأرة: تصغر فاسقة، لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها، والتفسيق ضدّ التّعديل.

=

=

وأما المقصود بالفسق اصطلاحًا: فقد تنوعت عبارات العلماء في ذلك، على النحو الآتي:

أولا: أن 'الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله - ﷻ - فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان". قاله ابن عطية، والطبري، والقرطبي، واختاره الشوكاني، قائلا: "وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض".

وقد روي "عن ابن عباس في قوله: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة البقرة: ٥٩]، أي بما بعُدوا عن أمري".

الثاني: أن الفاسق: هو الخارج عن الطاعة. تقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جُحْرها للفساد. قاله ابن كثير.

وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور".

الثالث: أن" الفاسق الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة". قاله البيضاوي.

الرابع: أن "الفسق شرعًا: خروج العقلاء عن الطاعة، فيشمل الكفر ودونه من الكبيرة والصغيرة، واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة، فلا يطلق على ارتكاب الآخرين إلا نادرًا بقرينة". قاله الألوسي.

فيتبيّن من التعريفات السابقة: عموم مصطلح الفسق، إذ هو في الأصل- أعمّ من الكفر- حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، ولكن خصّه العرف بمرتكب الكبيرة، ولذا يقول الراغب الأصفهاني: "والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، ولكن تعورف فيما كان كثيرًا".

قراءة حمزة والكسائي وخلف «فتثبتوا»، وقراءة الباقين: «فتبينوا».

=

=

قوله تعالى: {أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات: ٦]، أي:" لئلا تصيبوا قومًا برآء بجناية منكم".

قال الطبري: يقول:"فتبينوا لئلا تصيبوا قوما برآء مما قذفوا به بجناية بجهالة منكم".

قال الزجاج:" أي: كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة، وهذا دليل أنه لا يجوز أن يقبل خبر من فاسق إلا أن يتبين وأن الثقة يجوز قبول خبره. والثقة من لم تجرب عليه شهادة زور ولا يعرف بفسق ولا جلد في حد، وهو مع ذلك صحيح التمييز".

قال الشوكاني:" أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا، لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة، لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: متلبسين بجهالة بحالهم".

قال السمعاني:" معنى الإصابة -هاهنا-: هو الإصابة من الدم والمال بالقتل والأسر والاغتنام".

قوله تعالى: {فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦]، أي:" فتصيروا نادمين على صنيعكم".

قال الطبري: "يقول: فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها".

قال الشوكاني: أي: "فتصبحوا على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ نادمين على ذلك مغتمين له مهتمين به".

قال السمعاني:" أي: تصيروا نادمين على فعلكم، وليس المراد منه الإصباح للذي هو ضد الإمساء".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} تقدم الكلام على قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} : {إن جاءكم فاسق} الفاسق هو من انحرف في دينه وعقيدته ومروءته، وضده العدل وهو من استقام في دينه ومروءته،

=

=

فإذا جاءنا فاسق منحرف في دينه ومروءته بمعنى أنه مصر على المعاصي تارك للواجبات، لكنه لم يصل إلى حد الكفر، أو منحرف في مروءته لا يبالي بنفسه يمشي بين الناس مشية الهوجاء، ويتحدث برفع صوت، ويأتي معه بأغراض بيته، يطوف بها في الأسواق وما أشبه ذلك مما يخالف المروءة، فهذا عند العلماء ليس بعدل. {إن جاءكم فاسق بنبإ} أي جاءكم بخبر من الأخبار، وهو فاسق، مثال ذلك: جاءنا رجل حالق للحيته، وحالق اللحية فاسق، لأنه مصر على معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أعفوا اللحى». وهذا لم يعف لحيته، بل حلقها، فهذا الرجل من الفاسقين؛ لأنه مصر على معصية، جاءنا بخبر فلا نقبله لما عنده من الفسق، ولا نرده لاحتمال أن يكون صادقًا، ولهذا قال الله ﷻ: {فتبينوا} ولم يقل فردوه، ولم يقل فاقبلوه، بل يجب علينا أن نتبين، وفي قراءة (فتثبتوا) وهما بمعنى متقارب، والمعنى: أن نتثبت.

فإذا قال قائل: إذن لا فائدة من خبره.

قلنا: لا بل في خبره فائدة، وهو أنه يحرك النفس حتى نسأل ونبحث؛ لأنه لولا خبره ما حركنا ساكنًا، لكن لما جاء بالخبر نقول: لعله كان صادقًا، فنتحرك ونسأل ونبحث، فإن شهد له الواقع بالحق قبلناه لوجود القرينة الدالة على صدقه، وإلا رددناه، وقوله سبحانه وتعالى: {إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} يفيد أنه إن جاءنا عدل فإننا نقبل الخبر، لكن هذا فيه عند العلماء تفصيل، دل عليه القرآن والسنة، فمثلًا الشهادة بالزنا: لو جاءنا رجل عدل في دينه، مستقيم في مروءته، وشهد أن فلانًا زنا فلا نقبل شهادته، وإن كان عدلًا، بل نجلده ثمانين جلدة؛ لأنه قذف هذا الرجل البريء بالزنا، وقد قال الله تعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً}، فنجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة أبدًا، ونحكم بأنه فاسق، وإن كان عدلًا حتى يتوب، وإذا شهد رجلان عدلان على

=

=

زيد أنه زنا فلا نقبل شهادتهما، ولا ثلاثة، فإذا كانوا أربعة عدول فنعم؛ لأن الله تعالى قال: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدًا وأولئك هم الفاسقون}.

وقال تعالى: {لولا جاءو عليه بأربعة شهداء} {فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} حتى وإن كانوا صادقين، فلو جاءنا ثلاثة نعرف أنهم ثقات عدول وشهدوا بالزنا على شخص فهم عند الله كاذبون غير مقبولين، نجلد كل واحد ثمانين جلدة، وإذا جاءنا رجل شهد على شخص بأنه سرق فلا نقبل شهادته، بل لابد من رجلين، وإذا جاءنا رجل شهد بأنه رأى هلال رمضان فنقبل شهادته، لأن السنة وردت بذلك، فقد قال عبد الله بن عمر ﵄: تراءى الناس الهلال- يعني ليلة الثلاثين من شعبان- فرأيته فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بالصيام، وإذا كان رجل غنيًّا ثم أصيب بجائحة ثم جاء يسأل الزكاة، وأتى بشاهد أنه كان غنيًّا وأصابته جائحة وافتقر فلا نقبل شهادة الواحد، ولا نقبل شهادة اثنين، بل لابد من ثلاثة، لأن النبي ﷺ قال لقبيصة: «إنها لا تحل المسألة» وذكر منها رجل أصابته جائحة- يعني اجتاحت ماله- فشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: إن فلانًا قد أصابته جائحة فحلت له المسألة

(ثلاثة من ذوي الحجا) يعني من ذوي العقل، وكذلك نقبل رجلًا مع يمين المدعي كما لو ادعى شخص على آخر بأنه يطلبه ألف ريال، فقلنا للمدعي: هات بينة، قال: عندي رجل واحد، فإذا أتى برجل واحد وحلف معه، حكمنا له بما ادعاه وهناك أشياء أيضًا لا يتسع المجال لذكرها، وعلى هذا فخبر العدل فيه تفصيل على ما تقدم وخبر الفاسق يتوقف فيه حتى يتبين الأمر، ثم بين الله ﷿ الحكمة من كوننا نتبين بخبر الفاسق فقال: {أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} يعني أمرناكم أن تتثبتوا كراهة أن تصيبوا قومًا بجهالة؛ لأن

=

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ

=

الإنسان إذا تسرع ولم يتثبت فقد يعتدي على غيره بناءً على الخبر الذي سمعه من الفاسق، وقد يكرهه، وقد يتحدث فيه في المجالس، فيصبح بعد أن يتبين أن خبر الفاسق كذب نادمًا على ما جرى منه، وفي هذه الآية دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل من الأخبار ولا سيما مع الهوى والتعصب، فإذا جاءك خبر عن شخص وأنت لم تثق بقول المخبر فيجب أن تتثبت، وألا تتسرع في الحكم؛ لأنك ربما تتسرع وتبني على هذا الخبر الكاذب فتندم فيما بعد، ومن ثم جاء التحذير من النميمة، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يدخل الجنة قتَّات» أي نمَّام، وصح عنه ﷺ أنه مر بقبرين يُعذبان، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير»- أي في أمر شاق عليهما- «أما أحدهما فكان لا يستتر من البول»، أو لا يستبرىء أو لا يستنزه من البول «وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» يمشي بين الناس ينمّ الحديث إلى الآخرين ليفسد بين الناس، ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين وغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله، لـمَ فعلت هذا؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». ومن هذا النوع ما ينسب إلى بعض العلماء من الفتاوى التي لم يتكلم بها إطلاقًا، أو تكلم ولكن فُهِمَ ما ينقل عنه خطأ، فإن بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة على غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالًا يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب على حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نسبت إلى علماء أجلاء، لم يكن لها أصل؛ لهذا يجب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى.

حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧).

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُول الله} فَلَا تَقُولُوا الْبَاطِل فَإِنَّ الله يُخْبِرهُ بِالْحَالِ {لَوْ يُطِيعكُمْ فِي كَثِير مِنَ الْأَمْر} الَّذِي تُخْبِرُونَ بِهِ عَلَى خِلَاف الْوَاقِع فَيُرَتِّب عَلَى ذَلِكَ مُقْتَضَاهُ {لَعَنِتُّمْ} لَأَثِمْتُمْ دُونه إِثْم التَّسَبُّب إِلَى الْمُرَتَّب {وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَان وَزَيَّنَهُ} حَسَّنَهُ {فِي قُلُوبكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْر وَالْفُسُوق وَالْعِصْيَان} اسْتِدْرَاك مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى دُون اللَّفْظ لِأَنَّ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْإِيمَان إِلَخْ غَايَرَتْ صِفَته صِفَة مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْره {أُولَئِكَ هُمْ} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْخِطَاب {الرَّاشِدُونَ} الثَّابِتُونَ عَلَى دِينهمْ.

فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

{فَضْلًا مِنَ الله} مَصْدَر مَنْصُوب بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّر أَيْ أَفْضَل {وَنِعْمَة} مِنْهُ {وَالله عَلِيم} بِهِمْ {حَكِيم} فِي إِنْعَامه عَلَيْهِمْ(١).

(١) قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ} [الحجرات: ٧]، أي:" واعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله المعصوم عن اتباع الهوى، فتأدبوا معه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لأصحاب نبي الله ﷺ: واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله، {أن فيكم رسول الله} فاتقوا الله أن تقولوا الباطل، وتفتروا الكذب، فإن الله يخبره أخباركم، ويعرفه أنباءكم، ويقومه على الصواب في أموره".

قال ابن كثير:" أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦] ".

=

=

قال البغوي:" فاتقوا الله أن تقولوا باطلا أو تكذبوه، فإن الله يخبره ويعرفه أحوالكم فتفتضحوا".

قوله تعالى: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} [الحجرات: ٧]، أي:" لو يطيعكم في كثير من الأمر مما تختارونه لأدى ذلك إلى مشقتكم".

قال الطبري: يقول: "لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ويقبل منكم ما تقولون له فيطيعكم لنالكم عنت، يعني: الشدة والمشقة في كثير من الأمور بطاعته إياكم لو أطاعكم لأنه كان يخطئ في أفعاله كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق: إنهم قد ارتدوا، ومنعوا الصدقة، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين، فغزاهم فقتل منهم، وأصاب من دمائهم وأموالهم، كان قد قتل، وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله، وأخذ وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين، فنالكم من الله بذلك عنت".

قال الزجاج:" أي: لو أطاع مثل هذا المخبر الذي أخبره بما لا أصل له، لوقعتم في عنت، و «العنت»: الفساد والهلاك".

قال ابن كثير:" أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٧١] ".

قال ابن أبي زمنين:" أي: في دينكم، العنت: الحرج والضيق".

قال ابن قتيبة:" {لَعَنِتُّمْ} من «العَنَت»، وهو: الضرر والفساد".

عن ابن جريج في قوله:" {لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} يقول: لأعنت بعضكم بعضا".

عن قتادة: "{واعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ}، قال: هؤلاء أصحاب نبيِّ الله- ﷺ -، لو أطاعهم نبيُّ الله- ﷺ- في كثير من الأمر

=

=

لعَنِتوا، فأنتم -واللهِ- أسخف قلوبًا، وأطيش عقولًا، فاتّهَم رجلٌ رأيَه، وانتصح كتاب الله؛ فإنّ كتاب الله ثِقة لِمَن أخذ به وانتهى إليه، وإنّ ما سوى كتاب الله تغرير".

عن أبي سعيد الخُدري -من طريق أبي نَضْرة- قال: "{واعْلَمُوا أنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ}، قال: هذا نبيّكم يُوحى إليه، وخيار أُمّتكم، لو أطاعهم في كثير مِن الأمر لعَنِتوا، فكيف بكم اليوم!".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ٧]، أي:" ولكن الله حبب إليكم الإيمان وحسَّنه في قلوبكم، فآمنتم".

قال الطبري: يقول:" {ولكن الله حبب إليكم الإيمان} بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسول الله، وتأتمون به فيقيكم الله بذلك من العنت ما لو لم تطيعوه وتتبعوه، وكان يطيعكم لنالكم وأصابكم، وحسن الإيمان في قلوبكم فآمنتم".

قال ابن كثير:" أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم".

قال ابن زيد:" حببه إليهم وحسَّنه في قلوبهم".

عن الحسن: {وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ}:" بما وصف من الثواب عليه".

قال الزجاج:" هذا يعنى به المؤمنون المخلصون".

قال الواحدي:" فأنتم تطيعون الله ورسوله فلا تقعون في العنت يعني بهذا: المؤمنين المخلصين".

وفي قوله تعالى: {وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ٧]، وجهان من التفسير:

أحدهم:" أنه دلهم عليه بالحجج القاطعة البينة، والآيات التي أتى بها النبي -ﷺ- المعجزة.

الثاني: أنه زينه في قلوبهم بتوفيقه إياهم.

قال سهل:" أي: استخلص قلوبكم عطفًا منه في عبادته بالإخلاص فيها، إذ

=

=

الاستخلاص من عطفه، والإخلاص من حقه، ولن يقدر العبد على تأدية حقه إلا بعطفه بالمعونة عليه بأسباب الإيمان، وهي الحجج القاطعة والآيات المعجزة".

قال النحاس:" العلماء من أهل السنة يقولون: معنى «حبب إليكم الإيمان»، وفقكم له، وفعل أفاعيل تحبون معها الإيمان وتستحسنونه فلما أحبوه واستحسنوه نسب الفعل إليه، وكذا فعل أفاعيل كرهوا معها الكفر والفسق والعصيان".

عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "الإسلام علانية، والإيمان في القلب" قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: "التقوى هاهنا، التقوى هاهنا".

قوله تعالى: {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [الحجرات: ٧]، أي:" وكرَّه إليكم الكفرَ بالله والخروجَ عن طاعته، ومعصيتَه".

قال الطبري: يقول:" {وكره إليكم الكفر} بالله {والفسوق}، يعني: الكذب، {والعصيان} يعني: ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ، وتضييع ما أمر الله به".

قال ابن كثير:" أي: وبغض إليكم الكفر، والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة ".

قال الزجاج:" وذلك أيضا تبيينه ما عليهم في الكفر وتوفيقه إياهم إن اجتنبوه".

قال السمعاني:" الفسوق: كل ما يفسق به الإنسان أي: يخرج به عن طاعة الله. والعصيان: مخالفة الأمر".

عن ابن زيد، قوله: "{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ}، قال: الكذب والعصيان؛ قال: عصيان النبيّ ﷺ".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، أي:" أولئك المتصفون

=

=

بهذه الصفات هم الراشدون السالكون طريق الحق".

قال الطبري: "يقول: هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون السالكون طريق الحق".

قال الزجاج:" أي: هؤلاء الذين وفقهم الله ﷻ بتحبيب الإيمان إليهم وتكريه الكفر أولئك هم الراشدون".

قال السمعاني:" أي: المهتدون تفضلا من الله وإنعاما".

قال ابن كثير:" أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم".

قال النحاس:" {الراشدون}: الذين رشدوا للإيمان وتركوا المعاصي".

وفي الحديث المرفوع: "من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن".

قوله تعالى: {فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً} [الحجرات: ٨]، أي:" وهذا الخير الذي حصل لهم فضل من الله عليهم ونعمة".

قال الطبري: "يقول: ولكن الله حبب إليكم الإيمان، وأنعم عليكم هذه النعمة التي عدها فضلا منه، وإحسانا ونعمة منه أنعمها عليكم".

قال الزجاج:" المعنى: فعل الله ذلك بكم فضلا من الله ونعمة، أي: للفضل والنعمة".

قال ابن كثير:" أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه".

قال الزمخشري:" الفضل والنعمة بمعنى: الإفضال والإنعام".

عن ابن زيد، قوله: "{أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}، من أين كان هذا؟ قال: فضل من الله ونعمة؛ قال: والمنافقون سماهم الله أجمعين في القرآن الكاذبين؛ قال: والفاسق: الكاذب في كتاب الله كله".

=

=

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٨]، أي:" عليم بمن يشكر نعمه، حكيم في تدبير أمور خلقه".

قال الطبري: "يقول: والله ذو علم بالمحسن منكم من المسيء، ومن هو لنعم الله وفضله أهل، ومن هو لذلك غير أهل، وحكمة في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما شاء من قضائه".

قال ابن كثير:" أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره".

عن محمد بن إسحاق، قوله: "{عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية في قوله: "{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

وقال العثيمين: هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين واعلموا أن فيكم رسول الله} وسبب ما سبق أن النبي ﷺ بلغه عن قوم ما ليس فيهم، فأمر الله تعالى بالتأكد من الأخبار إذا جاء بها من لا تُعرف عدالته، وكأن بعض الصحابة رضي الله عنهم أرادوا من النبي ﷺ أن يُعاقب هؤلاء الذين بلغه عنهم ما بلغه،

ولكن النبي ﷺ لم يفعل بعد أن نزلت عليه الآية: {إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} ولكن العبرة بعموم اللفظ وقوله: {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأَمر لعنتم} أي لشق عليكم ما تطلبونه من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا له أمثلة كثيرة منها: أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان يصلي بهم صلاة القيام فانصرفوا وقد بقي من الليل ما بقي، وقالوا: يا رسول الله، لو نفلتنا بقية ليلتنا- يعني طلبوا منه أن يقوم بهم كل الليل- ولكنه ﷺ قال لهم: «من قام مع الإمام حتى ينصرف كُتب له قيام ليلة» ولم يوافقهم على طلبهم، لما في ذلك من

=

=

العنت والمشقة، ومنها أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحثوا عن أمره في السر- يعني فيما لا يظهر للناس- وهو العمل الذي يفعله في بيته من العبادات فكأنهم تقالُّوها فقالوا: إن رسول الله ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما هم فلم يكن لهم ذلك، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أنا أقوم ولا أنام، وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»

فحذرهم أن يعملوا عملًا يشق عليهم، ومن ذلك أيضًا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن أبيه- أنه بلغ النبي ﷺ قوله: إنه ليصومن النهار، وليقومن الليل ما عاش، فدعاه النبي ﷺ قال: «أنت قلت هذا؟» قال: نعم، قال: «إنك لا تطيق ذلك» ثم أرشده لما هو أفضل وأهون، والحاصل أنه يوجد من الصحابة رضي الله عنهم من له همَّة عالية لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يطيعهم في كثير من الأمر؛ لأن ذلك يشق عليهم لو أنه أطاعهم، ثم قال ﷻ: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان}، قد يقول قائل: ما هو ارتباط قوله: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان} بقوله: {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأَمر لعنتم} ؟.

والجواب: أنكم تطيعونه- أي الرسول عليه الصلاة والسلام- فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان فتقدمون طاعة النبي ﷺ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وهذا استدراك من أبلغ ما يكون من الاستدراك، يعني: ولكن إذا خالفكم النبي ﷺ في كثير من الأمر الذي تريدونه فإنكم لن تكرهوا ذلك، ولن تخالفوه، ولن تحملوا على الرسول ﷺ بسببه، {ولكن الله حبب إليكم الإيمان}- أي جعله محبوبًا في قلوبكم- {وزينه في قلوبكم} بحيث لا تتركونه بعد أن تقوموا به- وذلك أن فعل الإنسان الشيء

=

=

للمحبة قد يكون محبة عارضة، لكن إذا زُيّن له الشيء ثبت في المحبة ودامت، ولهذا قال: {حبب إليكم الإيمان} وهذا في القلب، {وزينه في قلوبكم} أيضًا في القلب، لكن إذا زين الشيء المحبوب للإنسان فإنه يستمر عليه ويثبت عليه {وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} كرّه إليكم الكفر الذي هو مقابل الإيمان، والفسوق الذي هو مقابل الاستقامة، والعصيان الذي هو مقابل الإذعان، وهذا تدرج من الأعلى إلى ما دون: فالكفر أعظم من الفسق، والفسق أعظم من العصيان، فالكفر هو الخروج من الإسلام بالكلية، وله أسباب معروفة في كتب أهل العلم ذكرها الفقهاء رحمهم الله في باب أحكام المرتد، وأما الفسق فهو دون الكفر، لكنه فعل كبيرة، مثل أن يفعل الإنسان كبيرة من الكبائر ولم يتب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، وما أشبه ذلك، والعصيان: هو الصغائر التي تكفَّر بالأعمال الصالحة، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

{أولئك هم الراشدون} . أولئك: المشار إليه من حبب الله إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان {هم الراشدون} يعني الذين سلكوا طريق الرشد، والرشد في الأصل: حسن التصرف، وهو في كل موضع بحسبه، فالرشد في المال أن يحسن الإنسان التصرف فيه، ولا يبذله في غير فائدة، والرشد في الدين: هو الاستقامة على دين الله ﷻ فهؤلاء الذين حبَّب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، وهنا تجد هذه الأفعال كلها مضافة إلى الله، ولهذا قال بعدها: {فضلًا من الله} يعني أن الله أفضل عليكم فضلًا أي تفضُّلًا منه، وليس بكسبكم، ولكنه من الله ﷻ ولكي يُعلم أنّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الإيمان في الشخص، فمن علم الله منه حُسن النية، وحُسن القصد والإخلاص حبَّب إليه

=

=

الإيمان وزيّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن لم يعلم الله منه ذلك فإنَّ الله تعالى يقول: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} ويقول الله ﷻ: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} فالذنوب سبب للمخالفة والعصيان، فهؤلاء الذين تفضَّل الله عليهم وأنعم عليهم نعمة الدين هم الذين وُفقوا للحق، قال الله ﷻ: {فضلًا من الله ونعمةً} يعني إنعامًا منه عليهم، والنعمة نعمتان: نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، فنعمة الدنيا متصلة بنعمة الآخرة في حقهم.

وأما الكفار فهم منعَّمون في الدنيا، كما قال الله تبارك وتعالى: {كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين} أي تنعُّم، فهؤلاء الكفار عليهم نعمة في الدنيا، لكن في الآخرة عليهم العذاب واللعنة والعياذ بالله، أما المؤمن فإنه يحصل على النعمتين جميعًا، على نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، حتى وإن كان فقيرًا أو مريضًا أو عقيمًا، أو لا نسب له، فإنه في نعمة، لقول الله تعالى: {من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}.

وخلاصة الكلام في النعمة، أن هناك نعمتين: نعمة عامة لجميع الخلق، الكافر والمؤمن، والفاسق والمطيع، ونعمة خاصة للمؤمن، وهذه النعمة الخاصة تتصل بنعمة الدين والدنيا، وأما الأولى فإنها خاصة بنعمة الدنيا فقط لتقوم على الكفار الحجة {والله عليم حكيم} هذان إسمان من أسماء الله يقرن الله بينهما دائمًا: العلم والحكمة، عليم بكل شيء، قال الله تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}. وقال تعالى: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأَرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأى أرض تموت}. وقال تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهآ إلا هو

=

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩).

{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الْآيَة نَزَلَتْ فِي قَضِيَّة هِيَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ ركب حمارا ومر على بن أبي فبال الحمار فسد بن أبي أنفه فقال بن رَوَاحَة وَاَللهِ لَبَوْل حِمَاره أَطْيَب رِيحًا مِنْ مِسْكك فَكَانَ بَيْن قَوْمَيْهِمَا ضَرْب بِالْأَيْدِي وَالنِّعَال

=

ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}. وقال تعالى: {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}. فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، والإنسان إذا علم أن الله محيط بكل شيء حتى ما يضمره في قلبه، فإنه يخاف ويرهب ويهرب من الله إليه ﷻ ولا يقول قولًا يغضب الله، ولا يفعل فعلًا يغضب الله، ولا يضمر عقيدة تُغضب الله؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم ذلك، لا يخفى عليه، وأما الحكيم فهو ذو الحكمة البالغة، والحكمة هي أن جميع ما يحكم به جل وعلا موافق ومطابق للمصالح، ما من شيء يحكم الله به إلا وهو حكمة عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: {حكمة بالغة فما تغنى النذر}. وقال تعالى: {أليس الله بأحكم الحاكمين}. وقال تعالى: {ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون}. فمعنى الحكيم، أي ذو الحكمة البالغة، وله معنى آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالى له الحكم، كما قال تعالى: {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله}.

وقال تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر} ولا أحد يحكم بهواه {ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون}.

وَالسَّعَف {اقْتَتَلُوا} جُمِعَ نَظَرًا إِلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ كُلّ طَائِفَة جَمَاعَة وَقُرِئَ اقْتَتَلَتَا {فَأَصْلِحُوا بَيْنهمَا} ثُنِّيَ نَظَرًا إِلَى اللَّفْظ {فَإِنْ بَغَتْ} تَعَدَّتْ {إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيء} تَرْجِع {إِلَى أَمْر الله} الْحَقّ {فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنهمَا بِالْعَدْلِ} بِالْإِنْصَافِ {وَأَقْسِطُوا} اعْدِلُوا {إن الله يحب المقسطين}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم -: لو أتيت عبد الله بن أبي؛ فانطلق إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وركب حمارا، فانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطيب ريحا منك؛ فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (٩) إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٦٩١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٧٩٩).

وعن أبي مالك في قوله: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}؛ قال: رجلان اقتتلا؛

=

=

فغضب لذا قومه ولذا قومه، فاجتمعوا حتى أُضربوا بالنعال؛ حتى كاد يكون بينهم قتال؛ فأنزل الله هذه الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨١) من طريقين عن حصين عن أبي مالك.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٠) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر.

وعن الحسن: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}؛ قال: كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعوهم إلى الحكم؛ فيأبون أن يجيبوا؛ فأنزل الله ﷻ: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)} يقول: ادفعوهم إلى الحكم فكان قتالهم الدفع.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٦/ ٨١): ثنا ابن حميد ثنا مهران ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: ابن حميد؛ متروك الحديث.

الثانية: مهران؛ سيئ الحفظ له أوهام.

الثالثة: المبارك؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: الإرسال.

وعن السدي: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ

=

=

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}؛ قال: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: أم زيد تحت رجل، فكان بينها وبين زوجها شيء؛ فرقاها إلى عليه، فقال لهم: احفظوا، فبلغ ذلك قومها فجاؤوا وجاء قومه فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فجاء؛ ليصلح بينهم؛ فنزل القرآن: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}، قال: {تَبْغِي} لا ترضى بصلح رسول الله ﷺ أو بقضاء رسول الله ﷺ.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨١، ٨٢): ثنا ابن حميد ثنا مهران ثنا سفيان عن السدي به. وهذا سنده ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإعضال.

الثانية: مهران؛ سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ متروك.

وعن قتادة: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}: ذكر لنا أنها نزلت في رجلين من الأنصار، كانت بينهما مماراة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذن عنوة؛ لكثرة عشيرته، وأن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبي ﷺ؛ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال

=

=

بالسيوف.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨٢): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زيع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن الحسن: أن قومًا من المسلمين كان بينهم تنازع؛ حتى اضطربوا بالنعال والأيدي؛ فأنزل الله تعالى فيهم: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨٢): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن به. وسنده ضعيف.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: إن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال؛ فأنزل الله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٠) ونسبه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: ٩]، أي:" وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا -أيها المؤمنون- بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرضا بحكمهما".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما،

=

=

وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرًا بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين

عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة".

قال السعدي:" هذا متضمن لنهي المؤمنين، عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا، فبها ونعمت".

عن مجاهد:" {طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} الأوس والخزرج اقتتلوا بالعصي بينهم ".

وعن مجاهد:" {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} [الحجرات: ٩] قال: «كانا رجلين» ".

قال مجاهد:"الطائفة: من الواحد إلى الألف. وقال: إنما كانا رجلين اقتتلا".

قال سعيد بن جبير:" إنما قتالهم بالعصي والنعال".

قال زيد بن أسلم:" ذلك الرجلان يقتتلان من أهل الإسلام، أو النّفر والنّفر، أو

=

=

القبيل والقبيلة، فأمر الله أئمة المسلمين أن يَقضُوا بينهم بالحقِّ الذي أنزله في كتابه؛ إما القَصاص والقَوَد، وإما العقْل والعِير، وإما العفو، {فَإنْ بَغَتْ إحْداهُما عَلى الأُخْرى} بعد ذلك كان المسلمون مع المظلوم على الظالم، حتى يفيء إلى حكم الله، ويرضى به".

قوله تعالى: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ} [الحجرات: ٩]، أي:" فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلوها حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله".

قال الطبري:" يقول: فإن أبَت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدّت ما جعل الله عدلا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه".

قال ابن كثير:" أي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما". قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: "تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه"» ".

قال الحسن: "يقول: ادفعوهم إلى الحكم، فكان قتالهم الدفع".

قال السعدي:" أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه، الاقتتال".

عن الضحاك قوله: "{فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ}، قال: بالسلاح".

عن ابن المسيّب -من طريق عمرو بن سليم- يقول: "إذا التقت الفئتان، فما كان بينهما من دمٍ أو جراحة فهو هَدر، ألا تسمع إلى قول الله ﷻ: {وإنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} فتَلا الآية حتى فرغ منها، قال: فكلّ واحدة من الطائفتين ترى

=

=

الأخرى باغية".

عن حِبان السّلَميّ، قال: "سألتُ ابنَ عمر عن قوله: {وإنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}، وذلك حين دخل الحَجّاجُ الحَرم. فقال لي: عرفتَ الباغيةَ مِن المبْغيّ عليها؟ فوالذي نفسي بيده، لو عرفتُ المبْغيّة ما سبقتني أنت ولا غيرُك إلى نَصْرها، أفرأيتَ إن كانت كلتاهما باغيتين، فدعِ القومَ يقتتلون على دنياهم، وارجع إلى أهلك، فإذا استمرَّت الجماعة فادخل فيها".

عن الحارث الأعور:" أنّ علي بن أبي طالب سُئِل -قال البغوي: وهو القدوة في قتال أهل البغي- عن أهل الجمل وصفّين: أمُشرِكون هم؟ فقال: لا، من الشرك فرُّوا. فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إنّ المنافقين لا

قوله تعالى: {فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ} [الحجرات: ٩]، أي:" فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف".

قال الطبري:" يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل: يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلا بين خلقه".

قال السعدي:" هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح، قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما، لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل".

قال ابن عباس:" فإن الله سبحانه أمر النبيّ ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحقّ على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله،

=

=

ويقرّوا بحكم الله".

قال ابن زيد:" هذا أمر من الله أمر به الوُلاة كهيئة ما تكون العصبة بين الناس، وأمرهم أن يصلحوا بينهما، فإن أبوْا قاتل الفئة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، فإذا رجعت أصلحوا بينهما، وأخبروهم أن المؤمنين إخوة، فأصلحوا بين أخويكم؛ قال: ولا يقاتل الفئة الباغية إلا الإمام".

قوله تعالى: {وَأَقْسِطُوا} [الحجرات: ٩]، أي:" واعدلوا في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله".

قال الطبري: يقول:" واعدلوا أيها المؤمنون في حكمكم بين من حكمتم بينهم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله".

قال ابن كثير:" أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، أي:" إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط".

قال الطبري: "يقول: إن الله يحب العادلين في أحكامهم، القاضين بين خلقه بالقسط".

قال أبو عبيدة:" {الْمُقْسِطِينَ}، أي: العادلين".

قال السعدي:" أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات، التي تولوها، حتى إنه، قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله، وعياله، في أدائه حقوقهم".

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله- ﷺ- قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا».

وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: "المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر
=

=

من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا".

وقال العثيمين: قوله تعالى: (طائفتان) مفردها طائفة، وهي الجماعة من الناس، وقوله: {اقتتلوا} جمع، وإنما جمع لأن الطائفة تشتمل على أفراد كثيرين، فلذلك صح أن يعود الضمير على مثنى؛ مراعاة للمعنى، وإلا لكان مقتضى اللغة أن يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا)، ليطابق الضمير مرجعه لكنه عاد إليه بالمعنى.

والاقتتال بين المؤمنين له أسباب متعددة، والشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكنه رضي في التحريش بينهم، يحرش بينهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، فإذا حصل الاقتتال فالواجب على المؤمنين الآخرين الصلح بينهما، ولهذا قال: {فأصلحوا بينهما}، أي اسعوا إلى الصلح بكل وسيلة حتى ولو كان ببذل المال، والتنازل عن الحق لأحدهما عن الآخر؛ لأن الصلح لابد فيه من أن يتنازل أحد الطرفين عما يريد من كمال حقه، وإلا لما تم الصلح، ولهذا لما قال الله تعالى: {والصلح خير} وقال: {وأحضرت الأنفس الشح}.

لأن كل إنسان يريد أن يتم قوله فلابد من التنازل، فإذا أصلحنا بينهما ثم حصل بغي قال الله ﷻ: {فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التى تبغى} يعني لو فرض أنه بعد الصلح عادت إحدى الطائفتين تقاتل الأخرى فهنا لا صلح، بل نقاتل التي تبغي {حتى تفيء إلى أمر الله} أي ترجع إليه، وأمر الله يعني دينه وشرعه، فانظر في أول الأمر الإصلاح، فإذا تم الصلح وبغت إحداهما على الأخرى، وجب أن نساعد المبغي عليها، فنقاتل معها {فإن فاءت} فإنه يجب الكف عن قتالهم، ولا يجوز أن نجهز على جريح، ولا أن نتبع مدبرًا، ولا أن نسلب مالًا ولا أن نسبي ذرية، لأن هؤلاء مؤمنون، {فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} أي: فإن فاءت إلى أمر الله بعد أن

=

=

قاتلناها ورجعت ووضعت الحرب، وجب أن نصلح بينهما بالعدل، وهذا غير الإصلاح الأول، الإصلاح الأول لوقف القتال، وهذا الإصلاح بالتقدير فننظر ماذا تلف على كل طائفة، ثم نسوي بينهما، فمثلًا إذا كانت إحدى الطائفتين أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، والثانية أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، فحينئذ تعادل الطائفتان، فإن كانت إحداهما أتلفت على الأخرى ما قيمته ثمانمائة ألف ريال، والأخرى أتلفت ما قيمته مليون فالفرق مائتا ألف ريال تحملها على الأخرى التي أتلفت ما قيمته مليون، ولهذا قال: {فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} أي يحب العادلين، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله ﷻ، الذين يعدلون في أهليهم، وما ولوا من أمور المسلمين.

(منبهة) قال شيخ الإسلام في الإستقامة (ص٣٢): ومن أصول هذا الموضع أن مجرد وجود البغى من إمام أو طائفة لا يوجب قتالهم بل لا يبيحه بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ولا يقاتلونه كما أمر النبي ﷺ بذلك في غير حديث فلم يأذن في دفع البغي مطلقا بالقتال بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر.

وأما قوله سبحانه فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى [سورة الحجرات ٩] فهو سبحانه قد بين مراده ولكن من الناس من يضع الآية على غير موضعها فإنه سبحانه قال وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين [سورة الحجرات ٩] فهو لم يأذن ابتداء في قتال بين المؤمنين بل إذا اقتتلوا فأصلحوا بينهما والاقتتال هو فتنة وقد تكون إحداهما أقرب إلى الحق فأمر سبحانه في ذلك بالإصلاح.

=

=

وكذلك فعل النبي ﷺ لما اقتتل بنو عمرو بن عوف فخرج ليصلح بينهم وقال لبلال إن حضرت الصلاة فقدم أبا بكر.

ثم قال سبحانه فقاتلوا التي تبغى حتى تفئ إلى أمر الله [سورة الحجرات ٩] فهو بعد اقتتالهم إذا أصلح بينهم بالقسط فلم تقبل إحداهما القسط بل بغت فإنها تقاتل لأن قتالها هنا يدفع به القتال الذي هو أعظم منه فإنها اذا لم تقاتل حتى تفئ إلى أمر الله بل تركت حتى تقتتل هي والأخرى كان الفساد في ذلك أعظم.

والشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما وفي مثل هذا يقاتلون حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله لأنه إذا أمروا بالصلاح والكف عن الفتنة فبغت إحداهما قوتلت حتى لا تكون فتنة والمأمور بالقتال هو غير المبغى عليه أمر بأن يقاتل الباغية حتى ترجع إلى الدين فقاتلها من باب الجهاد وإعانة المظلوم المبغى عليه.

أما إذا وقع بغى ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال فيه نوع ظلم.

فلهذا نهى النبي ﷺ عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم.

وعلى هذا فما ورد في صحيح البخارى من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ قال ذلك ليس هو مخالفا لما تواتر عنه من أنه أمر بالإمساك عن القتال في الفتنة وأنه جعل القاعد فيها خيرا من القائم والقائم خيرا من الماشى والماشى خيرا من الساعى، وقال يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وأمر فيها بأن يلحق الإنسان بإبله وبقره وغنمه لأن وصفه تلك الطائفة بالبغى هو كما وصف به من وصف من الولاة بالأثرة والظلم، كقوله

=

=

ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض.
وقوله ﷺ ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم وأمثال ذلك من الأحايث الصحاح.
فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله ولم يأذن للمظلوم المبغى عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة كما أذن في دفع الصائل بالقتال حيث قال من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة إذ الناس كلهم أعوان على ذلك فليس فيه ضرر عام على غير الظالم بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشرا عاما أعظم من ظلمهم فالمشروع فيه الصبر.
وإذا وصف النبي ﷺ طائفة بأنها باغية سواء كان ذلك بتأويل أو بغير تأويل لم يكن مجرد ذلك موجبا لقتالها ولا مبيحا لذلك إذ كان قتال فتنة، فتدبر هذا فإنه موضع عظيم يظهر فيه الجمع بين النصوص ولأنه الموضع الذي اختلف فيه اجتهاد علماء المؤمنين قديما وحديثا حيث رأى قوم قتال هؤلاء مع من هو أولى بالحق منهم ورأى آخرون ترك القتال إذا كان القتال فيه من الشر أعظم من ترك القتال كما كان الواقع فإن أولئك كانوا لا يبدأون البغاة بقتال حتى يجعلوهم صائلين عليهم وإنما يكون ذنبهم ترك واجب مثل الامتناع من طاعة معين والدخول في الجماعة فهذه الفرقة إذا كانت باغية وفي قتالهم من الشر كما وقع أعظم من مجرد الاقتصار على ذلك كان القتال فتنة وكان تركه هو المشروع وإن كان المقاتل أولى بالحق وهو مجتهد ا.هـ
(تتمة): لقد حث الشرع الشريف على اعتزال الفتن، وكف اليد عنها، والفرار منها، وفي ذلك آثار كثيرة منها.
عن بلال بن سعد في قوله تعالى: {يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة}
=

=

[العنكبوت: ٥٦]، قال: عند وقوع الفتنة (أرضي واسعة، ففروا إليها) حلية الأولياء (٥/ ٢٢٧).

وعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤١، رقم ٩٦٨٩)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٦٣، رقم ٣٧٢٥٢)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ١٤٠، رقم ٣٤٤)، وأبو داود (٤/ ٩٧، رقم ٤٢٤٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٩٩)، والحاكم (١/ ١٩٠، رقم ٣٦٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٦٥)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٣٤٢، رقم ٥٣٣٠)، والديلمى (٤/ ٣٩٥، رقم ٧١٤٢) والحديث صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ٤٣٢): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وعن عبد الله بن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: (كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا؟ " وشبك بين أصابعه قالوا: كيف بنا يا رسول الله! إذا كان ذلك؟ قال: "تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون أمر عوامكم) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١)، وسعيد بن منصور (ل ١٩٦/ ب)، وأبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩)، والحاكم (٢/ ١٥٩، ٤/ ٤٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٣١٨) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (٢٠٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٢/ ٢٠): إسناده صحيح، وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٦٣٥).

وعن خالد بيت الوليد- ﵁- قال: (كتب إلي أمير المؤمنين حين ألقى الشام

=

=

بوانيه بثنية وعسلا، فأمرني أن أسير إلى الهند، والهند في أنفسنا يومئذ البصرة، قال: وأنا لذلك كاره، قال: فقام رجل فقال لي: يا أبا سليمان، اتق الله، فإن الفتن قد ظهرت، قال: فقال: "وابن الخطاب حي؟! إنما تكون بعده، والناس بذي بليان أو بذي بليان بمكان كذا وكذا، فينظر الرجل فيتفكر: هل يجد مكانا لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشر؟ فلا يجده"، قال: "وتلك الأيام التي ذكر رسول الله ﷺ: "بين يدي الساعة الهرج"، فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠، رقم ١٦٩٤٤)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٨٩)، والطبراني في الكبير (٣٨٤١)، وفي الأوسط (٨٤٧٤) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٠٧): ورجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٨/ ٥٩): سنده فيه عزرة بن قيس وهو ضعيف، وقال العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (١٨٦٢) سنده حسن في المتابعات والشواهد، عزرة بن قيس لم يوثقه غير ابن حبان، و سائر رواته ثقات، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٢٣): إسناده ضعيف لجهالة عزرة بن قيس البجلي، فقد ترجم له الحسيني في "الإكمال" ٢٩٤، والذهبي في "الميزان"، والحافظ ابن حجر في "اللسان" وفاته أن يذكره في "التعجيل" مع أنه على شرطه، ولم يذكروا في الرواة عنه سوى أبي وائل: وهو شقيق بن سلمة، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وذكر علي بن المديني أن أبا وائل تفرد عن جماعة مجهولين منهم عزرة بن قيس، وقال ابن أبي خيثمة بعد ذكر عزرة بن قيس البجلي وعزرة بن قيس آخر يروي عنه أهل البصرة: قال يحيى بن معين: لا شيء.

قوله بوانيه: خيره وما فيه من السعة والنعمة، وقوله البثنية: قيل: الزبدة. أي: صارت كأنها زبدة وعسل؛ لأنها صارت تجبى أموالها من غير تعب.

وقوله بذي بليان: المراد: إذا كانوا طوائف وفرقا من غير إمام، وكل من بعد عنك

=

=

حتى لا تعرف موضعه فهو بذي بلي، وهو من: بلى في الأرض إذا ذهب، وأراد ضياع أمور الناس بعده.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ أنه قال: قال رسول الله- ﷺ-: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن) أخرجه البخاري (٦٦٧٧).

وقال عثمان الشحام: (انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة وهو في أرضه فدخلنا عليه فقلنا: هل سمعت أباك يحدث في الفتن حديثا؟ قال: نعم، سمعت أبا بكرة يحدث، قال: قال رسول الله- ﷺ-: "إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه" قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: "يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاء اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت" قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: "يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار) أخرجه مسلم (٢٨٨٧).

وعن الحسن، عن الأحنف بن قيس، قال: (خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ - يعني عليا- قال: فقال لي: يا أحنف، ارجع! فإني سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قال: فقلت -أو قيل-: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: "إنه قد أراد قتل صاحبه) أخرجه البخاري (٦٦٧٢)، ومسلم (٢٨٨٨).

=

=

وعن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله- ﷺ- قال: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به) أخرجه البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦).

وقال حذيفة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- (إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص فيها أحد إلا نسفته، كما ينسف السيل الدمن).

وعن أبي بردة، قال: دخلت على محمد بن سلمة فقال: إن رسول الله- ﷺ- قال: (إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان كذلك؛ فأت بسيفك أحدا فاضربه حتى ينقطع، ثم اجلس في بيتك حتى تأييك يد خاطئة أو منية قاضية". فقد وقعت وفعلت ما قال رسول الله ﷺ) والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٨٠) بطرقه وشواهده.

وعن أبي ذر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قال: قال رسول الله- ﷺ -: (كيف أنت يا أبا ذر! وموتا يصيب الناس حتى يقوم البيت بالوصيف؟" (يعني القبر) قلت: ما خار الله لي ورسوله (أو قال: الله ورسوله أعلم) قال: "تصبر"، قال: "كيف أنت وجوعا يصيب الناس حتى تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك، ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك؟ " قال، قلت: الله ورسوله أعلم أو: ما خار الله لي ورسوله" قال: "عليك بالعفة"، ثم قال: "كيف أنت وقتلا يصيب الناس حتى تغرق حجارة الزيت بالدم؟ " قلت: ما خار الله لي ورسوله. قال: "الحق بمن أنت منه" قال: قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ بسيفي فأضرب به من فعل ذلك؟ قال: "شاركت القوم إذن، ولكن ادخل بيتك" قلت: يا رسول الله، فإن دخل بيتي؟ قال: "إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، فيبوء بإثمه وإثمك، فيكون من أصحاب النار) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٢٩)، وابن أبي

=

=

شيبة (٧/ ٤٤٨، رقم ٣٧١٢٣)، والطيالسى (ص ٦٢، رقم ٤٥٩)، وأحمد (٥/ ١٤٩، رقم ٢١٣٦٣)، وأبو داود (٤/ ١٠١، رقم ٤٢٦١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٨، رقم ٣٩٥٨)، والبزار في مسنده (٣٩٥٩)، وابن حبان (١٥/ ٧٨، رقم ٦٦٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٩، رقم ٢٦٦٦)، والبغوي (٤٢٢٠)، والبيهقى (٨/ ١٩١، رقم ١٦٥٧٥)، والمزي في ترجمة المشعث من التهذيب (٢٨/ ٩- ١٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٧٥٠٠) رواته ثقات، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٥/ ٢٥٢): إسناده صحيح على شرط مسلم.

وروي أن رجلا قال لحذيفة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: (إذ اقتتل المسلمون فما تأمرني؟ قال: "انظر أقصى بيت في دارك فلج فيه، فإن دخل عليك، فقل: ها بو بذنبي وذنبك) رواه الداني في "السنن الواردة في الفتن" (١/ ٣٤٥).

وعن عمران بن حصين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مومن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو: لما يبعث به من الشبهات) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١، رقم ١٩٨٨٨)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٢٩)، وأبو داود (٤/ ١١٦، رقم ٤٣١٩)، والبزار في مسنده (٣٥٩٠)، والدولابي في الكنى (١/ ١٧٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٦، رقم ٨٦١٦)، والطبرانى (١٨/ ٢٢١، رقم ٥٥٢) والحديث احتج به ابن حزم في المحلى (١/ ٥٠)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢٠): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٢٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ١٠٧): إسناده صحيح على شرط مسلم.

=

=

ومن مظاهر التطبيق العملي لمبدأ كف اليد عن المشاركة في الفتن واعتزالها أن مروان بن الحكم لما دعا أيمن بن خريم إلى الخروج في قتال فتنة أجابه إن أبي وعمي شهدا بدرا، وإنهما عهدا إلي ألا أقاتل أحدا يقول: "لا إله إلا الله"، فإن أنت جئتني ببراءة من النار؛ قاتلت معك! ثم يقول:

ولست بقاتل رجلا يصلي * على سلطان آخر من قريش

له سلطانه وعلي إثمي * معاذ الله من جهل وطيش

أأقتل مسلما في غير جرم * فليس بنافعي ما عشت عيشي.

أخرجه الحاكم (٢/ ١٧٠، رقم ٢٦٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٧٩): رواه أبو يعلى والطبراني ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير زكريا بن يحيى زحمويه وهو ثقة.

وعن عديسة بنت أهبان، قالت: جاء علي بن أبي طالب- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إلى أبي، فدعاه إلى الخروج معه، فقال له أبي: (إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن أتخذ سيفا من خشب، فقد اتخذته! فإن شئت خرجت به معك" قالت: فتركه) أخرجه أحمد (٣٤/ ١٧٠- الرسالة)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٨١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٤٥)، والأوسط (١/ ١١٢)، وابن ماجه (٣٩٦٠)، والترمذي (٢٢٠٣)، والدينوري في المجالسة (٣٤٠١)، وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٥٨)، وغيرهم والحديث حسنه الترمذي، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٣٩٢)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على المجاسة: إسناده ضعيف، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٤/ ٢٧١): حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، عُدَيْسة بنت أُهْبان بن صَيْفيٍّ الغِفارية روى لها الترمذي وابن ماجه هذا الحديث الواحد، وهي وإن لم يوثقها أحد، لكنها تابعية وابنة صحابي، وقد روى عنها جمع، وقد توبعت على هذا الحديث كما سيأتي في

=

=

تخريجه، لكن في هذه المتابعة ضعف، وعبد الله بن عبيد الديلي؛ إن كان هو الحميري البصري المؤذن كما في تهذيب الكمال (١٥/ ٢٦٢)، فهو ثقة، وهذا الذي يترجح عندنا؛ لأن الحارث بن أبي أسامة قد أخرج قصة تكفين أهبان في "مسنده" كما في المطالب العالية (٣/ ١٢٣- ١٢٤) من طريقه عن عديسة، فنسبه: حِمْيريًّا، وإن كان غيره كما هو ظاهر صنيع الحسيني في الإكمال (١/ ٤٧٠)، وأبي زرعة ابن العراقي في ذيل الكاشف (ص١٦٠)، ووافقهما ابن حجر في تعجيل المنفعة (١/ ٧٥٠- ٧٥١)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٣٨٠)، فقد روى عنه جمع، وحسن الترمذيُّ حديثَه.

وعن أيوب السختياني، قال: (اجتمع سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عمر، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فذكروا الفتنة، فقال سعد: "أما أنا، فأجلس في بيتي، ولا أدخل فيها) حلية الأولياء (١/ ٩٤).

وعن عامر بن سعد أن أباه سعدا- رضي الله عنه- كان في غنم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: (أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبة! أرضيت أن تكون أعرابيا في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإني سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفي) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).

وعن ابن سيرين، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص: (ألا تقاتل، فإنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك؟ فقال: لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان، يعرف المؤمن من الكافر، إن ضربت به مسلما نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتله، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد"، وضرب لهم مثلا، فقال: "مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء، فبينا هم كذلك يسيرون هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق، والتبس عليهم، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين،

=

=

فأخذوا فيها، فتاهوا، وضلوا، وقال آخرون: الطريق ذات الشمال، فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: كنا في الطريق حيث هاجت الريح فننيخ فأناخوا، فأصبحوا، فذهب الريح، وتبين الطريق، فهؤلاء هم الجماعة، قالوا: نلزم ما فارقنا عليه رسول الله ﷺ حتى نلقاه، ولا ندخل في شيء من الفتن) أحرجه نعيم بن حماد في الفتن (ص١٦٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٤٣)، والطبراني في الكبير (١/ ١٤٤، رقم ٣٢٢)، والخطابي في العزلة (ص٧٢)، والحاكم (٤/ ٤٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٤) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٩): رجاله رجال الصحيح.

وعن الحسن قال (لما كان من أمر الناس ما كان من أمر الفتنة، أتوا عبد الله بن عمر، فقالوا: أنت سيد الناس، وابن سيدهم، والناس بك راضون: اخرج نبايعك، فقال: لا والله، لا يهراق في محجمة من دم، ولا في سببي، ما كان في الروح، قال: ثم أتي، فخوف، فقيل له: لتخرجن أو لتقتلن على فراشك، فقال مثل قوله الأول؛ قال الحسن: فوالله، ما استقلوا منه شيئا، حتى لحق بالله تعالى) حلية الأولياء (١/ ٢٩٣).

وعن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما (أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد ضيعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي- ﷺ- فما يمنعك أن تخرج؟! فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} [البقرة: ١٩٣]؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله) أخرجه البخاري (٤٥١٣).

وعن نافع أيضا أن رجلا أتى ابن عمر فقال (يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاما وتعتمر عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات

=

=

الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} [الحجرات: ٩] {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} [البقرة: ١٩٣] قال: فعلنا على عهد رسول الله- ﷺ- وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يفتن- في دينه إما قتلوه وأما يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله- ﷺ -، وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون) أخرجه البخاري (٤٥١٤، ٤٥١٥).

قال عمرو بن العاص- رضي الله عنه- لابنه عبد الله- رضي الله عنه -، وهو ممن اعتزل الفتنة يوم صفين-: (يا بني! انظر أين ترى عليا؟ قال: أراه في تلك الكتيبة القتماء ذات الرماح، عليه عمامة بيضاء، قال: لله در ابن عمر وابن مالك! لئن كان تخلفهم عن هذا الأمر خيرا؛ كان خيرا مبرورا، ولئن كان ذنبا؛ كان ذنبا مغفورا) العزلة (ص ٧٤، ٧٥)..

وكذلك علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- كان يقول: (لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر: إن كان برا إن أجره لعظيم، وإن كان إثما إن خطأه ليسير) مجموع الفتاوى" (٤/ ٤٤٠).

وعن أبي العالية، قال (لما كان قتال علي ومعاوية كنت رجلا شابا، فتهيأت، ولبست سلاحي، ثم أتيت القوم، فإذا صفان لا يرى طرفاهما، قال: فتلوت هذه الآية: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها} [النساء: ٩٣]. قال: فرجعت وتركتهم) حلية الأولياء (٢/ ٢١٩).

وعن ثابت البناني، عن مطرف، قال: (لأن يسألني ربي عز وجل يوم القيامة، فيقول: يا

=

=

مطرف ألا فعلت! أحب إلي من أن يقول لم فعلت؟) الزهد للبيهقي رقم (٨٤٧).
قال مطرف: (إن الفتنة لا تجيء حين تجيء لتهدي الناس، ولكن لتقارع المؤمن عن دينه، ولأن يقول الله: لم لا قتلت فلانا؟ أحب إلي من أن يقول: لم قتلت فلانا؟) حلية الأولياء (٢/ ٢٠٤).
وقال مطرف -أيضا-: (لأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، نظرت في العافية فوجدت فيها خير الدنيا والآخرة) حلية الأولياء (٢/ ٢١٢).
وقال أيضا- رَحِمَهُ اللَّهُ -: "لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إلي من أن ألتمس -أو قال؛ أطلب- فضل الجهاد بالتغرير".
فصل: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين، قال: (هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله- ﷺ- عشرة آلاف فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين).
(لما حدث الخلاف بين الصحابة- رضي الله عنهم أجمعين- وجر إلى القتال، دخل كعب بن سور -رَحِمَهُ اللَّهُ- في بيت، وطين عليه، وجعل فيه كوة يناول منها طعامه، وشرابه، اعتزالا للفتنة) رواه ابن سعد في "الطبقات" (٧/ ٩٢)، وربما فعل كعب ذلك ليراه المتورط المستدرج، فيراجع، ويستدرك.
عن ابن طاووس عن أبيه، قال: لما وقعت فتنة عثمان، قال رجل لأهله: "أوثقوني بالحديد، فإني مجنون"، فلما قتل عثمان، قال: (خلوا عني، الحمد لله الذي شفاني من الجنون، وعافاني من قتل عثمان) حلية الأولياء (١/ ١٧٨، ١٧٩).
وعن مرحوم بن عبد العزيز، قال: سمعت أبي يقول: لما كانت فتنة يزيد بن المهلب، انطلقت أنا ورجل إلى ابن سيرين، فقلنا: ما ترى؟ فقال: "انظروا إلى أسعد الناس حين قتل عثمان، فاقتدوا به"، قلنا: هذا ابن عمر كف يده) حلية الأولياء (٢/ ٢٧٦).

=

=

وقال بشير بن عقبة قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج؟ قال: (يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي لهم عما انجلت) الطبقات الكبرى (٧/ ١٤٢).

وقال قتادة (كان مطرف إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب، وكان الحسن البصري ينهى عنها، ولا يبرح، فقال مطرف: "ما أشبه الحسن إلا برجل يحذر الناس السيل ويقوم بسننه) الطبقات الكبرى (٧/ ١٤٢)، وحلية الأولياء (٢/ ٢٠٤).

وعن مالك بن دينار، قال (لما وقعت الفتنة، أتيت الحسن أسأله: يا أبا سعيد، ما تأمرني؟ فلا يجيبني، فقلت: "يا أبا سعيد، أتيتك ثلاثة أيام أسألك، وأنت معلمي فلا تجيبني، والله، لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمي، وأشرب من أفواه الأنهار، وآكل من بقل البرية، حتى يحكم الله بين عباده"، قال: فأرسل الحسن عينيه باكيا، ثم قال: "يا مالك، ومن يطيق ما تطيق؟ لكنا والله ما نطيق هذا) (٧/ ١٤٢)، "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٤).

وعن أبي الحارث الصائغ، قال (سألت أبا عبد الله -يعني الإمام أحمد- في أمر كان حدث في بغداد، وهم قوم بالخروج، فقلت: "يا أبا عبد الله! ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟ " فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: "سبحان الله! الدماء، الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه -يعني أيام الفتنة-؟ " قلت: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: "وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك"، ورأيته ينكر الخروج على الأئمة، وقال: "الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به) السنة" للخلال (١/ ١٣٢).

=

=

وعن أبي المنهال، قال (لما كان زمن أخرج ابن زياد: وثب مروان بالشام، وابن الزبير بمكة، ووثب الذين كانوا يدعون القراء بالبصرة؛ غم أبي غما شديدا، وكان يثني على أبيه خيرا- قال: قال لي: انطلق إلى هذا الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أبي برزة الأسلمي، فانطلقت معه، حتى دخلنا عليه في داره، وإذا هو في ظل علو له من قصب، في يوم شديد الحر، فجلست إليه، قال: فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، وقال: يا أبا برزة ألا ترى؟ قال: فكان أول شيء تكلم به، أن قال: إني أحتسب عند الله ﷻ أني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، وأنكم - معشر العرب- كنتم على الحال الذي قد علمتم من جهالتكم، والقلة، والذلة، والضلالة، وأن الله ﷻ نعشكم بالإسلام، وبمحمد- ﷺ- خير الأنام، حتى بلغ بكم ما ترون، وإن هذه الدنيا هي التي أفسدت بينكم، وإن ذاك الذي بالشام والله! إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن الذي حولكم الذين تدعونهم قراءكم: والله! لن يقاتلوا إلا على الدنيا"؛ قال: فلما لم يدع أحدا، قال له أبي: بم تأمر إذن؟ قال: "لا أرى خير الناس اليوم: إلا عصابة ملبدة؛ خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم) حلية الأولياء" (٢/ ٣٢، ٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٢٧): وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير. وقال -أيضا-: "... ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة؛ للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم اهـ.

مسألة: أكثر ما تتأكد العزلة في الفتن لأحد صنفين:

أحدهما: من خشي على دينه أن يفتن فيه، ويحول عنه.

الثاني: من كان ذا بأس وشدة، يخشى على الناس منه ومن بأسه، ومثله صاحب

=

=

الرأي والمشورة والدهاء، الذي يخشى على الناس من رأيه، ولذا ورد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال- لما ذكرت عنده الفتن، وسئل: أي أهل ذلك الزمان شر؟- قال: "كل خطيب مسقع، وكل راكب موضع"؛ وذلك لأن الأول محرض على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشران: شر القول، وشر العمل.

وفائدة العزلة وقت الفتن:

١- صيانة الدين عن المساس، والنفس عن التلف، والعرض عن الضيم والانتهاك، والمال عن الضياع، وقل من شارك في فتنة، وسلمت له هذه كلها.

٢- سلامة الصدر على المسلمين، ولذلك أمر سعد- رضي الله عنه- أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس لما وقعت الفتنة حتى يجتمعوا على إمام.

٣- إطفاء الفتنة وإخماد نارها؛ لأن الناس كلما اعتزلوا الفتن؛ قل أهلها، فقل شرها، وكلما تشرفوا لها وقاموا وقعدوا فيها، كثروا سواد أهلها، فزاد شرها، وعظم خطبها. ولذلك بوب البخاري في "صحيحه" في كتاب الفتن، فقال: باب من كره أن يكثر سواد أهل الفتن والظلم، وذكر فيه حديث أبي الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة فأخبرته، فنهاني أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس- رضي الله عنهما-: أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيأتي السهم يصيب أحدهم فيقتله، أو يضر به فيقتله، فأنزل الله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم} [النساء: ٩٧].

مسألة: حفظ اللسان في الفتن.

قال الله تعالى: {وجاهدوا في الله حق جهاده} [الحج: ٧٨]، وقال جل جلاله: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة} [التوبة: ١٢٣]، فمن سنة الجهاد البداءة بالعدو الأقرب فالأقرب، والنفس الأمارة بالسوء بين

=

=

جنبي الإنسان هي أقرب أعدائه إليه، فليبدأ بمجاهدتها وقمعها، خصوصا وأنها التي تأمر اللسان بالغيبة، والنميمة، والجدل، والمراء، والكذب، والخوض في الفتن.

عن فضالة بن عبيد- رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ -، قال رسول الله ﷺ (المجاهد من جاهد نفسه في الله ﷻ) أخرجه ابن المبارك فى الجهاد (١/ ١٤٢، رقم ١٧٥)، وأحمد (٦/ ٢٠، رقم ٢٣٩٩٧)، والترمذى (٤/ ١٦٥، رقم ١٦٢١)، وابن حبان (١٠/ ٤٨٤، رقم ٤٦٢٤)، والطبرانى (١٨/ ٣٠٩، رقم ٧٩٧)، والبيهقى فى كتاب الزهد الكبير (٢/ ١٦٣، رقم ٣٦٩)، والقضاعى (١/ ١٤٠، رقم ١٨٤)، والديلمى (٤/ ٢٠٦، رقم ٦٦٢٩) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥): ثابت، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥٤٩)، وصححه الشيخ مقبل في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٦٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح.

وعن أبي ذر- رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ -، قال رسول الله ﷺ (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله ﷻ) أخرجه ابن مله في الأمالي (٣/ ٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩)، والديلمي (١/ ١/ ١٢٧) والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٩٦).

وقال أبو حازم -رَحِمَهُٱللَّهُ-: (قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك) الحلية (٣/ ٢٣١).

ويتأكد وجوب حفظ اللسان وقت الفتن لما للسان من أثر في إشعالها، وقد يحسب المغرور أنه إذا كف يده فقد اعتزل الفتن، ولا يدري أنه لا ينجو منها حتى يكف لسانه أيضا، وكم من خائض في الفتن متلوث بها بلسانه، وهو يظن أنه ناج منها، وهو من أنشط الساعين فيها، المضرمين نارها، ومن ثم قال وهيب بن

=

=

الورد- رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وجدت العزلة في اللسان) الصمت لابن أبي الدنيا رقم (٣٨).
وعن عبد الله بن المبارك قال: قال بعضهم في تفسير العزلة (هو أن يكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فأسكت) الصمت لابن أبي الدنيا رقم (٣٧).
وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال (إن الفتنة وكلت بثلاث بالحاد النحرير الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف، وبالخطيب الذي يدعو إليها، وبالسيد، فأما هذان فتبطحهما لوجوههما، وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده) حلية الأولياء (١/ ٢٧٤).
وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لما ذكرت عنده الفتن، وسئل: أي أهل ذلك الزمان شر؟ قال: (كل خطيب مسقع، وكل راكب موضع) شرح السنة (١٥/ ١٦) والراكب الموضع في الفتنة: المسرع فيها، والخطيب المسقع والمصقع: البليغ، أو: من لا يرتج عليه في كلامه، ولا يتتعتع، وإنما قال ابن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ذلك؛ لأن الأول محرض على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشران: شر القول، وشر العمل.
والنصوص التالية تجسد لنا خطورة وقع اللسان في الفتن:
عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال (تكون فتنة تستنظف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف) أخرجه أحمد (٢/ ٢١١، رقم ٦٩٨٠)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١١)، وأبو داود (٤/ ١٠٢، رقم ٤٢٦٥)، والترمذى (٤/ ٤٧٣، رقم ٢١٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٢، رقم ٣٩٦٧) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث غريب، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: لا يعرف لزياد بن سيمين كوش غير هذا الحديث، ثم نقل الترمذي كلام البخاري في أن حماد بن زيد وقفه، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٢٢٩)،
=

=

وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٦٢): إسناده ضعيف، لضعف ليث -وهو ابن أبي سليم-، وجهالة حال زياد بن سيماكوش. (تنبيه) قول الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١١/ ١٧٠): إسناده صحيح، متعقب بما تقدم.

وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال (ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف) أخرجه أبو داود (٤/ ١٠٢، رقم ٤٢٦٤)، والطبراني فى الأوسط (٨/ ٣٠٨، رقم ٨٧١٧) والحديث قال عنه الحافظ في تخريج أحاديث المصابيح (٥/ ٩٧): فيه عبدالرحمن بن البيلماني، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٥٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (١٥/ ٩٨): فيه عبد الرحمن بن البيلماني ضعيف.

وروي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ (إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيف) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣١٢، رقم ٣٩٦٨)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ١٤٢، رقم ٣٥١)، وابن عدي في الكامل (٦/ ١٧٧)، والديلمى (١/ ٣٨٦، رقم ١٥٥٣) والحديث ضعفه ابن عدي، وقال ابن القيسراني في الذخيرة (٢/ ١٠٥٣) فيه: محمد بن الحارث متروك الحديث، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٧٦)، وقال المناوى في الفيض (٣/ ١٢٥): فيه محمد بن الحارث الحارثى ضعفوه، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢٤٧٩): ضعيف جدا.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال (بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكروا الفتنة، أو ذكرت عنده، قال إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا" -وشبك بين أصابعه- قال فقمت إليه، فقلت كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر،

=

=

وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢٤، رقم ٤٣٤٣)، وأحمد (٢/ ٢١٢، رقم ٦٩٨٧)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٤٧، رقم ٣٧١١٥)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٥٩، رقم ١٠٠٣٣)، والطبرانى (١٣/ ٩، رقم ٤)، والحاكم (٤/ ٣١٥، رقم ٧٧٥٨) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى، وقال المنذرى: في الترغيب (٣/ ٢٩٨): رواه أبو داود والنسائى بإسناد حسن، وقال العراقي في المغني (٢/ ٢٩١): إسناده حسن،، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه الأرنؤوط ومن معه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٥) وقال: و مما يلاحظ أن هذه الطرق الثلاث، ليس فيها الزيادة التي فى الطريق التي قبل هذه " الزم بيتك واملك عليك لسانك ". فالقلب يميل إلى أنها زيادة شاذة لأن الذي تفرد بها و هو هلال بن خباب فيه كلام كما سبق، فلا يحتج به إذا خالف الثقات. نعم قد جاءت هذه الزيادة فى حديث أبي ثعلبة الخشني نحو هذا، لكن لا يصح إسناده كما بينته فى المائة التي بعد الألف من " الأحاديث الضعيفة ". وإن مما يؤيد شذوذها أنني وجدت لحديث ابن عمرو هذا شاهدا من حديث أبي هريرة مثله ليس فيه الزيادة، و لفظه: "كيف بك يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت عهودهم و أماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا: و شبك بين أصابعه قال: قلت: يا رسول الله ما تأمرني؟ قال: عليك بخاصتك، و دع عنك عوامهم ".

ولما كان "الدفع أسهل من الرفع" و"الوقاية خيرا من العلاج"، أثنى النبي - ﷺ- على من يلزم بيته اتقاء لآفات اللسان واحترازا من الغيبة، والنميمة، والجدل، والسعاية وغير ذلك مما يكون وقودا لإضرام نار الفتن.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ (... ومن جلس في بيته لم يغتب إنسانا كان ضامنا على الله) أخرجه ابن خزيمة (١٤٩٥)، وابن حبان (٣٧٢)، والطبراني

=

=

في الكبير (٢٠/ رقم ٥٤)، وفي الأوسط (٨٦٥٤)، والحاكم (١/ ٢١٢ و٢/ ٩٠)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٦٦- ١٦٧) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١٣١٦)، وحسنه الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (٢/ ٩٥). ومعنى "ضامن على الله" أي: مضمون، على حد: "عيشة راضية" أي: مرضية، أو: ذو ضمان. قال النووي في "الأذكار": "معنى (ضامن) صاحب الضمان، والضمان: الرعاية للشيء، كما يقال: (تامر، ولابن) أي: صاحب تمر ولبن"، وانظر: "فيض القدير" للمناوي (٣/ ٣١٩)، و"النهاية" لابن الأثير (٣/ ١٠٢).

وهذا يدل على فضيلة من اعتزل مجالس الناس، ولزم بيته بنية كف شر لسانه عن إخوانه المؤمنين، كما قال ﷺ في أفضل الأعمال بعد الجهاد: (مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله، ويدع الناس من شره) أخرجه مسلم (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسم خرج عليهم وهم جلوس في مجلس، فقال ألا أخبركم بخير الناس منزلا؟، فقلنا بلى يا رسول الله، قال رجل آخذ برأس فرسه في سبيل الله حتى عقرت أو يقتل، فأخبركم بالذي يليه؟، قلنا: بلى يا رسول الله، قال امرؤ معتزل في شعب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعتزل شرور الناس.. الحديث) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٢، رقم ٢٩٦١)، وابن المبارك في الجهاد (١٦٩)، الطيالسي (٢٦٦١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٤)، والدارمى (٢/ ٢٦٥، رقم ٢٣٩٥)، والترمذى (٤/ ١٨٢، رقم ١٦٥٢)، وسعيد بن منصور (٢٤٣٤)، وابن أبي عاصم (١٥٢)، والنسائى (٥/ ٨٣ رقم ٢٥٦٩)، وابن حبان (٢/ ٣٦٧ رقم ٦٠٤)، والطبرانى (١٠/ ٣١٥ رقم ١٠٧٦٨)، والبيهقى فى الشعب (٣/ ٢٧٧، رقم ٣٥٣٩) والحديث حسنه الترمذي، وصححه العلامة

=

=

الألباني في الصحيحة (٢٥٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤/ ٣٤٦): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٢٤): إسناده صحيح، سعيد بن خالد: هو ابن عبد الله بن قارظ الكناني المدني روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه وهو ثقة، وشيخه فيه إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذؤيب ثقة حديثه عند النسائي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

وقال شقيق البلخي: (اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها، واحذر أن تحرقك) صفة الصفوة (٤/ ١٦٠).

وقال عبد الله بن داود (من أمكن الناس من كل ما يريدون، أضروا بدينه ودنياه) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩).

وعن زياد بن حدير، قال (لوددت أني في حيز من حديد، ومعي ما يصلحني، لا أكلم الناس، ولا يكلموني حتى ألقى الله تبارك تعالى) حلية الأولياء (٤/ ١٩٧)، والزهد لابن أبي عاصم رقم (٦٧) ص (٤٢).

تورع السلف عن آفات اللسان في الفتن:

قال إياس بن معاوية بن قرة رحمه الله تعالى (كان أفضلهم عندهم -أي عند الصحابة رضي الله عنهم- أسلمهم صدورا، وأقلهم غيبة) حلية الأولياء (٣/ ١٢٥)، بلفظ: "عندي -يعني الماضين"، ولعل ما أثبتناه أقرب.

وعن طارق بن شهاب، قال (كان بين خالد وسعد كلام، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد، فقال: "مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا) حلية الأولياء (١/ ٩٤).

وسمع عمار بن ياسر رضي الله عنه رجلا ينال من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقال له (اسكت مقبوحا منبوحا، فأشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة، وفي رواية: اغرب مقبوحا أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ -؟!) أخرجه ابن عساكر كما في الكنز (٣/ ١١٦)، وابن سعد (٨/ ٦٥).

=

=

وقال ثابت البناني: (إن مطرف بن عبد الله قال لبثت في فتنة ابن الزبير تسعا أوسبعا ما أخبرت فيها بخبر، ولا استخبرت فيها عن خبر).

وعن شقيق، قال: قال لي شريح: (ما أخبرت ولا استخبرت منذ كانت الفتنة، قلت لو كنت مثلك، لسرني أن أكون قد مت، قال فكيف بما في صدري، تلتقي الفئتان إحداهما أحب إلي من الأخرى؟) حلية الأولياء" (٤/ ١٣٣).

وقال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: (حدثني عروة أن المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال يا مسور، ما فعل طعنك على الأئمة؟، قال: دعنا من هذا وأحسن، قال لا والله! لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب علي قال مسور فلم أترك شيئا أعيبه عليه إلا بينت له قال لا أبرأ من الذنب، فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب وتترك المحاسن؟ قال ما تذكر إلا الذنوب"، قال معاوية فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يامسور ذنوب في خاصتك تخشى بأن تهلك إن لم تغفر؟، قال نعم"، قال فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله على ما سواه، وإني على دين يقبل فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها، قال فخصمني قال عروة فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠، ١٥١) (٣٩١، ٣٩٢).

عن أبي راشد، قال: (جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال إني رسول إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يقرءونك السلام، ويسألونك عن أمر هذين الرجلين علي وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال هل غير؟ قال لا، قال جهزوا الرجل، فلما فرغ من جهازه قال اقرأ عليهم السلام، وأخبرهم أن قولي فيهم:

=

=

{تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون (١٣٤)} [البقرة: ١٣٤]) العزلة للخطابي (ص٤١).

وعن شريك قال (سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه، فقال إنه من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره) حلية الأولياء (٨/ ١٥).

وقال الشافعي (قيل لعمر بن عبد العزيز ما تقول في أهل صفين؟ قال تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها) العزلة للخطابي (ص٤١).

وعن الهيثم بن عبيد الصيدلاني، قال (سمع ابن سيرين رجلا يسب الحجاج، فقال مه أيها الرجل! إنك لو وافيت الآخرة كان أصغر ذنب عملته قط أعظم عليك من أعظم ذنب عمله الحجاج، واعلم أن الله ﷻ حكم عدل، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه شيئا فشيئا، أخذ للحجاج ممن ظلمه، فلا تشغلن نفسك بسب أحد) شعب الإيمان (٥/ ٢٨٧ رقم ٦٦٨١).

ولا ينحصر شؤم إطلاق اللسان في الفتن في ولائم السوء التي يسودها الجدل والمراء والغيبة والنميمة، لكنه يتعداها إلى آثار خطيرة في واقع الأمة، فالشر مبدؤه شرارة، "ومعظم النار من مستصغر الشرر".

وكثير من الفتن تبذر بذرتها في مجالس الغيبة والوقيعة، ولا يتوقع أصحابها أن تبلغ ما بلغت، ثم تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وإذا بها تشتعل وتضطرم رويدا رويدا حتى يستعصي إطفاؤها حتى على الذين أوقدوا شرارتها، فهؤلاء الغيابون أكلة لحوم البشر هم من الذين وصفهم رسول الله ﷺ، فقال: (إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه) أخرجه الطيالسى (ص ٢٧٧، رقم ٢٠٨٢)، وابن ماجه (١/ ٨٦، رقم ٢٣٧)،

=

=

وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ١٢٧، رقم ٢٩٧)، والحكيم (١/ ٤٢٠)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٤٥٥، رقم ٦٩٨) والحديث قال عنه البوصيرى في مصباح الزجاجة (١/ ٣٤): هذا إسناد ضعيف من أجل محمد بن أبى حميد فإنه متروك، وقال السخاوي في المقاصد (ص٢١٤): رواه ابن ماجه في السنة من سننه والطيالسي في مسنده كلاهما من حديث محمد بن أبي حميد عن حفص بن عبد الله بن أنس بن مالك عن جده أنس، رفعه به وقيل عن ابن أبي حميد عن موسى بن وردان عن حفص ولكن ابن أبي حميد منكر الحديث وله شاهد عن سهل بن سعد أخرجه ابن ماجه وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف أيضا، أما العلامة الألباني فقال في الصحيحة (١٣٣٢): بعد أن ضعف طرق الحديث و بالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن إن شاء الله تعالى.

وهاك هذه الشواهد التاريخية التي تدل على أنه "رب قول يسيل منه دم".

قال أبو معبد عبد الله بن عكيم الجهني -تابعي جليل- في خطبة له: (لا أعين على دم خليفة أبدا بعد عثمان"، فقال رجل متعجبا: "يا أبا معبد، أوأعنت على دمه؟، فقال أبو معبد إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونا على دمه) الطبقات لابن سعد (٣/ ٨٠).

ولقد قال رسول الله ﷺ (إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

فهؤلاء الساعون بالوشاية والنميمة، أحصوا اجتهادات أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وصوروها بحسب ما تتخيل عقولهم الضعيفة، وقلوبهم المريضة، فاتخذوا ذلك سلما إلى الفتنة.

حين علم حذيفة رضي الله عنه بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه قال (اللهم العن قتلته وشتامه، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا، فاتخذوا ذلك سلما إلى الفتنة، اللهم لا تمتهم إلا

=

=

بالسيوف) الكامل لابن الأثير (٣/ ٥١).

قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري وكلاهما من التابعين (يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي صفرة إلا أنه عاون بلسانه، ورضي بقلبه"، فقال الحسن: "يابن أخي كم يد عقرت الناقة؟ "، قلت: "يد واحدة" قال: "أليس قد هلك القوم جميعا برضاهم وتماليهم؟) الزهد للإمام أحمد (ص ٢٨٩).

ولعل النزعة الخارجية التي تطل برأسها من وقت إلى آخر لتبعث الحياة في فكر الخوارج الأولين وسلوكهم هي المسئولة عن كثير من التعديات على الحرمات، فقد قال ﷺ في شأن الخوارج (يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان) أخرجه البخاري (٧٤٣٢) وغيره، وهذه العلامة هي التي جعلت أحد العلماء، وقد وقع مرة في يد بعض الخوارج، فسألوه عن هويته، فقال (مشرك مستجير، يريد أن يسمع كلام الله"، وهنا قالوا له: "حق علينا أن نجيرك، ونبلغك مأمنك، وتلوا قول الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه} [التوبة: ٦]، بهذه الكلمات نجا مشرك مستجير، ولو قال لهم: مسلم لقطعوا رأسه) وانظر صورا مماثلة من تهور الخوارج وانتهاكهم حرمات المسلمين مع تورعهم مع الكافرين في "تلبيس إبليس" لابن الجوزي ص (١٢٨، ١٢٩). وتكفير المسلم مفتاح استباحة دمه.

فقد اتهم القاضي عياض- رحمه الله تعالى- بأنه "يهودي"؛ لأنه كان يلزم بيته للتأليف نهار السبت.

- وهذا الشيخ علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووي -رحمهما الله- مع أنه كان شيخ زمانه- كان يمشي متأبطا وثيقة من أحد القضاة بصحة إيمانه، وبراءته من كل ما يكفره، مخافة أن يصادفه أفاك في مجلس.

=

=

وفي القصة التالية معتبر ومزدجر وتذكرة بأن "من الغيبة ما قتل":
عن رشيد الخباز قال (خرجت مع مولاي إلى مكة، فجاورنا، فلما كان ذات يوم، جاء إنسان فقال لسفيان: "يا أبا عبد الله، قدم اليوم حسن وعلي ابنا صالح"، قال: "وأين هما؟ " قال: "في الطواف"، قال: "إذا مرا، فأرنيهما"، فمر أحدهما، فقلت: "هذا علي"، ومر الآخر، فقلت: "هذا حسن"، فقال: "أما الأول فصاحب آخرة، وأما الآخر فصاحب سيف، لا يملأ جوفه شيء"، قال: فيقوم إليه رجل ممن كان معنا، فأخبر عليا، ثم مضى مولاي إلى علي يسلم عليه، وجاء سفيان يسلم عليه، فقال له علي: "يا أبا عبد الله، ما حملك على أن ذكرت أخي أمس بما ذكرته؟ ما يؤمنك أن تبلغ هذه الكلمة ابن أبي جعفر، فيبعث إليه، فيقتله؟ " قال: فنظرت إلى سفيان، وهو يقول: "أستغفر الله" وجادتا عيناه) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦٦).
وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال (كنا مع رجاء بن حيوة فتذاكرنا شكر النعم، فقال: "ما أحد يقوم بشكر نعمة"؛ وخلفنا رجل على رأسه كساء، فقال: "ولا أمير المؤمنين؟ "، فقلنا: "وما ذكر أمير المؤمنين هنا؟! وانما هو رجل من الناس"، قال: فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يره، فقال: "أتيتم من صاحب الكساء، فإن دعيتم، فاستحلفتم، فاحلفوا"؛ قال: فما علمنا إلا بحرسي قد أقبل عليه، قال: "هيه يا رجاء، يذكر أمير المؤمنين، فلا تحتج له؟! "، قال: فقلت: "وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ "، قال: "ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين؟، فقلت: أمير المؤمنين رجل من الناس! "، فقلت: "لم يكن ذلك"؛ قال: "آلله؟ "، قلت: "آلله"، قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطا، فخرجت وهو متلوث بدمه، فقال: "هذا وأنت رجاء بن حيوة؟ "، قلت: "سبعين سوطا في ظهرك خير من دم مؤمن"، قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول، ويتلفت: "احذروا صاحب الكساء)
=

=

سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦١).

قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته بلسانه تذهب رأسه... وعثرته برجله تبرا على مهل

آخر:

وجرح السيف تدمله فيبرا... وجرح الدهر ما جرح اللسان

جراحات الطعان لها التئام... ولا يلتام ما جرح اللسان.

وآخر:

السيف يأسوه المداوي... وجرح القول طول الدهر دامي.

مسألة: يستحب مواجهة الفتنة بالعمل الصالح.

في مواطن الفتن والنوازل ينشغل كثير من الناس بتتبع الأخبار، ويولعون بذلك، ومن ثم يغلب على أحاديث المجالس: "سمعت، ورأيت، وأتوقع، ولو كان كذا كان أولى، ولو قدم هذا أو أخر ذاك لكان أحرى"، مما يصرف هممهم عن النوافل المستحبة، وربما فرطوا في الواجبات، أو أخرجوا الصلاة عن وقتها بسبب السهر في السمر والجدل مثلا، بجانب الإخلال بواجبات المعاش، وحقوق الأهل والأولاد.

كل ذلك بسبب السهر في قيل وقال، والإغراق في تصفح الجرائد والمجلات، ومتابعة القنوات، بل الشغف بذلك إلى حد إدمانها والوقوع في أسرها.

وهذا كله انحراف عن الهدي النبوي في التعامل مع الفتنة، وقد قال- ﷺ -: (خير الهدي هدي محمد ﷺ)، فكيف كان هديه- ﷺ- في ذلك؟

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مومنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض

=

=

من الدنيا) أخرجه مسلم (١١٨).

وكان الحسن البصري -رحمه الله تعالى- يقول في هذا الحديث: (يصبح الرجل محرما لدم أخيه وعرضه وماله، ويمسي مستحلا له، ويمسي محرما لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلا له) نقله عنه الترمذي في سننه (٤/ ٤٨٨، رقم (٢١٩٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بادروا بالأعمال ستا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم) أخرجه مسلم، رقم (١١٨).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت (استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فزعا يقول سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه- لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة) أخرجه البخاري (١١٥).

فالعمل الصالح وسيلة للثبات على الحق، قال تعالى: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} [النساء: ٦٦].

وإن النفس وقت الفتن إن لم يبادر المؤمن بإشغالها بالحق، شغلته بالباطل ولا بد.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-:"نفسك إن لم تشغلها بالحق؛ شغلتك بالباطل".

وصاحب الأعمال الصالحة لا يخزيه الله أبدا:

ففي حديث بدء الوحي قالت خديجة رضي الله عنها للنبي- صلى الله عليه سلم (كلا والله! لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق) أخرجه البخاري رقم (٣)، ومسلم (٢٤٥)

=

=

من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) روي عن عدة من الصحابة كما في الصحيحة (١٩٠٨)، وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٥، ٣٧٩٦).

ويروى أن الفتنة لما وقعت، قال طلق بن حبيب: "اتقوها بالتقوى".

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ (العبادة في الهرج كهجرة إلي) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧٦).

قال الأبي المالكي كما في إكمال إكمال المعلم (٧/ ٢٨٣): الهرج: الفتنة والاختلاط، ووجه التشبيه: أن المهاجر فر بدينه ممن يصده عنه إلى الاعتصام برسول الله ﷺ وكذلك هذا المنقطع للعبادة في الفتنة فر عن الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه عَزَّ وَجَلَّ، فهو مهاجر إلى الله سبحانه وتعالى ا. هـ

وقد قال الله تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) [الحديد: ١٠] لأن الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا فعلوا ذلك في وقت خوف وقلة، بخلاف من فعل ذلك بعد الفتح، فإنهم- وإن كانوا موعودين بالحسنى- إلا أنهم أنفقوا وقاتلوا بعد عزة الإسلام وقوة أهله.

وقال تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة: ٤٥].

وذلك لأن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر.

وقال جل وعلا مخاطبا خليله محمدا ﷺ: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [الحجر: ٩٧- ٩٩]. فأمره ﷺ بأن يفزع إلى الصلاة والذكر إذا ضاق صدره بما يقوله أعداء الدين، فإن في ذلك شرحا للصدر، وتفريجا للكربة، وهكذا كان هديه

=

=

ﷺ؛ فقد كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، قال حذيفة رضي الله عنه (رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله- ﷺ- إذا حزبه أمر صلى) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨ رقم ٢٣٣٤٧)، وأبو داود (١/ ٤٢٠ رقم ١٣١٩)، وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢١٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٧٤)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ١٥٥) والحديث حسنه الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٢) وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق تفسير الطبري: إسناده صحيح، وضعفه العلامة العلامة الألباني في المشكاة التحقيق الأول (١٣٢٥) ثم عاد الشيخ رحمه الله وحسنه في صحيح أبو داود (١٣١٩) وصحيح الجامع (٤٧٠٣)، أما الأرنؤوط ومن معه فقالوا في تحقيق المسند (٣٨/ ٣٣٠): إسناده ضعيف، محمد بن عبد الله، ويقال: محمد بن عبيد أبو قدامة تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي، ولم يوثقه أحد، فهو مجهول، وعبد العزيز أخو حذيفة رجح الذهبي في "التجريد"، والحافظ في "الإصابة" ٥/ ٩٤٢ أنه ابن أخيه، كما وقع في رواية أبي داود وغيره، ونقل ذلك أيضا عن أبي نعيم، قلنا: وعبد العزيز روى عنه اثنان من المجهولين، وقال الذهبي: لا يعرف، ومع ذلك وثقه العجلي وابن حبان! وقد اختلف في إسناده على عكرمة بن عمار كما سيأتي.

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال (لقد رأيتنا ليلة بدر، وما فينا إنسان إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥)، وأبو يعلى (٢٨٠)، وابن خزيمة (٨٩٩)، وابن حبان (٢٢٥٧)، والطيالسي (١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٨- ٣٩) والحديث صححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢/ ٢٩٩): إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب فمن رجال أصحاب

=

=

السنن.

ويروى أن ثابتا قال: (كان النبي ﷺ إذا أصابته خصاصة نادى بأهله: "صلوا، صلوا". قال ثابت: "وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٠) وابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في الشعب، كما في الدر المنثور (٤/ ٣١٣)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٢٧٦٠) بقوله: وهذا إسناد رجاله ثقات؛ كلهم من رجال " التهذيب ". إلا أنه مرسل، لأن ثابتا- هو البناني- تابعي معروف مكثر عن أنس، ومع هذا صححه الشيخ الرفاعي في "مختصره "، وتبعه بلديه الصابوني، وغالب الظن أنهما لم يعرفا من هو ثابت؟ ثم رأيت الحديث في الشعب للبيهقي (٣/ ١٥٥/ ٣١٨٥) من طريق أخرى عن سيار بن حاتم به معضلا.

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كان النبي، ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أوقمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المطر، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٢٣، رقم ٥٦٨) والحديث قال عنه ابن رجب في فتح الباري (٦/ ٣٢٧): هو منقطع وفي إسناده: نعيم بن حماد وله مناكير، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢١١): رواه الطبراني في «الكبير» من رواية زياد بن صخر، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

وهكذا كان شأن الصحابة الأبرار رضي الله عنهم، فقد روي عن النضر أنه قال: (كانت ظلمة على عهد أنس، فأتيته، فقلت: "يا أبا حمزة، هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ؟ " فقال: "معاذ الله! إن كانت الريح لتشتد فنبادر إلى المسجد مخافة أن تكون القيامة) أخرجه أبو داود (١١٩٦) والحديث صححه الحاكم، وقال النووي في الخلاصة (٢/ ٨٦٥): إسناده حسن، قال عنه المنذري في تهذيب

=

=

السنن (٢/ ٤٦): حكى البخاري في التاريخ -أن- فيه اضطرابًا، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف أبي داود الأم (٢/ ٢٩).

هكذا كان شأن الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، والتابعين لهم بإحسان في كل جيل مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه، وشأن الغني مع ثروته، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه، واستعطافه للأم الحنون، بل كانوا أكثر إدلالا وثقة بصلاتهم، وأقوى اعتمادا عليها من كل ذلك، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم، فإذا أفزعوا أو أثيروا، وإذا دهمهم عدو، أو تأخر عليهم فتح، أو التبس عليهم أمر، التجئوا إلى الصلاة، وفزعوا إليها.

وفي أعقاب معركة اليرموك، وقف ملك الروم يسائل فلول جيشه المهزوم: "ويلكم، أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرا مثلكم؟! " قالوا: "بلى أيها الملك"، قال: "فأنتم أكثر أم هم؟! " قالوا: "بل نحن أكثر منهم في كل موطن"، قال: "فما بالكم إذن تنهزمون؟! " فأجابه شيخ من عظمائهم: "إنهم يهزموننا؛ لأنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويتناصفون بينهم. البداية والنهاية (٧/ ١٥). فللصلاة خصوصية في دفع الفتن ورفعها:

عن عبيد الله بن عدي بن خيارأنه دخل على عثمان بن عفان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ وهو محصور، فقال: (لا إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة، ونتحرج"، فقال: "الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم) علقه البخاري مجزوما به في الأذان- باب إمامة المفتون والمبتدع (٦٩٥) قال:: قال لنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا الأوزاعي، قال: حدثنا الزهري عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عدي ابن خيار، فذكره.

قال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٢١): قيل عبر بهذه الصيغة لأنه مما أخذ من شيخه في المذاكرة فلم يقل فيه حدثنا، وقيل أن ذلك مما تحمله بالإجازة أو المناولة أو

=

=

العرض، وقيل: هو متصل من حيث اللفظ منقطع من حيث المعنى. والذي ظهر لي بالاستقراء خلاف ذلك وهو أنه متصل لكنه لا يعبر بهذه الصيغة إلا إذا كان المتن موقوفا أو كان فيه راو ليس على شرطه، وقد وصله الإسماعلي من رواية محمد بن يحيى قال: حدثنا محمد بن يوسف الفريابي.

قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٩٠): وفي هذا الأثر الحض على شهود الجماعة، ولا سيما في زمن الفتنة؛ لئلا يزداد تفرق الكلمة، وفيه أن الصلاة خلف من تكره الصلاة خلفه أولى من تعطيل الجماعة.

مسألة: الدعاء والتضرع في الفتن.

الضراعة إلى الله تعالى من أسباب كشف الغمة وتفريج الكربة؛ قال تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) [الأنعام: ٤٢، ٤٣]، وقال تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) [الأعراف: ٩٤].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ مر بقوم مبتلين، فقال: (أما كان هؤلاء يسألون العافية؟!) أخرجه البزار (٣١٣٤- كشف)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢١٩٧).

وكان الحسن البصري يقول: (إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإن الله تعالى يقول: ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) [المؤمنون: ٧٦].

وعند الفتن تطيش العقول، وتحتار النفوس فلا تدري ماذا تعمل؟ وفي هذا الموقف يغفل كثير من الناس عن سلاح عظيم كان عدة للأنبياء والصالحين على مر الزمان، ألا وهو الدعاء، قال تعالى عن نبيه نوح: (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر

=

=

* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) [القمر: ١٠، ١١] وقال عن نبيه ذي النون: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) [الأنبياء: ٨٧].

وقال تعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر: ٦٠]، وقال ﷺ: (الدعاء هو العبادة) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١، رقم ١٨٤١٥)، وابن أبى شيبة (٦/ ٢١، رقم ٢٩١٦٧)، والبخارى فى الأدب المفرد (١/ ٢٤٩، رقم ٧١٤)، وأبو داود (٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩)، والترمذى (٥/ ٢١١، رقم ٢٩٦٩)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٤٥٠، رقم ١١٤٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨)، وابن حبان (٣/ ١٧٢، رقم ٨٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩)، والطبراني في الدعاء (٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٢٠)، وأبو عمرو بن منده في الفوائد (٣٥)، والحاكم (١/ ٦٦٧، رقم ١٨٠٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٣٧، رقم ١١٠٥م)، والطبرانى فى الصغير (٢/ ٢٠٨، رقم ١٠٤١)، والقضاعى في مسند الشهاب (١/ ٥١، رقم ٢٩) كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٨)، وقال النووي: أسانيده صحيحة كما في الفيض، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ٢٩٨): إسناده صحيح، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٧٧)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٩٣).

وقال ﷺ: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٧٤٧)، وأبو يعلى (٦٦١٩)، وابن حبان (٤٤٩٨)، والبيهقي في الشعب (٨٧٦٩) موقوفا،

=

=

وأخرجه مرفوعا ابن نجيد في أحاديثه (ق ٤ - ١)، والطبراني في الأوسط (٥٥٩١)، وفي الدعاء (٦٠)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٢٩ - ٨٧٦٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٤٧)، وعبد الغني المقدسي في الدعاء (٢٠) والحديث الموقوف قال عنه الحافظ في الفتح (٩/ ٥٦٥): هذا موقوف صحيح عن أبي هريرة، أما الحديث المرفوع فقال عنه المنذري في الترغيب (٣/ ٤٣٠): إسنادٌ جيدٌ قوي، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣١): رجاله رجال الصحيح غير مسروق بن المرزبان، وهو ثقة.، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٦٠١)، أما الدارقطني فقال في العلل (١١/ ٢١٧): الصحيح موقوف، وكذا فعل الحويني في مجلة التوحيد: فضعف الحديث المرفوع ورجح الوقف.

ومن شأن الفتن أن تشتبه فيها الأمور، ويغمض وجه الحق ويلتبس على الجمهور، إلا من عصم الله ورحم، فمن أعظم أسباب النجاة منها الاعتصام بالله تعالى والاستغاثة به، ودعاؤه، فإنه ﷻ القائل في الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم" الحديث) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: (سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: "كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) أخرجه مسلم (٧٧٠).

فالهداية إلى الحق والاستبصار به وقت الفتن منحة ربانية، وهبة إلهية، قال تعالى: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) [البقرة: ٢١٣].

=

=

وكان إبراهيم التيمي- رحمه الله تعالى- يقول: "اللهم اعصمني بدينك وسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلال، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ والخصومات".

وعن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: (تكون فتنة لا ينجي منها إلا دعاء كدعاء الغريق) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٢، ٧/ ٤٥١، ٥٣١)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٠).

وعن حذيفة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: (ليأتين على الناس زمان، لا ينجو فيه إلا من دعا كدعاء الغريق) حلية الأولياء (١/ ٢٧٤).

وعن يحيى بن سعيد قال (سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يصلي من الليل حين نشب الناس في الفتنة، ثم نام، فأري في المنام، فقيل له: قم فسل الله أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالح عباده، فقام يصلي، ثم اشتكى، فما خرج إلا جنازة) حلية الأولياء (١/ ١٧٨).

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال (لما نشب الناس في الطعن علي عثمان رضي الله تعالى عنه، قام أبي يصلي من الليل، وقال: "اللهم، قني من الفتنة، بما وقيت به الصالحين من عبادك"؛ قال: فما خرج إلا جنازة) حلية الأولياء (١/ ١٧٨).

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال (بينا رجل بمصر في بستان -زمن فتنة آل الزبير- جالسا، كئيبا، حزينا، يبكي، ينكث الأرض بشيء معه؛ فرفع رأسه، فإذا صاحب مسحاة، قد مثل له، فقال: "ما لي أراك مهموما حزينا؟ " فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء؛ فقال: "أبالدنيا؟ فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، أم بالآخرة؟ فإن الآخرة أجل صادق، يفصل فيه بين الحق والباطل؛ قال: حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل اللحم، من أخطأ منها شيئا أخطأ الحق" قال: فكأنه أعجبه بذلك من كلامه؛ قال: اهتمامي بما فيه المسلمون؛ فقال: "إن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل، من ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعا الله فلم

=

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠).

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَة} فِي الدِّين {فَأَصْلِحُوا بَيْن أخويكم} إذا تنازعا وقرئ إخوتكم بالفوقانية {واتقوا الله لعلكم ترحمون[1]}.

=

يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ " قال: فعلقت الدعاء، فقلت: "اللهم سلمني، وسلم مني"؛ قال: فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئا) حلية الأولياء (٤/ ٢٤٤). انظر كتاب بصائر في الفتن.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]، أي:" إنما المؤمنون إخوة في الدين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} في الدين".

قال ابن كثير:" أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» ".

قال السعدي:" هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم".

وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

وفي الصحيح -أيضا-: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله».

وفي الصحيح: «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وفي الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" وشبك بين أصابعه».

=

=

قوله تعالى: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠]، أي:" فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا".

قال الطبري: يقول: "{فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان".

عن محمد بن سيرين: "أنه كان يقرأ: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوانِكُمْ» ".

سُئِل محمّد بن كعب القُرَظيّ عن هاتين الآيتين: {وإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما}. فقال: "جعل النبيّ - ﷺ- أجْر المُصلح بين الناس كأجْر المُجاهد عند البأس".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]، أي:" وخافوا الله في جميع أموركم؛ رجاء أن تُرحموا".

قال الطبري: يقول: "وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته".

قال عون بن عبد الله بن غنية:" {لعلّ} من الله واجب".

قال السعدي:" أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة، فقال: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك، على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة.. وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا، كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان، والأخوة

=

=

الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح، بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا، لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {إنما المؤمنون إخوة} هذا كالتعليل لقوله: {فأصلحوا بينهما} يعني إنما أوجب الله علينا الإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين؛ لأن المؤمنين إخوة. الطائفتان المقتتلتان هما أخوان، ونحن أيضًا إخوة لهم حتى مع القتال.

فإذا قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» والكافر ليس أخًا للمؤمن ؟

فالجواب أن يقال: إن الكفر الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام هو كفر دون كفر، فليس كل ما أطلق الشرع عليه أنه كفر يكون كفرًا، فهنا صرح الله ﷻ بأن هاتين الطائفتين المقتتلتين إخوة لنا مع أن قتال المؤمن كفر. فيقال: هذا كفر دون كفر، وقال النبي ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهما كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت» ومعلوم أن الطاعن في النسب والنائح على الميت لا يكفر كفرًا أكبر، فدل ذلك على أن الكفر في شريعة الله في الكتاب وفي السنة كفران: كفر مخرج عن الملة، وكفر لا يخرج عن الملة {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} وفي هذا من الحمل على العطف على هاتين الطائفتين المقتتلتين ما هو ظاهر في قوله: {فأصلحوا بين أخويكم} كما أنك تصلح بين أخويك الأشقاء من النسب، فأصلح بين أخويك في الإيمان {واتقوا الله لعلكم ترحمون} يعني اتقوا الله تعالى

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر} الْآيَة نَزَلَتْ فِي وَفْد تَمِيم حِين سَخِرُوا مِنْ فُقَرَاء الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَالسُّخْرِيَّة الِازْدِرَاء وَالِاحْتِقَار {قَوْم} أَيْ رِجَال مِنْكُمْ {مِنْ قَوْم عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} عِنْد الله {وَلَا نِسَاء} مِنْكُمْ {مِنْ نِسَاء عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسكُمْ} لَا تَعِيبُوا فَتُعَابُوا أَيْ لَا يَعِبْ بَعْضكُمْ بَعْضًا {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} لَا يَدْعُو بَعْضكُمْ بَعْضًا بِلَقَبٍ يَكْرَههُ وَمِنْهُ يَا فَاسِق يَا كَافِر {بِئْسَ الِاسْم} أَيْ الْمَذْكُور مِنْ السُّخْرِيَّة وَاللَّمْز وَالتَّنَابُز {الْفُسُوق بَعْد الْإِيمَان} بَدَل مِنْ الِاسْم أَنَّهُ فِسْق لِتَكَرُّرِهِ عَادَة {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ} مِنْ ذلك {فأولئك هم الظالمون}[1].

=

بأن تفعلوا ما أمركم به وتتركوا ما نهاكم عنه؛ لأنكم إذا قمتم بهذا فقد اتخذتم وقاية من عذاب الله، وهذه هي التقوى، وعلى هذا كلما سمعت كلمة تقوى في القرآن فالمعنى أنها اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه {لعلكم ترحمون} أي ليرحمكم الله ﷻ إذا اتقيتموه.

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه؛ قال: فينا نزلت الآية؛ قدم رسول الله -ﷺ- المدينة وما منا رجل إلا له اسمان أو ثلاثة، كان إذا دعا الرجل بالاسم؛ قلنا: يا رسول الله! إنه يغضب من هذا؛ فأنزلت: {ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون}.

أخرجه أحمد (٤/ ٦٩ رقم ١٦٦٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٠)، وأبو

=

=

داود (٤٩٦٢)، والترمذي (٣٢٦٨)، وابن ماجة (٣٧٤١)، والطبري في تفسيره (٢٦/ ٨٤)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٥٢ رقم ٦٨٥٣)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٦) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٩٦٨) والبيهقي في الشعب (٦٧٤٧) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٩٩- ٢٠٠) وقال (تنبيه): أبو جبيرة مختلف في صحبته قال أبو أحمد وتبعه ابن عبد البر، قال بعضهم له صحبة، وقال بعضهم لا صحبة له، وقال ابن أبي حاتم لا أعلم له صحبة، قال الحافظ في الإصابة: قلت أخرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، وأصحاب السنن، وصححه الحاكم، وحسنه الترمذي ثم ذكر هذا الحديث، أقول الظاهر ثبوت صحبته إذ لو كان تابعيا لنبه هؤلاء الذين أخرجوا حديثه أنه مرسل، ومن علم حجة على من لا يعلم، على أنه قد روى هذا الحديث كما في مسند أحمد (ج ٤ ص ٦٩ وج ٥ ص ٣٨٠) عن عمومة له قدم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وليس أحد منا إلا له لقب أو لقبان. الحديث. قال الهيثمي (ج ٧ ص ١١١) رجاله رجال الصحيح، فثبت الحديث والحمد لله. ا. هـ، وصححه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٢٨٢- ٢٨٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم وأخرج له البخاري تعليقا وهو ثقة، فالحديث صحيح إن صحت صحبة أبي جبيرة وإلا فمرسل.

وعن مقاتل في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ

=

=

الظَّالِمُونَ (١١)}؛ قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزأوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٣) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.
وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}؛ قال: كان هذا الحي من الأنصار قَلَّ رجل منهم إلا وله اسمان أو ثلاثة، فربما دعا النبي ﷺ الرجل منهم ببعض تلك الأسماء، فيقال: يا رسول الله! إنه يكره هذا الاسم؛ فأنزل الله تعالى: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٤) ونسبه لابن مردويه.
* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} [الحجرات: ١١]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشريعته لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين؛ عسى أن يكون المهزوء به منهم خيرًا من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات؛ عسى أن يكون المهزوء به منهنَّ خيرًا من الهازئات".
قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين {عَسَى} المهزوء منهم خير من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيرا من الهازئات".
قال البيضاوي:" أي: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر.. واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع".
قال ابن كثير:" ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص

=

=

الناس»، ويروى: «وغمط الناس»، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ}، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء".

قال السعدي:" وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين، بعضهم على بعض، أن {لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ} بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم".

واختلف أهل التأويل في السخرية التي نهى الله عنها المؤمنين في هذه الآية، على قولين:

أحدهما: أنها سخرية الغنيّ من الفقير، نهي أن يسخر من الفقير لفقره. قاله مجاهد.

قال مجاهد:" لا يهزأ قوم بقوم أن يسأل رجل فقير غنيا، أو فقيرا، وإن تفضل رجل عليه بشيء فلا يستهزئ به".

الثاني: أن ذلك نهي من الله من ستر عليه من أهل الإيمان أن يسخر ممن كشف في الدنيا ستره منهم. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:" ربما عثر على المرء عند خطيئته عسى أن يكونوا خيرا منهم، وإن كان ظهر على عثرته هذه، وسترت أنت على عثرتك، لعلّ هذه التي ظهرت خير له في الآخرة عند الله، وهذه التي سترت أنت عليها شرّ لك، ما يدريك لعله ما يغفر لك؛ قال: فنهي الرجل عن ذلك، فقال: {لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا

=

=

خَيْرًا مِنْهُمْ}، وقال في النساء مثل ذلك".

قال الطبري:" الصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك".

قوله تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: ١١]، أي:" ولا يَعِبْ بعضكم بعضًا".

قال الطبري:" ولا يطعن بعضكم على بعض.. فجعل اللامز أخاه لامزا نفسه، لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير".

قال البيضاوي: أي:" أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه. واللمز الطعن باللسان".

قال ابن كثير:" أي: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}، كما قال: {وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضا".

قال السعدي:" أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} الآية، وسمي الأخ المؤمننفسًا لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك".

=

=

عن مجاهد، قوله: "{وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}، قال: لا تطعنوا".

قال ابن عباس، وقتادة:" يقول: لا يطعن بعضكم على بعض".

قوله تعالى: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} [الحجرات: ١١]، أي:" ولا يَدْعُ بعضكم بعضًا بما يكره من الألقاب".

قال الطبري:" يقول: ولا تداعوا بالألقاب؛ والنبز واللقب بمعنى واحد، يُجمع النبز: أنبازا، واللقب: ألقابا".

قال البيضاوي: أي:" ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفا".

قال ابن كثير:" أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها".

قال السعدي:" أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا".

واختلف أهل التأويل في الألقاب التي نهى الله عن التنابز بها في هذه الآية، على أقوال:

أحدها: أنها الألقاب التي يكره النبز بها الملقَّب، ونزلت هذه الآية في قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نهوا أن يدعو بعضهم بعضا بما يكره من أسمائه التي كان يدعى بها في الجاهلية. قاله أبو جبيرة بن الضحاك.

قال أبو جبيرة بن الضحاك:" كان أهل الجاهلية يسمون الرجل بالأسماء، فدعا النبيّ ﷺ رجلا باسم من تلك الأسماء، فقالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فأنزل الله: {وَلا تَنَابَزُوا بِالألْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ} ".

الثاني: أن ذلك قول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق، يا منافق، يا كافر. قاله أبو العالية، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، ابن زيد.

عن مجاهد، قوله: "{وَلا تَنَابَزُوا بِالألْقَابِ}، قال: دُعي رجل بالكفر وهو مسلم".

=

=

قال قتادة:" يقول الرجل: لا تقل لأخيك المسلم: ذاك فاسق، ذاك منافق، نهى الله المسلم عن ذلك وقدّم فيه".

وفي رواية:" يقول: لا يقولنّ لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق".

قال ابن زيد:" تسميته بالأعمال السيئة بعد الإسلام زان فاسق".

عن أبي العالية الرِّياحيّ، في الآية: "{ولا تنابزوا بالألقاب}، قال: هو قول الرجل لصاحبه: يا فاسق، يا منافق".

وعن عن ابن مسعود:" {ولا تنابزوا بالألقاب} قال: أن يقول إذا كان الرجل يهوديا فأسلم يا يهودي يا نصراني يا مجوسي ويقول للرجل المسلم يا فاسق".

الثالث: أن التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها، وراجع الحقّ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وهذا قول ابن عباس، وروي عن الحسن نحوه.

وقال الحسن:" كان اليهودي والنصرانيّ يسلم، فيلقب فيقال له: يا يهوديّ، يا نصراني، فنهوا عن ذلك".

الرابع: أن تُسمّيه بغير اسم الإسلام: يا خنزير، يا كلب، يا حمار. قاله عطاء.

روي عن طلحة بن عمرو، أنه قال: "قلت لعطاء: يا أبا محمد {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} ما هذا الذي نهى عنه؟ قال: كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، يا كلب يا حمار يا خنزير ونحو هذا".

قال إبراهيم: "كانوا يقولون: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار يا كلب يا خنزير، قال الله له يوم القيامة: أتراني خلقته كلبًا أو حمارًا أو خنزيرًا".

قال الطبري:" والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمّ الله بنهية ذلك، ولم يخصص به

=

=

بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك صحت الأقوال التي قالها أهل التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعض، لأن كلّ ذلك مما نهى الله المسلمين أن ينبز بعضهم بعضا".

قوله تعالى: {بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} [الحجرات: ١١]، أي:" بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه".

قال الطبري: يقول:" ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدّم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن، ونبزه بالألقاب، فهو فاسق، {بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ} يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فساقا، بئس الاسم الفسوق".

قال البيضاوي: "أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين.. أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح".

قال ابن كثير:" أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب".

قال ابن زيد:" بئس الاسم الفسوق حين تسميه بالفسق بعد الإسلام، وهو على الإسلام". قال: وأهل هذا الرأي هم المعتزلة، قالوا: لا نكفره كما كفره أهل الأهواء، ولا نقول له مؤمن كما قالت الجماعة، ولكنا نسميه باسمه إن كان سارقا فهو سارق، وإن كان خائنا سموه خائنا؛ وإن كان زانيا سموه زانيا قال: فاعتزلوا الفريقين أهل الأهواء وأهل الجماعة، فلا بقول هؤلاء قالوا، ولا بقول هؤلاء،

=

=

فسموا بذلك المعتزلة".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، " {بِئْسَ الِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ}، قال: الرجل يكون على دينٍ من هذه الأديان، فيُسلم، فتدعوه بدينه الأول: يا يهودي، يا نصراني".

قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: ١١]، أي:" ومن لم يتب من هذه السخرية واللمز والتنابز والفسوق فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب هذه المناهي".

قال الطبري:" يقول:" ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه".

قال البيضاوي: أي: "بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب".

قال ابن زيد:" ومن لم يتب من ذلك الفسوق فأولئك هم الظالمون".

قال ابن كثير:" أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب".

قال السعدي:" أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب".

وقال العثيمين: ثم قال الله ﷻ في جملة ما بيّن لعباده من الآداب والأخلاق الفاضلة: {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن}. السخرية: هي الاستهزاء والازدراء، ومن المعلوم أن الله تعالى جعل الناس في هذه الحياة الدنيا طبقات، فقال الله تبارك

=

=

وتعالى: {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا} أي ليسخِّر بعضهم بعضًا في المصالح، وليس المراد هنا الاستهزاء، وقال الله تبارك وتعالى: {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللأخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا} إذا ثبت هذا التفضيل بين الناس فهم يتفاضلون في العلم، فبعضهم أعلم من بعض في علوم الشريعة، وعلوم الوسيلة إلى علوم الشريعة كعلوم اللغة العربية من النحو والبلاغة وغيرها، وهم يتفاضلون في الرزق، فمنهم من بسط له في رزقه، ومنهم من قَدَرَ عليه في رزقه، وهم يتفاضلون في الأخلاق، فمنهم ذوو الأخلاق الفاضلة العالية، ومنهم دون ذلك، وهم يتفاضلون في الخلقة، منهم السوي الخلقة، ومنهم من دون ذلك، ويتفاضلون كذلك في الحسب، منهم من هو ذو حسب ونسب، ومنهم دون ذلك، فهل يجوز لأحد أن يسخر ممن دونه؟ يقول الله ﷻ: {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم} فيخاطبنا- جل وعلا- بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضِّل هو الله ﷻ وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخرًا بتقدير الله ﷻ -وإلى هذا يوحي قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار». فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال، أو في الخُلُق، أو في الخلقة، أو في الحسب، أو في النسب، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا- في تصورك- فلماذا، ولهذا قال ﷻ: {عسى أن يكونوا خيرًا منهم} رب ساخر اليوم مسخور منه في الغد، ورب مفضول اليوم يكون فاضلًا في الغد، وهذا شيء مشاهد، وفي بعض الآثار يروى: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله». وفي الآثار أيضًا: «لا تظهر الشماتة

=

=

بأخيك فيعافيه الله ويبتليك». إذن يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيرًا منه، {ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن} ونص على النساء والرجال بالتفصيل، حتى لا يقول أحد: إن هذا خاص بالرجال، لو ذكر الرجال وحدهم، أو خاص بالنساء وحدهن، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء. إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء، مثل ما يذكر في الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم أرسلوا إلى قومهم فهو يشمل الذكور والإناث، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث، والقوم هم الذكور.

وهذا الأدب عام لجميع الأمة، ويجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله ﷻ ويجتنب نهيه؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه كغيره من المكلفين.

والثاني: أن طالب العلم قدوة، أي عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس، ويحتجون به، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع، فالواجب على الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، فربما يكون الحق مع من خالفه ويناقشه بأدب واحترام وهدوء، حتى يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله على أحسن المحامل وأن هذا اجتهاده، وأن الله ﷻ سيأجره على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران، ثم تتصل به وتناقشه، ولا تستحي، فربما تبين أن الحق معك فتكون لك منة على هذا الرجل، وربما يتبين لك أن الحق معه فيكون له منة عليك، وأما السخرية فهذا ليس من آداب طالب العلم، بل ولا من آداب المؤمن مع أخيه.

=

=

{ولا تلمزوا أنفسكم} اللمز: العيب، بأن تقول: فلان بليد، فلان طويل، فلان قصير، فلان أسود، فلان أحمر، وما أشبه ذلك مما يعد عيبًا، وقوله: {ولا تلمزوا أنفسكم} فسَّر بمعنيين:

المعنى الأول: لا يلمز بعضكم بعضًا، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، أخوك بمنزلة نفسك، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك.

والمعنى الثاني: إن المعنى لا تلمز أخاك، لأنك إذا لمزته لمزك، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك، وعليه قول النبي ﷺ: «لعن الله من لعن والديه» فقالوا: يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» وعلى كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضًا، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه ﷻ فالذي خلق الإنسان هو الله ﷻ، والذي جعله على هذه الصفة هو الله ﷻ، والإنسان لا يمكن أن يكمل خِلقته فيكون الطويل قصيرًا، أو القصير طويلًا، أو القبيح جميلًا، أو الجميل قبيحًا؟ فأنت إذا لمزت إنسانًا وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع، ولهذا لو وجدنا جدارًا مبنيًّا مائلًا وعبنا الجدار فعيبنا لباني الجدار، إذن إذا عبت إنسانًا في خلقته فكأنما عبت الخالق ﷻ فالمسألة خطيرة، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب، شديد الانتقام، بذيء اللسان، فلا تعبه؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب، ولهذا جاء في الأثر: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك».

لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة، أن تتصل به إن كان يمكن الاتصال به، وتبين له ما كان به من عيب، أو أن تكتب له كتابًا: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلًا، {ولا تنابزوا بالألقاب} يعني لا ينبز بعضكم بعضًا باللقب،

=

=

فتقول له مثلًا: يا فاسق، يا فاجر، يا كافر، يا شارب الخمر، يا سارق، يا زاني، لا تفعل هذا؛ لأنك إذا نبزته باللقب فإما أن يكون اللقب فيه، وإما أن لا يكون فيه، فإن كان فيه فقد ارتكبت هذا النهي، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه وارتكبت النهي أيضًا، ثم قال ﷻ: {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} يعني بئس لكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسوق، فإذا ارتكبتم ما نهى الله عنه صرتم فسقة، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقًا، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصرّ عليها صار فاسقًا، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقًا، هذا معنى قوله: {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} لأن هذه الجملة جملة إنشائية تفيد الذم، وما أفاد الذم فإنه منهي عنه بلا شك، فاستفدنا من هذه الآية الكريمة تحريم السخرية، وتحريم لمز الغير، وتحريم التنابز بالألقاب، وأن من صنع ذلك فهو فاسق بعد أن كان مؤمنًا، والفسق ليس وصفًا على اللسان فقط، بل يترتب عليه أحكام، فمثلًا قال العلماء: الفاسق لا يصح أن يكون وليًّا على ابنته، فيزوجها من يصح أن يكون وليًّا من أقاربها، فإن لم يكن لها أقارب أو خافوا من أبيها إن زوَّجها فيزوِّجها القاضي، والفاسق لا تقبل شهادته؛ لأن الله تعالى قال: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} فيشهد عند القاضي بحق، فيقول القاضي: لا نقبلك؛ لأنك فاسق، والفاسق لا يصلح أن يكون إمامًا بالناس في الصلاة، والفاسق الذي يظهر فسقه لا يصح أذانه، كل هذا قال به العلماء رحمهم الله، وإن كان في بعض هذه المسائل خلاف، لكني أقول: إن كلمة فاسق ليست بالأمر الهين حتى يقولها الإنسان {بئس الاسم} ولهذا ذمه الله، فقال: {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة، ولم يتب فأولئك هم الظالمون، فالذي لا يتوب يكون ظالمًا، والظلم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «ظلمات يوم القيامة»، وإذا

=

كان المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور، فيجب الحذر مما نهى الله ﷻ لأنك أيها العبد، عبد لله تأتمر بأمره، وتنتهي عن نهيه.

فإن قال قائل: ما معنى التوبة؟

فنقول: التوبة من العبد أن ينتقل من معصية الله إلى طاعته، والتوبة من الله أن يقبل الله من العبد فيبدل سيئاته حسنات.

قال الله تبارك وتعالى: {والذين لا يدعون مع الله إلها ءاخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله} إلى أن قال: {إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات}، وقد تطلق التوبة من الله على توفيقه العبد إلى التوبة، فلله تعالى على العبد توبتان: توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة. والدليل على هذا قول الله تبارك وتعالى: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأَرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم}. {ثم تاب عليهم ليتوبوا} أي وفقهم للتوبة فتابوا، أما التوبة الأخرى وهي قبول توبة العبد، فمثل قوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات} وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كل توبة مقبولة، وليس كل من قال: أنا تائب إلى الله يكون تائبًا، بل لابد من شروط:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، أي لا يحمله على التوبة أنه خائف من أبيه، أو خائف من أخيه الأكبر، أو خائف من السلطات، أو تاب لأجل أن يقال: فلان مستقيم، والإخلاص لله في التوبة أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضى الله ﷻ والوصول إلى كرامته، والإخلاص شرط في كل عبادة.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، ومعنى يندم أي: يتحسر، ويتكدر أنه وقع منه هذا الشيء. ويخجل من الله ﷻ.

=

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال. وذلك بأن يأتي بالواجب إن أمكن تداركه، أو بدله إذا لم يكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلًا محرمًا، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مالًا، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم وعزم على ألا يعود، فلابد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا، فإذا قال: أخشى إن ذهبت إلى هذا الرجل وأعطيته المال أن يترتب على ذلك ضرر عليَّ، وعلى سمعتي، وربما أُحبس، وربما يدعي أن المبلغ المسروق أكثر، وأنا قد تبت إلى الله قبل أن يقدر عليَّ فكيف تكون الحال؟ فهل يجوز أن يتصدق به عن صاحبه؟

والجواب: لا يجوز، لأن صاحبه معلوم، أما لو كان مجهولًا كما لو سرق من أناس نسيهم أو جهلهم ولا يدري أين هم، فهنا يتصدق بما سرق عنهم، لكن إذا كان معلومًا لابد أن يوصله، ويمكن أن يعطي شخصًا يثق به، ويقول: يا فلان، إني سرقت هذا المال من فلان، وقد ندمت وتبت إلى الله، ومن فضلك أعطه إياه، وقل له: هذه دراهم من إنسان تستحقها عليه، وهو الآن يبذلها، ولكن لابد أن يكون هذا الرجل الذي وكله أن يوصل الدراهم موثوقًا عند صاحب المال وأمينًا لأنه لو لم يكن موثوقًا لاتهمه صاحب المال، وقال: أنت السارق والمسروق أكثر، فلابد أن يكون ثقة، وإذا لم يمكن فيمكن أن ترسل بالبريد، ويقال: هذه دراهم من شخص تستحقها عليه، وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضًا يحسن أن لا تكتبها بقلمك، لأنه ربما يمر عليه ويعرف خطك يومًا من الدهر، هذا إذا كان الحق ماليًا، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبته، في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لابد أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلان سامحني.

=

=

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له».

القول الثالث: وهو قول وسط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبته قد علم بذلك فلابد من أن تذهب إليه وتستحله، لأنه لن يزول ما في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يناقش ويرى ما الذي حصل، لأنه ربما يذكر شيئًا كبيرًا فتعجز نفس صاحبه عن أن يحلله، لأن النفس أمارة بالسوء، فالأولى أن لا يسأل، وأن يحتسب الأجر من الله، ويقول: هذا جاء معتذرًا، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبة ثناء حسنًا، وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الحق، وهو أنه إن كان عالمًا فلابد أن تستحله حتى يزول ما في قلبه، وإن كان غير عالم فلا حاجة إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أما الذي اغتيب وطُلب منه السماح فالذي نرى أن الأفضل والأكمل أن يحلله، لأنه أخوه جاءه معتذرًا نادمًا فليحلله. وثقوا أنه إذا حلله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحله، سيرى أنه أهدى إليه أكبر هدية، فتنقلب الكراهية التي كانت من قبل إلى محبة وألفة، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفًا محبًّا وادًّا.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل، أي يكون في نفسه نية عازمة جازمة أن لا يعود لهذا الذنب في المستقبل، فإن تاب وهو يقول: ربما أنه يطرأ علي أن أفعل الذنب، فهذا التائب لا تصح توبته، لأنه لابد أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل.

=

=

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، لأنه يأتي وقت يسد باب التوبة، ولا تقبل من الإنسان، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص، أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فسيأتي زمن تخرج الشمس من المغرب، والذي يردها الله ﷻ لو اجتمعت الخلائق كلها على أن تردها ما ردتها، لكن يردها الله ﷻ الذي أمره {إذآ أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} ترجع هذه الشمس العظيمة إذا غربت من مغربها، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن كل من على الأرض، اليهودي، والنصراني، والبوذي، والشيوعي، وغيرهم كلهم يؤمنون؛ لأنهم يرون شيئًا واضحًا في الدلالة على الرب ﷻ لكن لا ينفعهم الإيمان، لقوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا}، وفسَّر النبي ﷺ قوله تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك} أنه خروج الشمس من مغربها وحينئذ لا تنفع التوبة، مع أن الناس كلهم يؤمنون، لكن لا تنفع، لأنه انسد الباب، وإذا سُدَّ كيف يدخل الناس؟

أما الخاص فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، لقول الله تبارك وتعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الأَن}، وإني أسأل هل أحد منا يعلم متى يموت؟! أبدًا، ربما يموت الإنسان وهو على مكتبه، أو وهو على فراشه، أو وهو في صلاته، في أي لحظة، وإذا كنا نعلم هذا ونوقن به، فالواجب أن نبادر بالتوبة لئلا يفجأنا الموت، فينسد الباب، ولهذا كانت التوبة مما يجب على الفور، فلنبادر بالتوبة إلى الله ﷻ {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الأَن}، هذا الخبر من الله ﷻ له أمر واقع يدل عليه لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه، قال فرعون حين أدركه الغرق: {آمنت أنه لآ إله إلا الذي

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنّ إنَّ بَعْض الظَّنّ إثْم} أَيْ مُؤْثِم وَهُوَ كَثِير كَظَنِّ السَّوْء بِأَهْلِ الْخَيْر مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ كَثِير بِخِلَافِهِ بِالْفُسَّاقِ مِنْهُمْ فَلَا إثْم فِيهِ فِي نَحْو مَا يَظْهَر مِنْهُمْ {وَلَا تَجَسَّسُوا} حذف منه إحدى التاءين ولا تَتَبَّعُوا عَوْرَات الْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبهمْ بِالْبَحْثِ عَنْهَا {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضكُمْ بَعْضًا} لَا يَذْكُرهُ بِشَيْءٍ يَكْرَههُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ {أَيُحِبُّ أَحَدكُمْ أَنْ يَأْكُل لَحْم أَخِيهِ مَيْتًا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد أَيْ لَا يَحْسُن بِهِ {فَكَرِهْتُمُوهُ} أَيْ فَاغْتِيَابه فِي حَيَاته كَأَكْلِ لَحْمه بَعْد مَمَاته وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْكُمْ الثَّانِي فَكَرِهْتُمُوهُ فَاكْرَهُوا الْأَوَّل {وَاتَّقُوا

=

آمنت به بنوا إسرءيل} يعني الله ﷻ {وأنا من المسلمين} فقيل له: {ءالئن} أي: الآن تتوب؟ لماذا لم تتب قبل؟ {ءالئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} فلم تقبل توبته- والعياذ بالله- وإذا تاب العبد فإن الله يفرح بهذا فرحًا عظيمًا لا يتصوره إنسان، قال النبي ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة أحدكم» أو قال «بتوبة عبده من أحدكم براحلته» الراحلة هي البعير «كان عليها طعامه وشرابه فأضلها» يعني ضاعت عنه «فطلبها فلم يجدها، فنام تحت شجرة ينتظر الموت» ضعفت قواه وخارت واضطجع ينتظر الموت «فبينما هو كذلك إذا بناقته متعلقًا زمامها بالشجرة فأخذ الزمام فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك» يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكنه «أخطأ من شدة الفرح»

وهل تجدون فرحًا أعظم من هذا؟ لا، لأنه لا فرح أشد من حياة بعد الإشراف على الموت، فالرب ﷻ يفرح بتوبة أحدنا أشد من فرحة هذا الرجل بناقته.

الله} أَيْ عِقَابه فِي الِاغْتِيَاب بِأَنْ تَتُوبُوا مِنْهُ {إنَّ الله تَوَّاب} قَابِل تَوْبَة التَّائِبِينَ {رَحِيم} بِهِمْ[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي في قوله تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}؛ قال: نزلت هذه الآية في رجل كان يخدم النبي ﷺ، أرسل بعض الصحابة إليه يطلب منه إدامًا فمنع، فقالوا له: إنه لبخيل وخيم؛ فنزلت في ذلك.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٧٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

عن مقاتل؛ قال: نزلت هذه الآية في رجل كان يخدم النبي ﷺ، أرسل بعض الصحابة إليه يطلب منه إدامًا فمنع، فقالوا له: إنه لبخيل وخيم؛ فنزلت في ذلك.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٧٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن ابن جريج في قوله تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}؛ قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي، أكل ثم رقد؛ فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده؛ فنزلت.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٧٠) ونسبه لابن المنذر. وهذا -أيضًا- ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} [الحجرات: ١٢]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه اجتنبوا كثيرًا من ظن السوء بالمؤمنين".

قال البيضاوي: أي:" كونوا منه على جانب، وإبهام «الكثير»، ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل".

قال السعدي:" نهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين".

=

قال الطبري: يقول:" يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيرا من الظنّ بالمؤمنين، وذلك إن تظنوا بهم سوءا، فإن الظانّ غير محقّ، وقال جلّ ثناؤه: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} ولم يقل: الظنّ كله، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، فقال: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}، فأذن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين".

قال ابن كثير:" يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها في الخير محملا» ".

قال سهل:" أي: لا تطعنوا على أحد بسوء الظن من غير حقيقة، وقد قال النبي ﷺ: «أكذب الحديث الظن». ثم قال سهل: الظن السيئ من الجهل من نفس الطبع، وأجهل الناس من قطع على قلبه من غير علم، فقد قال الله تعالى: {وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣] وإن العبد ليحرم الرزق الهني وصلاته بالليل بسوء الظن. وقد كان رجل من العباد نام ليلة عن ورده، فجزع عليه، فقيل: أتجزع على ما تدركه؟ قال: لست أجزع عليه، وإنما أجزع على الذنب الذي به صرت محرومًا عن ذلك الخير. فقيل لسهل: ما معنى قوله ﷺ: «احترسوا من الناس بسوء الظن»، فقال: معنى هذا بسوء الظن بنفسك لا بالناس، أي اتهم نفسك بأنك لا تنصفهم من نفسك في معاملاتهم".

عن ابن عباس، قوله: "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ}، يقول: نهى الله المؤمن أن يظنّ بالمؤمن شرّا".

=

عبد الله بن عمر، قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا".

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام".

عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَةُ، والحسد وسوء الظن". فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: "إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فَأَمض".

قوله تعالى: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]، أي:" إنَّ في بعض الظنِّ إِثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه".

قال الطبري: "يقول: إن ظنّ المؤمن بالمؤمن الشرّ لا الخير إثم، لأن الله قد نهاه عنه، ففعل ما نهى الله عنه إثم".

قال السعدي:" فـ {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} وذلك، كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا، إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه".

قال سفيان الثوري: "الظنّ ظنّان: أحدهما إثم، وهو أن تظُنّ وتتكلّم به، والآخر

=

=

ليس بإثمٍ وهو أن تظُنّ ولا تتكلّم".

عن طلحة بن عبيد الله: سمعت النَّبِيَّ -ﷺ- يقول: «إنّ الظنّ يخطئ ويصيب».

قوله تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات: ١٢]، أي:" ولا تُفَتِّشوا عن عورات المسلمين".

قال مقاتل:" يعني: لا يبحث الرجل عن عيب أخيه المسلم فإن ذلك معصية".

قال الطبري: "يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره".

قال السعدي:" أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله التي إذا فتشت، ظهر منها ما لا ينبغي".

قال أبو عبيدة:" التجسّس: التبحث، يقال: رجل جاسوس وقال رؤبة :

لا تمكن الخنّاعة الناموسا... وتحصب اللعّابة الجاسوسا".

قال ابن كثير:" أي: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ} [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» ".

وقال الأوزاعي: "التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم".

قال سهل:" أي: لا تبحث عن المعائب التي سترها الله على عباده، فإنك ربما

=

=

تبتلى بذلك. وقد حكي عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله عز وجل، فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا إلى أعمالكم كالعبيد، واعلموا أن الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية".

قال سفيان الثوري:" {ولا تَجَسَّسُوا}، قال: البحْث".

قال ابن عباس:" نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن".

قال الحسن:" لا يتَّبِع الرجلُ عورةَ أخيه المسلم".

قال مجاهد:" خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله".

قال قتادة:" هل تدرون ما التجسس أو التجسيس؟ هو أن تتبع، أو تبتغي عيب أخيك لتطلع على سرّه".

عن سفيان:" {وَلا تَجَسَّسُوا}، قال: البحث".

عن ابن زيد، قوله: "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا}، قال: حتى أنظر في ذلك وأسأل عنه، حتى أعرف حقّ هو، أم باطل؟ ؛ قال: فسماه الله تجسسا، قال: يتجسس كما يتجسس الكلاب".

عن زيد قال: "أتي ابن مسعود، رضي الله عنه، برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به".

عن معاوية قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم" أو: "كدت أن تفسدهم". فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفعه الله بها".

وفي الحديث: "إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس، أفسدهم".

عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: "قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا.

=

=

قال: فجاءه دُخَيْن فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها".

قوله تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} [الحجرات: ١٢]، أي:" ولا يقل بعضكم في بعضٍ بظهر الغيب ما يكره".

قال الطبري:" يقول: ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه".

قال الزجاج:" الغيبة: أن يذكر الإنسان من خلفه بسوء، وإن كان فيه السوء، وأما ذكره بما ليس فيه، فذلك: البهت والبهتان".

قال ابن كثير:" الغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»، وكقوله لفاطمة بنت قيس- وقد خطبها معاوية وأبو الجهم -: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد".

قال سهل:" من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فإن من سلم من الظن سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان. قال: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للمنافق غيبة، وليس للفاسق غيبة، لأن المنافق كتم نفاقه، والفاسق افتخر بفسقه. قال: وهذا إنَّما أراد به فيما أظهره من المعاصي، فأما ما كتمه من المعاصي ففيه غيبة".

=

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

قال مسروق:" الغيبَة: أن يقول للرجل أسوأ ما يعلم فيه، والبهتان: أن يقول ما ليس فيه".

قال ابن أمّ عبد: "ما التقم أحد لقمة أشرّ من اغتياب المؤمن، إن قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، وإن قاله فيه ما لا يعلم فقد بَهَتَه".

عن الحسن:" أنه قال في الغيبة: أن تذكر من أخيك ما تعلم فيه من مساوئ أعماله، فإذا ذكرته بما ليس فيه فذلك البهتان".

عن حسان بن المخارق: "أن امرأة دخلت على عائشة؛ فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبيّ ﷺ، أي أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «اغْتَبْتِها» ".

عن أبي إسحاق، قال: "لو مرّ بك أقطع، فقلت: ذاك الأقطع، كانت منك غيبة؛ قال: وسمعت معاوية بن قرة يقول ذلك".

عن أبي هريرة: "أن رجلا قام عند رسول الله ﷺ، فرأوا في قيامه عجزا، فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلْتُم أخاكُمْ واغْتَبْتُمُوه» ".

عن معاذ بن جبل، قال: "كنا مع رسول الله ﷺ، فذكر القوم رجلا فقالوا: ما يأكل إلا ما أطعم، وما يرحل إلا ما رحل له، وما أضعفه؛ فقال رسول الله ﷺ: «اغْتَبْتُمْ أخاكُمْ»، فقالوا: يا رسول الله وغيبته أن نحدّث بما فيه؟ قال: «بحَسْبِكُمْ أنْ تُحَدِّثُوا عن أخِيكُمْ ما فِيه» ".

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته".

=

عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها- أو قال: في خدورها- فقال: "يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته".

عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي ﷺ قال: "من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام برجل مقام سمعةٍ ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة".

قوله تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [الحجرات: ١٢]، أي:" أيحب أحدكم أكل لحم أخيه وهو ميت؟ فأنتم تكرهون ذلك، فاكرهوا اغتيابه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين أيحبّ أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه، لأن الله حرّم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حيا، كما كرهتم لحمه ميتا، فإن الله حرّم غيبته حيا، كما حرم أكل لحمه ميتا".

قال ابن كثير:" أي: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، في العائد في هبته: "كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه"، وقد قال: "ليس لنا مثل السوء". وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» ".

قال ابن عباس:" حرّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرّم المَيْتة".

=

=

قال قتادة:" يقول: كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي".

قال مجاهد:" لما نزلت: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا}، قالوا: نكره ذلك، قال: فاتقوا الله في الغيبة".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم".

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "لما عُرِج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم".

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أسريَ بك؟... قال: "ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جنَب أحدهم فَيَحْذُون منه الحُذْوَة من مثل النعل ثم يضعونه في فيّ أحدهم، فيقال له: "كل كما أكلت"، وهو يجد من أكله الموت- يا محمد- لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمَّازون

اللمَّازون أصحاب النميمة. فيقال: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} وهو يكره على أكل لحمه".

قال ابن جُرَيْج:" أخبرني أبو الزبير عن ابن عَمّ لأبي هريرة أن ماعزًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت فأعرض عنه- قالها أربعا- فلما كان في الخامسة قال: "زنيت"؟ قال: نعم. قال: "وتدري ما الزنا؟ " قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا. قال: "ما تريد إلى هذا القول؟ " قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: "أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب

=

=

المِيل في المكحلة والرِّشاء في البئر؟ ". قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجمَ رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار" قالا غفر الله لك يا رسول، الله وهل يُؤكل هذا؟ قال: "فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا من، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها".

عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: "أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين".

وفي رواية عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: "إن نفرًا من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح" وربما قال: "فلذلك هاجت هذه الريح".

وقرئ «مَيِّتا»، بالتثقيل.

قال الزجاج:" يجوز «مَيِّتًا»، وتأويله: أن ذكرك بِسوءٍ من لم يَحْضر لك بمنزلة أكل لحمه وهو مَيِّت لَا يُحِسُّ هُوَ بذلك، وكذلك تقول للمغتاب فلان يأكل لحوم الناس. ويُقرأ «فَكُرِّهْتُمُوهُ»- فتأويله: كما تكرهون أكل لحمه مَيتًا كذلك تجنبوا ذكره بالسوء غائبًا ".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [الحجرات: ١٢]، أي:" وخافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه".

قال محمد بن إسحاق:" {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

قال الطبري: يقول: "فاتقوا الله أيها الناس، فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظنّ أحدكم بأخيه المؤمن ظنّ السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي

=

=

نهاكم عنها ربكم".

قال ابن كثير:" أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١٢]، أي:" إن الله تواب على عباده المؤمنين، رحيم بهم".

قال الطبري:" يقول: إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه".

قال ابن كثير:" أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذًا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك".

قال قتادة:" قوله: {رحيما}، بعباده".

قال سعيد بن جبير:" قوله: {رحيما} بهم بعد التوب".

قال أهل العلم: "ليس لثلاثة غيبة: السلطان الظالم، والفاسق المعلن، والذي أحدث في الإسلام حدثا- يعني: المبتدع-، وكذلك قال أهل العلم: إذا سأل إنسان إنسانا لغرض له صحيح، فلا بأس أن يذكر ما فيه".

فالمقصود أنه إذا كان معروفا بالبدعة، معروفا بالفسق الظاهر، فلا غيبة له، إذا قيل إن هذا فلانا يفعل كذا احذروه ابتعدوا عنه، هذا لا غيبة له في هذا الشيء الذي أظهره من البدعة والمنكر.

قال السمعاني: "والغيبة مأخوذة من الغيب؛ كأنه لما ذكره بظهر الغيب بما يسوءه كان ذكره له غيبة. وقد كان السلف يحترزون أشد الاحتراز من مثل هذا".

=

=

روي:" أن طبيبين دخلا على ابن سيرين، فلما خرجا قال: لولا أن يكون غيبة لذكرت أيهما أطب".

روي عن ابن شوذي، قال: "قال رجل لابن سيرين: إنّي قد اغتبتك، فاجعلني في حلّ، قال: إنّي أكره أن أحلّ ما حرّم الله".

عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِيّ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: "من حمى مؤمنا من منافق يعيبه، بعث الله إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا}. تصدير الخطاب بـ {يا أيها الذين آمنوا} يدل على العناية به، ولهذا روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا سمعت الله يقول {يا أيها الذين آمنوا} فارعها سمعك: فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه. ويعني: وإما خير تحصل به العبرة والاتعاظ، كما قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأُولى الأَلباب} وهنا يقول عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن}، الظن: هو أن يكون لدى الإنسان احتمالان يترجح أحدهما على الآخر، وهنا عبر الله تعالى بقوله: {كثيرًا من الظن} ولم يقل: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيرًا ماداموا أهلًا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يُظن به خيرًا، ويُثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله.

القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء، كما صرح بذلك العلماء، فقالوا رحمهم الله: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة. أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك،

=

=

فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: (احترسوا من الناس بسوء الظن)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء.

فإذا قال قائل: أيهما أكثر الظن المنهي عنه أم الظن المباح؟

قلنا: الظن المباح أكثر؛ لأنه يشمل نوعًا كاملًا من أنواع الظن، وهو ظن الخير، ويشمل كثيرًا من ظن السوء الذي قامت القرينة على وجوده؛ لأنه إذا لم يكن هناك قرينة تدل على هذا الظن السيء، فإنه لا يجوز للإنسان أن يتصف بهذا الظن، ولهذا قال: {كثيرًا من الظن} ولم يقل: أكثر الظن، ولا كل الظن، بل قال: {كثيرًا من الظن} ثم قال: {إن بعض الظن إثم} وقد توحي هذه الجملة أن أكثر الظن ليس بإثم، وهو منطبق تمامًا على ما بيناه وقسمناه، أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، ثم ظن السوء لا يجوز إلا إذا قامت القرينة على وجوده، ولهذا قال: {إن بعض الظن إثم} فما هو الظن الذي ليس بإثم؟ نقول: هو ظن الخير، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا ليس بإثم، لأن ظن الخير هو الأصل، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا أيضًا أيدته القرينة. {ولا تجسسوا} التجسس طلب المعايب من الغير، أي أن الإنسان ينظر ويتصنت ويتسمع لعله يسمع شرًّا من أخيه، أو لعله ينظر سوءًا من أخيه، والذي ينبغي للإنسان أن يعرض عن معايب الناس، وأن لا يحرص على الاطلاع عليها، ولهذا روي عن النبي ﷺ من

=

=

حديث عبد الله بن مسعود ﵁ أنه قال عليه الصلاة والسلام: «لا يخبرني أحد عن أحد شيئًا»، يعني شيئًا مما يوجب ظن السوء به «فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»

فلا ينبغي للإنسان أن يتجسس، بل يأخذ الناس على ظاهرهم، ما لم يكن هناك قرينة تدل على خلاف ذلك الظاهر، وفي هذه الجملة من الآية قراءة أخرى (ولا تحسسوا) فقيل: معناهما واحد، وقيل: بل لكل واحدة منهما معنى، والفرق هو أن التجسس أن يحاول الإنسان الاطلاع على العيب بنفسه، والتحسس أن يلتمسه من غيره، فيقول للناس مثلًا: ما تقولون في فلان، ما تقولون في فلان؟ وعلى هذا فتكون القراءتان مبينتين لمعنيين كلاهما مما نهى الله عنه، لما في هذا من إشغال النفس بمعايب الآخرين، وكون الإنسان ليس له هم إلا أن يطلع على المعايب، ولهذا من ابتلي بالتجسس أو بالتحسس تجده في الحقيقة قلقًا دائمًا في حياته، وينشغل بعيوب الناس عن عيوبه، ولا يهتم بنفسه، وهذا يوجد كثيرًا من بعض الناس الذين يأتون إلى فلان وإلى فلان، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ فتجد أوقاتهم ضائعة بلا فائدة، بل ضائعة بمضرة؛ لأن ما وقعوا فيه فهو معصية لله ﷻ هل أنت وكيل عن الله ﷻ تبحث عن معايب عباده، والعاقل هو الذي يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر في معايب الغير ليشيعها- والعياذ بالله- ولهذا قال الله ﷻ: {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم} فعلى كل حال هذه آداب وتوجيه من الله ﷻ إلى أخلاق فاضلة، مأمور بها، وأخلاق منهي عنها.

{ولا يغتب بعضكم بعضًا} الغيبة فسرها النبي ﷺ بقوله: «ذكرك أخاك بما يكره» وهذا تفسير من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أعلم الناس بمراد الله تبارك وتعالى في كلامه: «ذكرك أخاك بما يكره»، سواء كان ذلك في خلقته، أو خلقه، أو

=

=

في أحواله، أو في عقله، أو في ذكائه، أو في غير ذلك، مثل أن تقول: فلان قبيح المنظر، دميم، فيه كذا، فيه كذا، تريد معايب جسمه، أو في خُلقه بأن تقول: فلان أحمق، سريع الغضب، سيء التصرف، وما أشبه ذلك، أو في خلقته الباطنة كأن تقول: فلان بليد، فلان لا يفهم، فلان سيء الحفظ، وما أشبه هذا، ورسول الله ﷺ حدها بحد واضح بيّن «ذكرك أخاك بما يكره»، قالوا: يا رسول الله، أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» أي جمعت بين البهتان والغيبة، وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنك إذا نشرت عيوب أخيك فإن الله سيسلط عليك من ينشر عيوبك، جزاءً وفاقًا، لا تظن أن الله غافل عما يعمل الظالمون، بل سيسلط عليه من يعامله بمثل ما يعامل الناس، لكن إذا كانت الغيبة للمصلحة فإنه لا بأس بها، ولا حرج فيها، ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس إلى رسول الله ﷺ تستشيره في رجال خطبوها، بيَّن معايب من يرى أن فيه عيبًا، فقد خطبها ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبو جهم بن حارث، وأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال لها النبي ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، انكحي أسامة بن زيد»، فذكر النبي ﷺ عيبًا في هذين الرجلين، للنصيحة وبيان الحق، ولا يعد هذا غيبة بلا شك، ولهذا لو جاء إنسان يستشيرك في معاملة رجل، قال: فلان يريد أن يعاملني ببيع، أو شراء، أو إجارة، أو في تزويج أو ما أشبه ذلك، وأنت تعرف أن فيه عيبًا فإن الواجب أن تبين له ذلك، ولا يعد هذا كما يقول العامة من قطع الرزق، بل هو من بيان الحق، فإذا عرفت أن في هذا الرجل الذي يريد أن يعامله هذا الشخص ببيع أنه مماطل كذاب محتال، فقل له: يا أخي لا تبع لهذا إنه كذاب مماطل، إنه محتال، ربما يدعي أن في السلعة عيبًا وليس فيها عيب، وربما يدعي الغبن وليس مغبونًا، وما أشبه ذلك فتقع معه في

=

=

صراع ومخاصمة، أو جاء إنسان يستشيرك في شخص خطب منه ابنته، والشخص ظاهره العدالة والاستقامة، وظاهره حسن خلق، ولكنك تعرف فيه خصلة معيبة فيجب عليك أن تبين هذا، فمثلًا: تعرف أن في هذا الرجل كذبًا، أو تعرف أنه يشرب الدخان لكنه يجحده ولا يبينه للناس، يجب أن تبين تقول: هذا الرجل ظاهره أنه مستقيم، وأنه خلوق، وأنه طيب، ولكن فيه العيب الفلاني، حتى لو كان هذا متجهًا إلى أن يزوجه، ثم هو بعد ذلك بالخيار؛ لأنه سيدخل على بصيرة، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة وهي ذكر الرجل بما يكره، إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يذكر في كتب الرجال مثلًا، فلان بن فلان سيء الحفظ، فلان بن فلان كذوب، فلان بن فلان فيه كذا وكذا، يذكرون ما يكره من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ فإذا كان الغرض من ذكرك أخاك ما يكره النصيحة فلا بأس.

كذلك لو كان الغرض من ذلك الظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل وتأتي إلى رجل يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقي، وما أشبه ذلك، فلا بأس، فإن هند بنت عتبة جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان، تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» فذكرت وصفًا يكرهه أبو سفيان بلا شك ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله تعالى في كتابه {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم} يعني فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

ولكن هل يجوز مثل هذا إذا كان قصد الإنسان أن يخفف عليه وطأة الحزن والألم الذي في قلبه بحيث يحكي الحال التي حصلت على صديق له، وصديقه لا يمكن أن يزيل هذه المظلمة لكنه يفرج عنه أو لا؟

الظاهر أنه يجوز؛ لعموم قوله تعالى: {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من

=

=

ظلم} وهذا يقع كثيرًا، كثيرًا ما يؤذى الإنسان، ويجنى عليه بجحد مال أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك فيأتي الرجل إلى صديقه ويقول: فلان قال في كذا، يريد أن يخفف ما في قلبه من الألم والحسرة، أو يتكلم في ذلك مع أولاده، أو مع أهله، أو مع زوجته أو ما أشبه ذلك، هذا لا بأس به؛ لأن الظالم ليس له حرمة بالنسبة للمظلوم.

مسألة: حكم غيبة الكافر.

ظاهر الآية: أنها في عيبة المؤمن؛ وذلك أن الله خاطب المؤمنين في الآية، فقال: {ياأيها الذين آمنوا}، ثم قال تعالى بعد: {ولا يغتب بعضكم بعضا}، ومثله في الحديث، قال ﷺ: (ذكرك أخاك بما يكره)؛ فالمؤمن من نفس المؤمن وبعض منه، بخلاف الكافر، فليس منه، وعدم دخول الكافر في حكم الغيبة في الآية لا يجيز بهتانه ولا الافتراء والبغي عليه؛ فهذا لا خلاف في تحريمه، وأما ذكره في حال غيابه بما هو فيه ويكرهه، فإن كان حربيا، فلا خلاف في جواز ذلك، وأما إن كان ذميا ومعاهدا، فقد اختلف في ذكره بما يكرهه وهو فيه، على قولين:

الأول: قال بعضهم بتحريم غيبة الذمي؛ لأن ذلك ينفره من دفع الجزية؛ ولهذا قال زكريا الأنصاري والغزالي؛ واستدل على ذلك بما رواه ابن حبان مرفوعا: (من سمع يهوديا أو نصرانيا، دخل النار)؛ يعني: سمعه ما يؤذيه ويكرهه، وهذا لا دليل فيه؛ لأن الغيبة فيمن لم بسمعها، وإن سمعها لم نكن غيبة؛ وإنما أذى، قد يحرم وقد يجوز؛ بحسب نوعه وقدره وأثره وكونه حقا أو باطلا.

الثاني: الجواز، وبه قال ابن المنذر؛ وذلك لأن الكافر لا حرمة له ولا دليل على تحريم غيبته، وقد استدل على ذلك بعضهم بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رجلا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: (بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة)، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل، قالت له

=

=

عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ ! فقال رسول الله ﷺ: (يا عائشة، متى عهدتني فحاشا؟ ! إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: من تركه الناس اتقاء شره) وقد جعله بعض الأئمة أصلا في جواز غيبة الفاجر والكافر.

قوله تعالى: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله} التقوى يكثر الأمر بها في القرآن الكريم، وكذلك في السنة، فما هي التقوى التي يكثر ورودها في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها كلمة عظيمة، إنها تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون الوقاية من عذاب الله بأمرين:

الأمر الأول: امتثال أوامر الله ﷻ بأن يقول القائل إذا سمع أمر الله {سمعنا وأطعنا} فإن هذا هو قول المؤمنين، قال الله تعالى: {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} ولا تقل: ما الفرق بين كذا وكذا؟ يعني: لماذا يأمر الله بكذا ولا يأمر بكذا، فمثلًا في لحوم الإبل أمر النبي ﷺ أن نتوضأ من لحومها، ولهذا كان أكل لحوم الإبل ناقض للوضوء على القول الراجح من أقوال العلماء، فلا تقل: لماذا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم الإبل، ولا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم البقر؟ مع أن كل منهما يسمى بدنة، ولا تقل: لماذا تؤمر الحائض بقضاء شهر الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة، على سبيل التشكيك، ولكن قل: سمعنا وأطعنا.

الأمر الثاني: اجتناب ما نهى الله عنه، فإذا نهى الله عن شيء فقل: سمعنا وأطعنا، واجتنبنا. وتأمل قول الله ﷻ في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام حيث قال: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأَنصاب والأَزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما الخمر والميسر والأَنصاب والأَزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣).

{يأيها النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى} آدَم وَحَوَّاء {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا} جَمْع شَعْب بِفَتْحِ الشِّين هُوَ أَعْلَى طَبَقَات النَّسَب {وَقَبَائِل} هِيَ دُون الشُّعُوب وَبَعْدهَا الْعَمَائِر ثُمَّ الْبُطُون ثُمَّ الْأَفْخَاذ ثُمَّ الْفَصَائِل آخِرهَا مِثَاله خُزَيْمَة شَعْب

=

العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون}. أي فبعد هذا التبصير والتبيين هل تنتهون أو لا؟ وهذا الاستفهام بمعنى الأمر، أي فانتهوا، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: (انتهينا انتهينا)، فصارت التقوى تتحقق بأمرين:

الأول: امتثال أمر الله عز وجل دون تردد.

والثاني: اجتناب نهي الله عز وجل دون تردد.

يقول الله عز وجل: {إن الله تواب رحيم} هو الله سبحانه وتعالى رحيم وهو رحمن، وقد اجتمع الاسمان في أعظم سورة في كتاب الله، في الفاتحة، قال العلماء: إذا ذكر الرحمن وحده كما في قوله تعالى: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن} أو ذكر الرحيم وحده كما في هذه الآية {تواب رحيم} فمعناهما واحد، يعني أن الرحيم والرحمن ذو الرحمة الواسعة الشاملة، والرحمن إذا ذكر وحده كذلك هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، أما إذا اجتمعا جميعًا فالرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، يعني أنه عز وجل ذو رحمة واسعة، وهو أيضًا راحم وموصل الرحمة إلى من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون} أسأل الله أن يعمني وجميع إخواننا المسلمين برحمته، وأن يجعلنا من دعاة الخير والإصلاح، إنه على كل شيء قدير.

كِنَانَة قَبِيلَة قُرَيْش عِمَارَة بِكَسْرِ الْعَيْن قُصَيّ بَطْن هَاشِم فَخْذ الْعَبَّاس فَصِيلَة {لِتَعَارَفُوا} حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ لِيَعْرِف بَعْضكُمْ بَعْضًا لَا لِتُفَاخِرُوا بِعُلُوِّ النَّسَب وَإِنَّمَا الْفَخْر بِالتَّقْوَى {إِنَّ أَكْرَمكُمْ عِنْد الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيم} بِكُمْ {خبير} ببواطنكم(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن أبي مليكة؛ قال: لما كان يوم الفتح؛ رقى بلال فأذن على الكعبة، فقال بعض الناس: هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة، وقال بعضهم: إن يسخط الله هذا يغيره؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)}.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٧٩) بسند صحيح إلى عبد الرزاق؛ قال: أنبأ معمر عن أيوب عن عكرمة به، ليس فيه ذكر لسبب النزول. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن الزهري؛ قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله! أتزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)}؛ قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة، قال: وكان أبو هند حجام النبي ﷺ.

أخرجه أبو داود في "المراسيل" (رقم ١٩٥، ٢٣٠) عن عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد كلاهما عن بقية ثنا الزبيدي ثني الزهري به. وهذا مرسل حسن الإسناد، وصرح بقية بالتحديث كما ترى.

وقال أبو داود عقبه: "روي بعضه مسندًا وهو ضعيف".

وزاد السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٧٨) نسبته لابن المنذر وابن جريج =

=

والبيهقي في "سننه" وابن مردويه. وهو عند البيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ١٣٧) معلقًا عن أبي داود.

وأخرجه ابن مردويه موصولًا -كما في "الدر المنثور"- عن الزهري عن عروة عن عائشة به.

وقد تقدم قول أبي داود: "وروي بعضه مسندًا وهو ضعيف".

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات: ١٣]، أي:" يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب".

قال الطبري: يقول:" يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء".

قال الزجاج:" خلقناكم من آدم وحواء، وكلكم بنو أب واحد وأم واحدة إليهم ترجعون".

قال ابن الجوزي:" المراد بالذَّكَر والأُنثى، آدم وحوَّاء. والمعنى: إِنكم تتساوَوْن في النسب وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب".

قال مجاهد:" خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة".

عن مجاهد، قوله: "{إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى}، قال: ما خلق الله الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعا، لأن الله يقول: {خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} ".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣]، أي:" وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا".

قال الطبري: "إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقُربة تقرّبكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم".

=

=

قال أبو عبيدة:" يقال: من أي شعب أنت؟ فيقول من مضر من ربيعة، والقبائل دون ذلك قال ابن أحمر :

مِن شَعْبِ هَمْدانَ أَوْ سَعْدِ العَشِيرَة أَوْ... خَوْلانَ أو مَذْحِجٍ هَاجُوا لَهُ طَرَبا

وقال الكميت بن زيد الأسديّ :

جمعت نزارا وهى شتّى شعوبها... كما جمعت كفّ إليها الأباخسا".

عن مجاهد: "{وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}، قال: جعلنا هذا لتعارفوا، فلان بن فلان من كذا وكذا".

قال القشيري:" ثم جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصول تربة ونطفة وعلقة... فالتفاخر بماذا؟ أبالحمأ المسنون؟ أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما تعرفه؟! ".

قال الماوردي: "والشعوب: جمع «شَعب»، بفتح الشين، والشِّعب بكسر الشين هو الطريق وجمعه شعاب، فكان اختلاف الجمعين مع اتفاق اللفظين تنبيهًا على اختلاف المعنيين".

وفي «الشعوب والقبائل»، أقوال:

أحدها: أن الشعوب: النسب الأبعد والقبائل النسب الأقرب، قاله مجاهد، وقتادة.

قال قتادة:" الشعوب: النسب البعيد، والقبائل كقوله: فلان من بني فلان، وفلان من بني فلان".

وقال الضحاك:" أما الشعوب: فالنسب البعيد".

وقال الشاعر :

قَبَائلُ من شُعُوبٍ لَيَس مِنهُم... كَرِيمٌ قَد يُعدّض وَلَا نَجيبُ

وعن ابن عباس: "الشعوب: الأنساب".

قال الماوردي: "وسموا شعوبًا لأن القبائل تشعبت منها".

=

=

الثاني: الشعوب: البطون، والقبائل: الأفخاذ. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس:" الشعوب: الجُمَّاع. -قال خلاد، قال أبو بكر: القبائل العظام، مثل بني تميم-، والقبائل: الأفخاذ". وفي رواية" والقبائل الأفخاذ التي يتعارفون بها".

وعن ابن عباس:" الشعوب: الجُمَّاع، والقبائل: البطون".

وعن سعيد بن جبير:" الشعوب: الجمهور، والقبائل: الأفخاذ".

الثالث: أن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبيلة ربيعة ومضر وسائر عدنان.

الرابع: أن الشعوب: هم المضافون إلى النواحي والشعاب، والقبائل: هم المشتركون في الأنساب، أفاده الماوردي، وأنشد قول الشاعر:

وتفرقوا شعبًا فكل جزيرة... فيها أمير المؤمنين ومنبر

الخامس: أن الشُّعوب: جمع «شَعب»: وهو الحيُّ العظيم، مثل مضر وربيعة، والقبائل: دونها، كبَكر من ربيعة، وتميم من مضر. حكاه ابن الجوزي عن الجمهور من المفسرين وأهل اللغة.

وقال أبو سليمان الدمشقي: "وقد قيل: إِن القبائل هي الأصول، والشُّعوب هي البُطون التي تتشعَّب منها".

السادس: "إن الشعوب: الموالي، والقبائل: العرب". وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-.

وحكي الماوردي:" أن الشعوب: بطون العجم، والقبائل: بطون العرب".

السابع: أن الشعوب: أهل الجبال الذين لا يَعْتَزُون لأحد، والقبائل: قبائل العرب. قاله أبو رزين.

الثامن: أن الشعب: أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ. قاله الكلبي.

قال الزجاج:" الشعب أعظم من القبيلة.، أي: لم يجعلكم شعوبا وقبائل لتفاخروا

=

=

وإنما جعلناكم كذلك لتتعارفوا".

قال القرطبي:" وقيل: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة، وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حي... عددا في الحواء ثم القبيله

ثم تتلوها العمارة ثم ال... بطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشيرة لكن... هي في جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر:

قبيلة قبلها شعب وبعدهما... عمارة ثم بطن تلوه فخذ

وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته... ولا سداد لسهم ماله قذذ".

قال ابن كثير:" الشعوب أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك".

وقال ابن عطية:" الشعوب: جمع شعب وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطا بنسب واحد، ويتلوه القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الأسرة والفصيلة: وهما قرابة الرجل الأدنون فمضر وربيعة وحمير شعوب، وقيس وتميم ومذحج ومراد، قبائل مشبهة بقبائل الرأس، «لأنها قطع تقابلت» وقريش ومحارب وسليم عمارات، وبنو قصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة... وقيل للأمم التي ليست بعرب: شعوبية، نسبة إلى الشعوب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يعرف أحد منهم إلا بأن يقال: فارسي تركي رومي زناتي. فعرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يعبر به عن جماعتهم، ويقال لهم: الشعوبية بفتح الشين، وهذا من تغيير النسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي".

قال السعدي:" في هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب، مطلوبة مشروعة، لأن

=

=

الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك".

قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣]، أي:" إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له".

قال الطبري: يقول:" إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم، أشدّكم اتقاء له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتا ولا أكثركم عشيرة".

قال ابن كثير:" أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب".

قال القشيري:" {أتقاكم}، أي: أبعدكم عن نفسه، فالتقوى هي التحرّر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب إلى الله تعالى".

قال السعدي:" لكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا".

قال قتادة:" أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور".

عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: "أكرمهم عند الله أتقاهم" قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله". قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فعن معادن العرب تسألوني؟ " قالوا: نعم. قال: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: "انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى".

عن محمد بن حبيب بن خِرَاش العَصَرِيّ، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

=

=

المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى".

عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: "كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان".

عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ قال: "الناس لآدم وحواء كطف الصاع لم يملأوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: "إن أنسابكم هذه ليست بمساب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملأوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو عمل صالح حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيا بخيلا جبانا".

عن ابن عمر قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: "يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. إن الله يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ثم قال: "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"».

عن عطاء: قال ابن عباس: "ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣]، وقال الناس: «أكرمكم أعظمكم بيتا» ؛ وقال عطاء: نسيت الثالثة".

وحكي النحاس عن ابن عباس: "ترك الناس هذه الآية: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣]، وقالوا: بالنسب".

=

=

عن يحيى بن يعمر، قال " ثلاث آيات، مدنيات، محكمات، ضيعهن كثير من الناس، هذه الآية: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} [النساء: ٨]، وآية الاستئذان: {وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ} [النور: ٥٨]، وقوله جل وعز: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات: ١٣]، إلى آخر الآية ".

وقال أبو هريرة: "ينادي مناد يوم القيامة إني جعلت نسبا وجعلهم نسبا. {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}، ليقم المتقون. فلا يقوم إلا من كان كذلك".

قال الجصاص:" قوله تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}، بدأ بذكر الخلق {من ذكر وأنثى} وهما آدم وحواء ثم جعلهم {شعوبا} يعني: متشعبين متفرقين في الأنساب كالأمم المتفرقة نحو العرب وفارس والروم والهند ونحوهم ثم جعلهم {قبائل}، وهم أخص من الشعوب نحو قبائل العرب وبيوتات العجم ليتعارفوا بالنسبة كما خالف بين خلقهم وصورهم ليعرف بعضهم بعضا ودل بذلك على أنه لا فضل لبعضهم على بعض من جهة النسب إذ كانوا جميعا من أب وأم واحدة ولأن الفضل لا يستحق بعمل غيره فبين الله تعالى ذلك لنا لئلا يفخر بعضنا على بعض بالنسب وأكد ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}، فأبان أن الفضيلة والرفعة إنما تستحق بتقوى الله وطاعته".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]، أي:" إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم".

قال الطبري: يقول: "إن الله أيها الناس ذو علم بأتقاكم عند الله وأكرمكم عنده، ذو خبرة بكم وبمصالحكم، وغير ذلك من أموركم، لا تخفى عليه خافية".

قال ابن كثير:" أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم

=

=

العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في "كتاب الأحكام" ولله الحمد والمنة. وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه".

قال السعدي:" يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلا بما يستحق".

عن سعيد بن جبير: "{عليم}، يعني: عالم بها".

قال محمد بن إسحاق:" أي: عليم بما يخفون".

عن قتادة، قوله: "{خَبِيرٌ}، قال: "خبير بخلقه".

وقال العثيمين: الخطاب هنا مصدر بنداء الناس عمومًا، مع أن أول السورة وجه الخطاب فيه للذين آمنوا، وسبب ذلك أن هذا الخطاب في هذه الآية موجه لكل إنسان؛ لأنه يقع التفاخر بالأنساب من كل إنسان، فيقول ﷻ: {يا أيها الناس}، والخطاب للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، {إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} من ذكر هو آدم، وأنثى هي حواء، هذا هو المشهور عند علماء التفسير، وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر والأنثى هنا الجنس، يعني أن بني آدم خُلقوا من هذا الجنس من ذكر وأنثى، وفي الآية دليل على أن الإنسان يتكون من أمه وأبيه أي يخلق من الأم والأب، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: {فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترآئب} فإذا قلنا: إن المراد بالصلب صلب الرجل، والترائب ترائب المرأة فلا إشكال، وإن قلنا بالقول الراجح: إن الصلب والترائب وصفان للرجل، يعني الماء الدافق هو ماء الرجل، أما المرأة فلا يكون

=

=

ماؤها دافقًا،

وعلى هذا فيكون الإنسان مخلوقًا من ماء الرجل، لكن ماء الرجل وحده لا يكفي، بل لابد أن يتصل بالبويضة التي يفرزها رحم المرأة فيزدوج هذا بهذا، فيكون الإنسان مخلوقًا من الأمرين جميعًا، أي من أبيه وأمه، {وجعلنكم شعوبًا} أي صيرناكم شعوبًا {وقبآئل} فالله تعالى جعل بني آدم شعوبًا وهم أصول القبائل، وقبائل وهم ما دون الشعوب، فمثلًا بنو تميم يعتبرون شعبًا، وأفخاذ بني تميم المتفرعون من الأصل يسمون قبائل، {وجعلنكم شعوبًا وقبآئل} هل الحكمة من هذا الجعل أن يتفاخر الناس بعضهم على بعض، فيقول هذا الرجل: أنا من قريش، وهذا يقول أنا من كذا، أنا من كذا؟ ليس هذا المراد، المراد التعارف، أن يعرف الناس بعضهم بعضًا، إذ لولا هذا الذي صيره الله ﷻ ما عرف الإنسان من أي قبيلة، ولهذا كان من كبائر الذنوب أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه،

لأنه إذا انتسب إلى غير أبيه غير هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي أنهم شعوب وقبائل من أجل التعارف، فيقال: هذا فلان ابن فلان ابن فلان إلى آخر الجد الذي كان أبًا للقبيلة، {لتعرفوا} أي: لا لتفاخروا بالأحساب والأنساب، {إن أكرمكم عند الله أتقكم} ليس الكرم أن يكون الإنسان من القبيلة الفلانية، أو من الشعب الفلاني، الكرم الحقيقي النافع هو الكرم عند الله، ويكون بالتقوى، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان عند الله أكرم، فإذا أحببت أن تكون عند الله كريمًا، فعليك بتقوى الله ﷻ والتقوى كلها الخير، وكلها البركة، وكلها سعادة في الدنيا والآخرة، {ألآ إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون}.

وما أكثر ما ترد على أسماعنا كلمة التقوى، وليس لفظًا يجري على الألسن ويمر بالآذان بل يجب أن يكون لفظًا عظيمًا موقرًا معظمًا محترمًا، ويفوت الإنسان من

=

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤).

{قَالَتِ الْأَعْرَاب} نَفَر مِنْ بَنِي أَسَد {آمَنَّا} صَدَّقْنَا بِقُلُوبِنَا {قُلْ} لَهُمْ {لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} انْقَدْنَا ظَاهِرًا {وَلَمَّا} أَيْ لَمْ {يَدْخُل الْإِيمَان فِي قُلُوبكُمْ} إلَى الْآن لَكِنَّهُ يَتَوَقَّع مِنْكُمْ {وَإِنْ تُطِيعُوا الله وَرَسُوله} بِالْإِيمَانِ وغيره {لا يالتكم} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه وَبِإِبْدَالِهِ أَلِفًا لَا يُنْقِصكُمْ {مِنْ أَعْمَالكُمْ} أَيْ مِنْ

=

التقوى بقدر ما خالف فيه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فإذا رأينا مثلًا إنسانًا يتقدم إلى المسجد ويصلي مع الجماعة ويخشع في صلاته، ويؤديها بكل طمأنينة، وآخر بالعكس يصلي في بيته ويقتصر فيها على الواجب، فالأول أتقى، إذن فهو أكرم عند الله حتى لو كان مولى من الموالي، والآخر من أرفع الناس نسبًا، فإن الأتقى لله هو الأكرم عند الله ﷻ وكل إنسان يحب أن يحظى عند السلطان في الدنيا، ويكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نحب أن نكون أقرب الناس إلى الله، وأكرمهم عنده؟! المسألة هوى وشيطان، وإلا لكان الأمر واضحًا، فعليك بتقوى الله ﷻ لتنال الكرم عند الله، {إن الله عليم خبير} بكل شيء، لأنه هنا مطلق، ولم يقيد بحال من الأحوال، {خبير} الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر لا شك أنه صفة مدح وكمال، لكن العلم بالبواطن أبلغ، فيكون عليم بالظواهر، وخبير بالبواطن، فإذا اجتمع العلم والخبرة صار هذا أبلغ في الإحاطة، وقد يقال إن الخبرة لها معنى زائد عن العلم، لأن الخبير عند الناس هو العليم بالشيء الحاذق فيه، بخلاف الإنسان الذي عنده علم فقط، ولكن ليس عنده حذق، فإنه لا يسمى خبيرًا، فعلى هذا يكون الخبير متضمنًا لمعنى زائد على العلم.

ثَوَابهَا {شَيْئًا إِنَّ الله غَفُور} لِلْمُؤْمِنِينَ {رَحِيم} بِهِمْ[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)} ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب؛ إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء العرب امتنوا بإسلامهم على نبي الله ﷺ، فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان؛ فقال الله تعالى: لا تقولوا: آمنا {وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} حتى بلغ: {فِي قُلُوبِكُمْ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٩٠) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وزاد السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٨٣) نسبته لعبد بن حميد.

وعن مجاهد؛ قال: أعراب بني أسد من خزيمة.

أخرجه الطبري (٢٦/ ٨٩) من طريقين عن ابن أبي نجيح عنه به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٨٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

* قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: ١٤]، أي:" قالت الأعراب -وهم البدو-: آمنا بالله ورسوله إيمانًا كاملا قل لهم -أيها النبي-: لا تدَّعوا لأنفسكم الإيمان الكامل، ولكن قولوا: أسلمنا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قالت الأعراب: صدقنا بالله ورسوله، فنحن =

=

مؤمنون، قال الله لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم {لم تؤمنوا} ولستم مؤمنين {ولكن قولوا أسلمنا} ".

قال الثعلبي:" فأخبر أنّ حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأنّ الإقرار به باللسان، وإظهار شرائعه بالأبدان، لا يكون إيمانا دون الإخلاص الذي محلّه القلب، وأنّ الإسلام غير الإيمان".

قال ابن كثير:" يقول تعالى منكرا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} . وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه".

قال محمد بن يزيد:: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ} ، هذا على تأنيث الجماعة، أي: قالت جماعة الأعراب".

عن قتادة:" {قالَتِ الأَعْرابُ آمَنّا} الآية، قال: لم تَعمّ هذه الآية الأعراب، ولكنها لطوائف من الأعراب".

وفي قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: ١٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم أقروا ولم يعملوا، فالإسلام قول، والإيمان عمل، قاله الزهري، وابن زيد، وإبراهيم النخعي، وبه قال الطبري.

عن إبراهيم: " {وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} ، قال: هو الإسلام".

قال الزهري:" نرى أنّ الإسلام الكلمة، والإيمان العمل".

عن داود بن أبي هند، أنّه سُئل: "عن الإيمان. فتَلا هذه الآية: {قالَتِ الأَعْرابُ آمَنّا

=

=

قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا}، قال: الإسلام: الإقرار، والإيمان: التصديق".

قال ابن زيد:" لم يصدقوا إيمانهم بأعمالهم، فرد الله ذلك عليهم: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}، وأخبرهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون، صدقوا إيمانهم بأعمالهم؛ فمن قال منهم: أنا مؤمن فقد صدق؛ قال: وأما من انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل فقد كذب، وليس بصادق".

عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: "أعطى النبي ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا، فقال سعد: يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا، ولم تعط فلانا شيئا، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: أو مسلم؟ حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي ﷺ يقول: أو مسلم، ثم قال النبي ﷺ إني أعطي رجالا وأدع من هو أحب إلي منهم، لا أعطيه شيئا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم".

قال ابن كثير-معلقا على الحديث أعلاه-:" فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام... ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقًا؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك".

الثاني: أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلمهم أن اسمهم أعراب، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" وذلك أنهم أرادوا أن يتَسَمَّوا باسم الهجرة، ولا يتَسَمَّوا بأسمائهم التي سماهم الله، وكان ذلك في أول الهجرة قبل أن تنزل المواريث لهم".

الثالث: أنهم مَنُّوا على رسول الله صلى الله بإسلامهم فقالوا أسلمنا، لم نقاتلك،

=

=

فقال الله تعالى لنبيه: قل لهم: لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا خوف السباء والسيف، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، وابن زيد-في رواية أخرى-.

وعن مجاهد: "{قُولُوا أَسْلَمْنَا}، قال: استسلمنا".

وقال مجاهد:" استسلموا حين خشوا القتل والسبا".

قال ابن قتيبة:" أي: اسْتَسْلمنا من خوف السيف وانْقَدْنا".

قال سهل:" يعني: أقررنا مخافة السبي والقتل لأن الإيمان إقرار باللسان صدقًا، وإيقان في القلب عقدًا، وتحقيقها بالجوارح إخلاصًا، وليس في الإيمان أنساب، وإنما الأنساب في الإسلام، والمسلم محبوب إلى الخلق، والمؤمن غني عن الخلق".

وعن ابن زيد:" وقرأ قول الله {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}، استسلمنا: دخلنا في السلم، وتركنا المحاربة والقتال بقولهم: لا إله إلا الله، وقال قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاس حتى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ، فإذَا قالُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِماءَهُمْ وأمْوَالهُمْ إلا بِحَقِّها وَحِسابُهُمْ على اللهِ".

قال الشافعي:" فأعلم أنه لم يدخل الإيمان في قلوبهم وأنهم أظهروه، وحقن به دماءهم".

قال الماوردي:" لأنهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، فلم يكونوا مؤمنين، وتركوا القتال فصاروا مستسلمين لا مسلمين، فيكون مأخوذًا من الاستسلام لا من الإسلام كما قال الشاعر:

طال النهار على من لا لقاح له... إلا الهدية أو ترك بإسلام

ويكون الإسلام والإيمان في حكم الدين على هذا التأويل واحدًا وهو مذهب الفقهاء، لأن كل واحد منهما تصديق وعمل".

والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، "وهو أن الله تقدّم إلى هؤلاء الأعراب

=

=

الذين دخلوا في الملة إقرارا منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق آمنا دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا آمنا بالله ورسوله، ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يشكل على سامعيه والذي قائله فيه محقّ، وهو أن يقولوا أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة والأموال، والشهادة الحق".

قال ابن كثير:" الصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}، أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد".

قال ابن قتيبة:" «الإسلام»: هو الدخول في السلم، أي: في الانقياد والمتابعة. قال تعالى: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء: ٩٤] أي: انقاد لكم وتابعكم. و «الاستسلام» مثله. يقال: سلم فلان لأمرك واستسلم وأسلم. أي دخل في السلم. كما تقول: أشتى الرجل: إذا دخل في الشتاء، وأربع: دخل في الربيع، وأقحط: دخل في القحط. فمن «الإسلام»: متابعة وانقياد باللسان دون القلب. ومنه قوله تعالى: {قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا} [الحجرات: ١٤] أي: أنقذنا من خوف السيف، وكذلك قوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣]، أي: انقاد له وأقرّ به المؤمن والكافر، ومن «الإسلام»: متابعة وانقياد باللسان والقلب، ومنه قوله حكاية عن إبراهيم:

{قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ} [البقرة: ١٣١]. وقوله: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠] أي: انقدت لله بلساني وعقدي.. قال زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية :

=

=

أسلمت وجهي لمن أسلمت... له المزن تحمل عذبا زلالا

أي: انقادت له المزن".

قال الزجاج:" هذا موضع يحتاج الناس إلى تفهمه، وأين ينفصل المؤمن من المسلم. وأين يستويان. و «الإِسلام» إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي- ﷺ -، وبذلك يحقن الدَّمُ، فإن كان مع ذلك الإِظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإِيمان الذي مَنْ هُوَ صفته فهو مؤمن مُسْلِم، وهو المؤمن بالله ورسوله غَيْرَ مرتابٍ ولا شَاكٍّ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه، وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه لا يدخلُه في ذلكَ رَيبٌ، فهو المؤمِنَ وهو المُسْلِمُ حقا".

قال النحاس:" الإسلام في اللغة الخضوع والتذلل لأمر الله جل وعز والتسليم له والإيمان والتصديق بكل ما جاء من عند الله جل وعز فإذا خضع لأمر الله سبحانه وتذلل له فهو مصدق، وإذا كان مصدقا فهو مؤمن، ومن كان على هذه الصفة فهو مسلم مؤمن إلا أن للإسلام موضعا أخر وهو الاستسلام خوف القتل".

قوله تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ١٤]، أي:" ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد".

قال الطبري: يقول:" ولما يدخل العلم بشرائع الإيمان، وحقائق معانيه في قلوبكم".

قال القشيري:" في هذا دليل على أن محلّ الإيمان القلب، كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، ومرض القلب والإيمان ضدان".

قوله تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} [الحجرات: ١٤]، أي:" وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئًا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره

=

=

وأمر رسوله، وتعملوا بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئا ولا ينقصكم من ثوابها شيئا".

قال ابن كثير:" أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١] ".

عن مجاهد، قوله: "{لا يَلِتْكُمْ}، لا ينقصكم". وفي رواية:"لا ينقصكم من أعمالكم شيئا ولا يظلمكم".

عن ابن زيد، قوله:" {وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ}، قال: إن تصدقوا إيمانكم بأعمالكم يقبل ذلك منكم".

قال قتادة:" يقول: لن يظلمكم من أعمالكم شيئا".

قال الفراء:" لا ينقصكم، ولا يظلمكم من أعمالكم شيئا، وهى من: لات يليت، والقراء مجمعون عليها، وقد قرأ بعضهم: «لا يَأْلَتْكُمْ»، ولست أشتهيها لأنها بغير ألف كتبت في المصاحف ".

قرأ أبو عامر: «لا يَأْلَتْكُمْ» بألف اعتبارا منه في ذلك بقوله: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١].

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١٤]، أي:" إن الله غفور لمن تاب مِن ذنوبه، رحيم به. وفي الآية زجر لمن يُظهر الإيمان، ومتابعة السنة، وأعماله تشهد بخلاف ذلك".

قال الطبري: يقول:" إن الله ذو عفو أيها الأعراب لمن أطاعه، وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، رحيم بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ما تابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم".

عن قتادة:" {غفور} للذنوب الكثيرة أو الكبيرة، -شكّ يزيد-، {رحيم} بعباده".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لمن تاب إليه وأناب".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {قالت الأَعراب آمنا} الأعراب اسم جمع لأعرابي، والأعرابي هو ساكن البادية كالبدوي تمامًا، فالأعراب افتخروا، فقالوا: آمنا آمنا، افتخروا بإيمانهم، فقال الله ﷻ: {قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} قيل: إن هؤلاء من المنافقين، لقول الله تعالى: {وممن حولكم من

الأَعراب منافقون} والمنافق مسلم، ولكنه ليس بمؤمن، لأنه مستثنى في الظاهر، إذ إن حال المنافق أنه كالمسلمين، ولهذا لم يقتلهم النبي عليه الصلاة والسلام، مع علمه بنفاقهم مع أنهم مسلمون ظاهرًا لا يخالفون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا.

وقيل: إنهم أعراب غير منافقين، لكنهم ضعفاء الإيمان، يمشون مع الناس في ظاهر الشرع، لكن قلوبهم ضعيفة، وإيمانهم ضعيف.

وعلى القول الأول: يكون قوله: {ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} أنه لم يدخل أصلًا، وعلى الثاني: أي لما يدخل الإيمان الدخول الكامل المطلق، ففيهم إيمان لكن لم يصل الإيمان في قلوبهم على وجه الكمال، والقاعدة عندنا في التفسير أن الآية إذا احتملت معنيين، فإنها تحمل عليهما جميعًا إذا لم يتنافيا، فإن تنافيا طلب المرجح.

فالأعراب الغالب عليهم أنهم لا يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله، فيقولون آمنا، فقال الله تعالى يخاطب النبي ﷺ: {قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} ووجه ذلك أن الإسلام في القلب، وهو صعب، والإسلام علامة في الجوارح، وكل إنسان يمكن أن يعمل بجوارحه عملًا متقنًا كأحسن ما يكون، فقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج أنهم يقرءون

=

=

القرآن، وأنهم يصلون، وأن الواحد من الصحابة يحقر صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم»

نسأل الله العافية، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وهذا يدل على أن الإسلام يستطيعه كل إنسان يمكن أن يصلي ويسجد ويقرأ ويصوم ويتصدق وقلبه خالٍ من الإيمان، ولهذا قال: {قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} وهنا التعبير يقول: {لما يدخل} ولم يقل: (ولم يدخل)، قال العلماء: إذا أتت (لما) بدل (لم) كان ذلك دليلًا على قرب وقوع ما دخلت عليه، فمثلًا إذا قلت: (فلان لمّا يدخلها) أي أنه قريب منها، ومنه قوله تعالى: {بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب} أي لم يذوقوه، ولكن قريب منه، وهنا قال: (لما يدخل) أي لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من الدخول، {وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعملكم شيئًا} إن أطعتم الله ورسوله بالقيام بأمره واجتناب نهيه فإنه لن ينقصكم من أعمالكم شيئًا بل سيوفرها لكم كاملة، كما قال الله تبارك وتعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون} . فكل إنسان يجزى على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، لكن رحمة الله تعالى سبقت غضبه {فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره} وقد يعاقب، وقد يعفو الله عنه، فالسيئات يمكن أن تمحى، والحسنات لا يمكن أن تنقص، ولهذا قال: {لا يلتكم من أعملكم شيئًا} أي لا ينقصكم. {إن الله غفور رحيم} ختم الآية بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى أن هؤلاء الذين قالوا إنهم آمنوا، قريبون من المغفرة والرحمة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من دخوله.

في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان، وكذلك في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ

=

=

فرق بين الإسلام والإيمان، ففي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». وفي الإيمان قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره». ففرق بين الإسلام والإيمان، وفي أدلة أخرى يجعل الله الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، فهل في هذا تناقض؟

والجواب: لا، فإذا قرن الإسلام بالإيمان صارا شيئين، وإذا ذكر الإسلام وحده، أو الإيمان وحده صارا بمعنى واحد، ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة، ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، يعني إذا ذُكرا في سياق واحد فهما شيئان، وإذا ذُكر أحدهما دون الآخر فهما شيء واحد، ويدل على هذا أن النبي ﷺ عدد أعمالًا هي من الإسلام، وجعلها من الإيمان فقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله» مع أنها من الإسلام، قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله». «وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». وإماطة الأذى عن الطريق من الإسلام؛ لأنها عمل، والأعمال جوارح «والحياء شعبة من الإيمان» وهذا في القلب، فالمهم الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شيء واحد، وإن اجتمعا فهما شيئان.

(تتمة): مباحث في الإيمان.

* تعريف الإيمان لغة

الإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية، وهو من الأمن ضد الخوف.

قال الراغب: (أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف).

وقال شيخ الإسلام: (فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما

=

=

يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد) وقد عرف الإيمان بعدة تعريفات: فقيل: هو التصديق، وقيل: هو الثقة، وقيل: هو الطمأنينة، وقيل: هو الإقرار. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبد الرزاق البدر- ص١٧

وله في لغة العرب استعمالان:

١ – فتارة يتعدى بنفسه فيكون معناه التأمين أي إعطاء الأمان، وآمنته ضد أخفته، وفي الكتاب العزيز: الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ [قريش: ٤] فالأمن ضد الخوف وفي الحديث الشريف: (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم، أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى الأمة ما توعد)

قال ابن الأثير الأمنة في هذا الحديث جمع أمين، وهو الحافظ وقوله ﷻ: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا [البقرة: ١٢٥] قال أبو إسحاق: أراد ذا أمن فهو آمن وأمن وأمين وفي الكتاب العزيز: وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ [التين: ٣] أي الآمن يعني مكة.

وقوله ﷻ: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [الدخان: ٥١] أي قد أمنوا فيه الغير واستأمن إليه: دخل في أمانة، وقد أمنه وآمنه وقرئ في سورة براءة: (إنهم لا إيمان لهم) [التوبة: ١٢] أي أنهم إن أجاروا وأمنوا المسلمين لم يفوا وغدروا، والإيمان هاهنا الإجارة

والأمنة والأمانة نقيض الخيانة

وفي الحديث: (المؤذن مؤتمن) مؤتمن القوم: الذي يثقون فيه ويتخذونه أمينًا حافظًا، تقول: اؤتمن الرجل فهو مؤتمن، يعني أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم

والمؤمن من أسماء الله تعالى. قيل: في صفة الله الذي أمن الخلق من ظلمه وقيل:

=

المؤمن الذي آمن أولياءه عذابه وقيل: المؤمن الذي يصدق عباده ما وعدهم قال ابن الأثير: (في أسماء الله تعالى المؤمن وهو الذي يصدق عباده وعده فهو من الإيمان التصديق، أو يؤمنهم في القيامة عذابه، فهو من الأمان ضد الخوف).

٢- وتارة يتعدى بالباء أو الكلام فيكون معناه التصديق.

وفى التنزيل: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [يوسف: ١٧] أي بمصدق، آمنت بكذا، أي صدقت. والمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر.

والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة، وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق.

قال الزجاج: أما قوله ﷻ: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا [الأحزاب: ٧٢] والذي عندي فيه أن الأمانة ههنا النية التي يعتقدها الإنسان فيما يظهره باللسان من الإيمان، ويؤديه من جميع الفرائض في الظاهر، لأن الله ﷻ ائتمنه عليها ولم يظهر عليها أحدًا من خلقه، فمن أضمر التوحيد والتصديق مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة، ومن أضمر التكذيب، وهو مصدق باللسان في الظاهر فقد حمل الأمانة ولم يؤدها.

وقوله ﷻ: يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ [التوبة: ٦١]، وقال ثعلب: يصدق الله ويصدق المؤمنين. ومنه قوله ﷻ: قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ [البقرة: ١٣٦]، وأَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ [البقرة: ٧٥]، ويفهم من الكلام السابق، أن التصديق كما يكون بالقلب واللسان يكون بالجوارح أيضًا، ومنه قوله ﷺ: (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه).

قال الجوهري: (والصديق بوزن السكيت: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق

=

قوله بالعمل). نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي- ١/ ٣١

ولكن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى رأي آخر في معنى الإيمان اللغوي، وهو من آرائه السديدة، واختياراته الموفقة؛ حيث اختار معنى (الإقرار) للإيمان. لأنه رأى أن لفظة (أقر) أصدق في الدلالة والبيان على معنى الإيمان الشرعي من غيرها؛ لأمور وأسباب ذكرها ثم ناقشها بالمعقول، ورد بتحقيق علمي رصين قول من ادعى: أن الإيمان مرادف للتصديق، وذكر فروقًا بينهما؛ تمنع دعوى الترادف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكان تفسيره أي الإيمان بلفظ الإقرار؛ أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقا).

وقال أيضًا: (ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده على من ادعى الترادف بين الإيمان والتصديق: (إنه -أي الإيمان- ليس مرادفًا للتصديق في المعنى؛ فإن كل مخبر عن مشاهدة، أو غيب، يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت؛ فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق، كما يقال: كذب.

وأما لفظ الإيمان؛ فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة، كقول: طلعت الشمس وغربت، أنه يقال: آمناه، كما يقال: صدقناه.

ولهذا؛ المحدثون والشهود ونحوهم، يقال: صدقناهم، وما يقال: آمنا لهم؛ فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر؛ كالأمر الغائب الذي يؤمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ: آمن له؛ إلا في هذا النوع).

=

=

وقال أيضًا: (إن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب؛ كلفظ التصديق؛ فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت، أو كذبت، ويقال: صدقناه، أو كذبناه، ولا يقال: لكل مخبر: آمنا له، أو كذبناه.

ولا يقال: أنت مؤمن له، أو مكذب له؛ بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب). والمعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت، أو كذبت، ويقال: صدقناه، أو كذبناه،

وقال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (أكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة: التصديق، ولكن في هذا نظر! لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فنقول مثلًا: صدقته، ولا تقول آمنته! بل تقول: آمنت به، أو آمنت له. فلا يمكن أن نفسر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت) فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت).

ولهذا؛ لو فسر (الإيمان) بـ (الإقرار) لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فتقول أقر به، كما تقول: آمن به، وأقر له كما تقول: آمن له).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٣٩٧): الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم الذي يتبعه عمل يأمن معه المؤمن الغائلة أو العقوبة إلى آخره. وقولنا التصديق الذي معه عمل هذا تحصيل حاصل؛ لأنه إذا كان الشيء يلزم منه العمل فإنه لا يطلق لفظ مصدقا في اللغة على من صدق حتى يعمل، مثاله: أتى شخص وقال لآخر سيارتك الآن تسرق، فقال له الآخر: جزاك الله خيرا، قال: لك فيها أموال ولك فيها أشياء وهي الآن تسرق، قال الآخر: جزاك الله خيرا وجلس ولم يتحرك، فهل يعتبر في اللغة مصدقا؟ إذا كان قد صدق الخبر فإنه لابد أن يتبعه

=

=

بعمل يدل على صدقه؛ لأن الناس لا يفرطون بأموالهم ولا يفرطون بما فيه قوام حياتهم، فإذا مكث وقال أنا مصدق، وهو ما ذهب، ما أتبعه عمل، فلا يسمى مصدقا في اللغة، ليس في الشرع -فقط-، لا يسمى مصدقا في اللغة -أيضا- ودل على هذا الأصل قول الله ﷻ في قصة إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل في سورة الصافات قال {قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين} [الصافات:١٠٢ - ١٠٣]، لاحظ العمل {فلما} و {لما} انتبه لكلمة {لما}، {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} [الصافات:١٠٣ - ١٠٥]، رؤيا الأنبياء حق، إذا رآها النبي صدق بأنها وحي من الله ﷻ لكن متى صار مصدقا بالرؤيا؟ لما امتثل دلالتها {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} وهذا تصديق لغوي وهو أيضا تصديق شرعي، إذا فالإيمان في العرف لو أرجعناه إلى التصديق فإن حقيقة التصديق أن يكون معه عمل، فلا يسمى مصدقا من ليس يعمل أصلا فيما صدق به. ا.هـ

واعلم أخي المسلم علمنا الله وإياك طريقة السلف الصالح: أن الحقائق قد تعرف بالشرع كالإيمان، وقد تعرف باللغة كالشمس، وقد تعرف بالعرف كالقبض.

وأن التعريف الشرعي قد يتفق مع التعريف اللغوي، وقد يختلف؛ بحيث يكون بالمعنى الشرعي أشمل من اللغوي، ولكن العبرة بالمعنى الشرعي الذي نتعبد الله تعالى به.

وهكذا في مسمى الإيمان؛ إذ التصديق أحد أجزاء المعنى الشرعي على الصحيح المشهور عند أئمة أهل السنة والجماعة، وعلى ذلك دلت نصوص الكتاب والسنة.

=

=

فالمعنى المختار للإيمان لغة: هو الإقرار القلبي: ويكون الإقرار: باعتقاد القلب: أي تصديقه بالأخبار. عمل القلب: أي إذعانه وانقياده للأوامر.

* تعريف الإيمان شرعا

هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه.

وأن محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله، وخاتم النبيين، وقبول جميع ما أخبر به ﷺ عن ربه جل وعلا وعن دين الإسلام؛ من الأمور الغيبية، والأحكام الشرعية، وبجميع مفردات الدين، والانقياد له ﷺ بالطاعة المطلقة فيما أمر به، والكف عما نهى عنه ﷺ وزجر؛ ظاهرًا وباطنًا، وإظهار الخضوع والطمأنينة لكل ذلك.

وملخصه: (هو جميع الطاعات الباطنة والظاهرة).

الباطنة: كأعمال القلب، وهي تصديق القلب وإقراره.

الظاهرة: أفعال البدن من الواجبات والمندوبات.

ويجب أن يتبع ذلك كله: قول اللسان، وعمل الجوارح والأركان، ولا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر؛ لأن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان، وجزء منه.

فمسمى الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ كما أجمع عليه أئمتهم وعلماؤهم، هو: (تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية). الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة عبدالله بن عبدالحميد الأثري- ص١٣

وقد ذهب عامة أهل السنة إلى أن الإيمان الشرعي هو اعتقاد وقول وعمل.

=

=

قال الإمام محمد بن إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني: (والإيمان في لسان الشرع هو التصديق بالقلب، والعمل بالأركان).

وقال الإمام البغوي: (اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان.. وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة).

وقال الحافظ ابن عبد البر: (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية... إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانًا...).

(قال الإمام الشافعي في (كتاب الأم).. وكان الإجماع من الصحابة، والتابعين من بعدهم ممن أدركنا: أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر).

وروى الإمام اللالكائي عن الإمام البخاري قوله: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

والنصوص عن الأئمة كثيرة جدًا في قولهم: إن الإيمان قول وعمل، نقل كثيرًا منها المصنفون في عقيدة أهل السنة من الأئمة المتقدمين كالإمام اللالكائي وابن بطه وابن أبي عاصم وغيرهم.

ولا فرق بين قولهم: إن الإيمان قول وعمل، أو قول وعمل ونية، أو قول وعمل واعتقاد. فكل ذلك من باب اختلاف التنوع، فمن قال من السلف: إن الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح.

ومن زاد الاعتقاد رأى لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، أو خاف ذلك، فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن قال: قول وعمل ونية، قال: القول يتناول الاعتقاد (قول القلب)، وقول

=

=

اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية (عمل القلب)، فزاد ذلك.

خلاصة ما سبق من حقيقة الإيمان الشرعي أنها (مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب، وهو الاعتقاد، وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة، زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًا وجهرًا، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به).

* العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي

العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي: عرفنا أن من معاني الإيمان لغة: التصديق، وأن التصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وهكذا الإيمان الشرعي، عبارة عن تصديق مخصوص، وهو ما يسمى عند السلف، بقول القلب، وهذا التصديق لا ينفع وحده، بل لابد معه من الانقياد والاستسلام، وهو ما يسمى بعمل القلب ويلزم من ذلك قول اللسان، وعمل الجوارح، وهذه الأجزاء مترابطة، لا غنى لواحدة منها عن الأخرى ومن آمن بالله ﷻ، فقد أمن من عذابه نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي- ١/ ٣١

فالمنهج الصحيح إذن لفهم الألفاظ الشرعية هو أن نتلقى تفسيرهم وفهم السلف لمعاني هذه الألفاظ أولًا، ثم نضبط بهذا الفهم ألفاظ النصوص، وليس العكس،

=

=

أي ليس استخراج المعاني من النظر المباشر إلى الدلالات اللغوية لألفاظ النصوص، كما ذهب إلى ذلك من ذهب من أهل الأهواء والبدع......

ولكن قومًا خرجوا على هذا المنهج، وعدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله، وأخذوا يتكلمون في المسميات الشرعية بطرق مبتدعة ومقدمات لغوية وعقلية مظنونة، فقالوا: إن الإيمان لا تدخل فيه الأعمال وإنما هو التصديق المجرد؛ فخالفوا بذلك كلام الله ورسوله ﷺ وإجماع السلف.

وقد بنوا قولهم هذا على مقدمتين مظنونتين :

المقدمة الأولى: قولهم إن الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق.

المقدمة الثانية: قولهم إن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان.

وقد تصدى علماء السنة والجماعة لهؤلاء القوم، فردوا عليهم قولهم، ودحضوا شبهاتهم، وكشفوا زيغهم وضلالهم. ويتلخص الرد على أصحاب هذا الاتجاه من خلال استعراض أصول ثلاثة....

الأصل الأول: إن أهل اللغة لم يثبت عنهم أن الإيمان قبل نزول القرآن هو التصديق:

أما عن الأصل الأول فنقول: إن أهل اللغة، إما يقصد بهم المتكلمون باللغة قبل الإسلام، فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحد عنهم أن الإيمان عندهم قبل نزول القرآن هو التصديق، فمن يزعم أنهم لم يعرفوا في اللغة إيمانًا غير ذلك من أين لهم هذا النفي الذي لا تمكن الإحاطة به؟ بل هو قول بلا علم.

وإما يقصد بأهل اللغة نقلتها، كأبي عمرو والأصمعي والخليل ونحوهم، فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في

=

زمانهم، وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالإسناد، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان، فضلًا عن أن يكونوا أجمعوا عليه، بل نسأل: من نقل هذا الإجماع؟ ومن أين يعلم هذا الإجماع؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الإجماع؟.

بل إن بعضهم يذهب إلى أن الإيمان في اللغة مأخوذ من الأمن الذي هو ضد الخوف، والبعض الآخر يذهب إلى أنه بمعنى الإقرار وغيره.

ولو قدر أن بعضهم نقل كلامًا عن العرب يُفهم منه أن الإيمان هو التصديق، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم تواتر، بل نقلهم ذلك ليس بأبلغ من نقل المسلمين كافة لمعاني القرآن عن النبي ﷺ إذ ينبغي للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله، بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده، لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد.

فنحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن، والقرآن نزل بلغة قريش، والذين خوطبوا به كانوا عربًا، وقد فهموا ما أريد به، وهم الصحابة، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه إلى التابعين حتى انتهى إلينا، فلم يبق بنا حاجة إلى أن تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن.

إن الألفاظ لا ينطق بها ولا تستعمل إلا مقيدة، إذ لا يوجد في الكلام حال إطلاق محض للألفاظ، بل الذهن يفهم من اللفظ في كل موضع ما يدل عليه اللفظ في ذلك الموضع.

والشارع قد استعمل الألفاظ أيضًا مقيدة لا مطلقة، كقوله تعالى: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ [آل عمران: ٩٧] وكذلك قوله: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ [البقرة: ١٥٨]. فذكر حجًا خاصًا وهو حج البيت، فلم يكن لفظ الحج متناولًا لكل قصد، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير. فالحج المخصوص الذي

=

أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام، فإذا قيل: الحج فرض عليك، كانت لام العهد تبين أنه حج البيت.

وكذلك لفظ الزكاة، بيّن النبي ﷺ مقدار الواجب، وسماها الزكاة المفروضة، فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد، ولفظ الإيمان أمر به مقيدًا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك لفظ الإسلام بالاستسلام لله رب العالمين، وكذلك لفظ الكفر مقيدًا، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء، كخطاب الناس بغيرها، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعًا.

وقد بين الرسول تلك الخصائص، والاسم دل عليها، فلا يقال إنها منقولة، ولا إنه زيد في الحكم دون الاسم، بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع، لم يستعمل مطلقًا، وهو إنما قال: (أقيموا الصلاة) بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها، فكان التعريف منصرفًا إلى الصلاة التي يعرفونها، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه، وكذلك الإيمان والإسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور.

فالواجب أن يعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل في القرآن والسنة، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ، فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله.

الأصل الثاني: أن لفظ الإيمان ليس مرادفًا للفظ التصديق معنى واستخدامًا:

وأما عن الأصل الثاني، فإن لفظ الإيمان يباين لفظ التصديق، سواء من حيث مواقع الاستخدام في اللغة أو من حيث المعنى. فأما من حيث الاستخدام فإن الإيمان يختلف عن التصديق من عدة وجوه:

أحدها: أن يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه، ولا يقال: آمنه وآمن به، بل يقال: آمن

=

=

له، كما قال تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ [العنكبوت: ٢٦]. وقال: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ [يونس: ٨٣].

فإن قيل: فقد يقال: ما أنت بمصدق لنا؟ قيل: اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله، إما بتأخيره، أو بكونه اسم فاعل أو مصدرًا، أو باجتماعهما فيقال: فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه، ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل: هو عابد لربه، متق لربه، خائف لربه فقول القائل: ما أنت بمصدق لنا، أدخل فيه اللام كونه اسم فاعل، وإلا فإنما يقال: صدقته، لا يقال: صدقت له، ولو ذكروا الفعل لقالوا: ما صدقتنا، وهذا بخلاف لفظ الإيمان، فإنه يتعدى إلى الضمير باللام دائمًا، لا يقال: آمنته قط، وإنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقًا.

الثاني: أن الإيمان لا يستعمل في جميع الإخبار، بل في الإخبار عن الأمور الغائبة ونحوها مما يدخلها الريب، فإذا أقر بها المستمع قيل: آمن، بخلاف لفظ التصديق، فإنه عام متناول لجميع الإخبار فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق، كما يقال كذب. وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ، آمن له، إلا في هذا النوع، فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا [يوسف: ١٧]. أي لا تقر بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئن إليه، ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم.

الثالث: أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب، كلفظ التصديق، فإنه من

=

=

المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت وكذبت، ويقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك، لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعًا، بلا تكذيب، فلا بد أن يكون الإيمان تصديقًا مع موافقة وموالاة وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق.

وكذلك لفظ (الإيمان) فيه إخبار وإنشاء التزام، بخلاف لفظ (التصديق) المجرد، فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضمن طمأنينة إلى المخبر، لا يقال فيه: آمن له، بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة إلى صدقه، فإذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنًا للمخبر إلا بالتزام طاعته مع تصديقه، بل قد استعمل لفظ الكفر- المقابل للإيمان- في نفي الامتناع عن الطاعة والانقياد، فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما استعمل لفظ الإقرار في نفي التزام الطاعة والانقياد، فإن الله أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

الأصل الثالث: أن التصديق لا يكون بالقلب فقط ولا بالقلب واللسان فقط:

وأما عن الأصل الثالث فنقول: هب أن الإيمان قد رادف التصديق في بعض النقول، فما هو المقصود بالتصديق في هذه النقول؟

إذا كان تصديق القلب داخلًا في المراد، فليس المراد ذلك وحده، بل المراد التصديق بالقلب واللسان، فإن مجرد تصديق القلب دون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه ! ولا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى، ويجب حبه وتعظيمه، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه، ولا يخافه ولا

=

=

يرجوه، بل يجحد به ويكذب به بلسانه، لم يقولوا: هو مصدق به، ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه، لم يقولوا: هو مؤمن به.

وأما الاستدلال بقوله تعالى: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا [يوسف: ١٧] فليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر، فلو قلت: ما أنت بمسلم لنا، ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لما قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ، ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، والتزموا الصلاة، وافعلوا الصلاة، كان المعنى صحيحًا، لكن لا يدل هذا على معنى: أقيموا. فكون اللفظ يرادف اللفظ، يراد دلالته على ذلك.

ولو فرض أن الإيمان في اللغة التصديق، فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء، بل بشيء مخصوص وهو ما أخبر به الرسول ﷺ، وحينئذ فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة.

والقرآن ليس فيه ذكر إيمان مطلق غير مفسر، بل لفظ الإيمان فيه إما مقيد وإما مطلق مفسر، فالمقيد كقوله: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة: ٣] وقوله: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ [يونس: ٨٣]. والمطلق المفسر كقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال: ٢] ونحو ذلك. وكل إيمان مطلق في القرآن فقد بين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمنًا إلا بالعمل مع التصديق.

وقد جرى عرف اللغة عند العرب على أن الاسم يكون مطلقًا وعامًا، ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه، فبتقدير أن يكون في لغتهم التصديق، فإنه قد بين الشارع لهم أنه لا يكتفي بتصديق القلب واللسان، فضلًا عن تصديق القلب وحده، بل لابد أن يعمل بموجب ذلك التصديق، فبين لهم أن التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمنًا إلا به، هو أن يكون تصديقًا على هذا الوجه، وهذا بين في القرآن والسنة من غير

=

=
تغيير للغة ولا نقل لها.
وأخيرًا نقول: إن الأفعال نفسها تسمى تصديقًا، كما ثبت في (الصحيح) عن النبي ﷺ أنه قال: (العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه). وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف.
قال الجوهري: (والصديق مثال الفسيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل).
وقال الحسن البصري: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال).
وقال سعيد بن جبير: (والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه، عرف أنه ذنب، واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه، فذلك هو التصديق).
وقال الأوزاعي: (والإيمان بالله باللسان، والتصديق به العمل).
وهكذا نرى أن الإيمان- وإن كان أصله التصديق- فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، ويبقى النزاع لفظيًا: هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم؟. حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة لمحمد عبدالهادي المصري- بتصرف- ص: ٢٣
ذهب كثير من المتكلمين وغيرهم؛ بل هو العُمدة عند جماهير المرجئة أن الإيمان في مفهوم اللغة العربية هو مجرد التصديق، استدلالًا بقوله تعالى في أول سورة
=

=

يوسف: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [يوسف: ١٧].

الصواب: أن معنى الإيمان في اللغة ليس مرادفًا للتصديق، بل التصديق وزيادة، من الإقرار والإذعان والتسليم ونحوها، لعدة اعتبارات.

أن معنى الآية في الحقيقة: ما أنت بمُقر لنا ولا تطمئن إلى قولنا ولا تثق به ولا تتأكد منه ولو كناً صادقين، فإنهم لو كانوا كذلك فصدقهم، لكنه لم يتأكد ولم يطمئن إلى قولهم. وهذه بلاغة في اللغة.

أن لفظة الإيمان يقابلها الكفر، وهو ليس التكذيب فقط بل قدر زائد عليه، وإنما الكذب يقابل لفظة التصديق.

فلما كان الكفر في اللغة ليس مقصورًا على التكذيب، فكذلك ما يقابل الكفر وهو الإيمان لا يقابل التصديق، وليس مقصورًا عليه.

أن لفظ الإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار المشاهدة وغيرها، وإنما يُستعمل في الأمور الغائبة مما يدخلها الريب والشك، فإذا أقر بها المستمع قيل آمن، بخلاف التصديق، فإنه يتناول الإخبار عن الغائب والشاهد، وإخوة يوسف أخبروا أباهم عن غائب غير مشاهد فصح أن الإيمان أخص من التصديق.

أن لفظ الإيمان تكرر في الكتاب والسنة كثيرًا جدًا، وهو أصل الدين الذي لا بد لكل مسلم من معرفته، فلابد أن يؤخذ معناه من جميع موارده التي ورد فيها في الوحيين لا من آية واحدة؛ الاحتمالُ مُتطرق إلى دلالتها!

أن الإيمان مخالف للتصديق في الاستعمال اللغوي وفي المعنى:

فأما اللغة فقد مضت في الجواب الثالث؛ فالاستعمال اللغوي للإيمان يُتعدى فيه إلى المُخبِر باللام وإلى المُخبَر عنه بالباء كقوله تعالى: فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ [الأعراف: ١٥٨].

أما المعنى: فإن الإيمان مأخوذ من الأمن وهو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار

=

=
مأخوذ من قرَّ يقُر، وهو قريب من آمن يأمن.
وأما الصدق فهو عدم الكذب، ولا يلزم أن يوافقه طمأنينة إلا إذا كان المُخبر الصادق يُطمئن إلى خبره وحاله.
أن لفظ الإيمان يتعدى إلى غيره باللام دائمًا نحو قوله تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ [العنكبوت: ٢٦]، وقول فرعون في الشعراء: آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ [الشعراء: ٤٩]، وقوله تعالى في يونس: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ [يونس: ٨٣]، وقوله: فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ [المؤمنون: ٤٧]. وقوله: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ [الشعراء: ١١١]، وآيات عديدة. أما لفظ التصديق وصدق ليصدق فإنه يتعدى بنفسه نحو: قوله تعالى في الصافات: قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِناَّ كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ [الصافات: ١٠٥]. وفي أولها: بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ [الصافات: ٣٧]. وفي سورة الزمر: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ [الزمر: ٧٤] فكلها بمقابل الكذب.
لو فرضنا أن معنى الإيمان لغة التصديق، لوجب أن لا يختص بالقلب فقط بل يكون تصديقًا باللسان، وتصديقًا بالجوارح كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.. (العينان تزنيان..) الحديث.
كذلك لو قلنا: إن الإيمان أصله التصديق، فإنه تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والصوم إمساك مخصوص يتبيَّن بالمعنى الشرعي حيث يكون للتصديق لوازم شرعية دخلت في مسماه مسألة الإيمان لعلي بن عبد العزيز الشبل- ص٢٠
ويمكن أن نجمل الأمور التي ذكرها شيخ الإسلام في دفع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق في النقاط التالية:
١- أن لفظة آمن تختلف عن لفظة صدق من جهة التعدي، حيث إن آمن لا تتعدى
=

=

إلا بحرف إما الباء أو اللام كما في قوله تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [العنكبوت: ٢٦]، وقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [البقرة: ٢٨٥].

فيقال: آمن به وآمن له، ولا يقال: آمنه، بخلاف لفظة صدق فإنه يصح تعديتها بنفسها فيقال: صدقه.

٢- أنه ليس بينهما ترادف في المعنى، فإن الإيمان لا يستخدم إلا في الأمور التي يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية، لأنه مشتق من الأمن، أما الأمور المشاهدة المحسوسة فهذه لا يصلح أن يقال فيها: آمن وإنما يقال: صدق، لأن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت كما يقال: كذبت، أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب.

٢- أن لفظة إيمان في اللغة لا تقابل بالتكذيب، فإذا لم يصدق المخبر في خبره يقال: كذبت، وإذا صدق يقال: صدقت فيقال: صدقناه: أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك، لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤- أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف، فآمن أي: صار داخلا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قال إخوة يوسف لأبيهم: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [يوسف: ١٧] أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا

=

=

صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم. أما التصديق فلا يتضمن شيئا من ذلك.

فهذه الأمور تدفع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق، كما يظنه طائفة من الناس، وبناء عليها فالإيمان ليس هو التصديق فحسب، وإنما هو تصديق وأمن أو تصديق وطمأنينة، وهو متضمن للالتزام بالمؤمن به سواء كان خبرًا أو إنشاءً، بخلاف لفظ التصديق المجرد، فمن أخبر غيره بخبر لا يتضمن طمأنينة إلى المخبر، والمخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له وقد لا يتضمن إلا مجرد الطمأنينة إلى صدقه، فإذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنًا للمخبر إلا بالتزام طاعته مع تصديقه، فإن صدقه دون التزام بطاعته، فهذا يسمى تصديقًا ولا يسمى إيمانًا.

ولهذا فإن اللفظ المطابق لآمن من جهة اللغة هو لفظ أقر، لتوافقه مع لفظ آمن في الأمور المتقدمة، فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قر يقر، وهو قريب من آمن يؤمن، لكن الصادق يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة، والكذب ريبة، فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار، ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار، وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق والشهادة ونحوهما، وهذا الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

والثاني: إنشاء الالتزام كما في قوله تعالى: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ [آل عمران: ٨١] وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قال: وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

=

=

وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ [آل عمران: ٨١] فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام بخلاف لفظ التصديق المجرد.

ولذا فالإيمان لغة هو الإقرار، لأن التصديق إنما يطابق الخبر فقط، وأما الإقرار فيطابق الخبر والأمر ولأن قر وآمن متقاربان، فالإيمان دخول في الأمن، والإقرار دخول في القرار.

* أهمية مسألة الإيمان

مسألة الإيمان من مسائل العقيدة الجليلة التي وقع الاختلاف فيها، والافتراق عليها قديمًا في المسلمين؛ بل لا يبعد إذا قيل إنها أول مسائل الاختلاف في هذه الأمة التي وقع النزاع فيها بين طوائفها، فخالف فيها المبتدعة الأمة الإسلامية!

ومن ثم ترتب عليها اختلافات أخر في مسائل وثيقة الصلة بمسألة الإيمان.

ومسائل الإيمان يعبر عنها العلماء بمسألة (الأسماء والأحكام) بمعنى: اسم العبد في الدنيا هو هل مؤمن أو كافر أو ناقص الإيمان... ؟ وحكمه في الآخرة أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار، أم ممن يدخل النار ثم يخرج منها ويخلد في الجنة؟

ولأهمية هذه المسائل ضمنها أهل السنة والجماعة في مباحث العقيدة الكبار، وقال الحافظ ابن رجب مبينًا أهمية هذه المسألة: (وهذه المسائل، أعني مسائل الإسلام والإيمان، والكفر والنفاق مسائل عظيمة جدًا.

فإن الله ﷻ علّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار.

والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين.

=

=

ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.

وقد صنّف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسائل تصانيف متعددة، وممن صنّف في الإيمان من أئمة السلف: الإمام أحمد، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن أسلم الطوسي، -رحمهم الله تعالى- وكثرت فيه التصانيف بعدهم من جميع الطوائف) اهـ.

وهكذا شأن الابتداع في الدين، فما يبتدع أحد بدعة- ولا سيما في أصول الدين وباب السنة- إلا اتسعت اتساعًا كبيرًا شبرًا فباعًا فميلًا.. وحسبك أن تعلم ما يقابل هذا الاتساع من خفاء السنن واندراسها.

ولا يبتدع مبتدع من أهل الأهواء بدعة في هذا الباب إلا ويأتي عقبه من يبتدع بدعة تضاد بدعته وتقابلها، حتى يكون الحق عند من يجده وسطًا بين البدعتين، وهذا تلاحظه في:

بدعة الخوارج الوعيدية ومن تبعهم في مسائل الإيمان، ومقابلة المرجئة بطوائفها لهم ببدعتهم، والحق وسط بينهما!

وفي باب الصفات ببدعة الممثلة المشبهة، ومقابلة المعطلة لهم.

وفي باب القدر والإرادة بين بدعة القدرية نفاة القدر، وما قابلها من بدعة الجبرية الغلاة في إثباته.

وفي باب الصحابة والإمامة بين بدعة الخوارج النواصب وما قابلهم من بدعة الروافض.

والحق في كل هو الوسط بين تلك البدع!.

* الإيمان عند أهل السنة والجماعة

الإيمان اعتقاد وقول وعمل الإيمان أصله في القلب: قال ﷻ: وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات: ٨]، وقال تعالى: وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي

=

=

قُلُوبِكُمْ [الحشر: ٧]، وقال أيضًا: أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ [المجادلة: ٢٢]

وقال أيضًا: إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ [النحل: ١٠٦]

وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه).

إلى غير ذلك من الأدلة الصريحة في أن إيمان القلب شرط في الإيمان، ولا يصح الإيمان بدونه، وأنه إذا وجد سرى ذلك إلى الجوارح ولابد.

وإيمان القلب ليس مجرد العلم والمعرفة والتصديق بالله ﷻ، وخبر الرسول ﷺ- بل لابد مع ذلك من الانقياد والاستسلام، والخضوع والإخلاص، مما يدخل تحت عمل القلب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين:

تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا: قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب " فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها جزءًا من الإيمان ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن ضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب).

فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق...

ويقول أيضًا: الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله، والعمل تابع لهذا العلم

=

=

والتصديق ملازم له، ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بها.

ويقول رَحِمَهُ اللهُ مبينًا شدة الترابط بين الأصل والفرع: (إذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له (قول القلب، وعمله) لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه).

ويقول الإمام المروزي رَحِمَهُ اللهُ: أصل الإيمان التصديق بالله، وبما جاء من عنده، وعنه يكون الخضوع لله لأنه إذا صدق بالله خضع له، وإذا خضع أطاع.. ومعنى التصديق هو المعرفة بالله، والاعتراف له بالربوبية، بوعده، ووعيده، وواجب حقه، وتحقيق ما صدق به من القول والعمل.. ومن التصديق بالله يكون الخضوع لله، وعن الخضوع تكون الطاعات، فأول ما يكون عن خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق من عمل الجوارح والإقرار باللسان.

ويقول أيضًا: (وإنما المعرفة التي هي إيمان، هي معرفة تعظيم الله، وجلاله، وهيبته، فإذا كان كذلك، فهو المصدق الذي لا يجد محيصًا عن الإجلال، والخضوع لله بالربوبية، فبذلك ثبت أن الإيمان يوجب الإجلال لله، والتعظيم له، والخوف منه، والتسارع إليه بالطاعة على قدر ما وجب في القلب من عظيم المعرفة).

ويقول: (أصل الإيمان هو التصديق، وعنه يكون الخضوع، فلا يكون مصدقًا إلا خاضعًا، ولا خاضعًا إلا مصدقًا، وعنهما تكون الأعمال).

يتضح لنا من النقل السابق أن العلم والمعرفة والتصديق (أي قول القلب)، إن لم

=

=

يصحبها الانقياد والاستسلام والخضوع، (أي عمل القلب والجوارح) لم يكن المرء مؤمنًا، بل تصديق هذا شر من عدمه لأنه ترك الانقياد مع علمه ومعرفته.
والدليل على أن التصديق والمعرفة فقط لا تنفع صاحبها وصف الله به إبليس بقوله: خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ [الأعراف: ١٢] وقوله: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [ص: ٨٢]، فأخبر أنه قد عرف أن الله خلقه، ولم يخضع لأمره فيسجد لآدم كما أمره، فلم ينفعه معرفته إذ زايله الخضوع.
والدليل على ذلك أيضًا شهادة الله على قلوب بعض اليهود أنهم يعرفون النبي ﷺ وما أنزل إليهم كما يعرفون أبناءهم، فلا أحد أصدق شهادة على ما في قلوبهم من الله، إذ يقول لنبيه: فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ [البقرة: ٨٩]، وقال: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ [البقرة: ١٤٦]، وقال: لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: ١٤٦] فشهد على قلوبهم بأنها عارفة عالمة بالنبي ﷺ ولم يوجب لهم اسم الإيمان بمعرفتهم وعلمهم بالحق إذ لم يقارن معرفتهم التصديق والخضوع لله ولرسوله بالتصديق له والطاعة.
ومما يجدر ذكره أن بعض السلف يطلق التصديق أو اعتقاد القلب ويقصد به قول القلب وعمله جميعًا، أو عمل القلب وحده.
يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما من زعم أن الإيمان الإقرار، فما يقول في المعرفة؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقًا بما عرف؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار، فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف، فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال: لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولًا عظيمًا فالملاحظ من كلام الإمام أحمد أنه يعني بالتصديق عمل القلب ويعني بالمعرفة قول القلب، أما الإقرار فقول اللسان وقال الإمام أبو ثور لما سئل عن الإيمان ما هو؟: (فاعلم يرحمنا الله

=

=

وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب والقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله ﷻ واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم ولو قال: المسيح هو الله، وجحد أمر الإسلام، قال لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمنًا ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمنًا، حتى يكون مصدقًا بقلبه مقرًا بلسانه فإذا كان تصديق بالقلب وإقرار باللسان كان عندهم مؤمنًا وعند بعضهم لا يكون حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمنًا...).

ثم رد على من أخرج العمل من الإيمان فالغالب أنه يقصد بالتصديق هنا (قول القلب وعمله) والله أعلم.

يقول ابن تيمية: وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان وعمل بالجوارح، جعل القول والعمل اسمًا لما يظهر، فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب، ولا بد أن يدخل في قوله: اعتقاد القلب، أعمال القلب المقارنة لتصديقه، مثل حب الله، وخشية الله والتوكل عليه، ونحو ذلك، فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها.

ويقول الإمام ابن القيم موضحًا ذلك: ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله ﷺ- كما يعرفون أبناءهم مؤمنين صادقين.

ونختم هذا البحث بالتأكيد على أهمية الخضوع والاستسلام والانقياد (عمل القلب والجوارح) وأنه أساس دعوة الأنبياء والرسل، وأن قضيتهم مع أقوامهم

=

=

دائمًا ليست قضية المعرفة والعلم المجرد (أي قول القلب).

قال تعالى: فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ [الأنعام: ٣٣] وقال تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [النمل: ١٤].

فالكفار والمنافقون غالبًا ما يقرون بالربوبية والرسالة ولكن الكبر والبغض وحب الرياسة والشهوات ونحوها تصدهم عن الطاعة والإخلاص والمتابعة (أي توحيد الألوهية) ومن ثم فلا ينفعهم ذلك، ولا ينجيهم من عذاب الله ﷻ في الآخرة ولا من سيف المؤمنين في الدنيا، فيجب على الدعاة إلى الله أن ترتكز دعوتهم على ذلك، وأن لا يقتصروا بالاهتمام بتوحيد الربوبية دون الدعوة إلى توحيد الألوهية، وإنما يكون اهتمامهم بالربوبية طريقًا ومنطلقًا لترسيخ وتثبيت توحيد الألوهية وعبادة الله وحده لا شريك له.

قول اللسان (الإقرار باللسان) قول اللسان جزء من مسمى الإيمان، والمقصود بقول اللسان: الأعمال التي تؤدى باللسان: كالشهادتين والذكر وتلاوة القرآن والصدق والنصيحة والدعاء وغير ذلك مما لا يؤدى إلا باللسان وهذه الأعمال منها ما هو مستحب ومنها ما هو واجب ومنها ما هو شرط لصحة الإيمان ولنبدأ أولًا بالنصوص الدالة على أن قول اللسان يدخل في مسمى الإيمان ومنها:

١ - قوله ﷻ: قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقرة: ١٣٦]، ثم قال ﷻ: فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ [البقرة: ١٣٧].

قال الحليمي: فأمر المؤمنين أن يقولوا آمَنَّا ثم أخبر بقوله تعالى: فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ أن ذلك القول منهم إيمان، وسمي قولهم مثل ذلك إيمانا، إذ لا معنى

=

=

لقوله: فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ.

إلا فإن آمنوا بأن قالوا: مثل ما قلتم فكانوا مؤمنين كما آمنتم فصح أن القول إيمان).

٢- وقال ﷻ في آية أخرى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا [غافر: ٨٤- ٨٥] هذا الإيمان منهم لما رأوا البأس لم ينقلهم من الكفر ولم ينفعهم فثبت أنه لو كان قبلها لنفعهم بأن ينقلهم من الكفر إلى الإيمان وبذلك يكون هذا القول منهم لو كان قبل رؤية البأس لكان إيمانا.

٣- ومن الأحاديث الشريفة في ذلك قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) فقد أخبر ﷺ في هذا الحديث الشريف أن العصمة المزايلة للكفر تثبت بالقول فبذلك يثبت أن القول إيمان لأن الإيمان هو العاصم من السيف.

٤- ومن الأحاديث أيضًا قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).

فهذا الحديث أصل في دخول الأعمال والأقوال في مسمى الإيمان...

نكتفي بهذه الأدلة الصريحة على دخول قول اللسان في مسمى الإيمان ونأتي إلى مسألة مهمة وهي:

الشهادتان أصل قول اللسان وهما شرط في صحة الإيمان:

اتفق أهل السنة على أن النطق بالشهادتين شرط لصحة الإيمان قال الإمام النووي تعليقًا على حديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) (وفيه أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما واعتقاد جميع ما أتى به النبي ﷺ

=

=

وقال أيضًا: واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلا..

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر.

وقال أيضًا (فأما الشهادتان) إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها) وقال أيضًا (إن الذي عليه الجماعة أن من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذر لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة، وأن القول من القادر عليه شرط في صحة الإيمان) وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي عند كلامه على حديث شعب الإيمان (وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعًا كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعًا، كترك إماطة الأذى عن الطريق..

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي: (ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام)

ويقول الحافظ ابن حجر تعليقًا على حديث (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير..) الحديث (فيه دليل على اشتراط النطق بالتوحيد..)

والمقصود بالشهادتين كما لا يخفى ليس مجرد النطق بهما، بل التصديق بمعانيهما وإخلاص العبادة لله، والتصديق بنبوة محمد ﷺ والإقرار ظاهرًا وباطنًا بما جاء به فهذه الشهادة هي التي تنفع صاحبها عند الله ﷻ، ولذلك ثبت في الأحاديث الصحيحة قوله ﷺ: (من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه) وفي رواية (صدقًا) وفي رواية (غير شاك) (مستيقنًا).

=

=

قال الإمام المروزي: ثم قال ﷺ في حديث ابن عباس لوفد عبد القيس: (آمركم بالإيمان، ثم قال أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله) فبدأ بأصله والشاهد بلا إله إلا الله هو المصدق المقر بقلبه يشهد بها لله بقلبه، ولسانه يبتدئ بشهادة قلبه والإقرار به ثم يثني بالشهادة بلسانه والإقرار به ليس كما شهد المنافقون إذ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ [المنافقون: ١] والله يشهد إنهم لكاذبون، فلم يكذب قلوبهم أنه حق في عينه، ولكن كذبهم من قولهم، فقال وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ [المنافقون: ١] أي كما قالوا، ثم قال: وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [المنافقون: ١] فكذبهم من قولهم، لا أنهم قالوا بألسنتهم باطلًا ولا كذبًا، وكذلك حين أجاب النبي ﷺ جبريل بقوله: (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله) لم يرد شهادة باللسان كشهادة المنافقين ولكن أراد شهادة بدؤها من القلب بالتصديق بالله بأنه واحد).

قال القرطبي ردا على من زعم أن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان: بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعًا وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب تعليقًا على قوله ﷺ: (من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دونه حرم ماله ودمه، وحسابه على الله) قال: (وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع) والمقصود من النقل السابق التأكيد على أن التلفظ بالشهادتين وحده لا يفي لصحة الإيمان والنجاة في الآخرة ما لم يقترن ذلك

=

=

بخضوع وانقياد وتصديق وإخلاص على حسب ما جاء في النصوص الأخرى وأجمل عبارة مختصرة يمكن أن تقال بهذه المناسبة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية (وتواترت النصوص بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال) نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي- ١/ ٣٨

ومن أصول أهل السنة والجماعة التي اتفقوا عليها في مسمى الإيمان على اختلاف عباراتهم في التعبير- إجمالًا وتفصيلًا- وذلك خوفًا من الاشتباه، أو الالتباس؛ أن الإيمان مركب من:

(قول، وعمل). أو (قول، وعمل، ونية). أو (قول، وعمل، ونية، واتباع السنة).

أي: أن مسمى الإيمان يطلق عند أهل السنة والجماعة على ثلاث خصال مجتمعة، لا يجزئ أحدهما عن الآخر، وهذه الأمور الثلاثة جامعة لدين الإسلام: (اعتقاد القلب، إقرار اللسان، عمل الجوارح).

وبعبارة أخرى عندهم:

قول القلب، وقول اللسان.

عمل القلب، وعمل الجوارح.

ويمكن توضيح ذلك؛ بالتفصيل التالي:

أولًا- قول القلب: هو معرفته للحق، واعتقاده، وتصديقه، وإقراره، وإيقانه به؛ وهو ما عقد عليه القلب، وتمسك به، ولم يتردد فيه، قال الله تبارك وتعالى: وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ [الزمر: ٣٣- ٣٤].

وقال تعالى: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

=

=

الْمُوقِنِينَ [الأنعام: ٥٧].

وقال النبي ﷺ: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير).

قول اللسان: إقراره والتزامه.

أي: النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمها.

قال تعالى: قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [الأحقاف: ١٣].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة...).

ثانيًا: عمل القلب: نيته، وتسليمه، وإخلاصه، وإذعانه، وخضوعه، وانقياده، والتزامه، وإقباله إلى الله تعالى، وتوكله عليه- سبحانه- ورجاؤه، وخشيته، وتعظيمه، وحبه وإرادته.

قال الله تعالى: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى [الليل: ١٩- ٢١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه).

عمل الجوارح:

=

=

أي فعل المأمورات والواجبات، وترك المنهيات والمحرمات.

فعمل اللسان: ما لا يؤدى إلا به؛ كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار؛ من التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والدعاء، والاستغفار، والدعوة إلى الله تعالى، وتعليم الناس الخير، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدى باللسان؛ فهذا كله من الإيمان.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ [فاطر: ٢٩]. وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا [الأحزاب: ٤١].

وعمل الجوارح: مثل الصلاة، والقيام، والركوع، والسجود، والصيام، والصدقات، والمشي في مرضاة الله تعالى؛ كنقل الخطا إلى المساجد، والحج، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من أعمال شعب الإيمان.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ [الحج: ٧٧- ٧٨].

وقال تعالى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا [الفرقان: ٦٣- ٦٤].

فهذه الخصال الثلاث:

(اعتقاد القلب، إقرار اللسان، عمل الجوارح).

اشتمل عليها مسمى الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ فمن أتى بجميعها؛ فقد اكتمل إيمانه.

* لقد اختلف السلف في حقيقة الإيمان والإسلام، هل هما متغايران؟ أو إنهما مترادفان؟ وقد تنوعت أقوالهم في ذلك على النحو التالي:

=

=

١ ـ أن الإسلام والإيمان مترادفان لا فرق بينهما، وهذا قول البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، والمزني، وابن منده، والمروزي، وابن عبدالبر، والمصنف، والبغوي، وابن أبي يعلى.

٢ ـ أن الإسلام هو الكلمة، والإيمان هو العمل. وهذا قول الزهري.

٣ ـ أن كلًا منهما يعرف بما عرفه به النبي ﷺ في حديث جبريل. وقد ذكره ابن أبي العز ولم ينسبه إلى أحد.

٤ ـ أن الإسلام اسم لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسم لما بطن من الاعتقاد. وهو قول الخطابي.

٥- أنهما إذا اجتمعا أريد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وبالإيمان الاعتقادات والأعمال الباطنة، وأما إذا افترقا فإن كلًا منهما يدل على ما يدل عليه الآخر. وهذا قول الإسماعيلي، وابن الصلاح، وابن تيمية، وابن رجب، وابن أبي العز.

والقول الأخير هو القول الراجح، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٧/ ٣٥٨- ٣٥٩): وقال أبو سليمان الخطابي: مما أكثر ما يغلط الناس في "هذه المسألة " فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة والإيمان العمل واحتج بالآية وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد. فاحتج بقوله: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} قال الخطابي: وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول واحد من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم وصنف عليه كتابا يبلغ عدد أوراقه المائتين. قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق؛ وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنا في بعضها والمؤمن مسلم في جميع الأحوال فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها. " قلت

=

=

": الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابي أظن أحدهما- وهو السابق- محمد بن نصر فإنه الذي علمته بسط الكلام في أن الإسلام والإيمان شيء واحد من أهل السنة والحديث وما علمت لغيره قبله بسطا في هذا. والآخر الذي رد عليه أظنه- (بياض بالأصل)- لكن لم أقف على رده؛ والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما كأبي جعفر وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وهو قول أحمد بن حنبل وغيره؛ ولا علمت أحدا من المتقدمين خالف هؤلاء فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان؛ ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (١/ ٣٩٣): إذا ذكر الإيمان والإسلام في سياق واحد فالإيمان غير الإسلام، وإن أفرد أحدهما عن الآخر صار بمعنى واحد، فهما من باب إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، إذًا لا نقول: الإيمان غير الإسلام، ولا نقول: الإيمان هو الإسلام؛ لأننا إذا أطلقنا أخطأنا، فلابد من التفصيل.... وقول الله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات: ٣٥) (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الذاريات: ٣٦) هذه الآية استدل بها بعض العلماء ممن يقولوا: إن الإسلام هو الإيمان مطلقًا لأن الله قال: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات: ٣٥) (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين) والحقيقة أن هذه الآية دليل عليهم وليست دليلًا لهم؛ لأن الله قال: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين)، والبيت هو بيت لوط، ومن بينهم امرأته، وامرأته ليست مؤمنة ولكنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا) (التحريم: الآية ١٠)، أي أظهرتا الإسلام وهما كافرتان، فامرأة لوط كانت كافرة هلكت مع قومها، فالآية فيها أن البيت مسلم، لكن ليس فيها أن من

=

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥).

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} أَيْ الصَّادِقُونَ فِي إِيمَانهمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ بَعْد {الَّذِينَ آمَنُوا بِاَللهِ وَرَسُوله ثم لَمْ يَرْتَابُوا} لَمْ يَشُكُّوا فِي الْإِيمَان {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسهمْ فِي سَبِيل الله} فَجِهَادهمْ يَظْهَر بِصِدْقِ إِيمَانهمْ {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} فِي إِيمَانهمْ لَا مَنْ قَالُوا آمَنَّا وَلَمْ يُوجَد مِنْهُمْ غير الإسلام(١).

=

في البيت مسلمون.

وعلى ذلك فليس في الآية دليل على ما ذهبوا إليه، بل نقول: إن الآية تدل على أن الإيمان غير الإسلام؛ لأن الله اخرج من كان فيها من المؤمنين وبين أنه لم يسلم أحد في هذه القرية بأكملها- ورسولهم بينهم يدعوهم.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١٥]، أي:" إنما المؤمنون الذين صدَّقوا بالله وبرسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: إنما المؤمنون أيها القوم الذين صدّقوا الله ورسوله".

قال ابن كثير:" أي: إنما المؤمنون الكُمَّل {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ..} ".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: ١٥]، أي:" ثم لم يرتابوا في إيمانهم".

عن وسعيد بن جبير، وأبي مالك، ونافع مولى بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد، قالوا: "الريب: الشك".

عن أبي الدرداء، قال: "الريب: يعني: الشك".

قال الطبري: "يقول: ثم لم يشكوا في وحدانية الله، ولا في نبوّة نبيه ﷺ، وألزم

=

=

نفسه طاعة الله وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله بغير شكّ منه في وجوب ذلك عليه".

قال الثعلبي: أي: "لم يشكّوا في وحدانية الله، ولا بنبوّة أنبيائه ولا فيما آمنوا به، بل أيقنوا وأخلصوا".

قال ابن كثير:" أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض ".

قال الزمخشري:" المعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه. فإن قلت: ما معنى ثم هاهنا وهي التراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين:

أحدهما: أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} .

والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الايمان، تنبيها على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا".

قوله تعالى: {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ} [الحجرات: ١٥]، أي:" وبذلوا نفائس أموالهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه".

قال الطبري: "يقول: جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مُهجِهم في جهادهم، على ما أمرهم الله به من جهادهم، وذلك سبيله لتكون كلمة الله العليا،

=

=

وكلمة الذين كفروا السفلى".

قال ابن كثير:" أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه".

قال السعدي:" أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك، على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك، دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك، بوجه من الوجوه".

قال الزمخشري:" يجوز أن يكون المجاهد منويا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال: نحو ما صنع عثمان رضى الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: ١٥]، أي:" أولئك هم الصادقون في إيمانهم".

قال ابن زيد:" صدّقوا إيمانهم بأعمالهم".

قال الثعلبي: لا من أسلم خوف السيف ورجاء الكسب".

قال الطبري: "يقول: هؤلاء الذين يفعلون ذلك هم الصادقون في قولهم: إنا مؤمنون، لا من دخل في الملة خوف السيف ليحقن دمه وماله".

قال ابن كثير:" أي: في قولهم إذا قالوا: "إنهم مؤمنون"، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة".

قال الزمخشري: أي: "الذين صدقوا في قولهم آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب

=

=

بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات".

قال الزجاج:" أي: إذا قالوا إنا مؤمنون فهم الصادقون، فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم، وباطنه غير مُصَدق، فذلك الذي يقول أسلمتُ لأن الإِيمانَ لا بد من أن يكون صاحبه صديقًا، لأنَّ قولك: آمَنْتُ بكذا وكذا، معناه: صدقت به، فأخرج الله هؤلاء من الإِيمان فقال: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}، أي: لم تصدقوا إنما أسلمتم تعوذًا من القتل، فالمؤمن مُبْطِنٌ من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإِسلام وهو مظهر الطاعة مع ذلك مؤمن بها، والمسلم الذي أظهر الإِسلام تعوذًا غير مؤَمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين".

قال السعدي:" أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق، دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك، دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه، وقام بواجباته، ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقًا، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} إنما أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد: المؤمنون حقًّا الذين تم إيمانهم إلا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، آمنوا أقروا إقرارًا مستلزمًا للقبول والإذعان، وليس مجرد الإقرار كافيًا، بل لابد من قبول وإذعان، والدليل على أن مجرد الإقرار ليس بكاف أن النبي ﷺ أخبر عن عمه أبي طالب أنه في النار، وذلك مع أنه مؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام، مصدق به، يقول في لاميته المشهورة :

=

=

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

ويقول عن دين الرسول:

ولقد علمت أن دين محمد خير أديان البرية دينا

لكنه والعياذ بالله لم يقبل هذا الدين، ولم يذعن له، وكان آخر ما قال: إنه على الشرك على ملة عبد المطلب، فالذين آمنوا بالله ورسوله، هم الذين أقروا إقرارًا تامًّا بما يستحق الله ﷻ، وبما يستحق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقبلوا بذلك وأذعنوا، {ثم لم يرتابوا} كلمة، {ثم} هنا في موقع من أحسن المواقع؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب والمهلة، ثم استقروا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة، {لم يرتابوا} : أي لم يلحقهم شك في الإيمان بالله ورسوله.

وهنا ننبه إلى مسألة يكثر السؤال عنها في هذا الوقت- وإن كان أصلها موجودًا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام: وهي الوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان، فيلقي الشيطان في قلب الإنسان أحيانًا وساوس وشكوكًا في الإيمان أو في القرآن، أو في الرسول، يحب الإنسان أن يمزق لحمه، ويكسر عظمه ولا يتكلم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟ موقف الإنسان من هذا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي، ويعرض عن هذا، ولا يفكر فيه إطلاقًا، وقد أخبر النبي – عليه الصلاة والسلام- أن مثل هذه الوساوس صريح الإيمان، أي خالص الإيمان، وهذا إنما كان خالص الإيمان، لأن الشيطان لا يأتي للإنسان الشاك يشككه في دينه، وإنما يأتي لإنسان ثابت مستقر، ليشككه في دينه، فيفسده عليه، فالمؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه واطمأن قلبه بالإيمان هو الذي يأتيه الشيطان ليفسد عليه، أما من ليس بمؤمن فإن الشيطان لا يأتيه بمثل هذه الوساوس، لأنه منته منه، والمهم أن قوله: {ثم لم يرتابوا} يدل على أنهم ثبتوا على الإيمان، ولو طالت المدة.

=

=

فإذا قال قائل: ما الطريقة التي توجب للإنسان ثبوت الإيمان واستقراره؟
قلنا: أولًا: أن يتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات العظيمة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن وليدة بنفسها.

ثانيًا: أن يتفكر في شريعة الله وكمالها.

ثالثًا: أن يتفكر في سيرة النبي ﷺ وآياته وما إلى ذلك.

رابعًا: أن يكثر من ذكر الله ﷻ فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، ويكثر من الطاعات والأعمال الصالحة، لأن الطاعات والأعمال الصالحة تزيد في الإيمان، كماهو مذهب أهل السنة والجماعة رحمهم الله.

{وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله} هذا أيضًا معطوف على قوله: {آمنوا} أي هم مع إيمانهم بالله ﷻ ويقينهم وعدم ارتيابهم يريدون أن يصلحوا عباد الله بالجهاد في سبيل الله، يجاهدون أعداء الله ليرجعوا إلى دين الله ويستقيموا عليه، لا للانتقام منهم، ولا للانتصار لأنفسهم، ولكن ليدخلوا في دين الله ﷻ والجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، لا للانتقام، فالقتال للانتقام ليس إلا مدافعة عن النفس، أو أخذًا بالثأر فقط، لكن الجهاد حقيقة هو أن يقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا، أما الجهاد انتصارًا للنفس، أو دفاعًا عن النفس فقط، فليس في سبيل الله، لكن لاشك أن من قاتل دفاعًا عن نفسه فإنه إن قتل فهو شهيد، وإن قتله صاحبه فصاحبه في النار كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، فيمن أراد أن يأخذ مالك قال: «لا تعطه»، قال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلني، قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «أنت شهيد»، قال: إن قتلته؟ قال: «فهو في النار»،

فالجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو الذي حده النبي عليه الصلاة والسلام وفصّله فصلًا قاطعًا، {أولئك هم الصادقون} في إيمانهم

=

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦).

{قُلْ} لَهُمْ {أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ} مُضَعَّف عَلِمَ بِمَعْنَى شَعَرَ أَيْ أَتُشْعِرُونَهُ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فِي قولكم آمنا {والله يَعْلَم مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض والله بكل شيء عليم}(١).

=

وعدم ارتيابهم، أما الذين قالوا من الأعراب آمنا ولكنهم لم يؤمنوا حقيقة ولكن أسلموا فإنهم ليسوا صادقين، ولهذا قال الله تعالى: {قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا}.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ} [الحجرات: ١٦]، أي:" قل -أيها النبي- لهؤلاء الأعراب: أَتُخَبِّرون الله بدينكم وبما في ضمائركم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {قُلْ} يا محمد لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم: {أَتُعَلِّمُونَ اللهَ} أيها القوم بدينكم، يعني بطاعتكم ربكم".

قال ابن عطية:" أي: بقولكم: {آمَنَّا}، وهو يعلم منكم خلاف ذلك".

قال ابن كثير:" أي: أتخبرونه بما في ضمائركم".

قال ابن الجوزي: "المعنى: أَتُخبرون اللهَ بالدِّين الذي أنتم عليه؟!، أي: هو عالِمٌ بذلك لا يحتاج إلى أخباركم".

قال الزمخشري:" يقال: ما علمت بقدومك، أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: {أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ}، وفيه تجهيل لهم".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الحجرات: ١٦]، أي:" والله يعلم ما في السموات وما في الأرض، من الكليات والجزئيات".

=

=

قال الطبري:" يقول: والله الذي تعلِّمونه أنكم مؤمنون، علام جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين".

قال ابن كثير:" أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر".

قوله تعالى: {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحجرات: ١٦]، أي:" والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور".

قال الطبري:" يقول: والله بكلّ ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم. وإنما هذا تقدّم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي، عن أن يكذّبوا ويقولوا غير الذي هم عليه في دينهم. يقول: الله محيط بكلّ شيء عالم به، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم، فينالكم عقوبته، فإنه لا يخفى عليه شيء".

قال السعدي:" وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها، ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى، يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال القشيري تدل الآية على أنّ الوقوف في المسائل الدينية يعتبر واجبا فالأسامى منه تؤخذ، والأحكام منه تطلب، وأوامره متّبعة".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأَرض} هذا إنكار لقول الذين قالوا آمنا، يعني أتعلمون الله تعالى بأنكم آمنتم وهو عليم بكل شيء، وتعلمون الله بمعنى: تخبرون الله، وليس المراد أن ترفعوا جهله عن حالكم، فهو يعلم حالهم ﷻ ويعلم أنهم مؤمنون أو غير مؤمنين، لكن تعلمون هنا بمعنى تخبرون، وليس معناه أن ترفعوا الجهل عن الله ﷻ لأن الله

=

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧).

{يَمُنُّونَ عَلَيْك أَنْ أَسْلَمُوا} مِنْ غَيْر قِتَال بِخِلَافِ غَيْرهمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْد قِتَاله مِنْهُمْ {قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلَامكُمْ} مَنْصُوب بِنَزْعِ الْخَافِض الْبَاء وَيُقَدَّر قَبْل أَنْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ {بَلِ الله يَمُنّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي قَوْلكُمْ آمَنَّا.

إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨).

{إنَّ الله يَعْلَم غَيْب السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ مَا غَابَ فِيهِمَا {وَاَللَّه بَصِير بِمَا

=

ليس جاهلًا بحالهم، بل هو عالم، {أتعلمون الله بدينكم} حينما قلتم آمنا، {والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض} ومنها أي ما في السموات وما في الأرض حالكم إن كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النطق بالنية في العبادات منكر؛ لأن الإنسان الذي يقول: أريد أن أصلي، يعلّم الله سبحانه وتعالى بما يريد من العمل، والله يعلم، والذي يقول: أريد أن أصوم كذلك، والذي يقول: نويت أن أتصدق كذلك، والذي يقول: نويت أن أحج كذلك أيضًا، ولهذا لا يسن النطق بالنية في العبادات كلها لا في الحج ولا في الصدقة، ولا في الصوم، ولا في الوضوء، ولا الصلاة، ولا في غير ذلك، لأن النية محلها القلب، والله عالم بذلك، ولا حاجة إلى أن تخبر الله بها، {والله بكل شيء عليم}، فما في السموات عام، وما في الأرض عام، فكل شيء يعلمه الله، وقد تقدم لنا الكلام مرارًا على هذه الصفة من صفات الله، والتي هي من أوسع صفاته- جل وعلا- {والله بكل شيء عليم} خفي أو بين، عام أو خاص، فهو عالم به- جل وعلا -.

يَعْمَلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء مِنْهُ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قدم وقد بني أسد على رسول الله ﷺ فتكلموا؛ فقالوا: قاتلتك مضر ولسنا بأقلهم عددًا ولا أكلّهم شوكة، وصلنا رحمك، فقال لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "تكلموا هكذا"، قالوا: لا، قال: "إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم"، قال عطاء في حديثه؛ فأنزل الله -جلّ وعزّ-: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)}.

أخرجه أبو يعلى في "المسند" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ٣٤٥ رقم ٣٧٣) -، والنسائي في "التفسير" (٢/ ٣٢٤ رقم ٥٣٩): ثنا سعيد بن يحيى الأموي، والبزار في "مسنده"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٣٥) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ٣٤٦ رقم ٣٧٤) -: ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري كلاهما عن يحيى بن سعيد الأموي عن محمد بن قيس عن أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وأبو عون هو عطاء بن السائب؛ صدوق؛ لكنه اختلط، ولم يذكروا محمدًا ضمن الذين رووا عنه قبل الاختلاط. وقد قال أبو زرعة: "حديث أبي عون عن سعيد مرسل".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٨٥) وزاد نسبته لابن مردويه.

وله شاهد من حديث عبد الله بن أبي أوفى بنحوه.

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٨/ ٧٨ رقم ٨٠١٦)، و"الكبير"؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٢) من طريق حفص بن غياث عن حجاج بن أرطاة عن إبراهيم =

=

بن عبد الرحمن السكسكي عن عبد الله به. وهذا سند ضعيف؛ الحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس.

قال الهيثمي: "وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة!! ولكنه مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٩٩)، و"الدر المنثور" (٧/ ٥٨٥): "بسند حسن! "، وزاد في "الدر الممنثور" نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٩٢): ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد؛ رجاله رجال الصحيحين، وهو أصح من موصول حديث ابن عباس فالعمدة على هذا.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٨٥) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه. لكن الحديث بمجموع مرسل سعيد بن جبير وموصول حديث ابن أبي أوفى قد يرتقي إلى درجة الحسن بإذن الله.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع وفيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الأزور ووابصة بن معبد وقتادة بن القائف وسلمة بن جيش ونقادة بن عبد الله بن خلف وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه؛ فسلموا، وقال متكلمهم: يا رسول الله! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله! ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن وراءنا سلم؛ فأنزل الله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (١/ ٢/ ٣٩): نا محمد بن عمر عن هشام بن سعيد عن محمد به. وهذا مرسل واه بمرة، ضعيف جدًا؛ فيه الواقدي

=

=

متروك.

وعن الحسن؛ قال: لما فتحت مكة؛ جاء ناس، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان؛ فأنزل الله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٨٥) ونسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

قال الزجاج:" قيل إن هذه نزلت في المنافقين. فاعلموا أنكم إنْ كنتم صادقين فإنكم قد أسلمتم فلله المنُّ عَلَيْكمْ لِإخراجه إياكم من الضلالة إلى الهدى. وقد قيل: إنها نزلت في غير المنافقين، في قوم من المسلمين قالوا آمنا وهاجرنا وفعلنا وصنعنا فمنوا على رسول الله بذلك. والأشبه- والله أعلم- أن يكون في قوم من المنافقين".

* قوله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} [الحجرات: ١٧]، أي:" يَمُنُّ هؤلاء الأعراب عليك -أيها النبي- بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم لك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يمنّ عليك هؤلاء الأعراب يا محمد أن أسلموا".

قال القاسمي:" أي: انقادوا وكثروا سواد أتباعك".

قال ابن كثير:" يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول".

قال الفراء:" فهذه نزلت فى أعاريب بني أسد قدموا على النبي صلى الله عليه المدينة بعيالاتهم طمعا في الصدقة، فجعلوا يروحون ويغدون، ويقولون: أعطنا فإنا أتيناك بالعيال والأثقال، وجاءتك العرب على ظهور رواحلها فأنزل الله جل

=

=

وعز: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} ".

عن أبي بشر، قال: "قلت لسعيد بن جُبَير: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، أهم بنو أسد؟ قال: يزعمون ذاك".

قال الحسن البصري: "هؤلاء مؤمنون وليسوا بمنافقين، ولكنهم كانوا يقولون لرسول الله: أسْلَمنا قبل أن يُسلم بنو فلان، وقاتَلْنا معك قبل أن يُقاتل بنو فلان".

عن حبيب بن أبي عمرة، قال: "كان بشر بن غالب ولبيد بن عطارد، أو بشر بن عطارد، ولبيد بن غالب عند الحجاج جالسين، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ}، فذكرت ذلك لسعيد بن جُبَير، فقال: إنه لو علم بآخر الآية أجابه: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، قالوا أسلمنا ولم تقاتلك بنو أسد".

قال الزمخشري:" يقال: منّ عليه بيد أسداها إليه، كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة: النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه، واشتقاقها من المنّ الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال: منّ عليه صنعه، إذا اعتده عليه منة وإنعاما".

قوله تعالى: {قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ} [الحجرات: ١٧]، أي:" قل لهم: لا تَمُنُّوا عليَّ دخولكم في الإسلام؛ فإنَّ نفع ذلك إنما يعود عليكم".

قال القاسمي:" أي: بإسلامكم، إذ لا ثمرة منه إلي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه".

قال ابن كثير:" يقول الله ردًا عليهم: {قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ}، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه".

عن قتادة: "{لا تَمُنُّوا}، أنا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله لنبيه ﷺ: {قُلْ} لهم {لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ

=

=

أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ} ".

وفي رواية عن قتادة، قال:" منّوا على النبي -عليه الصلاة والسلام- حين جاءوه، فقالوا: إنّا قد أسْلَمنا بغير قتال، لم نُقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان. فقال الله تعالى لنبيّه- ﷺ -: {قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَداكُمْ لِلْإيمانِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ} ".

قوله تعالى: {بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} [الحجرات: ١٧]، أي:" بل للهِ المنةُ العظمة عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه".

قال الطبري:" يقول: بل الله يمن عليكم أيها القوم أن وفقكم للإيمان به وبرسوله".

قال السمعاني:" أي: هو الذي أنعم عليكم بإخراجكم من الكفر إلى الإيمان".

قال ابن عطية:" {يَمُنُّ عَلَيْكُمْ} يحتمل أن يكون بمعنى: ينعم كما تقول: من الله عليك، ويحتمل أن يكون بمعنى: يذكر إحسانه فيجيء معادلا لـ {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ}، وقال الناس قديما: إذا كفرت النعمة حسنت المنة. وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كفر النعمة".

قال القشيري:" المنّة تكدّر الصنيع إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمنّة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، أي:" إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان".

قال الطبري: يقول" إن كنتم صادقين في قولكم آمنا، فإن الله هو الذي منّ عليكم بأن هداكم له، فلا تمنوا عليّ بإسلامكم".

قال السمعاني:" معناه: واعلموا أن المنة لله عليكم إن كنتم صادقين أنكم آمنتم بالله".

=

=

قال ابن كثير:" أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ» ".

قال ابن أبي زمنين:" أي: إن كنتم صادقين عرفتم بالصدق، إن المنة لله ولرسوله عليكم".

قال سهل:" {إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ}، أي: عالمين بأن الله هو الذي من عليكم بالهداية في البداية. قال سهل: استعملت الورع أربعين سنة، ثم وقع مني التفات فأدركني قوله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} ".

قال الزمخشري:" وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا، فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق

تسميته أن يقال له إسلام، فقل لهم: لا تعتدوّا عليّ إسلامكم، أي حدثكم المسمى إسلاما عندي لا إيمانا. ثم قال: بل الله يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه، وفي إضافة «الإسلام» إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف: ما لا يخفى على المتأمل، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان، فلله المنة عليكم".

وفى قراءة عبد الله: «إذ هداكم».

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحجرات: ١٨]، أي:" إن الله يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن الداخل فيه رهبة من رسولنا محمد ﷺ وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحدّثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قال السعدي:" أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩] ".

قال ابن أبي زمنين:" {غيب السماوات والأرض} سر السماوات والأرض".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات: ١٨]، أي:" والله بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال الطبري:" يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهرا تعملون أم سرّا، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيرا فخير، وان شرّا فشرّ وكُفُؤه".

قال النحاس:" أي عالم به، وإذا علمه جازى عليه".

قال السعدي:" يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة".

قال ابن كثير:" كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: {إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} ".

=

=

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} في هذه الآية تكررت {أن} ثلاث مرات: أي يمنون عليك يا محمد بإسلامهم، وحذف الجملة مع (أن)، مطرد كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفية. {يمنون عليك أن أسلموا} أي: بأن أسلموا أي بإسلامهم، ويعني بذلك قومًا أسلموا بدون قتال فجعلوا يمنون على الرسول عليه الصلاة والسلام يذكرون له الفضائل ويقولون: نحن آمنا بك من دون قتال، مع أن المصلحة لهم، ولهذا قال الله تعالى: {بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}، وقوله: {بل الله يمن عليكم} هذا إضراب لإبطال ما سبق، أي ليس لكم منة على الرسول عليه الصلاة والسلام بإسلامكم، بل المنة لله عَزَّوَجَلَّ عليكم أن هداكم للإيمان، ولا شك أن هذا أعظم منة أن يمن الله على العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيرًا من الأمة عنه، وقد أخبر النبي ﷺ أن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحدًا من الجنة، فمن وفق بأن واحدًا في الجنة فإن هذه منة عظيمة، ولهذا كان الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حين جمعهم النبي ﷺ يوم قسم غنائم حنين كلما ذكر إليهم شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «ألم أجدكم في ضلال فهداكم الله بي»، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «ألم أجدكم متفرقين فجمعكم الله بي؟» قالوا: الله ورسوله أمن، كلما ذكر شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، فالمنة لله على كل من هداه الله بنعمه، فالمنة لله عَزَّوَجَلَّ عليه وقوله: {إن كنتم صادقين} أي إن كنتم من ذوي الصدق القائلين بالصدق، فإن المنة لله عليكم {بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}.

{إن الله يعلم غيب السماوات والأَرض والله بصير بما تعملون}. أخبر الله في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وما ظهر فهو من باب أولى، وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن من جملة ما يعلمه عمل بني آدم، ولهذا قال: {والله بصير بما

=

سورة ق(١)

=

تعملون}، وهذه الآية تفيد مسألة عظيمة في سلوك الإنسان وعمله، وهي أن يعلم بأن الله تعالى بصير بعمله محيط به، فيخشى الله ويتقيه، وفيها الترغيب في الأعمال الصالحة فإنها لن تضيع، وفيها الترهيب من العمل السيىء؛ لأن العبد سيجازى عليه؛ لأن الكل معلوم عند الله ﷻ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالهداية والتوفيق.

(١) السورة مكية، قاله ابن عباس، وابن الزبير، وجابر، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعطاء. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: "نزلت المفصل بمكة فمكثنا حججا نقرأوه لا ينزل غيره".

وأخرج ابن أبي داود وابن عساكر، عن عثمان بن عفان:" أنها لما ضربت يده، قال: والله إنها لأول يد خطت المفصل".

الثاني: أنّ فيها آية مدنيّة، وهي قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]. حكي هذا القول عن ابن عباس، وقتادة. وبه قال الزمخشري.

قال ابن عاشور: قيل:" أنها نزلت في اليهود، يعني: في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها. وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسوله ﷺ على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص

=

=

والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوءة والأنبياء، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها إلى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧] فإنها نزلت بمكة. وورد أن النبيء ﷺ أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والبحار على أصبع والجبال على أصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض» فتلا النبيء ﷺ الآية، والمقصود من تلاوتها هو قوله: وما قدروا الله حق قدره. والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله".

وقال ابن عطية:" هي مكية بإجماع من المتأولين".

وقال السمعاني:" هي مكية".

وقال البغوي:" سورة «ق» مكية".

وقال القرطبي:" سورة ق مكية كلها".

* وآياتها خمس وأَربعون. وكلماتها ثلاثمائة وخمس وسبعون. وحروفها أَلف وأَربعمائة وأَربع وسبعون. مجموع فواصل آياتها (صر جد ظب)

* أسماء السورة:

سميت في عصر الصحابة سورة «ق»، فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك، قال: صليت وصلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد}. حتى قرأ: وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [ق: ١٠]. قال: فجعلت أرددها ولا أدري ما قال". عن أبي واقد الليثي، قال: "سألني عمر بن الخطاب: عما قرأ به رسول الله ﷺ في يوم العيد؟ فقلت: «ب {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}، و {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} ".

وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل: «طه» و «ص» و «ق» و «يس»، لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها

=

=

بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وسميت : «سورة الباسقات» ففي بعض المصادر أنها تسمى سورة الباسقات، هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي: سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيد} [ق: ١٠].

مقصود السّورة: إِثبات النبوّة للرّسول- ﷺ- وبيان حُجّة التَّوحيد، والإِخبار عن إِهلاك القرون الماضية، وعلم الحقّ تعالى بضمائر الخَلْق وسرائرهم، وذكر الملائكة الموكَّلين على الخَلْق، المشرفين على أَقوالهم، وذكر بَعْث القِيامة، وذُلّ العاصين يومئذ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضًا فى ذلك اليوم، وتَغَيُّظ الجحيم على أَهله، وتشرّف الجنَّة بأَهلها، والخبر عن تخليق السّماءِ والأَرض، وذكر نداءِ إِسرافيل بنفخة الصُّور، ووعظ الرّسول ﷺ الخَلْق بالقرآن المجيد فى قوله: {فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ}.

* المتشابهات: قوله: {فَقَالَ الكَافِرُوْنَ} بالفاءِ سبق.

قوله: {وَقَالَ قَرِينُهُ} وبعده: {قَالَ قَرِينُهُ} لأَن الأَوّل (خطاب الإِنسان) من قرينه ومتّصل بكلامه، والثانى استئناف خطاب الله سبحانه من غير اتّصاله بالمخاطب الأَوّل وهو قوله: {رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ}، وكذلك الجواب بغير واو، وهو قوله: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} وكذلك {مَا يُبَدَّلُ القَوْلَ لَدَيَّ} فجاءَ الكُلّ على نَسَق واحد.

قوله: {قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب} وفى طه ({وَقَبْلَ غُرُوْبِهَا} لأَنَّ فى هذه السورة راعى الفواصل، وفى طه) راعى القياس، لأَنَّ الغروب للشَّمس، كما أَنَّ الطُّلوع لها.

* قال ابن كثير: وهذه السورة هي أول الحزب «المفصل» على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من «عَمّ» فلا أصل له، ولم يقله أحد من

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١).

{ق} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ {وَالْقُرْآن الْمَجِيد} الْكَرِيم مَا آمَنَ كُفَّار مَكَّة بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢).

{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِر مِنْهُمْ} رَسُول مِنْ أَنْفُسهمْ يُخَوِّفهُمْ بِالنَّارِ بَعْد الْبَعْث {فَقَالَ الكافرون هذا} الإنذار {شيء عجيب}.

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣).

{أئذا} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ {مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} نَرْجع {ذَلِكَ رَجْع بَعِيد} فِي غَايَة الْبُعْد.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤).

{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُص الْأَرْض} تَأْكُل {مِنْهُمْ وَعِنْدنَا كِتَاب حَفِيظ} هُوَ اللَّوْح

=

العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أوس بن حذيفة، قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده». إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة «ق». والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب".

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

الْمَحْفُوظ فِيهِ جَمِيع الْأَشْيَاء الْمُقَدَّرَة.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥).

{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} بِالْقُرْآنِ {لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ} فِي شَأْن النَّبِيّ ﷺ وَالْقُرْآن {فِي أَمْر مَرِيج} مُضْطَرِب قَالُوا مَرَّة سَاحِر وَسِحْر وَمَرَّة شَاعِر وَشِعْر وَمَرَّة كَاهِن وكهانة[1].

---

(١) {ق} سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم ذي المجد والشرف.

وفي قوله تعالى: {ق} [ق: ١]، أقوال:

أحدها: أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم بها، قاله ابن عباس -في رواية-.

عن ابن عباس، قوله:" {ق} و {ن}، وأشباه هذا، فإنه قسم أقسمه الله، وهو اسم من أسماء الله".

الثاني: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة.

الثالث: أن معناه: قضي والله، كما قيل في «حم»: حم والله، حكاه الفراء.

الرابع: أنه اسم الجبل المحيط بالدنيا، قاله ابن عباس -في رواية أخرى-، والضحاك، ومقاتل،ابن بريدة، وعكرمة، ومجاهد.، وحكاه الواحدي عن اكثر المفسرين.

قال ابن عباس: "خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له «ق» السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات قال: وذلك قوله والبحر يمده من بعده سبعة أبحر".

=

=

قال مقاتل:" قاف جبل من زمردة خضراء محيط بالعالم، فخضرة السماء منه ليس من الخلق شيء على خلقه وتنبت الجبال منه، وهو وراء الجبال وعروق الجبال كلها من قاف، فإذا أراد الله- تعالى- زلزلة أرض أوحى إلى الملك الذي عنده أن يحرك عرقا من الجبل، فتتحرك الأرض التي يريد وهو أول جبل خلق".

الخامس: أن «ق»: فاتحة السورة. رواه خصيف عن مجاهد، وهو مذهب أهل اللغة.

قال أبو عبيدة:" «ق»: مجازها مجاز أوائل السور".

السادس: معنى «ق»، قُفِيَ الأَمْرُ واللهِّ، قاله الفراء، فاكتفى بالقاف عن الجملة كما قال :

قُلْتُ لَهَا قِفِي لَنَا، فَقَالَتْ: قَافْ

أي: إني واقفة.

وقد رد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ هذا القول، حيث قال:" وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟.

ويحتمل ما أريد بوقفه عليه وجهين :

أحدهما: قف على إبلاغ الرسالة لئلا تضجر بالتكذيب.

الثاني: قف على العمل بما يوحى إليك لئلا تعجل على ما لم تؤمر به.

قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} [ق: ١]، أي:" أقسم بالقرآن الكريم ذي المجد والشرف".

قال الطبري:" يقول: والقرآن الكريم".

قال ابن كثير:" أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

عن ابن عباس، " {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، قال: الكريم". وروي عن سعيد بن جبير

=

=

مثله.

وعن ابن عباس، قال: "{وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، ليس شيء أحسن منه ولا أفضل منه".

وفي جواب القسم محذوف، أقوال:

أحدها: هو أن محمدًا رسول الله ﷺ. بدليل قوله تعالى: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} [ق: ٢]. قاله نحاة الكوفة.

الثاني: أنه مُضمر، تقديره: لَيُبْعَثُنَّ بَعْدَ الموت، بدليل قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [الواقعة: ٤٧]، ويدُلُّ عليه قولُ الكفار: {هَذَا شَيْءٌ عَجِيب} [ق: ٢]. وهذا قول الفراء، والزجاج.

قال ابن عطية:" وهذا قول حسن".

الثالث: أنه قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْل} [ق: ١٨]. حكي عن الأخفش.

الرابع: أنه في سورة أُخرى، حكاه أبو سليمان الدمشقي، ولم يبيِّن في أي سورة.

الخامس: أنه قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}. فيكون المعنى: قاف والقرآنِ المجيدِ لقد عَلِمْنا، فحُذفت اللاّمُ لأنّ ما قبْلَها عِوَضٌ منها. قاله الأخفش. وضعّفه النحاس، وابن كثير.

قال النحاس:" وأصح الأجوبة أن يكون الجواب محذوفا للدلالة، لأن {إذا متنا} جواب فلا بد من أن يكون «إذا» متعلقة بفعل، أي: أنبعث إذا، فأما أن يكون الجواب {قد علمنا} فخطأ، لأن «قد» ليست من جواب الأقسام، وقاف إذا كان اسما للجبل فالوجه فيها الإعراب".

قال ابن كثير:" بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظًا، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ

=

=

وَشِقَاقٍ} [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} [يونس: ٢] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس".

قوله تعالى: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} [ق: ٢]، أي:" بل عجب المكذبون للرسول ﷺ أن جاءهم منذر منهم ينذرهم عقاب الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ما كذّبك يا محمد مشركو قومك أن لا يكونوا عالمين بأنك صادق محقّ، ولكنهم كذّبوك تعجبا من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله منهم، يعني بشرا منهم من بني آدم، ولم يأتهم مَلك برسالة من عند الله".

قال مقاتل:" يعنى محمدا-ﷺ".

قال أبو السعود:" أي: لأن جاءهم منذر من جنسهم لا من حنس الملك أو من جلدتهم".

قال البغوي:" يعرفون نسبه وصدقه وأمانته".

قال الزمخشري:" إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحا لقومه مترفرفا عليهم، خائفا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه، وإذا علم أنّ مخوفا أظلهم، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه، وإقرارهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء".

=

=

قال الشوكاني:" {بل}، للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، وأن في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. والمعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد ﷺ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا".

قال ابن عطية:" قال جمهور المتاولين: أن الضمير في: {عَجِبُوا} هو لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم لأن كل مفطور عجب من بعثة بشر رسول الله، لكن المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا في عمايتهم وصموا وحاجوا بذلك العجب، ولذلك قال تعالى: فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ".

قوله تعالى: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق: ٢]، أي:" فقال الكافرون بالله ورسوله: هذا شيء مستغرب يتعجب منه".

قال الطبري: يقول:" فقال المكذّبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}: أي: مجيء رحل منا من بني آدم برسالة الله إلينا، هَلا {أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} ".

قال مقاتل:" يعني: هكذا الأمر عجيب أن يكون محمد رسولا، وذلك أن كفار مكة كذبوا بمحمد- ﷺ- فقالوا: ليس من الله".

قال الواحدي:" عجبوا من كون محمد ﷺ رسولا إليهم، فأنكروا رسالته، وأنكروا البعث بعد الموت".

قال السمعاني:" وتعجبهم كان من البعث بعد الموت، وهو تعجب من غير عجب، والتعجب من غير عجب مستنكر مستقبح".

قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} [ق: ٣]، أي:" أإذا متنا وصِرْنا ترابًا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى ما كنا عليه؟ ".

قال السمعاني:" معناه: أنبعث إذا متنا وكنا ترابا، قالوه على طريق الإنكار".

=

=

قال ابن كثير:" أي: يقولون: أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ".

قال الضحاك:" قالوا: كيف يحيينا الله، وقد صرنا عظاما ورفاتا، وضللنا في الأرض".

قوله تعالى: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٣]، أي:" ذلك رجع بعيد الوقوع".

قال ابن قتيبة:" يريدون: البعثَ بعد الموت؛ أي: لا يكون".

قال السمعاني:" أي: رجوع يبعد كونه".

قال الواحدي أي: يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت".

قال البغوي:" أي: رد إلى الحياة {بعيد} وغير كائن، أي: يبعد أن نبعث بعد الموت".

قال ابن كثير:" أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه".

قال الزمخشري: أي: "مستبعد مستنكر، كقولك: هذا قول بعيد. وقد أبعد فلان في قوله. ومعناه: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع. وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعادا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث، والوقف قبله على هذا التفسير حسن".

قال ان جريج:" أنكروا البعث، فقالوا: مَن يستطيع أن يُرْجعنا ويُحيينا؟! ".

قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} [ق: ٤]، أي:" قد علمنا ما تنقص الأرض وتُفني من أجسامهم".

قال الطبري: يقول:" قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد مماتهم، وعندنا كتاب بما تأكل الأرض وتفني من أجسامهم، ولهم كتاب مكتوب مع علمنا بذلك، حافظ لذلك كله، وسماه الله تعالى حفيظا، لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا

=

=

يتغير ولا يتبدل".

قال مقاتل:" يقول: ما أكلت من الموتى من لحوم، وعروق، وعظام بني آدم- ما خلا العصعص-: وتأكل لحوم الأنبياء والعروق، ما خلا عظامهم، مع علمي فيهم".

قال ابن كثير:" أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ".

عن قتادة، قوله: "{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ}:" يعني الموت، يقول: من يموت منهم، أو قال: ما تأكل الأرض منهم إذا ماتوا".

وقال قتادة:" يقول: ما تأكل الأرض منهم".

عن مجاهد، قوله: "{مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ}، قال: من عظامهم".

قال ابن عباس:" يقول: ما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم".

قال الضحاك:" يقول: ما أكلت الأرض منهم ونحن عالمون به، وهم عندي مع علمي فيهم في كتاب حفيظ".

قال الزمخشري:" {قَدْ عَلِمْنا}، ردّ لاستبعادهم الرجع، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا".

قوله تعالى: {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [ق: ٤]، أي:" وعندنا كتاب محفوظ من التغيير والتبديل، بكل ما يجري عليهم في حياتهم وبعد مماتهم".

قال مقاتل:" يعني: محفوظ من الشياطين يعني اللوح المحفوظ".

قال السمعاني:" أي: حافظ، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: محفوظ ما فيه".

قال الزمخشري: أي: "محفوظ من الشياطين ومن التغير، وهو اللوح المحفوظ.

=

=

أو حافظ لما أودعه وكتب فيه".

قال ابن كثير:" أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة".

عن الضحاك: {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، قال: "لِعِدّتهم، وأسمائهم".

عن الحسن، قال: "{قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنهُمْ} ما تأكل الأرض مِن أبدانهم، {وعندنا} بذلك {كتاب حفيظ} ".

قال ابن عطية:" «الحفيظ»: الجامع الذي لم يفته شيء".

قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} [ق: ٥]، أي:" بل كذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن حين جاءهم".

قال الطبري:" يقول:" ما أصاب هؤلاء المشركون القائلون {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} في قيلهم هذا {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ}، وهو القرآن {لَمَّا جَاءَهُمْ} من الله".

قال قتادة:" كذّبوا بالقرآن".

قال الزمخشري:" {بَلْ كَذَّبُوا}، إضراب أتبع الإضراب الأوّل، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر".

قوله تعالى: {فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [ق: ٥]، أي:" فهم في أمر مضطرب مختلط، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار".

وفي معنى: «المريج» وجوه:

أحدها: المريج: هو الشيء المنكر. قاله ابن عباس، وأنشد قول الشاعر :

فَجالَتْ والْتَمَسَتْ بِهِ حَشاها... فَخَرَّ كأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ.

الثاني: المختلف، قاله ابن عباس -في رواية أخرى-.

=

=

الثالث: في أمر ضلالة. قاله ابن عباس -في رواية-، وبه قال الفراء.

الرابع: الملتبس، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة -في إحدى الروايات-، والحسن، وعطاء.

قال عطاء الخراساني:" أمرٌ مُلتبسٌ".

قال قتادة:" ملتبس عليهم أمره".

قال معمر: "تلا قتادة: {فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [ق: ٥]، قال: «من ترك الحق مرج عليه رأيه والتبس عليه دينه» ".

قال الحسن البصري: "{فِي أمْرٍ مَرِيجٍ} ما ترك قومٌ الحقَّ إلا مَرَج أمرهم".

الخامس: أن المريج: المختلط. قاله الضحاك، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال ابو عبيدة:" يقال: قد مريج أمر الناس اختلط وأهمل قال أبو ذؤيب :

فخرّ كأنه حوط مريج

أي: سهم. قال رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا بقيت فى حثالة من الناس مرجت عهودهم وأماناتهم»، أي: اختلطت".

قال ابن قتيبة:" وأصل "المَرَج": أن يقلَقَ الشيءُ فلا يستقرّ. يقال: مَرج الخاتم في يدي مَرَجًا؛ إذا قَلِق من الهُزَال".

السادس: يعني: مختلف ملتبس. قاله مقاتل، والطبري، والزجاج.

قال الطبري:" يقول: فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله، يقال: قد مرج أمر الناس إذا اختلط وأهمل".

قال الزجاج:" مَريج: مختلف ملتبس عليهم مرة يقولون للنبي -ﷺ- شاعر ومرة ساحِر ومرة مُعَلَّم. فهذا دليل على أن أمرهم مريج ملتبس عليهم".

قال السمعاني:" ووجه الالتباس أنهم كانوا يقولون للنبي مرة هو ساحر، ومرة هو شاعر، ومرة هو كاهن، وكانوا أيضا يقرون بالبعث مرة، وينكرون البعث مرة، فهذا

=

=

هو معنى الاختلاط والالتباس".

قال الزمخشري:" فيقولون تارة: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد".

السابع: أن «المريج»: الفاسد، قاله أبو هريرة. ومنه قول أبي دؤاد:

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ له... مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ

قال الطبري:" هذه العبارات وإن اختلفت ألفاظها فهي في المعنى متقاربات، لأن الشيء مختلف ملتبس، معناه مشكل. وإذا كان كذلك كان منكرا، لأن المعروف واضح بين، وإذا كان غير معروف كان لا شكّ ضلالة، لأن الهدى بين لا لبس فيه".

قال ابن كثير:" أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: ٨، ٩] ".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {والقرءان المجيد} الواو هنا حرف قسم. أقسم الله تعالى بالقرآن، لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء، وإقسامه هنا بالقرآن إقسام بكلامه، وكلام الله تعالى من صفاته، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أنه يجوز الإقسام بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، وأما آياته فلا يُقسم بها إلا إذا قصد الإنسان بالآيات كلماته، كالقرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، وما أشبه ذلك، وأما الآيات الكونية كالشمس والقمر فلا يجوز لنا أن نقسم بها، أما الله ﷻ فله أن يقسم بما شاء، والقرآن مأخوذ من قرأ إذا تلي، أو من قرأ إذا جمع، ومنه قرية؛ لأن الناس يجتمعون فيها، والقرآن يتضمن المعنيين، فهو متلو وهو مجموع أيضًا، {المجيد} أي ذي المجد، وهو العظمة والسلطان المطلق، فالقرآن له عظمة عظيمة، مهيمن مسيطر على جميع الكتب السابقة، حاكم عليها، ليس محكومًا

=

=

عليه، وهو أيضًا مجيد، به يمجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا كقوله تعالى: {بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ}.

{بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب} هنا لا يتراءى للإنسان التالي جواب القسم، فاختلف العلماء رحمهم الله في مثل ذلك: هل له جواب، أو جوابه يعرف من السياق، أو يعرف من المقسم به؟ وأظهر ما يكون أن نقول: إن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب القسم، لأنه معروف من عظمة المقسم عليه، فكأنه أقسم بالقرآن على صحة القرآن، فالقرآن المجيد لكونه مجيدًا كان دليلًا على الحق، وأنه منزل من عند الله ﷻ وحينئذ لا يحتاج القسم إلى جواب؛ لأن الجواب في ضمن القسم: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب} عجبوا: الواو تعود على المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام الذين كذبوا رسالته، وكذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، وكذبوا باليوم الآخر، ولهذا {عجبوا أن جاءهم منذر منهم} عجبوا عجب استغراب واستنكار، وإنما قلنا ذلك لأن العجب تارة يُراد به الاستنكار والتكذيب، وتارة يراد به الاستحسان، فقول عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيمن في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله».

والمراد بالعجب هنا الاستحسان، وقوله هنا: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} المراد به الاستنكار والتكذيب، {أن جاءهم منذر منهم} أي: ليس بعيدًا عنهم بل هو منهم نسبًا وحسبًا ومسكنًا، يعرفونه، ومع ذلك قالوا هذا شيء عجيب {أءذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد} لما جاءهم محمد رسول الله ﷺ أخبرهم بأن الله سوف يبعثهم، وسوف يجازيهم، ويحاسبهم تعجبوا كيف هذا؟ أيحيى الإنسان بعد أن كان رفاتًا، قال الكافرون: {هذا شيء عجيب أءذا متنا وكنا ترابًا} إذا من المعروف أنها ظرفية، وكل ظرف يحتاج إلى عامل، والعامل محذوف دل عليه ما

=

=

بعده، والتقدير [{أءذا متنا وكنا ترابًا} نرجع ونبعث] ثم قال: {ذلك رجع بعيد} ولهذا يحسن عند التلاوة أن تقف على قوله: {أءذا متنا وكنا ترابًا} لأن قوله: {ذلك رجع بعيد} جملة استئنافية لا علاقة لها من حيث الإعراب بما قبلها، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار والتكذيب، كأنهم يقولون: لا يمكن أن نرجع ونبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا، ولكن بين الله ﷻ أنه قادر على ذلك، فلما قالوا: {ذلك رجع بعيد} ومرادهم بالبعد هنا الاستحالة، فهم يرون أن ذلك مستحيل، وربما تلطف بعضهم وقال: {ذلك رجع بعيد} فهم تارة ينكرون إنكارًا مطلقًا، ويقولون هذا محال، وتارة يقولون: هذا بعيد، قال الله تعالى مبينًا قدرته على ذلك: {قد علمنا ما تنقص الأَرض منهم} الأرض تأكل الإنسان إذا مات، فالله تعالى يعلم ما تنقص الأرض من أجزاء بدنه ذرة بعد ذرة، ولو أكلته الأرض، وقوله: {ما تنقص الأَرض منهم} قد يفيد أنها لا تأكل كل الجسم وفي ذلك تفصيل، أما الأنبياء فإن الأرض لا تأكلهم مهما داموا في قبورهم، لقول النبي ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»

وأما غيرهم فقد يبقى الجسم مدة طويلة لا تأكله الأرض إلى ما شاء الله، وقد تأكله الأرض، لكن إذا أكلته الأرض فإنه يبقى عجب الذنب، وعجب الذنب هو عبارة عن الجزء اليسير من العظم بأسفل الظهر، هذا يبقى بإذن الله لا تأكله الأرض كأنه يكون نواة للجسم عند بعثه يوم القيامة، فإنه منه يخلق الآدمي في قبره، فإذا تم النفخ في الصور قاموا من قبورهم لله ﷻ وإذا كان الله تعالى عالم بما نقصت الأرض منهم فهو قادر على أن يرد هذا الذي نقصته الأرض عند البعث، {وعندنا} أي عند الله تعالى {كتاب حفيظ} ، أي: حافظ لكل شيء، قال الله تعالى: {كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحفظين كرامًا كتبين يعلمون ما تفعلون} .

=

=

قال تعالى: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم} بل هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي؛ لأن الأول ثابت والثاني زائد عليه، وهذا هو الفرق بين (بل) التي للإضراب الإبطالي، وبين (بل) التي للإضراب الانتقالي، فصارت بل للإضراب دائمة لكن إن كانت تبطل الأول سموها إضراب إبطال، وإن كانت لا تبطله فهو إضراب انتقالي، كأنه انتقل من موضوع إلى آخر {بل كذبوا بالحق لما جاءهم} ولكن قلوبهم موقنة إلا أن ألسنتهم تكذب، كما قال الله تعالى عن آل فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا} {لما جاءهم} لما هنا بمعنى حين، فهي ظرف وليست حرفًا، {فهم في أمر مريج} الفاء هنا للتعقيب والسببية، والمعنى فهم لما كذبوا بالحق في أمر مريج، أي: مختلط اختلط عليهم الأمر- والعياذ بالله- وهو كقوله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصرهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} يعني لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة وظلوا في طغيانهم يعمهون، هؤلاء لما كذبوا صاروا في أمر مريج، التبس عليهم الأمر، وترددوا في أمرهم، وهكذا كل إنسان يرد الحق أول مرة، فليعلم أنه سيبتلى بالشك والريب في قبول الحق في المستقبل، ولهذا يجب علينا من حين أن نسمع أن هذا الشيء حق أن نقول: سمعنا وأطعنا، خلافًا لبعض الناس الآن، تقول: أمر الرسول ﷺ بهذا؟ فيقول: الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ سبحان الله، افعل ما أمرك به سواء على الوجوب أو على الاستحباب، لأن معنى قوله: هل هو للوجوب أو للاستحباب؟ معناه إذا كان للاستحباب فأنا في حل منه، وإذا كان للوجوب فعلته، وهذا خطأ، ولكن قل: سمعنا وأطعنا، ثم إذا وقعت المخالفة فحينئذ ربما يكون السؤال عنه: هل هو واجب أو مستحب؟ ربما يكون وجيهًا، أما قبل فلا.

قد يقول قائل: أنا أسأل هل هو واجب أو مستحب؟ لأن هناك فرقًا بين الواجب والمستحب، والواجب أحب إلى الله، فأنا أفعله من أجل إذا اعتقدت أنه واجب

=

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦).

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا} بِعُيُونِهِمْ مُعْتَبِرِينَ بِعُقُولِهِمْ حِين أَنْكَرُوا الْبَعْث {إِلَى السَّمَاء} كَائِنَة {فَوْقهمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا} بِلَا عَمَد {وَزَيَّنَّاهَا} بِالْكَوَاكِبِ {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج} شُقُوق تَعِيبهَا.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧).

{وَالْأَرْض} مَعْطُوف عَلَى مَوْضِع إِلَى السَّمَاء كَيْفَ {مَدَدْنَاهَا} دَحَوْنَاهَا عَلَى وَجْه الْمَاء {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} جِبَالًا تُثَبِّتهَا {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْج} صِنْف {بَهِيج} يُبْهِج بِهِ لِحُسْنِهِ.

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨).

{تَبْصِرَة} مَفْعُول لَهُ أَيْ فَعَلْنَا ذَلِكَ تَبْصِيرًا منا {وذكرى} تذكيرا {لكل عبد منيب} راجع إلى طاعتنا[1].

=

أُثاب عليه ثواب واجب، وإذا اعتقدت أنه سنة أُثاب عليه ثواب سنة.

قلنا: نعم، هذا طيب، لكن ثواب انقيادك للحق لأول مرة وبكل سهولة وبدون سؤال أفضل من كونك تعتقده واجبًا أو مستحبًّا، وإذا كان الله قد أوجبه عليك أثابك ثواب الواجب، وإن كنت لا تدري، فالانقياد وتمام الانقياد أفضل بكثير من كون أعتقد هذا واجبًا أو مستحبًّا.

(١) قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ} [ق: ٦]، أي:" أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون بالبعث بعد الموت المنُكرون قُدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم {إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ} ".

=

=

قوله تعالى: {كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} [ق: ٦]، أي:" كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم".

قال الطبري: أي: "فسوّيناها سقفا محفوظا، وزيناها بالنجوم".

قوله تعالى: {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق: ٦]، أي:" وما لها من شقوق وفتوق، فهي سليمة من التفاوت والعيوب".

قال الطبري: "يعني: وما لها من صدوع وفُتوق".

عن مجاهد، قوله: "{مِنْ فُرُوجٍ}، يقول: ما لها من شَقّ".

عن الضحاك:" {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}، مِن شُقوق".

قال الفراء:" يعني: السماء، من فطور ولا صدوع".

قال ابن قتيبة:" أي: صدوع. وكذلك قوله: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} ؟! ".

قال الزجاج:" لا صدع فيها ولا فرجة".

قال مقاتل:" يعنى: من خلل".

عن ابن وهب، قال: قلت له يعني: لابن زيد: الفروج: الشيء المتبرئ بعضه من بعض، قال: نعم. ".

قال ابن كثير:" المعنى متقارب، كقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٣، ٤] أي: كليل، أي: عن أن يرى عيبًا أو نقصًا".

قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} [ق: ٧]، أي:" والأرض وسَّعْناها وفرشناها".

قال الطبري: "يقول: والأرض بسطناها".

قال ابن كثير:" أي: وسعناها وفرشناها".

قال مقاتل:" يعنى: بسطناها مسيرة خمسمائة سنة من تحت الكعبة".

=

=

قوله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [ق: ٧]، أي:" وجعلنا فيها جبالا ثوابت؛ لئلا تميل بأهلها".

قال الطبري: "يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض".

قال ابن كثير:" وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها".

قال مقاتل:" يعني: الجبال وهي ستة أجبل، والجبال كلها من هذه الستة الأجبل".

قال قتادة:" الرواسي: الجبال".

وقال قتادة:" أثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقا".

عن قتادة، عن الحسن، في قوله تعالى: "{وألقى في الأرض رواسي} [النحل: ١٥]، قال: "الجبال {أن تميد بكم} [النحل: ١٥]، قال: وسمعت الحسن، يقول: "لما خلقت الأرض كادت أن تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا؟ فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال؟ ".

قوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [ق: ٧]، أي:" وأنبتنا فيها من كل نوع حسن المنظر نافع، يَسُرُّ ويبهج الناظر إليه".

قال الطبري: يقول: "وأنبتنا في الأرض من كلّ نوع من نبات حسن، وهو البهيج".

قال ابن كثير:" {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}، أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، وقوله: {بهيج}، أي: حسن نضر".

قال مقاتل:" يعني: من كل صنف من النبت {بَهِيجٍ}، يعنى: حسن".

عن ابن عباس، قوله:" {بَهِيجٍ}، يقول: حسن".

عن قتادة، قوله:" {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}، أي: من كلّ زوج حسن".

عن ابن وهب، قال:" قلت لابن زيد {البَهِيج}: هو الحسن المنظر؟ قال نعم".

=

=

قال ابن قتيبة:" أي: من كل جنسٍ حسن يُبْتَهج به".

قوله تعالى: {تَبْصِرَةً} [ق: ٨]، أي:" خلق الله السموات والأرض وما فيهما من الآيات العظيمة عبرة يُتبصر بها مِن عمى".

قال الطبري:" يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء".

قال ابن كثير:" أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة".

قال مقاتل:" يعني: هذا الذي ذكر من خلقه جعله {تبصرة} ".

عن قتادة، قوله: "{تَبْصِرَة}، نعمة من الله يبصرها العباد".

عن قتادة، قوله: "{تَبْصِرَةً وَذِكْرَى}، قال: تبصرة من الله".

عن مجاهد، قوله: "{تَبْصِرَةً}، قال: بصيرة".

قوله تعالى: {وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق: ٨]، أي:" وذكرى لكل عبد خاضع خائف وَجِل، رجَّاع إلى الله ﷻ".

قال الطبري:" يقول: وتذكيرا من الله عظمته وسلطانه، وتنبيها على وحدانيته لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله، والعمل بطاعته".

عن قتادة، قوله: "{وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}، أي: بقلبه إلى الله".

عن عطاء ومجاهد: "{لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}، قالا: مجيب".

قال مقاتل:" وتفكرة {لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}،يعنى: مخلص القلب بالتوحيد".

قال الزجاج:" أي: لكل عبد يرجع إلى الله ويفكر في قدرته".

قال ابن كثير:" خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله ﷻ".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {أفلم ينظروا إلى السماء} استدل بالآيات الكونية على صحة الآيات الشرعية.

=

=

والاستفهام هنا للتوبيخ، يوبخهم ﷻ لماذا لم ينظروا إلى هذا؟ لماذا لم ينظروا إلى السماء وما فيها من عجائب القدرة الدالة على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون، وقوله: {أفلم ينظروا إلى السماء} يشمل نظر البصر، ونظر البصيرة، نظر البصر يكون بالعين، ونظر البصيرة يكون بالقلب، أي: التفكر، وقوله: {إلى السماء فوقهم كيف بنينها} قد يقول قائل: إن كلمة: {فوقهم} لا فائدة منها، لأن السماء معروفة أنها فوق، ولكن نقول: إن النص على كونها فوقهم إشارة إلى عظمة هذه السماء، وأنها مع علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها تدل على كمال خلقه وقدرته- جل وعلا- {كيف بنينها} بناها الله ﷻ بقوة وجعلها قوية، فقال- جل وعلا -: {وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا} أي قوية، وقال تعالى: {والسماء بنينها بأيد} أي بقوة، وهذا البناء لا نعلم كيف بناها الله ﷻ لكننا نعلم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، خلق الأرض في أربعة، والسماء في يومين، كما قال الله تعالى: {فقضاهن سبع سماوات في يومين} وقوله: {وزينها} أي حسنًا منظرها، بما خلق الله تعالى فيها من النجوم العظيمة المنيرة المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يُهتدى بها، ورجومًا للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئًا سوى ذلك فقد أضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»

يشير إلى ما ينتحله المنجمون من الاستدلال بحركات هذه النجوم على الحوادث الأرضية، حتى إنهم يبنون سعادة الشخص وشقاءه على هذه النجوم، مثلًا يقولون: إذا ولد في النجم الفلاني فهو سعيد، وإذا ولد في النجم الفلاني فهو شقي، وهذا لا أثر لها، أعني تحركات النجوم في السماء، ليس لها أثر فيما يحدث في الأرض، ثم قال تعالى: {وما لها من فروج} يعني ليس للسماء من فروج، أي من فطور

=

=

وتشقق، بل مبنية محكمة قوية.

{والأَرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج} هذه ثلاثة أمور، أولًا: الأرض مدها الله ﷻ مع أنها بالنسبة للسماء صغيرة جدًا، لكنها ممدودة للخلق، مسطحة لهم كما قال تعالى: {وإلى الأَرض كيف سطحت}

ثانيًا: {وألقينا فيها روسى} أي جبال ثابتات لا تزعزعها الرياح فهي قاسية، وكذلك أيضًا ترسي الأرض.

ثالثًا: {وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج} أي من كل زوج سار لناظره، والمراد بالزوج هنا الصنف، يعني أن ما ينبت في الأرض أصناف متعددة متنوعة حتى إنك ترى البقعة من الأرض وهي صغيرة تشتمل على أنواع من هذه الأصناف، تختلف في ألوانها، وتختلف في أحجامها، وتختلف في ملمسها ما بين شديدة ولينة إلى غير ذلك من الاختلافات العظيمة، بل إنها تختلف في مذاقها إذا كانت من ذوات الثمر، كما قال تعالى: {ونفضل بعضها على بعض في الأُكل} فمن القادر على أن يخلق هذه الأشياء؟ هو الله سبحانه وتعالى، وهذه التي {فيها من كل زوج بهيج} مع أنها في مكان واحد وتسقى بماء واحد، والأرض أيضًا واحدة، من يقدر على هذا؟ الجواب: هو الله- عزوجل- إنك تأتي الأرض المعشبة التي أنبت الله تعالى فيها من أصناف النبات، فتتعجب ترى هذه مثلًا زهرتها صفراء، وهذه بيضاء، وهذه بنفسجية، وهذه منفتحة، وهذه منضمة إلى غير ذلك من الآيات العظيمة، فهذا أكبر دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، وقالوا: {أءذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد} فالقادر على خلق هذه المخلوقات العظيمة قادر على إحياء الموتى، ثم يقال: من الذي خلق الإنسان؟ هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} فإذا كنتم أيها المشركون تقرون بأن الله هو

=

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩).

{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُبَارَكًا} كَثِير الْبَرَكَة {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّات} بَسَاتِين {وَحَبّ} الزَّرْع {الْحَصِيد} المحصود.

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠).

{وَالنَّخْل بَاسِقَات} طِوَالًا حَال مُقَدَّرَة {لَهَا طَلْع نَضِيد} مُتَرَاكِب بَعْضه فَوْق بَعْض.

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١).

{رزقا للعباد} مفعول له {وأحيينا به بلدة مَيْتًا} يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّر وَالْمُؤَنَّث {كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل هَذَا الْإِحْيَاء {الْخُرُوج} مِنْ الْقُبُور فَكَيْفَ تُنْكِرُونَهُ

=

الخالق، وأنه هو الذي خلقكم وأوجدكم، فلماذا تنكرون أن يعيدكم مع أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

{تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب} يعني أن الله تعالى حثنا على أن ننظر إلى السماء وإلى الأرض، وما يحدث فيهما تبصرة، أي لأجل التبصرة والذكرى، قال العلماء: والفرق بين التبصرة والذكرى أن التبصرة مستمرة، والذكرى عند النسيان، فهذه الآيات تذكرك إذا نسيت، وتبصرك إذا جهلت، وقد يقال: إن الفرق بينهما أن التبصرة في مقابل الجهل، والذكرى في مقابل النسيان، وكلا القولان حق، المهم أنك إذا نظرت إلى السماء وإلى الأرض وما فيهما مما أودعه الله ﷻ من النبات فإنك سوف تبصر بقلبك، وتذكر أيضًا إذا نسيت، ولكن لمن هذه التبصرة والذكرى {لكل عبد منيب}، ليست لكل إنسان، ما أكثر ما ينظر الكفار في الآيات، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، إنما الذي ينتفع بها هم كل عبد منيب، أي: رجاع إلى الله ﷻ.

وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ نَظَرُوا وَعَلِمُوا ما ذكر(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} [ق: ٩]، أي:" ونزَّلنا من السماء مطرًا كثير المنافع".

قال الطبري: أي:" مطرا مباركا".

قال ابن كثير:" أي: نافعًا".

قال مقاتل:" يعنى: المطر، فيه البركة حياة كل شيء".

عن الضحاك:": {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا}، قال: المطر".

قال ميمون بن مهران:" البركة في القرآن المطر، {ونزلنا من السماء ماء مباركا} ".

عن ميمون بن مهران، قال: "خصلتان فيهما البركة: القرآن، والمطر. وتلا: {ونزلنا من السماء ماء مباركا} [ق: ٩]، {وهذا ذكر مبارك} ".

قوله تعالى: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} [ق: ٩]، أي:" فأنبتنا به بساتين كثيرة الأشجار، وحب الزرع المحصود".

قال الطبري: يقول:" فأنبتنا به بساتين أشجارا، وحبّ الزرع المحصود من البرّ والشعير، وسائر أنواع الحبوب".

قال ابن كثير:" أي: حدائق من بساتين ونحوها، {وَحَبَّ الْحَصِيدِ} وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره".

عن قتادة: "{وَحَبَّ الْحَصِيدِ}، هذا البرّ والشعير".

عن مجاهد: "{وَحَبَّ الْحَصِيدِ}، قال: الحِنطة".

قال الزجاج:" أي: وأنبتنا فيها حب الحَصِيدِ، فجمع بذلك جميع ما يقتات به من حب الحنطة والشعير وكل ما حَصِدَ".

قوله تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [ق: ١٠]، أي:" وأنبتنا النخل طِوالا".

قال الطبري:" يقول: وأنبتنا بالماء الذي أنزلنا من السماء النخل طوالا والباسق: =

=

هو الطويل يقال للجبل الطويل: حبل باسق".

وفي قوله تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [ق: ١٠]، وجوه:

أحدها: أنها النخل الطوال، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وعبد الله بن شدّاد، ومقاتل. قال الشاعر :

يا بْنَ الَّذِينَ بِفَضْلِهِمْ... بَسَقَتْ عَلى قَيْسٍ فَزَارَهْ

أي: طالت عليهم.

قال عبد الله بن شدّاد:" بسُوقها: طولها في إقامة".

قال قتادة:" بسوقها طولها".

قال ابن كثير:" أي: طوالا شاهقات".

الثاني: مستويات. قاله سعيد بن جبير.

الثالث: مواقير حوامل. قاله الحسن.

قال الثعلبي:" يقال للشاة إذا ولدت: أبسقت".

الرابع: أنها التي قد ثقلت من الحمل، قاله عكرمة. وقال الشاعر :

فلما تركنا الدار ظلت منيفة... بقران فيه الباسقات المواقر

عن قطبة بن مالك. قال: "سمعت النبيّ ﷺ يقرأ: «والنّخل باصقات»، بالصاد".

قوله تعالى: {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠]، أي:" لها طلع متراكب بعضه فوق بعضٍ".

وفي قوله تعالى: {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: متراكم بعضه فوق بعض، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن شهاب،ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والطبري.

قال ابن شهاب: "والنضيد: الذي بعضه فوق بعض".

قال قتادة:" نضد بعضه على بعض".

=

=

وعن مجاهد:" {طلع نضيد}، قال: المنضد".

قال الفراء:" يعني: الكفُرَّى ما كَانَ فِي أكمامه وهو نضيد، أي: منضود بعضه، فوق بعض، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد".

قال الطبري:" يقول: لهذا النخل الباسقات طلع -وهو الكُفُرَّى-منضود بعضه على بعض متراكب".

الثاني: أنه المنظوم، وهذا يروى عن ابن عباس أيضًا.

الثالث: أنه القائم المعتدل، قاله عبد الله بن شداد بن الهاد.

قال مسروق: "أشجار الجنة من عروقها إلى أغصانها ثمر كله".

قال بن الأجدع: نخل الجنّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال والدلاء، وأنهارها تجري في عبر أخدود".

قوله تعالى: {رِزْقًا لِلْعِبَادِ} [ق: ١١]، أي:" أنبتنا ذلك رزقًا للعباد يقتاتون به حسب حاجاتهم".

قال الزجاج:" المعنى: فأنبتنا هذه الأشياء للرزق".

قال ابن كثير:" أي: للخلق".

عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كان النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا جاءهم المطر، وفي لفظ إذا رأى المطر وسالت الميازيب، قال: "لا محل عليكم العام" يعني: الجدب".

قوله تعالى: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} [ق: ١١]، أي:" وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبات".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة ميتا قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت".

قال ابن كثير:" وهي: الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في

=

=

حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت: ٣٩] ".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ١١]، أي:" كما أحيينا بذلك الماء الأرض الميتة نخرجكم يوم القيامة أحياء بعد الموت".

قال قتادة:" كما أحيا الله الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك يحيي الله ﷻ الناس يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:" كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء".

قال الزجاج:" أي: كما خلقنا هذه الأشياء نبعثكم".

قال مقاتل:" يقول: وهكذا تخرجون من القبور بالماء، كما أخرجت النبت من الأرض بالماء، فهذا كله من صنيعه ليعرفوا توحيد الرب وقدرته على البعث".

قال ابو عبيدة: أي: "يوم القيامة قال العجّاج :

أليس يوم سمّى الخروجا... أعظم يوم رجّة رجوجا".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {ونزلنا من السماء ماءً مبركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد} . يقول- جل وعلا -: {ونزلنا}، لأن المطر ينزل شيئًا فشيئًا، وربما يعبر

=

=

عنه بأنزل لأنه تجيء به الأودية والشعاب، وقوله: {من السماء} أي من العلو، لأن هذا المطر ينزل من السحاب وليس من السماء التي هي السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: {والسحاب المسخر بين السماء والأَرض}، إذن هو ينزل من العلو، والحكمة في إنزاله من العلو ليشمل قمم الجبال ومراتع الإبل، والسهل والأودية، لأنه لو جاء يمشي سيحًا من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال، ولكن الله ﷻ جعله من فوق، وقوله: {ماءً مبركًا} من بركته أنه يُنبت به {جنات وحب الحصيد}، الجنات هي البساتين الكثيرة الأشجار، وسميت البساتين الكثيرة الأشجار جنات، لأنها تُجن أي تستر ما تحتها، وكل بستان ذو شجر ملتف بعضه إلى بعض يسمى جنة، وأما قوله: {وحب الحصيد} يعني به الزروع التي تحصد، فذكر الله هنا الأشجار والزروع، فمن الأشجار تجد الثمار، ومن الزروع تحصد الحبوب، {والنخل باسقات لها طلع نضيد} خص الله النخل لأنها أشرف الأشجار، ولهذا شبه بها المؤمن حيث قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن من الشجر شجرًا مثلها مثل المؤمن» قال ابن عمر رضي الله عنهما فذهب الناس يخوضون في شجر البوادي، كل يقول: هي الشجرة الفلانية، يقول ابن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة، لكني كنت أصغر القوم- يعني فاستحيا أن يتكلم وهو أصغرهم- فقال النبي ﷺ: «هي النخلة»

وهي الشجرة المذكورة في قول الله تعالى: {ضرب الله مثلًا كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء} فلهذا خصها هنا بالذكر فقال: {والنخل باسقات} أي عاليات {لها طلع نضيد} أي منضود، فالطلع في شماريخه تجده منضودًا من أحسن ما يكون النضد، ومع ذلك تجد هذه الثمرات تسقى بالشمراخ الدقيق اللين مع أنه قد يكون فيه أحيانًا أكثر من ثلاثين حبة. {رزقًا للعباد} أي فعلنا ذلك، أنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل

=

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢).

{كَذَّبَتْ قَبْلهمْ قَوْم نُوح} تَأْنِيث الْفِعْل بِمَعْنَى قَوْم {وَأَصْحَاب الرَّسّ} هِيَ بِئْر كَانُوا مُقِيمِينَ عَلَيْهَا بِمَوَاشِيهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَام وَنَبِيّهمْ قِيلَ حَنْظَلَة بْن صَفْوَان وَقِيلَ غَيْره {وَثَمُود} قَوْم صَالِح.

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣).

=

باسقات. فعلنا ذلك رزقًا للعباد أي عطاءً وفضلًا للعباد، والعباد هنا يشمل العباد المؤمنين والعباد الكافرين؛ لأن الكافر عبد لله كما قال الله تعالى: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا}.

والمراد هنا العبودية الكونية القدرية، أما العبودية الشرعية فلا يكون عبدًا لله إلا من كان ممتثلًا لأمره، مجتنبًا لنهيه، مصدقًا بخبره، {وأحيينا به بلدةً ميتًا} أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء بلدة ميتة، {بلدةً} لما كانت مؤنثة اللفظ، مذكرة المعنى، صح أن توصف بوصف مذكر، {بلدةً ميتًا} أي بلد ميت، أحياه بهذا الماء الذي نزل من السماء، تجد الأرض هامدة خاشعة ليس فيها نبات، فإذا أنزل الله المطر عجت بالنبات واخضرت وازدهرت، فهذه حياة بعد الموت {كذلك الخروج} أي مثل ذلك الإحياء {الخروج}، خروج الناس من قبورهم لله ﷻ وإنما ذكر الله تعالى الخروج لأن من عباد الله من أنكر ذلك {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا} وحجتهم أنهم قالوا من يحيي العظام وهي رميم؟ من يحيي العظام بعد أن أرمت وصارت ترابًا؟ هذا مستنكر عندهم بعيد، ولكن الله سبحانه وتعالى بين أنه ليس ببعيد، وأنهم كما يشاهدون الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا، إذن فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر قادر على إحياء الأموات بعد موتهم، وهذا قياس جلي واضح، كذلك الخروج.

{وعاد} قوم هود {وفرعون وإخوان لوط}.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤).

{وَأَصْحَاب الْأَيْكَة} الْغَيْضَة قَوْم شُعَيْب {وَقَوْم تُبَّع} هُوَ مَلِك كَانَ بِالْيَمَنِ أَسْلَمَ وَدَعَا قَوْمه إلَى الْإِسْلَام فَكَذَّبُوهُ {كُلّ} مِنْ الْمَذْكُورِينَ {كَذَّبَ الرُّسُل} كَقُرَيْشٍ {فَحَقَّ وَعِيد} وَجَبَ نُزُول الْعَذَاب عَلَى الْجَمِيع فَلَا يَضِيق صَدْرك مِنْ كُفْر قريش بك.

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥).

{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّل} أَيْ لَمْ نَعْي بِهِ فَلَا نَعْيَا بِالْإِعَادَةِ {بَلْ هُمْ فِي لَبْس} شَكّ {مِنْ خَلْق جَدِيد} وَهُوَ الْبَعْث[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} [ق: ١٢]، أي:" كذَّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {كذَّبتْ} قبل هؤلاء المشركين الذين كذّبوا محمدا ﷺ من قومه {قَوْمُ نُوحٍ} ".

عن يزيد الرقاشي، قال: "إنما سمي نوح لطول ما ناح على نفسه".

قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الرَّسِّ} [ق: ١٢]، أي:" وأصحاب البئر".

قال الطبري:" قوم رسُّوا نبيهم في بئر".

واختلفوا في «أَصْحَاب الرَّسِّ»، على أقوال:

أحدها: أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله إليهم نبيا من ولد يهوذا بن يعقوب، فحفروا له بئرا وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي بن أبي طالب.

وقال أبو احمد السامري:" {أَصحابَ الرَسّ}، يعني: أصحاب البنات، وأزد شنوءة يسمّون البنين: الرسّ".

=

=

الثاني: أنهم قوم كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها، وكانت لهم مواش، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيبا، فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فخسف بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه.

الرابع: أنهم الذين قتلوا حبيبا النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٢٠]، قاله الضحاك، والسدي.

قال الضحاك:" بئر قُتل فيها صاحب يس".

وقال عكرمة:" كان الرسّ بئرا رسُّوا فيها نبيهم".

قال ابن عباس:" هي بئر كانت تسمى: الرّس".

قال ابن عباس:" بئر بأذربيجان".

قال مجاهد:" الرّسّ بئر كان عليها قوم". وفي رواية: "{أَصْحَابُ الرَّسِّ}، قال: بئر".

قال قتادة:" أصحاب الرس كانوا أهل فلج وآبار كانوا عليها".

قال جعفر بن محمد:" كل نهر وبئر هو رس".

قال القرطبي: "«الرس»: هو كل حفر احتفر كالقبر والمعدن والبئر".

قال النحاس:" «الرس» عند أهل اللغة: كل بئر غير مطوية.. ويروى أنهم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر، أي: دسوه فيها".

الخامس: أنهم أصحاب الأخدود، و «الرس» هو الأخدود الذي حفروه. حكاه الثعلبي.

السادس: أنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب.

=

=

السابع: أن الرسّ: قرية من ثمود. وهذا قول ابن عباس.

الثامن: أن الرسّ: قرية من اليمامة يقال لها: الفلج. وهذا قول قتادة، وعكرمة.

التاسع: أن «أصحاب الرس»: قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السحق، وكان نساؤهم كلهم سحاقات. رواه جعفر بن محمد عن أبيه.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يستكفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق».

العاشر: أن {أصحاب الرس} كانتا أمتين فبعث الله إليهما نبيا واحدا شعيبا وعذبهما الله بعذابين. وهذا مروي عن قتادة.

عن قتادة أنه قال: "إن أصحاب الأيكة، "والأيكة: الشجر الملتفّ"، وأصحاب الرّسّ كانتا أمتين، فبعث الله إليهم نبيا واحدا شعيبا، وعذّبهما الله بعذابين".

قال يحيى: بلغني أن الذي أرسل إليهم شعيب، وأنه أرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الرس جميعا، ولم يبعث نبي إلى أمتين غيره فيما مضى، وبعث النبي إلى الجن والإنس كلهم".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك؛ ومنه قول الشاعر:

سَبَقْتَ إلى فَرطٍ باهِلٍ... تنابِلَةٍ يَحْفِرُونَ الرِّساسا".

قوله تعالى: {وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ} [ق: ١٢ - ١٣]، أي:" وثمود، وعاد وفرعون وقوم لوط ".

قال الماتريدي:" أي: قوم لوط".

قال ابن ابي زمنين:" إخوان في النسب لا في الدين".

قال الصابوني: "سمَّاهم إِخوانه، لأنه صاهرهم وتزوج منهم".

=

=

في بعض التفاسير: "أن لوطا يبعث وحده وليس معه أحد آمن به".

قال السمعاني:" وعن بعضهم: أن فرعون كان رجلا أعجميا من أهل اصطخر فارس، ذكره أبو الحسين بن فارس في تفسيره، وذكر فيه أنه عاش مائتين وعشرين سنة لم يؤذه شيء، ودعاه موسى ثمانين سنة، ثم أغرقه الله فجميع مدة ملكه ثلثمائة سنة".

قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} [ق: ١٤]، أي:" وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب".

قال الطبري:" كل شجر ملتفّ فهو عند العرب أيكة؛ ومنه قول نابغة بني ذبيان :

تَجْلُو بِقادمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ... بَرَدًا أُسِفّ لِثاتُهُ بالإِثْمِدِ

وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين فيما ذُكر".

قال الزجاج:" الأيكة: الشجر الملتف".

قال ابن كثير:" أصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها".

قال مقاتل:" {أَصْحابُ الْأَيْكَةِ}، يعني: غيضة الشجر، أكثرها الدوم المقل، وهم قوم شعيب- عليه السلام-".

قال ابن زيد:" الأيكة: الشجر، بعث الله شعيبا إلى قومه من أهل مدين، وإلى أهل البادية، قال: وهم أصحاب ليكة، وليكة والأيكة: واحد".

قال ابن عباس:" الأيكة: مجمع الشجر".

قال الضحاك:" هم قوم شعيب".

قال قتادة:" أصحاب الأيكة: أصحاب شجر وهم قوم شعيب".

قال قتادة:" ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة، وكان عامة شجرهم هذا الروم، وكان

=

=

رسولهم فيما بلغنا شعيب أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبتا بعذابين شتى، أما أهل مدين: فأخذتهم الصيحة، وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوس".

عن ابن عباس، قوله: "{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}، يقول: أصحاب الغيضة".

عن ابن عباس، قوله: "{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}، قال: أهل مدين، والأيكة: الملتف من الشجر".

قال محمد بن إسحاق: "كان من قصة شعيب وخبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن وكانوا أهل بخس الناس في مكاييلهم وموازينهم، مع كفرهم بالله وتكذيبهم نبيهم".

قوله تعالى: {وَقَوْمُ تُبَّعٍ} [ق: ١٤]، أي:" وقوم تُبَّع الحِمْيَري".

قال مقاتل:" تُبَّع بن أبي شراح ويقال شراحيل الحميري".

قال ابن كثير:" قوم تبع- وهم سبأ- حيث أهلكهم الله وخَرَّب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عربًا من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير- وهم سبأ- كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعًا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونه بالليل،

=

=

فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضًا، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعًا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر.

وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تبع لعينًا كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبيًّا كان أم ملكا؟ " وقال غيره: "أعزيرًا كان نبيًّا أم لا؟»

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي. وكأنه- والله أعلم- كان كافرًا ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحج البيت في زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة مبسوطة، عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضًا، وهو أثبت وأكبر وأعلم.

=

=

وكذا روى قصته وهب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَّعًا هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ".

وروي عن سعيد بن جبير:" أن تُبَّعا كسا البيت، ونهى سعيد عن سبه".

قال ابن كثير:" وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلْكيكرب اليماني ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبي آخر في الزمان، اسمه أحمد، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَاري النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ... لَكُنْت وَزيرا له وابن عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ... وَفرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: "هذا قبر حبي ولميس- وروي: حبي وتماضر- ابنتي تُبَّع ماتتا، وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما".

قال قتادة:" ذُكر لنا أن تبعا كان رجلا من حمير، سار بالجيوش حتى حير الحيرة، ثم أتى سمرقند فهدمها. وذُكر لنا أنه كان إذا كَتَب كَتَب باسم الذي تسمَّى وملك

=

=

برّا وبحرا وصحا وريحا. وذُكر لنا أن كعبا كان يقول: نُعِتَ نَعْتَ الرَّجُلِ الصَّالح ذمّ الله قومَه ولم يذمه. وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعا، فإنه كان رجلا صالحا".
قال ابن سحاق:" كان قوم تُبَّعٍ أهل أوثان يعبدونها".
عن ابن عباس:" أنه سأل عبد الله بن سلام، عن تُبَّع ما كان؟ فقال: إن تبعا كان رجلا من العرب، وإنه ظهر على الناس، فاختار فِتية من الأخيار فاستبطنهم واستدخلهم، حتى أخذ منهم وبايعهم، وإن قومه استكبروا ذلك وقالوا: قد ترك دينكم، وبايع الفِتية؛ فلما فشا ذلك، قال للفتية، فقال الفتية: بيننا وبينهم النار تُحْرِق الكاذب، وينجو منها الصادق، ففعلوا، فعلق الفتية مصاحفهم في أعناقهم، ثم غدوا إلى النار، فلما ذهبوا أن يدخلوها، سفعت النار في وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تبَّع: لتدخلنها؛ فلما دخلوها أفرجت عنهم حتى قطعوها، وأنه قال لقومه ادخلوها؛ فلما ذهبوا يدخلونها سفعت النار وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تبَّع: لتدخلنها، فلما دخلوها أفرجت عنهم، حتى إذا توسطوا أحاطت بهم، فأحرقتهم، فأسلم تُبع، وكان تُبَّع رجلا صالحا".
عن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله:" أن تبعا لما دنا من اليمن ليدخلها، حالت حِمْيَر بينه وبين ذلك، وقالوا لا تدخلها علينا، وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه، وقال: إنه دين خير من دينكم، قالوا: فحاكمنا إلى النار، قال نعم، قال: وكانت في اليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم فيما بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم، فلما قالوا ذلك لتبَّع، قال: أنصفتم، فخرج قومه بأوثانهم، وما يتقرّبون به في دينهم قال: وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديهما، حتى قعدوا للنار عند مخرجها التي تخرج منه، فخرجت للنار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فرموهم من حضرهم من الناس، وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومن

=

=

حمل ذلك من رجال حِمْيَر وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، تعرق جباههما لم تضرّهما، فأطبقت حِمْيَر، عند ذلك على دينه، فمن هنالك وغير ذلك كان أصل اليهودية باليمن ".

عن ابن إسحاق عن بعض أصحابه أن الحَبرين، ومن خرج معهما من حِمْيَر، إنما اتبعوا النار ليردّوها، وقالوا: من ردّها فهو أولى بالحقّ فدنا منهم رجال من حمير بأوثانهم ليردُّوها، فدنت منهم لتأكلهم، فحادوا فلم يستطيعوا ردّها، ودنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة، وتنكص حتى ردّاها إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأطبقت عند ذلك على دينهما، وكان رئام بيتا لهم يعظمونه، وينحرون عنده، ويكلمون منه، إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران لتبَّع إنما هو شيطان يعينهم ويلعب بهم، فخلّ بيننا وبينه، قال: فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلبا أسود، فذبحاه، ثم هدما ذلك البيت، فبقاياه اليوم باليمن كما ذُكر لي".

عن سهل بن سعد الساعدي، يحدّث عن النبيّ ﷺ أنه قال: "لا تَلْعَنُوا تُبَّعا فإنَّهُ كانَ قَدْ أَسْلَمَ".

عن شعيب بن زرعة المعافريّ، قال:" سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له رجل: إن حِمْيَر تزعم أن تبعا منهم، فقال: نعم والذي نفسي بيده، وإنه في العرب كالأنف بين العينين. وقد كان منهم سبعون ملكا".

عمرو بن جابر الحضرمي- قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان أسلم".

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "لا تسبوا تبعا؛ فإنه قد أسلم".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أدري، تُبَّع نبيًّا كان أم غير نبي".

=

=

عن تميم بن أبي عبد الرحمن ، قال: "قال لي عطاء بن أبي رباح: أتسبون تبعا يا تميم؟ قال: قلت: نعم ، قال: «فلا تسبوه ، فإن رسول الله ﷺ قد نهى ، عن سبه» ".

قوله تعالى: {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} [ق: ١٤]، أي:" كل هؤلاء الأقوام كذَّبوا رسلهم".

قال الطبري: يقول: "كلّ هؤلاء الذين ذكرناهم كذّبوا رسل الله الذين أرسلهم".

قال ابن أبي زمنين:" يقول: جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويحذرونهم العذاب، فكذبوهم".

قال ابن كثير:" أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم".

قوله تعالى: {فَحَقَّ وَعِيدِ} [ق: ١٤]، أي:" فحق عليهم الوعيد الذي توعدهم الله به على كفرهم".

قال السمعاني أي: حق عليهم وعيدي وعذابي".

قال الطبري:" يقول: فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جلّ ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذّبين الرسل ترهيبا منه بذلك مشركي قريش وإعلاما منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدا ﷺ، أنه محلّ بهم من العذاب، مثل الذي أحلّ بهم".

قال مقاتل:" يعني: فوجب عليهم عذابي فعذبتهم، فاحذروا يا أهل مكة مثل عذاب الأمم الخالية، فلا تكذبوا محمدا- ﷺ-".

قال ابن أبي زمنين:" فجاءهم العذاب، يحذر بهذا مشركي العرب".

=

=

عن مجاهد، قوله: "{فَحَقَّ وَعِيدِ}، قال: ما أهلكوا به تخويفا لهؤلاء".
قال القشيري:" إنّا لم نعجز عن هؤلاء- الذين ذكر أسماءهم- وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول".
قوله تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [ق: ١٥]، أي:" أفَعَجَزْنا عن ابتداع الخلق الأول الذي خلقناه ولم يكن شيئًا، فنعجز عن إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم؟ ".
قال مجاهد:" يقول: أفعيي علينا حين أنشأناكم خلقا جديدا، فتمتروا بالبعث".
قال الحسن: "{أفعيينا بالخلق الأول}، يعني: خلق آدم، أي: لم يعي به".
قال ابن عباس:" يقول: لم يعينا الخلق الأوّل".
عن أبي ميسرة: "{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأوَّلِ}، قال: إنا خلقناكم".
قال مقاتل:" يقول الله- تعالى-: أعجزت عن الخلق حين خلقتهم ولم يكونوا شيئا، فكيف أعيى عن بعثهم".
قال الطبري:" وهذا تقريع من الله لمشركي قريش الذين قالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، يقول لهم جلّ ثناؤه: أفعيينا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئا فنعيا بإعادتهم خلقا جديدا بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقول: ليس يعيينا ذلك، بل نحن عليه قادرون".
قال ابن كثير:" أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة.. المعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٨- ٧٩]، وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته» ".

=

=

قال السمعاني: أي: عسر علينا ذلك فيعسر علينا هذا، ويقال: عيي فلان بالأمر إذا عجز عنه".

قال القشيري:" أي إنّا لم نعجز عن الخلق الأول.. فكيف نعجز عن الخلق الثاني- وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعل شئ، ولم نتعب من شئ.. فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك".

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [ق: ١٥]، أي:" بل هم في خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور".

قال مقاتل:" يقول في شك من البعث بعد الموت".

قال الطبري:" ما يشكّ هؤلاء المشركون المكذّبون بالبعث أنا لم نعي بالخلق الأوّل، ولكنهم في شكّ من قُدرتنا على أن نخلقهم خلقا جديدا بعد فنائهم، وبَلائهم في قبورهم".

قال ابن عباس:" يقول: في شكّ من البعث".

قال قتادة:" البعث من بعد الموت".

قال مجاهد:" يمترون بالبعث".

عن قتادة، قوله: "{بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ}، أي: شكّ والخلق الجديد: البعث بعد الموت، فصار الناس فيه رجلين: مكذّب، ومصدّق".

عن أبي ميسرة: "{بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ}، قال: الكفار {مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}، قال: أن يخلقوا من بعد الموت".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخون لوط وأصحاب الأَيكة وقوم تبع} ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبت

=

=

الرسل من قبل، كما قال الله تعالى: {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك}. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالى: {كذلك مآ أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون}، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأى غيره قد أصيب بمثل مصيبته يتسلى بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبي الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر {كل كذب الرسل فحق وعيد} فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال ﷻ: {فكلا أخذنا بذنبه} يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه، {كذبت قبلهم قوم نوح}، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يعني تسعمائة وخمسين سنة، وهو يدعوهم إلى الله ﷻ ولكن لم يستفيدوا من ذلك شيئًا، كلما دعاهم ليغفر لهم {جعلوا أصابعهم في ءاذانهم واستغشوا ثيابهم} تغطوا {وأصروا واستكبروا استكبارًا}. وبقي فيهم هذه المدة، وقد قال الله تعالى في النهاية: {ومآ آمن معه إلا قليل}. {وأصحاب الرس} قوم جاءهم نبيهم ولكنهم قتلوه بالرس، وهو البئر، أي حفروا بئرًا ودفنوه، هذا قول، والقول الثاني: أصحاب الرس، أي أنهم قومٌ حول ماءٍ وليسوا بالكثرة الكافية، ومع هذا كذبوا رسولهم {وثمود} وهم قوم صالح في بلاد الحجر المعروفة، كذبوا صالحًا وقالوا: {ائتنا بما تعدنآ إن كنت من المرسلين}. وهذا تحدٍّ، فأرسل الله عليهم صيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين {وعاد} كذلك أيضًا عاد أرسل الله إليهم هودًا فكذبوه فأهلكهم الله ﷻ بالريح العقيم {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} وكانوا يفتخرون بقوتهم ويقولون: {من أشد منا قوةً}.

فأراهم الله ﷻ قوته وأهلكهم بالريح اللطيفة التي لا يرى لها جسم، ومع ذلك دمرتهم تدميرًا، {وفرعون} الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وفرعون كان

=

=

معروفًا بالجبروت والعناد والاستكبار، حتى إنه استخف قومه وقال لهم إنه رب {فقال أنا ربكم الأعلى} فأطاعوه فجاءهم موسى عليه الصلاة والسلام بالآيات البينات، لكنهم كذبوا، وأراهم الله تعالى آية كانوا يفتخرون بما يضاد ما جاء به موسى وهو السحر، فجمعوا لموسى عليه الصلاة والسلام كلالسحرة في مصر، واجتمعوا وألقوا الحبال والعصي، وألقوا عليها السحر فصار الناس يشاهدون هذه الحبال والعصي وكأنها حيات وثعابين، ورهب الناس كما قال الله تعالى: {واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم}.

حتى إن موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة؛ لأنه شاهد أن كل الجو حوله ثعابين تريد أن تلتهم ما تقابله، فأوحى الله إلى موسى أن ألقِ عصاك، فألقى العصا فالتهمت جميع هذه الحيات، وهذا من آيات الله، إذ إن الحية كما هو معروف ليست بذات الكبر لكي تأكل هذا، وكان هذا يذهب بخارًا، إذا أكلت هذه الحبال والعصي، فالسحرة رأوا أمرًا أدهشهم ولم يملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا مع ذلك إيمانًا تامًّا {وألقى السحرة ساجدين}، وتأمل قوله تعالى: {وألقى السحرة ساجدين} ولم يقل سجدوا، كأن شيئًا اضطرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار لقوة ما رأوا من الآية العظيمة، ومع هذه الآية البينة الواضحة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام لم يؤمن فرعون بل قال: {إن هؤلآء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغآئظون}، فهمّ بأن يهجم على موسى ومن معه من المؤمنين، فأمر الله موسى أن يخرج من مصر إلى جهة المشرق نحو البحر الأحمر، فامتثل أمر الله، وخرج من مصر إلى هذه الناحية، فتبعهم فرعون بجنوده على حنق، يريد أن يقضي على موسى وقومه، فلما وصلوا إلى البحر قال قوم موسى له: {إنا لمدركون}. {قال كلا} يعني لن ندرك {إن معى ربي سيهدين} فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر، البحر الذي عرضه مسافات طويلة فضرب البحر فانفلق

=

=

البحر اثني عشر طريقًا، وصارت قطع الماء كأنها جبال، وصارت هذه الطرق التي كانت ريًا من الماء، وطينًا زلقًا، صارت طريقًا يبسًا بإذن الله في لحظة، فدخل موسى وقومه عابرين من أفريقيا إلى آسيا من طريق البحر، فلما تكاملوا داخلين وخارجين للناحية الشرقية دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا للدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق أعلن فقال: {آمنت أنه لآ إله إلا الذي آمنت به}.

وتأمل أنه لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لماذا؟ إذلالًا لنفسه، حيث كان ينكر على بني إسرائيل ويهاجمهم، فأصبح عند الموت يقر بأنه تبع لهم، وأنه يمشي خلفهم، ولكن ماذا قيل له: {ءالئن} تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنك من المسلمين {وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}. فلم تقبل توبته، لأنه لم يتب إلا حين حضره الموت، والتوبة بعد حضور الموت لا تنفع، كما قال الله تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الأَن} لا تنفع التوبة إذا حضر الموت، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بتوبة قبل الموت، ولكن الله قال: {فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءايةً}. ننجيك ببدنك لا بروحك، الروح فارقت البدن، لكن البدن بقي طافيًا على الماء. وبيَّن الله الحكمة {لتكون لمن خلفك ءايةً} لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقًا في الماء، {لتكون لمن خلفك ءايةً}.

{وإخون لوط} إخوان لوط يعني قوم لوط، أرسل إليهم لوط عليه الصلاة والسلام، لأنهم كانوا - والعياذ بالله - يأتون الذكران، ويدعون النساء، أي أن الواحد يجامع الذكر ويدع النساء، كما قال لهم عليه الصلاة والسلام: {أتأتون

=

=

الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾. دعاهم إلى الله ﷻ وأنذرهم وخوَّفهم من هذا الفعل الرذيل، ولكنهم أصروا عليه، فأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة، يعني معلَّمة، كل حجارة عليها علم، يعني علامة على من تنزل عليه وتصعقه، وهذه الخصلة الرذيلة من أقبح الخصال، ولهذا كان حدها في الشريعة الإسلامية القتل بكل حال، يعني أنها أعظم من الزنا، فإذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع زوجته فإنه يرجم حتى يموت، أما اللواط فإن حده القتل بكل حال، يعني لو تلوط شخص بالغ بآخر بالغ باختيار منهما فإنه يجب أن يقتل الفاعل والمفعول به، لقول النبي ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الصحابة أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا كيف يُقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار لعظم جرمه، والعياذ بالله، وقال آخرون: إنه يرجم بالحجارة، وقال آخرون: إنه يلقى من أعلى مكان في البلد ويتبع بالحجارة، والشاهد أن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل إجماع الصحابة على قتله، وإجماع الصحابة حجة فيكون مؤيدًا للحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» ولأن هذه الفاحشة الكبرى- والعياذ بالله- فاحشة مفسدة للمجتمع، لأنه يصبح المجتمع الرجالي مجتمعًا نسائيًا، وهو أيضًا لا يمكن التحرز منه، فالزنا يمكن التحرز منه إذا رؤيت امرأة مع رجل في محل ريبة فإنه يمكن مناقشتهما، لكن إذا رؤي ذكر مع ذكر كيف يمكن أن نناقشهما، والأصل أن الرجل مع الرجل يجتمع ولا يتفرق، لهذا كان القول بوجوب قتلهما هو الحق، أما قوم لوط فإن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من سجين، مسومة فدمرهم تدميرًا، حتى جعل عالي قريتهم سافلها.

=

=

{وأصحاب الأَيكة}، يعني الشجرة، أرسل الله تعالى إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الله وذكَّرهم به، وحذَّرهم من بخس المكيال والميزان، ولكنهم- والعياذ بالله- بقوا على كفرهم وعنادهم {فأخذهم عذاب يوم الظلة} وهذا العذاب يقال: إن الله تعالى أرسل إليهم حرًّا شديدًا ولم يجدوا مفرًّا منه إلا أنه أرسلت غمامة واسعة باردة فصاروا يتدافعون إلى ظلها، يتظللون بها، فأنزل الله عليهم نارًا فأحرقتهم، وفي هذا يقول تعالى: {فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم}. {وقوم تبع} أيضًا ممن كذبوا الرسل وهم أصحاب تُبّع، وهو ملك من ملوك اليمن أرسل الله إليهم رسولًا فكذبوه ولم ينقادوا له، فيقول – ﷻ –: {كل كذب الرسل فحق وعيد} أي أن هؤلاء الأمم الذين أشار الله تعالى إلى قصصهم كلهم كذبوا الرسل، فحق عليهم وعد الله- والعياذ بالله- بعذابه وانتقامه.

{أفعيينا بالخلق الأَول بل هم في لبس من خلق جديد} الاستفهام هنا للنفي، وعيينا هنا بمعنى تعبنا، والخلق الأول هو ابتداء الخلائق يعني هل نحن عجزنا عن ابتداء الخلائق حتى نعجز عن إعادة الخلائق؟! من المعلوم أن الجواب: لا، كما قال تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأَرض ولم يعى بخلقهن}. أي لم يتعب بذلك، فإذا كان الله- جل وعلا- لم يتعب بالخلق الأول فإن إعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده} وهذا استدلال عقلي يراد به إقناع هؤلاء الجاحدين لإعادة الخلق، فإن الذين كفروا زعموا أن لن يبعثوا وأنه لا بعث، وأنكروا هذا واستدلوا لذلك بدليل واهٍ جدًّا، فقالوا فيما حكاه الله عنهم: {من يحي العظام وهي رميم} فقال الله تعالى: {قل يحييها الذي أنشأهآ أول مرة وهو بكل خلق عليم}. ثم ساق الأدلة العقلية الدالة على أن الله تعالى قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، قال تعالى: {بل هم في لبس من خلق جديد} أي هم مقرون بأننا لم نعِ بالخلق الأول، وأنا

=

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦).

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان وَنَعْلَم} حَال بِتَقْدِيرِ نَحْنُ {مَا} مَصْدَرِيَّة {تُوَسْوِس} تُحَدِّث {بِهِ} الْبَاء زَائِدَة أو للتعدية والضمير للإنسان {نفسه وَنَحْنُ أَقْرَب إلَيْهِ} بِالْعِلْمِ {مِنْ حَبْل الْوَرِيد} الْإِضَافَة لِلْبَيَانِ وَالْوَرِيدَانِ عِرْقَانِ بِصَفْحَتَيْ الْعُنُق.

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧).

{إذْ} مَنْصُوبَة بِـ"اُذْكُرْ" مُقَدَّرًا {يَتَلَقَّى} يَأْخُذ وَيُثْبِت {الْمُتَلَقِّيَانِ} الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِالْإِنْسَانِ مَا يَعْمَلهُ {عَنْ الْيَمِين وَعَنْ الشِّمَال} مِنْهُ {قَعِيد} أَيْ قَاعِدَانِ وَهُوَ مُبْتَدَأ خَبَره مَا قَبْله.

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨).

{ما يلفظ من قوله إلَّا لَدَيْهِ رَقِيب} حَافِظ {عَتِيد} حَاضِر وَكُلّ مِنْهُمَا بِمَعْنَى الْمُثَنَّى[1].

=

أوجدناه لكن هم في لبس من خلق جديد، ولهذا حصل الإضراب هنا، حيث قال: {بل هم} يعني أن هذا عجبٌ من حالهم كيف يقرون بأول الخلق ثم ينكرون البعث بعد الموت، بل هم {في لبس} أي في شك وتردد {من خلق جديد} وهو إعادة الخلق.

والقادر على ابتداء الخلق يكون قادرًا على إعادته من باب أولى، وهذا دليل عقلي لا يمكن لأي إنسان أن يفر منه.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: ١٦]، أي:" ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تُحَدِّث به نفسه".

قال الطبري: يقول:" ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدِّث به نفسه، فلا يخفى

=

=

علينا سرائره وضمائر قلبه".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعمله محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» ".

قال أبو الليث:" {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ} يعني: جنس الإنسان، وأراد به جميع الخلق، {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}، يعني: ما يحدث به قلبه، ويتفكر في قلبه".

قال الثعلبي:" {ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}، يحدّثه قلبه، فلا يخفى علينا أسراره، وضمائره".

قال ابن عطية:" هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء. والخلق: إنشاء الشيء على ترتيب وتقدير حكمي. و: الْإِنْسانَ اسم الجنس. قال بعض المفسرين {الْإِنْسانَ} -هنا-: آدم عليه السلام و {تُوَسْوِسُ}، معناه: تتحدث في فكرتها، وسمي صوت الحلي وسواسا لخفائه، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير".

قال الزمخشري:" الوسوسة: الصوت الخفي. ومنها: وسواس الحلي. ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك: صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان، أي: ما تجعله موسوسا، وما مصدرية، لأنهم يقولون: حدّث نفسه بكذا، كما يقولون: حدثته به نفسه".

قال القشيري:" ومن أشدّ النّاس لك عداوة، وأبعدهم عن الإيمان- نفسك المجبولة على الشرّ فلا تقلع إلّا بذبحها بمدية المجاهدات. وهى لا تؤمن بالتقدير، ولا يزول شكها قط، وكذلك تخلد إلى التدبير ولا تسكن إلا بوجود

=

=

المعلوم، ولا تقبل منك إلا كاذب المواعيد، ولذلك قالوا :

واكذِبِ النفسَ إذا حدَّثْتَها... إنَّ صدْقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ".

قوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]، أي:" ونحن أقرب إِليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب".

قال الطبري: "يقول: ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق؛ والوريد: عرق بين الحلقوم والعلباوين، والحبل: هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه".

وفي إضافة «الحبل» إلى «الوريد»، وجهان :

أحدهما: أن تكون الإضافة للبيان، كقولهم: بعير سانية.

الثاني: أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد، كما لو قيل: حبل العلياء مثلا.

قال ابن قتيبة:" "الوريدان": عِرْقَانِ بين الحُلْقوم والعِلْباوَيْنِ. والحبل هو: الوريد؛ فأضيف إلى نفسه: لاختلاف لفظَي اسمَيْه".

قال الفراء:" الحبلِ: هُوَ الوريد بعينه، أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه، والوريد: عرق بين الحلقوم والعلباوين".

وفي «حَبْلِ الْوَرِيدِ»، أقوال:

أحدها: أنه حبل معلق به القلب، قاله الحسن.

قال القرطبي:" وهذا تمثيل للقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة".

قال التستري:" هو العرق الذي في جوف القلب، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق. فإذا علمت ذلك، ينبغي أن تستحي منه، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس. فذكر العبد قيام الله ﷻ عليه، فتركه إلاَّ دخل قلبه من علم حاله ما لو

=

=

قسم ما أعطى ذلك العبد على أهل المدينة لسعدوا جميعًا وفازوا به، وقد أشار إليه مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب» ".

الثاني: أنه عرق في الحلق، قاله مجاهد.

قال أبو عبيدة:" وريداه في حلقه، والحبل: حبل العاتق، قال الشاعر :

كأَنْ ورِيدَاهُ رِشَاءا خُلْبِ

فأضافه إلى «الوريد» كما يضاف الحبل إلى العاتق".

عن مجاهد: "{حَبْلِ الْوَرِيدِ}، قال: الذي يكون في الحلق".

الثالث: ما قاله ابن عباس، عرق العنق، ويسمى حبل العاتق، وهما وريدان عن يمين وشمال، وسمي وريدًا، لأنه العرق الذي ينصب إليه ما يرد من الرأس.

قال الزجاج:" الوريد: عرق في باطن العنق، وهما وريدان".

قال الزمخشري:" الوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين، يردان من الرأس إليه. وقيل: سمى وريدا لأنّ الروح ترده".

وفي قوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]، وجوه من التفسير :

أحدها: ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه. حكاه الماوردي.

الثاني: ونحن أملك به من حبل وريده، مع استيلائه عليه. حكاه الماوردي-أيضا- .

الثالث: ونحن أملك به وأقرب إليه في المقدرة عليه من حبل الوريد. قاله الأخفش.

قال الثعلبي:" أي: أعلم به، وأقدر عليه {مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، لأنّ أبعاضه، وأجزاءه يحجب بعضها بعضا، ولا يحجب علم الله سبحانه عن جميع ذلك شيء".

=

=

الرابع: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده، الذي هو من نفسه، لأنه عرق يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب. روي معناه عن مقاتل.
قال مقاتل:" هو عرق خالط القلب فعلم الرب- تعالى- أقرب إلى القلب من ذلك العرق".

قال القرطبي:" وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض ولا يحجب علم الله شيء".

قال الحارث المحاسبي:" أي: بعلمه، فتكون الإحاطة بالعلم أقرب من عرق قلبه المتصل بقلبه".

قال الزمخشري:" {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ} مجاز، والمراد: قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه، كما يقال: الله في كل مكان، وقد جل عن الأمكنة. وحبل الوريد: مثل في فرط القرب، كقولهم: هو مني مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة : وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِيْ مِنَ الْوَرِيْدِ".

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، عبارة عن قدرة الله على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة، والعلم قد أحيط به، فالقرب هو بالقدرة والسلطان، إذ لا ينحجب عن علم الله باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب".

قال ابن كثير:" يعني: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} كما قال في المحتضر: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال

=

=

تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر- وهو القرآن- بإذن الله، ﷻ. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق".

قال الشَّافِعِي -في الآية-: "فأعلم- الله تعالى- عباده مع ما أقام عليهم من الحجة، بأن ليس كمثله أحد في شيء، أن علمه بالسر والعلانية واحد، فقال تعالى ذكره: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} الآية".

(تنبيه): التقرب أو القرب والدنو من صفات الله الفعلية الاختيارية، ثابتة له بالكتاب والسنة. و (القريب) اسم من أسمائه تعالى.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان} [البقرة: ١٨٦].

٢- وقوله تعالى: {فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب} [هود: ٦١]

الدليل من السنة:

١- حديث: (... من تقرب مني شبرا؛ تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا؛ تقربت منه باعا...) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنهما.

٢- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، ولكن تدعون سميعا قريبا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) أخرجه مسلم (٢٧٠٤).

=

=

٣- حديث عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا مرفوعا: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة) أخرجه مسلم (١٣٤٨)، ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة من السلف وأهل الحديث يعتقدون أن الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، وهو مستو على عرشه، بائن من خلقه، وأنه يتقرب إليهم حقيقة، ويدنو منهم حقيقة، ولكنهم لا يفسرون كل قرب ورد لفظه في القرآن أو السنة بالقرب الحقيقي؛ فقد يكون القرب قرب الملائكة، وذلك حسب سياق اللفظ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٥/ ٤٦٦): وأما دنوه وتقربه من بعض عباده؛ فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر. اهـ.

وقال في موضع آخر من الفتاوي (٦/ ١٤):... ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص الوارد، فإن دل على هذا؛ حمل عليه، وإن دل على هذا؛ حمل عليه، وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء اهـ.

لذا نقول قوله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) أكثر المفسرين على أن المراد به هو قربه سبحانه بملائكته الموكلين بحفظ أعمال العباد، ومن قال المراد بقربه تعالى فسره بقربه بعلمه، كما قيل في المعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ١٩- ٢٠): "إن هذه الآية لا تخلوا من أن يراد بها قربه سبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك، فإن أريد بها قرب الملائكة: فدليل ذلك من الآية قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

=

الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} ففسر ذلك القرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان، فيكون الله سبحانه قد أخبر بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان، {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكاتبين منه، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف ٨٠].

أما إذا كان المراد بالقرب في الآية قربه سبحانه، فإن ظاهر السياق في الآية دل على أن المراد بقربه هنا قربه بعلمه، وذلك لورود لفظ العلم في سياق الآية {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} ".

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٦٧): وأما قوله سبحانه: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عال عليهم وعلمه في كل مكان.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٣/ ٣٢٣): المثالان السابع والثامن، قوله تعالى: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} وقوله: {ونحن أقرب إليه منكم}. حيث فسر القرب فيهما بقرب الملائكة، والجواب: أن تفسير القرب فيهما بقرب الملائكة ليس صرفا للكلام عن ظاهره لمن تدبره.

أما الآية الأولى: فإن القرب مقيد فيها بما يدل على ذلك، حيث قال: {ونحن

=

=

أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} .. ففي قوله: إذ يتلقى دليل على أن المراد به قرب الملكين المتلقيين.

وأما الآية الثانية: فإن القرب فيها مقيد بحال الاحتضار، والذي يحضر الميت عند موته هم الملائكة، لقوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون}.

ثم إن في قوله: {ولكن لا تبصرون} دليلا بينا على أنهم الملائكة، إذ يدل على أن هذا القريب في نفس المكان ولكن لا نبصره، وهذا يعين أن يكون المراد قرب الملائكة لاستحالة ذلك في حق الله تعالى، بقي أن يقال: فلماذا أضاف الله القرب إليه، وهل جاء نحو هذا التعبير مرادا به الملائكة؟

فالجواب: أضاف الله تعالى قرب ملائكته إليه؛ لأن قربهم بأمره، وهم جنوده ورسله، وقد جاء نحو هذا التعبير مرادا به الملائكة، كقوله تعالى: {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} .. فإن المراد به قراءة جبريل القرآن على رسول الله ﷺ، مع أن الله تعالى أضاف القراءة إليه، لكن لما كان جبريل يقرؤه على النبي ﷺ، بأمر الله تعالى صحت إضافة القراءة إليه تعالى. وكذلك جاء في قوله تعالى: {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط} .. وإبراهيم إنما كان يجادل الملائكة الذين هم رسل الله تعالى.

وأيضا قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) الراجح فيها أن المراد أن النبي ﷺ دنى فتدلى من جبريل عليه السلام، قال الحافظ ابن كثير: هذا هو الصحيح في التفسير كما دل عليه كلام الصحابة رضي الله عنهم، وقد روى الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها {ثم دنا فتدلى - فكان قاب قوسين أو أدنى} [النجم: ٨- ٩] قالت ذاك جبريل. قال العلامة ابن القيم: لأن جبريل هو

=

=

الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله {ولقد رآه نزلة أخرى- عند سدرة المنتهى} [النجم: ١٣- ١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة، قالت عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين» رواه مسلم قال: ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك، ثم ساق سبعة وجوه دالة على ذلك، قال: وأما ما وقع في البخاري من رواية شريك عن أنس ودنا للجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فقد تكلم الناس فيه، وقالوا: إن شريكا غلط فيه وذكر فيه أمورا منكرة.

قوله تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملَكان، وهما المتلقيان {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} ".

قال ابن كثير:" يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}، أي: مترصد".

قال القرطبي:" أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة، وتوكيدا للأمر عليه".

قال مقاتل:" يعني: الملكين يتلقيان عمل ابن آدم ومنطقه عَنِ الْيَمِينِ ملك يكتب الحسنات {وَعَنِ الشِّمالِ} ملك {قَعِيدٌ}، يكتب السيئات فلا يكتب صاحب الشمال إلا بإذن صاحب اليمين، فإن تكلم ابن آدم بأمر ليس له ولا عليه اختلفا في الكتاب، فإذا اختلفا نوديا من السماء ما لم يكتبه صاحب السيئات فليكتبه صاحب الحسنات".

قال ابن قتيبة:" أي: يتلقيان القول ويكتبانه؛ يعني: المَلَكين".

قال الزجاج:" {الْمُتَلَقِيَانِ}: كاتباه الموكلانِ بِهِ، يَتَلقيان ما يعمله فيَثْبتانه".

=

=

قال الواحدي:" التلقي: الأخذ، ذكر ذلك عند قوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} [البقرة: ٣٧] ".

قال السمعاني:" معناه: اذكر يا محمد إذ يتلقى المتلقيان، وهما الملكان. والتقى: هو القبول والأخذ، فالملك يأخذ مله ونطقه فيثبته.. {عن اليمين وعن الشمال قعيد}، معناه: عن اليمين قاعد وعن الشمال قاعد. وفي بعض الأخبار: الصماخان مقعد الملكين، وهما جانبا الفم".

قال البغوي:" إذ يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه، عن اليمين وعن الشمال، أي: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. قعيد، أي: قاعد".

قال الزمخشري:" المعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به، إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك: وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد. وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله: من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ «إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما»

ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب، يعنى: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به، والتلقي: التلقن بالحفظ والكتبة".

=

=

عن مجاهد: "{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}، قال: عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات".

وقال مجاهد:" ملك عن يمينه، وآخر عن يساره، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشرّ".

وقال مجاهد:" مع كل إنسان مَلكان: ملك عن يمينه، وملك عن يساره؛ قال: فأما الذي عن يمينه، فيكتب الخير، وأما الذي عن يساره فيكتب الشر".

قال إبراهيم التيمي:" صاحب اليمين أمِير أو أمين على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمسك لعله يتوب".

قال سفيان: "بلغني أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا أذنب قال له. لا تعجل لعله يستغفر".

عن هشام الحمصي:" أنه بلغه أن الرجل إذا عمل سيئة قال كاتب اليمين لصاحب الشمال: اكتب، فيقول: لا بل أنت اكتب، فيمتنعان، فينادي مناد: يا صاحب الشمال اكتب ما ترك صاحب اليمين".

وفي معنى: قوله تعالى: {قَعِيدٌ} [ق: ١٧]، وجهان:

أحدهما: أن «قَعِيدٌ»، بمعنى: قاعدٍ؛ كما يقال: «قدير» بمعنى: قادر. قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: "ويكون بمنزلة: أكِيل وشَرِيب ونديم، أي: مؤاكلٍ ومُشارب ومُنادم. كذلك: «قعيد» أي: مُقاعد".

قال الزمخشري:" «القعيد»: القاعد، كالجليس بمعنى: الجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه".

الثاني: المرصد الحافظ، قاله مجاهد. وبه قال ابن كثير.

عن مجاهد، قوله: "{قَعِيدٌ}، قال: رَصَد".

قال ابن كثير:" أي: مترصد".

=

=

قال البغوي:" قيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم".

ولأهل اللغة في إفراد لفظ «قعيد»، وجوه:

أحدها: أن المعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، ثم حذف. وهذا مذهب سيبويه، والكسائي.

قال الزجاج:" المعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فدل أَحَدُهما على الآخر، فحذف المدلول عليه، ومثله قَوْلُ الشاعِرِ :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْ... دَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض، ومثله أيضًا :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوالِدِي... بَرِيئًا ومِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

المعنى: رماني بأمر كنت منه بريئًا، ووالدي بريئًا منه".

الثاني: أن «قعيد» واحد يؤدي عن اثنين، وأكثر منهما، كما قال جل وعز: {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [غافر: ٦٧]. وهذا مذهب الأخفش، والفراء.

الثالث: إن التقدير في «قعيد»، أن يكون ينوى به التقديم، أي: عن اليمين قعيد، ثم عطف عليه: وعن الشمال. وهذا قول المُبَرِّد.

قال النحاس: "وهذا بين حسن ومثله: {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة: ٦٢]".

الرابع: أن يكون «قعيد» بمعنى: الجماعة، كما يستعمل العرب في فعيل، قال جل وعز: {وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ} [التحريم: ٤]. حكاه النحاس.

عن معمر، قال: "تلا الحسن: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧] فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما ، عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما عن شمالك

=

=

فيحفظ سيئاتك ، فاملل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء: ١٣] حتى بلغ: {حَسِيبًا} [النساء: ٦]: «عدل والله لك من جعلك حسيب نفسك».

قال السمعاني:" واعلم أن ملك اليمين يكتب الحسنات، وملك لشمال يكتب السيئات، واليمين محبوب الله ومختاره، ومنه ما روي عن النبي: «أنه كان يحب التيمن في كل شيء، حتى في ترجله وتنعله وطهوره». ومن هذا إذا دخل المسجد يبدأ باليمين ليقدمها إلى موضع الخير، وإذا خرج يبدأ بالشمال ليكون مكث اليمين في موضع الخير أكثر وإن قل، وعلى عكس هذا دخول موضع الخلاء والخروج منه".

قوله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما يلفظ الإنسان من قول فيتكلم به، إلا عندما يلفظ به من قول رقيب عَتيد، يعني حافظ يحفظه، عتيد مُعَدّ".

قال الزجاج:" {عَتِيدٌ}، أي: ثابت لازم".

قال الكلبي: "حاضر معه يحفظ عمله".

قال ابن أبي زمنين:" أي: حافظ حاضر يكتبان كل ما يلفظ به".

قال ابن كثير:" {مَا يَلْفِظُ}، أي: ابن آدم {مِنْ قَوْلٍ}، أي: ما يتكلم بكلمة {إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠- ١٢] ".

قال الثعلبي:" {عَتِيدٌ}: حاضر، وهو بمعنى: المعتد من قوله: أَعْتَدْنا، والعرب تعاقب بين «التاء» و «الذال» لقرب مخرجهما، فيقول: اعتددت، وأعذدت، وهرذ،

=

=

وهرت، وكبذ، وكبت، ونحوهما، قال الشاعر :

لئن كنت مني في العيان مغيبا... فذكرك عندي في الفؤاد عتيد".

وفي قوله تعالى: {إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ} [ق: ١٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه المتتبع للأمور. حكاه الماوردي.

الثاني: أنه الحافظ، قاله السدي، ومقاتل، وسهل بن عبد الله.

قال سهل:" أي: حافظ حاضر لا يغيب عنه، ولا يعلم الملك ما في الضمير من الخير والشر إلا عند مساكنة القلوب إياه، فيظهر أثر ذلك على الصدر من الصدر إلى الجوارح نور ورائحة طيبة عند العزم على الخير، وظلمة ورائحة منتنة عند العزم على الشر، والله يعلم ذلك منه على كل حال، فليتقه بقوله: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١] ".

الثالث: أنه الشاهد، قاله الضحاك.

قال ابن عباس:" جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار، يحفظان عليه عمله، ويكتبان أثره".

واختلف فيما يكتب الملكان على قولين:

أحدها: أنهما يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وهو قول ابن عباس-في رواية-، والحسن، وقتادة، وابن زيد.

قال ابن زيد:" جعل معه من يكتب كلّ ما لفظ به، وهو معه رقيب".

قال ابن عباس:" يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت جئت، رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره، فذلك قوله: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد: ٣٩] ".

قال الجصاص:" ومن علم أنه مؤاخذ بكلامه قل كلامه فيما لا يعنيه".

=

=

وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات -رَحِمَهُ اللهُ-".

الثاني: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. وهذا قول ابن عباس -في رواية أخرى، وعكرمة.

عن عكرمة عن ابن عباس، قال: "إنما يكتب الخير والشر لا يكتب يا غلام أسرج الفرس، ويا غلام اسقني الماء".

قال ابن كثير:" وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} ".

عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان} يعني ابتدأنا خلقه وأوجدناه وجعلنا له عقلًا وسمعًا وبصرًا وتفكيرًا وحديثًا للنفس، {ونعلم ما توسوس به نفسه} يعني ونحن نعلم ما توسوس به نفسه، أي ما تحدثه به نفسه، دون أن ينطق به، فالله تعالى عالم به، بل إن الله عالم بما سيحدث به نفسه في المستقبل، والإنسان نفسه لا يعلم ما يُحدث به نفسه في المستقبل، والله يعلم ما توسوس به نفسك غدًا وبعد غدٍ، وإلى أن تموت وأنت لا تعلم وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يُغضبه وبما يكره. فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه، لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحيا من ربنا ﷻ أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!:

=

=

{ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}، حبل الوريد هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، يسمى الوريد، ويسمى الودج، وجمعه أوداج، ويضرب المثل بهما في القرب، أقرب شيء إلى قلبك هو حبل الوريد، هذا أقرب إلى المخ، وأقرب من كل شيء فيه الحياة هما الوريدان. واختلف المفسرون في قوله: {ونحن أقرب إليه} هل المراد قرب ذاته- جل وعلا- أو المراد قرب ملائكته؟.

والصحيح أن المراد قرب ملائكته. ووجه ذلك أن قرب الله تعالى صفة عالية لا يليق أن تكون شاملة لكل إنسان، لأننا لو قلنا: إن المراد قرب ذات الله لكان قريبًا من الكافر وقريبًا من المؤمن. لأنه قال: {خلقنا الإنسان}، أي إنسان المؤمن والكافر {ونحن أقرب إليه} أي إلى هذا الإنسان الذي خلقناه من حبل الوريد، فإذا قلنا الآية الشاملة، وقلنا أن القرب هنا القرب الذاتي صار الله قريبًا بذاته من الكافر، وهذا غير لائق، بل الكافر عدو لله ﷻ لكن الراجح ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد بالقرب هنا قرب الملائكة، أي أقرب إليه بملائكتنا، ثم استدل لقوله بقوله تعالى: {إذ يتلقى المتلقيان} فإذ بمعنى حين، وهي متعلقة بالقرب، أي أقرب إليه في هذا الحال حين يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.

فإن قال قائل: كيف يضيف الله القرب المسند إليه والمراد به الملائكة ألهذا نظير؟.

قلنا: نعم، له نظير. يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه} قرأناه المراد بذلك جبريل، ونسب الله فعل جبريل إلى نفسه؛ لأنه رسوله، كذلك الملائكة نسب الله قربهم إليه لأنهم رسله، كما قال تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا

=

=

لديهم يكتبون} . وما اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصواب.

فإن قال قائل: وهل الله تعالى قريب من المؤمن على كل حال؟.

قلنا: بل في بعض الأحوال، قال النبي ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». فهذا قربٌ في حال الدعاء، مصداق ذلك قوله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون} . كذلك هو قريب من المؤمن في حال السجود، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد». وعلى هذا فيكون المؤمن قريبًا من الله تعالى حال عبادته لربه، وحال دعائه لربه، أما القرب العام فإن المراد به القرب بالملائكة على القول الراجح.

وقوله: {إذ يتلقى المتلقيان} هما ملكان بين الله مكانهما من العبد، فقال: {عن اليمين وعن الشمال قعيد} ، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال، لأنهما ليسا على كتفيه، بل هما في مكان قريب، أقرب من حبل الوريد، ولكن قد يقول قائل ملحد: أنا ألتمس حولي لا ألمس أحدًا، أين القعيد؟ فنقول: هذا من علم الغيب الذي لا تدركه عقولنا، وعلينا أن نصدق به ونؤمن به، كما لو لمسناه بأيدينا، أو شاهدناه بأعيننا، أو غير ذلك من أدوات الحس، علينا أن نؤمن بذلك، لأنه قول الله ﷻ {عن اليمين وعن الشمال قعيد} ، قاعد مستقر، أحدهما يكتب الحسنات، والثاني يكتب السيئات، هذا المكتوب عرضة للمحو والإثبات، لأن المكتوب الذي بأيدي الملائكة عرضة للمحو والإثبات لقول الله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} . يعني أصل أم الكتاب هو لوح محفوظ مكتوب فيه ما يستقر عليه العبد، فما يستقر عليه العبد مكتوب، لكن ما كان قابلًا للمحو والإثبات في أيدي الملائكة، قال الله ﷻ: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات} . حسنة تذهب السيئة وتمحوها بعد أن

=

=

كتبت، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أما أم الكتاب الأصل مكتوب فيها ما يستقر عليه العبد، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستقر على الإيمان والثبات في الدنيا والآخرة.

{ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} {ما يلفظ} : ما هنا نافية، و {قول} مجرورة بمن الزائدة إعرابًا المفيدة معنىً، لكن تأتي حروف الجر أحيانًا زائدة في الإعراب، لكنها تفيد معنى التوكيد، ولهذا إذا اقترن المنفي بمن الزائدة، أو بالباء الزائدة مثل {ومآ أنا بظلام للعبيد} فإنه أوكد من النفي المجرد من حرف الجر الزائد، {ما يلفظ من قول} إذا جعلنا من زائدة إعرابًا مفيدة معنىً ففائدة معناها التوكيد على العموم أي: أي قول يلفظه الإنسان لديه رقيب عتيد، {رقيب} مراقب ليلًا ونهارًا، لا ينفك عن الإنسان، {عتيد} حاضر لا يمكن أن يغيب ويوكل غيره، فهو قاعد مراقب حاضر، لا يفوته شيء {من قول} أي قول نقوله، كل قول لأن {من} هذه زائدة و {قول} نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي قول، وظاهر الآية الكريمة أن القول مهما كان يكتب، سواء كان خيرًا أم شرًّا، أم لغوًا يكتب، لكن يحاسب على ما كان خيرًا أو شرًّا، ولا يلزم من الكتابة أن يحاسب الإنسان عليها، وهذا ظاهر اللفظ، وهو أحد القولين لأهل العلم.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يكتب إلا الحسنات والسيئات فقط، أما اللغو فلا يكتب.

والقول الأول أولى، وهو العموم، أما النتيجة فواحدة، لأنه حتى على القول بأن الكاتب يكتب كل شيء يقولون: إنه لا يحاسب إلا على الحسنات والسيئات، لكن كوننا نقول بالعموم هو المطابق لظاهر الآية، ثم هو الذي فيه الدليل على أن المَلَكين لا يتركان شيئًا، مما يدل على كمال عنايتهما بما ينطق به الإنسان، وبناءً على ذلك يجب علينا أن نحترز غاية الاحتراز من أقوال اللسان، فكم زلة لسانية

=

=

أوجبت الهلاك- والعياذ بالله- ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الرجل الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحبطت عملك» قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنه تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

احذر لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

احذر آفات اللسان، إن النبي ﷺ جعل حفظ اللسان مَلاك الأمر كله، فقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أفلا أدلك على ملاك ذلك كله» ؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا». لا تطلقه، لا تتكلم، قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» فالمؤمن يجب أن يحذر لسانه فإنه آفة عظيمة، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

وحينئذ نعرف أن الصمت مفضّل على الكلام؛ لأن الكلام قد لا يدري الإنسان أخيرًا هو أم شرًا، ثم إني أقول: الكلمة إذا أطلقتها وخرجت من فمك فهي كالرصاصة تطلقها، لا يمكنك أن تمنعها إذا خرجت من فوهة البندقية، إذا انطلقت تفسد أو تصلح، كذلك الكلمة، فالعاقل يمنع لسانه ولا يتكلم إلا بخير، والخير إما في ذات المتكلم به، وإما في غيره، يعني قد يكون الكلام ليس خيرًا لا بنفسه، لكنه خير من جهة آثاره، قد يتكلم الإنسان بكلام لغو ليس أمرًا بالمعروف ولا نهيًا عن منكر، وليس إثمًا ووزرًا، لكن يتكلم من أجل أن يفتح الباب للحاضرين، لأنه أحيانًا تستولي على المجلس الهيبة ولا أحد يتكلم، فيبقى الناس كلهم في غم، فيتكلم من أجل أن يفتح الباب للناس، وتنشرح صدورهم، ويحصل تبادل الكلام الذي قد يكون نافعًا، نقول: هذا الكلام الذي تكلم وفتح به باب

=

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩).

{وَجَاءَتْ سَكْرَة الْمَوْت} غَمْرَته وَشِدَّته {بِالْحَقِّ} مِنْ أَمْر الْآخِرَة حَتَّى الْمُنْكِر لَهَا عِيَانًا وَهُوَ نَفْس الشِّدَّة {ذَلِكَ} أَيْ الْمَوْت {مَا كُنْت مِنْهُ تَحِيد} تَهْرَب وَتَفْزَع.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠).

{وَنُفِخَ فِي الصُّور} لِلْبَعْثِ {ذَلِكَ} أَيْ يَوْم النَّفْخ {يَوْم الْوَعِيد} لِلْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١).

{وَجَاءَتْ} فِيهِ {كُلّ نَفْس} إلَى الْمَحْشَر {مَعَهَا سَائِق} مَلَك يَسُوقهَا إلَيْهِ {وَشَهِيد} يَشْهَد عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُل وَغَيْرهَا وَيُقَال لِلْكَافِرِ.

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢).

{لَقَدْ كُنْت} فِي الدُّنْيَا {فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا} النَّازِل بِك الْيَوْم {فَكَشَفْنَا عَنْك غِطَاءَك} أَزَلْنَا غَفْلَتك بِمَا تُشَاهِدهُ الْيَوْم {فَبَصَرك الْيَوْم حَدِيد} حَادّ تُدْرِك بِهِ مَا أَنْكَرْته فِي الدنيا[1].

=

الكلام وأزال عن الناس الغم يعتبر خيرًا لغيره، وهذا داخل إن شاءالله في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

(١) قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: ١٩]، أي:" وجاءت شدة الموت وغَمْرته بالحق الذي لا مردَّ له ولا مناص".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: وجاءت- أيها الإنسان- سكرة الموت بالحق، أي:

=

=

كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه".

قال الزجاج:" أي: جاءت السكرة التي تدل الإنسانَ على أنه ميت. {بِالْحَقِّ}، أي: بالمَوْتِ الذي خلق له".

قال النحاس:" {وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْت} أي: شدّته وغلبته على فهم الإنسان حتّى يكون كالسكران من الشراب أو النوم. {بِالْحَقِّ}، أي: بأمر الآخرة الذي هو حقّ حتّى يتبيّنه عيانا".

وفي قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: ١٩]، وجهان من التفسير :

أحدهما: وجاءت سكرة الموت وهي شدّته وغلبته على فهم الإنسان، كالسكرة من النوم أو الشراب بالحقّ من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه.

الثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت.

قال الزمخشري:" «سكرة الموت»: شدّته الذاهبة بالعقل. و «الباء» في {بالحق} للتعدية، يعنى: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال: من سعادة الميت وشقاوته، وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من أن {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت} [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون: ٢٠]، أى: وجاءت ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر. أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ} [الأنعام: ٧٣] ".

وفي قراءة أبي بكر وابن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ الحَقّ بالمَوْت». وفيها وجهان من التفسير :

أحدهما: وجاءت سكرة الله بالموت، فيكون الحقّ هو الله تعالى ذكره.

الثاني: أن تكون السكرة هي الموت أُضيفت إلى نفسها، كما قيل: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ

=

=

حَقُّ الْيَقِينِ} . ويكون معنى الكلام: وجاءت السكرةُ الحق بالموت.
قال الفراء:" فإن شئت أردت {بالحق} أَنَّهُ الله ﷻ، وإن شئت جعلت السكرة هِيَ الموت، أضفتها إلى نفسها كأنك قلت: جاءت السكرة الحقّ بالموت، وقوله: «سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» يَقُولُ: بالحق الذي قَدْ كَانَ غير متبين لهم من أمر الآخرة، ويكون الحق هُوَ الموت، أي جاءت سكرة الموت بحقيقة الموت".
قوله تعالى: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩]، أي:" ذلك ما كنت منه -أيها الإنسان- تهرب وتروغ".
قال الطبري:" يقول: هذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحقّ هو الشيء الذي كنت تهرب منه، وعنه تروغ".
قال النحاس:" أي: تلك السكرة ما كنت منه تهرب".
قال ابن كثير:" أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك".
وقال الحسن: "هو الكافر لم يكن شيء أبغض إليه من الموت".
وفي معنى قوله تعالى: {تَحِيدُ} [ق: ١٩]، وجهان:
أحدهما: أنه الفرار، قاله الضحاك، ومقاتل.
الثاني: العدول، قاله السدي. ومنه قول الشاعر:
ولقد قلت حين لم يك عنه... لي ولا للرجال عنه محيد.
وفي نوع «ما» في قوله: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} قولان :
أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد- بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر- قد حل بك ونزل بساحتك.

=

الثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض بدَيْن، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، ديني. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات".

قال ابن كثير:" ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت".

روي عن أبي وائل، قال: "لما كان أبو بكر رضي الله عنه يقضي، قالت عائشة رضي الله عنها هذا، كما قال الشاعر : إذَا حَشْرَجَتْ يَوْما وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال الله عز وجل: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} ".

قال عبد الله بن مليكة: "صحبت ابن عباس رضي الله عنه من مكة إلى المدينة، فكنا إذا نزلنا منزلا قام شطر الليل والناس نيام، ولقد رأيته ذات ليلة يقرأ: {وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}، فظل يكررها وينشج حتى طلع عليه الفجر".

عن عمر بن عبد العزيز -من طريق سعيد بن أبي عروبة- أنه قال لابنه: "اقرأ. فقال: ما أقرأ؟ قال: سورة ق. فقرأ، حتى إذا بلغ: {وجاءت سكرة الموت بالحق} بكى، ثم قال: اقرأ، يا بني. قال: ما أقرأ؟ قال: سورة ق. حتى إذا بلغ ذكر الموت بكى أيضا بكاء شديدا، ففعل ذلك مرارا".

قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [ق: ٢٠]، أي:" ونُفخ في «القرن» نفخة البعث الثانية".

قال الثعلبي:" يعني: نفخة البعث".

عن قتادة: "{ونفخ في الصور}، أي: في الخلق".

=

عن مجاهد:" {ونفخ في الصور}، قال: كهيئة البوق".

عن مجاهد: "{الصور}: البوق".

قال مجاهد:" هو القرن، صاحبه آخذ به، فقبض مجاهد قبضتين بكفيه على طف القرن، بين طرفيه، وبين قدر قبضة أو نحوها قد برك على ركبة إحدى رجليه، فأشار فبرك على ركبة يسراه مقعيا على قدمي عقبه تحت فخذه وإليته وأطراف أصابعه في التراب، قد نصب ركبته اليمنى ووضع قدمها في التراب".

قال عكرمة:" الصور مع إسرافيل فيه أرواح كل شيء تكون فيه، ثم ينفخ فيه الصاعقة فإذا نفخ نفخة البعث قال: الله: بعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده وداره... أعظم من سبع سموات ومن الأرض قال: فخلق الصور على في إسرافيل وهو شاخص بصره متى يؤمر بالنفخ في الصور".

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: "أن أعرابيا سأله عن الصور، قال: «قرن ينفخ فيه» ".

قال الزجاج: "قال أهل اللغة: الصور جمع صورة. والذي جاء في التفسير أن الصور قرن يَنْفُخ فيه إسرافيل- والله أعلم- إلا إن حملته أنه عند ذلك النفْخ يكون بعث العباد ونشرهم".

وفي الحديث عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم وحنا جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ قيل قلنا يا رسول الله ما نقول يومئذ قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا.

قال الطبري:" يقول: هذا اليوم الذي ينفخ فيه هو يوم الوعيد الذي وعده الله الكفار أن يعذّبهم فيه".

قال النحاس:" أي: ما وعد الله ﷻ الكفار وأصحاب المعاصي بالنار".

قال الثعلبي:" الذي وعده الله سبحانه للكفّار يلعنهم فيه".

=

=

قال مقاتل:" يعنى: بالوعيد العذاب في الآخرة".

قال ابن أبي زمنين: {الوعيد}، " يعني: الموعود".

قوله تعالى: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: ٢١]

قال الطبري:" وجاءت يوم ينفخ في الصور كلّ نفس ربها، معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ".

قال ابن كثير:" أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة".

أما «السائق»، ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه ملك يسوقه إلى المحشر، قاله أبو هريرة، وابن عباس، والضحاك، وابن زيد، وآخرون.

قال أبو هريرة:" السائق: الملك".

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه:" السائق يسوقها إلى أمر الله".

قال مجاهد:" المَلَكان: كاتب".

قال مجاهد:" سائق يسوقها إلى أمر الله".

قال قتادة:" سائق يسوقها إلى حسابها".

عن الحسن والربيع بن أنس في قوله: {سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، قالا:" سائق يسوقها".

عن ابن عباس، والضحاك، قالا:" السائق من الملائكة".

قال ابن زيد:" ومَلك يسوقه إلى محشره حتى يوافي محشره يوم القيامة".

الثاني: أنه أمر من الله يسوقه إلى موضع الحساب، حكاه الماوردي عن الضحاك.

الثالث: أن السائق هو الذي كان يكتب عليه السيئات. قاله الكلبي.

الرابع: أن السائق قرينها من الشياطين، سمي سائقًا؛ لأنه يتبعها وإن لم يحثها ويدفعها. وكان رسول الله ﷺ يسوق أصحابه. قاله عبد الله بن مسلم.

=

=
وأما «الشهيد»، ففيه أربعة أقوال:
أحدها: أنه ملك يشهد عليه بعمله، وهذا قول عثمان بن عفان، وأبي هريرة، والحسن، وابن زيد. وآخرين.
قال أبو هريرة:" والشهيد: العمل".
قال سهل:" يعني: كتبة في الدنيا تسوقه إلى المحشر".
قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:"والشهيد يشهد عليها بما عملت".
قال ابن زيد:" مَلك وكّل به يحصي عليه عمله".
قال مجاهد وقتادة:" وشاهد يشهد عليها بما عملت".
عن الحسن والربيع بن أنس: قالا:" وشاهد يشهد عليها بعملها".
الثاني: أنها الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله بنفسه، قاله أبو هريرة، ورواه العوفي عن ابن عبّاس.
وفي رواية عن ابن عباس:" الشهيد: شاهد عليه من نفسه".
الثالث: أن الشاهد من أنفسهم: الأيدي والأرجل، والملائكة أيضا شهداء عليهم. قاله الضحاك.
الرابع: أن الشهيد هو الذي كان يكتب الحسنات. قاله الكلبي.
واختلف أهل التفسير في المعنيّ بهذه الآيات، على أقوال:
أحدها: أن المعني بها: النبيّ ﷺ. قاله زيد بن أسلم.
الثاني: عنى أهل الشرك. وهذا قول صالح بن كيسان، والضحاك.
الثالث: أنها عامة في المسلم والكافر. وهذا قول حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.، وحكاه الماوردي عن الجمهور.
عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهريّ، قال: "سألت زيد بن أسلم، عن قوله الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} ... الآية، إلى قوله: {سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، فقلت له:
=

من يراد بهذا؟ فقال رسول الله ﷺ، فقلت له رسول الله؟ فقال: ما تنكر؟ قال الله ﷻ: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى}، قال: ثم سألت صالح بن كيسان عنها، فقال لي: هل سألت أحدا؟ فقلت: نعم، قد سألت عنها زيد بن أسلم، فقال: ما قال لك؟ فقلت: بل تخبرني ما تقول، فقال: لأخبرنك برأيي الذي عليه رأيي، فأخبرني ما قال لك؟ قلت: قال: يراد بهذا رسول الله ﷺ، فقال: وما علم زيد؟ والله ما سن عالية، ولا لسان فصيح، ولا معرفة بكلام العرب، إنما يُراد بهذا الكافر، ثم قال: اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك، قال: ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، فقال لي مثل ما قال صالح: هل سألت أحدا فأخبرني به؟ قلت: إني قد سألت زيد بن أسلم وصالح بن كيسان، فقال لي: ما قالا لك؟ قلت: بل تخبرني بقولك، قال: لأخبرنك بقولي، فأخبرته بالذي قالا لي، قال: أخالفهما جميعا، يريد بها البرّ والفاجر، قال الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، قال: فانكشف الغطاء عن البرّ والفاجر، فرأى كلّ ما يصير إليه".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بها البرّ والفاجر، لأن الله أتبع هذه الآيات قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحقّ {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا".

قال ابن عطية:" {كُلُّ نَفْسٍ} يعم الصالحين، فإنما معناه: وشهيد بخيره، وشره، ويقوى في: شَهِيدٌ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم

=

القيامة». وكذلك يشهد بالشر الملائكة والبقاع والجوارح".

قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]

قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [ق: ٢٢]، أي:" لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد".

وفي المعني بقوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [ق: ٢٢]، وجوه:

أحدها: أنه الكافر، كان في غفلة من عواقب كفره، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسفيان.

الثاني: أنه النبي ﷺ، كان في غفلة عن الرسالة مع قريش في جاهليتهم، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. قاله عبد الرحمن بن زيد. وضعّفه ابن كثير.

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، قال: هذا رسول الله ﷺ، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد، كنت مع القوم في جاهليتهم. {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} ".

قال الطبري:" وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله ﷺ أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به، فكشف عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية، فنفذ بصره بالإيمان وتبيَّنه حتى تقرّر ذلك عنده، فصار حادّ البصر به".

الثالث: يريد به البرّ والفاجر، وكُشِف الغطاء عن البرّ والفاجر، فرأى كلّ ما يصير

=

=

إليه، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. قاله الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس. وبه قال الطبري.

قال السمعاني:" يقال: في كل غافل".

الرابع: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد، لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية. أفاده الماوردي.

قال النحاس:" وأولى ما قيل في الآية أنها على العموم للبرّ والفاجر يدلّ على ذلك: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}، فهذا عامّ لجميع الناس برّهم وفاجرهم، فقد علم أنّ معنى: {وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} وجاءتك أيّها الإنسان سكرة الموت ثم جرى الخطاب على هذا في {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا}، أي: لقد كنت أيّها الإنسان في غفلة مما عاينت فإن كان محسنا ندم إذ لم يزدد، وإن كان مسيئا ندم إذ لم يقلع هذا لما كشف عنهما الغطاء، فبصرك اليوم نافذ لما عاينت".

قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} [ق: ٢٢]، أي:" فكشفنا عنك غطاءك الذي غطّى قلبك، فزالت الغفلة عنك".

قال ابن قتيبة:" أي: أريناك ما كان مستورا عنك في الدنيا".

قال الطبري:" يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك".

قال النحاس:" أي: فبصّرناك".

قال السمعاني:" أي: كشفنا عنك ما غشيك وغطى سمعك وبصرك وعقلك، حتى لم تسمع ولم تبصر ولم تعقل الحق، وهو في معنى قوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِر} [مريم: ٣٨] ".

قال الزجاج:" هذا مَثَلٌ، المعنى: كنت بمنزلة من عليه غطاء وعلى قلبه غشاوة".

=

=

قال الزمخشري:" جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق. ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته: حديدا لتيقظه".

وفي قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} [ق: ٢٢]، وجوه:

أحدها: أنه إذا كان في بطن أمه فولد، قاله السدي.

الثاني: إذا كان في القبر فنشر، وهذا معنى قول ابن عباس.

قال ابن عباس:" الحياة بعد الموت".

قال قتادة:" عاين الآخرة".

الثالث: أنه وقت العرض في القيامة، وهذا معنى قول مجاهد.

قال مجاهد:" كشف الغطاء عنه يوم القيامة".

وقال مقاتل:" يعني: عن غطاء الآخرة".

الرابع: أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة، وهذا معنى قول ابن زيد.

قوله تعالى: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، أي:" فبصرك اليوم فيما تشهد قوي شديد".

قال الطبري:" يقول: فأنت اليوم نافذ البصر، عالم بما كنت عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر: إذا كان ذا علم به، وله بهذا الأمر بصر: أي علم".

وفي قوله تعالى: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، وجهان:

الوجه الأول: بصيرة القلب، لأنه يبصر بها من شواهد الأفكار، ونتائج الاعتبار ما تبصر العين ما قابلها من قبلها من الأشخاص والأجسام. قاله الفراء، والزجاج، والنحاس.

=

=

قال الفراء:" يَقُولُ: قَدْ كنت تُكذب، فأنت اليوم عالم نافذ البصر، والبصر هاهنا: هو العلم ليس بالعين".

قال الزجاج:" أي: فعلمك بما أنت فيه نافذٌ، ليس يراد بهذا البصر من- بَصَرِ العين- كما تقول: فلان بصير بالنحو والفقه، تُرِيدُ عَالِمًا بِهِمَا، ولم ترد بصر العَيْن".

قال النحاس:" أي: فعلمك نافذ. والبصر -هاهنا- بمعنى: العلم".

قال سهل:" يعني: بصر قلبك نافذ في مشاهدة الأحوال كلها".

وعلى هذا التفسير ففي قوله: {حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، وجهان :

أحدهما: سريع كسرعة مور الحديد.

الثاني: صحيح كصحة قطع الحديد.

الوجه الثاني: أن المراد به بصر العين وهو الظاهر، فعلى هذا في قوله: {حَدِيدٌ}، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: شديد، قاله الضحاك.

عن الضحاك: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} قال: يقول: شديد".

الثاني: بصير، قاله ابن عباس.

الثالث: أي: فأنت ثاقب البصر لمّا كشف عنك الغطاء. قاله ابن قتيبة.

وماذا يدرك البصر؟ فيه خمسة وجوه:

أحدها: يعاين الآخرة، قاله قتادة.

الثاني: لسان الميزان، قاله مجاهد، والضحاك.

عن الضحاك بن مزاحم، في قوله: {فبصرك اليوم} قال: كلسان الميزان {حديد} قال: حديد النظر؛ شديد".

قال مجاهد:" يعني: نظرك إلى لسان ميزانك، حين توزن حسناتك وسيئاتك".

=

=

قال السمعاني: "ومنه حدة البصر".

قال الطبري:" وأحسبه أراد بذلك أن معرفته وعلمه بما أسلف في الدنيا شاهد عدل عليه، فشبَّه بصره بذلك بلسان الميزان الذي يعدل به الحقّ في الوزن، ويعرف مبلغه الواجب لأهله عما زاد على ذلك أو نقص، فكذلك علم من وافي القيامة بما اكتسب في الدنيا شاهد عليه كلسان الميزان".

الثالث: ما يصير إليه من ثواب أو عقاب، وهو معنى قول ابن عباس.

الرابع: ما أمر به من طاعة وحذره من معصية، وهو معنى قول ابن زيد.

الخامس: العمل الذي كان يعمله في الدنيا، قاله الحسن.

وقال مقاتل:" يعني: يشخص بصره، ويديم النظر فلا يطرف حتى يعاين في الآخرة ما كان يكذب به في الدنيا".

قال يحيى بن سلام:" أبصر حين لم ينفعه البصر".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد}، السكرة هنا: هي تغطية العقل كالإغماء ونحوه، وقد قال النبي ﷺ: «إن للموت سكرات». وقوله: {سكرة الموت} مفرد مضاف، فيشمل الواحدة أو أكثر، وقوله {بالحق} : أي أن الموت حق كما جاء في الحديث: «الموت حق، والجنة حق، والنار حق» فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضًا بحق اليقين، فإن الإنسان عند الموت يشاهد ما تُوُعِّد به، وما وُعِدَ به؛ لأنه إن كان مؤمنًا بُشِّر بالجنة، وإن كان كافرًا بُشِّر بالنار- أعاذنا الله منها- {ذلك} أي الموت {ما كنت منه تحيد} اختلف المفسرون في (ما) هل هي نافية؟ فيكون المعنى: ذلك الذي لا تحيد منه، ولا تنفك منه، أو أنها موصولة؟ فيكون المعنى ذلك الذي كنت تحيد منه، ولكن لا مفر منه، فعلى الأول يكون معنى الآية، ذلك الذي لا تحيد منه، بل لابد منه، وقد قال الله تعالى: {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملقيكم}.

=

=

وتأمل يا أخي: {قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملقيكم} ولم يقل فإنه يدرككم، وما ظنك بشيء تفر منه وهو يلاقيك، إن فرارك منه يعني دنوك منه في الواقع فلو كنت فارًّا من شيء وهو يقابلك فكلما أسرعت في الجري أسرعت في ملاقاته، ولهذا قال: {فإنه ملقيكم} وفي الآية الأخرى: {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة}، لأنه ذكر في هذه الآية أن الإنسان مهما كان في تحصنه فإن الموت سوف يدركه على كل حال، وهنا يقول تعالى: {ذلك ما كنت منه تحيد}، وعلى المعنى الثاني، أي: ذلك الذي كنت تحيد منه وتفر منه في حياتك، قد وصلك وأدركك، وعلى كل حال ففي الآية التحذير من التهاون بالأعمال الصالحة، والتكاسل عن التوبة، وأن الإنسان يجب أن يبادر، لأنه لا يدري متى يأتيه الموت، ثم قال: {ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد} النافخ في الصور هو ملك، وَكَّله الله تعالى به يسمى إسرافيل، والنفخ في الصور نفختان:

الأولى: نفخة الصعق فيسبقها فزع، ثم صعق.

والثانية: نفخة البعث. وبينهما أربعون، وقد سئل أبو هريرة راوي الحديث: ما المراد بالأربعين؟ فقال: أبيت. أي أني لا أدري ما المراد بالأربعين التي ذكرها النبي ﷺ، المهم أن المراد بقوله: {ونفخ في الصور} النفخة الثانية بدليل قوله: {ذلك يوم الوعيد} وهذا يعني أنه بهذه النفخة صار يوم القيامة الذي هو يوم الوعيد.

فإن قال قائل: يوم القيامة يوم الوعيد للكفار، ويوم الوعد للمؤمنين، فلماذا ذكر الله تعالى هنا الوعيد دون الوعد؟

فالجواب: لأن السورة كلها مبدوءة بتكذيب المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام، فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد {ق والقرءان المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر} إلخ.. فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد

=

=

ذكر الله تعالى أصحاب الجنة فيما بعد، لأن القرآن مثاني.

{وجاءت كل نفس معها سآئق وشهيد} جاءت يعني يوم القيامة كل نفس، أي كل إنسان كل بشر. ويحتمل أن يكون معنى كل نفس من بني الإنسان ومن الجن أيضًا، ممن يلزمون بالشرائع، لأننا إن نظرنا إلى السياق وهو قوله: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} الخ..

قلنا: المراد بالنفس هنا نفس الإنسان، وإذا نظرنا إلى أن الشرائع تلزم الجن كما تلزم الإنس، وأن الجن يحشرون يوم القيامة، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم النار، قلنا: إن هذا عام، فالله أعلم بما أراد، {معها سآئق} يسوقها {وشهيد} يشهد عليها بما عملت، لأن هؤلاء الملائكة- عليهم الصلاة والسلام- قد وكلوا بكتابة أعمال بني آدم من خير وشر، وكما سبق أنهم يكتبون كل شيء: الخير والشر واللغو، لكن لا يحاسب الإنسان إلا على الخير أو الشر، ثم قال تعالى: {لقد كنت في غفلة من هذا} {كنت} الخطاب للإنسان، وفيهاالتفات، والالتفات معناه أن ينتقل الإنسان في أسلوبه من خطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى خطاب، أو من تكلم إلى غيبة، وفائدة ذلك الالتفات أنه يشد ذهن السامع، فبينما الكلام على نسق واحد، إذا به يختلف، انظر إلى قوله تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرءيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبًا} ولم يقل وبعث، وانظر إلى الفاتحة نقرأها كل يوم في كل ركعة من صلواتنا {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد} ولم يقل (نعبده) فالالتفات أسلوب من أساليب اللغة العربية، وفائدته شدُّ ذهن السامع لما يلقى إليه من الكلام {لقد كنت في غفلة من هذا} {لقد كنت} هذه الجملة، يقول العلماء: إنها مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: قد، والتقدير (والله لقد كنت في غفلة من هذا). فإن قيل: أليس خبر الله تعالى حقًّا وصدقًا. سواءٌ أكد أم لم يؤكد؟

=

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣).

{وَقَالَ قَرِينه} الْمَلَك الْمُوَكَّل بِهِ {هَذَا مَا} أَيْ الَّذِي {لَدَيَّ عَتِيد} حَاضِر فيقال لمالك.

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤).

{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّم} أَيْ أَلْقِ أَلْقِ أَوْ أَلْقِيَن وَبِهِ قَرَأَ الْحَسَن فَأُبْدِلَتْ النُّون أَلِفًا {كُلّ كَفَّار عَنِيد} مُعَانِد لِلْحَقِّ.

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥).

{مَنَّاع لِلْخَيْرِ} كَالزَّكَاةِ {مُعْتَدٍ} ظَالِم {مُرِيب} شَاكّ في دينه.

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦).

{الَّذِي جَعَلَ مَعَ الله إلَهًا آخَر} مُبْتَدَأ ضُمِّنَ مَعْنَى الشَّرْط خَبَره {فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَاب الشَّدِيد} تَفْسِيره مِثْل مَا تَقَدَّمَ.

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧).

{قَالَ قَرِينه} الشَّيْطَان {رَبّنَا مَا أَطْغَيْته} أَضْلَلْته {وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَال بَعِيد}

=

قلنا: بلى، ولا شك، ولكن مادام القرآن نزل باللسان العربي، فإنه لابد أن يكون التأكيد في موضعه، وعدم التأكيد في موضعه، لأن المقصود أن يكون هذا القرآن في أعلى مراتب البلاغة {لقد كنت} أي: أيها الإنسان {في غفلة من هذا} أي كنت غافلًا عن هذا اليوم ساهٍ في الدنيا، كأنك خلقت لها {فكشفنا عنك غطاءك} يعني هذا اليوم كشف الغطاء، وبان الخفي، واتضح كل شيء {فبصرك اليوم حديد} أي قوي بعد أن كان في الدنيا أعشى أعمى، غافل، لكن يوم القيامة {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا}.

فَدَعَوْته فَاسْتَجَابَ لِي وَقَالَ هُوَ أَطْغَانِي بِدُعَائِهِ لَهُ.

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨).

{قَالَ} تَعَالَى {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} أَيْ مَا يَنْفَع الْخِصَام هُنَا {وَقَدْ قَدَّمْت إلَيْكُمْ} فِي الدُّنْيَا {بِالْوَعِيدِ} بِالْعَذَابِ فِي الْآخِرَة لَوْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَا بُدّ مِنْهُ.

مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩).

{مَا يُبَدَّل} يُغَيَّر {الْقَوْل لَدَيَّ} فِي ذَلِكَ {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} فَأُعَذِّبهُمْ بِغَيْرِ جُرْم وَظَلَّام بِمَعْنَى ذِي ظُلْم لِقَوْلِهِ {لَا ظُلْم اليوم}.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠).

{يَوْم} نَاصِبه ظَلَّام {نَقُول} بِالنُّونِ وَالْيَاء {لِجَهَنَّم هَلْ امْتَلَأْت} اسْتِفْهَام تَحْقِيق لِوَعْدِهِ بِمَلْئِهَا {وَتَقُول} بِصُورَةِ الِاسْتِفْهَام كَالسُّؤَالِ {هَلْ مِنْ مَزِيد} أَيْ لَا أَسَع غَيْر مَا امْتَلَأْت بِهِ أَيْ قد امتلأت.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١).

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّة} قَرُبَتْ {لِلْمُتَّقِينَ} مَكَانًا {غَيْر بَعِيد} مِنْهُمْ فَيَرَوْنَهَا وَيُقَال لَهُمْ.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢).

{هَذَا} الْمَرْئِيّ {مَا تُوعَدُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء فِي الدُّنْيَا وَيُبْدَل مِنْ لِلْمُتَّقِينَ قَوْله {لِكُلِّ أَوَّاب} رَجَّاع إلَى طَاعَة الله {حَفِيظ} حَافِظ لِحُدُودِهِ.

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣).

{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ} خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ {وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيب} مُقْبِل عَلَى

طَاعَته وَيُقَال للمتقين أيضا(١).

---

(١) قوله تعالى {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} [ق: ٢٣]

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، أي: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان".

قال أبو الليث:" يعني: هذا الذي وكلتني به قد أتيتك به، وهو حاضر".

قال مقاتل:" نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي".

وفي تفسير «قرينه»، ستة أقوال:

أحدها: أنه الملك الشهيد عليه، قاله الحسن، وقتادة، وابن قتيبة.

عن ابن جريج في قوله {وقال قرينه} قال: "ملكه ".

وروي عن مجاهد: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، قال: "هذا الذي وكّلني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله".

الثاني: أنه ملكه الذي كان يكتب عمله السّيئ في دار الدنيا، يقول لربِّه: قد كتبتُ ما وكَّلْتَني به، فهذا عندي مُعَدٌّ حاضرٌ من عمله الخبيث، فقد أتيتُك به وبعمله. قاله مقاتل.

الثالث: أنه قرينه الذي قيض له من الشياطين، قاله مجاهد، والزهاوي.

عن مجاهد:" {وقال قرينه} قال: الشيطان الذي قيض له".

قال عبدالقاهر الجرجاني:" {وَقَالَ قَرِينُهُ} تابعه من الشياطين {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} لمخافة أن يؤخذ أخذ الكفيل".

قال الزمخشري:" هو الشيطان الذي قيض له في قوله: {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، يشهد له قوله تعالى: {قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُه} ".

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: {قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا

=

=

ما أَطْغَيْتُهُ}: هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف".

الرابع: أنه سائقه الذي وُكِّل به. قاله ابن زيد.

قال ابن عطية:" فكأنه قال: هذا الكافر الذي جعل إلى سوقه، فهو لدي حاضر".

الخامس: أن قَرِينُهُ من زبانية جهنم، أي: قال هذا العذاب الذي لدي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد، ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به. حكاه ابن عطية عن جماعة من المفسرين.

قال ابن عطية:" ولفظ القرين: اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين وتحتمله هذه الآية، أي هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي، وهو موجب عذابه، ومماشي الإنسان في طريقه قرين، وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه... فكل قرين بالمقارن يقتدي

والقرين الذي في هذه الآية، غير القرين الذي في قوله: {قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ} إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماء: {قَرِينُهُ} في هذه الآية: عمله قلبا وجازحا".

السادس: أنه يعم السائق والشهيد. قاله الطبري.

قال ابن كثير:" وقد اختار ابن جرير أن يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة".

وفي قوله: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} [ق: ٢٣] وجهان:

أحدهما: هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها بإغوائي وإضلالي. ذكره الزمخشري، والبيضاوي.

قال الزمخشري:" المعنى: أن ملكا يسوقه وآخر يشهد عليه، وشيطانا مقرونا به، يقول: قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى".

الثاني: هذا الذي وكّلني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله، قاله مجاهد.

=

=

عن ابن جريج:" {هذا ما لدي عتيد} قال: الذي عندي عتيد للإنسان حفظته حتى جئت به".

عن مجاهد: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، قال: "هذا الذي وكّلني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله".

قال ابن قتيبة:" يعني: ما كتبه من عمله، حاضر عندي".

قال أبو عبيدة:" {عَتِيدٌ}، مجازه: معد".

قال ابن زيد:" العتيد: الذي قد أخذه، وجاء به السائق والحافظ معه جميعا".

قوله تعالى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [ق: ٢٤]، أي:" قول الله للمَلَكين السائق والشهيد بعد أن يفصل بين الخلائق: ألقيا في جهنم كل جاحد أن الله هو الإلهُ الحقُّ، كثيرِ الكفر والتكذيب معاند للحق".

قال ابن قتيبة:" يقال: هو قول الملك، ويقال: قول الله جل ذكره".

وفي {أَلْقِيَا} [ق: ٢٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المأمور بـ «ألقيا كل كافر في النار»: ملكان. قاله الزجاج.

قال الزمخشري:" {أَلْقِيا}، خطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد".

الثاني: أنه خارج مخرج تثنية القول على معنى قولك: ألق ألق، قف قف، تأكيدًا للأمر. وهذا قول المبرد.

الثالث: يجوز أن يكون واحد ويؤمر بلفظ الاثنين، ذكره مقاتل، والفراء، والطبري، ومنه قول الشاعر:

وإن تزجراني يا ابْنُ عفان أنزجر... وإن تدعاني أَحْمِ عرضًا ممنَّعًا

قال الفراء:" والعرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر بِهِ الاثنان، فيقولون للرجل: قوما عنا، وسمعت بعضهم: ويحكَ! ارحلاها وازجراها، ونرى أن ذَلِكَ منهم أن

=

=

الرجل أدنى أعوانه فِي إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرِّفقة، أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد عَلَى صاحبيه، ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا: يا صاحبيّ، يا خليلي، فقال امرؤ القيس :

خليلَيّ مُرّا بي على أمِّ جُنْدُبِ... لنَقْضِي حَاجَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

ثم قال:

ألم تَرَيَانِي كُلّما جئْتُ طَارِقًا... وَجَدْتُ بها طِيبًا وإنْ لم تَطَيَّبِ

فرجع إلى الواحد، وأول الكلام اثنان".

قال النحاس:" حدّثنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد عن بكر بن محمد المازني، قال: العرب تقول للواحد: «قوما» على شرط إذا أرادت تكرير الفعل، أي: قم قم، فجاؤوا بالألف لتدلّ على هذا المعنى، وكذا «ألقيا» ".

وفي قوله تعالى: {كُلَّ كَفَّارٍ} [ق: ٢٤]، وجهان :

أحدهما: أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه، وكفر بنعمه ولم يشكره.

قال الكلبي:" كفار للنعم".

الثاني: أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه.

قال الطبري:" يعني: كل جاحد وحدانية الله".

قال ابن كثير:" أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق".

وأما «العنيد»، ففيه ستة وجوه:

أحدها: أنه المعاند للحق، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

قال الطبري:" وهو العاند عن الحقّ وسبيل الهدى".

قال الزجاج:" أي: عَنِدَ عن الحق".

قال ابن أبي زمنين:" أي: معاند للحق مجتنبه".

قال ابن كثير:" معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك".

=

=

وعن مجاهد وعكرمة:" مجانب للحقّ معاند لله".

الثاني: أنه المنحرف عن الطاعة، قاله قتادة.

الثالث: أنه الجاحد المتمرد، قاله الحسن.

الرابع: أنه المشاق، قاله السدي.

الخامس: أنه المعجب بما عنده المقيم على العمل به، قاله ابن بحر.

السادس: يعني: المعرض عن توحيد الله- تعالى- وهو الوليد بن المغيرة. قاله مقاتل.

قوله تعالى: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ} [ق: ٢٥]، أي:" منَّاع لأداء ما عليه من الحقوق في ماله".

قال السمعاني:" هو مانع الحقوق والصدقات والزكوات".

قال ابن كثير:" أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة".

وفي قوله تعالى: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ} [ق: ٢٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه منع الزكاة المفروضة، قاله قتادة.

الثاني: محمول على عموم الخير من قول وعمل.

الثالث: أن الخير المال كله، ومنعه حبسه عن النفقة في طاعة الله، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

قال الطبري:" الصواب من القول في ذلك عندي أنه كلّ حق وجب لله، أو لآدمي في ماله، والخير في هذا الموضع هو المال. وإنما قلنا ذلك هو الصواب من القول، لأن الله تعالى ذكره عمّ بقوله {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ} عنه أنه يمنع الخير ولم يخصص منه شيئا دون شيء، فذلك على كلّ خير يمكن منعه طالبه".

قوله تعالى: {مُعْتَدٍ مُرِيبٍ} [ق: ٢٥]، أي:" مُعْتدٍ على عباد الله وعلى حدوده، شاكٍّ في وعده ووعيده".

=

=

قال السمعاني:" أي: ذي عدوان ذي ريبة".

قال ابن كثير:" {معتد}، أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد، {مريب}، أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره".

قال الطبري:" {مُعْتَدٍ} يقول: معتد على الناس بلسانه بالبذاء والفحش في المنطق، وبيده بالسطوة والبطش ظلما، {مُرِيبٍ}، يعني: شاكّ في وحدانية الله وقُدرته على ما يشاء ".

وفي قوله تعالى: {مُرِيبٍ} [ق: ٢٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الشاك في الله، قاله السدي، ومقاتل.

الثاني: أنه الشاك في وحدانية الله وقُدرته على ما يشاء، قاله قتادة.

الثالث: أنه المتهم. حكاه الماوردي. واستشهد بقول الشاعر :

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي... فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيب

وأريبنا من لا يؤدي أمانة... ولا يحفظ الأسرار حين يغيب

قال القشيري:" أي: يشكّك الناس في أمره لأنه غير مخلص، ويلبّس على الناس حاله لأنه منافق".

قال ابن الأثير: "الريب هو بمعنى: الشك.. يقال: رابني الشيء وأرابني، بمعنى: شككني، وقيل: أرابني في كذا، أي: شككني وأوهمني الريبة فيه، ومنه الحديث: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ»، أَي: دع ما تشك فيه إلى ما لا تشك فيه"، ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه".

قال الماتريدي:" المعتدي: من الاعتداء، وهو المجاوز عن حدود الله تعالى والمريب: من الريبة، وهو الشك والفساد، فكأن المريب هو الذي فيه الشك والفساد جميعًا".

قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [ق: ٢٦]، أي:" الذي أشرك بالله،

=

=

فعبد معه معبودًا آخر مِن خلقه".

قال الطبري: يقول:" الذي أشرك بالله فعبد معه معبودا آخر من خلقه".

قال ابن كثير:" أي: أشرك بالله فعبد معه غيره".

قال الماتريدي: أي:" وصف وذكر مع الله إلهًا آخر، وهو كقوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ}، وقوله تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا}، أي: قالوا ووصفوا أنهم إناث، وإلا لا يملكون جعل ذلك حقيقة".

عن قتادة، قوله: "{الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}، هو المشرك".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين ".

قوله تعالى: {فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [ق: ٢٦]، أي:" فألقياه في عذاب جهنم الشديد".

قال الطبري:" يقول: فألقياه في عذاب جهنم الشديد".

قال الماتريدي: "وصف نار جهنم بالشدة؛ لما أنه لا انقطاع لها، وكل عذاب يرجى انقطاعه في بعض الأزمان ففيه بعض الراحة".

قوله تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧)} [ق: ٢٧]

قال الطبري: يقول: قال قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير- وهو شيطانه الذي كان موكلا به في الدنيا-: ما أنا جعلته طاغيا متعدّيا إلى ما ليس له، وإنما يعني بذلك الكفر بالله".

قال ابن كثير:" أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}، أي: ما أضللته".

قال الماتريدي: "أي: قال شيطانه الذي أضله ودعاه إلى ما دعاه؛ فصار قرينه في

=

=

الآخرة؛ لقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. ويحتمل {قَرِينُهُ}، أي: رفيقه الذي كان معه يتبعه ويصدر عن رأيه. ثم هذا القول من قرينه إنما كان بعد أن كان منه إنكار لما كان منه من الكفر والشرك عن اختيار، وقال: هذا الذي أضلني وأطغاني، وهو الذي حملني عليه، كقولهم: {هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّار}.. {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}، أي: ما قهرته على الضلال، ولا لي قوة ذلك، ولكن اتبعني على ما كنت أنا فيه، وأطاعني من غير أن يكون مني إكراه وإجبار على ذلك، وكان الكفرة لحيرتهم وقلة حيلتهم أحيانًا ينكرون الشرك؛ كقوله: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، وقوله: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}، ثم قال: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، وأحيانًا يقولون: هَؤُلَاءِ أضلونا، وأحيانًا يلعن بعضهم بعضا".

قال محمد بن كعب القرظي: "{قال قرينه ربنا ما أطغيته} ما أكرهته على الطغيان".

عن ابن زيد، قوله: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}، قال:" تبرأ منه".

عن مجاهد، قوله: "{قَالَ قَرِينُهُ}، قال: الشيطان قُيِّض له".

قال قتادة:" قرينه الشيطان".

قال الضحاك:" قرينه: شيطانه".

قال ابن زيد:" قرينه من الجن".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [ق: ٢٧]، أي:" ولكن كان في طريق بعيد عن سبيل الهدى".

قال الطبري:" يقول: ولكن كان في طريق جائر عن سبيل الهدى جورا بعيدا. وإنما أخبر تعالى ذكره هذا الخبر، عن قول قرين الكافر له يوم القيامة، إعلاما منه عباده، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة".

=

=

قال الماتريدي:" أي: كان في ضلال لا يرجى الرجوع ولا الانقطاع".

قال ابن كثير:" أي: بل كان هو في نفسه ضالا قابلا للباطل معاندًا للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢] ".

قوله تعالى: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} [ق: ٢٨]، أي:" قال الله تعالى: لا تختصموا لديَّ اليوم في موقف الجزاء والحساب؛ إذ لا فائدة من ذلك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال الله لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، وصفة قرنائهم من الشياطين {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} اليوم".

قال القشيري: أي:" وقد أمرتكم بالرّشد ونهيتكم عن الغي".

قال ابن كثير:" يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ}، أي: عن منهج الحق. فيقول الرب ﷻ لهما: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ}، أي: عندي".

قال ابن عباس:" إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم، وردّ عليهم قولهم".

عن الربيع، قال: "قلت لأبي العالية: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، -قال أبو جعفر الطبريّ: أحسبه قال: هم أهل الشرك-، وقال في آية أخرى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، فهم أهل القبلة".

قوله تعالى: {وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} [ق: ٢٨]، أي:" وقد قَدَّمْتُ إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني".

=

=

قال الطبري: يقول:" {وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} في الدنيا قبل اختصامكم هذا، بالوعيد لمن كفر بي، وعصاني، وخالف أمري ونهيي في كتبي، وعلى ألسن رسلي".

قال ابن كثير:" أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين".

عن أبي عمران، قوله: "{وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، قال: بالقرآن".

قال ابن زيد:" يقول: قد أمرتكم ونهيتكم، قال: هذا ابن آدم وقرينه من الجن".

قوله تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} [ق: ٢٩]، أي:" ما يُغيَّر القول لديَّ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيله للمشركين وقرنائهم من الجنّ يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها".

قال سهل:" أي: ما يتغير عندي ما سبق في علمي، فيكون بخلاف ما سبق العلم فيه".

قال الزجاج:" أي: من عمل حسنة «فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»، ومن عمل سيئة- «فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا» ".

عن مجاهد، قوله: "{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، قد قضيت ما أنا قاض".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق: ٢٩]، أي:" ولست ظالمًا حتى أعذب أحدًا بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم".

قال ابن عباس:" ما أنا بمُعذِّبٍ مَن لم يَجْترم".

قال الطبري:" يقول: ولا أنا بمعاقب أحدا من خلقي بجرم غيره، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره فمعذّبه به".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحدًا إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه".

قال مقاتل:" يقول: لم أعذب على غير ذنب".

قال السمعاني:" أي: لا أنقص ثواب المحسنين، ولا أزيد في مجازاة المسيئين".

قال ابن وهب: "وحدثنا معاوية بن صالح عن أبي عمران أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلا ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له كان يأتي بعض [جيرانه]، فقتله، وإنه أقيد منه فقتل؛ فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة؛ ثم إن آل عمران انسلت، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: {ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}؛ قال: فخرجت منه كالسحابة العظيمة".

قال السدي: "الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب، فيقول: رب إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} ".

قوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ} [ق: ٣٠]، أي:" اذكر -أيها الرسول- لقومك يوم نقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ ".

قال الطبري:" يقول: وما أنا بظلام للعبيد في {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ} وذلك يوم القيامة، ويوم نقول من صلة ظلام. وقال تعالى ذكره لجهنم يوم القيامة: {هَلِ امْتَلأتِ}؟ لما سبق من وعده إياها بأنه يملأها من الجِنَّة والناس أجمعين".

قال الواحدي:" وهذا استفهامُ تحقيقٍ وذلك أنَّ الله ﷻ وعدها أن يملأها فلمَّا ملأها قال لها: {هل امتلأت} ".

قرأ نافع وأبو بكر «يقول»، بالياء، أي: يقول الله، لقوله: {قال لا تختصموا}، وقرأ الآخرون بالنون.

=

=

قوله تعالى: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: ٣٠]، أي:" وتقول جهنم: هل من زيادة من الجن والإنس؟ ".

وفي قوله تعالى: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: ٣٠]، وجهان من التفسير :

أحدهما: أنها تقول ذلك بعد امتلائها، فالمعنى: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأتُ.

قال القشيري:" أي: ليس فيّ زيادة، كقوله ﷺ لمّا قيل له: «يوم فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل دارا؟!»، أي: لم يترك، فإن الله- تعالى- يملأ جهنم من الكفار والعصاة، فإذا ما أخرج العصاة من المؤمنين ازداد غيظ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم".

عن مجاهد، قوله: "{وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}، قال: وعدها الله ليملأنها، فقال: هلا وفيتك؟ قالت: وهل من مَسلك".

وفي رواية قال مجاهد:" هل في من سعة"

قال ابن عباس:" وَهَلْ فِيَّ مِنْ مَكَانٍ يُزَادُ فِيّ".

قال ابن عباس يقول: "إن الله الملك، قد سبقت منه كلمة: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ}، لا يلقى فيها شيء إلا ذهب فيها، لا يملأها شيء، حتى إذا لم يبق من أهلها أحد إلا دخلها، وهي لا يملأها شيء، أتاها الربّ فوضع قدمه عليها، ثم قال لها: هل امتلأت يا جهنم؟ فتقول: قطِ قطِ؛ قد امتلأت، ملأتني من الجنّ والإنس فليس في مزيد؛ قال ابن عباس: ولم يكن يملأها شيء حتى وجدت مسّ قدم الله تعالى ذكره، فتضايقت، فما فيها موضع إبرة".

الثاني: أنها تقول تغيُّظًا على من عصى اللهَ تعالى، وجَعَلَ اللهُ فيها أن تميِّز وتخاطِب، كما جَعَلَ في النّملة أن قالت: {ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم} [النمل: ١٨]، وفي المخلوقات أن تسبِّح بحمده.

=

=

قال القشيري: أي:" على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار".

قال أنس:" يلقى في جهنم وتقول: هل من مزيد ثلاثا، حتى يضع قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قطِ قطِ، ثلاثا".

قال أنس:"ما تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الله عليها قدمه، فتقول: قدِ قدِ، وما يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله خلقا، فيُسكنه فضول الجنة".

قال ابن زيد:" لأنها قد امتلأت، وهل من مزيد: هل بقي أحد؟ قال: هذان الوجهان في هذا، والله أعلم، قال: قالوا هذا وهذا".

قال الطبري:" هو بمعنى: الاستزادة، هل من شيء أزداده؟ وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ... عن أبي هُريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، لَمْ يَظْلِمِ اللهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ شَيْئا، وَيُلْقِي فِي النَّارِ، تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتى يَضَعَ عَلَيْها قَدَمَهُ، فَهنالكَ يَمْلأها، وَيُزْوَى بَعْضُها إلى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ» ".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}، أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث".

قال السمعاني: القول" الأول أحسن".

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: "يُلقَى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول قط قط".

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قد، قد، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة".

=

=

عن أبي هُريرة، قال: "اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي إنما يدخلني فقراء الناس وسقطهم؛ وقالت النار: ما لي إنما يدخلني الجبارون والمتكبرون، فقال: أنت رحمتي أصيب بك من أشاء، وأنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فإن الله ينشئ لها من خلقه ما شاء. وأما النار فيُلقون فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقون فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع فيها قدمه، فهناك تملأ ويزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط ".

قوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)} [ق: ٣١]

قال ابن كثير:" وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت".

عن قتادة، قوله: "{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}، يقول: وأدنيت {غَيْرَ بَعِيد} ".

قال الضحاك:" قربت لأهلها".

قال القشيري:" يقال: إنّ الجنّة تقرّب من المتقين، كما أنّ النار تجرّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين.

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها.. وهم خواص الخواص.

ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم يحشرون إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣]، وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جلّ وعلا: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥]، وهؤلاء هم الخواص وأمّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}، أي: تقرّب الجنة منهم".

عن نبيح ابن امرأة كعب، قال: "تزلف الجنة ثم تزخرف ثم ينظر إليها من خلق الله

=

=

من مسلم أو يهودي أو نصراني إلا رجلان: رجلا قتل مؤمنا متعمدا أو رجلا قتل معاهدا متعمدا".

قوله تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} [ق: ٣٢]، أي:" يقال لهم: هذا الذي كنتم توعدون به -أيها المتقون- لكل تائب مِن ذنوبه، حافظ لكل ما قَرَّبه إلى ربه، من الفرائض والطاعات".

قال الطبري:" يقول: قال لهم: هذا الذي توعدون أيها المتقون، أن تدخلوها وتسكنوها، لكل راجع من معصية الله إلى طاعته، تائب من ذنوبه".

وفي تفسير قوله تعالى: {أَوَّابٌ} [ق: ٣٢]، وجوه:

أحدها: أنه رجّاع عن الذنوب. قاله مجاهد-في رواية-.

قال سعيد بن المسيب:" الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب".

قال أبو عبيدة:" الأوّاب: الرّجّاع وهو التواب، مخرجها، من: آب إلى أهله، أي: رجع، قال يزيد بن ضبّة الثقفيّ: والبيت لعبيد بن الأبرص :

وكل ذى غيبة يؤوب... وغائب الموت لا يؤوب

أي: لا يرجع".

الثاني: أنه الذي يؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها، والأوّاب: المطيع. قاله ابن زيد.

قال الزجاج: "رجّاع إلى الله كثيرا، «الآيب»: الراجع، و «الأواب» الكثير الرجوع".

قال السمعاني:" الأواب: هو الذي اعتاد الرجوع إلى الله تعالى في كل أموره".

الثالث: أنه المطيع لله كثير الصلاة. قاله قتادة-في رواية-.

الرابع: أنه المحسن. قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

الخامس: أنه المطيع المحسن. قاله ابن عباس.

=

=

وقال مقاتل:" يعني: مطيع".

السادس: أنه التوّاب. قاله ابن عباس أيضا، وابن زيد.

قال ابن زيد:" الأوّاب: التوّاب الذي يئوب إلى طاعة الله ويرجع إليها".

قال النحاس:" تائب راجع إلى الله جلّ وعزّ".

السابع: أنه المسبح، قاله ابن عباس أيضا، ومجاهد، والسدي، وعمرو بن شرحبيل، والكلبي.

الثامن: أنه الذاكر الله في الخلاء. قاله الحكم بن عتيبة.

التاسع: أنه الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. قاله مجاهد-أيضا-، والشعبي، ويونس بن خباب، وعبيد بن عمير.

قال مجاهد:" الذي يذكر ذنوبه فيستغفر منها".

قال يونس بن خباب:" الرجل يذكر ذنوبه، فيستغفر الله لها".

قال الشعبي:" الذي يذكر ذنوبه في خلاء فيستغفر".

قال الحسن: "إذا أرخى الستر وأغلق الباب".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: «الأواب»: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن «الأواب» إنما هو فعال، من قول القائل: آب فلان من كذا إما من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يئوب... وغائب الموت لا يئوب

فهو يئوب أوبا، وهو رجل آئب من سفره، وأواب من ذنوبه".

وأما «الحفيظ» -هنا- ففيه ثلاثة وجوه:

أحدها: مطيع لله كثير الصلاة. قاله مجاهد.

وحكي الماوردي عن السدي، فيما معناه: "أنه المطيع فيما أمر".

=

=

الثاني: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. قاله ابن عباس.
الثالث: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. قاله قتادة.
قال النحاس:" معنى هذا أنه حفظ جوارحه عن معاصي الله تعالى".
الرابع: أنه الذي يحفظ قوله وفعله في مجلسه، فإذا أراد أن يقوم، قال: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. حكاه السمعاني.
الخامس: هو الحافظ لعهد الله. حكاه السمعاني -أيضا-.
قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره وصف هذا التائب الأوّاب بأنه حفيظ، ولم يخصّ به على حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعمّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: هو حفيظ لكلّ ما قرّبه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلَفت منه للتوبة منها والاستغفار".
وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله- ﷺ-: «مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ كَانَ أَوَّابًا حَفِيظًا».
قوله تعالى: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} [ق: ٣٣]، أي:" مَن خاف الله في الدنيا".
قال الطبري:" يقول: من خاف الله في الدنيا من قبل أن يلقاه، فأطاعه، واتبع أمره".
قال البغوي: أي:" من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره".
قال ابن كثير:" أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله -عليه السلام-: «ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه» ".
قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أثنى عليه بأنه خاش، مع أنّ المخشى منه غائب، ونحوه: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا

=

=

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات".

قال القشيري:" الخشية من الرحمن هي الخشية من الفراق، والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأنس ولذلك لم يقل: من خشى الجبّار ولا من خشى القهّار، ويقال: الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسأل عمّا يفعل. ويقال: الخشية ألطف من الخوف، وكأنها قريبة من الهيبة ".

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، أي:" ولقي الله يوم القيامة بقلب تائب من ذنوبه".

قال الطبري:" يقول: وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه".

قال ابن كثير:" أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه".

قال الزمخشري:" وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى، لأنّ الاعتبار بما ثبت منها في القلب".

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: منيب إلى ربه مُقْبل. قاله قتادة.

الثاني: يعني: بقلب مخلص. قاله مقاتل.

وحكي الماوردي عن السدي، قال:" أنه المنيب المخلص".

قال الواحدي: أي:" مخلص، راجع عن معاصي الله إلى طاعة الله".

قال البغوي: أي:" مخلص مقبل إلى طاعة الله".

الثالث: يعني: بقلب سليم غير مريض. قاله عبدالقاهر الجرجاني.

الرابع: أنه المقبل على الله، قاله سفيان.

قال الثعلبي:" مقبل إلى طاعة الله".

قال السمعاني:" الرجل هو المنيب؛ لكنه أضاف إلى القلب؛ لأن الأكثر من أعمال

=

=

الإيمان يعمله المؤمن بقلبه".

قال القشيري:" لم يقل بنفس مطيعة بل قال: {بقلب منيب} ليكون للعصاة في هذا أمل لأنهم- وإن قصّروا بنفوسهم وليس لهم صدق القدم- فلهم الأسف بقلوبهم وصدق النّدم".

قال أبو بكر الورّاق: "علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته، مواليا له، متواضعا لحلاله تاركا لهوى نفسه".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وقال قرينه هذا ما لدى عتيد} قرين الإنسان هو المَلَك الموكل به ليحفظ أعماله؛ لأن الله تعالى وكَّل ببني آدم ملائكة عن اليمين وعن الشمال قعيد، وهذا من عناية الله بك أيها الإنسان، أن وكَّل بك هؤلاء الملائكة يعلمون ما تفعل، ويكتبون، لا يزيدون فيه ولا ينقصون فيه، فيقول القرين: {هذا ما لدى عتيد} أي: حاضر، ويحضر للإنسان فيقال: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد} قوله: {ألقيا} قد يشكل على طالب العلم، لأنه قال: {وقال قرينه هذا ما لدى عتيد} وقرين مفرد، وهنا {ألقيا} فيها ألف التثنية، فكيف صح أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين؟

اختلف المفسرون في الجواب عن هذا، فقال بعض العلماء: ألقيا اتصل بها ضمير التثنية بناءً على تكرار الفعل، مثل قوله: ألقي ألقي، فالتكرار للفعل لا للفاعل.

القول الثاني: أن قوله: {وقال قرينه هذا ما لدى عتيد} إما أن يكون مفردًا مضافًا، والمعروف أن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما ثبت من قرين، وعلى هذا فيكون {وقال قرينه} أي الملكان الموكلان به. فإذا قال قائل: أروني دليلًا أو شاهدًا على أن المفرد يكون لأكثر من واحد.

قلنا: يقول الله ﷻ: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}. وهل نعمة الله واحدة؟ لا، لأن الله تعالى قال: {وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً}. لكن نعمة الله مفرد

=

=

مضاف، فتكون شاملة لكل نعمة.

ويمكن أن يقول قائل: إن قوله: {وقال قرينه} هو واحد من الملكين، ولا شك أنه يجوز أن يتكلم واحد من الاثنين باسم الاثنين.

{كل كفار عنيد منع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهًا ءاخر} خمسة أوصاف:

{كفار}، صيغة مبالغة، فإما أن يقال إنه كان صيغة مبالغة، لأن هذا الكافر قد فعل أنواعًا من الكفر، فإذا جمعت الأنواع صارت كثيرة، وقد يقال: إن هذه الصيغة ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، كما يقال: نجار، وحداد، وما أشبه ذلك ممن ينسب إلى هذه الحرفة، فكفار، أي: كافر، لكنه قد تمكن الكفر في قلبه- والعياذ بالله -.

{عنيد} أي: معاند للحق، لا يقبل مهما عرض له الحق بصورة شيقة بينة واضحة لا يقبل.

{مناع للخير} فيمنع الدعوة إلى الله، ويمنع بذل أمواله فيما يرضي الله، ويمنع كل خير، لأن قوله: {للخير} لفظ يشمل كل خير، وقوله: مناع كأنه يلتمس كل خير فيمنعه، فتكون هذه الصيغة صيغة مبالغة.

{معتد} أي: يعتدي على غيره، فلم يمنع غيره من الخير فقط، بل يعتدي عليه، وانظروا إلى كفار قريش ماذا صنعوا مع الرسول ﷺ، منعوه واعتدوا عليه.

{مريب} أي: واقع في الريبة والشك والقلق، وكذلك أيضًا يشكك غيره فيدخل في قلبه الريبة، فكلمة {مريب} تقتضي وصف الإنسان بها، وحمل هذا الوصف إلى غيره.

{الذي جعل مع الله إلهًا ءاخر}، ما أوسع هذه الكلمة، وإذا كانت هذه الكلمة وصفًا للكفَّار العنيد، فالمعنى أنه يعبد مع الله غيره، وكلنا يعلم أن المشركين كانوا

=

=

يعبدون مع الله غيره، فيعبدون اللات، ويعبدون العزى، ويعبدون مناة، ويعبدون هبل، وكل قوم لهم طاغية يعبدونها كما يعبدون الله، يركعون لها، ويسجدون لها، ويحبونها كما يحبون الله، ويخافون منها كما يخافون من الله- نسأل الله العافية- هذا إذا جعلنا قوله تعالى: {مع الله إلهًا ءاخر} وصف لهذا الكفَّار العنيد.

أما إذا جعلناه أشمل من ذلك فإنها تعم كل إنسان تعبد لغير الله، وتذلل لغير الله، حتى التاجر الذي ليس له هم إلا تجارته وتنميتها فإنه عابد لها، حتى صاحب الإبل الذي ليس له هم إلا إبله هو عابد لها، والدليل على أن من انشغل بشيء عن طاعة الله فهو عابد له، قول النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة». عبد الدينار هذا تاجر الذهب، وعبد الدرهم تاجر الفضة، وعبد الخميصة تاجر الثياب؛ لأن الخميصة هي الثوب الجميل المنقوش، وعبد الخميلة تاجر الفرش، أو ليس بتاجر، يعني لا يتجر بهذه الأشياء لكن مشغول بها عن طاعة الله، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، فسمى النبي ﷺ من اشتغل بهذه الأشياء الأربعة عبدًا لها، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن العبادة أوسع من هذا، قال الله تعالى: {أرءيت من اتخذ إلهه هواه}. فدل ذلك على أن كل من قدم هوى نفسه على هدي ربه فهو قد اتخذ إلهًا غيره، ولهذا يمكننا أن نقول: إن جميع المعاصي داخلة في الشرك في هذا المعنى، لأنه قدمها على مرضاة الله تعالى وطاعته، فجعل هذا شريكًا لله ﷻ في تعبده له، واتباعه إياه، فالشرك أمره عظيم، وخطره جسيم، حتى الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون: إنه رجل كريم. يعتبر مشركًا مرائيًا، والرياء شرك، وأخوف ما خاف النبي عليه الصلاة والسلام على أمته الشرك الخفي، وهو الرياء،

فعلى هذا نقول: {الذي جعل مع الله إلهًا ءاخر}، إن كانت وصفًا خاصًّا بالكفَّار

=

=

العنيد، فإنها تختص بمن يعبد الصنم والوثن، وإن كانت للعموم فهي تشمل كل من اشتغل بغير الله عن طاعته، وتقدم ذكر الأمثلة والأدلة على ما ذكرنا.

قال الله تعالى: {فألقياه في العذاب الشديد} وهو عذاب النار، نسأل الله أن يعيذنا منها بمنه وكرمه، {قال قرينه ربنا مآ أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد} هو يدعي أن قرينه هو الذي أطغاه وهو صده عن سبيل الله، فيقول قرينه: {ربنا مآ أطغيته}، ما أمرته أن يكذب، ولا أن يكون عنيدًا، ولا أن يكون معتديًا، ولا أن يكون مريبًا، ولا أن يكون مشركًا مع الله أحدًا، ما فعلت هذا {ولكن كان في ضلل بعيد} أي: كان هذا الكافر في ضلال بعيد عن الحق، حينئذ لدينا خصمان: الكفَّار العنيد، والقرين، فالكفَّار العنيد يدعي أن القرين هو الذي أغواه وأطغاه، والقرين ينكر ذلك، فيقول الله ﷻ {لا تختصموا لدى}، الخصومة منقطعة، لأن الحجة قائمة ولا عذر لأحد، {وقد قدمت إليكم بالوعيد}، أي أوعدتكم على المخالفة فلا حجة لكم، {ما يبدل القول لدى ومآ أنا بظلام للعبيد}. يعني لا أحد يستطيع أن يبدل قولي؛ لأن الحكم لله ﷻ وحده، فإذا كان الله تعالى قد وعد فهو صادق الوعد سبحانه وتعالى، وأما الإيعاد فقد يغفر ما شاء من الذنوب إلا الشرك {ومآ أنا بظلام للعبيد} يعني لست أظلم أحدًا، وكلمة (ظلَّام) لا تظن أنها صيغة مبالغة، وأن المعنى أني لست كثير الظلم، بل هي من باب النسبة، أي: لست بذي ظلم، والدليل على أن هذا هو المعنى، وأنه يتعين أن يكون هذا المعنى قوله تعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفها}، ويقول ﷻ: {ومن يعمل من الصالحت وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا}.

ويقول ﷻ: {ولا يظلم ربك أحدًا}. والآيات في هذا كثيرة، أن الله لا يظلم، بل إننا إذا تأملنا وجدنا أن فضل الله وإحسانه أكثر من عدله. جزاء سيئة سيئة مثلها، وجزاء حسنة عشرة أمثالها، ولو أردنا أن نأخذ بالعدل لكان السيئة بالسيئة،

=

=

والحسنة بالحسنة، لكن فضل الله زائد على عدله ﷻ فهو سبحانه وتعالى يجزي بالفضل والإحسان لمن كان محسنًا، وبالعدل بدون زيادة لمن كان مسيئًا {ما يبدل القول لدى ومآ أنا بظلام للعبيد}.

{يوم نقول لجهنم هل امتلأَت وتقول هل من مزيد} يوم: ظرف زمان، والظروف الزمانية والمكانية، وكذلك حروف الجر لابد لها من متعلق، أي لابد لها من فعل، أو ما كان بمعنى الفعل تتعلق به، فما هو متعلق قوله: {يوم نقول لجهنم} نقول: هو محذوف، والتقدير: (اذكر يوم نقول لجهنم) وليعلم أنه يوجد في اللغة العربية كلمات تحذف بل ربما جمل تحذف، وذلك فيما إذا دل عليها السياق، فهنا الكلمة التي تتعلق بها كلمة يوم محذوفة، والتقدير: اذكر {يوم نقول لجهنم هل امتلأَت وتقول هل من مزيد} يسألها الله ﷻ: {هل امتلأَت} وهو يعلم سبحانه وتعالى أنها امتلأت، أو لم تمتلىء؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، لكنه يسألها هل امتلأت، ليقرر لها ما وعدها سبحانه وتعالى، فإن الله يقول: {وتمت كلمة ربك لأَملأَن جهنم من الجنة والناس أجمعين}. فيسألها: {هل امتلأَت} يعني هل حصل ما وعد الله به؛ لأن الله تكفل بأن يملأ الجنة ويملأ النار، فتقول: {هل من مزيد}، (هل) أداة استفهام، وهي حرف. وهل هي استفهام طلب، بمعنى: أنها تطلب الزيادة، أو استفهام نفي، بمعنى: أنها تقول: لا مزيد على ما فيها؟ في هذا للعلماء قولان:

القول الأول: إن المعنى: لا مزيد على ما فيَّ، و (هل) تأتي لاستفهام النفي كما في قوله تعالى: {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأَرض} أي ما من خالق؟ وعلى هذا فتكون النار امتلأت إذا قالت: لا مزيد على ذلك، فالمعنى أنها امتلأت.

القول الثاني: أنها استفهام طلب، يعني تطلب الزيادة.

=

=

وإذا اختلف العلماء في التفسير أو غير التفسير فلنرجع إلى ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ، فلننظر أي القولين أولى بالصواب، ثبت عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «لاتزال جهنم تلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة عليها حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» والمعنى أنه حفيظ لأوامر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوانٍ بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب، أو فعل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم به {من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب} من بدل مما سبقها {خشى الرحمن} أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقوله: {من خشى الرحمن بالغيب} لها معنيان:

المعنى الأول: أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.

المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضًا من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشيًا لله عز وجل فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب عن الناس بقلبه، فإن خشية القلب هي الأصل {وجاء بقلب منيب} أي جاء يوم القيامة بقلب منيب يعني رجاع إلى الله عز وجل يعني أنه مات وهو منيب إلى الله فهو كقوله: {ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} والمعنى أنه بقي على الإنابة والرجوع إلى الله عز وجل إلى أن مات، وإلى أن لقي الله، لأن الأعمال

=

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤).

{ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} سَالِمِينَ مِنْ كُلّ مَخُوف أَوْ مَعَ سَلَام أَيْ سَلِّمُوا وَادْخُلُوا {ذَلِكَ} الْيَوْم الَّذِي حَصَلَ فِيهِ الدُّخُول {يَوْم الْخُلُود} الدَّوَام في الجنة.

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥).

{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد} زِيَادَة على ما عملوا وطلبوا.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦).

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلهمْ مِنْ قَرْن} أَيْ أَهْلَكْنَا قَبْل كُفَّار قُرَيْش قُرُونًا كَثِيرَة مِنْ الْكُفَّار {هم أشد منهم بَطْشًا} قُوَّة {فَنَقَّبُوا} فَتَّشُوا {فِي الْبِلَاد هَلْ مِنْ مَحِيص} لَهُمْ أَوْ لِغَيْرِهِمْ مِنْ الْمَوْت فلم يجدوا.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور {لَذِكْرَى} لَعِظَة {لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْب} عَقْل {أَوْ أَلْقَى السَّمْع} اسْتَمَعَ الْوَعْظ {وَهُوَ شَهِيد} حَاضِر بِالْقَلْبِ[1].

=

بالخواتيم، نسأل الله أن يختم لنا بالخير.

(١) قوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} [ق: ٣٤]، أي:" ويقال لهؤلاء المؤمنين: ادخلوا الجنة دخولا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع المكاره".

قال الثعلبي:" أي: يقال لأهل هذه الصفة: ادْخُلُوها بِسَلامٍ بسلامة من العذاب وسلام الله وملائكته عليهم، وقيل: السلامة من زوال النعيم وحلول النقم".

قال مقاتل:" فسلم الله لهم أمرهم وتجاوز عن سيئاتهم وشكر لهم اليسير من أعمالهم الصالحة".

=

=

قال الواحدي: "أي: بسلامة من الهموم، والعذاب".

قال الزمخشري:" أي: سالمين من العذاب وزوال النعم، أو مسلما عليكم يسلم عليكم الله وملائكته".

قال قتادة:"سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ وَسَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ".

قال السدي:" تقوله لهم الملائكة".

قال الحسن: "السلام لا ينقطع عن أهل الجنة وهو تحيتهم".

قال ذو النون المصري: "سميت بذلك لأن من دخلها سلم من القطيعة والفراق".

قال أبو بكر الوراق: "سميت بذلك لأن من دخلها سلم عليه المولى وذلك أن الله يعلم ما فيه أهل الجنة من ذكر الذنوب والهيبة لعلّام الغيوب فيبدأ هم بالسلام والتحية لهم تقريبا وإيناسا وترحيبا".

قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق: ٣٤]، أي:" ذلك هو يوم الخلود بلا انقطاع".

قال النحاس:" أي: ذلك الذي وصفناه للمتقين يوم لا يزولون عنه".

قال الواحدي: "في الجنة، لأنه لا موت فيها".

قال ابن كثير:" أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبغون عنها حولا".

قال ابن عطية:" {ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} معادل لقوله قبل في الكفار {ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} ".

قال قتادة:" خلدوا والله، فلا يموتون، وأقاموا فلا يَظْعُنون، ونَعِمُوا فلا يبأسون".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، خلود فلا موت فيه، ويا أهل النار، خلود فلا موت فيه".

=

=

قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا} [ق: ٣٥]، أي:" لهؤلاء المؤمنين في الجنة ما يريدون".

قال النحاس:" أي: لهم ما يريدون".

قال الواحدي: وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم، فيعطون ما شاءوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: {ولدنيا مزيد} ".

قال ابن كثير:" أي: مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم".

وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: "إنك لتشتهي الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشويا".

عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة، كان حمله ووضعه وسِنّه في ساعة واحدة".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، في قوله: {لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها ولَدَيْنا مَزِيدٌ}، قال: "لو أنّ أدنى أهل الجنّة لو نزل به أهل الجنّة كلّهم لأوسعهم طعامًا وشرابًا ومجلسًا وخَدمًا".

قال القشيري:" لم يقل: «لهم ما يسئلون» بل قال: {لَهُمْ ما يَشاؤُنَ}: فكلّ ما يخطر ببالهم فإنّ سؤلهم يتحقق لهم في الوهلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإنّ لهم غدا منه الإحسان.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ".

قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥]، أي:" ولدينا على ما أعطيناهم زيادة نعيم، أعظَمُه النظر إلى وجه الله الكريم".

قال مقاتل:" يعنى: وعندنا مزيد".

قال الطبري:" يقول: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جلّ ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه".

=

=

قال الزجاج:" مما لم يخطر على قلوبِهِم".
وفي قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥]، وجوه من التفسير:
أحدها: أنه النّظر إلى الله ﷻ.
عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : "أتانى جبرائيل عليه السلام و فى يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء، فقلت : ما هذا ياجبرائيل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك ﷻ لتكون لك عيدا و لقومك من بعدك تكون أنت الأول و تكون اليهود و النصارى من بعدك، قلت : ما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير، فيها ساعة من دعا الله فيها بخير هو قسم له أعطاه إياه، أو ليس بقسم إلا ذخر له ماهو أعظم منه، قلت : ما هذه النكتة السوداء فيها ؟، قال : هى الساعة تقوم يوم الجمعة و هو سيد الأيام عندنا و نحن ندعوه يوم المزيد فى الآخرة، قلت : و ما يوم المزيد ؟، قال : إن ربك اتخذ فى الجنة واديا أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل تبارك و تعالى من عليين على كرسيه ثم حف الكرسى بمنابر من نور، ثم جاء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم حف المنابر بكراسى من ذهب، ثم جاء الصديقون و الشهداء حتى يجلسوا عليها، ثم جاء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثيب فيتجلى لهم ربهم ﷻ حتى ينظروا إلى وجهه، ثم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى و أتممت عليكم نعمتى، و هذا محل كرامتى، فيسألونه و يسألونه حتى تنتهى رغبتهم، فيفتح لهم عند ذلك مالا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، إلى أوان منصرف الناس من يوم الجمعة، ثم يصعد على كرسيه و يصعد معه الصديقون و الشهداء، و يرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء لا فصم فيها و لا نظم أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء، فيها غرفها و أبوابها بها مطردة فيها أنهار متذللة فيها أثمارها فيها أزواجها و خدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من كرامته ﷻ و ليزدادوا نظرا إلى وجهه فلذلك دعى يوم

=

=

المزيد) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ١٨٥)، وفي مسنده (٣٧٤) وغيره والحديث قال عنه العراقي في المغني (١/ ١٣٢): إسانيده ضعيفة، وقال المنذري في الترغيب: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط بإسنادين أحدهما جيد قوي وأبو يعلى مختصرا ورواته رواة الصحيح، وقال الإمام المصنف في حادي الأرواح (ص٢١٩): هذا حديث كبير عظيم الشان رواه أئمة السنة وتلقوه بالقبول وجمل به الشافعي مسنده، وقال الذهبي في العلو (٢٩): هذا حديث مشهور وافر الطرق، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٦/ ١٦): له طرق، وقال السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/ ٨٧): روي من طرق جيده، وقال الهيتمي في الزواجر (٢/ ٢٦٢): إسناده جيد قوي، وقال العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٦١): حسن لغيره، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٦)، ثم عاد وقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٥٩): ظاهر إسناده الحسن، لكن الصعق بن حزن وهم فيه نقص رجلا كما قال أبو حاتم والرجل هو عثمان أبو اليقظان قال فيه البخاري وأبو حاتم منكر الحديث.

الثاني: أن المزيد من يزوج بهن من الحور العين، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا.

وحكي الزجاج:"أن السحاب يَمُرَّ بأهل الجنة، فيمطرهم الحورَ، فتقول الحور: نحن اللواتي قال الله ﷻ: «ولدينا مزيد» ".

عن كثير بن مرة قال: "من «المزيد» أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك، لأقولن: أمطرينا جواري مزينات".

الثالث: أن الزِّيادة على ما تمنَّوه وسألوا ممّا لم تسمع به أذن ولم يخطُر على قلب بشر، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

الرابع: أنها الزيادة التي ضاعفها الله من ثوابه بالحسنة عشر أمثالها.

=

=

قال البغوي: "يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم".

قال القشيري:" اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية، والنظر إلى الله سبحانه. وقوم يقولون: المزيد على الثواب في الجنة- ولا منافاة بينهما".

قال ابن عطية:" ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة، لأن الله تعالى يقول: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ} [السجدة: ١٧] وهم يعينونها تكلفا وتعسفا. وروي عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن المزيد: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف".

عن محمد بن سيرين-من طريق ابن عون- قال: حدّثنا -أو قال:" قالوا- إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة الذي يُقال له: تمَنّ. ويذكِّره أصحابه، فيتمنى، ويذكِّره أصحابه، فيقال: له ذلك ومثله معه. قال: قال ابن عمر: ذلك لك وعشرة أمثاله، وعند الله مزيد".

قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا} [ق: ٣٦]، أي:" وأهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش أممًا كثيرة، كانوا أشد منهم قوة وسطوة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وكثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، {هُمْ أَشَدَّ} من قريش الذين كذّبوا محمدا {بَطْشًا} ".

وللمفسرين في المراد بـ«القرن»، أقوال:

أحدها: أن القرن: سبعون سنة. قاله قتادة.

الثاني: أنه ستون سنة. قاله الحسن.

الثالث: أن القرن أربعون سنة. قاله إبراهيم.

الرابع: أنه عشرون سنة. وهذا مروي عن الحسن -أيضا -

عن مالك بن دينار، قال: "سألت الحسن، عن القرن، فقال: عشرون سنة".

=

=

الخامس: أنه مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى، وإياس بن معاوية.

السادس: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك.

السابع: أنه مائة سنة، قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو قول الجمهور.

والراجح أن القرن مئة سنة، إذ ورد فيه الحديث مرفوعا وهو حديث قوي. والله أعلم.

قوله تعالى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ} [ق: ٣٦]، أي:" فساروا في البلاد يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها".

وفي قوله تعالى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ} [ق: ٣٦]، وجوه:

احدها: أثروا في البلاد، قاله ابن عباس.

قال مجاهد:" يقول: عملوا في البلاد، ذاك النقْب".

الثاني: أنهم ملكوا في البلاد، قاله الحسن.

الثالث: ساروا في البلاد وطافوا، قاله قتادة، وبه قال الفراء، والطبري، ومنه قول امرئ القيس :

وقَدْ نَقَّبْتُ فِي الآفاقِ حتَّى... رَضِيتُ مِنَ السلامة بالإياب

وعن مجاهد:" يقول: ضربوا في البلاد".

قال الزجاج:" المعنى: طوّقوا وفتّشوا".

قال الفراء:" خرّقوا البلاد فساروا فيها".

قال أبو عبيدة:" طافوا وتباعدوا".

قال الطبري:" يقول: فَخَرَّقُوا البلادَ فساروا فيها، فطافوا وتوغَّلوا إلى الأقاصي منها".

وقال المبرد: "نقبوا في اللغة: طوفوا. وأصله من النقب وهو الطريق، كأنهم سلكوا كل طريق".

=

=

قال الراغب:" النَّقْبُ في الحائِطِ والجِلْدِ كالثَّقْبِ في الخَشَبِ، يقال: نَقَبَ البَيْطَارُ سُرَّةَ الدَّابَّةِ بالمِنْقَبِ، وهو الذي يُنْقَبُ به، والمَنْقَبُ: المكانُ الذي يُنْقَبُ، ونَقْبُ الحائط، ونَقَّبَ القومُ:

سَارُوا. قال تعالى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} [ق: ٣٦] وكلب نَقِيبٌ: نُقِبَتْ غَلْصَمَتُهُ لِيَضْعُفَ صَوْتُه".

الرابع: أنهم اتخذوا فيها طرقًا ومسالك، قاله ابن جريج.

الخامس: أنه اتخاذ الحصون والقلاع. أفاده الماوردي.

قال السعدي:"أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد".

قال أبو السعود:" أي: خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا في أقطارها أو جالوا في أكناف الأرض كل مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقير عن الأمر والبحث والطلب، و «الفاء» للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب قيل هي عاطفة في المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا".

وقرأ يحيى بن يعمر «فَنَقِبُوا»، على وجه التهديد والوعيد: أي طوّفوا في البلاد، وتردّدوا فيها، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم، وهي قراءة ابن عباس، وأبى العالية، ونصر بن سيار، وأبى حيوة، والأصمعى عن أبى عمرو.

قال الزجاج وتقرأ: «نَقِّبوا في البلاد»، أي: فتشوا وانظروا، ومن هذا نَقيبُ القومِ للذي يعرف أمرهم، مثل العريف".

قوله تعالى: {هَلْ مِنْ مَحِيصٍ} [ق: ٣٦]، أي:" هل من مهرب من عذاب الله حين جاءهم؟ ".

قال الفراء:" فهل كَانَ لهم من الموت من محيص؟ ".

=

=

قال الطبري: يقول:" فهل كان لهم بتنقبهم في البلاد من معدل عن الموت؛ ومَنْجي من الهلاك إذ جاءهم أمرنا".

قال ابن قتيبة:" أي: هل يجدون من الموت محيصًا؟! فلم يجدوا ذلك".

قال ابن كثير:" أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص".

قال السعدي:" أي: لا مفر لهم من عذاب الله، حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم".

عن ابن زيد، قوله:" {هَلْ مِنْ مَحِيصٍ}، قال: هل من منجي".

قال قتادة:" قد حاص الفَجرة فوجدوا أمر الله مُتَّبِعا".

وقال قتادة-في رواية أخرى-:" حاص أعداء الله، فوجدوا أمر الله لهم مُدْرِكا".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق: ٣٧]، أي:" إن في إهلاك القرون الماضية لعبرة لمن كان له قلب يعقل به".

قال النحاس: "أي: إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها وقصصنا خبرها. {لَذِكْرى} يتذكّر بها من كان له قلب يعقل به".

قال الطبري: يقول:" إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها من قبل قريش {لَذِكْرَى} يُتذَكَّر بها لمن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم، خوفا من أن يحلّ بهم مثل الذي حل بهم من العذاب.. والقلب في هذا الموضع: العقل. وهو من قولهم: ما لفلان قلب، وما قلبه معه: أي ما عقله معه. وأين ذهب قلبك؟ يعني أين ذهب عقلك".

قال ابن كثير:" أي: لعبرة {لِمَنْ كَانَ لَهُ} لُبٌّ يَعِي به".

قال السعدي:" أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات

=

=

الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع".

قال قتادة:" أي: من هذه الأمة، يعني بذلك القلبِ: القلبَ الحيّ".

قال قتادة:" من كان له قلب من هذه الأمة".

قال ابن زيد:" قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم".

عن علي بن أبي طالب -من طريق عياض- قال: "إنّ العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والرأفة في الطِّحال، والنَّفْس في الرئة".

عن علي بن أبي طالب -من طريق إبراهيم- قال: "التوفيق خير قائد، وحُسن الخُلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحْشة أشدّ من العُجب".

قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، أي:" أو أصغى السمع، وهو حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ".

قال الطبري:" يقول: أو أصغى لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكناها بسمعه، فيسمع الخبر عنهم، كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم، وعصوْا رسله، وهو متفهم لما يخبرُ به عنهم شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه".

قال ابن كثير:" أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه".

قال النحاس: "أي: أصغى. {وَهُوَ} متفهّم غير ساه، والجملة في موضع نصب على الحال".

قال السمعاني:" أي: استمع بأذنه وهو حاضر بفؤاده، والمعنى: أنه يستمع، ولا يشغل قلبه بما يمنعه من السماع".

قال الزمخشري:" {لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ}، أي: قلب واع، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع: الإصغاء، {وَهُوَ شَهِيدٌ}، أي: حاضر بفطنته، لأنّ من لا

=

=

يحضر ذهنه فكأنه غائب، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه :

ما شئت من زهزهة والفتى... بمصقلاباذ لسقى الزروع".

قال أبو عبيدة:" يقول الرجل للرجل: ألق إليّ سمعك، أي: استمع مني".

قال الواحدي:" وليس يراد بالسمع -هاهنا-: الأذن، وإنما يراد حاسة السمع، كأنه قيل: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له".

قال ابن قتيبة:" يقول: استمَعَ كتاب الله: وهو شاهدُ القلبِ والفهمِ ليس بغافلٍ ولا ساه".

قال الجصاص:" يعني: وهو عاقل؛ لأنه يشهد الدليل الذي يميز به الحق من الباطل".

قال أبو هلال العسكري:" حقيقة إلقاء السمع الاستماع؛ أي: استمع إليك وهو شهيد؛ أي: قلبه شاهد عندك لا يغيب عنك فهمه، وإذا كان كذلك انتفع بالخير الذى تدعوا إليه".

قال أبو السعود:" فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى {وهو شهيد} أي حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للإيذان بأن من عري قلبه عنها كمن لا قلب له أصلا".

وقال الحسين بن الفضل، في قوله: {أَلْقَى السَّمْع} : "يعني: وجه سامعه وحولها إلى الذكر كما يقال اتبعي إليه".

وقرأ السدى وجماعة: «ألقى السمع»، على البناء للمفعول. ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن.

قال سهل:" يعني: استمع إلى ذكرنا وهو حاضر مشاهد ربه غير غائب عنه".

=

=

وسئل سهل عن العقل، قال: "العقل حسن النظر لنفسك في عاقبة أمرك".

قال السعدي:" وأما المعرض، الذي لم يلق سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته".

وفي معنى «الشهيد» -هنا-، قولان :

القول الأول: عنى بـ «الشهيد»: حضور القلب من غير غياب، أي: الفطن الحاضر الذهن.

وقد تعددت عبارات أهل هذا القول في تفسير قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، على وجوه:

أحدها: المعنى: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:" وهو لا يحدّث نفسه، شاهد القلب".

الثاني: استمع بأذنيه، وهو شاهد، غير غائب. وهذا قول الضحاك.

قال الضحاك:" كان العرب تقول: ألقى فلان سمعه، أي استمع بأذنيه، وهو شاهد، يقول: غير غائب".

قال الضحاك:" العرب تقول: ألقى فلان سمعه: أي: استمع بأذنيه".

الثالث: معناه: إن استمع الذكر وشهد أمره، فإن ذلك يجزيه إن عقله. قاله ابن عباس.

الرابع: يسمع ما يقول، و [ليس] قلبه في غير ما يسمع. قاله سفيان.

القول الثاني: عنى بـ «الشهيد» -في هذا الموضع-: «الشهادة». ومن ثم تعددت عباراتهم في تفسير قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، على وجوه:

أحدها: يعني بذلك: أهل الكتاب، وهو شهيد على ما يقرأ في كتاب الله من بعث

=

=

محمد ﷺ. قاله قتادة.

عن قتادة: "{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}، على ما في يده من كتاب الله أنه يجد النبيّ ﷺ مكتوبا".

الثاني: أنها في منافق استمع القول ولم ينتفع. وهذا قول ابن عباس، والحسن.

عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: "{لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} [ق: ٣٧] قال: كان المنافقون يجلسون عند رسول الله ﷺ ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال آنفا؟ قال: ليس معهم قلوبهم".

الثالث: أنها في المؤمن يسمع القرآن، وهو شهيد على ذلك، قاله محمد بن كعب، وأبو صالح.

الرابع: {أَلْقَى السَّمْعَ}، يسمع ما قد كان مما لم يعاين من الأحاديث عن الأمم التي قد مضت، كيف عذّبهم الله وصنع بهم حين عَصوا رسله. قاله ابن زيد.

قال الزجاج:" معنى: {مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}، أي: من صرف قلبه إلى التّفَهُّمِ، ألا ترى أن قوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} أنهم لم يستمعوا استماع متفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع

كما قال الشاعر : أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ

ومعنى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ}، أي: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع. والعرب تقول: ألق إليَّ سَمعَك، أي استمع مني. ومعنى: {وَهُوَ شَهِيدٌ}، أي: وقَلْبُه فيما يسمعُ. وجاء في التفسير أنه يعنى به أهل الكتاب الذين كانت عندهم صفة النبي- ﷺ -. فالمعنى على هذا التفسير {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} أن صفة النبي - عليه لسلام- في كتابه".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود}، ادخلوها: أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام؟ لا شك أنه أمر إكرام، لأن الآخرة ليس فيها

=

=

تكليف وإلزام، بل إما إكرام وإما إهانة. فقوله تعالى للمجرمين: {ادخلوا أبوب جهنم} هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا {ادخلوها بسلام} هذا أمر إكرام وقوله {بسلام}، الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دخولًا مصحوبًا بسلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سالمون من الأمراض، وسالمون من الهرم، وسالمون من الموت، وسالمون من الغل، وسالمون من الحسد، وسالمون من كل شيء، فأهل الجنة سالمون {لهم ما يشاءون فيها} أي لهؤلاء المتقين ما يشاءون {فيها} أي: في الجنة {ولدينا مزيد} يعني مزيد على ما يتمنون ويشاءون، لأن الإنسان بحكمه مخلوقًا يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كرمان أو عنب أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت، كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله –ﷻ-: {ولدينا مزيد} يعني نعطيهم فوق ما يشتهون ويتمنون. ومن الزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ ولهذا استدل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وغيره من أهل العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله ﷻ وقال: إن هذه الآية: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد}. كقوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.

{وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا فنقبوا في البلد هل من محيص} لما كانت قريش تكذب النبي عليه الصلاة والسلام وتنكر البعث، وتقول: {أءذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أءنا لمبعوثون} حذرهم الله ﷻ أن يقع بهم ما وقع بمن سبق من الأمم، فقال: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن} أي: كثيرًا من القرون أهلكناهم، والقرن هنا بمعنى القرون، كما قال تعالى: {وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح} فأمم كثيرة أهلكها الله ﷻ لما كذبت الرسل {فنقبوا في البلد} أي: بحثوا في البلاد

=

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨).

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا فِي سِتَّة أَيَّام} أَوَّلهَا الْأَحَد وَآخِرهَا الْجُمُعَة {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب} تَعَب نَزَلَ رَدًّا عَلَى الْيَهُود فِي قَوْلهمْ إنَّ الله اسْتَرَاحَ يَوْم السَّبْت وَانْتِفَاء التَّعَب عَنْهُ لِتَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنْ صِفَات الْمَخْلُوقِينَ

=

يريدون المفر واالجأ من عذاب الله، ولكنهم لم يجدوا مفرًا، ولهذا قال: {هل من محيص} أي لا محيص لهم {ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد} فما أصاب القوم الذين كذبوا الرسل أولًا يصيب من كذب ثانيًا؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها}.

{إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} {إن في ذلك} أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة، فيه ذكرى لنوعين من الناس: الأول {لمن كان له قلب} أي: من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر والثاني: {أو ألقى السمع وهو شهيد} أي استمع إلى غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فبين الله تعالى أن الذكرى تكون لصنفين من الناس:

الأول: من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف، والثاني: من يستمع إلى غيره، ولكن بشرط أن يكون شهيدًا أي حاضر القلب، وأما من كان لا يستمع للموعظة، أو يستمع بغير قلب حاضر، أو ليس له عقل يتدبر به، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرى، لأنه غافل ميت القلب.

وَلِعَدَمِ الْمُمَاسَّة بَيْنه وَبَيْن غَيْره {إِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون}.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩).

{فَاصْبِرْ} خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ {عَلَى مَا يَقُولُونَ} أَيْ الْيَهُود وَغَيْرهمْ مِنْ التَّشْبِيه وَالتَّكْذِيب {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّك} صَلِّ حَامِدًا {قَبْل طُلُوع الشَّمْس} أَيْ صَلَاة الصُّبْح {وَقَبْل الْغُرُوب} أَيْ صَلَاة الظُّهْر وَالْعَصْر.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠).

{وَمِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ} أَيْ صَلِّ الْعِشَاءَيْنِ {وَأَدْبَار السُّجُود} بِفَتْحِ الْهَمْزَة جَمْع دَبْر وَكَسْرهَا مَصْدَر أَدْبَرَ أَيْ صَلِّ النَّوَافِل الْمَسْنُونَة عَقِب الْفَرَائِض وَقِيلَ الْمُرَاد حَقِيقَة التَّسْبِيح فِي هَذِهِ الْأَوْقَات ملابسا للحمد.

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١).

{وَاسْتَمِعْ} يَا مُخَاطَب مَقُولِي {يَوْم يُنَادِ الْمُنَادِ} هُوَ إِسْرَافِيل {مِنْ مَكَان قَرِيب} مِنْ السَّمَاء وَهُوَ صَخْرَة بَيْت الْمَقْدِس أَقْرَب مَوْضِع مِنْ الْأَرْض إِلَى السَّمَاء يَقُول أَيَّتهَا الْعِظَام الْبَالِيَة وَالْأَوْصَال الْمُتَقَطِّعَة وَاللُّحُوم الْمُتَمَزِّقَة وَالشُّعُور الْمُتَفَرِّقَة إِنَّ الله يَأْمُركُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاء.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢).

{يَوْم} بَدَل مِنْ يَوْم قَبْله {يَسْمَعُونَ} أَيْ الْخَلْق كُلّهمْ {الصَّيْحَة بِالْحَقِّ} بِالْبَعْثِ وَهِيَ النَّفْخَة الثَّانِيَة مِنْ إِسْرَافِيل وَيُحْتَمَل أَنْ تَكُون قَبْل نِدَائِهِ وَبَعْده {ذَلِكَ} أَيْ يَوْم النِّدَاء وَالسَّمَاع {يَوْم الْخُرُوج} مِنْ الْقُبُور وَنَاصِب يَوْم يُنَادِي مقدرا أي يعلمون عاقبة تكذيبهم.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣).

{إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير}[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته، عن خلق السماوات والأرض؛ فقال: "خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الله الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب؛ فهذه أربعة فقال ﷻ: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠)} [فصلت:٩، ١٠]، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه؛ فخلق في أول ساعة من هذه الثلاث الساعات الآجال حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء فما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم أسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة"، ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟! قال: ثم استوى على العرش"، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، قال: فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا؛ فنزلت: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٤٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ٦١)، و"تاريخ الأمم والملوك" (١/ ٢٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٦)، والنحاس في "ناسخه" (ص ٢٢٦)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣ رقم ٧٦٥)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٤/ ١٣٦٢، ١٣٦٣ رقم ٨٧٨) من طريق أبي بكر بن عياش عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف؛ مداره على أبي سعد البقال وهو ضعيف مدلس؛ كما في =

=

"التقريب" (١/ ٣٠٥).

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"؛ فتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: فيه أبو سعد البقال؛ قال ابن معين: لا يكتب حديثه".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣١٤) وزاد نسبته لابن مردويه.

وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢١٠، ٢١١) عن معمر عن ابن عيينة عن أبي سعيد البقال عن عكرمة مولى ابن عباس به مرسلًا.

قلنا: وفيه البقال كما ترى، وخالف معمرًا إسماعيلُ بن صبيح اليشكري (وهو صدق)؛ فرواه عن ابن عيينة به موصولًا بذكر ابن عباس. أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٠، ٤٥١).

قال الحاكم: "وهذا حديث قد أرسله عبد الرزاق عن ابن عيينة عن أبي سعد ولم يذكر فيه ابن عباس وكتبناه متصلًا من هذه الرواية -والله أعلم-" ووافقه الذهبي.

ولا شك أن رواية عبد الرزاق أصح، خاصة أننا لم نجد ترجمة للحسن بن إسماعيل راويه عن إسماعيل بن صبيح، وعلى كل: سواء صحت هذه أو تلك؛ فمدار الحديث في كلتيهما على أبي سعد البقال الضعيف؛ ولذلك قال عنه الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٠١): "فيه غرابة".

وأخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (٤/ ١٣٧١ رقم ٨٨٧) من طريق الحجاج بن منهال ثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن عكرمة؛ قال: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ما يوم الأحد؟ فقال رسول الله ﷺ: "فيه خلق الله ﷻ الأرض وكبسها"، قالوا: الاثنين؟ قال: "خلق فيه وفي الثلاثاء الجبال والماء وكذا وكذا وما شاء الله تعالى"، قالوا: فيوم الأربعاء؟ قال: "الأقوات"، قالوا: فيوم الخميس؟ قال: "فيه خلق الله ﷻ السماوات"، قالوا: يوم الجمعة؟ قال: "خلق في ساعتين الملائكة، وفي ساعتين الجنة والنار، وفي ساعتين الشمس والقمر والكواكب، وفي

=

=

ساعتين الليل والنهار"، قالوا: السبت؟ ذكروا الراحة، قال: "سبحان الله! "، وأنزل الله ﷻ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)}.

قلنا: وسنده ضعيف؛ عطاء بن السائب اختلط، وحماد روى عنه قبل اختلاطه وبعده؛ فيتوقف فيه.

ثم أخرجه (٤/ ١٣٧٢ رقم ٨٨٨) من طريق عفان بن مسلم ثنا حماد به موصولًا بذكر ابن عباس.

ولعل هذا من تخاليط عطاء؛ فكان تارة يرسله، وتارة أخرى يوصله.

وعن أبي بكر؛ قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد! أخبرنا: ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: "خلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاثة ساعات؛ يعني: من يوم الجمعة؛ وخلق في أول الثلاث الساعات: الآجال، وفي الثانية: الآفة، وفي الثالثة: آدم"، قالوا: صدقت إن أتممت، فعرف النبي ﷺ ما يريدون؛ فغضب؛ فأنزل الله تعالى: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ١١١): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن أبي سفيان عن أبي بكر به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: ابن حميد؛ متروك متهم بالكذب.

الثانية؛ مهران؛ له أوهام وهو سيئ الحفظ.

وعن الضحاك؛ قال: قالت اليهود: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، واستراح يوم السبت؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)}.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٠٩) ونسبه لابن المنذر. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٠٩) ونسبه لابن المنذر. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة في قوله: {مِنْ لُغُوبٍ}؛ قال: قالت اليهود: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت؛ فأكذبهم الله ﷻ، وقال: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ١١٢) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٠٩) وزاد نسبته لابن المنذر.

وعن العوام بن حوشب؛ قال: سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الأخرى؛ فقال: لا بأس به، إنما كره ذلك اليهود؛ زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت؛ فجلس تلك الجلسة!! فأنزل الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)}.

نسبه السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦١٠) للخطيب في "تاريخه". وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [ق: ٣٨]، أي:" ولقد خلقنا السموات السبع والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات في ستة أيام".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا السموات السبع والأرض وما بينهما

=

=

من الخلائق في ستة أيام".

قال السعدي:" وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات {السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة".

قال الضحاك:" كان مقدار كل [يوم] ألف سنة مما تعدون".

قوله تعالى: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، أي:" وما أصابنا من ذلك الخلق تعب ولا نَصَب".

قال الطبري: يقول: "وما مسنا من إعياء".

قال السعدي:" من غير تعب، ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها- قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى".

قال ابن زيد:" لم يمسنا في ذلك عناء، ذلك اللغوب".

قال ابن كثير:" فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى".

قال أبو السعود:" وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأخلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا".

عن سفيان: "{وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}، قال: من سآمة".

قال ابن عباس:" يقول: من إزحاف".

وقال ابن عباس:" يقول: وما مسنا من نصب". وروي عن مجاهد نحوه.

قال مجاهد:" اللُّغوب: النّصب، تقول اليهود: إنه أعيا بعد ما خلقهما".

عن قتادة:" {وما مَسَّنا مِن لُغُوبٍ}، أي: من إعياء".

قال قتادة:" أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفرى على الله، وذلك أنهم قالوا:

=

=

إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة".

قال قتادة:" قالت اليهود: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله، وقال: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} ".

عن محمد بن علاثة، قال: "كان عندنا رجل يكتب مصاحف، وكان خفيف اليد. وكتب مصحفًا في ستة أيام. فقيل له: في كم كتبته؟ قال: في ستة أيام وما مسنا من لغوب. قال: فجفت يمينه".

وقال عبد الله بن الحسين التويي الهمذاني: سمعت أبي يقول: "كنت عند أبي حامد الإسفراييني، فذكر له رجل يكتب مصحفًا في يوم، فاجتمع بالرجل فقال له: أنت تكتب مصحفًا في يوم، فقال: نعم، وما مسنا من لغوب! وأشار بثلاثة أصابعه، فجفت يده في الحال".

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [ق: ٣٩]، أي:" فاصبر -أيها الرسول- على ما يقوله المكذبون، فإن الله لهم بالمرصاد".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود، وما يفترون على الله، ويكذبون عليه، فإن الله لهم بالمرصاد".

قال ابن كثير:" يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجرًا جميلا".

قال أبو السعود:" أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه".

قال السعدي: أي:" من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن

=

=

ذكر الله تعالى، مسل للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق: ٣٩]، أي:" وصلِّ لربك حامدًا له صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر قبل الغروب".

قال أبو السعود:" أي: نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامدا له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها {قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة".

وفي هذا التسبيح وجهان:

أحدهما: أنه تسبيحه بالقول تنزيهًا قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، قاله أبو الأحوص.

الثاني: أنها الصلاة، ومعناه: فصلِّ بأمر ربك قبل طلوع الشمس، يعني: صلاة الصبح، وقبل الغروب، يعني: صلاة العصر، قاله أبو صالح، وقتادة، وابن زيد، ورواه جرير بن عبد الله مرفوعًا.

قال الطبري:" يقول: وصل بحمد ربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر قبل الغروب".

عن قتادة:" {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس} قال: هي صلاة الفجر، {وقبل غروبها} قال: صلاة العصر".

عن قتادة:" {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس} قال: صلاة الصبح. {وقبل غروبها} الظهر والعصر".

عن ابن جريج:" {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها}، قال: العصر".

=

=

عن السدي:" {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها}، قال: كان هذا قبل أن تُفرَض الصلاة".

عن جرير بن عبد الله قال: "كنا جلوسا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} ".

قال ابن كثير:" كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب".

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٤٠]، أي:" وصلِّ من الليل، وسبِّحْ بحمد ربك عقب الصلوات".

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} [ق: ٤٠]، وجوه:

أحدها: أنه تسبيح الله تعالى قولًا في الليل، قاله أبو الأحوص.

الثاني: أنها صلاة الليل، قاله مجاهد.

عن مجاهد:" {ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، قال: من الليل كلّه".

الثالث: أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن زيد.

عن ابن زيد:" {ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، قال: العَتَمة".

الرابع: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس.

وروي عن ابن عباس:" {ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، يعني: صلاة العشاءين".

قال الطبري:" والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن الله

=

=

جل ثناؤه قال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، فلم يحد وقتا من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمرا بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمرا بصلاة العتمة، لأنهما يصليان ليلا".

وفي قوله تعالى: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٤٠]، وجوه:

أحدها: أنه التسبيح في أدبار الصلوات، قاله ابن عباس -في رواية-، وأبو الأحوص، ومجاهد.

قال مجاهد:" كان ابن عباس يقول: التسبيح. قال ابن عمرو: في حديثه في إثر الصلوات كلها. وقال الحارث في حديثه في دبر الصلاة كلها".

قال ابن كثير: "ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: «جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلَى والنعيم المقيم. فقال: "وما ذاك؟ " قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: "أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين". قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» ".

الثاني: أنها النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد.

الثالث: أنها ركعتان بعد المغرب، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابنه الحسن، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنَّخَعِي، والحسن، وقتادة، والأوزاعي.

عن مجاهد:" {وأَدْبارَ السُّجُود}، قال: الركعتان بعد المغرب".

=

=

عمرو بن أبي سلمة، قال: سئل الأوزاعي عن الركعتين بعد المغرب، قال: هما في كتاب الله:: {[وَمِنَ اللَّيْلِ] فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} ".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أدبار الصلوات كلها، فقال: وأدبار السجود، ولم تقم بأنه معني به: دبر صلاة دون صلاة، حجة يجب التسليم لها من خبر ولا عقل".

وقرئ: «وإدبار السجود» بكسر الألف، على أنه مصدر أدبر يدبر إدبارا.

قوله تعالى: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} [ق: ٤١]، أي:" واستمع -أيها الرسول- يوم ينادي المَلَك بنفخه في «القرن» من مكان قريب".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب".

قال ابن كثير:" يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}، أي: من الأجداث".

عن ابن عباس، قوله:" {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}، قال: هي الصيحة".

قال كعب:" ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة؛ إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء".

عن ابن بريدة، عن أبيه بريدة، قال: "ملك قائم على صخرة بيت المقدس، واضع أصبعيه في أذنيه ينادي، قال: قلت: بماذا ينادي؟ قال: يقول يا أيها الناس هلموا إلى الحساب؛ قال: فيقبلون كما قال الله: {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر: ٧] ".

=

=

قال قتادة:" كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض".

وعن كعب:" هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} [ق: ٤٢]، أي:" يوم يسمعون صيحة البعث بالحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ذلك يوم خروج أهل القبور من قبورهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يوم يسمع الخلائق صيحة البعث من القبور بالحق، يعني بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب، [ذَلِكَ] يوم خروج أهل القبور من قبورهم".

عن ابن جريج: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَق}، قال: "يسمع النّفخة القريب والبعيد".

عن ابن عباس: {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}، قال:" يوم يخرجون إلى البعث من القبور.

عن عطاء الخراساني: {يَوْمُ الْخُرُوجِ}، قال: "يوم يخرجون إلى البعث من القبور".

قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنا نحن نحيي الموتى ونميت الأحياء".

قال ابن كثير:" أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه".

قال محمد بن إسحاق: {يحيي ويميت}، أي: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء، من ذلك بآجالهم بقدرته".

قوله تعالى: {وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ}، أي:" وإلينا مصيرهم جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء".

قال الطبري: يقول: "وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة".

=

=

قال ابن كثير:" وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال أبو السعود:" للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلا ولا اشتراكا.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} هذه ثلاثة مخلوقات عظيمة بين الله ﷻ أنه خلقها في ستة أيام، وأكَّد هذا الخبر بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد. لأن تقدير الآية: (والله لقد خلقنا السماوات والأرض)، فالسماوات معلومة لنا جميعًا وهي سبع سماوات طباقًا، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وهي سبع أراضين، كما جاءت به السنة صريحًا، وكما هو ظاهر القرآن في قوله: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن}. الثالث {وما بينهما} أي: بين السماء والأرض، والذي بين السماء والأرض مخلوقات عظيمة، يدل على عظمها أن الله جعلها عديلة لخلق السماوات وخلق الأرض، فهي مخلوقات عظيمة، والآن كلما تقدم العلم بالفلك ظهر من آيات الله ﷻ فيما بين السماء والأرض ما لم يكن معلومًا لكثير من الناس من قبل {في ستة أيام} أولها الأحد وآخرها الجمعة، ولو شاء ﷻ لخلقها في لحظة، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن.

فيكون، لكنه- جل وعلا- يخلق الأشياء بأسباب ومقدمات تتكامل شيئًا فشيئًا حتى تتم، كما لو شاء لخلق الجنين في بطن أمه في لحظة، لكنه يخلقه أطوارًا حتى يتكامل، كذلك السماوات لو شاء لخلق السماوات والأرض وما بينهما في لحظة، ولكنه ﷻ يخلق الأشياء تتكامل شيئًا فشيئًا، وقال بعض العلماء: فيه فائدة أخرى، وهي أن يعلّم عباده التأني في الأمور، وأن لا يأخذوا الأمور بسرعة، لأن المهم وهو الإتقان وليس الإعجال والإسراع {وما مسنا من لغوب} أي: ما مسنا من تعب وإعياء، وهذا كقوله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم

=

=

يعى بخلقهن} فهو ﷻ خلق هذه السماوات العظيمة، والأراضين، وما بينها، بدون تعب ولا إعياء، وإنما انتفى عنه التعب- جل وعلا- لكمال قوته وقدرته {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأَرض إنه كان عليمًا قديرًا} {فاصبر على ما يقولون} أمر الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يصبر على ما يقولون، وقد قال ﷻ في آية أخرى {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار} اصبر، فإن العاقبة للمتقين {فاصبر على ما يقولون} فهم يقولون: إن محمدًا كذاب، وساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، وأنه لا بعث، وإن كانوا يقرون بالرب ﷻ وأنه خالق السماوات والأرض، لكن لا يقرون بأمور الغيب المستقبلة، فأمره الله أن يصبر على ما يقولون، والصبر على ما يقولون يتضمن شيئين: الأول عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به، والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} سبح تسبيحًا مقرونًا بالحمد في هذين الوقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، قال أغلب

المفسرين: المراد بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة» والبردان هما الفجر وفيه برودة الليل، والعصر وفيه برودة النهار، وقال النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها» فالصلاة التي قبل طلوع الشمس هي الفجر، والصلاة التي قبل غروبها هي العصر، وفيه دليل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب دخول الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم، وأفضلهاالعصر، لأن الله تعالى خصها بالذكر حين أمر بالمحافظة على الصلوات

=

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤).

{يَوْم} بَدَل مِنْ يَوْم قَبْله وَمَا بَيْنهمَا اعْتِرَاض {تَشَقَّق} بِتَخْفِيفِ الشِّين وَتَشْدِيدهَا بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِيهَا {الْأَرْض عَنْهُمْ سِرَاعًا} جَمْع سَرِيع حَال مِنْ مُقَدَّر أَيْ فَيَخْرُجُونَ مُسْرِعِينَ {ذَلِكَ حَشْر عَلَيْنَا يَسِير} فِيهِ فَصْل بَيْن الْمَوْصُوف وَالصِّفَة بِمُتَعَلِّقِهَا لِلِاخْتِصَاصِ وَهُوَ لَا يَضُرّ وَذَلِكَ إِشَارَة إِلَى مَعْنَى الْحَشْر الْمُخْبَر بِهِ عَنْهُ وَهُوَ الْإِحْيَاء بَعْد الْفَنَاء وَالْجَمْع للعرض والحساب.

=

فقال: {حفظوا على الصلوت والصلاة الوسطى} وهي العصر، كما فسرها بذلك أعلم الخلق بكتاب الله وهو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم،

{ومن الليل فسبحه} أيضًا سبح الله من الليل و (من) هنا للتبعيض، يعني سبحه أيضًا جزء من الليل، ويدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ويدخل في ذلك أيضًا التهجد {وأدبر السجود} أي وسبح الله أدبار السجود، أي أدبار الصلوات، وهل المراد بالتسبيح أدبار الصلوات النوافل التي تصلى بعد الصلوات كراتبة الظهر بعدها، وراتبة المغرب بعدها، وراتبة العشاء بعدها، أو المراد التسبيح الخاص؟ وهو سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر.

فيه قولان للمفسرين، ولو قيل بهذا وهذا لكان له وجه.

قوله تعالى: {واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب} أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس {يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج} من القبور {إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير} (إنا) يقول الله عن نفسه {إنا} تعظيمًا له {نحى ونميت} أي: نحيي بعد الموت، ونميت بعد الحياة، فهو قادر على الإحياء بعد الموت، وعلى الموت بعد الإحياء {وإلينا المصير} أي المرجع.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥).

{نَحْنُ أَعْلَم بِمَا يَقُولُونَ} أَيْ كُفَّار قُرَيْش {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} تُجْبِرهُمْ عَلَى الْإِيمَان وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْجِهَادِ {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يخاف وعيد} وهم المؤمنون[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: قالوا: يا رسول الله! لو خوفتنا؛ فنزلت: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ١١٥): ثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، قال: ثنا حكام بن سلم الرازي عن أيوب عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف؛ لانقطاعه بين عمرو وابن عباس، فعمرو من أتباع التابعين ولم يدرك أحدًا من الصحابة، وأيوب بن سيار؛ ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة وابن معين وغيرهم. وخالف ابن حميد -وهو ضعيف متهم- نصرًا؛ فرواه عن حكام به مرسلًا لم يذكر ابن عباس.

أخرجه الطبري. وعلى كل؛ فالحديث ضعيف على كلا الحالين.

* قوله تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا}.

قال مجاهد: "تُمطر السماء عليهم حتى تشقّق الأرض عنهم".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه وإلينا مصيرهم يوم تصدع الأرض عنهم فيخرجون منها سراعا".

قال ابن كثير:" وذلك أن الله تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله

=

=

إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، ﷻ: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، ﷻ، {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا} [الإسراء: ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا أول من تنشق عنه الأرض» ".

قوله تعالى: {ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} [ق: ٤٤]، أي:" ذلك الجمع في موقف الحساب علينا سهل يسير".

قال عطاء: "بَعْثٌ علينا سهل".

وقال الكلبي: "سَوْق علينا هين".

قال مقاتل:" يعني: جميع الخلائق علينا هين".

قال الطبري: "يقول: جمعهم ذلك جمع في موقف الحساب، علينا يسير سهل".

قال ابن كثير:" أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: ٢٨] ".

قال أبو السعود:" {ذلك حشر} بعث وجمع وسوق {علينا يسير} أي هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى".

قال السمعاني:" هو جواب لقولهم في أول السورة: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد} [ق: ٣] ".

قال ابن عطية:" {عَلَيْنا يَسِيرٌ}، تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعنى: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن،

=

=

كما قال تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٨] ".

قوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} [ق: ٤٥]، أي:" نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون مِن افتراء على الله وتكذيب بآياته".

قال الواحدي:" أي: تكذيبك، يعني: كفار مكة".

قال السمعاني:" أي: بما يقولون من الشرك والكذب على الله وعلى رسوله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت".

قال ابن كثير:" أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٧-٩٩] ".

قال الزمخشري:" {نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُون} تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ".

قال السعدي: يقول:" {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} لك، مما يحزنك، من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف، من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم، من رسل الله".

قال ابن عطية:" وعيد محض للكفرة".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، أي:" وما أنت -أيها الرسول- عليهم بمسلَّط؛ لتجبرهم على الإسلام، وإنما بُعِثْتَ مبلِّغًا".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: لست عليهم بمسلَّط فتجبرهم وتقهرهم على الإيمان والإسلام، يقال:

=

=

جبرته على كذا، أي: قسرته، فـ «جبار» بناء مبالغة من: «جبر». قاله الفراء، وابن قتيبة، والطبري، والسجستاني، والنحاس، ولذلك قيل لكل متسلط: جبار. قال الشاعر :

قال الزجاج:" هذا كما قال: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢٢]، وهذا قبل أن يؤمر النبي- ﷺ- بالحرب لأن سورة (ق) مكية".

قال الماوردي:" وهو من صفات المخلوقين ذم".

قال السمعاني:" الجبار في صفات الله محمود، وفي صفات الخلق مذموم، وكذلك المتكبر؛ لأن الخلق أمروا بالتواضع والخشوع والخضوع ولين الجانب وخفض الجناح، وأما الرب جل جلاله فيليق به الجبروت والكبرياء: لأنه المتعالي عن إدراك الخلق، القاهر لهم في كل ما يريده، ولم يصفه أحد حق صفته، ولا عظمه أحد حق تعظيمه، ولا عرفه أحد حق معرفته".

قال الماتريدي:" الجبار: هو الذي يقتل بلا ذنب ولا حق".

الثاني: معناه: إنك لم تبعث لتجُبرهم عَلَى الْإِسْلَام والهدى إنَّما بعثت مُذَكِّرًا فذكّر. من قولهم: قد جبرته على الأمر، إذا قهرته على أمر، قاله الكلبي.

وحكي عن ابن عباس، قال: "لم تبعث لتجبرَهم على الإسلام إنما بُعثتَ مذكِّرا".

قال الكلبي:" وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم".

وأنكر الفراء هذا القول، قائلا:" والعرب لا تَقُولُ: فعّال من أفعلت، لا يقولون: هَذَا خَرّاج ولا دَخّال، يريدون مُدْخِل ولا مُخرِج من أدخلت وأخرجت، إنَّما يقولون: دخال من دخلت، وفعّال من فعلت. وَقَدْ قَالَتِ العرب: درّاك من أدركت، وهو شاذ، فإن حملت الجبار على هذا المعنى فهو وجه. وَقَدْ سمعت بعض العرب يَقُولُ: جبره عَلَى الأمر. يريد: أجبره، فالجبار من هَذِهِ اللغة صحيح يراد بِهِ: يقهرهم ويجبرهم".

=

=

الثالث: معناه: لستَ عليهم بملِك مُسَلَّط. قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: "وليس هو من: أجبرتُ الرجلَ على الأمر: إذا قَهَرْتُه عليه، لأنه لا يقال من ذلك: «فَعَّال». و «الجَبَّار»: الملِكُ، يسمَّى بذلك: لتجبُّره يقول: فلستَ عليهم بملك مسلَّط".

قال الزمخشري:" يجوز أن يكون من: جبره على الأمر. بمعنى: أجبره عليه، أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. و «على» بمنزلته في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم".

الرابع: معناه: لا تتجبر عليهم، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك.

قال قتادة:" فإن الله ﷻ كره الجبرية، ونهى عنها، وقدم فيها".

قال ابن كثير:" القول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جبارًا عليهم، وإنما قال: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ".

عن ابن عباس في قوله: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغشية: ٢٢]، وقوله ﷻ: {وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، وقوله ﷻ: {فَاعْفُ عَنْهُمْ} [المائدة: ١٣]، وقوله ﷻ: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ} [الجاثية: ١٤]. قال: نسخ هذا كلّه قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة ٥]، وقوله ﷻ: {قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إلى قوله: وَهُمْ صاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩]".

وفي بعض التفاسير: "أن قوله: {فاقتلوا المشركين} نسخت سبعين آية من القرآن".

قوله تعالى: {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق: ٤٥]، أي:" فذكِّر بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن مَن لا يخاف الوعيد لا يذَّكر".

=

=

قال ابن عباس: "فعظ بالقرآن من يخاف وعيد ما وعدت من عصاني من العذاب".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: فذكر يا محمد بهذا القرآن الذي أنزلته إليه من يخاف الوعيد الذي أوعدته من عصاني وخالف أمري".

قال النحاس:" أي: وعيدي لمن عصاني وخالف أمري".

قال ابن أبي زمنين:" وهو المؤمن يقبل التذكرة، أي: إنما يقبل نذارتك بالقرآن من يخاف وعيدي؛ أي: وعيدي بالنار".

قال ابن كثير:" أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]، وقوله: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢١، ٢٢]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} ".

قال الزمخشري:" {مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} كقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها}، لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر".

قال أبو السعود:" وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توحيه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب".

قال السعدي: "وإنما يتذكر بالتذكير، من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد، ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره، إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} [المائدة: ١٩] ".

كان قتادة يقول: "اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم".

=

=

وقرأ يعقوب: «وعيدي» بياءٍ في الحالين، أي: ما أَوعدتُ مَنْ عصاني من العذاب.
قال العثيمين: قوله تعالى: {يوم تشقق الأَرض عنهم سراعًا} أي مصيرهم إلينا في ذلك الوقت تشقق الأرض، أي: تتفتح عنهم أي عن هؤلاء في قبورهم، تشقق كما تشقق الأرض عند طلوع النبات، {سراعًا} أي يأتون إلى المحشر {ذلك حشر علينا يسير} أي سهل علينا، لأن الله تعالى يقول في كتابه: {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون} ويقول تعالى: {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة} ويقول تعالى: {إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} وهذا يدل على يسر ذلك على الله ﷻ {نحن أعلم بما يقولون} وهذا وعيد لهؤلاء الذين يقولون في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يقولون، أخبر الله هنا أنه لا يخفى عليه حالهم، وأنه يعلم ما يقولون، ثم قال: {ومآ أنت عليهم بجبار} أي ليست عليه بذي جبروت فتجبرهم على أن يسلموا ويؤمنوا بك، ولهذا قال في آية أخرى: {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} {فذكر بالقرءان من يخاف وعيد} أي عظ بالقرآن الكريم من يخاف الوعيد، أي من يخاف وعيدي بالعذاب، لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالتذكر بالقرآن، فالقرآن يذكر به جميع الناس، ولكن لا ينتفع به إلا من يخاف الله ﷻ، نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بكتابه، المتعظين بآياته.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) (ق: ٢٢- ٢٤)، ثم قال بعد هذا: (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (ق: ٢٦- ٢٧).
يسأل عن ثبوت واو العطف في قوله أولًا: (وَقَالَ قَرِينُهُ) ولم يثبت الواو في الآيةالثانية؟

=

سورة الذاريات[1]

=

والجواب عن ذلك: أن الآية معطوفة على ما قبلها من آيات هي إخبار عما يلقاه الإنسان المتقدم ذكره من الأهوال والشدائد في المواقف الأخراوية وما بين يديها، أولها قوله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) (ق: ١٩)، ثم قال: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (ق: ٢٠- ٢١)، ثم قال: (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) (ق: ٢٣)، فهذه إخبارات عن شدائد بعضها تلو بعض، فطابق ذلك ورود بعضها معطوفًا على بعض. وأما قوله: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) فهو إخبار مبتدأ مستأنف معرف بتبرّئ قرينه من جملة ما تأبطه واجترحه، ولا طريق لعطف ذلك على ما قبله، إنما هو استئناف إخبار، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٤٧).

(١) قال ابن عطية:" هي مكية بإجماع من المفسرين".

وقال ابن الجوزي:" مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال القرطبي:" سورة والذاريات مكية في قول الجميع".

وقال ابن عاشور:" هي مكية بالاتفاق".

* أسماء السورة.

تسمى هذه السورة «والذاريات» بإثبات «الواو» تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} [الذاريات: ١]، وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه والفراء في معاني القرآن، وابن العربي في "أحكام القرآن"، وابن أبي زمنين في "التفسير"، والبيضاوي في "التفسير"، والقرطبي في "التفسير".

وتسمى أيضًا «سورة الذاريات» بدون «الواو» اقتصارًا على الكلمة التي لم تقع في
=

=

غيرها من سور القرآن، وكذلك عنونها الترمذي في "جامعه"،والحاكم في "المستدرك"، وجمهور المفسرين، وكذلك هي في المصاحف المشرقية والمغربية.

ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن.

* عدد آياتها ستُّون. وكلماتها ثلثمائة وستُّون. وحروفها أَلْف ومائتان وسبع وثمانون. مجموع فواصل آياتها (قفاك معن).

* سمّيت بالذَّاريات لمفتتحها.

* معظم مقصود السّورة: ذكر القَسَم بحقِّيّة البعث والقيامة، والإشارة إِلى عذاب أَهل الضَّلالة، وثواب أَرباب الهداية، وحُجّة الوحدانيّة، وكرامة إِبراهيم فى باب الضِّيافة، وفى إِسحاق له بالبشارة، ولقوم لوط بالهلاكة، ولفرعون وأَهله من الملامة، ولعاد وثمود وقوم نوح من الدمار والخسارة، وخَلْق السّماءِ والأَرض للنَّفع والإِفادة، وزوْجيَّة المخلوقات؛ لأَجل الدّلالة، وتكذيب المشركين لما فيه للرّسول- ﷺ- من التسلية، وتخليق الخَلْق لأَجل العبادة، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة فى قوله: {فَلاَ تَسْتَّعْجِلُوْنَ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ} وفى الطُّور {فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ} ليس بتكرار؛ لأَن ما فى هذه السّورة متَّصل بذكر ما به يصل الإِنسان إِليها، وهو قوله {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِيْنَ}، وفى الطَّور متَّصل بما ينال الإِنسانُ فيها إِذا وَصَل إِليها، وهو قوله: {وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم كُلُوا واشربوا} الآيات.

قوله: {إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} وبعده: {إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} ليس بتكرار؛ لأَنَّ كلّ واحد منهما متعلق بغير ما يتعلَّق به الآخر. فالأَوّل متعلِّق بترك الطَّاعة إِلى المعصية، والثانى متعلق بالشرك بالله تعالى. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١).

{وَالذَّارِيَات} الرِّيَاح تَذْرُو التُّرَاب وَغَيْره {ذَرْوًا} مَصْدَر وَيُقَال تَذْرِيهِ ذَرْيًا تَهُبّ بِهِ.

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢).

{فَالْحَامِلَات} السُّحُب تَحْمِل الْمَاء {وِقْرًا} ثِقَلًا مَفْعُول الحاملات

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣).

{فَالْجَارِيَات} السُّفُن تَجْرِي عَلَى وَجْه الْمَاء {يُسْرًا} بِسُهُولَةٍ مَصْدَر فِي مَوْضِع الْحَال أَيْ مُيَسَّرَة

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤).

{فَالْمُقَسِّمَات أَمْرًا} الْمَلَائِكَة تَقْسِم الْأَرْزَاق وَالْأَمْطَار وَغَيْرهَا بَيْن الْبِلَاد وَالْعِبَاد.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥).

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ} مَا مَصْدَرِيَّة أَيْ وَعْدهمْ بِالْبَعْثِ وَغَيْره {لَصَادِق} لَوَعْد صَادِق

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦).

{وَإِنَّ الدِّين} الْجَزَاء بَعْد الْحِسَاب {لَوَاقِع} لَا محالة[1].

=

٤٣٩).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

=

(١) قوله تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}، أي:" أُقسم بالرياح المثيرات للتراب".
قال الطبري:" يقول: والرياح التي تذرو التراب ذروا".
قال أبو عبيدة:" هي الريح، وناس يقولون: المذريات للريح، ذر وأذرت لغتان".
قال ابن قتيبة:" الرياح. يقال: ذَرَت الريح الترابَ تَذْروهُ ذَرْوًا وتَذْرِيه ذَرْيًا. ومنه قوله: {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [الكهف: ٤٥]".
عن خالد بن عرعرة، قال: "قام رجل إلى علي رضي الله عنه، فقال: ما {الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}، فقال: هي الريح".
عن محمد بن جبير بن مطعم، قال: "سمعت عليا رضي الله عنه يخطب الناس، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}، قال: هي الرياح".
قال أبو الطفيل: "سمعت عليا رضي الله عنه يقول: لا يسألوني عن كتاب ناطق، ولا سنة ماضية، إلا حدثتكم، فسأله ابن الكواء عن «الذاريات»، فقال: هي الرياح".
عن ابن زيد، قوله: "{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا}، قال: كان ابن عباس يقول: هي الرياح".
عن مجاهد، قوله: "{وَالذَّارِيَاتِ}، قال: الرياح".
قال السمعاني:" {والذاريات} هي من ذرت الريح التراب وأذرته إذا فرقته، ويقال: إن الذاريات هي النساء الحوامل تذرين الأولاد، والأول هو المختار".
قوله تعالى: {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} [الذاريات: ٢]، أي:" وأقسم بالسحب الحاملات ثقلا عظيمًا من الماء".
قال الطبري:" يقول: فالسحاب التي تحمل وقرها من الماء".
وفي قوله تعالى: {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} [الذاريات: ٢]، وجهان:
أحدهما: أنها السحب يحملن وِقْرًا بالمطر. قاله علي رضي الله عنه، وابن عباس، ومجاهد، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

=

=

وَأَسْلَمْتُ نَفْسي لمَنْ أَسْلَمَتْ... لَهُ المزْنُ تَحْمِلُ عَذْبا زُلالا

قال مجاهد:" السحاب تحمل المطر".

قال الفراء:" يعنى: السحاب لحملها الماء".

الثاني: أنها الرياح يحملن وِقْرًا بالسحاب، فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب لأن أمام كل سحابة ريحًا، والريح الثانية حاملة السحاب. لأن السحاب لا يستقل ولا يسير إلا بريح. وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط، قاله ابن بحر.

وقال الماوردي:" ويجري فيه احتمال قول: ثالث: أنهن الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل، والوقر ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، وبالفتح ثقل الأذن".

قلت: وهذا المعنى لا يحتمله اللفظ ولا تساعده العبارة.-والله أعلم-.

قوله تعالى: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} [الذاريات: ٣]، أي:" وأقسم بالسفن التي تجري في البحار جريًا ذا يسر وسهولة".

قال الطبري:" يقول: فالسفن التي تجري في البحار سهلا يسيرا".

وفي قوله تعالى: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} [الذاريات: ٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: السفن تجري بالريح يسرًا إلى حيث سيرت. قاله علي رضي الله عنه، ومجاهد، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال الفراء:" هي السفن تجرى ميسّرة".

قال ابن قتيبة:" أي: السفن تجري في الماء جريًا سهلا. ويقال: تجري ميسرة؛ أي مسخَّرة".

عن خالد بن عرعرة، قال: "قام رجل إلى عليّ رضي الله عنه فقال: ما الجاريات يسرا؟ قال: هي السفن".

الثاني: النجوم تجري يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى،

=

=

إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك. حكاه ابن كثير.

الثالث: السحاب، حكاه الماوردي.

وفي جريها يسرًا على هذا القول وجهان:

أحدهما: إلى حيث يسيرها الله تعالى من البقاع والبلاد.

الثاني: هو سهولة تسييرها، وذلك معروف عند العرب كما قال الأعشى:

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا... مَوْرُ السَّحَابَةِ لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ

قال ابن كثير:" فأما الجاريات يسرًا، فالمشهور عن الجمهور- كما تقدم -: أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريا سهلا".

قوله تعالى: {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا} [الذاريات: ٤]، أي:" وأقسم بالملائكة التي تُقَسِّم أمر الله في خلقه".

قال الطبري:" يقول: فالملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه".

وفي قوله تعالى: {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا} [الذاريات: ٤]، وجهان:

أحدهما: أنه السحاب يقسم الله به الحظوظ بين الناس. حكاه الماوردي.

الثاني: الملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه، قاله علي رضي الله عنه، وابن عباس، ومجاهد، والكلبي، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال مجاهد:" الملائكة ينزلها بأمره على من يشاء".

قال الفراء:" الملائكة تأتي بأمر مختلف: جبريل صاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت، فتلك قسمة الأمور".

وقال مقاتل:" يعني: أربعة من الملائكة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، يقسمون الأمر بين الخلائق، وهم المدبرات أمرا بأمره في بلاده وعباده فأقسم الله- تعالى- بهؤلاء الآيات".

قال الماوردي:" وهم: جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل وهو

=

=

صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو ملك الموت وقابض الأرواح، عليهم السلام".

قال الماوردي:" والواو التي فيها واو القسم، أقسم الله بها لما فيها من الآيات والمنافع ".

عن خالد بن عرعرة، قال: "قام رجل إلى عليّ رضي الله عنه فقال: ما الجاريات يسرا؟ قال: هي السفن؛ قال: فما الحاملات وقرا؟ قال: هي السحاب؛ قال: فما المقسمات أمرا؟ قال: هي الملائكة".

قال الزجاج:" والمفسرون جميعًا يقولون بقول عليٍّ في هذا، {وَالذَّارِيَاتِ} مجرور على القسم، المعنى: أحلف بالذاريات وبهذه الأشياء، والجواب: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ}. وقال قوم: المعنى: وَرَبِّ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا، كما قال عز وجل: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ}. والذاريات من ذَرَتِ الريح تَذرو إذا فرقت التراب وغيره... والمعنى: وربِّ الرياحِ الذارياتِ، وربِّ السُفُنِ الجارياتِ، وربِّ الملائكةِ المقسماتِ، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ".

قال القشيري:" أقسم بربّ هذه الأشياء وبقدرته عليها. وجواب القسم: {إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ} ".

وروي عن سعيد بن المسيب قال: "جاء صَبِيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن {الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} ؟ فقال: هي الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن {الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا} قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن {الْجَارِيَاتِ يُسْرًا} قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: ثم أمر به فضرب مائة وجعله في بيت، فلما برئ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله على قَتَبٍ وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من

=

=

مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما أخاله إلا قد صدق، فخل بينه وبين مجالسته الناس"، قال أبو بكر البزاز:" وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ من وجه من الوجوه إلا من هذا الوجه، وإنما أتى من أبي بكر بن أبي سبرة فيما أحسب لأن أبا بكر لين الحديث وسعيد بن سلام لم يكن من أصحاب الحديث، وإنما ذكرت هذا الحديث إذ لم أحفظه عن رسول الله ﷺ إلا من هذا الوجه، فذكرته وبينت العلة فيه".

قال ابن كثير:" فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ} [الذاريات: ٥]، أي:" إن الذي توعدون به - أيها الناس- من البعث والحساب لكائن حق يقين".

قال الطبري: يقول:" إن الذي توعدون أيها الناس من قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم لكائن حقّ يقين".

قال مقاتل:" يعني: إن الذي توعدون من أمر الساعة: لحق".

قال ابن كثير:" أي: لخبر صدق".

وفي قوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ} [الذاريات: ٥]، وجهان:

أحدهما: إن يوم القيامة لكائن، قاله مجاهد.

الثاني: ما توعدون من الجزاء بالثواب والعقاب حق، وهذا جواب القسم. حكاه

=

=

الماوردي.

قوله تعالى: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: ٦]، أي:" وإن الحساب والثواب على الأعمال لكائن لا محالة".

قال الماوردي:" وهذا جواب القسم".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: ٦]، وجهان:

أحدهما: إن الحساب لواجب، قاله مجاهد، وبه قال الطبري.

قال الطبري:" يقول: وإن الحساب والثواب والعقاب لواجب، والله مجاز عباده بأعمالهم".

قال مقاتل:" يعنى: إن الحساب لكائن".

قال ابن كثير:" {وَإِنَّ الدِّينَ}، وهو: الحساب {لواقع}، أي: لكائن لا محالة".

عن ابن زيد، قوله: "{وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ}، قال: لكائن".

الثاني: أن الدين الجزاء، ومعناه: أن جزاء أعمالكم بالثواب والعقاب لكائن، وهو معنى قول قتادة، وبه قال ابن قتيبة، والزجاج، ومنه قول لبيد:

قوم يدينون بالنوعين مثلهما... بالسوء سوء وبالإحسان إحسانا

قال قتادة:" وذلك يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم".

قال ابن قتيبة:" يعني: الجزاء بالأعمال والقصاصَ. ومنه يقال: دِنْتُه بما صنع".

قال الزجاج:" أي: إن المجازاة على أعمَالكم لواقعة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والذاريات ذروًا} فالذاريات هي الرياح تذر التراب وغير التراب، قال الله تبارك وتعالى: {فأصبح هشيمًا تذروه الرياح} أي: تفرقه في أمكنة متعددة، وأقسم الله بالذاريات لما فيها من المصالح الكثيرة، ففي تصريفها حكمة بالغة، فمنها الرياح الدافئة، ومنها الرياح الباردة، على حسب ما تقتضيه حكمة الله ﷻ ولأن الرياح تثير سحابًا فيسقي به الله الأرض؛ ولأنها تسير السفن،

=

=

ففيما سبق كانت السفن تجري على الرياح، قال الله تعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان}.

{فالحاملات وقرًا} المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة، قال الله تبارك وتعالى: {هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشيء السحاب الثقال} فهي ثقيلة محملة بمياه عظيمة بحار، ولذلك تمطر فتجري الأرض أنهارًا بإذن الله ﷻ فالذاريات: الرياح، والحاملات: السحب، والارتباط بينهما ظاهر؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب وهي التي تلقح السحاب بالماء، قال الله تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه}

{فالجاريات} هن السفن {يسرًا} أي: بسهولة، قال الله تبارك وتعالى: {إنا لما طغا الماء حملنكم في الجارية} أي: في السفينة، هذه السفينة ميسرة بإذن الله ﷻ بما يسره الله تعالى من الرياح الطيبة، وكلما كانت الريح مناسبة كان سيرها أيسر، والآن جاءت السفن النارية التي لا تحتاج إلى الرياح فصارت أيسر وأيسر، تجدها قرى كاملة تمخر عباب الماء وتسير بسهولة، والارتباط بين هذه الثلاثة أن الرياح تحمل الأمطار، وأن السحب تحمل الأمطار، فتنزل إلى الأرض، فيكون الرزق للمواشي والآدميين، والجاريات أي السفن، هي أيضًا تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، فلا يمكن أن تصل الأرزاق من جهة إلى جهة أخرى بينها وبينها بحر إلا عن طريق السفن.

{فالمقسمات أمرًا} وهم الملائكة، وجمعهم لأنه يجوز جمع المؤنث باعتبار الجماعات، أي: فالجماعات المقسمات {أمرًا} التي تقسم الأمر، أي: شئون الخلق، ويحتمل أن يكون {أمرًا} أي: بأمر الله، والمعنى صحيح على كلا التقديرين، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقسمون ما يريد الله ﷻ من أرزاق

=

=

الخلق وغيرها بأمر الله ﷻ هذه أربع جمل: الذاريات، الحاملات، الجاريات، المقسمات، كل هذه مقسم بها، والمقسم عليه: {إنما توعدون لصادق} يعني ما وعدكم الله تعالى فهو وعد صادق، والصادق هو المطابق للواقع، وذلك لأن الخبر نوعان: نوع يخالف الواقع، وهذا يسمى كذبًا، ونوع يطابق الواقع، وهذا يسمى صدقًا، سواء كان المخبر عنه ماضٍ أو مستقبلًا، فأقسم الله ﷻ بهذه المخلوقات على إنما نوعد صادق. فلابد أن يقع إذا وقع ما نوعد، وهوالبعث يوم القيامة يتلوه الجزاء، ولهذا قال: {وإن الدين لواقع} الدين يعني الجزاء، والدين يطلق أحيانًا بمعنى الجزاء، وأحيانًا بمعنى العمل، ففي قوله تعالى: {لكم دينكم ولى دين} المراد به العمل، وفي قوله تبارك وتعالى: {مالك يوم الدين} المراد به الجزاء، وهنا {وإن الدين لواقع} أي الجزاء لابد أن يقع، لأن الله على كل شيء قدير. وقد قال الله تعالى: {يوم تشقق الأَرض عنهم سراعًا ذلك حشر علينا يسير}.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والذاريات ذروا (١) فالحاملات وقرا (٢) فالجاريات يسرا (٣) فالمقسمات أمرا (٤)} [الذاريات: ١ - ٤]، أقسم بـ "الذاريات" وهي: الرياح؛ تذرو المطر، وتذرو التراب، وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: {فأصبح هشيما تذروه الرياح} [الكهف: ٤٥]؛ أي: تفرقه وتنشره.

ثم أقسم بما فوقها وهي: السحاب الحاملات وقرا، أي: ثقلا من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله- سبحانه- على متون الرياح؛ كما في "جامع الترمذي" من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: "هل تدرون ما هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا

=

=

يشكرونه، ولا يدعونه".

ثم أقسم- سبحانه- بما فوق ذلك، وهي "الجاريات يسرا"؛ وهي: النجوم التي من فوق الغمام، و"يسرا" أي: مسخرة مذللة منقادة.

وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا، ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي؛ فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه.

والصحيح أن "المقسمات أمرا" لا تختص بأربعة.

وقيل: هم:

"جبريل"؛ يقسم الوحي، والعذاب، وأنواع العقوبة على من خالف الرسل.

و"ميكائيل"؛ على القطر، والبرد، والثلج، والنبات، يقسمها بأمر الله.

و"ملك الموت"؛ يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله تعالى.

و"إسرافيل"؛ يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور.

وهم "المدبرات أمرا".

وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم. والله أعلم.

وأقسم- سبحانه- بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته.

ففي "الرياح" من العبر: هبوبها، وسكونها، ولينها، وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها، وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها.

فللمطر خمس رياح: ريح تنشر سحابه، وريح تؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو ماءه وتفرقه.

=

=

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح.

وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها، مدبر لها، ويصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاء تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابا تارة.

فتارة يحيي بها الزروع والثمار، وتارة يقطعها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها؛ وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيما، وتارة لاقحة، وتارة جنوبا، وتارة دبورا، وتارة صبا، وتارة شمالا، وتارة بين ذلك، وتارة حارة، وتارة باردة.

وهي- مع غاية قوتها- ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسارب، بحر بين السماء والأرض، إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك. يحبسها الله- سبحانه- إذا شاء، ويرسلها إذا شاء.

تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز.

وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في "جامعه" من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: "لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، وقالوا: يا رب؛ هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب؛ فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالوا: يا رب؛ فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رب؛ فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله"؛ ورواه الإمام أحمد في "مسنده".

=

=

وفي الترمذي في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

وقد وصفها الله- سبحانه- بأنها عاتية؛ قال البخاري في "صحيحه" : "عتت على الخزنة"، فلم يستطيعوا أن يردوها.

والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب، الدالة على عظمته، وربوبيته، وقدرته.

فصل: ثم أقسم- سبحانه- بـ "السحاب"، وهو من أعظم آياته، بخار ينشئه الله في الجو في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح، فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر بالنبات والحيوان. فأنشأه- سبحانه- في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما تحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل "السحاب": من أنشأه بعد عدمه؟ ومن حمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد؟ وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا، فإن لم يجبك حوارا؛ أجابك اعتبارا.

وسل "الرياح": من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، وجعلها سببا لتمام نعمته، وسلطها على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء، وذارية، ولاقحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات؟ وجعلها قاصفا، وعاصفا، ومهلكة، وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها. فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم بتدبير مدبر شهدت

=

=

الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وسل "الجاريات يسرا" من السفن من أمسكها على وجه الماء؟ ومن سخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها في الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها؛ ولو نقص عنه لعاقها؟

ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الرياح؟

ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده، يشق الماء ويمخره، مقبلا ومدبرا بريح واحدة، تجري في موج كالجبال؛ {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣٣) أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٣٤)} [الشورى: ٣٢- ٣٤].

ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل "الجاريات يسرا" من الكواكب، والشمس، والقمر: من الذي خلقها، وأحسن خلقها، ورفع مكانها، وزين بها قبة العالم؟ وفاوت بين أشكالها، ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها من السماء، فمنها الكبير، ومنها الصغير، والمتوسط، والأبيض، والأحمر، والزجاجي اللون، والدري اللون؟ والمتوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك؟

ومنها ما يقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك.

=

=

ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال، فهو أبدي الظهور، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما له حالتان: ظهور، واختفاء.

ومنها ما له حركتان:

١- حركة عرضية من المشرق إلى المغرب.

٢- وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق.

فحال ما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأن رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته، وحكمته، ووحدانيته = أعظم دلالة.

وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله، فكما جعل الله تعالى النجوم هداية في طرق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق- سبحانه- وقدرته، وعلمه، وحكمته، والمبدأ، والمعاد، والنبوة.

ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية، فهي هداية في هذا وهذا.

فصل: وأما دلالة "المقسمات أمرا" وهم الملائكة؛ فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم: فوكل بالشمس، والقمر، والأفلاك، والنجوم طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب

=

=

طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة.

هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم.

ثم أقسم- سبحانه- بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال: {إنما توعدون لصادق (٥)} [الذاريات: ٥]؛ أي: ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب، {وإن الدين لواقع (٦)} [الذاريات: ٦]؛ أي: إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون "ما" موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: إن الذي توعدونه لصادق، أي: كائن وثابت.

وأن تكون مصدرية، أي: إن وعدكم لحق وصدق.

ووصف الوعد بكونه "صادقا" أبلغ من وصفه بكونه "صدقا"، ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى: مصدوقا فيه، بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، يوصف كلامه بأنه: صادق. وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق، ومنه: {عيشة راضية (٢١)} [الحاقة: ٢١]، وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب.

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه؛ وجدته دالا عليه، مرشدا إليه.

ثم أقسم- سبحانه- بـ "السماء ذات الحبك".

أصل "الحبك" في اللغة: إجادة النسج. يقال: حبك الثوب؛ إذا أجاد نسجه. وحبل

=

=

محبوك؛ إذا كان شديد الفتل. وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه.

وقال شمر: "المحبوك في اللغة: ما أجيد عمله"، "ودابة محبوكة: إذا كانت مدمجة الخلق".

وقال أبو عبيدة، والمبرد: "الحبك: الطرائق، واحدها: حباك. وحباك الحمام: طرائق على جناحيه. وحبك الماء: طرائقه".

وقال الفراء: "الحبك: تكسر كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريح، والماء الدائم إذا مرت به الريح. وتجعد الشعر حبك أيضا، واحدها: حبيكة؛ مثل: طريقة وطرق. وحباك؛ مثل: مثال ومثل".

والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: "يريد الخلق الحسن".

وروى سعيد بن جبير عنه قال: "الحبك: حسنها واستواؤها".

وقال قتادة: "ذات الخلق الشديد".

وقال مجاهد: "متقنة البنيان".

وقال أيضا: "ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وحبك الشعر".

وقال عكرمة: "بنيانها كالبرد المسلسل".

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال: "رأسه حبك"؛ أي: جعد الشعر.

ومن أحسن ما قيل في تفسير "الحبك"؛ ما ذكره الترمذي في تفسير "الجامع" من حديث الحسن، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "هل تدرون ما فوقكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها الرقيع: سقف محفوظ، وموج مكفوف"، وذكر الحديث.

فصل: ثم ذكر المقسم عليه فقال: {إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)} [الذاريات: ٨، ٩]، فالقول المختلف: أقوالهم في القرآن، وفي النبي

=

=

ﷺ، وهو خرص كله. فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم، وآراؤهم، وطرائقهم، وأقوالهم. فإن الحق شيء واحد، وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج (٥)} [ق: ٥]، أي: مختلط ملتبس.

وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضا، بسبب تكذيبهم بالحق.

ثم أخبر- سبحانه- أنه يصرف بسبب ذلك "القول المختلف" من صرف. فـ "عن" هاهنا فيها طرف من معنى: التسبيب، كقوله تعالى: {وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك} [هود: ٥٣]، أي: بسبب قولك.

وقوله: {من أفك (٩)}؛ أي: من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك، كقوله: {فإنكم وما تعبدون (١٦١) ما أنتم عليه بفاتنين (١٦٢) إلا من هو صال الجحيم (١٦٣)} [الصافات: ١٦١- ١٦٣].

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن.

وقيل: إلى الإيمان.

وقيل: الرسول.

والمعنى: يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا "القول المختلف" خرصا وباطلا قال: {قتل الخراصون (١٠)}؛ أي: الكذابون، {الذين هم في غمرة} وجهالة قد غمر قلوبهم- أي: غطاها، وغشاها، كغمرة الماء، وغمرة الموت؛ فغمرات- ما غطاها من جهل، أو هوى، أو سكر، أو غفلة، أو حب، أو بغض، أو خوف، أو هم وغم، ونحو ذلك. قال تعالى: {بل قلوبهم في غمرة من هذا} [المؤمنون: ٦٣]؛ أي: غفلة، وقيل: جهالة. ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، و"السهو": الغفلة عن الشيء، وذهاب

=

=

القلب عنه.

والفرق بينه وبين "النسيان": أن "النسيان" الغفلة بعد الذكر والمعرفة، و"السهو" لا يستلزم ذلك.

ثم قال: {يسألون أيان يوم الدين (١٢)} استبعادا لوقوعه وجحدا، فأخبر تعالى أن ذلك {يوم هم على النار يفتنون (١٣)}.

والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى: يحرقون، ولكن لفظة "على" تعطي معنى زائدا على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحريق لقيل: يوم هم في النار يفتنون.

ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم: "على" بمعنى "في"، كما تكون "في" بمعنى "على".

والظاهر أن فتنتهم على النار قبل فتنتهم فيها، فلهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولها والتعذيب بها فتنة أشد منها.

فهم ومن جعل "الفتنة" هاهنا من: الحريق؛ أخذه من قوله تعالى: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا} [البروج: ١٠]، واستشهد على ذلك- أيضا- بهذه اللفظة التي في "الذاريات".

وحقيقة الأمر أن "الفتنة" تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر: فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة -التي هي أسباب العذاب- في الدنيا سمى جزاءهم: فتنة، ولهذا قال: {ذوقوا فتنتكم}، وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار، والتعذيب بها.

ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بما بعد الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها، وعرضوا عليها، وذلك

=

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧).

{وَالسَّمَاء ذَات الْحُبُك} جَمْع حَبِيكَة كَطَرِيقَةٍ وَطَرِيق أَيْ صَاحِبَة الطُّرُق فِي الْخِلْقَة كَالطَّرِيقِ فِي الرمل.

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨).

{إنَّكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة فِي شَأْن النَّبِيّ ﷺ وَالْقُرْآن {لَفِي قَوْل مُخْتَلِف} قِيلَ شَاعِر سَاحِر كَاهِن شِعْر سِحْر كهانة

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩).

{يُؤْفَك} يُصْرَف {عَنْهُ} عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَالْقُرْآن أَيْ عَنْ الْإِيمَان بِهِ {مَنْ أُفِكَ} صُرِفَ عَنْ الْهِدَايَة فِي عِلْم الله تعالى[1].

=

من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

(١) قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات: ٧]، أي:" وأقسم بالسماء ذات الخَلْق الحسن".

وفي: «السَّمَاء» -ها هنا- وجهان:

أحدهما: أنها السحاب الذي يظل الأرض. حكاه الماوردي.

الثاني: وهو المشهور أنها السماء المرفوعة، قال عبد الله بن عمر:"هي السماء السابعة ".

وفي معنى: «الْحُبُكِ»، أقوال:

أحدها: ذات الخَلْق الحَسَن المستوي، قاله ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والربيع أنس، وأبو صالح، وعطاء الخراساني.وبه قال الطبري.

قال الطبري: يقول: "والسماء ذات الخَلْق الحسن".

قال قتادة:" أي: ذات الخَلْق الحسن".

=

=

قال الربيع بن انس:" ذات الخَلْق الحسن".

قال عطاء الخراساني:" ذات الخلق الحسن الوثيق".

عن ابن عباس: "{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}، قال: حُسنها واستواؤها".

وقال سعيد بن جبير:" حبكها: حسنها واستواؤها".

وقال الحسن:" حبكت بالخلق الحسن، حبكت بالنجوم".

قال الحسن:" ذات الخلق الحسن، حبكت بالنجوم".

عن عمران بن حُدَير، قال: "سُئل عكرِمة، عن قوله: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}، قال: ذات الخلْق الحسن، ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب، قال: ما أحسن ما حبكه".

عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبيَ ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ الكَذَّاب المُضِلَّ، وَإِنَّ رأسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ" يعني بالحبك: الجعودة".

الثاني: ذات الزينة. حكاه ابن عباس -في رواية-، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك.

وقال الحسن:" حبكها: نجومها".

وعن ابن عباس:" {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}، قال: استواؤها: حسنها".

عن سعيد بن جبير: "{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}، قال: حبكها: حسنها واستواؤها".

الثالث: يعني: ذات البُنيان المُتْقَن. قاله مجاهد.

الرابع: أن حبكها مثل حبك الرمل، ومثل حبك الدرع، ومثل حبك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق، حكاه الضحاك، وبه قال مقاتل، والفراء، ومنه قول زهير:

مُكَلَّلٌ بأصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ... ريحُ حَريقٍ لِضاحِي مَائِهِ حُبُكُ

=

=

قال مقاتل:" يعني: مثل الطرائق التي تكون في الرمل من الريح، ومثل الماء تصيبه الريح فيركب بعضه بعضا".

قال الفراء:" الحُبك: تكسُّر كل شيء، كالرملة إِذَا مرت بها الريح الساكنة، والماء القائم إِذَا مرت بِهِ الريح، والدرع درع الحديد لها حُبُك أيضًا، والشَّعرة الجَعدة تكسُّرُها حبك، وواحد الحبك: حِباك، وحَبِيكة".

الخامس: أنها الشدة، حُبِكَتْ: شُدَّت، ومنه قوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [النبأ: ١٢]. قاله ابن زيد.

قال القرطبي:" المحبوك: الشديد الخلق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس :

قد غدا يَحْمِلُنِي في أَنْفِه... لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبوكٌ مُمَرّْ

وقال آخر :

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ له... مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ

وفي الحديث: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تحتبك تحت الدرع في الصلاة، أي تشد الإزار وتحكمه".

السادس: السماء السابعة. قاله عبد الله بن عمرو.

السابع: الصفاقة، قاله خصيف.

قال القرطبي:" ومنه: ثوب صفيق، ووجه صفيق: بين الصفاقة".

الثامن: يعني: ذات الطرائق، مأخوذ من: حبك الحمام، طرائق على جناحه، قاله الأخفش، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال أبو عبيدة:" ومنها سمّى حباك الحائط: الإطار، وحباك الحمام: طرائق على جناحيه، وطرائق الماء: حبكه".

قال ابن قتيبة:" يقال للماء القائم -إذا ضربَتْه الريحُ فصارت فيه طرائق-: له حُبكٌ. وكذلك الرمل: إذا هبَّتْ عليه الريحُ فرأيتَ فيه كالطرائق- فذلك: حُبكُه".

=

وفي رواية قال ابن عباس:" ذات الطرائق والخلق الحسن".

قال الزجاج:" جاء في التفسير أنها ذات الخلق الحسن، وأهل اللغة يقولون {ذات الحبك}: ذات الطرائق الحسنة، و «المحبوك» -في اللغة-:ما أُجِيدَ عَمَلهُ، وكل ما تراه من الطرائق في الماء وفي الرمل إذا أصابته الريح فهو حبك، وواحدها «حِبَاك». مثل: مِثَال ومُثُل، وتكون واحدتها أيضًا «حبيكة»، مثل: طريقة وطرق".

قرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين: «الحِبِكِ» بكسر الحاء والباء جميعًا. وقرأ عثمان بن عفان، والشعبي، وأبو العالية، وأبو حيوة: «الحِبْكِ» بكسر الحاء وإسكان الباء. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو رجاء، وابن أبي عبلة: «الحُبْكِ» برفع الحاء وإسكان الباء. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: «الحَبَكِ» بفتح الحاء والباء جميعًا. وقرأ أبو الدرداء، وأبو الجوزاء، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «الحَبِكِ» بفتح الحاء وكسر الباء.

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات: ٨]، أي:" إنكم -أيها المكذبون- لفي قول مضطرب في هذا القرآن، وفي الرسول ﷺ".

قال الماوردي:"وهذا جواب القسم الثاني".

وفي قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات: ٨]، وجوه:

أحدها: يعني: في أمر مختلف، فمطيع وعاص، ومؤمن وكافر، قاله السدي.

الثاني: أنه القرآن فمصدق له ومكذب به، قاله قتادة، ونحوه عن ابن زيد، وبه قال الطبري.

قال قتادة:" مصدق بهذا القرآن ومكذب به".

قال الطبري:" يقول: إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن، فمن مصدّق به ومكذّب".

قال ابن زيد:" يتخرّصون يقولون: هذا سحر، ويقولون: هذا أساطير، فبأي قولهم

=

يؤخذ، قتل الخرَّاصون هذا الرجل، لا بدّ له من أن يكون فيه أحد هؤلاء، فما لكم لا تأخذون أحد هؤلاء، وقد رميتموه بأقاويل شتى، فبأيّ هذا القول تأخذون، فهو قول مختلف. قال: فذكر أنه تخرّص منهم ليس لهم بذلك علم قالوا: فما منع هذا القرآن أن ينزل باللسان الذي نزلت به الكتب من قبلك، فقال الله: أعجميّ وعربيّ؟ لو جعلنا هذا القرآن أعجميا لقلتم نحن عرب وهذا القرآن أعجميّ، فكيف يجتمعان".

الثالث: انهم أهل الشرك مختلف عليهم بالباطل، قاله ابن جريج.

الرابع: أن القول المختلف: تكذيب بعضهم بالقرآن وبمحمد، وإيمان بعضهم. قاله الفراء.

الخامس: أي: في أمر النبي- ﷺ -. قاله الزجاج.

السادس: أنهم عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: ٩]، أي:" يُصرف عن القرآن والرسول ﷺ مَن صُرف عن الإيمان بهما؛ لإعراضه عن أدلة الله وبراهينه اليقينية فلم يوفَّق إلى الخير".

قال الطبري:" يقول: يصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صرف، ويدفع عنه من يُدْفع، فيُحْرَمه".

قال ابن زيد:" يُؤْفَك عنه المشركون".

قال قتادة:" فالمأفوك عنه اليوم، يعني كتابَ الله".

وفي قوله تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: يضل عنه من ضل، قاله ابن عباس.

الثاني: يصرف عنه من صرف، قاله الحسن، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج.

=

=

قال الفراء:" يريد: يُصرف عَنِ القرآن والإيمان من صُرف كما قال: {أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا} [الأحقاف: ٢٢] يَقُولُ: لتصرفنا عنْ آلهتنا، وتصُدَّنا".

قال ابن قتيبة:" أي: يُصرفُ عنهُ ويُحرَمُه من حُرمه، يعني: القرآن".

الثالث: يدفع عنه ويحرمه كما تؤفك الأرض. قاله أبو عبيدة.

الرابع: يؤفن عنه من أفن، قاله مجاهد، والأفن: "فساد العقل".

الخامس: يخدع عنه من خدع، قاله قطرب.

السادس: يعني: يصرف عن القرآن من كذب، قاله مقاتل.

السابع: يدفع عنه من دفع، قاله اليزيدي.

قال القرطبي:" والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى: الصرف".

وقرأ سعيد بن جبير: «يؤفك عنه من أفك»، على البناء للفاعل. قال الزمخشري:" أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أنّ الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم".

وقرئ: «يؤفن عنه من أفن»، أي: يحرمه من حرم، من: أفن الضرع إذا نهكه حلبا.

قال العثيمين: قوله تعالى: {والسماء ذات الحبك} السماء معروفة، ذات: بمعنى صاحبة {الحبك} يعني الطرق، أي: أنها من حسنها كأنها ذات طرق محبوكة متقنة، كما يكون ذلك في جبال الرمل، يضربها الهواء فتكون مضلعة، إذن السماء كذلك {إنكم لفي قول مختلف} {إنكم} الخطاب للكافرين {لفي قول مختلف} يعني يختلف بعضه عن بعض، فبعض الكفار قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه مجنون، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وبعضهم قالوا: إنه كاهن، وبعضهم قالوا: إنه شاعر، وبعضهم قالوا: إنه كذاب، فهم مختلفون في النبي ﷺ، واختلاف الأقوال يدل على كذبها وفسادها، وكلما رأيت قولًا مختلفًا متناقضًا فاعلم أنه باطل وليس بصحيح؛ لأن الحق لا يمكن أن يتناقض، فهؤلاء المكذبون

=

=

للرسول عليه الصلاة والسلام اختلفوا هذا الاختلاف {يؤفك عنه من أفك} بمعنى يصرف {عنه} قيل: إن الضمير يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام، أي يصرف عن الرسول ﷺ من صرف من الناس، وقيل: إن الضمير يعود على القوم، وعلى هذا القول: تكون (عن) بمعنى الباء، أي يؤفك بهذا القول من أفك، يصرف بهذا القول عن الحق من صرف، وهما أي المعنيان متلازمان، والأقرب أن الضمير في قوله {عنه} يعود على القوم؛ لأنه أقرب مذكور {يؤفك عنه} أي عن هذا القول أي بسببه {من أفك} أي من صرف عن الحق، وذلك لأن من البيان لسحرًا فإذا جاءك رجل بليغ فصيح، وصار يورد عليك الشبهات والشكوك ألست تنخدع بقوله؟ بلى، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام عندهم فصاحة وبلاغة وتمويه ودجل، فيصرفون الناس، وقوله {من أفك} هل المراد من قدر الله عليه أن يصرف، أو المراد من أفك؟ أي من صرفه هؤلاء المختلفون.

هما متلازمان أيضًا، فإن هؤلاء الذين يضلون الناس لا يمكن أن يضلوهم إلا بإذن الله ﷻ {ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل} فهم الذين يأفكون الناس أي: يصرفونهم فهم السبب، لكن المقدر للصرف هو الله ﷻ ولكن اعلم أخي المسلم أنه لا يمكن أن يصرف عن الحق إلا من علم الله منه أنه ليس أهلًا للحق- نسأل الله السلامة- ولهذا قال الله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} وكذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته في الذين يمتثلونها ويؤمنون بها.

ويدل على هذا الذي قلنا قول الله تبارك وتعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} ولكن احذر إذا رأيت ضالًا أن تقول: هذا ليس أهلًا للهداية؛ لأن هناك فرقًا بين القول بالعموم، والقول بالتعيين، فالقول بالتعيين حرام؛ لأنك قد ترى شخصًا ضالًا وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله ﷻ، والعكس بالعكس، ربما ترى شخصًا مستقيمًا تقول: هذا لا يمكن أن يضل، فإذا به يضله الله، فإياك أن تشهد

=

=

على معين، لكن حقيقة أنك إذا رأيت ضالًا متمردًا مستكبرًا عن الحق فإنك بقلبك تستبعد أن الله يهديه، لكن لا تقل: إن الله لا يهديه، ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما في يدي قادرًا، وقال للمذنب؟ اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخراه. وفي رواية مسلم: فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» نسأل الله العافية، لهذا لا تعجب بنفسك، ولا تيأس من رحمة الله فيما يتعلق بك، ولا فيما يتعلق بغيرك، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لكن نعلم على سبيل العموم أن الإنسان إذا لم يكن أهلًا للهداية فإنه لن يهتدي، فإذا رأينا هذا الشخص منحرفًا مستكبرًا معاندًا فلا شك أنه يغلب على ظننا أنه ليس أهلًا للهداية، لكن ليس لنا أن ننطق بذلك، ويحرم أن ننطق بذلك، ويخشى أن يقال لنا كما قيل لهذا الرجل: قد غفرت له وأحبطت عملك، وهنا مسألة مهمة وهي الفرق بين التعيين والإطلاق، فنحن مثلًا نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، لكن إذا رأينا شخصًا مستقيمًا، ويصلي ويزكي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، ويحسن، ويبر والديه، ويصل رحمه، فلا نشهد بأنه في الجنة؟ لأن التعيين شيء والإجمال شيء آخر، وإذا رأينا رجلًا كافرًا ملحدًا مسلطًا على المسلمين، يمزق كتاب الله ويدوسه برجليه ويستهزىء بالله ورسوله فلا نقول:

=

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠).

{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} لُعِنَ الْكَذَّابُونَ أَصْحَاب الْقَوْل الْمُخْتَلِف.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١).

{الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَة} جَهْل يَغْمُرهُمْ {سَاهُونَ} غَافِلُونَ عَنْ أَمْر الْآخِرَة.

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢).

{يَسْأَلُونَ} النَّبِيّ اسْتِفْهَام اسْتِهْزَاء {أَيَّانَ يَوْم الدِّين} أَيْ مَتَى مَجِيئُهُ وَجَوَابهمْ يَجِيء.

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣).

{يَوْم هُمْ عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ} أَيْ يُعَذَّبُونَ فِيهَا وَيُقَال لَهُمْ حِين التَّعْذِيب.

=

هذا من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فهو من أهل النار.

بلا تعيين، لأنه من الجائز في آخر لحظة أن يمنّ الله عليه ويهديه، فأنت لا تدري، لذلك يجب التفريق بين التعيين والإطلاق، أوالتعيين والإجمال، فإذا مات رجل ونحن نعرف أنه مات على النصرانية حسب ما يبدو لنا من حاله، فلا نشهد له بالنار؛ لأنه إن كان من أهل النار فسيدخل ولو لم نشهد، وإن لم يكن من أهل النار فشهادتنا شهادة بغير علم، فمثل هذه المسائل لا داعي لها، فلو قال قائل: مات رجل من الروس، من الملحدين، مات رجل من الأمريكان من الملحدين منهم، مات رجل من اليهود من الملحدين، العنه واشهد له بالنار، نقول: لا يمكن، نحن نقول: من مات على هذا فهو من أهل النار، من مات على هذا لعناه، أما الشخص المعين فلا، ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة قالوا: لا نشهد لأحد بالجنة أو بالنار إلا لمن شهد له النبي ﷺ، ولكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤).

{ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} تَعْذِيبكُمْ {هَذَا} التَّعْذِيب {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} فِي الدُّنْيَا اسْتِهْزَاء[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}، أي:" لُعِن الكذابون الظانون غير الحق".

قال السعدي:" أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون".

قال ابن زيد:" القوم الذين كانوا يتخرّصون الكذب على رسول الله ﷺ، قالت طائفة: إنما هو ساحر، والذي جاء به سحر. وقالت طائفة: إنما هو شاعر، والذي جاء به شعر؛ وقالت طائفه: إنما هو كاهن، والذي جاء به كهانة؛ وقالت طائفة: {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا}، يتخرّصون على رسول الله ﷺ".

وفي قوله تعالى: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات: ١٠]، وجوه:

أحدها: لعن المرتابون، قاله ابن عباس.

الثاني: لعن الكذابون، قاله الحسن، ومجاهد، والفراء، وبه قال ابن قتيبة.

قال مجاهد:" أي: لعن الكذابون الذين يخرصون الكذب، يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون بالبعث، وهي مثل قوله في عبس: {قُتِلَ الإنْسَان ما أكفره} [عبس: ١٧]، أي: «لعن» ".

قال الفراء:" يَقُولُ: لُعن الكذابون الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّد صَلَّى الله عليه: مجنون، شاعر، كذاب، ساحر. خرّصوا ما لا علم لهم به". ونقله ابن قتيبة بتمامه.

قال الزجاج:" هم الكذابون، تقول: قد تَخَرَّصَ عليَّ فُلان الباطل".

الثالث: أنهم أهل الظنون والفرية، قاله قتادة.

عن قتادة:" {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} أهل الغرة والظنون".

=

=

قال الزجاج:" ويجوز أن يكون الخرَّاصون الذين يتظنون الشيء لا يُحِقونه، فيعملون بما لا يدرون صحته".

الرابع: أنهم المتكّهنون. وهو مروي عن ابن عباس -أيضًا-، وبه قال أبو عبيدة.

عن ابن عباس، قوله: "{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}، قال: الكهنة".

قال الطبري: يقول: "لُعِن المتكهنون الذين يتخرّصون الكذب والباطل فيتظننونه".

والقتل: اللعن. وأما «الخراصون» فهو جمع: «خارص». وفي «الخرص» -ها هنا- وجهان:

أحدهما: أنه تعمد الكذب، قاله الأصم.

الثاني: ظن الكذب، لأن الخرص حزر وظن، ومنه: أخذ خرص الثمار. حكاه الماوردي.

وفيما يخرصونه وجهان :

أحدهما: تكذيب الرسول -ﷺ-.

الثاني: التكذيب بالبعث.

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات: ١١]، أي:" الذين هم في لُجَّة من الكفر والضلالة غافلون متمادون".

قال الطبري: يقول: "الذين هم في غمرة الضلالة وغَلَبتها عليهم متمادون، وعن الحقّ الذي بعث الله به محمدا ﷺ ساهون، قد لَهُوا عنه".

قال السعدي:" أي: في لجة من الكفر، والجهل، والضلال، {سَاهُونَ} ".

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: في غفلة لاهون، قاله ابن عباس-في رواية-، وبه قال سفيان.

=

=

الثاني: في ضلالتهم يتمادَون، وهو مروي عن ابن عباس أيضًا.

الثالث: في غمرة وشُبهة، قاله قتادة.

عن قتادة:" {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} يقول: في غمرة وشبهة".

الرابع: قلبه في كِنانة. قاله مجاهد.

قال مجاهد: «قلبه في مثل كنانة».

الخامس: الذين هم في مأثم المعاصي ساهون عن أداء الفرائض. أفاده الماوردي.

قال ابن زيد:" ساهون عما أتاهم، وعما نزل عليهم، وعما أمرهم الله تبارك وتعالى، وقرأ قول الله جلّ ثناؤه: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَـٰذَا}... الآية، وقال: ألا ترى الشيء إذا أخذته ثم غمرته في الماء".

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ}.

قال الطبري: يقول:" يسأل هؤلاء الخرّاصون الذين وصف صفتهم متى يوم المجازاة والحساب، ويوم يُدينُ الله العباد بأعمالهم".

قال أبو عبيدة:" يوم الحساب، متى يوم الدين".

قال الفراء:" مَتَى يوم الدين؟ ".

قال ابن كثير:" وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا".

قال السعدي:" {يَسْأَلُونَ} على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون، أي: متى يبعثون، مستبعدين لذلك".

قال مجاهد:" يقولون: متى يوم الدين، أو يكون يوم الدين".

عن ابن زيد، في قوله: {أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ}، قال: الذين كانوا يجحدون أنهم يُدانون، أو يُبعثون".

عن قتادة: {يَوْمِ الدِّينِ}، قال: "يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم".

قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، أي:" يوم الجزاء، يوم

=

=

يُعذَّبون بالإحراق بالنار".

قال الأخفش:" فقيل لهم: في يومِ هُمْ على النارِ يُفْتَنون. لأنّ ذلك اليوم يوم طويل فيه الحساب وفيه فتنتُهم على النار".

قال الطبري: يقول:" يوم هم على نار جهنم يفتنون".

قال السعدي:" أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر".

وفي معنى قوله تعالى: {يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: يعذبون، قاله ابن عباس، وعكرمة-في رواية-، وبه قال وابن قتيبة. ومنه قول الشاعر :

كل امرئ من عباد الله مضطهد... ببطن مكة مقهور مفتون

قال الفراء:" يحرقون ويعذبون بالنار".

قال الزجاج:" يحرقون وُيعَذَّبونَ، ومن ذلك يقال للحجارة السود التي كأنها قد أحرقت بالنَّارِ: الفَتِين".

قال ابن عباس:" فتنتهم أنهم سألوا عن يوم الدين وهم موقوفون على النار: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}، فقالوا حين وقفوا: {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، وقال الله تبارك وتعالى: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} ".

الثاني: يحرقون كما يفتن الذهب بالنار، قاله مجاهد، وعكرمة، ونحوه عن الضحاك.

قال عكرمة:" يعذّبون في النار يحرقون فيها، ألم تر أن الذهب إذا ألقي في النار قيل فتن".

قال الضحاك:" يطبخون، كما يفتن الذهب بالنار".

وقال سفيان: "يحرقون".

قال ابن زيد:" يحرقون بالنار".

=

=

الثالث: يُنْضَجون بالنار. قاله مجاهد-أيضا-.

الرابع: يعيرون بذنوبهم. وهذا مروي عن الحسن.

عن الحسن في قوله: "{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}. قال إسحاق: أحسبه قال: يعيرون بذنوبهم".

الخامس: يكذّبون. قاله الضحاك-في رواية-.

قال الماوردي: أي: "يكذبون توبيخًا وتقريعًا زيادة في عذابهم".

قال الطبري: معناه" يعذّبون بالإحراق، لأن الفتنة أصلها الاختبار، وإنما يقال: فتنت الذهب بالنار: إذا طبختها بها لتعرف جودتها، فكذلك قوله: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، يحرقون بها كما يحرق الذهب بها".

قوله تعالى: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات: ١٤]، أي:" ويقال لهم: ذوقوا عذابكم".

وفي قوله تعالى: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات: ١٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معنى: {فِتْنَتَكُمْ}، أي: عذابكم، قاله قتادة، وابن زيد، والفراء، وابن قتيبة.

قال الفراء:" يَقُولُ: ذوقوا عذابكم الَّذِي كنتم بِهِ تستعجلون في الدنيا".

قال قتادة:" يقول: يوم يعذّبون، فيقول: ذوقوا عذابكم".

قال السعدي:" أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر، والضلال".

الثاني: حريقكم، قاله مجاهد، والضحاك، وسفيان.

عن مهران، عن سفيان: "{ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ}، يقول: احتراقكم".

وروي عن سفيان بن عُيينة -من طريق ابن أبي عمر- أنه سُئِل عن قوله: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}. فقال: "هذا الذي فُتنتم به، ألم تر إلى الدينار إذا أُدخل النار قيل: قد اختُبِر وفُتِن؟! ".

=

=

الثالث: تكذيبكم، قاله ابن عباس. وحكاه الضحاك.

قال الطبري:" يعني بقوله: {فِتْنَتَكُمْ} : عذابكم وحريقكم".

قوله تعالى: {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات: ١٤]، أي: "يقال لهم: هذا العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا".

عن عكرمة: "{هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} قال: تكذيبكم، به تكذبون".

قال الطبري:" يقال لهم: هذا العذاب الذي توفونه اليوم، هو العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا".

قال السعدي:" {هَذَا} العذاب، الذي وصلتم إليه، هو {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} فالآن، تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال".

قال ابن كثير:" أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قتل الخراصون} {قتل} كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولكن الصحيح أنها بمعنى أهلك، لأنه لا داعي أن نصرفها عن ظاهرها، وظاهرها صحيح مستقيم، فمعنى {قتل} : أهلك، و {الخراصون} جمع خراص، وهو الذي يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: {الذين هم في غمرة ساهون} أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، {ساهون} : غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله- عليهم الصلاة والسلام- ومن جهلهم أنهم {يسئلون أيان يوم الدين}، سؤال استبعاد وإنكار، لو كانوا يسألون سؤال استعلام واستخبار، لعذروا، كما قال جبريل للنبي ﷺ: «أخبرني عن الساعة»، استفهامًا واستخبارًا، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»

=

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥).

=

لكن أولئك الخراصون يسألون: {أيان يوم الدين} يعني متى هو؟ استبعادًا، ولهذا قال الله عنهم في سورة (ق) : {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أءذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد} يعني أنرجع بعد أن كنا ترابًا، هذا رجع بعيد، فهم يسألون عن القيامة لا سؤال استفهام واستخبار ليستيقنوا، ولكنْ سؤال استبعاد وإنكار، قال الله تعالى: {يوم هم على النار يفتنون} هذا الجواب يعني يوم القيامة: {يوم هم على النار يفتنون} وعلى هذا فيوم هنا ظرف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: يوم القيامة يوم هم على النار يفتنون، ومعنى: {على النار يفتنون} أي: يعرضون عليها فيحترقون بها، لأن الفتنة بمعنى الاحتراق، ولكنها عديت بعلى، لأنها ضمنت معنى العرض، أي: يعرضون على النار فيحترقون بها، هذا هو يوم الدين {ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون} ذوقوا هذه جملة مقول لقول محذوف، والتقدير: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم، وهذا أمر إهانة وإذلال، أي ذوقوا احتراقكم في النار التي كنتم تنكرونها {هذا الذي كنتم به تستعجلون} لأنهم يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فيستعجلون بالقيامة استبعادًا لها، كما قال الله تعالى: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق} فيقال لهؤلاء: {ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون} ويقال لهم: {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنماتجزون ما كنتم تعملون} يفتنون على النار فيحترقون بها، ويقال: {ذوقوا فتنتكم} هذا توبيخ وإهانة وإذلال يكون به العذاب القلبي، فيجمع لهم بين العذاب البدني وبين العذاب القلبي، فتجده يكون في أشد ما يكون من الحسرة، يتحسرون يقولون: {ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات} بَسَاتِين {وَعُيُون} تَجْرِي فيها.

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦).

{آخِذِينَ} حَال مِنْ الضَّمِير فِي خَبَر إنَّ {مَا آتَاهُمْ} أَعْطَاهُمْ {رَبّهمْ} مِنْ الثَّوَاب {إِنَّهُمْ كانوا قبل ذلك} أي دخلوهم الْجَنَّة {مُحْسِنِينَ} فِي الدُّنْيَا.

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧).

{كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْل مَا يَهْجَعُونَ} يَنَامُونَ وَمَا زَائِدَة وَيَهْجَعُونَ خَبَر كَانَ وَقَلِيلًا ظَرْف أَيْ يَنَامُونَ فِي زَمَن يَسِير مِنْ اللَّيْل ويصلون أكثره.

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨).

{وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} يَقُولُونَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا.

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩).

{وَفِي أَمْوَالهمْ حَقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} الَّذِي لَا يسأل لتعففه(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن بن محمد بن الحنفية؛ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فأصابوا وغنموا، فجاء قوم بعدما فرغوا؛ فنزلت: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٢/ ٤١٢ رقم ١٥٠٧٥)، وأبو عبيد في "الأموال" (ص ٥٥٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ١٢٥) من طرق عن سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦١٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: خرجِ علينا عليٌّ معتجرًا ببرد مشتملًا في خميصة، قال: لما =

=

نزلت: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤)}؛ اشتد على أصحاب النبي ﷺ، فلم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة؛ إذ أمر النبيَّ ﷺ أن يتولى عنهم، حتى نزلت: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)}؛ فطابت أنفسنا.

أخرجه أحمد بن منيع وإسحاق بن راهويه في "مسنديهما"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٤٢ رقم ٤١١٥، ٤١١٦، ٤١١٧)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٦٥، ١٦٦ رقم ٧٨٣٤ و ٨/ ١٦٦ رقم ٧٨٣٥)، و"الأحاديث المختارة" (٢/ ٣٣٦)، والهيثم بن كليب في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية المسندة" (٩/ ٤٣) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦ رقم ٧١٤) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٦٢٤) - ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٢/ ٣٣٦، ٣٣٧ رقم ٧١٥) -، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٧، ٨)، والضياء المقدسي (٢/ ٣٣٥ رقم ٧١٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ٢٧٦، ٢٢٧ رقم ١٧٥٠)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ١٨٠) من طرق عن مجاهد قال: (فذكره). وسنده صحيح.

قال البوصيري: "رواه أحمد بن منيع بسند رواته ثقات".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٢٤) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن قتادة؛ قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤)}: ذكر لنا أنها لما نزلت هذه الآية؛ اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ، ورأوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر؛ فأنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٧): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا

=

=

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}، أي:" إن الذين اتقوا الله في جنات عظيمة، وعيون ماء جارية".

قال الطبري: يقول:" إن الذين اتقوا الله بطاعته، واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتين وعيون ماء في الآخرة".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، ﷻ: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال".

قال سهل:" المتقي في الدنيا في جنات الرضى يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح، هذا باطن الآية".

قوله تعالى: {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} [الذاريات: ١٦]، أي:" أعطاهم الله جميع مُناهم من أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، فَرِحة به نفوسهم".

قال الطبري: يقول: "عاملين ما أمرهم به ربهم مؤدّين فرائضه".

عن ابن عباس، قوله: "{آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}، قال: الفرائض".

قال الزجاج:" {آخِذِينَ} نصب على الحال، المعنى: إن المتقين في جَنَاتٍ وعيون في حال أَخْذِ مَا آتَاهُمْ رَبهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} [الذاريات: ١٦]، أي:" إنهم كانوا قبل ذلك النعيم محسنين في الدنيا بأعمالهم الصالحة".

قال السمعاني: "أي: من قبل أن ينالوا ما نالوا محسنين في الدنيا. ومعنى «الإحسان» -هاهنا-: هو طاعة الله تعالى".

وقال الطبري: "يقول: إنهم كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين، يقول: كانوا لله قبل ذلك مطيعين".

=

=

قال ابن عباس:" قبل الفرائض محسنين يعملون".

قال ابن كثير:" وهذا الإسناد [عن ابن عباس] ضعيف، ولا يصح، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: {آَخِذِينَ} حال من قوله: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}: فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة. وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ}، أي: في الدار الدنيا {محسنين}، كقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤]".

قوله تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات: ١٨]، أي:" كان هؤلاء المحسنون قليلا من الليل ما ينامون، يُصَلُّون لربهم قانتين له".

قال ابن الجوزي:" ثم ذكر إحسانهم فقال: {كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ}، والهُجوع: النَّوم بالليل دون النهار".

قال الضحاك:" الهجوع: النوم".

عن ابن عباس:" {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، يقول: ينام".

عن مجاهد: "يقول: كانوا قليلا من الليل ما ينامون". وروي عن القرظي مثله.

عن إبراهيم: "{كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، قال: قليلًا من الليل ما ينامون".

عن الحسن، قال: "يقول: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون} [الذاريات: ١٧] قال: «ما ينامون، كانوا يمدون الصلاة إلى الأسحار، فإذا كان السحر أخذوا في الاستغفار»".

قال مطرف بن عبد الله: «كان لهم قليل من الليل، ما يهجعون فيه كانوا يصلونه».

قال ابن زيد:" كانوا قليلا ما ينامون من الليل، قال: ذاك الهجع. قال: والعرب تقول: إذا سافرت اهجع بنا قليلا. قال: وقال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة

=

=

صفة لا أجدها فينا، ذكر الله تبارك وتعالى قوما فقال: {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم؛ قال: فقال أبي طُوبى لمن رقد إذا نعس؛ وألقى الله إذا استيقظ".

وفي قوله تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات: ١٧]، وجهان:

أحدهما: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره الطبري.

قال الزجاج:" المعنى: كانوا يهجعون قليلًا من الليل، أي: كانوا ينامون قليلًا مِنَ الليْل".

عن الحسن، قوله: "{كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، قال: قيام الليل".

قال الحسن: "كابدوا قيام الليل".

قال الحسن:" لا ينامون منه إلا قليلا".

قال الحسن:" لا ينامون من الليل إلا أقله".

قال الحسن:" نشطوا فمدّوا إلى السحر". وفي رواية:" مدّوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار بسحر".

قال معمر:" كان الحسن والزهري يقولان: كانوا كثيرا من الليل ما يصلون".

قال الأحنف بن قيس:" كانوا لا ينامون إلا قليلا".

عن قتادة، قال: "قال الأحنف بن قَيس، وقرأ هذه الآية: {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، قال: لست من أهل هذه الآية".

الثاني: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه.

قال ابن عباس:" قال لم يكن يمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا".

قال قتادة:" كان لهم قليل من الليل ما يهجعون، كانوا يصلونه".

قال محمد بن علي:" كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة".

=

=

قال ابن أبي نجيح:" كانوا قليلا ما ينامون ليلة حتى الصباح".
قال مجاهد:" قليل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون".
قال مطرف:" قلّ ليلة أتت عليهم إلا صلوا فيها". وفي رواية:" قل ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله. إما من أوّلها، وإما من وسطها". وفي رواية:" قلّ ليلة أتت عليهم هجعوها كلها".
قال الربيع:" كانوا يصيبون من الليل حظا".
قال أبو العالية:" كانوا يصيبون فيها حظا".
وقال أبو العالية: "لا ينامون بين المغرب والعشاء".
قال أنس:" يتيقظون يصلون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء".
وقال الضحاك:" كانوا من الناس قليلا".
قال الضحاك:" كانوا قليلا من الناس من يفعل ذلك".
قال الضحاك:" يقول: إن المحسنين كانوا قليلا ثم ابتدئ فقيل: {مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، كما قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، ثم قال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} ".
قال الطبري:" وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، قول من قال: كانوا قليلا من الليل هجوعهم، لأن الله تبارك وتعالى وصفهم بذلك مدحا لهم، وأثنى عليهم به، فوصفهم بكثرة العمل، وسهر الليل، ومكابدته فيما يقربهم منه ويرضيه عنهم أولى وأشبه من وصفهم من قلة العمل، وكثرة النوم، مع أن الذي اخترنا في ذلك هو أغلب المعاني على ظاهر التنزيل".
قوله تعالى: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٨]، أي:" وفي أواخر الليل قبيل الفجر يستغفرون الله من ذنوبهم".
قال الزجاج:" ثم أعلم الله ﷻ في أي شيء كانَ سَهَرُهُمْ، فقال: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

=

=
يَسْتَغْفِرُون} ".
وفي قوله تعالى: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٨]، وجهان من التفسير:
أحدهما: وبالأسحار هم يصلون، قاله ابن عمر، ومجاهد، والضحاك.
قال الضحاك:" يقول: يقومون فيصلون، يقول: كانوا يقومون وينامون، كما قال الله لمحمد ﷺ: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ}، فهذا نوم، وهذا قيام {وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ}، كذلك يقومون ثلثا ونصفا وثلثين: يقول: ينامون ويقومون".
الثاني: أنهم كانوا يؤخرون الاستغفار من ذنوبهم إلى السحر ليستغفروا فيه، قاله الحسن.
قال الحسن:" مدّوا في الصلاة ونَشطوا، حتى كان الاستغفار بسحر".
قال ابن زيد: هم المؤمنون، قال: وبلغنا أن نبيّ الله ﷺ يعقوب حين سألوه أن يستغفر لهم: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا- قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}، قال: قال بعض أهل العلم: إنه أخَّر الاستغفار إلى السحر. قال: وذكر بعض أهل العلم أن الساعة التي تفتح فيها أبواب الجنة: السحر".
عن ابن وهب، قال: "سمعت ابن زيد يقول: السحر: هو السدس الأخير من الليل".
قال النحاس:" تأوله جماعة على معنى: يصلّون، لأن الصلاة مسألة استغفار، وتأوله بعضهم على أنهم يصلون من أول الليل ويستغفرون آخره، واستحبّ هذا لأن الله سبحانه أثنى عليهم به".
قال ابن كثير:" فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة
=

=

إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر"». وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر".

قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}.

قال الطبري: يقول: "وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حقٌّ لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم".

قال ابن قتيبة:" {لِلسَّائِلِ}، يعني: الطوَّاف".

قال سهل في الآية:" يعني: الصدقة على من طلبها منهم ومن لم يطلبها".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} [الذاريات: ١٩]، وجهان:

أحدهما: أنها الزكاة، قاله ابن سيرين، وقتادة، وابن أبي مريم.

الثاني: أنه حق سوى الزكاة تصل له رحمًا أو تقري به ضيفًا أو تحمل به كلًا أو تغني به محرومًا، قاله ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عمر، قال: "سمعت عمر، يقول: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: «خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك» ".

واختلف في معنى: «المحروم»، على أقوال:

أحدها: أنه الْمُحَارِفُ الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وهذا قول عائشة، وابن عباس-في رواية، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن المسيب، ونافع، وعطاء، وبه قال ابن قتيبة.

قال النحاس:" صح عن ابن عباس قال: «المحروم المحارف» ".

قال الضحاك:" هو الرجل المحارف الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له

=

=

ذلك".

عن مجاهد ، وعطاء ، قالا: "المحروم: المحارف في الرزق، وفي التجارة".

قال الفراء:" فأمَّا السائل: فالطوّاف عَلَى الأبواب، وأمَّا المحروم: فالمحارَفُ".

قال ابن قتيبة:" {وَالْمَحْرُومِ} المُحارَف؛ وهو: المقَتَّر عليه في الرزق.

الثاني: أنه المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ولا يعلم بحاجته، قاله قتادة، وابن شهاب الزهري.

عن قتادة، قوله: "{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}، هذان فقيرا أهل الإسلام، سائل يسأل في كفِّه، وفقير معتفِّف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم".

قال قتادة:" السائل الذي يسأل بكفه، والمحروم: المتعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم".

قال الزهري:" السائل: الذي يسأل، والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل".

عن الزهري:" أن النبي ﷺ قال: "ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى، ولا يعلم بحاجته فيتصدق عليه فذلك المحروم".

عن محمد بن كعب القرظي: "المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [الواقعة: ٦٧] ". قال الثعلبي:" ونظيره في قصة ضروان {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} ".

قال النحاس:" حدثنا الزهري محمد بن مسلم، أنّه قال: المحروم: الذي لا يسأل، وأكثر الصحابة على أنه: المحارف. وليس هذا بمتناقض، لأن «المحروم» -في اللغة-: الممنوع من الشيء، فهو مشتمل على كل ما قيل فيه".

الثالث: أنه الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم، قاله محمد بن الحنفية.

عن الحسن بن محمد:" إن رسول الله ﷺ بعث سرية، فغنموا، فجاء قوم يشهدون

=

=

الغنيمة، فنزلت هذه الآية: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} ".

وعن الحسن بن محمد، قال: "بعثت سرية فغنموا، ثم جاء قوم من بعدهم، قال: فنزلت {لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} ".

عن إبراهيم:" أن أناسا قدموا على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكوفة بعد وقعة الجمل، فقال: اقسموا لهم، قال: هذا المحروم".

قال إبراهيم: "المحروم: الذي لا فيء له في الإسلام، وهو محارف من الناس".

وفي رواية:" المحروم: الذي لا يجري عليه شيء من الفيء، وهو محارف من الناس".

الرابع: أنه من ليس له سهم في الإسلام، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" السائل: الذي يسأل الناس، والمحروم: الذي ليس له في الإسلام سهم وهو محارَف".

قال مقاتل:" {لِلسَّائِلِ}، يعني: المسكين، {وَالْمَحْرُومِ}: الفقير الذي لا سهم له، ولم يجعل الله للفقراء سهما في الفيء ولا في الخمس، فمن سمى الفقير: المحروم، لأن الله حرمهم نصيبهم، فلما نزلت براءة بدأ الله بهم فقال- تعالى- {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ..} فبدأ بهم، فنسخت هذه الآية الْمَحْرُوم".

قال هبة الله:" قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: ١٩]، نسخ ذلك بآية الزكاة".

الخامس: أنه الذي لا ينمى له مال. قاله عكرمة.

عن حصين، قال: "سألت عكرمة، عن السائل والمحروم؟ قال: السائل: الذي يسألك، والمحروم: الذي لا ينمى له مال".

قال الزجاج:" والأكثر في اللغة: لا ينمى له مال".

السادس: أنه المصاب بثمره وزرعه يعينه من لم يصب، قاله ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:" المحروم: المصاب ثمره وزرعه، وقرأ: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}، حتى بلغ: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، وقال أصحاب الجنة: {إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون} ".

عن عبد الله بن عياش، قال: "قال زيد بن أسلم في قول الله: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} قال ليس ذلك بالزكاة، ولكن ذلك مما ينفقون من أموالهم بعد إخراج الزكاة، والمحروم: الذي يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته، فيكون له حقّ على من لم يصبه ذلك من المسلمين، كما قال لأصحاب الجنة حين أهلك جنتهم قالوا {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} وقال أيضًا: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} ".

عن أبي قلابة، قال: "جاء سيل باليمامة، فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبيّ ﷺ: هذا المحروم".

وفي رواية عن أبي قلابة، قال: "كان رجل من أهل اليمامة له مال، فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، فاقسموا له".

السابع: أنه المملوك، قاله عبد الرحمن بن حميد.

الثامن: إن المحروم من حرم وصيته. رواه أنس مرفوعا.

التاسع: أنه الكلب، قال محمد بن إسحاق: "حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم".

التاسع: أنه من وجبت نفقته من ذوي الأنساب لأنه قد حرم كسب نفسه، حتى وجبت نفقته في مال غيره. أفاده الماوردي.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد

=

=

يكون بسبب تعففه وتركه المسألة، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعمّ، كما قال جلّ ثناؤه: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} ".

قال النحاس:" وإنما وقع الاختلاف في هذا لأنها صفة أقيمت مقام الموصوف، و «المحروم»: هو الذي قد حرم الرزق واحتاج. فهذه الأقوال كلها داخلة في هذا غير أنه ليس فيها أجل مما روي عن ابن عباس ولا أجمع أنه: «المحارف» ".

قال الجصاص:" من تأوله على الكلب فإنه لا يجوز أن يكون المراد عنده بحق معلوم الزكاة لأن إطعام الكلب لا يجزي من الزكاة فينبغي أن يكون المراد عنده حقا غير الزكاة فيكون في إطعام الكلب قربة كما روي عن النبي ﷺ: «إن في كل ذي كبد حرى أجرا وإن رجلا سقى كلبا فغفر الله له»، والأظهر في قوله حق معلوم أنه الزكاة لأن الزكاة واجبة لا محالة وهي حق معلوم فوجب أن يكون مرادا بالآية إذ جائز أن ينطوي تحتها ويكون اللفظ عبارة عنها ثم جائز أن يكون جميع ما تأول السلف عليه المحروم مرادا بالآية في جواز إعطائه الزكاة وهو يدل على أن الزكاة إذا وضعت في صنف واحد أجزأ لأنه اقتصر على السائل والمحروم دون الأصناف المذكورة في آية الصدقات وفرق الله تعالى في الآية بين السائل والمحروم لأن الفقير قد يحرم نفسه بتركه المسألة وقد يحرمه الناس بترك إعطائه فإذا لم يسئل فقد حرم نفسه بترك المسألة فسمي محروما من هذا الوجه لأنه يصير محروما من وجهين من قبل نفسه ومن قبل الناس".

قال الشعبي: "أعناني أن أعلم ما {الْمَحْرُومِ}، لقد سألت عن المحروم منذ سبعين سنة، فما أنا اليوم بأعلم مني من يومئذ".

قال الحسن البصري: "أدركت أقوامًا إن كان الرجل ليعزم على أهله أن لا يردوا سائلًا، ولقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله أربعين عامًا، وإن

=

=

أهل البيت يبتلون بالسائل، ما هو من الجن ولا من الإنس، وإن الذين كانوا من قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغًا، ويبتاعون بالفضل أنفسهم. رحم الله امرأ جعل العيش عيشًا واحدًا، فأكل كسرة وليس خلقًا، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، وابتغى الرحمة، حتى يأتي عليه أجله وهو كذلك".

قال العثيمين: لما كان القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني الشرعية والخبرية، إذا ذكر الشيء ذكر ضده، لما ذكر عذاب هؤلاء المكذبين الخراصين قال: {إن المتقين في جنات وعيون} المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولًا يقال باللسان، بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، علم وبرهان واحتساب وخوف، تفعل ما أمر الله به، لأنك تعلم أن الله أمر به، تفعل ما أمر الله به لأنك تحتسب ثوابه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، تترك ما نهى الله عنه؛ لأنك تعلم أن الله نهى عنه. تترك ما نهى الله عنه خوفًا من عقاب الله، لأنك موقن بالعذاب، هذه هي التقوى، يقول الله ﷻ عن المتقين: {في جنات وعيون} أي: مستقرون في جنات وعيون، والجنات جمع جنة، ويمر في القرآن (جنة) مفردًا و (جنات) جمعًا، فهل هي جنات متعددة أو هي جنة واحدة؟ هي جنات متعددة، لكن ذكرت بلفظ المفرد من باب ذكر الجنس، وإلا فهي جنات، وفي آخر سورة الرحمن، ذكر الله أربع جنات، قال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ثم قال: {ومن دونهما جنتان} وقال النبي ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة

=

=

آنيتهما وما فيهما»

إذن فالجنات متعددة وجمعت باعتبار أنواعها وأصنافها، وقد جاءت في القرآن مفردة، مثل قوله: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون}. وجاءت أيضًا مجموعة فهي مفردة باعتبار الجنس، ومجموعة باعتبار النوع، و (عيون): جمع عين، وهي الأنهار الجارية، وقد ذكر الله تعالى أنها أربعة أنواع: {أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى}

{ءاخذين مآ ءاتهم ربهم}. قوله: {ءاخذين}: حال من الضمير المستتر بالخبر، أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، أي: ما أعطاهم من النعيم، وهذه الآية كالآية التي في سورة الطور {فكهين بمآ ءاتهم ربهم}، ثم بيَّن السبب الذي وصلوا به إلى هذا، فقال: {إنهم كانوا قبل ذلك محسنين} يعني في الدنيا محسنين، أي: قائمين بطاعة الله على الوجه الذي يرضاه الله ﷻ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق، فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» هذا هو الإحسان إلى الناس، أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من حسن الخلق، وطلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى إلى غير ذلك مما هو معروف، فهؤلاء محسنون في عبادة الله، ومحسنون إلى عباد الله، ثم ذكر نوعًا من هذا الإحسان فقال: {كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون}. (ما) هنا قيل: إنها زائدة في اللفظ، لكنها زائدة في المعنى، وأن التقدير: كانوا قليلًا يهجعون، أي لا ينامون إلا قليلًا: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة

=

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠).

{وَفِي الْأَرْض} مِنْ الْجِبَال وَالْبِحَار وَالْأَشْجَار وَالثِّمَار وَالنَّبَات وَغَيْرهَا

=

المزمل: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطآئفة من الذين معك}. فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم للتفرغ لطاعة الله ﷻ: {وبالأسحار هم يستغفرون}.

الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، {هم يستغفرون}، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبرًا لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثًا، وبعد الحج قال الله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} فهم يسألون المغفرة بعد تهجدهم وقيامهم وسهرهم في طاعة الله، خوفًا من أن يكون هناك تقصير، وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافًا لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر. {وفي أموالهم حق للسآئل والمحروم} في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محرومًا أي ممنوعًا من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه لما يرضي الله ﷻ من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع، فهم يقومون بطاعة الله تهجد في الليل واستغفار وبذل للمال، لكن من غير إسراف ولا مخيلة.

{آيَات} دَلَالَات عَلَى قُدْرَة الله سبحانه وتعالى ووحدانيته {للموقنين}.

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١).

{وَفِي أَنْفُسكُمْ} آيَات أَيْضًا مِنْ مَبْدَأ خَلْقكُمْ إلَى مُنْتَهَاهُ وَمَا فِي تَرْكِيب خَلْقكُمْ مِنْ الْعَجَائِب {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ذَلِكَ فَتَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى صانعه وقدرته.

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢).

{وَفِي السَّمَاء رِزْقكُمْ} أَيْ الْمَطَر الْمُسَبَّب عَنْهُ النَّبَات الَّذِي هُوَ رِزْق {وَمَا تُوعَدُونَ} مِنْ الْمَآب وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب أَيْ مَكْتُوب ذَلِكَ فِي السماء.

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣).

{فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْض إنَّهُ} أَيْ مَا تُوعَدُونَ {لَحَقّ مِثْل مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} بِرَفْعِ مِثْل صِفَة وَمَا مَزِيدَة وَبِفَتْحِ اللَّام مُرَكَّبَة مَعَ مَا الْمَعْنَى مِثْل نُطْقكُمْ فِي حَقِيقَته أَيْ مَعْلُومِيَّته عِنْدكُمْ ضَرُورَة صُدُوره عَنْكُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)}.

قال الطبري: يقول:" وفي الأرض عبر وعظات لأهل اليقين بحقيقة ما عاينوا ورأوا إذا ساروا فيها".

قال النحاس:" أي: عبر وعظات للموقنين تدلّ على بارئها ووحدانيته".

عن قتادة، قوله: "{وَفِي الأرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ}، قال: يقول: معتبر لمن اعتبر".

قال قتادة:" إذا سار في أرض الله رأى عبرا وآيات عظاما".

وفي قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} [الذاريات: ٢٠]، وجهان:

أحدهما: ما فيها من الجبال والبحار والأنهار، قاله مقاتل، والفراء.

قال الفراء:" فآيات الأرض جبالها، واختلاف نباتها وأنهارها، والخلق الَّذِينَ فيها".

=

=

قال مقاتل:" يعني: عبرة للموقنين بالرب- تعالى- لتعرفوا صنعه فتوحدوه".

الثاني: من أهلك من الأمم السالفة وأباد من القرون الخالية، قاله الكلبي.

القرآن

قوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}.

يعني: وفي خلق أنفسكم دلائل على قدرة الله تعالى، وعبر تدلكم على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله لكم يستحق العبادة سواه، أغَفَلتم عنها، فلا تبصرون ذلك، فتعتبرون به؟

وفي قوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات: ٢١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه سبيل الغائط والبول، قاله ابن الزبير، ومجاهد.

قال الفراء:" إن أحدكم يأكل ويشرب فِي مدخل واحد، ويُخْرِج من موضعين".

وقال المسيب بن شريك: "يأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج من مكانين، ولو شرب لبنا محضا خرج ماء، فتلك الآية في النفس".

الثاني: وفي تسوية الله تبارك وتعالى مفاصل أبدانكم وجوارحكم دلالة لكم على أن خلقتم لعبادته، قاله قتادة، ونحوه عن ابن زيد.

قال قتادة:" من تفكر في خلق نفسه عرف أنما خلق ولينت مفاصله للعبادة".

قال ابن زيد:" وفينا آيات كثيرة، هذا السمع والبصر واللسان والقلب، لا يدري أحد ما هو أسود أو أحمر، وهذا الكلام الذي يتلجلج به، وهذا القلب أيّ شيء هو، إنما هو مضغة في جوفه، يجعل الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذاك العقل، وما صفته، وكيف هو".

الثالث: في خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، قاله ابن زيد -أيضا-، ونحوه عن مقاتل.

=

=

عن ابن زيد، قوله: "{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ}، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} ".

وقال مقاتل:" حين كنتم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم لحما، ثم ينفخ فيه الروح، ففي هذا كله آية، أفهلا {تُبْصِرُونَ}، قدرة الرب- تعالى- أن الذي خلقكم قادر على أن يبعثكم كما خلقكم".

الرابع: في حياتكم وموتكم وفيما يدخل ويخرج من طعامكم، قاله السدي.

وحكي الماوردي عن السدي، قال:" في حياتكم وموتكم وفيما يدخل ويخرج من طعامكم".

الخامس: في الكبر بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد، قاله الحسن.

وقال أبو بكر الوراق: "{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ}، يعني: في تحويل الحالات وضعف القوة وقهر المنّة وعجز الأركاب وفسخ الصريمة ونقض العزيمة".

قال الطبري:" الصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضا أيها الناس آيات وعِبر تدلُّكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم، {أَفَلا تُبْصِرُونَ}، يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم".

قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)}.

أي: وفي السماء رزقكم وما توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب مقدَّر.

قال أبو عبيدة:" فيه مضمر مجازه: عند من في السماء رزقكم وعنده ما توعدون".

وفي قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} [الذاريات: ٢٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق فهو رزق

=

=

لهم من السماء، قاله سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل.

قال الطبري: يقول: "وفي السماء: المطر والثلج اللذان بهما تخرج الأرض رزقكم، وقوتكم من الطعام والثمار وغير ذلك".

قال الماتريدي:" فأخبر أن رزق الخلق في السماء، والذي ينزل من السماء الماء، وهو المطر، وجعل ذلك رزقا، إذ هو أصل رزق الخلق".

عن الضحاك، قوله: "{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ}، قال: المطر".

قال مجاهد وسفيان: "رزقكم المطر".

عن سعيد، قوله: "{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}، قال: الثلج، وكلّ عين ذائبة من الثلج لا تنقص".

قال الحسن:" في السحاب فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وأعمالكم".

سفيان، عن إسماعيل بن أمية، قال: أحسبه أو غيره:"أن رسول الله ﷺ سمع رجلا ومطروا، يقول: ومطرنا ببعض عثانين الأسد، فقال: كَذَبْتَ، بَلْ هُوَ رِزقُ اللهِ".

الثاني: يعني: أن من عند الله الذي في السماء رزقكم. فسّره بذلك واصل الأحدب.

قال سهل:" أي: تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإنا نرزقكم، إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم".

عن سفيان الثوري، قال: "قرأ واصل الأحدب هذه الآية: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}، فقال: ألا إن رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما كان اليوم الثالث إذا هو بدوخلّة رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه، فصارتا دوخلّتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الموت بينهما".

الثالث: وفي السماء تقدير رزقكم وما قسمه لكم مكتوب في أم الكتاب. أفاده

=

=

الماوردي.

الرابع: يعني: الجنة، يقول: الجنة في السماء. وهذا مروي عن مجاهد -أيضا-.

الخامس: يعني: من الذكر وثوابه. ذكره سهل بن عبد الله.

وفي قوله تعالى: {رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: ٢٢]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: وما توعدون من خير أو شرّ، قاله مجاهد.

قال النحاس:" الأحسن فيه ما قال مجاهد، قال: «ما توعدون من خير وشرّ»، لأن الآية عامة فلا يخصّ بها شيء إلا بدليل قاطع".

الثاني: من جنة ونار، قاله الضحاك.

وعن سفيان:" {وَمَا تُوعَدُونَ}، من الجنة".

الثالث: يعي: من أمر الساعة، قاله الربيع، وابن سيرين، ومقاتل.

قال الطبري: "وأولى القولين بالصواب في ذلك عندي، القول الذي قاله مجاهد، لأن الله عمّ الخبر بقوله: {وَمَا تُوعَدُونَ}، عن كلّ ما وعدنا من خير أو شرّ، ولم يخصص بذلك بعضا دون بعض، فهو على عمومه كما عمه الله جلّ ثناؤه".

عن عبد الله بن السائب، قال: "أخر عمر بن الخطاب كرم الله وجهه العشاء الآخرة فصليت، ودخل فكان في ظهري، فقرأت: {والذاريات ذروا} [الذاريات: ١] حتى أتيت على قوله: {وفي السماء رزقكم وما توعدون} [الذاريات: ٢٢] فرفع صوته حتى ملأ المسجد: «أشهد» ".

عن جعفر بن إياس، قال: "دخل عمر بن الخطاب رضوان الله عنه المسجد، وقد سبق ببعض الصلاة، فنشب في الصف ، وقرأ الإمام {وفي السماء رزقكم وما توعدون} [الذاريات: ٢٢] فقال عمر: «وأنا أشهد» ".

روي عن أبي الفضل العباس بن الفرج الرياسي البصري، قال: "سمعت

=

=

الأصمعي يقول: أقبلت ذات يوم من المسجد الجامع في البصرة فبينا أنا في بعض سككها إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلد سيفه وبيده قوس، فدنا وسلّم وقال لي: من الرجل؟، قلت: من بني الأصمع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم، قال: ومن أين أقبلت؟، قلت من موضع مليء بكلام الرّحمن، قال: وللرّحمن كلام يتلوه الآدمين. قلت: نعم، قال: اتل عليّ شيئا منه، فقلت له: انزل عن قعودك. فنزل، وابتدأت بسورة وَالذَّارِياتِ، فلمّا انتهيت إلى قوله سبحانه: {وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ} . قال: يا أصمعي هذا كلام الرّحمن؟، قلت: أي والذي بعث محمدا بالحق، إنّه لكلامه أنزله على نبيّه محمد، فقال لي: حسبك، ثم قام إلى الناقة فنحرها وقطعها كلّها، وقال: أعنّي على توزيعها ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرمل وولّى مدبرا نحو البادية وهو يقول: {وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ} . فأقبلت على نفسي باللوم وقلت: لم تنتبهي لما انتبه له الأعرابي، فلمّا حججت مع الرشيد دخلت مكة، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق فالتفّت فإذا أنا بالأعرابي نحيلا مصفارا فسلّم عليّ وأخذ بيدي وأجلسني من وراء المقام وقال لي: اتل كلام الرّحمن، فأخذت في سورة وَالذَّارِياتِ، فلمّا انتهيت الى قوله: وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ، صاح الاعرابي فقال: وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، ثم قال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم يقول الله سبحانه فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ، فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟، ألم يصدّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ قالها ثلاثا وخرجت فيها نفسه".

عن زيد بن جرير:" أنّ رجلا جاع في مكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به، قال: فشبع وروى من غير طعام ولا شراب".

=

=

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» ".

قوله تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} .

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أنَّ ما وعدكم به حق، فلا تَشُكُّوا فيه كما لا تَشُكُّون في نطقكم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مقسما لخلقه بنفسه: فوربّ السماء والأرض، إن الذي قلت لكم أيها الناس: إن في السماء رزقكم وما توعدون لحقّ، كما حقّ أنكم تنطقون".

قال السمعاني:" يعني: أنه حق مثل نطقكم، كما يقول القائل لغيره: إنه لحق كما أنك".

قال الفراء:" أقسم ﷻ بنفسه: أن الَّذِي قلت لكم لَحق مثل ما أنكم تنطقون".

قال أبو عبيدة: أي:" كما أنكم تنطقون".

قال الزجاج:" أي: إن ما أتى به النبي- ﷺ- حق وإن قوله: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} حَقٌّ، فالمعنى: أن هذا الذي ذكرنا في أمر الآيات والرزْقِ وأمر النبي- ﷺ- حق {مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُون} ".

قال مقاتل:" يعني: لكائن، يعني: أمر الساعة {مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}، يعنى: تتكلمون".

قال الثعلبي:" أي: كمثل ما {أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} فتقولون: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، وقيل: كما أنّكم ذوو نطق خصصتم بالقوة الناطقة العاقلة فتتكلمون، هذا حق كما حق أنّ الآدمي ناطق".

عن ابن جريج، في قوله {فورب السماء والأرض إنه لحق} قال: "لكل شيء ذكره في هذه السورة".

=

=

عن الحسن، في قوله: "{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، الآية، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا» ".

عن أبي العلاء بن الشِّخِّير -من طريق الجريري- قال: "لَمّا نَزَلَتْ: {فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} خرج رجال بأيديهم العصي، قالوا: أين الذين كلّفوا ربنا حتى حلف؟! ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وفي الأَرض آيات للموقنين} لم يبين الله هذه الآيات بل جاءت منكرة، ليشمل كل آية في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة الأرض وتركيب الأرض، فإن فيها آيات عظيمة من حيث التركيب، كما قال الله ﷻ: {وفي الأَرض قطع متجاورت} فتجد الحجر الواحد يشتمل على عدة معادن وهو حجر واحد، وترى أحيانًا في {الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألونها وغرابيب سود} وتجد فيها الأرض اللينة الرخوة، والأرض الصلبة إلى غير ذلك مما يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة، وفيها آيات من جهة الحوادث التي تحدث فيها من الزلازل والبراكين وغيرها، وفيها آيات أيضًا من جهة طبيعة الجو من حر وبرد، ورياح عاصفة، ورياح باردة، ورياح دافئة، وغير ذلك مما إذا تأمله الإنسان عرف به قدرة الله ﷻ من جهة، وعرف حكمته ورحمته أيضًا من جهة أخرى، لأن آيات الله سبحانه وتعالى يتبصر بها الإنسان من حيث القدرة والعظمة، ومن حيث الحكمة والرحمة، لأن كل شيء تجده مناسبًا لمكانه وزمانه، وكل شيء تجده من آثار رحمة الله تبارك وتعالى فكلمة (آيات) نكرة عامة لكل ما يحدث في الأرض من آيات، ولكل ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك {ءايات للموقنين} أي لمن أيقن بوجود الله ﷻ وعظمته وجلاله، أما من شك- والعياذ بالله- فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، بل قد تكون هذه الآيات ضررًا عليه، فإن الآيات الكونية، أو الشرعية

=

=

قد تكون خيرًا للإنسان، وقد تكون شرًّا، قال الله تبارك وتعالى: {وإذا مآ أنزلت سورة} يعني من القرآن {فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} كذلك الآيات الكونية من الناس من ينتفع بها ويستدل بها على

ما فيها من آيات الله ﷻ ومن الناس من يكون بالعكس يؤدي ما يجده في الآيات إلى الإلحاد- والعياذ بالله- ولهذا قال: {وفي الأَرض ءايات للموقنين} يعني لا لكل إنسان بل للموقن، أما الشاك والمتردد والكافر فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، {وفي أنفسكم} . أيضًا في أنفسكم آيات {أفلا تبصرون} وآيات هنا محذوفة، ولهذا نقول في الإعراب: في أنفسكم، جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: وفي أنفسكم آيات.

والحكمة- والله أعلم- ونحن في علمنا القاصر نظن أن الله حذف هذه الآيات لأنها أمس بالإنسان من الأرض وأدخل بالإنسان من الأرض، لأنها هي في نفسه، في أنفسكم آيات: ليس في تركيب الجسم فحسب، وليس فيما أودعه الله تعالى من القوة فحسب، بل حتى في تقلبات الأحوال، فالإنسان تجده يتقلب من سرور إلى حزن، ومن غم إلى فرح، تقلبات عجيبة عظيمة، حتى إن الإنسان في لحظة يجد نفسه متغيرًا، وأحيانًا يجد نفسه متغيرًا بدون سبب، يكون منشرح الصدر واسع البال مسرورًا، وإذا به يغتم بدون سبب، وأحيانًا بالعكس، هذا بالنسبة للأحوال النفسية، كذلك أيضًا بالنسبة للأحوال الإيمانية، وهي أعظم وأخطر، تجد الإنسان في بعض الأحيان يكون عنده من اليقين ما كأنه يشاهد أمور الغيب مشاهدة حسية، كأنما يرى كل ما أخبر به الله من علوم الغيب، وفي بعض الأحيان يقل هذا اليقين، لأسباب قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن من الأسباب المعلومة قلة

=

=

الطاعة، فإن قلة الطاعة من أسباب ضعف اليقين، فإذا قلت طاعة الإنسان ضعف يقينه، قال الله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} ومنها: اللهو، والغفلة، ولهذا قال الصحابة ﵃ لرسول الله عليه الصلاة والسلام إنا إذا كنا عندك وذكرت الجنة والنار فكأنما نراها رأي العين، فإذا ذهبنا إلى أهلنا عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا. وهكذا الإنسان كلما لهى قل يقينه وقل إيمانه، ومن ثم نهى الشرع عن اللعب واللهو الباطل، الذي يزداد به الإنسان بعدًا من الله وبعدًا عن طاعة الله وعن التفكير في آيات الله.

أيضًا في النفس آيات في نفوس الناس: فمن الناس من تجده هينًا لينًا طليق الوجه مسرورًا، كل من رآه سر بوجهه، وكل من جلس إليه زال عنه الغم والهم، ومن الناس من هو بالعكس قطوب، عبوس، بمجرد ما تراه لو كنت مسرورًا لأتاك الحزن والسوء، فهذا أيضًا من آيات النفس وهي كثيرة جدًا، ومن أراد المزيد من هذا والاطلاع على قدرة الله تعالى فيما في أنفسنا من الآيات فعليه بمطالعة كلام ابن القيم ﵀ في كتاب (مفتاح دار السعادة) يجد العجب العجاب، وكذلك أيضًا كتابه الصغير وهو كبير في المعنى وهو (التبيان في أقسام القرآن). ذكر من ذلك العجب العجاب {أفلا تبصرون}، الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، كأنما يقول الله ﷿ أبصروا في أنفسكم تبصَّروا وتأملوا وتفكروا، فإذا لم تعرفوا هذه الآيات فأنتم لا تبصرون، فيكون الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار ألا نتبصر، وهي دعوة من الله ﷿ لعباده أن يتبصروا في الآيات، فإذا لم تتبصر في الآيات فاعلم أنك محروم، قال الله تعالى: {وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}. إذن إذا لم تنتفع بالآيات فاعلم أنك محروم، وأن إيمانك ناقص {وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}.

فعليك يا أخي أن تتفكر في آيات الله الكونية، وما في هذا الكون العظيم من آيات

=

=

الله الدالة على عظمته وسلطانه ورحمته وحكمته، وكذلك في آيات الله الشرعية، ومن فتح الله عليه في الآيات الشرعية ينتفع بها أكثر مما ينتفع بالآيات الكونية، إذا تأمل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، والأفعال والأحكام، ازداد إيمانًا بالله ﷻ وعرف بذلك الحكمة والرحمة، وإذا تأمل فيما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من ثواب وعقاب، وجزاء وحساب ازداد إيمانًا بالله، وكلما تأمل الإنسان في آيات الله الشرعية ازداد إيمانًا، فبعض الناس الموفقين يكون ازدياد إيمانه بالآيات الشرعية أكثر من ازدياد إيمانه بالآيات الكونية، أما الإنسان الذي يفتح الله عليه في هذا وهذا فيا حبذا.

{وفي السماء رزقكم وما توعدون} ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: {هو الذي يريكم ءاياته وينزل لكم من السماء رزقًا وما يتذكر إلا من ينيب} . وسمي المطر رزقًا؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء والمرعى، متاعًا لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها، بل إن الله تعالى قال: {أفرءيتم الماء الذي تشربون أءنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون} هل أحد يستطيع أن ينزل من المزن ماءً؟ لا يمكن، وهل أحد يستطيع أن يخلق في المزن ماءً؟ لا يمكن، وإنما الله ﷻ هو الذي يتولى ذلك، هذا هو مادة الرزق، لولا الماء لهلكت، وتأمل قوله تعالى: {أءنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون} . لم يقل: لو نشاء لم ننزله، مع أنه لو شاء لم ينزله، لكن قال: {لو نشاء جعلناه أجاجًا} يعني لو نشاء أنزلناه لكن جعلناه أجاجًا مالحًا، لا يمكن أن يشرب، وحسرة الإنسان على ماء بين يديه ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود، لأن ماءً موجودًا لا تنتفع به ولا تستطيع شربه أشد حسرة من ماء مفقود، ولهذا ذكرنا الله هذه

=

=

الحال، أرأيتك الآن لو أن هذا المطر العذب الزلال اللذيذ صار أجاجًا مالحًا، ماذا تكون الحال؟ تكون صعبة جدًا، ولهذا قال: {لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون}.

{وفي السماء رزقكم} إذن الرزق هو المطر كما في الآية الكريمة {وينزل لكم من السماء رزقًا} ويمكن أن نقول: إن الرزق الذي في السماء أعم من ذلك، فقد يقال: إن في السماء رزقًا من المطر، وما كتبه الله لنا في اللوح المحفوظ من المصالح والمنافع الجسدية من أموال وبنين وغير ذلك، فيكون هذا القول أشمل وأعم، واعلم أنه ينبغي أن يراعي المستدل بالقرآن والسنة قاعدة مفيدة، وهي إذا فسرنا النص القرآني أو النبوي بمعنى أخص وفسرناه بمعنى أعم، فنأخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، إلا إذا دل دليل على أنه خاص، فهذا يتبع فيه الدليل، لكن عندما لا يدل الدليل، فخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، فهنا إذا قلنا: المراد بالرزق ما هو أعم من المطر، فالجواب صحيح، فيدخل فيه المطر وغيره، وقوله: {وما توعدون} يعني وفيه الذي توعدون، والذي نوعد الجنة، فالجنة في السماء وليست في الأرض، ولهذا قال الله تعالى في قصة آدم: {قلنا اهبطوا منها}. والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل، فالجنة في السماء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الجنة درجات، وأن أعلاها الفردوس، وأنه أعلاها وأوسطها أيضًا، وهو إشارة إلى أن الجنات مثل القبة أعلاها هو وسطها، قال: «منه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» إذن هي أعلى شيء،- نسأل الله أن يجعلنا من ساكنيها إنه على كل شيء قدير -، فالذي نوعد هو الجنة، فالرزق في السماء، والجنة التي نوعدها في الآخرة في السماء، إذا نحن أهل الأرض محتاجون إلى السماء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ففي السماء رزقنا في الدنيا، وفيها ما نوعد في الآخرة وهو الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

=

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤).

{هَلْ أَتَاك} خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ {حَدِيث ضَيْف إِبْرَاهِيم الْمُكْرَمِينَ} وَهُمْ مَلَائِكَة اثْنَا عَشَر أَوْ عَشْرَة أَوْ ثَلَاثَة مِنْهُمْ جبريل.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥).

{إِذْ} ظَرْف لِحَدِيثِ ضَيْف {دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} أَيْ هَذَا اللَّفْظ {قَالَ سَلَام} أَيْ هَذَا اللَّفْظ {قَوْم مُنْكَرُونَ} لَا نَعْرِفهُمْ قَالَ ذَلِكَ فِي نَفْسه وَهُوَ خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أي هؤلاء.

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦).

{فَرَاغَ} مَالَ {إِلَى أَهْله} سِرًّا {فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِين} وَفِي سُورَة هُود {بِعِجْلٍ حَنِيذ} أَيْ مشوي.

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧).

=

{فورب السماء والأرض إنه لحق مثل مآ أنكم تنطقون} الفاء عاطفة، والواو للقسم، ورب السماء والأرض هو الله ﷻ أقسم بنفسه تبارك وتعالى بمقتضى ربوبيته للسماء والأرض، أن ما يوعدون حق؛ لأنه قال: {وفي السماء رزقكم وما توعدون} {فورب السماء والأرض} أي: ما توعدون. ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا للقرآن، ويحتمل أيضًا أنه عائد إلى النبي ﷺ، والمعاني الثلاثة كلها متلازمة، وقوله: {إنه لحق} أي: ثابت، لأن الحق والباطل متقابلان، فالباطل هوالزائل الضائع سدًا، والحق هو الثابت الذي فيه الفائدة، وفيه الخير والصلاح، وقوله: {مثل مآ أنكم تنطقون} يعني كما أن الإنسان يتيقن نطقه، فإن هذا القرآن حق، ومعلوم أن كل واحد منا لا ينكر نطقه، وإذا نطق تيقن أنه نطق، إذن هذا القرآن كلام الله ﷻ حق مثلما أن نطقنا حق.

{فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} عَرَض عَلَيْهِمْ الْأَكْل فَلَمْ يُجِيبُوا.

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨).

{فَأَوْجَسَ} أَضْمَرَ فِي نَفْسه {مِنْهُمْ خِيفَة قَالُوا لَا تَخَفْ} إنَّا رُسُل رَبّك {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَام عَلِيم} ذِي عِلْم كَثِير وَهُوَ إسْحَاق كَمَا ذُكِرَ فِي هُود.

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩).

{فَأَقْبَلَتْ امْرَأَته} سَارَّة {فِي صَرَّة} صَيْحَة حَال أَيْ جَاءَتْ صَائِحَة {فَصَكَّتْ وَجْههَا} لَطَمَتْهُ {وَقَالَتْ عَجُوز عَقِيم} لَمْ تَلِد قَطُّ وَعُمْرهَا تِسْع وَتِسْعُونَ سَنَة وَعُمْر إبْرَاهِيم مِائَة سَنَة أَوْ عُمْره مِائَة وَعِشْرُونَ سَنَة وَعُمْرهَا تِسْعُونَ سَنَة.

قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠).

{قَالُوا كَذَلِك} أَيْ مِثْل قَوْلنَا فِي الْبِشَارَة {قَالَ رَبّك إنَّهُ هُوَ الْحَكِيم} فِي صُنْعه {العليم} بخلقه[1].

---

(١) قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} [الذاريات: ٢٤]، أي:" هل أتاك -أيها الرسول- حديث ضيف إبراهيم الذين أكرمهم -وكانوا من الملائكة الكرام-".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، يخبره أنه محلّ بمن تمادى في غيه، وأصرّ على كفره، فلم يتب منه من كفار قومه، ما أحلّ بمن قبلهم من الأمم الخالية، ومذكرا قومه من قريش بإخباره إياهم أخبارهم وقصصهم، وما فعل بهم، هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم خليل الرحمن المكرمين".

قال ابن كثير:" أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل".

=

=

قال الفراء:" لم يكن عَلِمه النَّبِيّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ- حتى أنزله الله عليه".

قال الماوردي:" وسمي الضيف ضيفًا، لإضافته إليك وإنزاله عليك".

وفي قوله تعالى: {الْمُكْرَمِينَ} [الذاريات: ٢٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنهم كانوا مكرمين عند الله، نظيره في سورة الأنبياء: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون} [الأنبياء: ٢٦]. قاله عبد العزيز بن يحيى الكناني.

قال الواحدي:" يعني: عند الله، وذلك أنهم كانوا ملائكة كراما، وقد قال الله تعالى في صفتهم: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦] ".

وذكر ابن عباس أسماءهم، فقال: يريد: "إسرافيل، وجبريل، وميكائيل".

قال عطاء:" كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما مَلك آخر".

قال القرظي:" كان جبريل ومعه سبعة".

الثاني: مكرمون لإكرام إبراهيم لهم حين خدمهم بنفسه، قاله مجاهد.

قال مجاهد: "أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بالعجل حينئذ".

قال الفراء: "أكرمهم بالعمل الَّذِي قرّبه".

وقال الكلبي: "أكرمهم بالعجل".

قال الطبري:" يعني بقوله: {الْمُكْرَمِينَ} أن إبراهيم عليه السلام وسارة خدماهم بأنفسهما".

قال مقاتل:" يعني: قد أتاك يا محمد {حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}، يعني: جبريل وميكائيل، وملك آخر أكرمهم إبراهيم وأحسن القيام، ورأى هيئتهم حسنة، وكان لا يقوم على رأس ضيف قبل هؤلاء، فقام هو وامرأته سارة لخدمتهم".

قال سهل: "سماهم «مكرمين»، لأنه خدمهم بنفسه، وكان منذ سبعة أيام لم يطعم شيئًا، ينتظر ضيفًا، فلما أرسل الله تعالى ملائكته إليه استبشر بهم وخدمهم بنفسه

=

=

ولم يطعم معهم، وهي علامة الخلة المؤكدة أن يطعم ولا يطعم، ويشفي الغير من ألم ويسقم".

قال أبو بكر الوراق وابن عطاء: "سمّاهم مكرمين، لأنّ أضياف الكرام مكرمون، وكان إبراهيم عليهم السّلام أكرم الخليقة وأطهرهم فتوة".

قال عطاء: "وكان إبراهيم إذا أراد أن يتغذى، أو يتعشى خرج الميل والميلين والثلاثة، فيطلب من يأكل معه".

قال عكرمة: "وكان إبراهيم يكنى أبا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت".

قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الذاريات: ٢٥]، أي:" حين دخلوا عليه في بيته، فحيَّوه قائلين له: سلامًا".

قال الطبري:" يقول: حين دخل ضيف إبراهيم عليه، فقالوا له سلاما: أي: أسلموا إسلاما".

وفي قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الذاريات: ٢٥]، وجهان:

أحدهما: أي: مسالمين غير محاربين لتسكن نفسه. قاله الأخفش.

الثاني: أنه دعا لهم بالسلامة، حكاه الماوردي عن الجمهور، لأن التحية بالسلام تقتضي السكون والأمان، قال الشاعر :

أَظُلَيْمُ إن مُصَابَكم رَجُلا... أَهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْم

وقراءة عامة قرّاء المدينة والبصرة: {سَلامٌ} بالألف، بمعنى قال: إبراهيم لهم سلام عليكم. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة: «سِلْمٌ»، بغير ألف، بمعنى، قال: أنتم

=

=

سلم.

قال الزجاج:" من قرأ: {قَالَ سَلَامٌ} فهو على وجهين: على معنى قال: سَلام عليكم. ويجوز أن يكون على معنى: أمرنا سَلامٌ. ومن قرأ: «سِلْمٌ»، فالمعنى: قال سِلْمٌ، أي: أمري سِلْمٌ، وأمرنا سِلْمٌ. أي: لا بَأس علينا".

قوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} [الذاريات: ٢٥]، أي:" فردَّ عليهم التحية قائلا سلام عليكم، أنتم قوم غرباء لا نعرفكم".

قال الطبري:" يقول: قوم لا نعرفكم".

قال مقاتل:" يقول: أنكرهم إبراهيم- صلى الله عليه- وظن أنهم من الإنس".

قال ابن كثير:" وقوله: {قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ}: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} ".

عن ابن عباس:" {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلامًا قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}، قال في نفسه: هؤلاء قوم لا نعرفهم".

قال أبو العالية:" أنكَر سلامهم في ذلك الزمان، وفي تلك الأرض".

قوله تعالى: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ} [الذاريات: ٢٦]، أي:" فعَدَلَ ومال خفية إلى أهله".

قال ابن كثير:" أي: انسل خفية في سرعة".

قال مقاتل:" يعنى: فمال إلى {أَهْلِهِ} ".

قال الطبري:" يقول: عدل إلى أهله ورجع".

قال الزجاج: أي: "عدل إِلَيْهِمْ من حيث لا يعلمون لأيِّ شيء عَدَل، وكذلك

=

=

يَقُولُ: راغ فلان عنا إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون".

قال ابن قتيبة:" أي: عَدَل إليهم في خُفْية. ولا يكون «الرَّواغُ» إلا أن تُخْفِيَ ذهابَك ومجيئَك".

قال الصابوني:" إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه في التأخير".

قوله تعالى: {فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [الذاريات: ٢٦]، أي:" فجاءهم بعجل سمينٍ مشوي".

قال الطبري:" يقول: فجاء ضيفَه بعجل سمين قد أنضجه شيًا".

قال ابن كثير:" أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [هود: ٦٩] أي: مشوي على الرَّضف".

قال قتادة:" كان عامة مال نبيّ الله إبراهيم عليه السلام البقر".

وأما «العجل»، ففي تسميته بذلك وجهان:

أحدهما: لأن بني إسرائيل عجلوا بعبادته.

الثاني: لأنه عجل في اتباع أمه.

عن عون بن أبي شداد: "أنّ ضيف إبراهيم المكرمين لمّا دخلوا عليه فقرّب إليهم العجل، فمسحه جبريل عليه السلام بجناحه، فقام العجل يدرج في الدار حتى لحق بأمّه".

قوله تعالى: {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [الذاريات: ٢٧]، أي:" فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام".

قال الطبري:" المعنى: فقربه إليهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا، {قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} على

=

=

النكير. أي: أمركم في ترك الأكل مما أنْكِرُه".

قال ابن كثير:" {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ}، أي: أدناه منهم، {قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ}: تلطف في العبارة وعرض حسن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: "نأتيكم بطعام؟" بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: {أَلا تَأْكُلُونَ} على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل ".

عن السدي، قال: "أتى الرسلُ إبراهيمَ حين بعثوا إلى قوم لوط فنزلوا به يستضيفونه فجاءهم بالعجل الحنيذ، قال: فلما وضع بين أيديهم كفوا عنه فلم يتناولوا منه شيئًا، فقال لهم إبراهيم حين رآهم لا يطعمون: مالكم لا تطعمون؟ قالوا: إنا قوم لا نصيب طعامًا إلا بثمن".

قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} [الذاريات: ٢٨]، أي:" فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام".

قال الطبري:" يقول: فأوجس في نفسه إبراهيم من ضيفه خيفة وأضمرها".

قال الزجاج: "معنى {أوْجَسَ}، وقع في نَفْسِه الخوف".

قال النحاس:" أي: ستر ذلك وأضمره".

قال مقاتل:" فلما رأى إبراهيم -عليه السلام- أيدي الملائكة لا تصل إلى العجل {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، فخاف وأخذته الرعدة، وضحكت امرأته سارة وهي قائمة، من رعدة إبراهيم، وقالت في نفسها: إبراهيم معه أهله وولده وخدمه وهؤلاء ثلاثة نفر".

قال ابن كثير:" هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله:

=

=

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود: ٧٠، ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب".

قال وهب بن منبه: "فلما رأى الله ذلك يعني فاحشة قوم لوط بعث الله ﷻ الملائكة ليعذبوهم فأتوا إبراهيم فلما رأهم راعه هيئتهم وجمالهم فسلموا عليه وجلسوا إليه فقام ليقرب لهم العجل فقالوا مكانك قال: بل دعوني آتيكم بما ينبغي لكم فإن لكم حقا لم يأتنا أحد أحق بالكرامة منكم فأمر بعجل سمين فحنذ له يعني شوي فقرب إليهم الطعام فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة وسارة وراء الباب تسمع".

قوله تعالى: {قَالُوا لَا تَخَفْ} [الذاريات: ٢٨]، أي:" قالوا له لا تخف إنا رسل ربك".

قال القشيري:" توهّم أنهم لصوص فقالوا له: {لا تَخَفْ} ".

عَون بن أبي شَدّاد -من طريق نوح بن قيس-: "أنّ ضيف إبراهيم المُكرمين لما دخلوا عليه فقرَّب إليهم العجل مشويًّا، فمَسحه جبريل- عليه السلام- بجناحه فقام العِجل يَدْرُجُ في الدار حتى لحق بأمه، فحينئذ عرف أنهم ملائكة ".

قوله تعالى: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات: ٢٨]، أي:" وبشروه بولدٍ يولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه".

قال ابن كثير:" فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بشر به".

قال الزجاج: "معنى {عليم}، أنه يبلغ وَيَعْلَم".

قال القشيري:" أي: بشّروه بالولد، وببقاء هذا الولد إلى أن يصير عليما والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليما بعد كبره".

=

=

وقال مقاتل:" يعني: حليم".

وفي قوله تعالى: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات: ٢٨]، قولان:

أحدهما: أنه إسماعيل من هاجر، قاله مجاهد.

عن مجاهد: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}، قال: "هو إسماعيل".

الثاني: أنه إسحاق من سارة، استشهادًا بقوله تعالى في آية أخرى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} [الصافات: ١١٢].

قال الطبري:" يعني: بإسحاق، وقال: عليم بمعنى عالم إذا كبر.. وإنما قلت: عنى به إسحاق، لأن البشارة كانت بالولد من سارّة، وإسماعيل لهاجَر لا لسارّة".

قال الفراء:" قوله: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} إِذَا كبر، وكان بعض مشيختنا يَقُولُ: إِذا كان العلم منتظرا لمن يوصف بِهِ قلت فِي العليم إِذَا لم يعلم: إنه لعالم عنْ قليل وفاقِه، وفي السيد: سائد، والكريم: كارم. والذي قَالَ

حسن، وهذا كلام عربي حسن، قَدْ قاله الله في «عليم»، و «حليم»، و «ميت»، وكان المشيخة يقولون للذي لما يَمُت وسيموت: هو مائت عنْ قليل، وقول الله ﷻ أصوب من قيلهم، وقال الشَّاعِر فيما احتجوا بِهِ:

كريم كصفو الماء ليس بباخل... بشيء، ولا مهد ملاما لباخل

يريد: بخيل، فجعله باخل لأنَّه لم يبخل بعد".

قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} [الذاريات: ٢٩]، أي:" فلما سمعت زوجة إبراهيم مقالة هؤلاء الملائكة بالبشارة أقبلت نحوهم في صيحة".

قال الطبري: "يعنى: سارّة، وليس ذلك إقبال نقلة من موضع إلى موضع، ولا تحوّل من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى: أخذ في شتمي. وقوله: {فِي صَرَّةٍ}، يعني: في صيحة".

وفي قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} [الذاريات: ٢٩]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: الرنة والتأوه، قاله قتادة، ومنه قول الشاعر :

وشربة من شراب غير ذي نفس... في صرة من تخوم الصيف وهاج

قال قتادة:" أقبلت ترنَ".

الثاني: أنها الصيحة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن سابط، وابن زيد، ومنه قول امرئ القيس :

فَأَلْحَقَنَا بالهَادِيَاتِ وَدُونَهُ... جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ

قال الزجاج: "الصرةُ: شدة الصياحِ ههنا".

قال أبو عبيدة:" {فِي صَرَّةٍ}، شدة صوت، يقال: أقبل فلان يصطر. أي: يصوت صوتا شديدا".

قال ابن قتيبة:" أي: في صَيْحَة. ولم تأت من موضع إلى موضع؛ إنما هو كقولك: أقبلَ يَصيح وأقبل يتكلَّم".

الثالث: أنها الجماعة، قاله ابن بحر، ومنه: المصراة من الغنم لجمع اللبن في ضرعها. وسميت صرة الدراهم فيها، قال الشاعر :

رُب غلام قد صرَى في فقرته... ماء الشباب عنفوانَ سَنْبته

قال النحاس:" وقيل: {في صرّة}، في جماعة نسوة يتبادرن لينظرن إلى الملائكة".

قوله تعالى: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات: ٢٩]، أي:" فلطمت وجهها تعجبًا من هذا الأمر".

قال الطبري:" الصكّ عند العرب: هو الضرب".

قال الفراء:" أي: جمعت أصابعها، فضربت جبهتها".

قال ابن قتيبة:" أي: ضربتْ بجميع أصابعها جَبْهَتَهَا".

عن مجاهد، قوله: "{فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}، قال: جبهتها".

عن ابن سابط، قوله: "{فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}، قال: قالت هكذا؛ وضرب سفيان بيده

=

=

على جبهته".

وفي قوله تعالى: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات: ٢٩]، وجهان:

أحدهما: معناه: لطمت وجهها، قاله ابن عباس.

قال الزجاج: "أي: لطمت وَجْهَهَا".

قال ابن كثير:" أي: تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب".

الثاني: أنها ضربت جبينها تعجبًا. قاله السدي، وسفيان، ومقاتل.

قال السدي:" لما بَشَّر جبريل سارةَ بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ضربت جبهتها عجبا، فذلك قوله: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} ".

قال سفيان:" وضعت يدها على جبهتها تعجبا".

قوله تعالى: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [الذاريات: ٢٩]، أي:" وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟ ".

قال أبو عبيدة:" مختصر. أي: أنا عجوز عقيم".

قال ابن كثير:" أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنتُ في حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ".

قال الطبري:" يقول: وقالت: أتلد، وحذفت أتلد لدلالة الكلام عليه، وبضمير أتلد رفعت عجوز عقيم، وعني بالعقيم: التي لا تلد".

قال الزجاج: "المعنى: وقالت أنا {عَجُوزٌ عَقِيمٌ}، وكيف أَلِدُ. ودليل ذلك قوله في موضع آخر: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [هود: ٧٢] ".

قال الفراء:" أتلد عجوز عقيم؟ ".

قال النحاس:" زعم بعض العلماء أنّ عجوزا بإضمار فعل أي أتلد عجوز. قال أبو جعفر: وهذا خطأ لأن حرف الاستفهام لا يحذف والتقدير على قول أبي إسحاق: قالت أنا عجوز عقيم أي فكيف ألد".

=

=

عن مشاش، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ}، قال: لا تلد".
عن هشيم، قال: "أخبرنا رجل من أهل خراسان من الأزد، يكني أبا ساسان، قال: سألت الضحاك، عن قوله: {عَقِيمٌ}، قال: التي ليس لها ولد".
عن السدي: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}: "كنت شابة عقيم فكيف وأنا اليوم عجوز؟ فضحكت تعجبًا وقالت: أنا ألد؟ كيف يكون هذا وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا".
قوله تعالى: {قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ} [الذاريات: ٣٠]، أي:" قالت لها ملائكة الله: هكذا قال ربك كما أخبرناك، وهو القادر على ذلك، فلا عجب من قدرته".
قال الطبري:" يقول: هكذا قال ربك: أي: كما أخبرناك وقلنا لك".
قال الزجاج: "أي: كما قلنا لك قال ربك، أي: إنما نخبرك عن الله- ﷻ".
قال النحاس:" أي: كما قلنا لك، وليس هذا من عندنا".
قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الذاريات: ٣٠]، أي:" إنه سبحانه وتعالى هو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، العليم بمصالح عباده".
قال الزجاج: "والله حكيم عَلِيم، يقدر أن يجعل العقيم ولودًا، والعجوز كذلك. فعلم إبراهيم أنهم رسل وأنهم ملائكة".
قال الطبري:" هو {الْحَكِيمُ} في تدبيره خلقه، {الْعَلِيمُ} بمصالحهم، وبما كان، وبما هو كائن".
قال ابن كثير:" أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله ".
قال مقاتل:" {الْحَكِيمُ}: حكم أمر الولد في بطن سارة، {الْعَلِيمُ}: بخلقه".
عن قتادة: "حكيم: في أمره".
قال الثعلبي:" كانت سارة لم تلد قبل ذلك وكان بين البشارة والولادة سنة، فولدت له سارة وهي بنت سبع وتسعين، وإبراهيم ابن مائة سنة".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} الخطاب ليس للنبي ﷺ فحسب، بل له، ولكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، كأنه قال: هل أتاك أيها المخاطب {حديث ضيف إبراهيم المكرمين} والاستفهام هنا للتشويق، كأنه يشوقك إلى أن تسمع هذا الحديث، ونظيره في التشويق قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} . ليس المراد بهذا الاستفهام أنه يستفهم، لكنه أراد أن يشوق المخاطبين إلى ذلك، ويكون الاستفهام للتهديد والإنذار والتخويف في مثل قوله تعالى: {هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة}

فإذا قال قائل: أي شيء يدلنا على أن الاستفهام للتشويق، أو للتهديد، أو للاستخبار أو ما أشبه ذلك؟

نقول: الذي يدلنا على هذا السياق وقرائن الأحوال، والعاقل يفهم هذا وهذا، {هل أتاك حديث} أي: خبر {ضيف إبراهيم} ، ضيف هنا مفرد، لكنه يستوي فيه الجماعة والواحد، وهم جماعة ملائكة كرام عليهم الصلاة والسلام، {ضيف إبراهيم} يعني الذين نزلوا ضيوفًا عنده، وإبراهيم هو الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو أبو العرب، وأبو بني إسرائيل كما قال تعالى: {ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل} . وهو الذي أمرنا الله تعالى أن نتبع ملته، قال الله تعالى: {ثم أوحينآ إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين} . ولهذا ادعت اليهود أن إبراهيم يهودي، والنصارى ادعوا أنه نصراني، ولكن الله تعالى كذبهم في ذلك، فقال: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين} .

يقول الله ﷻ: {إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا} يحتمل أن {إذ دخلوا} متعلق بقوله (المكرمين) يعني الذين أكرمهم حين دخولهم عليه، ويحتمل أنها مفعول لفعل

=

=

محذوف، والتقدير: اذكر إذ دخلوا على إبراهيم {فقالوا سلامًا قال سلام قوم منكرون} (قالوا سلامًا)، أي: نسلم سلامًا، وعليه فسلامًا مصدر عامله محذوف، والتقدير: نسلم، {قال سلام} مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: عليكم سلام، وعلى هذا فيكون التسليم هنا ابتداؤه بالجملة الفعلية، وجوابه بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن رد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أكمل من تسليم الملائكة، لأن تسليم الملائكة جاء بالصيغة الفعلية، ورد إبراهيم جاء بالصيغة الاسمية، {قوم منكرون}، قوم خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم قوم، وإنما قال إنهم قوم؛ لأنهم بصورة البشر، وقوله: {منكرون} أي: غير معروفين، كما قال تعالى: {فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفةً}. في هذه الآية شاهد لحذف المبتدأ، وحذف الخبر، والشاهد لحذف الخبر (سلام)، لأن التقدير: عليكم سلام. والشاهد لحذف المبتدأ (قوم)، لأن التقدير: أنتم قوم. {فراغ إلى أهله} راغ: انسل بخفية وسرعة، وذلك من حسن ضيافته. لم يقل: انتظروا آتي لكم بالطعام.

ولم يقم متباطئًا كأنما يدفع دفعًا، وإنما قام بسرعة منسلًا، لئلا يقوموا إذا رأوه ذهب إلى أهله، فكأنه أخفى الأمر عنهم {أهله} يعني أهل بيته {فجاء بعجل سمين} وفي آية أخرى: {بعجل حنيذ} أي مشوي، واللحم إذا شوي يكون أطعم وألذ، لأن طعمه يبقى فيه لا يمتزج بالماء، بخلاف ما إذا طبخ يمتزج بعضه بالماء، فتقل لذته، لكن إذا كان مشويًا صار أطيب وأحسن، {فجاء بعجل سمين} يعني أنه عليه الصلاة والسلام لا يتخير للضيوف البهائم العجفاء الهزيلة، وإنما يتخير لهم البهائم السمينة، لأنها ألذ وأطيب وأنفع، واختيار العجل إما أن يكون من عادته عليه الصلاة والسلام أن يكرم الناس بهذا، أو أنه يكرم الضيوف بحسب ما تقتضيه الحال، فإذا كانوا كثيرين أتى بالعجل، وإذا كانوا أقل أتى بالغنم، وما أشبه

=

=

ذلك حسب عادة الكرماء {فقربه إليهم قال ألا تأكلون} أي لم يجعله بعيدًا، ويقول: قوموا إلى طعامكم، بل خدمهم حتى جعله بين أيديهم، وقربه إليهم قال: {ألا تأكلون} ولم يقل: كلوا. إنما عرضه عليهم عرضًا، لأن هذا أبلغ في الإكرام، والعرض أخف وألطف من الأمر، إذ إنه لو قال: كلوا. كان يحتمل أنه أراد أن يستعلي عليهم ويوجه الأمر إليهم، لكن قال: ألا تأكلون؟ والفرق بين العبارتين في الرق، فقوله: {ألا تأكلون} أرق وأرفق.

مسألة: هل نقول: إن السنة والأفضل أن الإنسان إذا دعا ضيوفًا، أو أتاه ضيوف أن يقرب إليهم الطعام في مجلس الجلوس أو نقول: هذا يختلف باختلاف الأحوال؟ الثاني هو الأظهر، لأن عموم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه» يدل على أنك تكرمهم بما جرت العادة بإكرامهم به، وعندنا الآن إذا دعوت أصحابك وأصدقاءك وهم قلة فلا يعدون تقديم الطعام في مكان جلوسهم إهانة، لأنهم إخوانكم وأصدقاؤكم، لكن لو نزل بك ضيف أو دعوت ضيفًا ليس بينك وبينه صلة تامة فإنه في عرف الناس الآن ليس من إكرامه أن تقدم الطعام في محل الجلوس، اللهم إلا لضرورة، إذا لم يكن عندك مكان، والآن الإكرام أن تجعل الطعام في مكانه، ثم إذا أراد أن يأكلوا يقول: تفضلوا، ألا تتفضلوا، أو ما أشبه ذلك من الكلمات المتداولة، فالمهم أن قوله تبارك وتعالى عن إبراهيم: {فقربه إليهم قال ألا تأكلون} ينبغي أن يجعل هذا حسب عادة الناس، إذا كان من الإكرام أن تأتي بالطعام إلى محل جلوسهم فأت به، وإذا كان من الإكرام أن تجعله في محل آخر فافعل، دليل ذلك قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

{فأوجس منهم خيفةً} أي: أحس بنفسه بخيفة منهم، وسبب تلك الخيفة أنه عليه الصلاة والسلام لما قدَّم إليهم الطعام لم يأكلوا منه {فأوجس منهم خيفةً} لأن

=

=

العادة أن الضيف يأكل مما قدم له المضيف، لكن هؤلاء الملائكة، لم يأكلوا؛ لأن الملائكة صمد أي ليس لهم أجواف، كما جاء ذلك مأثورًا عن السلف، ولهذا لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب، فأوجس منهم خيفة {قالوا لا تخف} طمأنوه، قالوا: لا تخف لما رأوا على وجهه من علامة الإنكار والخوف، وكل إنسان يعرف حال قلب المرء المواجه له، هل هو في سرور؟ هل هو في انشراح؟ هل هو خائف؟ هل هو مطمئن؟ لأن هذا أمر معلوم بالفطرة، ولا يحتاج إلى كبير فراسة {وبشروه بغلم عليم} البشارة هي الإخبار بما يسر، أي أخبروه بما يسره وهو الغلام العليم، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الكبر عتيًّا قبل أن يولد له، فبشروه بهذا الغلام، وبشروه بأنه عليم أي سيكون عالمًا؛ لأن الله تعالى جعله من الأنبياء، والأنبياء هم أعلم الخلق بالله ﷻ وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم، لأن في القرآن أن إبراهيم بُشر بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفة، ولقد أبعد عن الصواب، من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونص صريح في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالى لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: {وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين} فكيف يبشر بمن أمر بذبحه، وكان عنده وبلغ معه السعي، كل هذا مما يدل على أن الغلام الحليم غير الغلام العليم، بشروه بغلام عليم، وهذه بشارة بثلاثة أشياء:

أولًا بأنه سيأتيه مولود يصل إلى أن يكون غلامًا، ثانيًا: أن هذا المولود ذكر لا أنثى لقوله (غلام)، ثالثًا: أنه عليم أي ذو علم، وكل هذه البشارات عظيمة، كل واحدة تكفي أن تكون بشارة.

=

=

فالذي ذهب إليه جمهور المفسرين - وهو الصحيح - أن الغلام الحليم إسماعيل عليه السلام، والغلام العليم هو إسحاق عليه السلام.

ويدل على صحة هذا القول دليلان:

الأول: أن الغلام العليم جاءت به البشرى لإبراهيم وامرأته وهي سارة، وابن سارة هو إسحاق، وأما إسماعيل فهو ابن هاجر جارية إبراهيم.

الدليل الثاني: سياق الآيات، فإن سياق الآيات ظاهر جدا. للدلالة على هذا القول.

أما البشرى بالغلام الحليم، فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه دعا ربه قائلا: (رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) سورة الصافات/ ١٠٠-١١٣.

فهذه الآيات تدل على أن الغلام الحليم هو إسماعيل، لأنه هو الذي أمر إبراهيم بذبحه.

ولا يمكن أن يكون هو إسحاق، لأن الله تعالى بعد أن ذكر قصة الغلام الحليم وهو الذبيح، بشر إبراهيم بإسحاق، فقال: (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) وهذا يدل دلالة واضحة على أن الغلام السابق ليس هو إسحاق، وأيضا: لأن إسحاق بشر أنه سيكون نبيا فلا يمكن أن يؤمر بذبحه.

=

=

ووصف إسماعيل بـ (الحليم)، مناسب جدا، فإن الحلم هو العقل، وكمال الرأي، المتضمن كمال الصبر، وجوابه عليه السلام لما أخبر بالأمر بذبحه يدل على كمال عقله، وكمال صبره، (قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين).

قال ابن كثير رحمه الله: "وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام" انتهى.

وأما الغلام العليم، فقد قال الله تعالى: (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم * قال فما خطبكم أيها المرسلون) الذاريات/ ٢٤-٣٠.

وقال تعالى: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم * ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) الحجر/ ٤٩-٤.

فآيات سورة الذاريات تدل على أن هذا الغلام العليم سيكون من امرأته، وامرأته هي سارة، وابنها هو إسحاق.

بل جاءت هذه البشرى في سورة هود صريحة بأنه إسحاق.

قال الله تعالى: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي

=

=

شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد * فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب) هود/ ٩٦-٧٥.

فسياق هذه الآيات موافق لسياق آيات سورة الذاريات، مما يدل على أن المبشر به في السورتين هو شخص واحد وهو إسحاق عليه السلام.

وانفرد مجاهد رحمه الله، وقال : الغلام العليم هو إسماعيل، ولم يوافقه أحد من العلماء على هذا القول، بل حكموا بضعفه ورده.

وهذه طائفة من أقوال العلماء، في أن الغلام الحليم هو إسماعيل، والغلام العليم هو إسحاق عليه السلام.

قال ابن جرير الطبري (٩/ ٧٦٢٦) :" (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) يعني: بإسحاق، و (عليم) بمعنى عالم إذا كبر.

وروي عن مجاهد في قوله : (بغلام عليم) قال: إسماعيل.

وإنما قلت (ابن جرير) : عنى به إسحاق، لأن البشارة كانت بالولد من سارة، وإسماعيل لهاجر لا لسارة" انتهى باختصار.

وقال ابن كثير (٤/ ٢٩٩) :" (وبشروه بغلام عليم) وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم في سورة هود" انتهى.

واختار القرطبي أيضا أن المراد بـ "الغلام العليم" هو إسحاق عليه السلام، فقال :" (وبشروه بغلام عليم) أي بولد يولد له من سارة زوجته.... "ومعنى (عليم) أي : يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشر به هو إسحق.

وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء، فإن الله تعالى يقول: (وبشرناه بإسحق).

=

=

وهذا نص" انتهى. "تفسير القرطبي" (١٩/ ٤٩٤).

يشير القرطبي بذلك إلى أن آيات الصافات ذكرت البشرى بإسحاق بعد ذكر البشرى بالغلام الحليم وهو الذبيح، إسماعيل عليه السلام.

وقال في "البحر المحيط" (١٠/ ١٣٩) :" (بغلام عليم) : أي سيكون عليما، وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء. وعن الحسن : عليم نبي؛ والجمهور : على أن المبشر به هو إسحاق بن سارة. وقال مجاهد : هو إسماعيل" انتهى.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ١٨٣):" (إنا نبشرك بغلام عليم) والعليم : كثير العلم..... وهذا الغلام : هو إسحاق كما تقدم في هود" انتهى.

وقال أيضا (٧/ ٤٦) :" (وبشروه بغلام عليم) أي : بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال، والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده : إنه إسماعيل، وهو مردود بقوله : (وبشرناه بإسحاق) الصافات/ ١١٢" انتهى.

وقال الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير" (٧/ ٤٨٥) :" (إنا نبشرك بغلام عليم) والغلام العليم : إسحاق عليه السلام، أي : عليم بالشريعة، بأن يكون نبيا".

وقال أيضا (١٢/ ١٤٠) :" (فبشرناه بغلام حليم) الغلام الذي بشر به هو الولد الأول الذي ولد له، وهو إسماعيل لا محالة.

والحليم : الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأي، ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق.

وهذا الغلام الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر، وهذا غير الغلام الذي بشره به الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط في قوله تعالى : (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) الذاريات/ ٢٨، فذلك وصف بأنه (عليم). وهذا وصف بـ (حليم).

=

=

وأيضا : ذلك كانت البشارة به بمحضر سارة أمه، وقد جعلت هي المبشرة في قوله تعالى : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا) هود/ ٧٢، فتلك بشارة كرامة، والأولى بشارة استجابة دعائه، فلما ولد له إسماعيل تحقق أمل إبراهيم أن يكون له وارث من صلبه" انتهى باختصار.

وقال السعدي (ص٩٦٣) :" (لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى (عليم) أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) " انتهى.

وقال أيضا (ص٨٣١) :"فبشرناه بغلام حليم" وهذا إسماعيل بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشراه بإسحاق : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر وحسن الخلق وسعة الصدر والعفو عمن جنى" انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر آيات سورة الصافات وفيها قصة الذبيح الذي هو الغلام العليم : ثم قال تعالى : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) الصافات/ ١١٢، فهذه بشارة من الله تعالى له شكرا على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جدا في أن المبشر به غير الأول، بل هو كالنص فيه" انتهى من "زاد المعاد" (١/ ٧٣).

وقال أيضا (١/ ٧٤) : "فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليما، فقال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) الذاريات/ ٢٤، ٢٥، إلى أن قال : (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم)

=

=

الذاريات/ ٢٨، وهذا إسحاق بلا ريب لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية (يعني : الأمة)، وأيضا : فإنهما بشرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك" انتهى.

قوله تعالى {فأقبلت امرأته في صرة} امرأته هذه: سارة أم إسحاق، أقبلت لما سمعت البشرى {في صرة} في صيحة سرور، لأنها جاءتها هذه البشرى بعد أن تقدمت بها السن، تصيح وكأنها والله أعلم تقول: غلام غلام، {فصكت وجهها} أي ضربته بيدها كالمتعجبة، كما يصنع الناس إلى اليوم إذا أتاهم خبر نادى: الله أكبر.

وضرب على وجهه {وقالت عجوز عقيم} عجوز خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنا عجوز عقيم، فكأنها تعجبت أن تحصل لها البشرى بهذا الغلام العليم، بعد أن تقدمت بها السن وعقمت من الولد، ولكنهم بينوا لها السبب الوحيد الذي به وجد هذا الولد، فقالوا: {كذلك قال ربك} أي مثلما قلنا وبشرنا به، قال الله ﷻ وانظر إلى قوله: {قال ربك} حيث أضاف الربوبية هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها، لأن إضافة الربوبية إلى الشخص المعين تكون ربوبية خاصة، والربوبية العامة لكل أحد، والله رب كل شيء، والخاصة ليست لأحد إلا لمن كان خاصًّا بالله، قال الله ﷻ: {قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} الربوبية العامة {برب العالمين}، والربوبية الخاصة {رب موسى وهارون}، هنا قالوا لها: {قال ربك} من باب الربوبية الخاصة التي تقتضي عناية خاصة {قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم} إن شئت فقل: (الحكيم) خبر إن و (هو) ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وإن شئت فقل: (هو) مبتدأ و (الحكيم) خبر هو، والجملة خبر إن، وهنا قدَّم الحكيم على العليم؛ لأن المقام يقتضي هنا تقديم الحكمة على العلم، والحكمة

=

=

هنا في شيئين: أولًا: تأخير الولادة بالنسبة لهذه المرأة، إن الله لم يؤخر ولادتها إلى أن تبلغ العجز إلا لحكمة، ثانيًا: كونها ولدت بعد أن أيست واعتقدت أنها عقيم، فهاهنا حكمتان: حكمة سابقة، وحكمة لاحقة، ومن ثم قدَّم اسم الحكيم على اسم العليم، والقرآن إذا جمع الله فيه بين هذين الاسمين الكريمين: العليم والحكيم يقدم غالبًا العليم، لكن هنا قدَّم الحكيم؛ لأن المقام يقتضي ذلك {إنه هو الحكيم العليم} وأكثر الناس يظنون أن معنى (الحكيم) أنه المتصف بالحكمة، والحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، ولكن الواقع أن الحكيم له معنيان: حكيم من الحكمة، وحكيم من الحكم، فالله ﷻ حكيم من الحكمة، لأن الله تعالى هو الحكم بين العباد، والحاكم في العباد هو حاكم فيهم، وهو الحكم بينهم، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم {ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون} . {أليس الله بأحكم الحاكمين} . وهذا استفهام للتقرير، يعني أن الله تعالى أحكم الحاكمين، وكلاهما في محله المناسب، ففي سورة المائدة ذكر الله {ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئك هم الكافرون} . {الظالمون} . {الفاسقون} ، وتتابعت الآيات حتى قال: {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون} . فكأن المقام مقام مفاضلة بين الأحكام فبين أن حكم الله أحسن الأحكام، لكن في سورة التين المقام مقام سلطة وقوة، والله أحكم الحاكمين يعني أن حكمه نافذ وسلطته تامة، ولا أحد يعارض حكمه أبدًا مهما قويت شوكته، وانظر إلى قول الله تعالى عن عاد {من أشد منا قوةً} . يعني لا أحد أشد منا قوة، فقال الله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم} .

وعذبهم بألطف الأشياء عذبهم بالريح، الهواء اللطيف الذي لا تحس بملمسه، وإن كان قويًا بأن يدفع كل شيء، وهو أقوى من الماء كما هو معروف، وهذا الهواء اللطيف أهلك به هؤلاء القوم الذين يقولون: من أشد منا قوة، أهلكهم به،

=

=

فالحاصل أن الله أحكم الحاكمين حكمه نافذ صادر عن قوة وسلطان، ثم إن أحكم الحاكمين تضمن أيضًا حسن الحكم، فصار حكم الله ﷻ يتضمن أنه الحاكم في العباد، وأنه الحاكم بين العباد، وأن حكمه أحسن الأحكام، وأنه تعالى أحكم الحاكمين، والحكمة البالغة لله ولا شيء من الأفعال القائمة بالوجود أحكم من حكمة الله، وإذا آمنت بهذا أيها المؤمن سهل عليك أمور كثيرة تشكل على كثير من الناس، منها بعض الأحكام الشرعية لا يدرك الناس، أو أكثرهم، أو بعضهم حكمتها، فهل نقول: إذا لم يدرك الحكمة إنه لا حكمة لها، أو نقول: إن لها حكمة، لكن عقولنا قاصرة، نقول: لها حكمة ولكن عقولنا قاصرة، وإذا آمنا هذا الإيمان اطمأننا إلى كثير من الأمور الشرعية التي تخفى علينا حكمتها، فنحن لا ندرك الحكمة في كون الصلوات الخمس خمسًا، أو أنها سبع عشرة ركعة، وأشياء كثيرة من الأمور الشرعية لا يدرك الإنسان حكمتها، لكن إذا آمنت أن الله حكيم آمنت بأنه لابد لهذا الشيء من حكمة تقتضيه، كذلك في الأمور القدرية قد يرسل الله سبحانه وتعالى عذابًا يشمل الصالح والطالح، وقد يرسل الله عذابًا على قوم لا تتوقع أن يصيبهم العذاب، فهل تقول: ما الحكمة؟ أو تقول: إن الله ﷻ لابد أن يكون تقديره لهذا عن حكمة؟ ولذلك أقول: إن الواجب علينا فيما أمر الله به من الشرائع، وفيما قضاه من الأقدار أن نستسلم غاية التسليم، وأن لا نعترض قال الله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا}.

أقسم الله ﷻ أنه لا يمكن لأحد أن يؤمن إلا بهذه الشروط الثلاثة، هي: أن يحكموك فيما شجر بينهم، والثاني: ألا يجدوا في أنفسهم حرجًا، يعني لا تضيق صدورهم بحكم الله، الثالث: أن يسلموا تسليمًا، وأكد هذا المصدر تسليمًا يعني تسليمًا تامًّا، فلا يتهاون الإنسان ويتباطأ في تنفيذ حكم الله، فإذا وجدت من نفسك

=

=

عيبًا يتعلق بهذه الأمور الثلاثة فصحح إيمانك، فإذا رأيت أنك تود أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله فصحح الإيمان، وإذا رأيت من قبلك أنك لا تريد إلا حكم الله ورسوله لكن يضيق صدرك بحكم الله ورسوله تحدث نفسك أنك لا يمكن تتحاكم إلى غير الله ورسوله لكن يضيق صدرك فأنت ناقص الإيمان، وإذا كنت لا يضيق صدرك ولا تريد التحاكم لغير الله ورسوله وأنت منشرح الصدر لحكم الله ورسوله، لكن تتباطأ وتتهاون فأنت ناقص الإيمان، اقرأ قول الله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} . لما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقبلوه من أول مرة صارت- والعياذ بالله- قلوبهم متقلبة، وتركهم الله في طغيانهم يعمهون، ولهذا يجب عليك أيها المؤمن أن تبادر بانقياد تام لحكم الله تعالى القدري.

وأتكلم على آداب السلام، حيث إن الملائكة قالوا: (سلامًا)، فقال إبراهيم: (سلام)، ذكرنا فيما سبق أن رد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحسن من ابتداء الملائكة؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، بخلاف سلام الملائكة عليهم السلام، واعلم أن رد التحية واجب، لقول الله تبارك وتعالى: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منهآ أو ردوهآ} . فقال: {إذا حييتم} ولم يذكر من يحيينا، فيشمل أي إنسان يحيينا، فإننا نحيه ونرد عليه أحسن من تحيته، أو مثلها كما قال: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منهآ أو ردوهآ} . فبدأ بالأحسن، لأنه هو الأفضل، أو ردوها، أي: ردوا مثلها، ويشمل هذا ما إذا سلم علينا أحد من اليهود، أو النصارى، أو البوذيين، أو غيرهم، فنرد عليهم، لكننا لا نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، لنهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك، ثم إن السلام المشروع هو: السلام عليكم، وأما أهلًا وسهلًا، ومرحبًا، وكيف حالك وما أشبهها، فهذا ليس بمشروع، المشروع أن تبدأ أولًا بالسلام،

=

=

ولهذا في حديث المعراج حين كان النبي ﷺ يمر بالأنبياء فيسلم عليهم، قال: فرد عليه السلام، وقال: مرحبًا بالنبي الصالح،

فابدأ أولًا بقولك السلام عليكم، والجواب يكون مثل ذلك أو أحسن، يكون: عليكم السلام، أو وعليكم السلام، أو عليكم السلام ورحمة الله، أو عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كل هذا من المشروع، ونرى كثيرًا من الناس إذا سُلِّم عليه يقول: أهلًا وسهلًا، أو يقول: مرحبًا بأبي فلان، وهذا لا يجزيء، فلو قال: أهلًا وسهلًا، مدى الدهر فإنه لا يجزيء؛ لأن الله يقول: {فحيوا بأحسن منهآ أو ردوهآ}، ومعلوم أن الذي يقول: السلام عليك، يدعو لك بالسلام من كل نقص ومن كل آفة، ومن كل مرض في القلب والبدن، ولا يكفي أن تقول مرحبًا وأهلًا، بل لابد أن تقول: عليك السلام، أو وعليكم السلام، وإن زدت ورحمة الله وبركاته كان أحسن.

ثانيًا: من السنة أن يسلم الصغير على الكبير؛ لأن حق الكبير على الصغير أعظم من حق الصغير على الكبير، فيبدأ الصغير بالسلام على الكبير، ولكن إذا قدر أن الصغير لم يسلم فهل يدع الكبير السلام، لأن الحق له، أو يسلم لئلا تفوت السنة؟

والجواب: يسلم لئلا تفوت السنة، فكون الإنسان يقول: أنا صاحب الحق، لماذا لم يسلم عليَّ، هذا خطأ، صحيح أنك صاحب الحق وأن المشروع أن يسلم هو عليك، لكن إذا لم يفعل فسلم أنت.

ثالثًا: يسلم الماشي على القاعد، ولو كان القاعد أصغر، فإذا مر شخص بإنسان قاعد فليسلم عليه، ولو كان أصغر منه سنًّا، أو قدرًا، وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يسلم على الصبيان إذا مر بهم، وفي ذلك فوائد عظيمة منها: التواضع، أن الإنسان يضع نفسه إذا سلم على من هو دونه، ومنها الرحمة؛ لأن سلامك على الصغار نوع من الرحمة، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام

=

=

أن الراحمين يرحمهم الله ﷻ، ومنها تعويد هؤلاء الصبيان على السلام، يعني أن الصبي يعرف شعار المسلمين أن يسلم بعضهم على بعض، فيأخذ من هذا أدبًا وخلقًا ينتفع به في شبابه وبعد هرمه.

رابعًا: يسلم القليل على الكثير كالصغير مع الكبير، فإذا تقابل جماعة خمسة وستة فيسلم الخمسة على الستة، لأن الستة فيهم زيادة، فهذه الزيادة لها حق الزائد، فيسلم القليل على الكثير، وإذا لم يفعلوا فليسلم الكثير على القليل، لئلا تفوت السنة بينهم.

خامسًا: يسلم الراكب على الماشي، فإذا تقابل رجلان أحدهما يمشي، والثاني راكب في سيارته أو على بعيره فيسلم الراكب على الماشي، لأن الراكب له علو فيسلم على الماشي، لأن السنة جاءت بهذا، كذلك الصاعد على النازل، فلو أن اثنين التقيا في درجة سلم فإن الصاعد هو الذي يسلم على النازل، وإذا لم تأت السنة ممن عليه أن يبدأ بها فليبدأ بها الثاني، قال النبي ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» قال: خيرهما، فدل ذلك على أن من بدأ غيره بالسلام فهو خير، وهو كذلك لأنك إذا سلمت حصلت عشر حسنات، ثم إذا رد صاحبك حصل عشر حسنات، والسبب الذي جعله يحصل عشر حسنات هو البادي، لولا أنه سلم ما رد، فتكون أنت متسببًا لهذا الذي عمل عملًا صالحًا فلك أجره، ولهذا قال العلماء: ابتداء السلام سنة، ورده واجب، ثم أوردوا على هذا إشكالًا فقالوا: ابتداء السلام أفضل من رده، فكيف تكون السنة أفضل من الواجب؟ والقاعدة الشرعية أن الواجب أفضل، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرَّب إليَّ بشيء أحبّ إليَّ مما افترضت عليه» أجابوا عن ذلك قالوا هذا الإشكال جوابه: أن هذا الواجب كان مبنيًّا على السنة، فصارت السنة التي بني عليها الواجب، لمن

=

=

أتى بها ثواب أجره الخاص وثواب أجر الراد.

سادسًا: ينبغي أن يكون بصوت مسموع، فبعض الناس يلاقيك ويسلم لكن تشك: هل سلم أو لا؟ لأنه لم يرفع صوته، وهذا غلط، ارفع الصوت على وجه يدل على أنك فرح بهذا الأخ الذي قابلك أو الذي سلمت عليه لا بصوت مزعج ولا بخافت لا يسمع، وعلى العكس من ذلك، بعض الناس يسلم بصوت مزعج، والدين وسط بين الغالي والجافي، فنقول: سلم سلامًا مسموعًا يسمعه أخوك ويكون بأدب واحترام.

سابعًا: من آداب السلام أيضًا: أن يكون المسلم منبسط الوجه منشرح الصدر، فإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، فإن طلاقة الوجه وانشراح الصدر والابتسامة في وجه أخيك لا شك أنها من الأمور المطلوبة لما فيها من إدخال السرور على إخوانك، وإدخال السرور على إخوانك من الأمور المستحبة التي تُؤجر عليها، لقول النبي ﷺ: «كل معروف صدقة».

ثامنًا: رد السلام المحمول إن كان الحامل له شخصًا وقال: فلان يسلم عليك. فقل: عليك وعليه السلام، وإن شئت فقل: عليه السلام، أي على الذي حمله، أما إذا كان محمولًا بكتابة يعني إنسان كتب لك كتابًا، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإن كنت تريد أن تجيبه بكتاب فرد عليه بجوابك، مثلًا: كتب إليك إنسان كتابًا وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تكتب إليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قرأت كتابك وفهمت ما فيه، والجواب كذا وكذا، وأكثر الناس الآن لا يهتمون بهذا، تجده يكتب الجواب ويقول في ابتدائه: السلام عليكم ورحمة الله. هذا طيب، لكن الذي سلم عليك يريد جوابًا فقل: جواب- يعني -: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وصلني كتابك أو قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، وهذا الجواب، وتجيبه بما سألك، وإذا كان لا يحتاج إلى جواب مثل أن

=

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١).

{قال فما خطبكم} شأنكم {أيها المرسلون}.

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢).

{قَالُوا إنَّا أُرْسِلنَا إلَى قَوْم مُجْرِمِينَ} كَافِرِينَ هُمْ قَوْم لُوط.

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣).

{لِنُرْسِل عَلَيْهِمْ حِجَارَة مِنْ طِين} مَطْبُوخ بِالنَّارِ.

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤).

{مُسَوَّمَة} مُعَلَّمَة عَلَيْهَا اسْم مَنْ يُرْمَى بِهَا {عِنْد رَبّك} ظَرْف لَهَا {لِلْمُسْرِفِينَ} بِإِتْيَانِهِمْ الذُّكُور مع كفرهم.

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥).

{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا} أَيْ قُرَى قَوْم لُوط {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} لِإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ.

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦).

{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْر بَيْت مِنَ الْمُسْلِمِينَ} وَهُمْ لُوط وَابْنَتَاهُ وُصِفُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَام أَيْ هُمْ مُصَدِّقُونَ بِقُلُوبِهِمْ عَامِلُونَ بِجَوَارِحِهِمْ الطَّاعَات.

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧).

=

يكون الشخص كتب إليك كتابًا يخبرك بخبر لا يحتاج إلى جواب، فهنا إذا قرأت الكتاب فقل: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، لا أقول وجوبًا، لأن صاحبك لن يسمع، لكن على سبيل الاستحباب، رجل دعا لك بظهر الغيب فادع له أنت بظهر الغيب.

{وَتَرَكْنَا فِيهَا} بَعْد إهْلَاك الْكَافِرِينَ {آيَة} عَلَامَة عَلَى إهْلَاكهمْ {لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَاب الْأَلِيم} فَلَا يَفْعَلُونَ مِثْل فِعْلهمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ}.

قال الطبري: "يقول: قال إبراهيم لضيفه: فما شأنكم أيها المرسلون".

قال ابن كثير:" أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ".

قال الماتريدي: "الخطب: الشأن؛ أي: على أي أمر وشأن أرسلتم".

قال القشيري:" سألهم عن حالهم: قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟ ".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} [الذاريات: ٣٢]، أي:" قالوا: إن الله أرسلنا إلى قوم قد أجرموا لكفرهم بالله".

قال الزجاج:" أي: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم بكفرهم".

قال ابن كثير:" يعنون: قوم لوط ".

قال الطبري: "قد أجرموا لكفرهم بالله".

قوله تعالى: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ} [الذاريات: ٣٣]، أي:" لنهلكهم بحجارة من طين متحجِّر".

قال الطبري: "يقول: لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين".

قال النحاس:" أي: لنمطر عليهم".

قال ابن عباس: "هو الآجُرُّ".

قال ابن عطية:" أي: لنهلكم بهذه الحجارة. ومتى اتصلت «أرسل» ب «على»: فهي بمعنى المبالغة في المباشرة والعذاب. ومتى اتصلت ب «إلى»، فهي أخف. وانظر ذلك تجده مطردا.. وقوله: {حِجارَةً مِنْ طِينٍ}، بيان يخرج عن معتاد حجارة البرد التي هي من ماء. ويروى أنه طين طبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجر".

=

=

قال الماتريدي:" دل قوله تعالى: {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ}، على أن ما ذكر في آية أخرى: {حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ} [هود: ٨٢]، أن «السجيل» ليس هو اسم المكان على ما ذكر بعض أهل التأويل، ولكن «السجيل»
اسم الطين؛ على ما ذكره -هاهنا-، وهو طين مطبوخ كالآجر؛ إلا أن يقال: هو طين حمل من مكان يسمى: سجيلا، والله أعلم".

قوله تعالى: {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [الذاريات: ٣٤]، أي:" معلَّمة عند ربك لهؤلاء المتجاوزين الحدَّ في الفجور والعصيان".

قال الطبري:" يقول: معلمة عند الله، أعلمها الله" "للمتعدين حدود الله، الكافرين به من قوم لوط".

قال أبو عبيدة:" أي: معلمة بالسيماء وكانت عليها أمثال الخواتيم".

وقال النحاس:" {لِلْمُسْرِفِينَ}، أي: للمتعدين لأمر الله جلّ وعزّ".

قال مقاتل:" {لِلْمُسْرِفِينَ}، يعني: المشركين، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها".

قال ابن عطية:" المسرف: الذي يتعدى الطور، فإذا جاء مطابقا فهو لأبعد الغايات الكفر فما دونه".

قال الزمخشري:" سماهم: مسرفين، كما سماهم: عادين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم: حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم"

وفي قوله تعالى: {مُسَوَّمَةً} [الذاريات: ٣٤]، قولان:

أحدهما: أن معنى: {مسوّمة}، مرسلة. من: سوّمت الإبل. قاله النحاس.

الثاني: أن «المسومة»: المعلمة، قاله ابن عباس، ومجاهد. وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:" أخذ من «السومة»، وهي: العلامة. على كل حجر منها اسم من تقع عليه ويهلك بها".

=

=

وفي علامتها أقوال:

أحدها: أنها كانت مختمة، قاله السدي.

قال الرماني:" وقيل: كان عليها أمثال الخواتم".

قال الزهراوي والرماني:" وقيل معناه: على كل حجر اسم المضروب به".

قال الماوردي: "كانت مختمة على كل حجر منها اسم صاحبه".

قال ابن كثير:" أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه" ... "وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدّمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ".

الثاني: معلمة ببياض في حمرة، وهذا قول ابن عباس.

وعن قتادة، قوله: "{مُسَوَّمَةً}، حدثني من رآها أنها حجارة مطوقة عليها نصح من حمرة ليست كحجارتكم هذه".

الثالث: أن «المسومة»: الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطة سوداء، أو يكون الحجر أسود فيه نقطة بيضاء. وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-.

الرابع: مطوقة بسواد وحمرة. قاله قتادة.

وفي رواية عن قتادة، وعكرمة، قالا:" مطوَّقة بها نَضْحٌ من حمرة".

عن قتادة: "{مُسَوَّمَةً}، عليها سيما معلومة. حدّث بعضُ من رآها، أنها حجارة مطوَّقة عليها- أو بها- نضحٌ من حمرة، ليست كحجارتكم".

الخامس: عليها سيما خطوط. قاله الربيع.

السادس: معناه: متروكة وسومها من الإهلاك والانصباب. حكاه ابن عطية.

السابع: أنها كانت معلَّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا. قاله ابن

=

=

جريج.

قال ابن جريج: "{مسوّمة}، لا تشاكل حجارة الأرض".

قال الماتردي:" معلمة في نفسها حتى يعلم كل أحد: أنها للهلاك جاءت، وأنها أرسلت لذلك مخالفة لسائر الأحجار".

قال ابن الجوزي:" حكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال: كانت مثل رأس الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل".

قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)}.

قال الطبري: يقول:" فأخرجنا من كان في قرية سدوم، قرية قوم لوط من أهل الإيمان بالله وهم لوط وابنتاه".

قال مقاتل:" يعني: في قرية لوط {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، يعني: المصدقين بتوحيد الله-تعالى-".

قال ابن كثير:" وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته".

قال الواحدي:" أمر الله تعالى لوطًا بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين، لئلا يصيبهم العذاب".

قال البغوي:" وذلك قوله: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ٨١] ".

قوله تعالى: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)}.

فما وجدنا في تلك القرية غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط عليه السلام.

قال الطبري: يقول:" فما وجدنا في تلك القرية التي أخرجنا منها من كان فيها من المؤمنين غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط".

قال مقاتل:" {الْمُسْلِمِينَ}، يعني: المخلصين، فهو لوط وابنتيه ريثا الكبرى زعوتا الصغرى".

عن مجاهد، قوله:" {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، قال: لوط

=

=

وابنتيه".

عن سعيد بن جبير، قال: "كانوا ثلاثة عشر".

قال ابن زيد:" هؤلاء قوم لوط لم يجدوا فيها غير لوط".

عن أبي المثنى ومسلم أبي الحيل الأشجعيّ:" قال الله: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، لوطا وابنتيه، قال: فحلّ بهم العذاب".

قال قتادة:" لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله".

قال الماتريدي:" قوله: {غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، هو منزل لوط - عليه السلام - دل تسمية الملائكة - عليهم السلام - إياهم: مؤمنين، ومسلمين على أن الإسلام والإيمان واحد".

قال السمعاني:" فيه دليل لمن قال: إن الإسلام والإيمان واحد".

قال الزمخشري:" وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح".

قال يحيى بن سلام:" الإسلام هو اسم الدين".

قال ابن كثير:" احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم لا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال".

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)}.

وتركنا في القرية المذكورة أثرًا من العذاب باقيًا علامة على قدرة الله تعالى وانتقامه من الكفرة، وذلك عبرة لمن يخافون عذاب الله المؤلم الموجع.

قال الطبري:" يقول: وتركنا في هذه القرية التي أخرجنا من كان فيها من المؤمنين عظة وعبرة، للذين يخافون عذاب الله الأليم في الآخرة".

=

قال مقاتل:" يعني: عبرة لمن بعدهم".

قال الزجاج:" أي: تركنا في مدينة قوم لوط علامة للخائفين تدلهم على أن الله أهلكهم وينكل غيرهم عن فعلهم".

قال ابن عطية:" المعنى: وَتَرَكْنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرا من العذاب باقيا مؤرخا لا يفنى ذكره فهو: {آيَةً}، أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، {لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ} وهم العارفون بالله تعالى".

قال ابن كثير:" أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، {لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} ".

قال الماتريدي:" أي: يكون ذلك آية للذين يخافون العذاب الأليم، وهم المؤمنون، أي: هم المنتفعون بها".

عَن ابْن جريج، قوله: "{وَتَركنَا فِيهَا آيَة}، قال: ترك فِيهَا صخرًا منضودًا".

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قال مجاهد: "أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم".

قال قتادة:" بلغنا أن جبريل عليه السلام أخذَ بعُرْوة القرية الوُسْطى، ثم ألوَى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضَواغِي كلابهم، ثم دمَّر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف".

عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن نبي الله ﷺ قال: "بعث الله جبريل عليه السلام إلى المؤتفكة قرية لوط عليه السلام التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحه، ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نُباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم

=

كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [هود: ٨٢]، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات،

وكنّ خمس قريات، «صنعة، وصعوة، وعثرة، ودوما، وسدوم-وسدوم هي القرية العظمى-»، ونجى الله لوطًا ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قال فما خطبكم أيها المرسلون} القائل: ما خطبكم هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أي ما شأنكم أيهاالمرسلون وهم الملائكة {قالوا إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارةً من طين} يعني أرسلنا الله ﷻ، لأنه من المعلوم أنه لا يرسل أحدًا من الملائكة إلا خالقهم سبحانه وتعالى {إلى قوم مجرمين} أي: ذوي جرم عظيم ألا وهو اللواط- والعياذ بالله -، فإنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فيأتون ما لم يخلق لهم، ويدعون ما خلق لهم، كما قال لهم نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام: {وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم}، وهذه الفاحشة فاحشة نكراء، لا يقرها عقل، ولا فطرة، ولا دين، ولهذا كانت عقوبتها القتل للفاعل والمفعول به، إذا كانا بالغين عاقلين، سواء كان محصنين أم غير محصنين، بخلاف الزنى، فالزنى أهون عقوبة، لأن الزنى من لم يكن محصنًا فعقوبته أن يجلد مائة جلدة ويغرب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع: فعقوبته أن يرجم بالحجارة حتى يموت، أما هذا فعقوبته القتل بكل حال، كما جاء في الحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»

ووقعت هذه الفاحشة في عهد أبي بكر رضي الله عنه فأمر أن يحرق كل من الفاعل والمفعول به، لأن الإحراق أعظم عقوبة يعاقب بها بنو آدم، وكذلك جاء عن بعض الخلفاء أنهم أمروا بإحراق اللوطي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أجمع

=

=

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على قتل اللوطي فاعلًا كان أو مفعولًا به، لكنهم اختلفوا: كيف يقتل؟ منهم من قال: يحرق، ومنهم من قال: يرمى بالحجارة حتى يموت كالزاني المحصن، ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق في البلد، يعني في مكان مرتفع، أعلى ما يكون في البلد، ثم يتبع بالحجارة حتى يموت، فالمهم أنهم متفقون على قتله، ولا شك أن قتله هو الحكمة، لأن هذه الفاحشة متى دبت في الرجال صار الرجال كالنساء، وبدأ الذل والعار والخزي على وجه المفعول به، لا ينساه حتى يموت، ثم استغنى الرجال بالرجال وبقيت النساء، لأن هذه الفاحشة- والعياذ بالله- إذا ابتلي بها الإنسان لا يلتفت إلى غيرها، لأنها مرض، فتاك ساري، فإذا أعدم هؤلاء وهم في الحقيقة جرثومة فاسدة مفسدة للإنسان، كان ذلك عين المصلحة، ثم اللواط- والعياذ بالله- لا يمكن التحرز منه، لأنه بين ذكرين لا يمكن لأي إنسان يجد ذكرين يمشيان في السوق أن ينكر عليهما اجتماعهما، ولكن الزنى إذا رأيت رجلًا مع امرأة تستنكره أو تتهمه وتتكلم معه، لذلك كانت عقوبة الإعدام في حق اللوطي أوفق ما يكون للحكمة وللرحمة، فهي رحمة بالفاعلين، يعني باللائط والملوط به، حتى لا يبقيا في حياتهما يكتسبان الإثم وتزداد العقوبة عليهما، ورحمة بالمجتمع فتكون عقوبتهما نكالًا حتى لا يفسد المجتمع، لهذا قالت الملائكة لإبراهيم: {إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين} وجرمهم- والعياذ بالله- ما سبقوا عليه، كما قال لهم نبيهم {ما سبقكم بها من أحد من العالمين}.

{لنرسل عليهم حجارةً من طين مسومةً عند ربك للمسرفين} حجارة من طين، لكنه ليس الطين الذي يتفتت بل الصلب العظيم الذي إذا أصابت هذه الحجارة أحدًا من الناس وضربته على رأسه خرجت من دبره، لا يردها عظم ولا لحم، لقوتها وشدتها وصلابتها- والعياذ بالله- {مسومةً عند ربك} أي: معلمة عند الله،

=

=

يعني عليها علامة، لأن كل شيء عند الله بمقدار، لا تظن أن الأمور التي يقدرها الله ﷻ تأتي هكذا صدفة، بل هي بمقدار، حتى تباعد ما بين النجوم، وتفاوت ما بينها من الكبر والإضاءة بمقدار، لم يجيء هكذا فلتة أو جاء صدفة، كل شيء عند الله بمقدار ولابد، فهذه الحجارة معلمة عند الله، وهل هي معلمة بمعنى أن هذه مكتوب عليها مثلًا حجارة عقوبة؟ أو مسومة بالنسبة لمن تقع عليه؟ الجواب: الثاني، لأن هذا أدق، هذه الحجارة لفلان، هذه الحجارة لفلان، مسومة عند ربك {للمسرفين} أي: للمتجاوزين حدودهم، ولا شك أن اللواط مجاوزة للحد والإسراف- والعياذ بالله- قال الله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} أخرجناهم أي: أمرناهم أمرًا قدريًا فخرجوا، قال الله تعالى للوط: {فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك}.

فأخرج الله من كان فيها من المؤمنين، وهم لوط وأهله إلا امرأته، ولهذا {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} بيت واحد، قرية كاملة يدعوهم نبيهم إلى توحيد الله وإلى ترك هذه الفاحشة ما اتبعه أحد حتى أهل بيته لم يخلصوا، فيهم من لم يؤمن بلوط، فانتبه يا أخي الداعية، لا تجزع إذا دعوت فلم يستجب لك من المائة إلا عشرة، فالرسل عليهم الصلاة والسلام يبقون في أممهم دهورًا كثيرة ولا يتبعهم إلا القليل، ولوط عليه الصلاة والسلام لم يتبعه من القرية أحد، وتخلف عن دعوته من تخلف، ولهذا قال: {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} وهنا يتساءل الإنسان في نفسه: كيف قال: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}، هل المسلمون هنا بمعنى المؤمنين في الآية التي قبلها؟ ذهب بعض العلماء إلى ذلك، وقالوا: إن في هذا دليلًا على أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وذهب الآخرون إلى الفرق، وقالوا: أما المؤمنون فقد نجوا، وأما البيت فهو بيت إسلام، لأن المظهر في هذا البيت- بيت لوط- أنه بيت

=

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨).

{وَفِي مُوسَى} مَعْطُوف عَلَى فِيهَا الْمَعْنَى وَجَعَلْنَا فِي قِصَّة مُوسَى آيَة {إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْن} مُلْتَبِسًا {بِسُلْطَانٍ مُبِين} بِحُجَّةٍ وَاضِحَة.

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩).

=

إسلامي، حتى امرأته لم تتظاهر بالكفر، تظاهرت بأنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: {ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما} ليس المعنى خانتاهما بالفاحشة، بل خانتاهما بالكفر، لكنه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق، ولهذا يقال للمجتمع الذي فيه المنافقون: إنه مجتمع مسلم، وإن كان فيه المنافقون، لأن المظهر مظهر إسلام، إذن نقول: {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} إنما قال: من المسلمين، لأن امرأته ليست مؤمنة، ولكنها مسلمة.

{وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأَليم} تركنا فيها آية أي علامة، فما العلامة؟ أهي علامة حسية، أم علامة معنوية، أم علامتان معنوية وحسية؟ والقاعدة المفيدة في التفسير: (إذا احتملت الآية أكثر من معنى لا مرجح لأحدهما على الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حملها على المعنيين جميعًا) فهذه الآية حسية ومعنوية، أما الحسية: فما نشاهد مكان قريتهم التي تسمى بحيرة لوط، فإن هذا كان موضع القرية، كل يمر به ويراه ويشاهده، كما قال تعالى: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون} وآية معنوية كل من قرأ قصتهم في جميع ما وردت فيه من السور الكريمة اعتبر واتعظ وخاف، لكن من الذي ينتبه لهذه الآيات؟ ومن يتعظ؟ {للذين يخافون العذاب الأَليم} أما المنكرون الذين قست قلوبهم فإنهم لن ينتفعوا بالآيات، قال الله تعالى: {وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون} نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بالآيات.

{فَتَوَلَّى} أَعْرَضَ عَنْ الْإِيمَان {بِرُكْنِهِ} مَعَ جُنُوده لِأَنَّهُمْ لَهُ كَالرُّكْنِ {وَقَالَ} لِمُوسَى هُوَ {سَاحِر أو مجنون}.

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠).

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُوده فَنَبَذْنَاهُمْ} طَرَحْنَاهُمْ {فِي الْيَمّ} الْبَحْر فَغَرِقُوا {وَهُوَ} أَيْ فِرْعَوْن {مُلِيم} آتٍ بِمَا يُلَام عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيب الرُّسُل وَدَعْوَى الرُّبُوبِيَّة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [الذاريات: ٣٨]، أي:" وفي إرسالنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة آية للذين يخافون العذاب الأليم".

قال الطبري: يقول:" وفي موسى بن عمران إذ أرسلناه إلى فرعون بحجة تبين لمن رآها أنها حجة لموسى على حقيقة ما يقول ويدعو إليه".

عن قتادة، قوله: "{إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، يقول: بعذر مبين".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [الذاريات: ٣٩]، أي:" فأعْرَضَ فرعون مغترًّا بقوته وجانبه".

قال الطبري: "يقول: فأدبر فرعون كما أرسلنا إليه موسى بقومه من جنده وأصحابه".

وفي قوله تعالى: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [الذاريات: ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: بقومه. قاله ابن عباس، وقتادة.

وقال قتادة:" غلب عدوّ الله على قومه".

قال القاسم بن سلام:" يعني: برهطه -بلغة كنانة-".

الثاني: بعضده وأصحابه. قاله مجاهد.

الثالث: بجموعه وأجناده، قاله ابن زيد.

عن ابن زيد، قوله: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ}، قال: "بجموعه التي معه، وقرأ {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ

=
قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، قال: إلى قوة من الناس إلى ركن أجاهدكم به؛ قال: وفرعون وجنوده ومن معه ركنه؛ قال: وما كان مع
لوط مؤمن واحد؛ قال: وعرض عليهم أن يُنكحهم بناته رجاء أن يكون له منهم عضد يعينه، أو يدفع عنه، وقرأ: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، قال: يريد النكاح، فأبوا عليه، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ ".

الرابع: بقوته، قاله ابن عباس، ومنه قول عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركني... ولكن ما تقادم من زماني

قال الفراء:" يُقال: تولى، أي: أعرض عَنِ الذكْرِ بقوته فِي نفسه، ويقالُ: ﴿فتولى برُكنه﴾ بمن معه لأنّهم قوّته".

الخامس: بجانبه، قاله الأخفش، وأبو عبيدة"، وابن قتيبة.

قال أبو عبدية:" ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾، وبجانبه سواء، إنما هي ناحيته".

قال ابن قتيبة:" ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ و ﴿"بجانبه﴾ سواءٌ؛ أي: أعرضَ".

قال الطبري:" أصل الركن: الجانب والناحية التي يعتمد عليها ويقوى بها".

السادس: بميله عن الحق وعناده بالكفر، قاله مقاتل.

السابع: بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به. أفاده الماوردي.

الثامن: معناه: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكبارا، كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحج: ٩]، أي: معرض عن الحق مستكبر. قاله ابن كثير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩]، أي:" وقال عن موسى: إنه ساحر أو مجنون".

قال الطبري:" يقول: وقال لموسى: هو ساحر يسحر عيون الناس، أو مجنون، به
=

=

جنة".

قال ابن كثير:" أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرا، أو مجنونا".

قال معمر بن المثنى،: "«أو» -في هذا الموضع- بمعنى: الواو التي للموالاة، لأنهم قد قالوهما جميعا له، وأنشد في ذلك بيت جرير الخطفي :

أَثَعْلَبَة الفَوَارِس أَوْ رِيَاحا... عَدَلَتْ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشابا".

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ} [الذاريات: ٤٠]، أي:" فأخذنا فرعون وجنوده".

قال الطبري: يقول:" فأخذنا فرعون وجنوده بالغضب منا والأسف".

قوله تعالى: {فَنبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} [الذاريات: ٤٠]، أي:" فطرحناهم في البحر، وهو آتٍ ما يلام عليه؛ بسبب كفره وجحوده وفجوره".

قال ابن كثير:" أي: ألقيناهم في اليم، وهو البحر، {وَهُوَ مُلِيمٌ}، أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند".

قال الطبري: "يقول فألقيناهم في البحر، فغرقناهم فيه، وفرعون مليم، والمليم: هو الذي قد أتى مَا يُلام عليه من الفعل".

عن قتادة: {فَنبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، قال: "اليم: بحر يقال له: إساف من وراء مصر، ففرقهم الله فيه".

قال ابن قتيبة:" أي: مُذنب. يقال: ألام الرجلُ؛ إذا أتى بذنب يلام عليه. قال الشاعر:

ومَن يخْذُلْ أخَاه فقد ألامَا ".

قال الفراء:" وهو الَّذِي قد اكتسبَ اللَّوْمَ وإن لَمْ يلم. و [الملوم] الذي قد لِيم باللسان. وهو مثل قول العرب: أصبحت مُحمقًا معطِشًا، أي: عندك الحمق والعطش. وهو كثير في الكلام".

عَنْ مُجَاهِدٍ: {وَهُوَ مُلِيمٌ} [الصافات: ١٤٢]، يعني: «مذنبا» ".

=

=

عن قتادة:" {وهُوَ مُلِيمٌ}، قال: مُلِيمٌ في عباد الله". وفي رواية:" أي: مليم في نعمة الله".

وقال قتادة:" أي: مُلِيم في نقمة الله ".

عن ابن عباس:" المليم: المسيء المذنب".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين} يعني في موسى آيات من آيات الله ﷻ، حين أرسله الله تعالى إلى فرعون، وفرعون علم جنس على كل من حكم مصر وهو كافر، وموسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو في المرتبة الثالثة من الفضل بالنسبة لأولي العزم الخمسة، فإن أفضلهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى {بسلطان مبين}، أي: بحجة بينة في نفسها مبينة لغيرها، فالآيات التي جاء بها الأنبياء بينات واضحة لكل ذي عدل وإنصاف، وهي أيضًا مبينة لصدق ما جاءت به الرسل، ولهذا اعلم أنه كلما جاء في القرآن كلمة: (مبين) فهي بمعنى مبين في ذاته، مبين لغيره، إلا ما دل السياق أن المراد البين في ذاته، فمن الآيات العظيمة التي جاء بها موسى، عصا موسى، التي كان يستعملها ويتوكأ عليها عند الحاجة، ويهش بها على غنمه أوراق الشجر عند رعيها، وله فيها حاجات أخرى، كما قال هو عليه الصلاة والسلام لما سأله الله {وما تلك بيمينك يموسى قال هي عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مأرب أخرى}. فهي آية في كونه إذا وضعها على الأرض صارت ثعبانًا مبينًا، أي: حية عظيمة تخيف من رآها، ولهذا رهب منها موسى عليه الصلاة والسلام حين ألقاها وولى هاربًا، فناداه الله ﷻ (لا تخف) ومنها أنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء في الحال، بيضاء لكن بدون سوء.

أي بدون عيب يعني ليست بيضاء برص، ولكنها بيضاء مخالفة للون جلده في

=

=

الحال، حقيقة لا تخيلًا، وقال الله تعالى في سورة الإسراء: {ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات} المهم أنه أتى إلى فرعون بسلطان مبين وحجة دامغة بالغة، لكنه- والعياذ بالله- {فتولى بركنه} أي: بقوته وسلطانه وجنده، أعرض عن موسى استكبارًا وجحودًا وظلمًا وعدوانًا، قال الله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتهآ أنفسهم ظلمًا وعلوًا}. {وقال ساحر أو مجنون} يعني أنه اتهم عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر، لأنه أتى بآيات تشبه ما يصنعه السحرة، عصا من خشب توضع في الأرض وتكون ثعبانًا مبينًا، ويد تدخل في الجيب وتخرج بيضاء في الحال، هذا يشبه السحر، أو {مجنون}، وذلك بكونه يدعي أن الله وحده خالق السموات والأرض وهو الرب وهو الإله، لأنهم كانوا لا يعرفون الإله إلا فرعون، فإذا جاء شخص يقول: إن الله هو رب العالمين، وأن فرعون ليس إلهًا ولا ربًّا. فإنهم يرمونه بالجنون، هذا مجنون خرج عما نعهد، قال الله تعالى: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم} أي طرحناهم فيه، واليم هو البحر، والبحر الذي هلك فيه فرعون هو البحر الأحمر، الذي بين آسيا وأفريقيا، وذلك أن فرعون جمع جنوده وحشدهم وأراد أن يقضي على موسى وقومه، فخرج موسى عليه السلام وقومه من مصر متجهين إلى الشرق، ولكن حال بينهم وبين مرادهم البحر، فلما وصلوا إلى البحر كان البحر بين أيديهم، وفرعون وقومه خلفهم، فقال قوم موسى: {إنا لمدركون} يعني هلكنا، لأن فرعون خلفنا والبحر أمامنا فكيف النجاة؟! فقال موسى: {كلا إن معى ربي سيهدين}.

وهذه معية خاصة، تقتضي النصر والتأييد، قال: {سيهدين} ولم يقل: سوف يهدين، بل قال: {سيهدين} إشارة إلى قرب هذا الحصر وأنه سيزول قريبًا، وهذا هو الذي حصل، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق اثنتي عشرة طريقًا في الحال ويبس في الحال، وصار صالحًا للمشي عليه في الحال،

=

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١).

{وَفِي} إهْلَاك {عَادٍ} آيَة {إذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيح الْعَقِيم} هِيَ الَّتِي لَا خَيْر فِيهَا لِأَنَّهَا لَا تَحْمِل الْمَطَر وَلَا تُلَقِّح الشَّجَر وهي الدبور.

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢).

{مَا تَذَر مِنْ شَيْء} نَفْس أَوْ مَال {أَتَتْ عَلَيْهِ إلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} كَالْبَالِي الْمُتَفَتِّت(١).

=

كما قال ﷻ: {فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا لا تخاف دركًا ولا تخشى}. فعبر موسى وقومه من هذه الطرق العظيمة التي كان الماء بينها كالجبال ولما انتهوا خارجين كان فرعون في أثرهم وانتهوا داخلين، فأمر الله ﷻ بقدرته وسلطانه البحر أن يعود إلى ما كان عليه، فانطبق على فرعون وقومه فهلكوا عن آخرهم والحمد لله، ولهذا قال: {وهو مليم} أي: فرعون فاعل ما يلام عليه ولا شك أن رده للرسالة الإلهية، وادعائه أنه الرب وقوله: {ما علمت لكم من إله غيرى} وما أشبه ذلك من الكلمات لا شك أنها كلمات يلام عليها، لأنه قد تبين له الحق، ولكنه عاند وأبى أن ينقاد للحق، كما قال له موسى: {لقد علمت} يعني يا فرعون {مآ أنزل هؤلآء إلا رب السماوت والأرض بصآئر وإني لأظنك يفرعون مثبورًا}.

(١) قوله تعالى: {وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} يعني وفي عاد آيات {إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} عاد في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا أشداء حتى إنهم قالوا: {من أشد منا قوةً} فقال الله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً}. فأصابهم القحط والجدب، فجعلوا يترقبون المطر، فأرسل الله عليهم الريح العظيمة الشديدة {فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا} قال الله تعالى: {بل هو ما استعجلتم به ريح فيها

=

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣).

{وَفِي} إهْلَاك {ثَمُود} آيَة {إِذْ قِيلَ لَهُمْ} بَعْد عَقْر النَّاقَة {تَمَتَّعُوا حَتَّى حِين} إلَى انقضاء آجالكم كما في آية {تمتعوا في داركم ثلاثة أيام}.

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤).

{فَعَتَوْا} تكَبَّرُوا {عَنْ أَمْر رَبّهمْ} أَيْ عَنْ امْتِثَاله {فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَة} بَعْد مُضِيّ الثَّلَاثَة أَيَّام أَيْ الصَّيْحَة الْمُهْلِكَة {وَهُمْ يَنْظُرُونَ} أَيْ بالنهار.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥).

{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَام} أَيْ مَا قَدَرُوا عَلَى النُّهُوض حِين نُزُول الْعَذَاب {وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} عَلَى مَنْ أَهْلَكَهُمْ.

=

عذاب أليم}. فأرسل الله عليهم هذه الريح العقيم التي ليس لهم فيها ثمرة ولم تحمل ماء: كالمرأة العقيم التي لا تلد، هذه أيضًا ريح عظيمة لا تحمل سحابًا ولا مطرًا، هذه الريح العقيم هي الريح الغربية، كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» أي: بالريح الغربية، أرسل الله عليهم هذه الريح العقيم {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} كل شيء تأتي إليه تجعله كالرميم هامدًا، حتى إنها تأخذ الرجل- والعياذ بالله- إلى فوق ثم ترده إلى الأرض {كأنهم أعجاز نخل خاوية}. {كأنهم أعجاز نخل منقعر}. هلكوا عن آخرهم، تأمل الآية، قوم عاد قوم أقوياء أشداء هلكوا بهذه الريح اللطيفة، التي لا ترى لها جسمًا، وإنما تحس بها بدون أن ترى شيئًا، ومع ذلك قضت عليهم بأمر الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: {ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم} فهذا فيه آيات من آيات الله ﷻ، أرسل الله عليهم هذه الريح، فأهلكتهم عن آخرهم.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦).

{وَقَوْم نُوح} بِالْجَرِّ عُطِفَ عَلَى ثَمُود أَيْ وَفِي إهْلَاكهمْ بِمَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْض آيَة وَبِالنَّصْبِ أَيْ وَأَهْلَكْنَا قَوْم نُوح مِنْ قَبْل أي قبل إهلاك هؤلاء المذكورين {إنهم كانوا قوما فاسقين}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَفِي عَادٍ} [الذاريات: ٤١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {وَفِي عَادٍ} أيضا، وما فعلنا بهم لهم آية وعبرة".

قال الزجاج:" أي: {وفي عاد} أيضا آية على ما شرحنا في قوله: {وفي موسى} ".

قوله تعالى: {إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]، أي:" إذ أرسلنا عليهم الريح التي لا بركة فيها ولا تأتي بخير".

وفي قوله تعالى: {الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن الريح العقيم: الريح الشديدة التي لا تُلْقح شيئا، قاله ابن عباس، والضحاك.

قال الطبري:" يعني بالريح العقيم: التي لا تلقح الشجر".

قال الفراء:" فجَعلها عقيمًا إِذْ لَمْ تَلْقَح".

قال ابن عباس:" لا تلقح الشجر، ولا تثير السحاب".

وعن الضحاك: "{الرِّيحَ الْعَقِيمَ}، قال: لا تلقح". وفي رواية:" التي لا تلقح شيئا".

قال الضحاك:" الريح التي ليس فيها بركة ولا تلقح الشجر".

قال مقاتل:" التي تهلك ولا تلقح الشجر ولا تثير السحاب وهي عذاب على من أرسلت عليه".

قال ابن زيد:" إن الله تبارك وتعالى يُرسل الريح بُشرا بين يدي رحمته، فيحيي به الأصل والشجر، وهذه لا تلقح ولا تحيى، هي عقيم ليس فيها من الخير شيء، =

=

إنما هي عذاب لا تلقح شيئا، وهذه تلقح، وقرأ: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} ".

الثاني: هي التي لا تنبث، قاله قتادة، وسفيان.

عن قتادة، {الرِّيحَ الْعَقِيمَ}، قال:" الريح التي لا تنبت". وفي رواية «التي لا تثبت».

قال سفيان:" التي لا تنبت شيئا".

الثالث: ليس فيها رحمة ولا نبات، ولا تلقح نباتا، قاله مجاهد.

الرابع: أن الريح العقيم: التي لا يكون معها لقح، أي: لا تأتي بمطر، وإنما هي ريح الإهلاك. قاله الزجاج.

وفي الريح التي هي عقيم، أربعة أقوال:

أحدها: الجنوب. قاله سعيد بن المسيب، والحارث بن عبدالرحمن، وابن شهاب.

عن ابن شهاب قال: "{الريح العقيم}، الجنوب، وهي التي عذب الله بها قوم عاد".

عن الحارث بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب:" أنه كان يقول: {الريح العقيم}: الجنوب؛ فقلت له: ما الريح بالين منها، فقال: إن الله يجعل فيها ما يشاء".

عن الحارث بن عبد الرحمن: "العقيم: يعني: الجنوب".

الثاني: هي ريح الصبا، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

الثالث: أن الريح العقيم: الريح النكباء. قاله علي بن أبي طالب.

الرابع: الدبور، قاله مقاتل.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

قال قتادة:" من الريح عقيما وعذابا حين ترسل لا تلقح شيئا، ومن الريح رحمة يثير الله تبارك وتعالى بها السحاب، وينزل بها الغيث".

=

=

عن مجاهد، قال: "هاجت ريح أو هبت ريح فسبوها، فقال ابن عباس: «لا تسبوها، فإنها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب، ولكن قولوا: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا» ".

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحا، ولا تجعلها ريحا» قال ابن عباس: في كتاب الله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} [فصلت: ١٦]، وَ {أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]. وَقَالَ: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الْحجر: ٢٢]، {يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} [الرّوم: ٤٦] ".

قوله تعالى: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات: ٤٢]، أي:" ما تَدَعُ شيئًا مرَّت عليه إلا صيَّرته كالشيء البالي".

قال الفراء:" الرميمُ: نباتُ الأرضِ إذا يَبِسَ ودَبسَ فهو رَمِيم".

قال الطبري:" الرميم- في كلام العرب-: ما يبس من نبات الأرض وديس".

قال الزجاج:" الرميم: الورق الجاف المتحطم، مثل: الهشيم، كما قال: {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} [القمر: ٣١]".

قال الزمخشري:" الرميم: كل ما رم، أي: بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك".

قال ابن كثير:" {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ}، أي: مما تفسده الريح {إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}، أي: كالشيء الهالك البالي".

قال السمعاني:" يقال: كالعظم البالي المنسجق ومنه الرمة. ويقال كالنبت الذي يبس وديس بالرجل".

عن مؤرج قال: "كالرماد -بلغه حضرموت-".

عن مجاهد: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}، يعني: «الشيء

=

=

الهالك». وفي رواية:" الهامد". وفي رواية:" كالتِّبن اليابس".

عن قتادة:" {إلا جعلته كالرميم}، قال: كرميم الشجر ".

قال أبو العالية الرِّياحي: "{إلا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ} كالتُّراب المدقوق".

عن عبد الله بن عمرو قال: "قال رسول الله ﷺ، «الريح مسخرة من الثانية- يعني من الأرض الثانية- فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: أي رب، أرسل عيهم الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل بقدر خاتم فهي التي يقول الله في كتابه: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} ".

قوله تعالى: {وَفِي ثَمُودَ} [الذاريات: ٤٣]، أي:" وفي شأن ثمود وإهلاكهم آيات وعبر".

قال الطبري: يقول:" وفي ثمود أيضا لهم عبرة ومتعظ".

قال الزجاج:" أي: وفي ثمود أيضا آية".

قوله تعالى: {إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} [الذاريات: ٤٣]، أي:" إذ قيل لهم -والقائل نبيهم صالح عليه السلام-: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام حتى تنتهي آجالكم".

قال الطبري: يقول:" إذ قال لهم ربهم".

قال مقاتل:" قال لهم نبيهم صالح: {تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ}، يعني: إلى آجالكم".

قال يحيى بن سلام:" إلى حين، يعني: إلى آجالهم".

قال الثعلبي:" يعني: وقت فناء آجالهم".

قال ابن أبي زمنين:" إلى آجالكم بغير عذاب إن آمنتم، وإن عصيتم عذبتم".

وقال الفراء:" كَانَ ذَلِكَ الحينُ ثلاثة أيام".

قال السمعاني:" أي: إلى ثلاثة أيام".

قال البغوي:" يعني: وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم:

=

=

تمتعوا ثلاثة أيام".

قال الزمخشري:" {حَتَّى حِينٍ} تفسيره قوله: {{تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام} [هود: ٦٥] ".

قال ابن عطية:" يحتمل أن يريد إذ قيل لهم في أول بعث صالح آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعا حسنا إلى آجالكم، وهو الحين على هذا التأويل وهو قول الحسن حكاه عن الرماني".

قوله تعالى: {فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم} [الذاريات: ٤٤]، أي:" فعصوا أمر ربهم".

قال الطبري: "يقول: فتكبروا عن أمر ربهم وعلوا استكبارا عن طاعة الله".

قال ابن أبي زمنين:" تركوا أمره".

قال الزمخشري:" فاستكبروا عن امتثاله".

قال ابن زيد:" العاتي: العاصي التارك لأمر الله".

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُون} [الذاريات: ٤٤]، أي:" فأخذتهم صاعقة العذاب، وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم".

قال الطبري: يقول:" فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة".

قال مقاتل:" يعني: العذاب، وهو الموت من صيحة جبريل- صلى الله عليه-".

قال البغوي:" يعني: بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، و"الصاعقة": كل عذاب مهلك، {وهم ينظرون}، يرون ذلك عيانا".

قال السمعاني:" {وَهُمْ يَنْظُرُون}، أي: نهارا جهارا، وهم يرون نزول العذاب، ومعناه: أنه لم يكن بليل وهم نيام ولم يشعروا به".

قال الزمخشري:" كانت نهارا يعاينونها. وروى أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرّتهم".

قال ابن عطية:" يحتمل أن يريد: وَهُمْ يَنْظُرُونَ ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي

=

=

أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تلونه، وهذا قول مجاهد حسبما تقدم تفسيره، وانتظارهم العذاب هو أشد من العذاب".

قال ابن كثير:" وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار".

عن ابن عباس:" {فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ} الموت".

عن مجاهد:" {فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ وهُمْ يَنْظُرُونَ}، قال: فجأة".

قال مجاهد:" وذلك أن ثمود وعدت العذاب قبل نزوله بهم بثلاثة أيام وجعل لنزوله عليهم علامات في تلك الثلاثة، فظهرت العلامات التي جعلت لهم الدالة على نزولها في تلك الأيام، فأصبحوا في اليوم الرابع موقنين بأن العذاب بهم نازل، ينتظرون حلوله بهم".

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قرأ ذلك:" «فأَخَذَتْهُمُ الصَّعْقَةُ»، بغير ألف.

قال السمعاني:" وقرئ: «الصعقة»، وهما بمعنى واحد، ويقال: الصعقة الصيحة، والصاعقة فاعلة من الصعقة".

قال الزمخشري:" قرئ: الصعقة وهي المرّة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها".

قال الحسين بن واقد: "كلّ صاعقة في القرآن فهي عذاب".

قوله تعالى: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ} [الذاريات: ٤٥]، أي:" فما أمكنهم الهرب ولا النهوض مما هم فيه من العذاب".

قال الفراء:"يقول: فما قاموا لها، ولو كانت: فما استطاعُوا من إقامةٍ لكان صَوَابًا".

قال الطبري: يقول:" فما استطاعوا من دفاع لما نزل بهم من عذاب الله، ولا قدروا على نهوض به".

قال مقاتل:" يعني: أن يقوموا للعذاب حين غشيهم".

=

=

قال ابن كثير:" أي: من هَرَبٍ ولا نهوض".

قال السمعاني:" أي: وقعوا وقوعا لم يستطيعوا بعده القيام. ويقال: لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب أي: أن يقوموا بالدفع. يقول الرجل: أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر أي: لا أستطيع دفع هذا الأمر عن نفسي".

عن قتادة: "{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ}، قال: من نهوض".

قال قتادة:" يقول: ما استطاع القوم نهوضا لعقوبة الله تبارك وتعالى".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} [الذاريات: ٤٥]، أي:" وما كانوا منتصرين لأنفسهم".

قال مقاتل:" يعنى: ممتنعين من العذاب حين أهلكوا".

قال السمعاني:" أي: ممتنعين من نزول العذاب بهم".

قال الثعلبي: يعني: "منتقمين منّا".

قال الطبري:" يقول: وما كانوا قادرين على أن يستقيدوا ممن أحل بهم العقوبة التي حلت بهم".

قال ابن كثير:" أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه".

قال قتادة:" ما كانت عندهم من قوة يمتنعون بها من الله ﷻ".

قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ} [الذاريات: ٤٦]، أي:" وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء".

قال الطبري: يقول: "وفي قوم نوح لهم أيضا عبرة، إذ أهلكناهم من قبل ثمود لما كذّبوا رسولنا نوحا".

قال ابن كثير:" أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء".

قال مقاتل:" {مِنْ قَبْلُ} هؤلاء الذين ذكر".

قال السمعاني:" أي: من قبل عاد وثمود، أهلكناهم كما أهلكنا عادا وثمود".

=

=

عن يزيد الرقاشي، قال: "إنما سمي نوح، لطول ما ناح على نفسه".

قال الفراء:" من نصبها فعلى وجهين: أخذتهم الصعقة، وأخذت قوم نوح وإن شئت: أهلكناهم، وأهلكنا قومَ نوح. ووجه آخرُ ليسَ بأبغَض إليَّ من هذين الوجهين: أن تُضمر فعلا- واذكر لهم قوم نوح، كما قَالَ ﷻ: {وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ} [العنكبوت: ١٦]، {وَنُوحًا إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ} [الأنبياء: ٧٦]، فِي كَثِير من القرآن معناه: أنبئهم واذكر لهم الأنبياء وأخبارهم".

قال الزجاج:" قرئت: «وقومِ نوحٍ»، بالخفض، {وقومَ نوحٍ}، بالنصب، فمن خفض فالمعنى: في قوم نوح، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}. ومعنى: أخذتهم الصاعقة أهلكناهم. فالمعنى: فأهلكناهم وأهلكنا قوم نوح من قبل. والأحسن والله أعلم أن يكون محمولًا على قوله: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، لأن المعنى: فأغرقناه وجنوده وأغرقنا قوم نوح من قبل".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الذاريات: ٤٦]، أي:" إنهم كانوا قومًا مخالفين لأمر الله، خارجين عن طاعته".

قال مقاتل:" {مِنْ قَبْلُ} هؤلاء الذين ذكر".

قال الطبري:" يعنى: عاصين".

قال السمعاني:" أي: خارجين عن طاعة الله تعالى".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{فاسقين}، يعني: عاصين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين} ثمود هم الذين أرسل الله إليهم نبيه صالحًا عليه الصلاة والسلام، فوعظهم وذكرهم، وجعل لهم آية وهي الناقة التي شرفها الله تعالى بإضافتها إلى نفسه الكريمة، حيث قال تبارك وتعالى: {فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقيها} أي احذروا ناقة الله أن

=

=

تعبثوا فيها، أو أن تنكروها، وهذه الآية (لها شرب) تشرب من البئر التي تسمى بئر الناقة، ولهم شرب يوم معلوم يشربونه، فالناقة تشرب يومًا وهم يشربون يومًا، وهذه الناقة ذكروا أنهم: ما جاء أحد يستقي من هذا البئر في يومها التي تشرب منه إلا أخذ بدل شربها شيئًا من لبنها بقدر ما شربت، فالله أعلم: هل هذا هو الواقع أو يختلف؟ لكن على كل حال هذه الناقة لا شك أنها ناقة ليست كسائر النوق، إذ إنها آية من آيات الله ﷻ، لكنهم كذبوا وأبوا وتوعدهم عليه الصلاة والسلام أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، ولكنهم مازالوا على كفرهم وإنكارهم، ولهذا قال: {وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين} وديارهم معروفة الآن، موجودة في مكان يسمى الحجر، ويسمى الآن ديار ثمود، وقد مر بها النبي ﷺ في ذهابه إلى تبوك، لكنه عليه الصلاة والسلام أسرع حين مر بهذه الديار وقنع رأسه، ونهى أمته أن يدخلوا إلى هذه الأماكن، أماكن المعذبين إلا أن يكونوا باكين، قال: «فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها أن يصيبكم ما أصابهم» وقوله: «أن يصيبكم ما أصابهم». لا يلزم منه أن يراد به ما أصابهم من العذاب الجسمي قد يكون المراد ما أصابهم من العذاب الحسي، وما أصابهم من الإعراض والكفر.

فلو قال قائل: إنه يوجد أناس يذهبون إلى هذه الأماكن وهم غير باكين ولم يصابوا بشيء.

فنقول: الجواب عن هذا من وجهين:

أولًا: أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يؤكد أن يصابوا بهذا، ولكن قال: «حذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

الوجه الثاني: أن نقول: لا يتعين أن يكون المراد بذلك أن يأخذوا بما أخذ به هؤلاء من العقوبة الحسية الظاهرة، وهي الرجفة والصيحة التي أماتتهم عن آخرهم، فقد يكون المراد مرض القلب، الذي هو الاستكبار والإعراض ورد الحق.

=

=

{إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين}، هذا الحين هو ثلاثة أيام {فعتوا عن أمر ربهم} أي: فأبوا ولم يرجعوا عن غيهم {فأخذتهم الصاعقة} التي صعقتهم، وهي رجفة وصيحة، {وهم ينظرون} أي: ينظر بعضهم إلى بعض يتهاوون ويتساقطون أمواتًا {فما استطعوا من قيام} أي: ما استطاعوا أن يقوموا {وما كانوا منتصرين}، أي: لم يتمكن بعضهم أن ينصر بعضًا، بل كلهم هلكوا عن آخرهم، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب أولياءه، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب رسله عليهم الصلاة والسلام، إلا أن العذاب المستأصل رفع عن هذه الأمة، فإن النبي ﷺ دعا ربه سبحانه وتعالى ألا يأخذهم بسنة بعامة، أي بعقوبة عامة، لكن ابتلوا بشيء آخر وهو أن يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، والأمر كذلك وقع، فإن هذه الأمة لم تصب بعذاب عام كما أصيبت به الأمم التي قبلها، لكن أصيبت بأن جعل الله بأسهم بينهم منذ زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لما اختلفوا على عثمان وعلي رضي الله عنهما وحصلت الفتن تتوالى إلى يومنا هذا، ثم هذه الأمة التي جُعل بأسها بينها ليست هي أمة الإجابة فقط، بل أمة الإجابة وأمة الدعوة، ولهذا نقول: ما حصل من الفتن والبلاء في الأرض مشارقها ومغاربها من الكفار وغير الكفار فإنما هو نتيجة للمعاصي، وهي عقوبة هذه الأمة أن الله يذيقهم بأس بعض.

{وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قومًا فسقين} يعني اذكر قوم نوح من قبل، وهم أول أمة أرسل إليهم الرسول، ولكنهم كذبوا، ونوح عليه الصلاة والسلام بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ويذكرهم ويعظهم، ولكنهم- والعياذ بالله- لم يؤمنوا، ما آمن معهم إلا قليل حتى أنه عليه الصلاة والسلام يقول: {كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم}، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقول، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها لئلا يبصرون، نسأل الله العافية، وهذا غاية ما يكون من البغضاء لما يقول ولما يفعل،

=

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧).

{وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} بِقُوَّةٍ {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} قَادِرُونَ يُقَال آدَ الرَّجُل يَئِيد قَوِيَ وَأَوْسَعَ الرَّجُل صَارَ ذَا سِعَة وَقُوَّة.

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨).

{وَالْأَرْض فَرَشْنَاهَا} مَهَّدْنَاهَا {فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} نَحْنُ.

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩).

{وَمِنْ كُلّ شَيْء} مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ خَلَقْنَا {خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} صِنْفَيْنِ كَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالسَّمَاء وَالْأَرْض وَالشَّمْس وَالْقَمَر وَالسَّهْل وَالْجَبَل وَالصَّيْف وَالشِّتَاء وَالْحُلْو وَالْحَامِض وَالنُّور وَالظُّلْمَة {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنْ الْأَصْل فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِق الْأَزْوَاج فَرْد فَتَعْبُدُوهُ[1].

=

{وأصروا} على باطلهم {واستكبروا استكبارًا} فكان آخر ما قال عليه الصلاة والسلام: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا} ودعا ربه أني مغلوب فانتصر، قال الله تعالى: {ففتحنا أبوب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر} ولهذا والله أعلم سيكون عليهم نصيب من عذاب المكذبين لأنهم هم أول أمة كذبت الرسل، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أن من قتل نفسًا فإن على ابن آدم الذي قتل أخاه كفلًا ونصيبًا من عذاب القاتل إلى يوم القيامة.

(١) قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}.

قال ابن كثير:" يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوي والسفلي: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا}، أي: جعلناها سقفا محفوظا رفيعا {بأيد}، أي: بقوة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والسماء رفعناها سقفا بقوة".

=

=

عن ابن عباس، قوله: "{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، يقول: بقوة".
عن سعيد، قوله: "{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، قال: بقوة".
عن مجاهد، قوله: "{بِأَيْدٍ}، قال: بقوة".
عن قتادة: "{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، أي: بقوّة".
عن منصور أنه قال في هذه الآية: "{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، قال: بقوة".
عن ابن زيد، وسفيان، في قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، قالا: "بقوة".
قوله تعالى: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: ٤٧]، أي:" وإنا لموسعون لأرجائها وأنحائها".
قال ابن كثير:" أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي".
وفي قوله تعالى: {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: ٤٧]، وجوه من التفسير:
أحدها: لموسعون في الرزق، قاله ابن عباس، والحسن، وبه قال ابن أبي زمنين.
عن ابن عباس، قال:" لَمُوسِعُونَ الرزق على خلقنا".
وحكي الماوردي عن الحسن، قال:" لموسعون في الرزق بالمطر".
الثاني: لموسعون السماء، قاله ابن زيد.
قال ابن زيد:" أوسعها جلّ جلاله".
قال الزجاج:" جعلنا بينها وبين الأرض سعة".
وجمع السعدي بين القولين، حيث قال:" {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضا على عبادنا، بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل
إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها. فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات".

=

=

الثالث: يعني: نحن قادرون على أن نوسعها كما نريد. قاله مقاتل.

الرابع: لموسعون بخلق سماء مثلها، قاله مجاهد، وابن أبي نجيح، وابن جريج.

عن ابن أبي نجيح، في قوله: {وإنّا لَمُوسِعُونَ}، قال: "أن نخلق سماء مثلها".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: {وإنّا لَمُوسِعُونَ}، قال: لنخلق سماء مثلها".

الخامس: أحاط علمنا بكل شيء. حكاه الثعلبي عن الحسين بن الفضل.

السادس: مطيقون. قاله الحسن.

عن الحسن: "{وإنّا لَمُوسِعُونَ} مُطيقون".

وروي عن ابن عباس:" {وإنّا لَمُوسِعُونَ} قادرون

السابع: لذو سعة لا يضيق علينا شيء نريده. حكي نحوه عن الضحاك.

عن الضحاك:" {وإنّا لَمُوسِعُونَ} أغنياء"، ودليله قوله سبحانه: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ} [البقرة: ٢٣٦].

قال الفراء:" أي: إنا لذو وسَعَةٍ لخَلْقِنا. وكذلك قوله جل ذكره: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ} [البقرة: ٢٣٦] ".

قال ابن قتيبة:" أي: قادرون. ومنه قوله: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ} ".

قال الطبري:" يقول: لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه. ومنه قوله {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ} [البقرة: ٢٣٦]، يراد به القويّ".

قال الزمخشري:" {لَمُوسِعُون}: لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوى على الإنفاق".

قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا} [الذاريات: ٤٨]، أي:" والأرض جعناها فراشًا للخلق للاستقرار عليها".

قال الطبري: يقول:" والأرض جعلناها فراشا للخلق".

قال ابن كثير:" أي: جعلناها فراشًا للمخلوقات".

=

=

قال السمعاني:" أي: بسطناها".

قال الثعلبي:" بسطنا ومهّدنا لكم".

قال السعدي:" أي: جعلناها فراشًا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن، وغراس، وزرع، وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم".

قال مقاتل:" مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من تحت الكعبة".

قوله تعالى: {فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} [الذاريات: ٤٨]، أي:" فنعم الماهدون نحن".

عن ابن جريج:" {فَنِعْمَ الماهِدُونَ}، قال: الفارشون".

قال الطبري: "يقول: فنعم الماهدون لهم نحن".

قال ابن كثير:" أي: وجعلناها مهدا لأهلها".

قال الثعلبي:" الباسطون، والمعنى في الجمع: التعظيم".

قال السمعاني:" المعنى: أنا بسطنا الأرض على الهيئة التي يستقر عليها العباد، ولا تنكفئ بهم على ما يبسط الإنسان فرشا يمهد به لغيره موضع استقرار وسكون".

قال السعدي:" ولما كان الفراش، قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك فقال: {فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته وإحسانه".

قال ابن عباس: "نعم ما وطأت لعبادي".

قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩]، أي:" ومن كل شيء من أجناس الموجودات خلقنا نوعين مختلفين".

قال الطبري: يقول: "وخلقنا من كل شيء خلقنا زوجين".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩]، وجهان من

=

=

التفسير:

أحدهما: أنه خلق كل جنس نوعين: الذكر والأنثى. قاله ابن زيد.

عن ابن زيد، قوله:" {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، قال: ذكرًا وأنثى، ذاك الزوجان، وقرأ: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، قال: امرأته".

قال الزجاج:" المعنى- والله أعلم -:على الحيوان لأن الذكر والأنثى يقال لهما زَوْجَانِ ومثله: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}، ويجوز أن يكون الزوجان من كل شيء، ويكون المعنى في كل شيء في الحيوان الذكر والأنثى ويكون في غيره صِنفان أصل كل حيوان ومَوَاتٍ".

الثاني: أنه خلق من كل شيء نوعين مختلفين كالشقاء والسعادة والهدى والضلالة. قاله مجاهد. ومقاتل، وعن الحسن نحوه.

مجاهد، قوله: "{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، قال: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والإنس والجنّ".

قال مقاتل:" يعني: صنفين يعني الليل والنهار، والدنيا والآخرة، والشمس والقمر، والبر والبحر، والشتاء والصيف، والبرد والحر، والسهل والجبل، والسبخة والعذبة".

عن الحسن، قوله: "{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، قال: الشمس والقمر".

قال ابن قتيبة:" أي ضِدَّين: ذكرًا وأنثى، وحلْوًا وحامضًا؛ وأشباهَ ذلك".

واختار الطبري هذا القول قائلا:" إن الله تبارك وتعالى، خلق لكلّ ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا في معناه، فكلّ واحد منهما زوج للآخر، ولذلك قيل: «خلقنا زوجين»، وإنما نبه جلّ ثناؤه بذلك من قوله على قُدرته على خلق ما يشاء خلقه من شيء، وأنه ليس كالأشياء التي شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كلّ ما

=

=

صفته فعل نوع واحد دون ما عداه كالنار التي شأنها التسخين، ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذي شأنه التبريد، ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كلّ ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة".

قال الفراء:" الزَّوجان من جميع الحيوانِ: الذكَرُ والأُنثى، ومِن سوى ذَلِكَ: اختلافُ ألوان النبات، وطُعومِ الثمار، وبعضٌ حلوٌ، وبعضٌ حامضٌ، فذانِك زوجان".

قال ابن كثير:" أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات ".

قال الماوردي:"وإنما جعل بينكم ما خلق وقضى زوجين ليكون بالوحدانية متفردًا".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، أي:" لكي تتذكروا قدرة الله، وتعتبروا".

قال مجاهد:" أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد".

قال مقاتل:" فيما خلق أنه ليس له عدل ولا مثيل، فتوحدونه".

قال الثعلبي:" فتعلمون أنّ خالق الأزواج فرد".

قال الطبري:" يقول: لتذكروا وتعتبروا بذلك، فتعلموا أيها المشركون بالله أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كلّ شيء لا ما لا يقدر على ذلك".

قال الزمخشري:" أي: فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له".
قال السعدي:" {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع".
قال العثيمين: قوله تعالى: {والسماء بنينها بأيد وإنا لموسعون} السماء مفعول لفعل محذوف والتقدير، وبنينا السماء، وقوله: {بأيد} أي: بقوة، كما قال الله تعالى: {وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا} فالأيد هنا أي القوة، وليست جمع يد كما يتوهم بعض الناس، ويظنون أن الله تعالى بنى السماء بيديه ﷻ؛ لأن الأيد هنا مصدر آد يئد بمعنى القوة، كما يقال باع يبيع بيعًا، ولهذا لم يضف الله هذه الكلمة إلى نفسه الكريمة كما أضافها إلى نفسه الكريمة في قوله تعالى: {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينآ أنعمًا} فمن فسر الأيد بالقوة هنا فإنه لا يقال: إنه من أهل التأويل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، بل هو من التأويل الصحيح، والإنسان إذا تأمل وتفكر في السماوات عرف أنها قوية شديدة عظيمة، وأن قوتها تدل على قوة بانيها ﷻ {وإنا لموسعون} أي: لموسعون لأرجائها، لأنها واسعة عظيمة، ولهذا كانت السماوات أكبر بكثير من الأرض، وهي محيطة بالأرض من كل جانب، وعلى هذا فتكون أوسع من الأرض، وليست الأرض بالنسبة للسماء إلا شيئًا يسيرًا، {والأَرض فرشنها} أي: فرشنا لأهلها، جعلناها لهم كالفراش يأوون إليها ويتمتعون بها، لم يجعلها الله تعالى صعبة ولا سهلة، بل هي متوسطة لو كانت لينة رخوة ما تمكن أحد من البقاء عليها، ولو كانت صعبة ما تمكن أحد من الانتفاع بها، ولكنها كانت كما وصفها الله ﷻ: {هو الذي جعل لكم الأَرض ذلولًا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور}.
{فنعم المهدون} أثنى على نفسه تبارك وتعالى بذلك، لأنه أهل للثناء، وقد جعل

=

=

الله تبارك وتعالى الأرض على مستوى نافع للعباد، ليست بالقاسية التي يعجز الناس عن الانتفاع بها، وليست باللينة التي لا يستقرون عليها، بل هي مناسبة تمامًا لهم، على أن فيها اختلافًا في الليونة وفي الصلابة، لكن هذا لا يمنع الانتفاع بها.

{ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} خلق الله تبارك وتعالى من كل شيء زوجين متقابلين، حتى تتم الحال وتصلح باجتماع بعضهما إلى بعض، فالحيوان كله من إنسان وغيره يكون من زوجين بين ذكر وأنثى، كما قال الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبآئل لتعرفوا} إلا أن آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله بيده من غير أم ولا أب، وحواء خلقت من أب بلا أم، وعيسى ابن مريم خلق من أم بلا أب، ولهذا ينقسم الناس إلى أربعة أقسام: الأول: من خلق بلا أم ولا أب وهو: آدم، والثاني: من خلق من أب بلا أم وهي: حواء، والثالث: من خلق من أم بلا أب وهو: عيسى، والرابع: بقية البشر خلقوا من ذكر وأنثى، فمن كل شيء خلق الله زوجين، اليابس والرطب، والحرارة والبرودة، واللين والقسوة، وغيره مما إذا تأمله الإنسان عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى {لعلكم تذكرون}، أي: بينا ذلك لكم، لأجل أن تذكروا وتتعظوا بآيات الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان كلما كان أعلم بآيات الله الكونية أو الشرعية كان أكثر اتعاظًا واعتبارًا، ولهذا حث الله على النظر في الآيات الكونية فقال تعالى: {قل انظروا ماذا في السماوت والأَرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}. وقال تعالى: {أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوت والأَرض وما بينهمآ إلا بالحق} ومدح الله تعالى الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض بقوله: {إن في خلق السماوت والأَرض واختلاف الليل والنهار لأَيات لأُولى الأَلباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوت والأَرض ربنآ ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا

=

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠).

{فَفِرُّوا إِلَى الله} أَيْ إِلَى ثَوَابه مِنْ عِقَابه بِأَنْ تُطِيعُوهُ وَلَا تَعْصُوهُ {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار.

وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١).

{وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَر إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِير مُبِين} يُقَدَّر قَبْل فَفِرُّوا قل لهم.

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢).

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ مِنْ رَسُول إِلَّا قَالُوا} هُوَ {سَاحِر أَوْ مَجْنُون} أَيْ مِثْل تَكْذِيبهمْ لَك بِقَوْلِهِمْ إِنَّك سَاحِر أَوْ مَجْنُون تَكْذِيب الْأُمَم قَبْلهمْ رُسُلهمْ بِقَوْلِهِمْ ذلك.

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣).

{أتواصوا} كلهم {به} اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي {بَلْ هُمْ قَوْم طَاغُونَ} جَمَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْل طُغْيَانهمْ.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤).

{فَتَوَلَّ} أَعْرِضْ {عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ} لِأَنَّك بلغتهم الرسالة.

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥).

{وَذَكِّرْ} عِظْ بِالْقُرْآنِ {فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَع الْمُؤْمِنِينَ} مَنْ عَلِمَ الله تَعَالَى أَنَّهُ يُؤْمِن.

=

عذاب النار}. لهذا ينبغي الإنسان أن يتعظ ويتذكر ويتدبر آيات الله سبحانه وتعالى الكونية والشرعية.

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦).

{وَمَا خَلَقْت الْجِنّ وَالْإِنْس إلَّا لِيَعْبُدُونِ} وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَدَم عِبَادَة الْكَافِرِينَ لِأَنَّ الْغَايَة لَا يَلْزَم وُجُودهَا كَمَا فِي قَوْلك بَرَيْت هَذَا الْقَلَم لِأَكْتُب بِهِ فَإِنَّك قَدْ لَا تكتب به.

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧).

{مَا أُرِيد مِنْهُمْ مِنْ رِزْق} لِي وَلِأَنْفُسِهِمْ وَغَيْرهمْ {وَمَا أُرِيد أَنْ يُطْعِمُونِ} وَلَا أَنْفُسهمْ ولا غيرهم.

إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨).

{إنَّ الله هُوَ الرَّزَّاق ذُو الْقُوَّة الْمَتِين} الشديد(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ} [الذاريات: ٥٠]، أي:" ففروا -أيها الناس- من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به وبرسوله، واتباع أمره والعمل بطاعته".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته".

قال ابن كثير:" أي: الجئوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه".

قال الفراء:" معناه: فرُّوا إِلَيْه إلى طاعتهِ من معصيته".

قال الزجاج:" المعنى: ففروا إلى الله من الشرك بالله ومن مَعَاصِيه إليه".

قال الثعلبي:" أي: فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان ومجانبة العصيان".

قال الزمخشري:" أي: إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به شيئا".

قال ابن عباس: "فرّوا منه إليه، واعملوا بطاعته".

وقال أبو بكر الورّاق: "فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرّحمن".

=

=

أخرج الثعلبي عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان في قوله سبحانه {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ}، قال: اخرجوا إلى مكة".

عن الحسين بن الفضل: "احترزوا من كل شيء دونه، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه".

قال الجنيد: "الشيطان داع إلى الباطل، فَفِرُّوا إِلَى اللهِ يمنعكم منه".

قال ذو النون: "ففرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر".

قال عمرو بن عثمان: "فرّوا من أنفسكم إلى ربّكم".

قال الواسطي: "فرّوا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم".

قال سهل بن عبد الله: "فرّوا مما سوى الله إلى الله".

قال القشيري:" أي: فارجعوا إلى الله- والإنسان بإحدى حالتين إمّا حالة رغبة في شئ، أو حالة رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرّ.. وفي الحالتين ينبغي أن يكون فراره إلى الله فإنّ النافع والضارّ هو الله. ويقال: من صحّ فراره إلى الله صحّ قراره مع الله. ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التّقى، ومن الشّكّ إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: ٥٠]، أي:" إني لكم نذير بيِّن الإنذار".

قال الطبري:" يقول: إني لكم من الله نذير أنذركم عقابه، وأخوّفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الأمم الذي قصّ عليكم قصصهم، والذي هو مذيقهم في الآخرة، وقوله: {مُبِينٌ}، يقول: يبين لكم نذارته".

قال الزجاج:" أي: أنذركم عذابه وعقابه".

قال الزمخشري:" وكرّر قوله: {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} عند الأمر بالطاعة والنهى

=

=

عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨] ".

قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [الذاريات: ٥١]، أي:" ولا تجعلوا مع الله معبودًا آخر".

قال الطبري: يقول: "ولا تجعلوا أيها الناس مع معبودكم الذي خلقكم معبودًا آخر سواه، فإنه لا معبود تصلح له العبادة غيره".

قال ابن كثير:" أي: ولا تشركوا به شيئا".

قال المراغي:" أي: ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبودا آخر سواه، فإن العبادة لا تصلح لغيره".

قال أبو السعود:" وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهى عن سببه وإيجاب الفرار".

قال السعدي:" {وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله، من الأوثان، والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء، والإنابة".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: ٥١]، أي:" إني لكم من الله نذير بيِّن الإنذار".

قال الطبري: "يقول: إني لكم أيها الناس نذير من عقابه على عبادتكم إلها غيره، مبين قد أبان لكم النذارة".

قال القشيري:" أخوّفكم أليم عقوبته إن أشركتم به- فإنّه لا يغفر أن يشرك به".

عن ابن عباس:" {نذير}، قال: نذير من النار".

=

=

قال قتادة:" بعث الله محمدا ﷺ نذيرا من النار وينذر بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلكم".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما كذبت قريش نبيها محمدًا ﷺ، وقالت: هو شاعر، أو ساحر أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذّبة رسلها، الذين أحلّ الله بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاء القوم الذين ذكرناهم من قبلهم، يعني من قبل قريش قوم محمد ﷺ من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون، كما قالت قريش لمحمد ﷺ".

قال الزجاج:" المعنى: الأمر كذلك، أي: كما فعل من قبلهم في تكذيبِ الرسُلِ {إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}، أي: إلا قالوا هذا ساحر".

قال البغوي:" أي: كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون كذلك، {مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من قبل كفار مكة، {مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} ".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} ".

قال السمعاني:" وهذا تسلية للنبي، أي: كما قيل لك فقد قيل لمن قبلك من الرسل".

قال الشوكاني:" في هذا تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة، وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله، ووصفه بالسحر والجنون، قد كان ممن قبلهم لرسلهم".

عن قتادة: "{مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}، يعزي نبيّه ﷺ كما

=

=

تسمعون، يقول: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} ".

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {كَذلِكَ}، تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك. وقوله: {إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}، معناه: إلا قال بعض: هذا وبعض: الجميع ألا ترى أن قوم نوح لم يقولوا قط: «ساحِرٌ»، وإنما قالوا: {بِهِ جِنَّةٌ} [سبأ: ٨]، فلما اختلف الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال أو بين الصفتين، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها إنه ساحر أو هو مجنون، فليست هذه كالمتقدمة في فرعون، بل هذه كأنه قال: إلا قالوا هو ساحر وهو مجنون".

قوله تعالى: {أَتَوَاصَوْا بِهِ} [الذاريات: ٥٣]، أي:" أتواصى الأولون والآخرون بالتكذيب بالرسول حين قالوا ذلك جميعًا؟ ".

قال الفراء:" معناه: أتواصى به أهلُ مكةَ، وَالْأمم الماضيةُ، إذْ قَالُوا لَكَ كما قَالَتِ الأمَمُ لرُسلها".

قال أبو عبيدة:" أتواطئوا عليه وأخذه بعضهم عن بعض، وإذا كانت شيمة غالبة على قوم، قيل: كأنما تواصوا بكذا وكذا".

قال الزجاج:" معناه: أوصى أولهم آخرهم، وهذه «ألف» التوبيخ و «ألف» الاستفهام".

قال الطبري:" أأوصى هؤلاء المكذّبين من قريش محمدا ﷺ على ما جاءهم به من الحق أوائلهم وآباؤهم الماضون من قبلهم، بتكذيب محمد ﷺ، فقبلوا ذلك عنهم".

قال مقاتل:" يقول: أوصى الأول الآخر أن يقولوا ذلك لرسلهم".

قال ابن كثير:" أي: أوصى بعضُهم بعضا بهذه المقالة؟ ".

قال قتادة:" أي: كان الأوّل قد أوصى الآخر بالتكذيب".

=

=

قال قتادة:" أوصى أولاهم أخراهم بالتكذيب".

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: ٥٣]، أي:" بل هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فقال متأخروهم ذلك، كما قاله متقدموهم".

قال مقاتل:" يعني: عاصين".

قال الطبري: يقول:" ما أوصى هؤلاء المشركون آخرهم بذلك، ولكنهم قوم متعدّون طغاة عن أمر ربهم، لا يأتمرون لأمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه".

قال ابن كثير:" أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم".

قال ابن عباس:" حمَلهم الطغيانُ فيما أعطَيتهم ووسّعتُ عليهم على تكذيبك".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} [الذاريات: ٥٤]، أي:" فأعرضْ -أيها الرسول- عن المشركين حتى يأتيك فيهم أمر الله".

قال مقاتل:" يعني: فأعرض عنهم، فقد بلغت وأعذرت".

قال الزجاج:" معناه: أي: لا لوم عليك إذ أديت الرسَالة".

قال ابن كثير:" أي: فأعرض عنهم يا محمد".

قال أبو عبيدة:" أي: أعرض عنهم واتركهم، قال حصين بن ضمضم :

أمَّا بَنُو عبس فإنَّ هَجِينَهُمْ... وَلَّى فَوَارِسهُ وَأَفْلَتَ أَعْوَرا

والأعور: الذي قد عوّر فلم يقض حاجته ولم يصب ما طلب".

قال الطبري: **"**يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فتولّ يا محمد عن هؤلاء المشركين بالله من قريش، يقول: فأعرض عنهم حتى يأتيك فيهم أمر الله، يقال: ولى فلان عن فلان: إذا أعرض عنه وتركه".

قوله تعالى: {فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ} [الذاريات: ٥٤]، أي:" فما أنت بملوم من أحد،

=

=

فقد بلَّغت ما أُرسلت به".

قال مقاتل:" يقول: فلا تلام".

قال ابن كثير:" يعني: فما نلومك على ذلك".

قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه: فما أنت يا محمد بملوم، لا يلومك ربك على تفريط كان منك في الإنذار، فقد أنذرت، وبلغت ما أرسلت به".

عن مجاهد، قوله: "{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ}، قال: محمد ﷺ".

قال ابن زيد:" قد بلغت ما أرسلناك به، فلست بملوم، قال: وكيف يلومه، وقد أدّى ما أمر به".

قوله تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)} [الذاريات: ٥٥]

قال الثعلبي:" قال المفسرون: فلمّا نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ، واشتدّ ذلك على أصحابه، ورأوا أن الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله سبحانه: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِين} ".

قوله تعالى: {وَذَكِّرْ} [الذاريات: ٥٥]، أي:" ومع إعراضك -أيها الرسول- عنهم، وعدم الالتفات إلى تخذيلهم، داوم على الدعوة إلى الله، وعلى وعظ من أُرسلتَ إليهم".

قال الطبري:" يقول: وعظ يا محمد من أرسلت إليه".

قال الزجاج:" أي: ذكرهم بأيام الله وعذابه وعقابه ورحمته".

عن مجاهد: "{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: وعظهم".

قوله تعالى: {فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، أي:" فإن التذكير والموعظة ينتفع بهما أهل القلوب المؤمنة، وفيهما إقامة الحجة على المعرضين".

قال الطبري: يقول:" فإن العظة تنفع أهل الإيمان بالله".

=

=

قال ابن كثير:" أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ".

عن سليمان بن حبيب المحاربي، قال: "مَن وجد للذكرى في قلبه موقعًا فليعلم أنّه مؤمن؛ قال الله: {وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} ".

القرآن

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]

أي: وما خلقت الجن والإنس وبعثت جميع الرسل إلا لغاية سامية، هي عبادتي وحدي دون مَن سواي.

قال ابن كثير:" أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم ".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، على وجوه:

أحدها: إلا ليقروا بالعبودية طوعًا أو كرهًا، قاله ابن عباس.

وبه قال الطبري، قائلا:" الصواب: القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا، فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه".

الثاني: معناه: إلّا لآمرهم أن يعبدون، وأدعوهم إلى عبادتي. قاله علي بن أبي طالب. واعتمد الزجاج هذا القول، ويؤيده قوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة: ٣١]، وقوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥].

قال الزجاج:" الله ﷻ قد علم من قبل أن يَخْلُقَ الجنَّ والإِنسَ من يعبده مِمَّنْ يكفر به، فلو كان إنما خلقهم ليجبرهم على عِبَادَتِه لكانوا كلهم عبادًا مؤمنين ولم

=

=

يكن منهم ضُلَّالٌ كافِرونَ. فالمعنى: وما خلقت الجنَّ والإِنس إلا لأدعوهم إلى عِبَادَتِي. وأنا مرِيدٌ العِبَادَةَ مِنْهُمْ، يعني من أهلها".

وحكي الماوردي عن مجاهد، قال:" إلا لآمرهم وأنهاهم".

الثالث: إلا لأجبلهم على الشقاء والسعادة، قاله زيد بن أسلم.

قال زيد بن اسلم:" ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة".

وفي رواية:" جَبَلَهم على الشقاء والسعادة".

وفي رواية:" ما جبلوا عليه من الطاعة والمعصية".

وعن سفيان: "{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}، قال: من خلق للعبادة".

قال الفراء:" إلا ليوحِّدوني، وَهذه خاصّةٌ يقولُ: وَما خلقت أهلَ السعادةِ من الفريقين إلا ليُوحِّدُوني".

الرابع: إلا ليعرفوني، قاله مجاهد، والضحاك، وابن جريج.

وحكي الثعلبي عن مجاهد هذا القول وحسّنه، إذ قال:" ولقد أحسن في هذا القول لأنّه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده، ودليل هذا التأويل قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم} [العنكبوت: ٦١] الآيات".

الخامس: إلا للعبادة، وهو الظاهر، وبه قال الربيع بن انس.

قال الإمام الشافعي:" خلق الله تعالى الخلق لعبادته".

قال ابن كثير: "وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك ".

وقال عكرمة:" إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ويطيعون. فأثيب العابد وأعاقب الجاحد".

السادس: أي: إلا ليوحّدون. قاله مقاتل، وابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:" يعني: المؤمنين منهم؛ أي: ليوحِّدوني، ومثله قوله: {فَأَنَا أَوَّلُ

=

=

الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، أي: الموحِّدين".

وقال الضحاك وسفيان: "هذا خاص لأهل عبادته وطاعته".

قال الثعلبي: "يدلّ عليه ما قرأه ابن عباس: «وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ من المؤمنين إِلَّا لِيَعْبُدُونِ». قال في آية أخرى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس} [الأعراف: ١٧٩] ".

وروى حيّان عن الكلبي: "إلّا ليوحّدون، فأمّا المؤمن فيوحّده في الشدّة والرخاء، وأمّا الكافر فيوحده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله سبحانه: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الآية".

قال مقاتل:" يعنى: إلا ليوحدون، وقالوا: إلا ليعرفون، يعني: ما أمرتهم إلا بالعبادة ولو أنهم خلقوا للعبادة، ما عصوا طرفة عين".

قال الثعلبي في الآية:" ووجه الآية في الجملة أنّ الله تعالى لم يخلقهم للعبادة خلق جبلة وإجبار وإنّما خلقه لهم خلق تكليف واختيار، فمن وفّقه وسدّده أقام العبادة التي خلق لها، ومن خذله وطرده حرمها وعمل بما خلق لها. كقوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ".

قال ابن كثير:" معنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: "يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك» ".

قال ابن كثير:" وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: "يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء".

=

=

{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)} [الذاريات: ٥٧]

قوله تعالى: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ} [الذاريات: ٥٧]، أي:" لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم، بل أنا الرزَّاق المعطي".

قال مقاتل:" يقول: لم أسألهم أن يرزقوا أحدا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما أريد ممن خلقت من الجنّ والإنس من رزق يرزقونه خلقي".

قال ابن قتيبة:" أي: ما أريد أن يَرزُقوا أنفُسَهم".

قوله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} [الذاريات: ٥٧]، أي:" ولا أُريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد".

قال مقاتل:" يعني: أن يرزقون".

قال الفراء:" يقول: ما أريدُ منهم أن يرزقوا أنفسهم".

قال الطبري:" يقول: وما أريد منهم من قوت أن يقوتوهم، ومن طعام أن يطعموهم".

قال الفراء وابن قتيبة:" أي: يُطعموا أحدًا من خلقي".

عن ابن عباس: "{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ}، قال: يطعمون أنفسهم".

قال الحسن:" أن يرزقوا أنفسهم".

قال ابن كثير:" أخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ} [الذاريات: ٥٨]، أي:" إن الله وحده هو الرزاق لخلقه، المتكفل بأقواتهم".

قال النحاس:" أي: الرّزاق خلقه المتكفل بأقواتهم".

=

=

قال الزجاج:" لأني أنا الرزاقُ المطعِمُ".

قوله تعالى: {ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٨]، أي:" ذو القوة المتين، لا يُقْهَر ولا يغالَب، فله القدرة والقوة كلها".

قال الزجاج: يعني: "ذو الاقْتِدَارِ الشديد".

قال ابن قتيبة:" {الْمَتِين}: الشديد القويّ".

عن ابن عباس، قوله: "{ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، يقول: الشديد".

قال مقاتل:" {ذُو الْقُوَّةِ}، يعني: البطش في هلاكهم ببدر، {الْمَتِينُ}، يعني: الشديد".

قال الزجاج:" القراءة، الرفْعُ وهو في العربية أحسن يكون رفع {الْمَتِينُ} صفة لِلَّهِ ﷻ، ومن قرأ {ذو القوةِ المتينِ}- بالخفض- جعل «المتين» صفة للقوة، لأن تأنيث القوة كتأنيث الموعظة، كما قال: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ} [البقرة: ٢٧٥]، المعنى: فمن جاءه وَعظ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين} هذا كأنه على لسان النبي ﷺ أي قل لهم {ففروا إلى الله إني لكم منه} أي: من الله، والفرار إلى الله يكون بالقيام بطاعته واجتناب نواهيه، لأنه لا ينقذك من عذاب الله، إلا أن تقوم بطاعة الله، فكأن الإنسان إذا قام بطاعة الله ﷻ كأنه فر من عدو، أرأيت لو أن واديًا عرمًا يهدر، أقبل عليك فإنك لن تقف أمامه، بل تهرب منه وتفر منه، كذلك لو أن حريقًا ملتهبًا أقبل إليك فإنك لن تقف بل تفر، كذلك نار جهنم أشد وأعظم وأولى بالفرار منها، ولهذا قال: {ففروا إلى الله}، أي: من عذاب الله {إني لكم منه نذير مبين} أي: منذر {مبين} أي: مظهر لما أنذر به ومبين له، فهو عليه الصلاة والسلام نذير من الله تعالى لعباده، ينذر من خالف أمره بالعذاب، ومع هذا هو ﷺ بشير لمن آمن وأطاع بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: {من

=

=

عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} لكن الله تبارك وتعالى يذكر الإنذار فقط في مقام التهديد والوعيد، وهذه السورة كلها ذكر للأمم السابقين وما حل بهم من العقوبة لمخالفتهم أمر الله تبارك وتعالى، {ولا تجعلوا مع الله إلهًا ءاخر}، أي: لا تجعلوا معه معبودًا تعبدونه، والمعبود أنواع وأصناف، فمن الناس من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الحيوان، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد المال، كما قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط»

فبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن الذي ليس لهم همٌّ إلا المال فإنه عابد له في الحقيقة، وإن كان لا يركع له ولا يسجد، لكن تعلق قلبه به واهتمامه به، وكونه يرضى لحصوله، ويسخط لمنعه، لا شك أنه قد استولى على قلبه استيلاء تامًّا، لكن المعبود تختلف عبادته في الحكم، فإن كان يصرف له شيء من العبادة، فهذا شرك أكبر، وإن كان لا يصرف له شيء من العبادة، ولكنه يتعلق به القلب تعلقًا كاملًا حتى إنه ليدع الواجبات ويقع في المحرمات من أجل الحصول عليه، فهذه عبادة لا تخرج من الدين لكنها حقًّا عبادة {إني لكم منه نذير مبين} كرر ذلك لأهمية الموضوع، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الاتعاظ والانتفاع بآيات الله تعالى، إنه على كل شيء قدير.

قال الإمام الطبري:يقول تعالى ذكره : فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته (إني لكم منه نذير) يقول : إني لكم من الله نذير أنذركم عقابه، وأخوفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم، والذي هو مذيقهم في الآخرة. وقوله : (مبين) يقول : يبين لكم

=

=

نذارته انتهى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم لذلك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : قل لهم يا محمد، أي قل لقومك : (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي : فروا من معاصيه إلى طاعته.

وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه : فروا منه إليه واعملوا بطاعته.

وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : (ففروا إلى الله) اخرجوا إلى مكة.

وقال الحسين ابن الفضل : احترزوا من كل شيء دون الله، فمن فر إلى غيره لم يمتنع منه.

وقال أبو بكر الوراق : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.

وقال الجنيد : الشيطان داع إلى الباطل، ففروا إلى الله يمنعكم منه.

وقال ذو النون المصري : ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر.

وقال عمرو بن عثمان : فروا من أنفسكم إلى ربكم.

وقال أيضا : فروا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم.

وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله إلى الله.

(إني لكم منه نذير مبين) أي : أنذركم عقابه على الكفر والمعصية " انتهى.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما دعا العباد للنظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي : الفرار مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا، إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، و من الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد

=

=

والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فرارا : لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه، إلا الله تعالى؛ فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه، (إني لكم منه نذير مبين)؛ أي : منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة " انتهى.

{كذلك مآ أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} يعني أن الأمر الذي حصل لك يا محمد حصل لمن قبلك، فقوله (كذلك) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك، يعني أن أمر الأمم السابقة كأمر هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، وفسر {كذلك} بقوله: {مآ أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} يعني ما أتاهم رسول إلا قالوا كذا، و (من) في قوله (من رسول) زائدة من حيث الإعراب، كقوله تعالى: {أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير} والمعنى ما جاءنا بشير ونذير، لكن تزاد الحروف في بعض الجمل للتأكيد، فما أتى الذين من قبلهم من رسول يعني ما أتاهم رسول إلا وصفوه بهذين الوصفين إلا قالوا: ساحر أو مجنون، ساحر باعتبار تأثيره وبيانه وبلاغته، لأن النبي ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا» أو مجنون يعني أو قالوا مجنون باعتبار تصرفاته، لأن هذا التصرف في نظر هؤلاء المكذبين جنون، نسأل الله العافية، وفي هذا تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصابه ما أصابه تسلى بذلك، وهان عليه الأمر، ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخرًا:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

=

=

وقد دل لذلك قول الله تبارك وتعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون}. لأن الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته، والمهم أن في هذه الجملة بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام تسلية حتى لا يحزن، فإن ما أصابه قد أصاب غيره، وفيها أيضًا دليل على أن المكذبين للرسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم، لأن المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة، قال الله تعالى: {أتواصوا به} أي بهذا القول {بل هم قوم طاغون} يعني هل هؤلاء المكذبين للرسل الذين اتفقوا على وصف الرسل بأنهم سحرة ومجانين، هل هم تواصوا بذلك؟ يعني هل كل واحد من هؤلاء الأمم كتب وصية إلى الأمم اللاحقة: أن قولوا لأنبيائكم: إنكم سحرة ومجانين؟ الجواب: لا، ولهذا قال: {بل هم قوم طغون} وهذا إضراب إبطال يعني لم يحصل تواصٍ، ولكن تواردت الخواطر، لأن الهدف واحد وهو تكذيب الرسل، فاتفقت الكلمة، وفي قوله (طاغون) وصف بأن هؤلاء طغاة معتدون، وهذا من أعظم الطغيان- والعياذ بالله- أن يوصف دعاة الحق بأنهم سحرة ومجانين، قال الله تعالى: {فتول عنهم} أي: أعرض عن هؤلاء ولا تهتم بهم {فمآ أنت بملوم} يعني لا أحد يلومك لأنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، وصبرت وصابرت، فلقد صبر النبي ﷺ، وصابر على أذى قريش وامتهانهم إياه، ولكنه كانت له العاقبة ولله الحمد، ولهذا قال: {فتول عنهم}، بمعنى أنك لا تتعب نفسك بهم، ولا تهلك نفسك فيهم، فأنت في هذه الحال لا تلام على ذلك، لأنه ﷺ قام بما يجب عليه، وفي قوله {فتول عنهم فمآ أنت بملوم} أمران:

الأمر الأول: عذر النبي عليه الصلاة والسلام وإقامة العذر له.

والثاني: تهديد هؤلاء المكذبين: فالله تعالى يهددهم بتولي الرسول عنهم، لأنهم لا

=

=

خير فيهم.

ثم قال: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} أي: ذكر الناس بآيات الله وبأيامه، وشرائعه وما أوجب الله على العباد. وبأيامه: عقابه تبارك وتعالى للمكذبين وإثابته للطائعين، لكن أطلق الله الذكرى وقال: {وذكر} ولم يقل: وذكر المؤمنين، لكن بين أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون فقال: {فإن الذكرى تنفع المؤمنين} لأن المؤمن إذا ذكر فهو كما وصفه الله ﷻ: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا} بل يقبلونها بكل رحابة صدر وبكل طمأنينة، وفي الآية الدليل على وجوب التذكير على كل حال، وفيها أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون، وأن من لا ينتفع بالذكر فهو ليس بمؤمن: إما فاقد الإيمان، وإما ناقص الإيمان، وهنا فتش عن نفسك: هل أنت إذا ذكرت بآيات الله وخوفت من الله ﷻ هل أنت تتذكر أم يبقى قلبك كما هو قاسيًا، إن كانت الأولى فاحمد الله فإنك من المؤمنين، وإن كانت الثانية فحاسب نفسك، ولا تلومن إلا نفسك، وعليك أن ترجع إلى الله ﷻ حتى تنتفع بالذكرى، وفي الآية دليل على أنه كلما كان الإيمان أقوى كان الانتفاع بالذكرى أعظم وأشد، وذلك من قاعدة معروفة عند العلماء، وهي: أن الحكم إذا علق بوصف ازداد بزيادته ونقص بنقصانه.

{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} أي ما أوجدتهم بعد العدم إلا لهذه الحكمة العظيمة، وهي عبادة الله تبارك وتعالى، وحده لا شريك له، واللام في قوله {ليعبدون} للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شرعي، أي لأجل أن يعبدون، حيث آمرهم فيمتثلوا أمري، وليست اللام هنا تعليلًا قدريًا، لأنه لو كان تعليلًا قدريًا للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية في خلق الجن والإنس، والجن عالم غيبي خلقوا من نار، لأن أباهم هو إبليس كما قال الله تعالى: {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو} فسموا جنًّا لأنهم

=

مستترون عن الأعين، حيث إنهم يروننا ولا نراهم، هذا هو الأصل أنهم عالم غيبي، لكن قد يظهرون أحيانًا، والأصل فيهم أنهم كالإنس منهم المسلمون، ومنهم غير المسلمين، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك، لكن الإنس يفضلونهم بأنهم أحسن منهم من حيث الابتداء، حيث إنهم خلقوا من الطين، من التراب، من صلصال كالفخار، وأما أولئك الجن فخلقوا من النار، كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: {وإذ صرفنآ إليك نفرًا من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين} فانظر إلى أدبهم في قولهم: أنصتوا ثم بقائهم حتى انتهى المجلس، ثم ذهبوا دعاة لما سمعوا، قالوا: {أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين} {قالوا يقومنآ إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى} إلى آخر الآية، وأما الإنس فهم بنو آدم البشر، هؤلاء خلقوا لشيء واحد، لعبادة الله، لا لأجل أن ينفعوا الله بطاعتهم، ولا أن يضروه بمعاصيهم، ولا أن يطعموه، ولهذا قال: {مآ أريد منهم من رزق ومآ أريد أن يطعمون} يعني ما أطلب منهم رزقًا أي

عطاءً أنتفع به، ولا أن يطعمون فأنتفع بإطعامهم، قال الله تبارك وتعالى: {قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السماوات والأَرض وهو يطعم ولا يطعم}، فهو سبحانه وتعالى له الجود والغنى والكرم وهو غني عما سواه، فالحكمة من خلق الجن والإنس العبادة، فلم يخلقوا لأجل أن يعمروا الأرض، ولا لأجل أن يأكلوا، ولا لأجل أن يشربوا، ولا أن يتمتعوا كما تتمتع الأنعام، وإنما خلقوا لعبادة الله، وخلق لهم ما في الأرض، فنحن مخلوقون للعبادة، وكل ما في الأرض مخلوق لنا، {هو الذي خلق لكم ما في الأَرض جميعًا} والعجب أن قومنا الآن اشتغلوا فيما خلق لهم عما خلقوا له، وهذامن السفه أن يشتغلوا بشيء خلق لهم، عن شيء خلقوا

=

من أجله. والعبادة تطلق على معنيين:

المعنى الأول: التعبد، يعني فعل العبد، فيقال: تعبد لله عبادة.

والثاني: المتعبد به، وهذا المعنى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فهي اسم جامع لكل شيء، فالصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر عبادة، وكل ما يقرب إلى الله من قول، أو فعل فإنه عبادة. {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} هو الرزاق يعني هو صاحب العطاء الذي يعطي، فالرزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه} أي: أعطوهم، وكلمة (الرزاق) أبلغ من كلمة (الرازق)؛ لأن (الرزاق) صيغة مبالغة تدل على كثرة الرزق، وعلى كثرة المرزوق، فرزق الله تعالى كثير باعتبار كثرة المرزوقين، فكل دابة في الأرض على الله رزقها، من إنسان وحيوان، ومن طائر وزاحف، ومن صغير وكبير، ولا يمكن أن نحصي أنواع المخلوقات على الأرض، ولو قلت لك أحص العوالم التي في الأرض ما استطعت، فضلًا عن أفرادها، فكل فرد منها فإن الله تعالى متكلف برزقه {وما من دآبة في الأَرض إلا على الله رزقها} فإذا كان الأمر كذلك صار رزق الله كثيرًا باعتبار المرزوق، مَن يحصي المرزوقين؟ لا أحد يحصيهم أبدًا، ورزقه كثير باعتبار الواحد، فكم لله عليك من رزق كثير لا يحصى، رزق الله لك دارٌّ عليك ليلًا ونهارًا، رزقك عقلًا، وصحة، ومالًا، وولدًا، وأمنًا وأشياء لا تحصى، {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}، ولهذا جاء اسم الرزَّاق بالتشديد الدال على الكثرة، وقوله: {ذو القوة} أي: صاحب القوة التي لا قوة تضادها، كما قال الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

=

=

فقوة الله ﷻ لا يضاهيها قوة، قوته ﷻ لا يعتريها ضعف، بخلاف قوة المخلوق، فقوته تنتهي إلى ضعف، كما قال الله تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} أما الرب ﷻ فقوته لا يلحقها ضعف بأي وجه من الوجوه، ولما قالت عاد: من أشد منا قوة؟ قال الله؟ {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً} وصدق الله ﷻ وقوله: {المتين} يعني الشديد، شديد في قوته، شديد في عقابه، شديد في كل ما تقتضي الحكمة الشدة فيه، انظر إلى قول الله تعالى: {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأَخر وليشهد عذابهما طآئفة من المؤمنين}. هذه شدة، والله ﷻ أرحم الراحمين، ومع ذلك ينهانا أن تأخذنا الرأفة، في الزانية والزاني {ولا تأخذكم بهما رأفة}، وهذا دليل على القوة، ومن قوته ﷻ أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يعِ بخلقهن، ومن قوته وقدرته أنه جل وعلا يبعث الناس كنفس واحدة {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة} والأمثلة على هذا كثيرة، فهو جل وعلا له القوة البالغة التي لا يمكن أن تضاهيها أي قوة.

(فائدة): ورثة الرسل من أهل الحق أهل السنة والجماعة سينالهم من أعداء الرسل ما نال الرسل؛ من ألقاب السوء والسخرية وما أشبه ذلك كما في قوله تعالى كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢). أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣).

فلم يتورع أهل الباطل في إطلاق مختلف الأسماء الذميمة والألقاب الباطلة على أهل الحق لينفروا الناس عنهم وعن عقيدتهم الصافية.

وهو نفس المسلك الذي كان عليه المشركون تجاه النبي ﷺ حيث أطلقوا عليه أنه ساحر شاعر مجنون... إلخ.

=

=

ورغم تلك الدعايات الكاذبة ضد الرسول ﷺ وضد أنصاره وأتباعه فإن الحق بقي دائمًا يتلألأ فوق رؤوسهم ويجذب الناس إليهم زرافات ووحدانًا وبقي الباطل وأهله في تقهقر وذلة. وسوف لا يزال الأمر كذلك. ولأهل السنة أسوة برسول الله ﷺ وما دام قد ظهر فضل أهل السنة واضحًا جليًا فإن ذامهم يدل على نقصه على حد ما قيل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ... فهي الشهادة لي بأني فاضل

كما أن سب الصالحين بغير ذنب فيه زيادة لهم في الأجر وفيه رفع لدرجاتهم عند الله تعالى وقد تلمس المخالفون للسلف حججًا واهية وأقوالًا كاذبة لفقوها ضد السلف وجاؤوا إلى أحسن الصفات عند السلف وجعلوها ذمًا لهم، وصدق من قال:

وكم من عائب قولًا صحيحًا... وآفته من الفهم السقيم

ولهذا فقد أصبح من علامات أهل البدع سبهم لأهل السنة والتشهير بهم واختراع الألقاب الباطلة لهم، بل لم يقف نبز أهل الباطل لأهل السنة فحسب بل تعدوا في باطلهم إلى نبز رب العالمين من حيث يشعرون أو لا يشعرون ذلك أن الله تعالى حينما أطلق على نفسه صفات وأوصافًا تمدح بها فإذا بأهل الأهواء يخترعون لها مفاهيم وأسماء باطلة شنيعة تنفر من يسمعها من اعتقادها إذا لم يكن على معرفة بأباطيلهم. والله تعالى وصف نفسه بصفات الكمال المعروفة فجاء هؤلاء وأطلقوا عليها لقب التشبيه والتجسيم والتمثيل ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فإذا بتلك الصفات الحميدة في مكان الذم وكذلك وصف الله نفسه بأن له وجهًا ويدين.. إلخ وسماها هؤلاء تركيبًا وتبعيضًا لا يليق بالله تعالى بزعمهم فقالوا: يجب أن ينزه الله عن التركيب والتبعيض ليصلوا إلى نفي صفاته، ووصف الله نفسه بأنه مستوٍ على العرش فسمى هؤلاء هذه الصفة تحيزًا وإثبات جهة محدودة

=

=

لله تعالى بزعمهم ومن هنا حولوها إلى كلمة (استولى) ، ووصف الله نفسه بصفات الأفعال من الكلام والنزول ونحو ذلك ويسمي هؤلاء هذه الصفات أفعالًا لا توجد إلا في المخلوق بزعمهم فقالوا للعامة: يجب أن ننزه الله عن صفات الأفعال التي هي حوادث وسموها أعراضًا والأعراض لا تليق بالله تعالى ومن هنا جاءهم مفهوم الإيمان الحقيقي بالله تعالى وبصفاته كما يزعمون فإذا هو أن ننزه الله تعالى عن التراكيب والتقسيم والأعراض والأغراض والتحيز والجهة وظن الجاهلون أن هؤلاء على شيء وأن ذلك هو ما يقتضيه تنزيه الله ولم يعلموا أن هؤلاء هم من أشد الناس إعراضًا عن الله تعالى وما يليق به ومن أشدهم محادة لرسوله ﷺ ولسائر المؤمنين وإتمامًا لمحاربتهم أهل السنة وتنفير الناس عنهم رأوا لزامًا أن ذلك لا يتم إلا بإطلاق الألقاب الشنيعة والمنفرة على أهل السنة فكان مثلهم كما قيل قديمًا (رمتني بدائها وانسلت) فقد ألقوا بالعيوب التي هم أحق بها ألقوا بها على أهل السنة كذبًا منهم وزورًا دون رادع من إيمان أو ضمير لكي ينتقص الناس أهل السنة بينما نجدهم قد تعاظموا أنفسهم واستكبروا ولهذا فقد أطروا أنفسهم بأسماء وبألقاب عديدة وزكوا أنفسهم والله تعالى يقول: فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ [النجم:٣٢] ظنًا منهم أن الحق وأهله سيندثرون وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [يونس:٨٢] وما تكفل الله بحفظه فلن يضيع أبدًا.

فمن الأسماء والألقاب التي أطلقها عليهم أهل الباطل نبزًا لهم:

١- المشبهة- النقصانية- المخالفة- الشكاك وتنبزهم بهذه الألقاب، الجهمية لإثباتهم صفات الله تعالى.

٢- الحشوية- النابتة أو النوابت- المجبرة المشبهة وتنبزهم بهذه الألقاب، المعتزلة والزنادقة وسائر أهل الكلام والخوارج.

٣- المجبرة أو الجبرية وتنبزهم بهما القدرية.

=

=

٤- الناصبة أو النواصب- العامة- الجمهور- المشبهة- الحشوية وتنبزهم بها الرافضة.

٥- المشبهة- المجسمة- الحشوية- النوابت- الغثاء- الغثراء وتنبزهم بها الأشاعرة والماتريدية.

وبهذا يتضح أن أهل الانحراف قد يتفقون وقد يختلفون في إطلاق بعض الألقاب الباطلة على أهل السنة والهدف بينهم مشترك:

١- فأما إطلاقهم عليهم مشبهة فقد تصور هؤلاء المبطلون أن السلف حينما أثبتوا تلك الصفات لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته لورودها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تصوروا أن هذا الإثبات يقتضي تشبيه الله بخلقه لأنهم لم يدركوا من دلالات هذه الأسماء إلا ما أدركوه من تعلقها بالمخلوق وفاتهم الفرق الذي لا يعلمه إلا الله بين الخالق والمخلوق. وقد أثبت السلف أن هذا التصور الخاطئ لتلك الطائفة هو الذي جعلهم بحق مشبهة وليس أهل السنة الذين لم يثبتوا فيها أي شبه بين الخالق والمخلوق إلا مجرد التسمية مع معرفة معنى الصفة والتفويض في الكيفية فإن أولئك لم ينفوها عن الله إلا بعد أن شبهوه بخلقه فأي الفريقين أولى بتسمية المشبهة أهل السنة أم أولئك أهل الباطل من الجهمية الذين هم أول من ولج باب التشبيه الخطير ونفى عن الله تعالى ما أثبت لنفسه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه العظيم ﷺ وشبهوه بالمعدومات حين أطلقوا عليه كل صفات السلوب ورموا أنبياء الله تعالى مثل موسى وعيسى ومحمدًا عليهم صلوات الله وسلامه بأنهم مشبهة في قول موسى كما حكى الله عنه أنه قال: إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ [الأعراف:١٥٥] وفي قول عيسى بن مريم: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة:١١٦] وفي قول محمد ﷺ: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) فإن كان الأنبياء مشبهة فمن هم المنزهة؟ لو كان لهؤلاء عقول سليمة وفطر مستقيمة

=

=

لما أقدموا على هذا المعتقد الباطل والذي يكاد أن لا يكون له نظير في جرأته وحماقته.

٢- وأما زعمهم أن أهل السنة نقصانية فلقولهم إن الإيمان يزيد وينقص فلا ريب أنهم يكذبون بهذا النبز قول الله ﷻ وقول نبيه ﷺ في إثبات زيادة الإيمان ولردهم النصوص الواردة في هذا حيث زعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأما أهل السنة فإنهم لا يختلف منهم اثنان في أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم مثل قوله تعالى وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال:٢]. وقوله تعالى: وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم:٧٦].

وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم كلها تثبت أن الإيمان يزيد وما قبل الزيادة قبل النقص حتمًا. ووردت أحاديث كثيرة أيضًا في هذا تؤكد كلها زيادة الإيمان ونقصه قال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان) وقال ﷺ: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

والأحاديث في هذا كثيرة وإنما المقصود التنبيه على صحة عقيدة السلف وبطلان عقائد المخالفين في قضية زيادة الإيمان ونقصه وأن تسمية السلف نقصانية تسمية خاطئة سببها الجهل. والسلف كلهم مطبقون على أن الإيمان يزيد وينقص ووردت عنهم روايات كثيرة تؤكد هذا، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (الإيمان يزداد وينقص). قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه) وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيمانًا فيذكرون الله ﷻ) إلى آخر النصوص المستفيضة عن السلف وعلى هذا فإن السلف أتوا بالكمال المطلوب

=

=

حسب ما أفادته النصوص فكيف يكونون نقصانية؟ وما النقصانية إلا من نقص عن العمل بالنصوص الشرعية وسرق مدلولاتها الواضحات كالجهمية المشبهة ومن تبعهم، وعلى كل حال فلا عبرة بقول أهل البدع أن السلف نقصانية لأنهم يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه فإنهم على الحق في هذا مستندين على ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإجماع سلف هذه الأمة كما ترى أخي القارئ الكريم.

ولولا أن المخالفين قد كابروا عقولهم وعاندوا ليتيقنوا من أنفسهم أن الإيمان يزيد وينقص كما يجده كل شخص من نفسه في مختلف الحالات فمن زعم أنه على حد سواء دائمًا في اتجاهه ورغبته ورهبته إلى الله فقد افترى على نفسه وأراد أن يغالطها فمن ذا الذي يكون على حالة واحدة طوال وقته ثم أليس كذلك أن من المسلمين به أن الناس يتفاوتون في إيمانهم وتصديقهم أيضًا حسب القرائن وما وقر في القلب من حب الله ﷻ وتصديق الأنبياء وهل يحق لأحد أن يزعم أن إيمانه وتصديقه مثل إيمان خير أصحاب محمد ﷺ مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان وأهل معركة بدر والمؤمنون الذين اتبعوه في ساعة العسرة. إن من زعم ذلك فقد جانب الصواب.

٣- وأما تسميتهم لأهل السنة مخالفة. فنعم أن أهل السنة مخالفة لأهل الأهواء والبدع بل ومعادية ويكفي أنهم من أشد الناس اتباعًا لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا قيمة لمخالفتهم أهل الأهواء وما يقصده هؤلاء من أن السلف مخالفة للحق فإنه اتهام باطل هم أحق به وليس أهل السنة فإن القول إذا لم تعضده الأدلة الصريحة الواضحة لا يسمى حقًا ولو زعم قائله أنه حق وهذه المخالفة لأهل البدع هي من أجمل المخالفات بل كانوا يتقربون بها إلى الله تعالى. ٤- أما تسميتهم لأهل السنة بالشكاك من قبل المرجئة فإنها تسمية ظالمة لأن السلف لم يشكوا في دينهم ولا في أخبار ربهم ونبيهم ولا في شيء ثبت بالكتاب والسنة فالمرجئة أولى بهذا النبز

=

=

لشكهم- بل لردهم- ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه العظيم ثم هم لا يملكون أي دليل على أن السلف تطرق إليهم الشك فيما يعتقدونه مما ثبت به النص وأما مجرد دعواهم أن السلف شكاك فليس بدليل كما أن زعمهم أن السلف يشكون في إيمانهم بسبب تجويزهم الاستثناء فيه فهذا بسبب عدم معرفتهم المقصود بكلام السلف حينما أجازوا الاستثناء وذلك أنهم لم يجيزوه على سبيل الشك في إيمانهم ولكنهم أجازوه على سبيل التواضع وعدم تزكية النفس المنهي عنه ثم لعلمهم أن الإيمان يشتمل الإتيان بكل الأعمال المأمور بها واجتناب كل الأعمال المنهي عنها وهذا باب واسع فخافوا أن يثبتوه على وجه الجزم ويكونون قد قصروا في جانب منه وبهذا يتضح أنه لا وجه لتسميتهم بالشكاك وربما يكون تجويزهم الاستثناء على سبيل التواضع لله تعالى ولا مانع من حصول كل ذلك.

٥- وأما بالنسبة لنبزهم لأهل السنة بأنهم حشوية:

فهو بمعنى أنهم حشو الناس أي لا قيمة لهم أو بمعنى أنهم يروون الأحاديث لا يميزون بين صحيحها وسقيمها سواء أكانت صحيحة أو ضعيفة أو موضوعة أو متعارضة أو بمعنى أنهم مجسمة لله تعالى بسبب إثباتهم صفات الله تعالى وعدم نفيها أو تأويلها فانظر أخي القارئ إلى هذه الجرأة للمعتزلة ومن شايعهم كيف يفترون الكذب على السلف ثم إذا كان خيرة الناس لا قيمة لهم ولا اعتبار بكلامهم فلمن تكون القيمة والاعتبار؟ ألمن اتبعوا أهواءهم وحاربوا الله وردوا كلامه بشبهات ملاحدة الفلاسفة وأهل الكلام الباطل؟ أم لمن اتبع هدي الله تعالى وآمن به ظاهرًا وباطنًا؟ ولكن ما الذي يضير أهل السنة من السلف احتقار هؤلاء لهم بعد أن أكرمهم الله وأثنى عليهم في كتابه الكريم وأثنى عليهم نبيه ووصفهم بالطائفة المنصورة القائمة على الحق إلى أن تقوم الساعة.

=

=

أما زعمهم أن السلف يروون الأحاديث كيفما اتفق فهي دعوى تدل على ضحالة معرفتهم بطريقة المحدثين وما امتازوا به من خدمة السنة من فحص الأحاديث وغربلتها كما يغربل الدقيق أو أشد.

وفحصهم كذلك لرجال الأسانيد فردًا فردًا حتى ليخيل للقارئ والسامع أنه ما من راوٍ للحديث إلا وكأنه قد عاش مع أهل السنة أهل الحديث في منزل واحد ومن تتبع طريقة السلف في رواية الأحاديث عرف عظم احتياطهم ومدى الجهود المباركة التي خدموا بها سنة نبيهم ﷺ وأما تجسيم الله تعالى فحاشا أن يكون السلف مجسمة بل هم أعداء المجسمة والمحاربين لهم فإن مذهب السلف هو الابتعاد عن إطلاق مثل هذه العبارات على الله تعالى لا نفيًا ولا إثباتًا حتى يستفسروا من قائلها لأنها تحمل معنى حقًا ومعنى باطلًا وعلى حسب ما يريد المتكلم بهذا يحكم السلف.

وعن تسمية أهل الباطل لأهل السنة حشوية يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده وذبه عنهم:

فقد تبين أن الذين يسمون هؤلاء وأئمتهم حشوية هم أحق بكل وصف مذموم يذكرونه وأئمة هؤلاء أحق بكل علم نافع وتحقيق وكشف حقائق واختصاص بعلوم لم يقف عليها هؤلاء الجهال المنكرون عليهم المكذبون لله ورسوله.

فإن نبزهم بالحشوية إن كان لأنهم يروون الأحاديث بلا تمييز فالمخالفون لهم أعظم الناس قولًا لحشو الآراء والكلام الذي لا تعرف صحته بل يعلم بطلانه.

وإن كان لأن فيهم عامة لا يميزون. فما من فرقة من تلك الفرق إلا من أتباعها من هو من أجهل الخلق وأكفرهم. وعوام هؤلاء هم عمار المساجد بالصلوات وأهل الذكر والدعوات والحجاج البيت العتيق والمجاهدون في سبيل الله وأهل الصدق والأمانة وكل خير في العالم فقد تبين لك أنهم أحق بوجوه الذم وأن هؤلاء أبعد

=

=

عنها وإن الواجب على الخلق أن يرجعوا إليهم فيما اختصهم الله به من الوراثة النبوية التي لا توجد إلا عندهم.

٦- وأما نبزهم لأهل السنة بأنهم نوابت بمعنى أن أهل السنة يشبهون نوابت الأشجار الصغيرة.

أي أنهم صغار في العلم والمعرفة كصغار النوابت من الأعشاب التي لم تكتمل قوتها ونضجها.

أو أنهم نوابت شر نبتوا في الإسلام مبتدعين فيه مغيرين له بزعمهم، فإن هذا النبز من الافتراءات الكاذبة على أهل السنة الذين هم أساس العقيدة وحماتها الذين تربوا على فهمها والعمل بها ولم يعرفوا أو يعملوا بغيرها مما جاءت به الفلسفات الإلحادية وعلم الكلام الباطل، والحقيقة أن نبزهم لأهل السنة بهذا الاسم يصدق عليه أنه من باب قلب الحقائق والمغالطات المكشوفة.

فإن الأحق بتسمية النوابت هم أهل الكلام المذموم والفلسفات الباطلة الذين نبتوا دون علم مسبق بالكتاب والسنة وإنما نبتوا على علم الكلام وأنواع الفلسفات المنحرفة التي لم تعرف عند المسلمين إلا بعد أن نبت هؤلاء فيهم.

وتسلطوا على معاني النصوص فعطلوها عن مدلولاتها وقالوا: إن الله ليس له سمع ولا بصر ولا علم ولا استواء، إلى آخر أوصافهم السلوبية التي مفادها في النهاية إنكار وجود الله تعالى الذي تضمنه قولهم: أن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا يحس ولا يشم ولا يشار إليه.. إلخ.

مما جرأ الملاحدة على القول بأنه لا فرق بين المنكرين لوجود الله تعالى والواصفين له بتلك الصفات الجهمية الاعتزالية التي تدل أخيرًا على إنكار وجوده سبحانه وأنه لا مكان له إلا في الذهن وافتراضاته الخيالية إذ أن شيئًا ليس هو فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا يحس ولا يشم ولا يشار إليه أمر لا

=

=

يقبله عقل ولا يقره منطق.

٧- أما نبزهم لأهل السنة بأنهم جبرية أو مجبرة أو قدرية فإنه بالتأمل في مذهب القدرية والجبرية وأهل السنة، يتبين الحق من يستحق اسم الجبرية أهل السنة أم المبتدعة من خلال معرفة ما يلي:

١- مذهب القدرية المحتجون بالقدر على الله تعالى وهم المشركون.

٢- مذهب الجبرية.

٣- مذهب أهل السنة.

- فالقدرية المحتجون بالقدر هم الذين يزعمون رضى الله عن كل عمل يعملونه ويحتجون على الله بالقدر والمشيئة فيقولون قدر الله علينا فكيف يعاقبنا؟.

قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ [النحل:٣٥] الآية.

ومقصودهم أن الله تعالى لو كان يكره ما هم عليه من الشرك والسلوك لغيّر ذلك وعاقبهم ولكنه قد شاءه ورضيه وبذلك فلا عقوبة عليهم لأن الله قدره عليهم وجبرهم عليه لمشيئته النافذة له.

وفي مقابل هؤلاء جاءت فرقة أخرى تنفي أن يكون لله تعالى أي أثر في فعل الإنسان تركًا أو فعلًا بل الإنسان هو الذي يخلق فعله كما يريد.

وقد وصل الغلو بهؤلاء إلى القول: "بأن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها وإن ما يفعله العباد أيضًا" لا يعلم به إلا بعد وقوعه فلا تأثير له في أي فعل يفعله العبد وهذا مذهب غلاة القدرية وقد انقرضوا فيما يذكره عنهم العلماء إلا أن المتأخرين منهم يثبتون علم الله بالأشياء قبل وقوعها ولكنه لا يتدخل في أعمال البشر بل هم الذين يخلقونها كما يريدون فهؤلاء القدرية (المعتزلة) هم نفاة القدر عن الله تعالى وهم ومن سبقهم على ضلال.

=

=

وأما الجبرية: فهم على النقيض من مذهب القدرية في أفعال العباد لأن المعتزلة القدرية لا يقولون بأن الله قدر على العبد فعله ولا جبره عليه فسلبوا عنه القدرة.
بينما الجبرية على النقيض من ذلك يقولون كل عمل يعمله العبد فإنه مقدر عليه من الله ومجبور على فعله فهو كالريشة في مهب الريح فإن الله هو الفاعل الحقيقي بقوته وليس للعبد إلا نسبة الفعل إليه عن طريق المجاز، كما يقال تحركت الشجرة ونحو ذلك فسلبوا عن العبد القدرة والمشيئة التي أخبر الله تعالى عنها وجعلوا العبد أشبه ما يكون بالجماد المسير من غيره وإذا كان مذهب القدرية والجبرية هو ما تقدم فإن مذهب السلف بخلاف ذلك كله ومعنى هذا أنهم لا تصح تسميتهم لا قدرية ولا جبرية.
فإن معتقد أهل الحق أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد تنسب إليهم حقيقة فإذا صلى أو صام أو سرق أو زنى فهو فعله حقيقة وأيضًا بمشيئته التي لا تخرج عن إطارها العام عن مشيئة الله تعالى لها وخلقه لها كونًا ولو شاء الله لما تمكن العبد من أي فعل فالله هو الخالق الحقيقي لها والعبد هو الفاعل الحقيقي لها بتمكين الله له مع ملاحظة الفرق بين مشيئة الله الكونية والشرعية.
ويتضح من خلال ما تقدم ما يذكره أهل السنة من أن الجبرية أصابوا في قولهم أن الله هو الخالق لأفعال العباد بقدرته الكونية وأن القدرية أصابوا أيضًا في قولهم أن العبد هو المتسبب في فعله وبقدرته وهو مسؤول عنه ولكن الخطأ في قول الجبرية يكمن في زعمهم أن العبد لا فعل له ولا قدرة له وإنما هو مجبور والفاعل هو الله تعالى وأما الخطأ في قول القدرية فيكمن في قولهم أن العبد هو الذي يخلق فعله بقدرته وإرادته دون أن يكون لله تعالى تدخل في ذلك والحق في ذلك كله هو ما هدى الله إليه أهل طاعته كما سبق مستدلين بقوله تعالى: وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ [الإنسان:٣٠] وقوله تعالى: وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

=

=

[البقرة:٢٥٣] وغير ذلك من الآيات.

٨- وأما نبزهم للسلف بأنهم ناصبة فقد كذب الرافضة وافتروا أن يكون أي شخص من السلف قد نصب العداوة لأهل البيت أو للرسول ﷺ وأهل بيته ابتداءً بعلي رضي الله عنه ثم جميع أهل البيت وهذا النبز دلالة قاطعة على جهل الرافضة بمذهب السلف في أهل البيت لأنهم لم يقرؤوا لهم ولم يطلعوا على كلامهم ومعتقدهم فيهم فأيهما أولى بهذا النبز الرافضة الذين نصبوا العداوة لكل المسلمين ابتداءً بالصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان وبأهل البيت الذين لاقوا المصائب المتتالية عليهم بسبب مؤامرات الرافضة وخذلانهم لهم في أكثر من موقف والشواهد على هذا أكثر من أن تحصر.

أيهما أولى بهذا النبز هؤلاء أم السلف الذين يترضون عن كل واحد من أهل البيت ما دام صالحًا ويفضلونه على غيره بتلك الصفة ويقدمونه ولا يتبرؤون من أحد من المسلمين ما دام على الإسلام والتزام القرآن والسنة وقاعدة الرافضة "لا ولاء إلا ببراء" من أكبر الأدلة على بغضهم خيرة الصحابة الكرام وجرأتهم على تكفيرهم مخالفة لما ثبت من فضلهم في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ.

٩- وأما نبزهم لمن عداهم من السلف وسائر المسلمين بالعامة فهو لقب تشنيع في مقابل تسميتهم لأنفسهم الخاصة وهذه التزكية الكاذبة لأنفسهم شابهوا فيها اليهود الذين سموا أنفسهم شعب الله المختار وسموا من عداهم بالجوييم فهل هؤلاء الباطنية هم خاصة الله بينما أحباءه ومتبعي أمره ونهيه هم العامة؟ الذين لا اعتبار بهم ولا قيمة لهم؟ بل أيهما العامل رجل متبع للنصوص الثابتة الموافقة للحق والعقل أم رجل متبع لهواه متدين بالخرافة يصدق ما لا يصدقه عاقل من الغلو في أشخاص مثلهم مثل غيرهم من البشر الذين قال الله فيهم إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات:١٣]

=

=

وهذه التسمية لمن عداهم بالعامة هي مثل تسميتهم لمن عداهم بالجمهور ومن العجيب أن يحكموا على كل المسلمين بصفة واحدة بينما يقابل تلك التسمية تسمية واحدة لهم "الخاصة" الدالة على تعاليهم وغرورهم وقد أخبر النبي ﷺ أن أمته لا تجتمع على ضلالة فكيف اجتمع المسلمون كلهم على الضلالة ولم يخرج عنها إلا هؤلاء الروافض الذين يكفرون أصحاب النبي ﷺ ويتهمون أم المؤمنين وينتظرون مهديًا خرافيًا يأتي بقرآن غير القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ويزعمون أن الأئمة يعلمون الغيب ولا يموتون إلا باختيارهم إلى غير ذلك من العقائد التي جمعها الكليني في كتابه الذي يقدسونه (الكافي) وغيره من كتبهم التي تدل على تطاولهم على سائر المسلمين دون أي دليل من عقل أو نقل غير ما زين لهم من سوء معتقداتهم المعبرة عن جهلهم وبعدهم عن سبيل المؤمنين وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا [النساء:٣٨].

١٠- وأما نبزهم لأهل السنة بأنهم مجسمة لإثباتهم صفات الله تعالى كما جاءت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة.

فهو نبز أبان عن جهلهم بحقيقة عقيدة السلف وأبان عن قصورهم في الفهم السليم لنصوص الوحيين فإن لفظ التجسيم عند السلف هو من الألفاظ التي يجب التحرز منها عند إطلاقها على الله تعالى ولا بد أن نسأل من أطلقها عن مراده بالجسم فإن أراد بإطلاق الجسم على الله معناه في لغة العرب من أنه يوصف بصفات ويرى بالأبصار ويتكلم ويسمع ويبصر ويرضى ويغضب وأنه مستو وأنه تصح الإشارة إليه ويصح أن يسأل عنه بأين وأن له وجهًا ويدين فإطلاق الجسم بهذا المعنى صواب مع أن القائل مخطئ في إطلاق هذه العبارة التي أحدثها علماء الكلام وليكتف بالألفاظ الشرعية مثل ليس كمثله شيء وله المثل الأعلى وقل هو الله أحد وغير ذلك.

=

=

وإن أراد بإطلاقه نفي الجسم عن الله تعالى أنه ليس جسمًا مثل سائر الأجسام التي تتكون من أجزاء متفرقة فهو صواب فإن الله تعالى ليس كمثله شيء ومع تصويبه فإنه مخطئ في إطلاق هذه العبارة التي أحدثها علماء الكلام فإنه لم يعهد عن السلف أن أطلقوا لفظ الجسم على الله لا نفيًا ولا إثباتًا فإن كان ولا بد من إطلاقها فلتكن بالألفاظ الشرعية التي تدل على تنزيه الله تعالى على الإطلاق مثل ليس كمثله شيء وقل هو الله أحد وله المثل الأعلى وغير ذلك من الألفاظ العامة المشتملة على التنزيه الصحيح كما تقدم وأما إن أريد بهذا الإطلاق نفي الجسمية عن الله تعالى بمعنى نفي صفاته الثابتة بالكتاب والسنة كالاستواء والنزول والوجه والسمع والبصر إلى آخر صفاته ﷻ- وهو ما يهدف إليه علماء الكلام فهذا النفي باطل بهذا المعنى لأن إثبات هذه الصفات لا يلزم منه وقوع التشبيه الذي حذره هؤلاء المبطلون بزعمهم فإن تصور إثبات الصفات أنه يقتضي التشبيه هو نفس التشبيه المذموم فإن النافي للصفات لم ينفها إلا بعد أن أصبح مشبهًا فيها فوقع في الخطأ الذي جره إلى خطأ أكبر منه وهو إثبات ذات خالية عن الصفات وهو أمر لا يمكن وقوعه إلا في تخيلات الذهن وهي تخيلات فاسدة وأما في خارج الذهن فلا يمكن وجودها.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"فمن قال أنه جسم وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل" أن الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته، فمن أثبت لله مثلًا في شيء من صفاته فهو مبطل، ومن قال أنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ومن قال أنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ولا ترفع الأيدي إليه في الدعاء ولا عرج بالرسول ﷺ إليه ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا تعرج الملائكة والروح إليه

=

=

فهذا قوله باطل وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله وقال إن هذا تجسيم فنفيه باطل وتسمية ذلك تجسيمًا تلبيس منه فله إن أراد أن هذا في اللغة يسمى جسمًا فقد أبطل وإن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسمًا مركبًا من الجواهر الفريدة أو من المادة والصورة أو إن هذا يقتضي أن يكون جسمًا والأجسام متماثلة، قيل له، أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة وفي أنها مركبة فلا يقولون أن الهواء مثل الماء ولا أن الحيوان مثل الحديد والجبال فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلًا لخلقه إذا أثبتوا له ما أثبت له الكتاب والسنة والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله تعالى وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد:٣٨]. مع أن كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال إذا كان لرب السماوات علم وقدرة أن يكون مماثلًا لخلقه والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ومن قال إن السلف مجسمة فقد افترى عليهم لأنهم من أبعد الناس ومن أشدهم تحذيرًا من إطلاق العبارات التي فيها حق وصواب وانحراف وبطلان ومنها إطلاق الجسمية على الله تعالى فإن السلف يمنعون منعًا قاطعًا من إطلاقها على الله تعالى ولكن في حال إطلاقها يقيدونها بما سبق أن عرفته فكيف يصح وصفهم بعد هذا بأنهم مجسمة؟ وهل يصح أن يوصف النافي للشيء بأنه مثبت له؟.

١١- وأما نبزهم لهم بأنهم غثاء وغثراء فهو بمعنى أن أهل السنة هم كالغثاء الذي يحمله السيل عند انحداره وكما ورد في الحديث (ولكنكم غثاء كغثاء السيل).

والغثاء بمعنى سفلة الناس وأراذلهم والمعنى بهذا النبز الباطل أن أهل السنة هم سفلة الناس الذين هم كزبد السيل أي لا خير فيهم ولا نفع. وهذه مغالطة ظاهرة وظلم واضح ويستطيع أي شخص أن يتبين صحة هذا حينما يتصور أن الناس بعد وفاة الرسول ﷺ ظلوا على الهدى الذي تركهم عليه المصطفى إلى أن نبتت

=

=

الدعوات الهدامة والآراء الضالة بسبب ترجمة كتب اليونان واستعلاء الأهواء فأي الفريقين يستحق هذا اللقب الذين بقوا على الحق ولا يزالون عليه وهو الأصل في المسلمين أم الذين انحرفوا وأخذوا بآراء اليونان وفلاسفتهم؟ وقد دخل الصحابي عائذ بن عمرو على عبيد الله بن زياد فقال أي بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم فقال له اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ فقال عائذ رضي الله عنه: وهل كانت لهم نخالة إنما النخالة كانت بعدهم وفي غيرهم.

١٢- وقد نبزوهم أيضًا بتسميتهم زوامل أسفار تشبيهًا لهم بالجمال التي يحمل عليها وأصحاب أقاصيص وحكايات وأخبار وكل هذه الأوصاف هم منها براء.

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ... فهي الشهادة لي بأني فاضل

وفي الرد عليهم يقول أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني رحمه الله "وفي الحقيقة ما ثلموا إلا دينهم ولا سعوا إلا في هلاك أنفسهم وما للأساكفة وصوغ الحلي وصناعة البز وما للحدادين وتقليب العطر والنظر في الجواهر أما يكفيهم صدأ الحديد ونفخ في الكير وشواظ الذيل والوجه وغيرة في الحدقة وما لأهل الكلام ونقض حملة الأخبار ". وهذا النقد يذكر القارئ بالمقالة المشهورة بين عامة الناس "رحم الله امرأ عرف قدره فوقف عنده".

ويصدق كلام السمعاني في اقتحام هؤلاء لما لا يحسنونه ما قرروه في عقائدهم من المتناقضات والجهل الشنيع من حيث ظنوا أنهم وصلوا إلى العلم الغزير فكانوا مثل التي نقضت غزلها بعد إحكامه في كل مرة أو من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وقد قال عنهم من تبين له خطر ما هم عليه من العقائد الفاسدة: يا ليتني أموت على دين أمي أو نحوه من الكلام الذي يتحسر فيه على ما فات من سني عمره التي قضاها في الاشتغال بعلم الكلام

=

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩).

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} أَنْفُسهمْ بِالْكُفْرِ مِنْ أَهْل مَكَّة وَغَيْرهمْ {ذَنُوبًا} نَصِيبًا مِنْ الْعَذَاب {مِثْل ذَنُوب} نَصِيب {أَصْحَابهمْ} الْهَالِكِينَ قَبْلهمْ {فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} بِالْعَذَابِ إنْ أَخَّرْتهمْ إلَى يَوْم الْقِيَامَة.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠).

{فَوَيْل} شِدَّة عَذَاب {لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ} فِي {يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة[1].

=

وفلسفة اليونان.

(١)قوله تعالى: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ} [الذاريات: ٥٩]، أي:" فإن للذين ظلموا بتكذيبهم الرسول محمدًا ﷺ نصيبًا من عذاب الله نازلا بهم مثل نصيب أصحابهم الذين مضَوْا من قبلهم".

قال الطبري: يقول:" فإن للذين ظلموا من عذاب الله نصيبا وحظا نازلا بهم، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا من قبلهم من الأمم، على منهاجهم من العذاب".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ} [الذاريات: ٥٩]، وجوه:

أحدها: عذابًا مثل عذاب أصحابهم، قاله قتادة، وعطاء.

الثاني: يعني: سجلا من العذاب. قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

عن مجاهد: "{ذَنُوبا}، قال: سجلا".

قال قتادة:" سجلا من عذاب الله".

قال ابن زيد:" يقول: لهم سجل من عذاب الله، وقد فعل هذا بأصحابهم من قبلهم، فلهم عذاب مثل عذاب أصحابهم فلا يستعجلون".

=

=

الثالث: طَرَفا من العذاب. قاله إبراهيم.

الرابع: يعني بالذنوب: الدلو، قاله ابن عباس، والحسن،قال الشاعر :

لَنا ذَنُوبٌ وَلكُمْ ذَنُوبُ... فإِنْ أَبَيْتُم فَلَنا الْقَلِيبُ

قال الحسن:" دلوا مثل دلو أصحابهم".

قال الماوردي:" ولا يسمى الذنوب دلوًا حتى يكون فيه ماء".

وقال الحسن:" دولة مثل دولة أصحابهم".

الخامس: يعني بالذنوب: النصيب، قاله أبو عبيدة. واستشهد بقول علقمة بن عبدة :

وفى كل يوم قد خبطت بنائل... فحقّ لشأش من نداك ذنوب

قال الزجاج:" «الذَّنُوب» -في اللغة- النصيب، و «الدلو»، يقال لها: الذنوب. المعنى: فإن للذين ظلموا نصيبًا من العذاب مثلَ نَصيبِ أصْحَابِهم الذين أهلكوا نحو عاد وثمود وقوم لوط".

قال ابن قتيبة:" «الذَّنوب»: الحظ والنصيب. وأصله: الدَّلْوُ العظيمة. وكانوا يَسْتَقون فيكون لكل واحدٍ ذنوبٌ. فجُعل «الذَّنوب» مكان «الحظ والنصيب»: على الاستعارة".

قال الطبري: المعنى:" فإن للذين أشركوا بالله من قريش وغيرهم ذنوبا، وهي الدلو العظيمة، وهو السجل أيضا إذا مُلئت أو قاربت الملء، وإنما أريد بالذنوب في هذا الموضع: الحظّ والنصيب".

قال الماوردي: "ويعني بأصحابهم من كذب بالرسل من الأمم السالفة ليعتبروا بهلاكهم".

قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} [الذاريات: ٥٩]، أي:" فلا يستعجلون بالعذاب، فهو آتيهم لا محالة".

=

=

قال ابن كثير:" أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة".

قال الطبري: يقول:" فلا يستعجلون بالعذاب".

قال الزجاج:" أي: إن أُخِّرُوا إلى يَوْمِ القيامَةِ".

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)} [الذاريات: ٦٠]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فالوادي السائل في جهنم من قيح وصديد للذين كفروا بالله وجحدوا وحدانيته من يومهم الذي يوعدون فيه نزول عذاب الله إذا نزل بهم ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد".

قال الماتريدي:" وهو يوم القيامة".

قال ابن كثير:" يعني: يوم القيامة ".

قال النحاس:" أي: يوعدون فيه بنزول العذاب".

قال الشوكاني:" قيل: هو يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها".

قال السعدي:" وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى -نعوذ بالله منه-".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فإن للذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون} أي: الذين ظلموا بالكفر لهم {ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم} والذنوب في الأصل هو الدلو، أو ما يستقى به، وشاهد ذلك قوله ﷺ: «أريقوا على بوله ذنوبًا من ماء» والمعنى: هؤلاء الظالمون لهم نصيب مثل نصيب من سبقهم {فإن للذين ظلموا ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم} أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم، وانظر كيف سمى الله تعالى السابقين بأزمان بعيدة أصحابًا لهؤلاء،
=

=

وذلك لاتفاقهم في التكذيب، ورمي الرسل بما لا يستحقون، فهم أصحاب في الواقع وإن تباعدت الأزمان والأماكن {فلا يستعجلون}، النون هنا مكسورة على أنها نون الوقاية وحذف الضمير: الياء، وأصله فلا يستعجلوني، فحذفت الياء تخفيفًا، ولهذا لا يشكل على الإنسان فيقول: كيف كانت النون مع أن (لا) ناهية؟ والجواب أن نقول: هذه النون ليست نون الإعراب، ولكنها نون الوقاية، فالفعل إذًا مجزوم، والنون للوقاية، والياء التي هي المفعول محذوفة، وفي قوله: {فلا يستعجلون} تهديد واضح أن هؤلاء سيأتيهم العذاب لا محالة، ولكن لا يستعجلون الله ﷻ لأن الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» وتلا قوله تعالى: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}.

{فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} ويل: بمعنى الوعيد والعذاب، يعني أنه يتوعدهم ﷻ من هذا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة؛ لأنهم سيجدون ما أرسل إليهم حقًّا، وسيجدون الذل والعار {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}. {ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا}. فيكونون من بين هذا العالم- نسأل الله العافية- على هذا الوجه، ولهذا قال: {فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} وسيكون هذا اليوم يومًا عسيرًا عليهم، لأنهم كفرة والعياذ بالله.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ- قوله تعالى: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ❁ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) (الذاريات: ٥- ٦)، وفي الطور: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ❁ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) (الطور: ٧- ٨)، وفي المرسلات: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) (المرسلات: ٧)، للسائل أن يسأل عن موجب اختلاف العبارة عما وقع القسم عليه؟ وما جُووب به مع أن المراد بذلك كله الجزاء الأخراوي؟

=

=

والجواب، والله أعلم: أن سورة الذاريات تقدمها في سورة ق إخباره سبحانه بالعودة الأخراوية وإقامة البرهان على ذلك لمن وفق لاعتباره فقال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)، إلى قوله: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ٦- ١١)، ثم أعقب بذكر مكذبي الأمم وما حق عليهم من الوعيد الأخراوي بعد أخذ كل منهم في الدنيا بذنبه، ثم استمرت آي هذه السورة على هذا المنهج من ذكر البعث وحصر أعمال المكلفين وكتبها عليهم، مع علمه سبحانه بما توسوس به نفوسهم ووقوع الجزاء على ذلك، غفلة المكذب عن ذلك كله حتى يكشف له الغطاء فيشاهد ما لم يكن يحتسبه، أعقب بإزلاف الجنة للمتقين ووصفهم بما منحهم ووعدهم عليه، ثم أعقب بأمر نبيه ﷺ بالصبر والتزام ما أمره به، وأن يذكّر بالقرآن المستجيبين الخائفين وعيده سبحانه، فلما اشتملت السورة على أوعاد وجزاء أعقبت بالقسم على ذلك، من صدق وعده سبحانه ووعيده، ووقوع الحساب على الأعمال، فقال تعالى: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا) (الذاريات: ١) إلى قوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) (الذاريات: ٥- ٦)، وتناسب النظم في ذلك كله أبين تناسب.

أما سورة الطور فالقسم فيها مرتبط بما أتصل به ووقع عليه القسم من قوله تعالى خاتمة سورة الذاريات: (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) (الذاريات: ٥٩- ٦٠) فأتبع قسمًا على هذا بقوله: (وَالطُّورِ) (الطور: ١) إلى قوله: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) (الطور: ٧- ٨).

وأما قوله في سورة المرسلات: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) فمرتبط بما بنيت عليه سورة الإنسان، فإنها بجملتها درات آياتها وجرت على ما به ختمت من قوله تعالى: (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الإنسان: ٣١)،

=

=

فتحصل مجرد وعد ووعيد، ولم تخرج السورة عن ذكر الفريقين ممن وعد وتوعد، فناسب ذلك قوله تعالى جوابًا للقسم: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) فجاء كل من المواضع الثلاثة على ما يناسب، ولا يلائم النظم في ثلاثتها غير ما ورد عليه، والله أعلم.

الآية الثانية- قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) (الذاريات: ١٥- ١٧) إلى قوله (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات: ٢٣)، وفي سورة الطور: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) (الطور: ١٧) إلى قوله: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الطور: ١٩). للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الإخبار عن أهل الجنة في هاتين السورتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن هاتين السورتين اتحدتا في القصد من وعيد كفار قريش والعرب ذوي العناد والتكذيب والإخبار بجزائهم الأخراوي، فعلى هذا مبنى السورتين، ولهذا افتتحتا بالقسم على ذلك كما تقدم، والموعود به فيهما جزاء فريقي السعادة والشقاء، وإليه الإشارة بقوله: (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)، وهو حساب الكل وجزاؤهم بما سلف من جميعهم من خير أو شر. فلم يكن بد من ذكر أهل النعيم ذوي الاستجابة والتصديق للرسل، والإخبار بحال الفريقين على ما هو الجاري المطرد في الكتاب العزيز، أعني أنه إذا ذكر حال المكذبين أتبع بحال المصدقين، أو ذكر حال ذوي الاستجابة والتصديق) بحال من كان على الضد منهم، وهذا قانون مطرد، فلمجموع هذين: من أن الكل هم المرادون بمقتضى قوله تعالى: ((إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) (الذاريات: ٥- ٦)، وأنه إذا ذكر أحد الفريقين أتبع بذكر الفريق الآخر، فلهذا ما ذكر فريق المتقين وجزاؤهم مع أن مبتى السورتين على ما ذكر، فبدئ فيهما بذكر حال المعاندين،

=

=

وبذلك ختمت كل سورة منهما، ثم ذكر بعد المبدو به في السورتين حال المتقين، ونص في السورة الأولى على أسنى أعمالهم وأجل ملتزماتهم المستتبعة لما (سواها) من سائر أعمالهم المترتب عليها جزاؤهم فقال تعالى: (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات: ١٦ - ١٩)، فذكرهم الله تعالى بالإحسان، وقيام الليل، والاستغفار بالأسحار، والمساهمة في أموالهم للسائل والمحروم، وكأن هذه أمهات اقتصر منا عليها، وأمعن في الثانية بذكر الجزاء وضروب النعم. في مجموع السورتين الوفاء بذكر أعمالهم وجزائهم فقيل في الأولى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) (الذاريات: ١٥ - ١٦) فهذا من ذكر جزائهم الموفى في الثانية معظمه في قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) (الطور: ١٧) في آيات إلى قوله: (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) (الطور: ٢٨)، وحصل في هذا استيفاء كثير من جزائهم. وفي السورة قبل ما عليه يترتب ذلك من أعمالهم، فارتبطت الآيتان، (وتبين) أنه لا اختلاف بينهما. وفي ختم كل واحدة من السورتين بمثل ما به بدئت إشعار ببنائهما على (كل) ما قدمنا من وعيد من ذكر، وأن ما ذكر فيهما من حال أهل الجنة أعمالًا وجزاء فلما قدم ذكره من الارتباط بين الجزاءين في آي الوعد والوعيد متى ذكر أحدهما، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة- وهي من تمام ما قبلها- وذلك قوله تعالى: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات: ١٩)، وفي سورة الحج: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (المعارج: ٢٤ - ٢٥)، يسأل عن وجه زيادة الصفة في سورة المعارج من قوله: (معلوم) وسقوط ذلك في الذاريات؟ وهل كان يناسب عكس الوارد؟

=

=

والجواب، والله أعلم: أن آية المعارج قد تقدمها متصلًا بها قوله تعالى: (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) (المعارج: ٢٢)، والمراد بالصلاة هنا المكتوبة، وأيضًا يقرن بها في آي الكتاب الزكاة المفروضة، وبها فسر المفسرون الحق المعلوم في آية المعارج. قال الزمخشري لنها مقدرة ملعومة. قلت: وليس في المال حق مقدر معلوم وقتًا ونصابًا ووجوبًا غيرها، فلما أريد بالحق هنا الزكاة أتبع بوصف يحرز المقصود، ولما قصد في آية الذاريات غير هذا المقصد بدليل ما تقدمها من قوله تعالى: (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الذاريات: ١٦- ١٨)، فوصف هؤلاء بطول صلاتهم وتهجدهم ومداومتهم الاستغفار في الأسحار، فذكروا بزيادة من التطوع والنفل على ما فرض عليهم و (من الزيادة في أعمالهم على ما فرض عليهم) مما يعد تاركه إذا تركه مهملًا، (فناسب هذا) الإطلاق الوارد في إنفاقهم ليفهم الزيادة على ما فرض عليهم من الزكاة المقدرة، ولم يكن ليناسب هنا الإشارة إلى قدر المنفوق كما في سورة المعارج، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، فورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الرابعة قوله تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الذاريات: ٥٠- ٥١)، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر قوله تعالى: (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)؟ وعن الإنذارين: في التوجه له سبحانه في كل المطلوبات وعتماد تلقي كل من عنده، ومن أن يشرك به سبحانه أو يعبد معه سواه؟ فعلى هذين الضربين ورد التحذير والإنذار، وهما الواردان في قوله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) (النساء: ٣٦)، فأمر سبحانه بعبادته وأن لا يعبد معه غيره.

والجواب: أنه سبحانه لما قدم من المعتبرات الدالة على وجوده تعالى، وانفراده

=

=

بالإيجاد والخلق ما قدم في السورة قبلها من قوله: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) (ق: ٦) إلى قوله: (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (ق: ٨)، ثم قال: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا) (ق: ٩) إلى قوله: (رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ١١)، ثم ذكر تعالى أخذه للمذكبين من القرون السالفة فقال: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) (ق: ١٢) إلى قوله: (فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق: ١٤)، ثم ذكر تعالى أنه خلق الإنسان، وعلمه تعالى بما توسوس به نفسه، وقربه تعالى منه قرب العلم والإحاطة لا قرب المكانية والمسافة، ثم ذكر إحصاء الحفظة على المكلفين ولزومهم إلى موت الإنسان وبعثه، ومجيء كل نفس في القايمة معها سائق وشهيد، ولم يقع عدول عن هذه الإنذارات والإخبارات الأخراوية والاعتبارات الجلية إلى قوله تعالى (إعلامًا) لنبيه ﷺ بمقال المدعويين وأمرا له بتذكيرهم بالقرآن فقال: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (ق: ٤٥)، ثم أقسم تعالى على صدق تلك المواعد والإخبارات فقال تعالى: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا) (الذاريات: ١) إلى قوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) (الذاريات: ٥ - ٦)، ثم سؤالهم عن يوم الحساب سؤال استهزاء واستعجال تكذيب فقال: (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) (الذارات: ١٢)، إلى ذكر حالهم وحال المتقين، والإشارة إلى جزاء الفريقين، ثم أعقب بذكر الآيات في الأرض وفي أنفسنا وأن رزق العباد وما يوعدون في السماء، وأقسم تعالى على ذلك بقوله: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات: ٢٣)، ثم اعترض سبحانه بذكر ضيق إبراهيم وقصتهم، ثم عطف على التذكار والتنبيه المتقدم في قوله: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)، وقال: (وَفِي مُوسَى...) (الذاريات: ٣٨)، فذكر إرساله، وأخذ فرعون وجنوده بتكذيبهم، ثم ذكر عادًا وأخذها، وثمود، وقوم

=

سُورَةُ الطور(١)

=

نوح، واقتصر على ذكر تكذيبهم وأخذهم نبيهًا بأوالهم مرتبطًا بأول التنبيه بقوله: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (ق: ٦- ٨)، وارتبط أول التنبيه بآخره معقبًا بقوله: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) (الذاريات: ٤٧- ٤٨)، فهذا من تمام قوله: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ...) (ق: ٦). وقد ورد أثناء ذلك قوله فيمن أشرك به سبحانه قوله: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) (ق: ٢٤- ٢٥) إلى قوله: (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) (ق: ٢٦)، فلما حصل التنبيه بعدة آيات وأوضح بينات على انفراده سبحانه، وحصل ذكر من أشرك به، واتصل ذلك ولم ينقطع بعضه من بع، أعقب بقوله: (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) (الذاريات: ٥٠) المنفرد بخلقكم وإيجادكم، والمنعم عليكم بما أنعم من واضح الأدلة عليه سبحانه: (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الذاريات: ٥٠) أي من عذابه وأخذه كما فعل بمن كذب قبلكم، مبين بما أوضح لكم من البراهين (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الذاريات: ٥١)، فقد تبين ارتباط كل من الآيتين بما تقدم، وأن الثانية مؤكدة للأولى. وورد ذلك على أتم مناسبة، والله أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٤٨-٤٥٢).

(١) قال ابن عطية:" هي مكية بإجماع من المفسرين والرواة".

وقال ابن الجوزي:" هي مكّيّة كلها بإجماعهم".

وقال القرطبي:" سورة «والطور» مكية كلها في قول الجميع".

وقال ابن عاشور:" هي مكية جميعها بالاتفاق".

=

=

* آياتها تسع وأربعون فى عدّ الكوفة والشأم، وثمانٍ فى البصرة، وسبع فى الحجاز. كلماتها ثلاثمائة واثنتا عشرة. وحروفها ألف وخمسمائة. الآيات المختلف فيها اثنتان: (والطُّور) دَعًّا.

مجموع فواصل آياتها (من رعا)

* سميت هذه السورة عند السلف «سورة الطور» دون «واو» قبل «الطور»، وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من «جامع الترمذي»، وسنن النسائي، وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير. وهذا على التسمية بالإضافة، أي: سورة ذكر الطور كما يقال: سورة البقرة، وسورة الهدهد، وسورة المؤمنين.

وفي ترجمة هذه السورة من تفسير «صحيح البخاري»: «سورة والطور»، بالواو على حكاية اللفظ الواقع في أولها، كما يقال: «سورة قل هو الله أحد».

ولا يعرف لهذه السورة اسم غير اسمها المشهورة به.

ووجه تسميتها بسورة «الطور»، لافتتاحها بقسم الله تعالى بالطور، وذلك في قوله تعالى: {وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ}.

* معظم مقصود السّورة: القَسَم بعذاب الكفَّار، والإخبار عن ذلّهم فى العقوبة، ومنازلهم من النار، وطرب أهل الجنة بثواب الله الكريم الغفَّار، وإلزام الحجّة على الكفرة الفجّار، وبِشارتهم قبل عقوبة العُقْبَى بعذابهم فى هذه الدّار، ووصيّة سيّد رُسُل الأَبرار بالعبادة والاصطبار، فى قوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوْمِ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ} أَعاد (أَم) خمسة عشر مرّة، وكلّها إِلزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب.

قوله: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ} بالواو، وعطَف على قوله: {وَأَمْدَدْنَاهُمْ}، وكذلك: {وَأَقْبَلَ} بالواو، وفى الواقعة: {يَطُوْفُ} بغير واو فيحتمل أن يكون حالًا، أو

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالطُّورِ (١).

{وَالطُّور} أَيْ الْجَبَل الَّذِي كَلَّمَ الله عَلَيْهِ موسى.

وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢).

{وكتاب مسطور}.

فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣).

{فِي رَقّ مَنْشُور} أَيْ التَّوْرَاة أَوْ الْقُرْآن.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤).

{وَالْبَيْت الْمَعْمُور} هُوَ فِي السَّمَاء الثَّالِثَة أَوْ السَّادِسَة أَوْ السَّابِعَة بِحِيَالِ الْكَعْبَة يَزُورهُ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلْف مَلَك بِالطَّوَافِ وَالصَّلَاة لَا يَعُودُونَ إلَيْهِ أَبَدًا.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥).

{وَالسَّقْف الْمَرْفُوع} أَيْ السَّمَاء.

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦).

{وَالْبَحْر الْمَسْجُور} أَيْ الْمَمْلُوء.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧).

{إنَّ عَذَاب رَبّك لَوَاقِع} لَنَازِل بِمُسْتَحِقِّهِ.

=

يكون خبراً بعد خبر. وفي الإنسان {وَيَطُوْفُ} عطف على (وَيُطَافُ).

قوله: {واصبر} بالواو سبق. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٤١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨).

{مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} عَنْهُ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَالطُّورِ} [الطور: ١]، أي:" أقسم الله بالطور، وهو الجبل الذي كلَّم الله سبحانه وتعالى موسى عليه".

قال الطبري: يعني:" والجبل الذي يُدعى الطور".

قال مقاتل لما كذب كفار مكة أقسم الله- تعالى- فقال: {وَالطُّورِ} ".

وفي هذا الطور الذي أقسم الله به، أقوال:

أحدها: إنه اسم جبل بعينه، ثم اختلفوا في تحديده على وجهين:

الأول: أنه اسم الجبل، الذي كلم الله عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة دون غيره، وهذه رواية ابن جريج عن ابن عباس.

وحكي الماوردي عن السدي قال:" أنه طور سيناء".

قال الفراء: "وهو الجبل الذي بمدين، الذي كلّم الله جلَّ وَعزَّ مُوسَى عليه السلام عنده تكليما".

قال ابن الجوزي:" {وَالطُّورِ} هذا قَسم بالجبل الذي كلّم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام، وهو بأرض مَدْين واسمه: «زَبير» ".

والثاني: إنه جبل بالشام، قال ذو الرمة :

أَعاريبُ طُورِيُّونَ عن كُلِّ بلدة... يَحيدونَ عنها مِنْ حِذَارِ المَقادِرِ

فقوله «طوريون»، أي: "وحشيون، يحيدون عن القرى حذار الوباء والتلف، كأنهم نسبوا إلى الطور وهو جبل بالشام".

القول الثاني: أن الطور اسم لكل جبل، وهو قول قتادة، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صخر، ومجاهد، وابن زيد.

=

=

عن ابن عباس قال: "الطور: جبل". وروي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صخر نحو ذلك.

قال الحسن:" كل جبل يُدعى: طورًا".

قال عكرمة:" جبل يقال له: الطور".

قال ابن جريج: قال لي عطاء: "رفعنا فوقكم الطور قال رفع فوقهم الجبل على بني إسرائيل فقال: لتؤمنن به أو ليقعن عليكم".

قال قتادة:" الطور الجبل؛ كانوا بأصله، فرفع عليهم فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم به.

الثالث: أنه جبل مبهم، قاله الكلبي. وأقسم الله به تذكيرًا بما فيه من الدلائل.

الرابع: أن الطور ما أَنْبَتَ من الجبال خاصة، دون ما لم ينبت، وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس. ومنه قول الشاعر :

لَوْ مَرَّ بِالطُّوْرِ بَعْضُ نَاعِقَةٍ... مَا أَنْبَتَ الطُّوْرُ فَوْقَهُ وَرَقَهْ

قال ابن كثير:" الطور هو: الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل".

قال الماوردي:"وقال بعض المتعمقة: إن الطور ما يطوى على قلوب الخائفين".

واختلف في الأصل اللغوي لكملة «الطور»، على وجهين:

أحدهما: أنها كلمة عربية، قال العجاج :

داني جناحيه من الطور فمر... تقضّي البازي إذا البازيُّ كر

الثاني: أنه اسم للجبل بالسريانية، قاله مجاهد، وابن زيد.

قال مقاتل:" يعني: الجبل بلغة النبط، الذي كلم الله عليه موسى- عليه السلام- بالأرض المقدسة".

=

=

والقول الأول أقرب إلى الصواب، لأنه جاء «الطور» بمعنى الجبل في كلام العرب، كما سبق الاستشهاد بقول العجاج، وبه قال الإمام الطبري، ومنه قول جرير:

فإن ير سليمان الجنّ يستأنسوا بها... وإن ير سليمان أحب الطّور ينزل

عن نَوْف البكالي -من طريق أبي عمران الجوني- قال: "أوحى الله إلى الجبال: أني نازل على جبلٍ منكنّ. قال: فشَمخت الجبالُ كلّها رجاء أن يكون الأمر عليها. قال: وتواضع طور سيناء، وقال: أرضى بما قسم الله لي. فكان الأمرُ عليه".

قوله تعالى: {وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ}.

قال الطبري:" يقول: وكتاب مكتوب، في ورق منشور".

قال النحاس:" واو عطف، وليست واو قسم".

وفي قوله تعالى: {وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ} [الطور: ٢]، أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وبه قال ابن كثير.

الثاني: يعني: كتب أعمال بني آدم، قاله مقاتل، والزجاج.

قال الزجاج:" «الكتاب» -ههنا-: ما أثبت على بني آدم من أعمالهم".

الثالث: التوراة. قاله ابن بحر.

الرابع: أنه القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، حكاه الماوردي.

الخامس: أنه الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: {فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ}. حكاه ابن كثير.

عن مجاهد، قوله: "{وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ}، قال: صحف".

قال قتادة:" المسطور: المكتوب". وروي عن الضحاك مثله.

عن ابن جُرَيْج، في قوله: "{وكِتابٍ} قال: الذِّكر، {مَسْطُورٍ} قال: مكتوب".

قال أبو عبيدة:" أي: مكتوب، وقال رؤبة:

=

=

إني وآياتٍ سُطِرْنَ سَطْرًا".

وفي قوله تعالى: {فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ} [الطور: ٢]، قولان:

أحدهما: أن «الرَّقّ»: الصحائفُ التي تُخْرَجُ إلى بني آدَمَ، فآخِذٌ كتابَه بيمينهِ، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه. قاله الفراء.وهذا كقوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} [الإسراء: ١٣].

قال ابن قتيبة:" يقال: هي الصحائف التي تخرج يوم القيامة إلى بني آدمَ".

قال الماوردي: "الصحيفة المبسوطة وهي التي تخرج للناس أعمالهم، وكل صحيفة فهي رق لرقة حواشيها، قال المتلمس :

فكأنما هي من تقادم عهدها... رق أتيح كتابها مسطور".

قال مجاهد:" الرقّ: الصحيفة".

وقال مجاهد:" يعني: صحفا مكتوبة".

عن ابن عباس، {فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ}، قال: في الكتاب".

الثاني: أن «الرق»: الورق، قاله أبو عبيدة.

وقال الليث: "الرَّقُّ: الصحيفة البيضاء".

وقال المبرد: "الرق، ما رُقّق من الجلد ليكتب فيه. والمنشور: المبسوط يتباعد أطرافه".

قال السمعاني:" الرق: هو الأديم الذي يكتب فيه الشيء. وقوله: {منشو} أي: مبسوط، وهذا يؤيد القول الذي قلنا إن الكتاب هو صحائف الأعمال في الآخرة، لأن الله تعالى قد قال في موضع آخر: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠]، والمراد منه: صحائف الأعمال في الآخرة".

قال مقاتل:" يعني: أعمال بني آدم مكتوبة، يقول: أعمالهم تخرج إليهم يومئذ، يعني: يوم القيامة {فِي رَقٍّ}، يعني: أديم الصحف {مَنْشُور} ".

=

=

قال الواحدي:" ولم يثبت أن اللوح المحفوظ من الرق. ولا أن ما كتب لموسى كان على الرق. والمراد بالكتاب، المكتوب، سُمّي بالمصدر. والرق: مما كتب فيه".

قوله تعالى: {وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ} [الطور: ٤]، أي:" وبالبيت المعمور في السماء بالملائكة الكرام الذين يطوفون به دائمًا".

قال الطبري:" يقول: والبيت الذي يعمر بكثرة غاشيته".

قال أبو عبيدة:" الكثير الغاشية".

وفي قوله تعالى: {وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ} [الطور: ٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: ما روى قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: قال رسول الله ﷺ:" رفع إلي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم". وبه قال علي بن أبي طالب، وابن عباس.

وروي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "لما عرج بي الملك إلى السماء السابعة انتهيت إلى بناء فقلت للملك: ما هذا؟ قال: هذا بناء بناه الله للملائكة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يقدسون الله ويسبحونه، لا يعودون فيه".

قال قتادة:" ذكر لما أن نبي الله ﷺ قال يوما لأصحابه: "هل تدرون ما البيت المعمور" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة لو خر لخر عليها، أو عليه، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم".

روي عن خالد بن عرعرة؛ أن رجلا قال لعلي: "ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له: "الضُّراح" وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا يعودون فيه

=

=

أبدا".

عن مجاهد، في قوله: "{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}، قال: بيت في السماء يقال له: «الضراح» ".

عن ابن عباس، قوله: "{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}، قال: هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه".

عن حسين، قال: "سُئل عكرمة وأنا جالس عنده عن البيت المعمور، قال: بيت في السماء بحيال الكعبة".

وعن ابن زيد، في قوله: "{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}، قال: بيت الله الذي في السماء".

الثاني: ما قاله السدي: أن البيت المعمور ، هو بيت فوق ست سموات ، ودون السابعة ، يدعى الضراح ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك من قبيلة إبليس لا يرجعون إليه أبدًا ، وهو بحذاء البيت العتيق.

الثالث: أن البيت المعمور كان في الأرض في موضع الكعبة في زمان آدم، حتى إذا كان زمان نوح أمرهم أن يحجوا، فأبوا عليه وعصوه، فما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا، فيعمره، فبوأ الله لإبراهيم الكعبة البيت الحرام حيث كان، قاله الله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [الحج: ٢٦]،الآية. قاله الربيع بن أنس.

الرابع: أن البيت المعمور هو البيت الحرام. قاله الحسن.

وفي {الْمَعْمُورِ} [الطور: ٤]، وجهان :

أحدهما: أنه معمور بالقصد إليه. حكاه الماوردي.

الثاني: بالمقام عليه، حكاه الماوردي-أيضا-، وانشد قول الشاعر :

عمر البيت عامر... إذ أتته جآذر

من ظباء روائح... وظباء تباكر

=

=

قال سهل:" قوله تعالى: {وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ}، ظاهرها ما حكى محمد بن سوار بإسناده عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «ليلة أسري بي إلى السماء رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة- ويروى السابعة- يحجه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه بعده أبدًا»، الحديث بطوله... وباطنها القلب قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته، والأنس به، وهو الذي تحجه الملائكة لأنه بيت التوحيد".

قال الماوردي:"وتأول سهل أنه القلب، عمارته إخلاصه، وهو بعيد".

قال ابن كثير: "ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء- بعد مجاوزته إلى السماء السابعة -: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم». يعني: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة".

قوله تعالى: {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} [الطور: ٥]، أي:" وبالسقف المرفوع وهو السماء الدنيا".

وفي قوله تعالى: {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} [الطور: ٥]، وجهان:

أحدهما: أنه السماء، قاله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، يدل عليه قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٣٢].

قال مقاتل:" يعني: السماء رفع من الأرض مسيرة خمسمائة عام، يعني:

=

=

السموات".

الثاني: أنه العرش، قاله الربيع.

قال الطبري:" يعني بـ «السقف» -في هذا الموضع-: السماء، وجعلها سقفا، لأنها سماء للأرض، كسماء البيت الذي هو سقفه".

قوله تعالى: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، أي:" وبالبحر المسجور المملوء بالمياه".

وفي قوله تعالى: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه جهنم، رواه صفوان بن يعلى عن النبي ﷺ.

عن شمر بن عطية، في قوله: "{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، قال: بمنزلة التنور المسجور".

عن سعيد بن المسيب، قال: "قال عليّ رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ فقال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقا، {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} مخففة".

الثاني: هو بحر في السماء تحت العرش، رواه أبو صالح عن عليّ رضي الله عنه، وبه قال عبد الله بن عمرو.

وقال مقاتل:" {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، تحت العرش الممتلئ من الماء يسمى بحر: «الحيوان»، يحيي الله به الموتى فيما بين النفختين".

وقال عكرمة:" بحر دون العرش".

الثالث: هو بحر الأرض، وهو الظاهر.

وفي قوله تعالى: {الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: المحبوس، قاله ابن عباس-في رواية-، والسدي.

الثاني: أنه المرسل، قاله سعيد بن جبير.

=

=

الثالث: الموقد نارًا، قاله مجاهد، وابن زيد.

عن مجاهد: "{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، قال: الموقد".

عن ابن زيد: "{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، قال: الموقد، وقرأ قول الله تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}، قال: أوقدت".

الرابع: أنه المختلط، قاله ابن بحر.

الخامس: أنه الذي قد ذهب ماؤه. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" سجره حين يذهب ماؤه ويفجر".

وروي ابن أبي وحشية عن سعيد بن جبير:" أنه الذي قد ذهب ماؤه ويبس".

السابع: هو الذي لا يشرب من مائه ولا يسقى به زرع، قاله العلاء بن زيد.

الثامن: أنه الممتلئ، قاله قتادة، والكلبي. وبه قال أهل اللغة.

قال الفراء: "{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، بعضه في بعض من الماء".

قال الفراء:" «المسجورُ» -فِي كلام العرب-: المَمْلوء".

قال ابن قتيبة:"المملوء".

قال القاسم بن سلام:" {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}، يعني: الممتلئ بلغة عامر بن صعصعة.

{سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦] جمعت بلغة خثعم".

عن الكلبي، في قوله تعالى: "{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦]، قال: ملئت، ألا تراه يقول: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦] ".

قال الزجاج:" جاء في التفسير أن البحر يسجر فيكون نار جهنم. وأما أهل اللغة، فقالوا: البحر المسجور المملوء. وأنشدوا :

إِذا شاء طالَعَ مَسْجُورَةً... تَرى حَوْلَها النَّبْعَ والسَّاسَما

يعني: ترى حولها عينًا مملوءة بالماء".

=

=

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: والبحر المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض، وذلك أن الأغلب من معاني السجر: الإيقاد، كما يقال: سجرت التنور، بمعنى: أوقدت، أو الامتلاء على ما وصفت، كما قال لبيد :

فتوسطا عُرْضَ السَّريِّ وصدعا... مسجورةً متجاورًا قُلامُها

وكما قال النمر بن تولب العكلي :

إذَا شاءَ طالَعَ مَسْجورةً... تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّاسمّا

سَقَتْها رَوَاعِدُ مِنْ صَيّفٍ... وَإنْ مِنْ خَريفٍ فَلَنْ يَعدمَا

فإذا كان ذلك الأغلب من معاني السَّجْر، وكان البحر غير مُوقَد اليوم، وكان الله تعالى ذكره قد وصفه بأنه مسجور، فبطل عنه إحدى الصفتين، وهو الإيقاد صحّت الصفة الأخرى التي هي له اليوم، وهو الامتلاء، لأنه كلّ وقت ممتلئ".

قال الماوردي:" هذا آخر القسم، وجوابه: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} [الطور: ٧] ".

قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} [الطور: ٧]، أي:" إن عذاب ربك -أيها الرسول- بالكفار لَواقع".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} يا محمد، لكائن حالّ بالكافرين به يوم القيامة".

قال ابن كثير:" يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم".

عن قتادة: "{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ}، وقع القسم ها هنا، {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ}، وذلك يوم القيامة".

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه جبير بن مطعم قال: "أتيت النبي ﷺ،

=

=

لأكلمه في أسارى بدر، فوافقته، وهو يصلي بأصحابه المغرب، أو العشاء، فسمعته وهو يقول، أو يقرأ، وقد خرج صوته من المسجد {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور: ٧- ٨]، فكأنما صدع قلبي ".

قوله تعالى: {مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور: ٨]، أي:" ليس له مِن مانع يمنعه حين وقوعه".

قال الطبري:" يقول: ما لذلك العذاب الواقع بالكافرين من دافع يدفعه عنهم، فينقذهم منه إذا وقع".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور} هذه أشياء أقسم الله بها، الأول: الطور وهوالجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالى كلمه أول ما كلمه على جبل الطور، فكان لهذا الجبل من الشرف والفضل ما سبق به غيره من الجبال، ولهذا أطلق كثير من العلماء أن جبل الطور أفضل الجبال وأشرفها، وعلى هذا يكون أشرف وأفضل من جبل حراء الذي ابتدأ فيه الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا ظاهر إطلاق كثير من العلماء، ولكن في هذا الظاهر نظرًا، لأن جبل حراء كُلِّم منه الرسول عليه الصلاة والسلام لكن كلمه جبريل عليه السلام مرسلًا من عند الله، فمنه ابتدأت أفضل الرسالات على أفضل الرسل، وأيضًا حراء داخل الحرم المكي، لأنه من الحرم الذي لا يحل صيده ولا قطع شجره، وبقعة الحرم أفضل البقاع، ويمكن أن يحمل إطلاق كثير من العلماء على هذا، فيقال: إلا جبل حراء {وكتاب مسطور في رق منشور} الكتاب المسطور في الرق، اختلف فيه العلماء، وهذا الخلاف ينبني على كلمة (رق) هل الرق كل ما يكتب فيه من جلد وورق وعظم وحجر وغير ذلك؟ أو هو خاص بما يكتب فيه من جلود ونحوها؟ إن قلنا بالأول صار المراد بالكتاب عدة

=

=

أشياء، منها اللوح المحفوظ، ومنها الكتب التي بأيدي الملائكة، ومنها القرآن الكريم، ومنها التوراة، فيشمل عدة كتب، وإذا قلنا إن الرق هوالورق وشبهه مما يكتب فيه عادة، فاللوح المحفوظ لا يدخل في هذا، وإنما المراد به إما التوراة، وإما القرآن، فالذين قالوا: إنه التوراة رجحوا قولهم بأنه قرن بالطور، والطور هو الذي كلَّم منه موسى عليه الصلاة والسلام، فكان الكتاب المسطور هو التوراة التي جاء بها موسى، ومن قال: إن

المراد به القرآن الكريم رجح ذلك بأن الله ذكر الطور الذي أوحي منه إلى موسى، وذكر الكتاب الذي هو القرآن أوحي إلى محمد ﷺ، فيكون الله تبارك وتعالى ذكر أشرف الرسالات في بني إسرائيل إيماء بذكر الطور، وذكر أشرف الرسالات التي بعث بها من بني إسماعيل محمد ﷺ، وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالكتاب المسطور القرآن الكريم {منشور} صفة لكتاب، ويحتمل أن تكون صفة لرق، والمعنى واحد، والمراد بالمنشور يعني المفرق الذي يكون بأيدي كل قارىء، وهذا يصدق تمامًا على القرآن الكريم، فإنه- ولله الحمد- بين يدي كل قارىء حتى الصغار من المسلمين يقرؤونه، {والبيت المعمور} هذا هو الثالث مما أقسم الله به في هذه الآيات، وهو بيت في السماء السابعة يقال له: الضراح، هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه، فبناءً على هذا كم عدد الملائكة؟ لا يحصيهم إلا الله، من يحصي الأيام؟ ثم من يحصي سبعين ألفًا كل يوم يدخلون هذا البيت المعمور ولا يعودون إليه.

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور بيت الله في الأرض وهو الكعبة؛ لأنه معمور بالطائفين والعاكفين، والقائمين، والركع السجود، فهل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعًا؟ القاعدة في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين على السواء، وليس بينهما منافاة وجب أن تحمل على كل منهما، لأن المتكلم بها وهو الله-

=

=

جل وعلا- عالم بما تحتمله من المعاني، وإذا لم يبين أن المراد أحد المعاني فإنه يجب أن تحمل على كل ما تحتمله من المعاني الصحيحة لا المعاني الباطلة، وليس هناك منافاة بين أن يكون المقسم به الكعبة، أو البيت المعمور في السماء، لأن كلا البيتين معظم، ذاك معظم في أهل السماء، وهذا معظم في أهل الأرض، ولا مانع، فالصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، إلا إذا وُجد قرينة ترجح أن المراد به البيت المعمور في السماء {والسقف المرفوع} أقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء، قال الله تعالى: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها} وقال تعالى: {وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا وهم عن ءاياتها معرضون}. فالسماء سقف، والسماء مرفوعة، إذن فالسقف المرفوع هو السماء، وسماه الله سقفًا لأنه قد غمر جميع الأرض من جميع الجوانب، كما يغمر السقف الحجرة من جميع الجوانب، وإنما أقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من الآيات العظيمة من نجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان، قال الله ﷻ: {الذي خلق سبع سماوات طباقًا ما ترى في خلق الرحمن من تفوت فارجع البصر هل ترى من فطور ... ثم ارجع البصر كرتين}.

يعني مرة بعد مرة {ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير} وأخبر أنه ليست للسماء فروج، وليس فيها تشقق وليس فيها عيب، وليس فيها تصدُّع، ولا تبلى على طول المدة، فهي جديرة بأن يقسم الله بها {والبحر المسجور} كلمة البحر قيل: إن المراد به البحر الذي عليه عرش الرحمن ﷻ كما قال تعالى، {وكان عرشه على الماء}، وقيل: المراد به البحر الذي في الأرض لأنه المشاهد المعلوم الذي فيه من آيات الله ما يبهر العقول، والصحيح أن المراد به بحر الأرض، لأن (ال) في البحر للعهد الذهني، يعني البحر المعهود الذي تعرفونه، فأقسم الله به لما فيه من آيات الله العظيمة من أسماك وأمواج وغير هذا مما نعلمه وما لا نعلمه.

=

=

قوله {المسجور} قال أبو عبيد القاسم بن سلام أن المراد بالمسجور في قوله تعالى: {والبحر المسجور} المملوء. وهذا القول مروي عن قتادة. وبه قال الفراء؛ قال: (المسجور في كلام العرب المملوء). ورجحه الطبري، ووصفه السمعاني بأنه أشهر الأقاويل.

قال ابن عطية عن هذا القول: (وهذا معروف في اللغة). وروي عن علي بن أبي طالب- رَضِوَاللَّهُعَنْهُ- ومجاهد، وابن زيد: أن المراد به الموقد المحمى. يدل على ذلك قوله تعالى: {وإذا البحار سجرت} [التكوير: ٦]. ورجح هذا القول: الشوكاني، والألوسي.

وروي عن ابن عباس- رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا- أن المراد بالمسجور: الذي ذهب ماؤه.

ونسب البغوي للربيع بن أنس أن المراد بالمسجور: المختلط عذبه بملحه.

وقال ابن جزي الكلبي: (ومعنى المسجور: المملوء ماء، وقيل: الفارغ من الماء، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة، واللغة تقتضي الوجهين؛ لأن اللفظ من الأضداد، وقيل: معناه: الموقد نارا؛ من قولك: سجرت التنور، واللغة أيضا تقتضي هذا).

ويقول ابن فارس: (السين والجيم والراء أصول ثلاثة: الملء، والمخالطة، والإيقاد).

وقال العثيمين ومن أعظم ما فيه من آيات الله ما أشار إليه تعالى في قوله: {المسجور} يعني الممنوع، ومنه سجرت الكلب يعني ربطته حتى لا يهرب، فالبحر ممنوع بقدرة الله ﷻ، إننا نعلم جميعًا أن الأرض كروية، وهذا البحر لو نظرنا إليه بمقتضى الطبيعة لكان يفيض على الأرض، لأنه لا جدران تمنع، والأرض كروية مثل الكرة فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطبيعة، لقلنا: لابد أن يفيض على الأرض فيغرقها، ولكن الله تبارك وتعالى أمسكه بقدرته سبحانه

=

=

وتعالى، فهو مسجور، أي: ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها، وهذه آية من آيات الله، فلو صب فوق الكرة ماء، لذهب يغمرها يمينًا وشمالًا، لكن هذا البحر لا يمكن أن يفيض على الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى الحكمة تأتي أيام المد والجزر، نفس البحر يمتد امتدادًا عظيمًا لعدة أمتار وربما أميال، ثم ينحسر، مَن الذي مده؟ ولو شاء لبقي ممتدًا حتى يغرق الأرض، ومن الذي رده؟ هو الله، ولهذا كان هذا البحر جديرًا بأن يقسم الله به، وفي البحر آيات عظيمة، يقال: إنه ما من شيء على البر من حيوان وأشجار إلا وله
نظير في البحر بل أزيد، لأن البحر بالنسبة لليابس يمثل أكثر من سبعين في المائة، وفيه أشياء لا نرى لها نظيرًا في البر، وهذا من آيات الله ﷻ، وأعظم آية في البحر هو أنه مسجور، أي ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها.

وقيل: المراد بالمسجور الذي سيسجر، أي: يوقد كما قال الله تعالى: {وإذا البحار سجرت} . أي: أوقدت. وهذا يكون يوم القيامة، هذا الماء الذي نشاهده الآن والذي لو سقطت فيه جمرة، أو مر على جمرة لأطفأها، يوم القيامة يكون نارًا يسجر، وهذا من آيات الله ﷻ والمراد به المعنيان جميعًا؛ لأنه لا منافاة بين هذا وهذا، فكلاهما من آيات الله ﷻ أي سواء قلنا المسجور الممنوع من أن يفيض على الأرض، أو المسجور الذي سيسجر أي يوقد، فكل ذلك من آيات الله، {إن عذاب ربك لواقع} هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسمًا بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرات، والثاني: بأن، والثالث: باللام، {إن عذاب ربك لواقع} يعني لابد أن يقع عذاب الله الذي وعد به، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة، وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعُاد، يمرض من شدة ما يقع على

=

=

قلبه من التأثر حتى يُعاد، فإذا كان واقعًا وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير، وقوله: {إن عذاب ربك لواقع} يعني لابد أن يقع، ولكن هل هذا التأكيد بالنسبة لعذاب المؤمنين أو لعذاب الكافرين؟ لننظر قال الله تعالى: {سأل سآئل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج}. فضم هذه الآية إلى الآية التي في الطور تجد أن قوله: {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع}.

على الكافرين، فعذاب الله على الكافرين ليس له دافع، لا أحد يدفعه، لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه، ولهذا لا تنفعهم الشفاعة فيرفع عنهم العذاب، أما عذاب الله للمؤمن المذنب فإن الأصل أنه واقع، كل ذنب توعد الله عليه بالعذاب فالأصل أنه واقع، لكنه مع ذلك قد يرفع بفضل من الله ﷻ وقد يرفع بالشفاعة، وقد يرفع بأعمال صالحة تغمر الأعمال السيئة، أما ترى أن الله يقول: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}. ألم تعلم أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفَّعهم الله فيه» فيرتفع عنه العذاب. وعلى هذا نقول: عذاب الله واقع على الكافرين لا محالة، ولا دافع له، أما على عصاة المؤمنين فإن الأصل الوقوع، وقد أنذر الله العباد وخوَّفهم، وبيَّن لهم، لكن مع ذلك قد يرتفع بأسباب متعددة، {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع}، (ما) نافية، و (دافع) مبتدأ مؤخر، دخلت عليها (من) الزائدة للتوكيد، يعني ما من أحد ولو عظمت منزلته وقوته يدفع أو يرفع عذاب الله ﷻ لأن (دافع) هنا تشمل المنع قبل الوقوع، والرفع بعد الوقوع، لا أحد يدفع عذاب الله ولا يمنعه عن أن ينزل ولا يرفعه إذا نزل، وإنما ذلك إلى الله وحده، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه، وأن يغفر لنا ما سلف من ذنوبنا وما حضر، إنه على كل شيء قدير.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩).

{يَوْم} مَعْمُول لَوَاقِع {تَمُور السَّمَاء مَوْرًا} تَتَحَرَّك وتدور.

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠).

{وَتَسِير الْجِبَال سَيْرًا} تَصِير هَبَاء مَنْثُورًا وَذَلِكَ فِي يَوْم الْقِيَامَة.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١).

{فويل} شدة عذاب {يومئذ للمكذبين} للرسل.

الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢).

{الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْض} بَاطِل {يَلْعَبُونَ} أَيْ يَتَشَاغَلُونَ بِكُفْرِهِمْ.

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣).

{يَوْم يُدَعُّونَ إِلَى نَار جَهَنَّم دَعًّا} يُدْفَعُونَ بِعُنْفٍ بَدَل مِنْ يَوْم تَمُور وَيُقَال لَهُمْ تَبْكِيتًا.

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤).

{هذه النار التي كنتم بها تكذبون}.

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥).

{أَفَسِحْر هَذَا} الْعَذَاب الَّذِي تَرَوْنَ كَمَا كُنْتُمْ تقولون في الوحي هذا سحر {أم أنتم لا تبصرون}.

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦).

{اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا} عَلَيْهَا {أَوْ لَا تَصْبِرُوا} صَبْركُمْ وَجَزَعكُمْ {سَوَاء

عَلَيْكُمْ} لِأَنَّ صَبْرَكُمْ لَا يَنْفَعكُمْ {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أَيْ جَزَاءَهُ[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} [الطور: ٩]، أي:" يوم تتحرك السماء فيختلُّ نظامها وتضطرب أجزاؤها، وذلك عند نهاية الحياة الدنيا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن عذاب ربك لواقع: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا}".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} [الطور: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: تدور السماء دورًا، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وهو اختيار الفراء، وابن قتيبة، والزجاج، قال طرفة بن العبد :

صُهابِيَّةُ العُثْنُونِ، مُؤْجَدَةُ القَرَا،... بَعيدةُ وَخْدِ الرِّجْلِ، مَوَّارَةُ اليَدِ

فالمور: التكفي والترهيل في المشية.

قال الطبري:" يعني بقوله: {تَمُورُ}: تدور وتكفأ".

قال ابن قتيبة:" تدور بما فيها".

قال الفراء:" تدورُ بما فيها، وتسيرُ الجبال عنْ وجه الأرض: فتستوي هِيَ والأرضُ".

قال النحاس:" يقال: مار الشيء إذا دار".

الثاني: تحرَّكُ تحرُّكًا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة.

قال قتادة:" مورها: تحريكها".

الثالث: يعني: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض. قاله الضحاك.

قال مقاتل:" يعني: استدارتها وتحريكها بعضها في بعض من الخوف".

قال الشوكاني:" يطلق المور على الموج، ومنه ناقة موارة اليد، أي: سريعة تموج في مشيها موجا، ومعنى الآية: أن العذاب يقع بالعصاة ولا يدفعه عنهم دافع في هذا =

=

اليوم الذي تكون فيه السماء هكذا، وهو يوم القيامة".

الرابع: يوم تشقّق السماء، قاله ابن عباس، لقوله تعالى: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [الواقعة: ٥].

الخامس: تجري السماء جريًا، ومنه قول جرير:

فَمَا زالَتِ القَتْلى تَمُور دِماؤها... بِدِجْلَة، حَتَّى ماءُ دِجْلَة أَشْكَل

قال القاسم بن سلام:" {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ} [الطور: ٩]، يعني: تنشق السماء شقا، وكذلك: {فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك: ١٦] بلغة قريش".

السادس: تتكفأ بأهلها، قاله أبو عبيدة، وأنشد بيت الأعشى:

كأنَّ مشْيتَها مِنْ بَيْتِ جارَتها... مَوْرُ السَّحابَة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وعلّق عليه قائلا:" وهو أن ترهيأ في مشيتها، أي: تكفّأ كما ترهيأ النخلة العيدانة ".

السابع: تنقلب انقلابًا. حكاه الماوردي.

الثامن: أن السماء -ها هنا-: الفلك، وموره: اضطراب نظمه واختلاف سيره، قاله ابن بحر.

وروي عن عطية بن سعد العَوفيّ: "{تَمُورُ} تختلف".

وقال عطاء:" تختلف أجزاؤها بعضها في بعض".

وكل هذه العبارات متقاربة، وأصل "المور": الاضطراب والاختلاف.

قال ابن زيد:" هذا يوم القيامة، وأما المور: فلا علم لنا به".

قوله تعالى: {وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [الطور: ١٠]، أي:" وتزول الجبال عن أماكنها، وتسير كسير السحاب".

قال الطبري:" يقول: وتسير الجبال عن أماكنها من الأرض سيرا، فتصير هباء منبثا".

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [الطور: ١١]، أي:" فهلاك في هذا اليوم

=

=

واقع بالمكذبين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فالوادي الذي يسيل من قيح وصديد في جهنم، يوم تمور السماء مورا، وذلك يوم القيامة للمكذّبين بوقوع عذاب الله للكافرين، يوم تمور السماء مورا".

قال السعدي:" الويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف".

قال النحاس:" دخلت هذه «الفاء»، لأن في الكلام معنى المجازاة، ومثله: «فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى»، فالتقدير: إذا انتبهت له فهو كذا وكذا. الآية التقدير فيها: «إذا كان هذا فويل يومئذ للمكذّبين» ".

وفي معنى "الويل"، أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض، وشقيق.

الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر :

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الثالث: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار.

الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ} [الطور: ١٢]، أي:" الذين هم في خوض بالباطل يلعبون به، ويتخذون دينهم هزوًا ولعبًا".

قال الطبري:" يقول: الذين هم في فتنة واختلاط في الدنيا يلعبون، غافلين عما هم صائرون إليه من عذاب الله في الآخرة".

قال السعدي:" أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل

=

=

الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة".

قال الزجاج:" أي: يشاغلهم بكفرهم لعب عاقِبتُه العذاب".

قال عطاء: "يخوضون في تكذيبك ويلهون بذكرك".

عن مجاهد:" {يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا}، قال: كذبون أو يكذبون، -شك إسحاق-".

قال أبو عبيدة:" «الخوض»: الفتنة والاختلاط".

قوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فويل للمكذبين يوم يدفعون بإرهاق وإزعاج، يقال منه: **دعَعْت** في قفاه: إذا دفعت فيه".

قال السعدي:" أي: يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقا عنيفا، ويجرون على وجوههم".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: ١٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أن يدعهم زبانيتها بالدعاء عليهم. أفاده الماوردي.

الثاني: يدفعون دفعًا عنيفًا. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وعكرمة، والسدي، وابن زيد. ومنه قول الراجز :

يدعّه بضفتي حيزومه... دعّ الوصيّ جانبي يتيمه

قال ابن عباس:" يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار".

قال مجاهد: يدفعون".

قال عكرمة:" يدفعون إلى نار جهنم دفعا". وروي عن القرظي مثله.

قال ابن زيد:" يدفعون دفعا، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}، قال: يدفعه، ويغلظ عليه".

=

=

قال الضحاك:" الدعّ: الدفع والإرهاق".

قال أبو عبيدة:" أي: يدفعون، يقال: دعت في قفاه، أي: دفعت. وفى آية أخرى: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} [الماعون: ٢] ".

الثالث: يزعجون إزعاجًا، قاله قتادة.

قال الزجاج:" أي: يوم يزعجون إليها إزعاجًا شديدًا، ويدفعون دفعًا عنيفًا، ومن هذا قوله: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} [الماعون: ٢]، أي: يدفعه عما يجب له".

قوله تعالى: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [الطور: ١٤]، أي:" ويقال توبيخًا لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذِّبون".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذّبون، فتجحدون أن تردوها، وتصلوها، أو يعاقبكم بها ربكم وترك ذكر يُقال لهم، اجتزاء بدلالة الكلام عليه".

قوله تعالى: {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [الطور: ١٥]، أي:" أفسحر ما تشاهدونه من العذاب أم أنتم لا تنظرون؟ ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرا عما يقول لهؤلاء المكذبين الذين وصف صفتهم إذا وردوا جهنم يوم القيامة: أفسحر أيها القوم هذا الذي وردتموه الآن أم أنتم لا تعاينونه ولا تبصرونه؟ وقيل هذا لهم توبيخا لا استفهاما".

قال السعدي:" يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية، أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون»، أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

- أما كونه سحرا، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل

=

=

حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

- ويحتمل أن الإشارة بقوله: {أَفَسِحْرٌ هَـذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ}، إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم".

قال أبو عبيدة:" {أَفَسِحْرٌ هذا} ليس باستفهام، بل هو توعّد".

قال الزجاج:" لفظ هذه الألف لفظ الاستفهام، ومعناها -ههنا-: التوبيخ والتقريع، أي: أتصدقون الآن أن عذاب الله لواقع".

قوله تعالى: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ} [الطور: ١٦]، أي:" ذوقوا حرَّ هذه النار، فاصبروا على ألمها وشدتها، أو لا تصبروا على ذلك، فلن يُخَفَّف عنكم العذاب، ولن تخرجوا منها، سواء عليكم صبرتم أم لم تصبروا".

قال الطبري:" يقول: ذوقوا حرّ هذه النار التي كنتم بها تكذبون، وردوها فاصبروا على ألمها وشدتها، أو لا تصبروا على ذلك، سواء عليكم صبرتم أو لم تصبروا".

قال السعدي:" أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم وتطلع على أفئدتكم. {فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ} أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئا، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٦]، أي:" إنما تُجزون ما كنتم تعملون في الدنيا".

قال الطبري:" يقول: ما تجزون إلا أعمالكم: أي لا تعاقبون إلا على معصيتكم في الدنيا ربكم وكفركم".

=

=

قال الزجاج:" معنى {إِنَّمَا} -ههنا-: «ما تجزون إِلَّا ما كنتم تعملون»، أي: الأمر جارٍ عليكم على العدل، ما جوزيتم إِلَّا أعمالكم".

قال السعدي:" وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يوم تمور السماء مورًا وتسير الجبال سيرًا فويل يومئذ للمكذبين} هذه الآية: {يوم تمور السماء مورًا} متعلقة بقوله: {إن عذاب ربك لواقع} يعني أن العذاب يقع في ذلك اليوم، قوله: {يوم تمور السماء مورًا} قد يظن الظانّ أن المصدر هنا (مورًا) لمجرد التوكيد، ولكنه ليس كذلك، بل هو لبيان تعظيم هذا المور، والمور بمعنى الاضطراب، يعني أن السماء تضطرب وتتشقق، وتتفتح وتختلف عما هي عليه اليوم، كما قال تعالى: {إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت}. ولا إنسان يتصور أو يعلم حقيقة ذلك اليوم، ولكننا نعلم المعنى بما أخبر الله به عنه، أما الحقيقة فهي شيء فوق ما نتصوره الآن، {وتسير الجبال سيرًا} أي: تسير سيرًا عظيمًا، وذلك أن الجبال تكون هباءً منثورًا، وتتطاير كما تتطاير الغيوم، وتسير سيرًا عظيمًا هائلًا، لشدة هول ذلك اليوم، وهذه الآية تدل على أن قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: {وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون}.

فإن هذه الآية هي نفس هذه الآية التي في الطور من حيث المعنى، فيكون قوله تبارك وتعالى: {وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمر مر السحاب} يعني يوم القيامة ولا شك، ومن فسرها بأن ذلك في الدنيا وأنه دليل على أن الأرض تدور فقد حرَّف الكَلم عن مواضعه، وقال على الله ما لا يعلم، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا، فلابد أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السنة، وإما من تفسير

=

=

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». والمهم أن تفسير قوله: {وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمر مر السحاب} يراد به ما في الدنيا، تفسير باطل لا يجوز الاعتماد عليه، ولا المعول عليه، أما كون الأرض تدور أو لا تدور، فهذا يعلم من دليل آخر، إما بحسب الواقع، وإما بالقرآن، وإما بالسنة، ولا يجوز أبدًا أن نحمل القرآن معاني لا يدل عليها من أجل أن نؤيد نظرية أو أمرًا واقعًا، لكنه لا يدل عليه اللفظ، لأن هذا أمر خطير جدًا.

قال الله تعالى: {فويل يومئذ للمكذبين} ويل كلمة وعيد وتهديد، وإن كان قد روي أنها واد في جهنم، لكن الصواب أنها كلمة تهديد ووعيد، {فويل يومئذ للمكذبين} أي: المكذبين لله ورسوله، الجاحدين لما قامت الأدلة على ثبوته فإنهم سيجدون في ذلك اليوم من العذاب والنكال ما لا يخطر لهم على بال {الذين هم في خوض يلعبون} أي في الدنيا {في خوض} أي: في كلام باطل {يلعبون} أي: لا يقولون الجد ولا يعملون بالجد، وإنما أعمالهم كلها لعب ولهو، ولذلك تجد أعمارهم ليس فيها بركة، تمر بهم الليالي والأيام لا يستفيدون شيئًا {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا} هذه متعلقة بما سبق أيضًا، ويُدَعُّون بمعنى يدفعون بعنف وشدة إلى نار جهنم دعًّا؛ لأنهم- والعياذ بالله- تمثل لهم النار كأنها سراب، أي كأنها حوض نهر، وهم على أشد ما يكونوا من العطش، فيذهبون إليها سراعًا، يريدون أن يشربوا منها حتى يزول عنهم العطش، فإذا بلغوها وإذا هي النار- والعياذ بالله- فكأنهم- والله أعلم- يتوقفون لئلا يتساقطوا فيها، فيدعُّون إليها دعًّا، أي يُدفعون بعنف وشدة فيتساقطون فيها- أجارنا الله من ذلك ويقال لهم: {هذه النار التى كنتم بها تكذبون} كانوا في الدنيا يقولون: لا بعث ولا جزاء، ولا عقوبة ولا نار، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا بعث، فيقال لهم توبيخًا

=

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧).

{إن المتقين في جنات ونعيم}.

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨).

=

على هذا الإنكار: {هذه النار التى كنتم بها تكذبون} فما أشد حسرتهم إذا وُبِّخوا على أمر كان في إمكانهم أن يتخلوا عنه، ولكنهم الآن لا يستطيعون لذلك سبيلًا، يقولون إذا وقفوا على النار: {ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}.

قال الله تعالى: {بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}. أي: حتى لو ردوا إلى الدنيا عادوا وكذبوا، فلن يستقيموا على أمر الله، لكن يقولون هذا تمنيًا. {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} يعني أفهذا الذي ترون اليوم سحر كما كنتم تقولون ذلك في الدنيا، حيث يقولون: إن ما جاءت به الرسل سحر، ويصفون الرسول بأنه ساحر، فيقال: أسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، يعني لا تبصرون بعين البصيرة، بل أنتم عمي عن الحق- والعياذ بالله- {اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون} أي: احترقوا بها، والأمر هنا للإهانة، كقوله تعالى: {ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون}. فانظر إلى هؤلاء كيف تتهكم بهم الملائكة وتذلهم وتخزيهم- والعياذ بالله- وتهينهم، {اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم} يعني أن الصبر وعدمه سواء عليكم، ومعنى هذا أنه لن يفرج عنكم، سواء صبرتم أم لم تصبروا، مع أنه في الدنيا إذا أصيب الإنسان بشيء وصبر فإنه يفرج عنه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

{إنما تجزون ما كنتم تعملون} يعني ما تجزون إلا ما عملتم فلم تُظلموا شيئًا.

{فَاكِهِينَ} مُتَلَذِّذِينَ {بِمَا} مَصْدَرِيَّة {آتَاهُمْ} أَعْطَاهُمْ {رَبّهمْ وَوَقَاهُمْ رَبّهمْ عَذَاب الْجَحِيم} عَطْفًا عَلَى آتَاهُمْ أَيْ بِإِتْيَانِهِمْ وَوِقَايَتهمْ وَيُقَال لَهُمْ.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩).

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا} حَال أَيْ مُهَنَّئِينَ {بِمَا} الباء سببية {كنتم تعملون}.

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠).

{مُتَّكِئِينَ} حَال مِنْ الضَّمِير الْمُسْتَكِن فِي قَوْله {في جنات} {عَلَى سُرَر مَصْفُوفَة} بَعْضهَا إِلَى جَنْب بَعْض {وَزَوَّجْنَاهُمْ} عُطِفَ عَلَى جَنَّات أَيْ قَرَنَّاهُمْ {بِحُورٍ عِين} عِظَام الْأَعْيُن حِسَانهَا(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ}.

قال الطبري: يقول: "إن الذين اتقوا الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في جنات: يقول في بساتين ونعيم فيها، وذلك في الآخرة".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ}، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال".

عن السدي:" {جنات}، قال: البساتين ".

قال مجاهد:" الجنات: حوائط".

قوله تعالى: {فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} [الطور: ١٨]، أي:" يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذّ المختلفة".

قال ابن كثير:" أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك".

قال الفراء:" مُعْجَبِينَ بما آتاهم ربُّهم".

قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٩]، أي:" كلوا
=

=

طعامًا هنيئًا، واشربوا شرابًا سائغًا؛ جزاء بما عملتم من أعمال صالحة في الدنيا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كلوا واشربوا، يقال لهؤلاء المتقين في الجنات: كلوا أيها القوم مما آتاكم ربكم، واشربوا من شرابها هنيئا، لا تخافون مما تأكلون وتشربون فيها أذى ولا غائلة بما كنتم تعملون في الدنيا لله من الأعمال".

قال ابن كثير:" قوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، كقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤]. أي: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا ".

قال ابن عباس:" {هنيئا}، أي: لا يموتون فيها". وفي رواية:" أي لا تموتون فيها".

عن عكرمة في قوله: "{كلوا واشربوا هنيئا} أي: لا موت".

عن يوسف بن يعقوب الحنفي، قال: "بلغنا أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: "يا أوليائي، طالما نظرت إليكم في الدنيا، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وقد غارت أعينكم، وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية".

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ} [الطور: ٢٠]، أي:" وهم متكئون على سرر متقابلة".

قال مقاتل:" يعني: مصففة في الخيام".

قال ابن كثير:" معنى {مصفوفة}، أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الصافات: ٤٤] ".

قال الطبري:" قد جعلت صفوفا، وترك قوله: على نمارق، اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليه".

قال ابن عباس:" السرر في الحجال".

=

=

عن صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: "إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه".

قال ثابت: "بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا".

قوله تعالى: {وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [الطور: ٢٠]، أي:" وزوَّجناهم بنساء بيض واسعات العيون حسانهنَّ".

قال النحاس:" أي: قرنّاهم بهنّ".

قال الطبري: يقول:" وزوّجنا الذكور من هؤلاء المتقين أزواجا بحور عين من النساء، و «الحُور»: جمع حَوْراء، وهي الشديدة بياض مقلة العين في شدة سواد الحدقة، والعين: جمع عَيْنَاء، وهي العظيمة العَيْن في حُسن وسعة".

قال مقاتل:" {بِحُورٍ}، يعني: بيض الوجوه، {عِينٍ}، يعني: حسان العيون".

قال ابن كثير:" أي: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين ".

قال النحاس:" «الحور»- في اللغة-: البياض، ومنه الخبز الحوّاريّ، و {عِينٍ} جمع عيناء".

عن قتادة، قوله: "{كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [الدخان: ٥٤]، قال: بيضاء عيناء".

وقال مجاهد:" أنكحناهم بحور عين، والحُور: اللاتي يحار فيهنّ الطرف بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون".

=

=

عن أنس- رفعه نوح- قال: "لو أن حوراء بَزَقَت في بحر لُجِّي، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها".

وفي «العين»، وجهان من التفسير:

أحدهما: العظام الأعين، قاله الضحاك،السدي، وابن زيد، ويحيى بن سلام، والأخفش، وقطرب، وأبو عبيدة.

عن الضحاك:" العِين: العِظام الأعين".

قال ابن زيد:" العيناء: العظيمة العين".

قال يحيى:"بلغني عن عبد الله بن عمرو قال: شفر عينها أطول من جناح النسر".

وروي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: قلت: "يا رسول الله أخبرني عن قول الله: {حور عين}، قال: «العين: الضخام العيون؛ شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» ".

الثاني: الحسان العيون، قاله مجاهد، ومقاتل، وابن كثير.

عن مجاهد:" {عِينٌ}، قال: حِسان العيون".

قال ابن كثير:" أي: حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين. هو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢]، أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن، وهكذا الحور العين {خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} ".

قال الزجاج:" «عين»: كبار الأعين حسانها. الواحدة: عيناء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إن المتقين في جنات ونعيم} هذه الجملة خبرية

=

=

مؤكدة بإن، والتوكيد أسلوب من أساليب اللغة العربية، مستعمل عند العرب، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، وإلا ففي الواقع أن خبر الله ﷻ لا يحتاج إلى توكيد؛ لأنه أصدق القول، فالرب ﷻ إذا أخبر بخبر فإنه لا يحتاج إلى أن يؤكد، لأن خبر الله صدق، لكن لما كان القرآن العظيم نزل بلسان عربي صار جاريًا على ما كان يعرفه العرب في لغتهم، فهنا أكد الله ﷻ هذه الجملة: {إن المتقين في جنات ونعيم} والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالًا لأمره واجتنابًا لنهيه، هذه هي التقوى، فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالًا لأمر الله نقول: هو متق، والذي يدع الزنا نقول: هو متقٍ بترك الزنا، وإنما سمي ذلك تقوى لأنه وقاية من عذاب الله، فإن الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله ﷻ هؤلاء المتقون يقول الله ﷻ: {في جنات ونعيم}، وجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين في الآخرة، بدليل قول الله تبارك وتعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأَرض أعدت للمتقين} وإذا قلنا: إن الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده في الدار الآخرة، فهل يمكن أن تكون في الدنيا؟ نقول: أما بالنسبة لدخول الجنة التي هي الجنة فهذا لا يمكن في الدنيا، أما بالنسبة لكون الإنسان يأتيه من نعيم الجنة ما يأتيه، فهذا يمكن، وذلك في القبر إذا سُئل الإنسان عن ربه، ودينه، ونبيه، فأجاب الصواب، فإنه يفرش له فراش من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويُفسح له في قبره مُدَّ البصر،

وجمعت الجنات في الآية لأنها أنواع، ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع {ولمن خاف مقام ربه جنتان}. ثم قال: {ومن دونهما جنتان}. هذه الجنان الأربع تختلف بما جاء في وصفها في سورة الرحمن، {إن المتقين في جنات ونعيم} أي نعيم البدن، ونعيم القلب، فهم في سرور دائم، وهم في صحة دائمة،

=

=

وهـم في حياة دائمـة، فجميـع أنـواع النعيـم كاملـة لهـم، نـسأل الله أن يجعلنـا مـنهم {فاكهين بمآ ءاتهم ربهم}، الفاكه هو المسرور، كما في قوله تعالى: {وإذا انقلبوا إلى أهلهـم انقلبـوا فكهـين}. أي: مسرورين {بمآ ءاتهـم ربهـم} أي: بمـا أعطـاهم ربهـم مـن النعـيم، {ووقـاهم ربهـم عـذاب الجحـيم} فحـصلوا عـلى الـسلامة مـن الشرور بوقاية الجحيم، وعلى تمام السرور في جنات النعيم {كلـوا واشـربوا هنيئًا بما كنتم تعملون} (كلوا واشربوا) فعل أمر، وهذا الأمر ليس تكليفًا وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يقال لهـم: كلـوا مـن كـل مـا في الجنـة مـن النعـيم {فيهمـا مـن كـل فاكهة زوجان}. {فيهما فاكهة ونخل ورمان}. وفيها مـن كـل النعـيم، {واشـربوا} مما فيها مـن الأنهـار، وأنهـار الجنـة ذكرهـا الله تعـالى أربعـة في سـورة القتـال {مثـل الجنة التى وعد المتقون فيهآ أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيهـا مـن كـل الثمـرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم}.

هذه أربعة أنهار: من ماء غير آسن، أي: غير متغير، والمياه في الـدنيا إذا لـم يأتهـا مـا يمدها وبقيت راكدة لابد أن تتغير فتكـون آسـنة، ومـاء الجنـة لا يتغـير، غـير آسـن، وأنهـار مـن لـبن لـم يتغـير طعمـه، واللـبن في الـدنيا إذا أبقـي يتغـير ويفـسد، لكـن في الآخرة لا يتغير، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وخمر الدنيا فيه رائحة كريهة ثم أنه يقلب العاقل إلى مجنون، وفيه أيـضًا الـصداع، وفيـه فـساد المعـدة، لكنـه في الجنـة أنهار من خمر لذة للشاربين، وقد قال الله تعالى في سورة الصافات: {لا فيهـا غـول ولا هـم عنهـا ينزفـون}. والرابـع {وأنهـار مـن عـسل مـصفى} {هنيئًـا بمـا كنـتم تعملون} الهنيء هو الذي لا يكون له عاقبة سيئة، ولا تبعة من تجاوز، أو إسراف {بما كنتم تعملون} أي: بسبب ما كنتم تعملون، (فالباء) هنا للسببية، وليست الباء للعوض، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لـن يـدخل الجنـة أحـد

=

=

بعمله».

فإن قيل: إن الله تعالى قال: {كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون}، فجعل الله تعالى ذلك بسبب العمل، والرسول ﷺ يقول: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» مع أن الله يقول: {بما كنتم تعملون}؟

والجواب على هذا الإشكال أن يقال: الباء تأتي للسببية، وتأتي للبدلية، فإذا قيل: دخل الرجل الجنة بعمله، فالمعنى السببية، وإذا قال: لن يدخل الجنة أحد بعمله، فالمعنى البدلية، وأضرب مثلًا يبين هذا: بعتك الثوب بدرهم، فالباء للبدلية، لأن الدرهم صار عوضًا عن الثوب، وإذا قلت: أدبت الولد بعبثه، هذه للسببية، إذن كلنا لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو حاسبنا على عملنا ما قابل عملنا نعمة من نعم الله، نعمة واحدة. فالنفس الآن الذي هو من ضرورة الحياة يخرج منك ويدخل بدون تعب، وبدون مشقة، وكم يتنفس الإنسان في الدقيقة؟! فلو أننا حوسبنا على أعمالنا بالمعاوضة والمبادلة لكانت نعمة واحدة تستوعب جميع العمل، ونحن الآن لا نحس بنعمة النفس لكن لو أصيب أحد منا بكتم النفس لوجد أن النفس من أكبر نعم الله، لذلك نقول: إن الباء في قوله: {بما كنتم تعملون} للسببية وليست للبدلية، وفي قوله: {بما كنتم تعملون} شمول لكل العمل: الجوارح، والقلب، واللسان. فالجوارح: كالأفعال، كالركوع، والسجود. والأقوال: كالأذكار. والقلوب: كالخوف، والرجاء، والتوكل وما أشبه ذلك، فكل هذه تسمى أعمالنا.

{متكئين على سرر} متكئين حال، أي: حال كونهم متكئين، والمتكىء تدل هيئته على أنه في سرور وانشراح وطمأنينة، لأن الاتكاء يدل على ذلك، والسرر جمع سرير، وهي الكراسي الفخمة المهيئة أحسن تهيئة للجالس عليها، {مصفوفة} أي مصفوف بعضها إلى بعض، يصفها الخدم والولدان، {وزوجنهم بحور عين}،

=

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١).

{والذين آمنوا} مبتدأ {وَأَتْبَعْنَاهُمْ} وَفِي قِرَاءَة وَاتَّبَعَتْهُمْ مَعْطُوف عَلَى آمَنُوا {ذرياتهم} وَفِي قِرَاءَة ذُرِّيَّتهمْ الصِّغَار وَالْكِبَار {بِإِيمَانٍ} مِنْ الكبار ومن أولادهم الصغار والخبر {ألحقنا بهم ذرياتهم} الْمَذْكُورِينَ فِي الْجَنَّة فَيَكُونُونَ فِي دَرَجَتهمْ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا تكْرِمَة لِلْآبَاءِ بِاجْتِمَاعِ الْأَوْلَاد إلَيْهِمْ {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ} بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا نَقَصْنَاهُمْ {مِنْ عَمَلهمْ مِنْ} زَائِدَة {شَيْء} يُزَاد فِي عَمَل الْأَوْلَاد {كُلّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ} مِنْ عَمَلٍ خَيْر أَوْ شَرّ {رَهِين} مَرْهُون يُؤَاخَذ بِالشَّرِّ ويجازي بالخير.

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢).

{وَأَمْدَدْنَاهُمْ} زِدْنَاهُمْ فِي وَقْت بَعْد وَقْت {بِفَاكِهَةٍ وَلَحْم مِمَّا يَشْتَهُونَ} وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحُوا بِطَلَبِهِ.

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣).

{يَتَنَازَعُونَ} يَتَعَاطَوْنَ بَيْنهمْ {فِيهَا} أَيْ الْجَنَّة {كَأْسًا} خَمْرًا {لَا لَغْو فِيهَا} أَيْ بِسَبَبِ شُرْبهَا يَقَع بَيْنهمْ {وَلَا تَأْثِيم} بِهِ يَلْحَقهُمْ بِخِلَافِ خمر الدنيا.

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤).

{وَيَطُوف عَلَيْهِمْ} لِلْخِدْمَةِ {غِلْمَان} أَرِقَّاء {لَهُمْ كَأَنَّهُمْ} حُسْنًا وَلَطَافَة

=

أي: قرناهم بحور عين، والحور جمع حوراء، والعين جمع عيناء، والأصل الحور هو البياض، وأما العيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهن حسان الوجوه، حسان الأعين.

{لُؤْلُؤ مَكْنُون} مَصُون فِي الصَّدَف لِأَنَّهُ فِيهَا أَحْسَن مِنْهُ فِي غَيْرهَا.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥).

{وَأَقْبَلَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ} يَسْأَل بَعْضهمْ بَعْضًا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَمَا وَصَلُوا إلَيْهِ تَلَذُّذًا وَاعْتِرَافًا بِالنِّعْمَةِ.

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦).

{قَالُوا} إيمَاء إلَى عِلَّة الْوُصُول {إنَّا كُنَّا قَبْل فِي أَهْلنَا} فِي الدُّنْيَا {مُشْفِقِينَ} خَائِفِينَ مِنْ عَذَاب الله.

فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧).

{فَمَنَّ الله عَلَيْنَا} بِالْمَغْفِرَةِ {وَوَقَانَا عَذَاب السَّمُوم} النَّار لِدُخُولِهَا فِي الْمَسَامّ وَقَالُوا إيمَاء أَيْضًا.

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨).

{إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْل} أَيْ فِي الدُّنْيَا {نَدْعُوهُ} نَعْبُدهُ مُوَحِّدِينَ {إنَّهُ} بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا وَإِنْ كَانَ تَعْلِيلًا مَعْنَى وَبِالْفَتْحِ تَعْلِيلًا لَفْظًا {هُوَ الْبَرّ} الْمُحْسِن الصَّادِق فِي وَعْده {الرَّحِيم} الْعَظِيم الرحمة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطور: ٢١]، أي:" والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم في الإيمان، وألحقنا بهم ذريتهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغوا عمل آبائهم؛ لتَقَرَّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيُجْمَع بينهم على أحسن الأحوال".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن =

=

الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل، بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك".

قال الزمخشري:" فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم".

قال السعدي:" وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعا لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئا".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ} [الطور: ٢١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن الله تعالى يعطي الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئًا، قاله إبراهيم، والربيع.

قال إبراهيم:" أعطوا مثل أجور آبائهم، ولم ينقص من أجورهم شيئًا".

وعن الربيع: "{وأَتْبَعْناهُم ذُرِّيَّاتِهِمْ بإيمانٍ}، يقول: أعطيناهم من الثواب ما أعطيناهم، {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، يقول: ما نقصنا آباءهم شيئا".

وروي عن سعيد بن جبير، قال:" ألحق الله ذرياتهم بآبائهم، ولم ينقص الآباء من أعمالهم، فيردَّه على أبنائهم".

وقال عامر:" فأدخل الله الذرّية بعمل الآباء الجنة، ولم ينقص الله الآباء من عملهم شيئا، قال: فهو قوله: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} ".

الثاني: أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التي عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها، قاله ابن زيد.

=

قال ابن زيد:" أدرك أبناؤهم الأعمال التي عملوا، فاتبعوهم عليها واتبعتهم ذرّياتهم التي لم يدركوا الأعمال، فقال الله جلّ ثناؤه: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، قال: يقول: لم نظلمهم من عملهم من شيء فننقصهم، فنعطيه ذرّياتهم الذين ألحقناهم بهم، الذين لم يبلغوا الأعمال ألحقتهم بالذين قد بلغوا الأعمال".

الثالث: أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم، قاله قتادة.

قال مقاتل:" يعني: من أدرك العمل من أولاد بني آدم المؤمنين فعمل خيرا فهم مع آبائهم في الجنة".

الرابع: معنى ذلك: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرّيَّاتهم التي بلغت الإيمان بإيمانٍ، ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار التي لم تبلغ الإيمان، وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء. رواه عطية العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك.

قال ابن عباس:" الذين أدرك ذريتهم الإيمان، فعملوا بطاعتي، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار نلحقهم بهم".

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق جويبر- في قوله: "{ذريتهم بإيمان}، يعني: الذين لم يبلغوا العمل، «أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيّاتِهِمْ» يعني: الصغار الذين لم يبلغوا الحِنث فدخلوا الجنة".

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: «والَّذِينَ آمَنُوا وأَتْبَعْناهُمْ ذُرِّياتِهُمْ بِإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيّاتِهِمْ»، يقول: مَن أدرك ذُرّيته الإيمان، فعملوا بطاعتي أَلْحقتُهم بآبائهم في الجنة، وأولادهم الصغار أيضًا على ذلك".

الخامس: أن الله يدخل الذرية بإيمان الآباء الجنة، وإن كانوا لم يبلُغوا أعمال آبائهم تكرمةً من الله تعالى لآبائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وبه قال الطبري.

قال ابن عباس:" إن الله تبارك وتعالى يرفع للمؤمن ذريته، وإن كانوا دونه في

=

العمل، ليقرّ الله بهم عينه".

قال ابن عباس:" هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم، أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئا".

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس- أظنه عن النبي ﷺ- قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به»، وقرأ ابن عباس {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ} الآية".

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، القول الذي ذكرنا عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو: والذين آمنوا بالله ورسوله، وأتبعناهم ذرياتهم الذين أدركوا الإيمان بإيمان، وآمنوا بالله ورسوله، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان فآمنوا، في الجنة فجعلناهم معهم في درجاتهم، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم تكرمة منا لآبائهم، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئا. وإنما قلت: ذلك أولى التأويلات به، لأن ذلك الأغلب من معانيه، وإن كان للأقوال الأخر وجوه".

قال الشوكاني:" ومعنى هذه الآية: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه وإن كانوا دونه في العمل لتقر عينه، وتطيب نفسه، بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية. وقيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم، ويكون قوله: بإيمان في محل نصب على الحال، أي: بإيمان من الآباء. وقيل: إن الضمير في «بهم» راجع إلى الذرية المذكورة أولا، أي: ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم. وقيل: المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار فقط،

=

=

وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

قال ابن كثير:" هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد،... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» ".

روي عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

قال الشَّافِعِي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "فإن قال قائل: فما الحجة أن للصبي حجًا، ولم يكتب عليه فرضه؟ قيل: إن الله بفضل نعمته أناب الناس على الأعمال أضعافها، ومَن على المؤمنين بأن ألحقَ بهم ذرياتهم، ووفر عليهم أعمالهم. فقال: {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} الآية، فلما مَنَّ على الذراري بإدخالهم جنته بلا عمل، كان أن من عليهم بأن بكتب لهم عمل البر في الحج، وإن لم يجب عليهم من ذلك المعنى- ثم ذكر

دليلًا حديث المرأة التي رفعت للنبي- ﷺ- صبيًا- فقالت: يا رسول ألهذا حج؟ قال- ﷺ -: «نعم، ولَكِ أجر»، الحديث -".

قال القشيري:" يكمل عليهم سرورهم بأن يلحق بهم ذرّياتهم فإنّ الانفراد بالنعمة عمّن القلب مشتغل به من الأهل والولد والذرية يوجب تنغص العيش، وكذلك كلّ من قلب الوليّ يلاحظه من صديق وقريب، ووليّ وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} [يوسف: ٩٣] ".

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والحسن وقتادة وأهل مكة: «واتبعتهم ذريتهم» «بهم ذريتهم»، وقرأ نافع وأبو

=

=

جعفر وابن مسعود بخلاف عنه وشيبة والجحدري وعيسى، «وأتبعناهم ذريتهم» «بهم ذرياتهم»، وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة. وقرأ ابن عامر وابن عباس وعكرمة وابن جبير والضحاك: «واتبعتهم ذريتهم» «بهم ذريتهم». وقرأ أبو عمرو والأعرج وأبو رجاء والشعبي وابن جبير والضحاك: «وأتبعناهم ذريتهم» «بهم ذريتهم».

قال ابن عطية:" فكون الذرية جمعا في نفسه حسن الإفراد في هذه القراءات، وكون المعنى يقتضي انتشار أو كثرة حسن جمع الذرية في قراءة «ذرياتهم».

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرو: «وأتبعنهم»، بالنون.

قوله تعالى: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]، أي:" وما نقصناهم شيئًا من ثواب أعمالهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما ألتنا الآباء، يعني بقوله: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ}، وما نقصناهم من أجور أعمالهم شيئا، فنأخذه منهم، فنجعله لأبنائهم الذين ألحقناهم بهم، ولكنا وفَّيناهم أجور أعمالهم، وألحقنا أبناءهم بدرجاتهم، تفضلا منا عليهم. والألت في كلام العرب: النقص والبخس".

قال القشيري:" أي: ما أنقصنا من أجورهم من شيء بل وفينا ووفّرنا. وفي الابتداء نحن أولينا وزدنا على ما أعطينا".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ما نقصناهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن انس، قال رؤبة :

وليلةٍ ذات نَدى سَرَيتُ... ولم يَلتْني عنْ سُرَاها لَيْت

أي: لم ينقصني.

قال مجاهد:" ما نقصنا الآباء للأبناء".

=

=

قال الربيع بن انس:" يقول: ما نقصنا آباءهم شيئا".

الثاني: معناه: وما ظلمناهم، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، قال الحطيئة :

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة... جهد الرسالة لا ألتًا ولا كذبًا

أي: لا ظلمًا، ولا كذبًا.

قال قتادة:" يقول: وما ظلمناهم من عملهم من شيء".

قال ابن زيد:" يقول: لم نظلمهم من عملهم من شيء: لم ننتقصهم فنعطيه ذرّياتهم الذين ألحقناهم بهم لم يبلغوا الأعمال ألحقهم بالذين قد بلغوا الأعمال: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، قال: لم يأخذ عمل الكبار فيجزيه الصغار، وأدخلهم برحمته، والكبار عملوا فدخلوا بأعمالهم".

ومعنى الكلام: "لم نظلم الآباء بما أعطينا الأبناء، وإنما فعل تعالى ذلك بالأبناء تكرمة للآباء".

قرأ جمهور القراء: «ألتناهم» بفتح الألف من ألت. وقرأ ابن كثير وأبو يحيى وشبل: «ألتناهم» من ألت بكسر اللام. وقرأ الأعرج: «ألتناهم» على وزن أفعلناهم. وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود: «لتناهم» من لات، وهي قراءة ابن مصرف. ورواها القواس عن ابن كثير.

قوله تعالى: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١]، أي:" كل إنسان مرهون بعمله، لا يحمل ذنب غيره من الناس".

قال ابن عباس: "ارتهن أهل جهنم بأعمالهم".

عن علي بن أبي طالب -عليه السلام-: "{كل نفس بما كسبت رهينة} [المدثر: ٣٨]، يعني: «مرتهنة» ".

عن الضحاك:" {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}، قال: كل نفس سبقت له كلمة

=

=

العذاب يرتهنه الله في النار، لا يرتهن الله أحدا من أهل الجنة، ألم تسمع أنه قال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ}، يقول: ليسوا رهينة {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ} ".

قال الطبري:" يقول: كلّ نفس بما كسبت وعملت من خير وشرّ مرتهنة لا يؤاخذ أحد منهم بذنب غيره، وإنما يعاقب بذنب نفسه".

قال ابن كثير:" أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، أي: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ} [المدثر: ٣٨- ٤١] ".

قال السعدي:" ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكما واحدا، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحدا إلا بذنب، ولهذا قال: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} أي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور".

قوله تعالى: {وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [الطور: ٢٢]، أي:" وزدناهم على ما ذُكر من النعيم فواكه ولحومًا مما يستطاب ويُشتهى".

قال ابن عباس: "يعني: غير الذي كان لهم زيادة من الله تعالى أمدهم بها".

قال الطبري:" وأمددنا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، واتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجنة، بفاكهة ولحم مما يشتهون من اللحمان".

قال ابن كثير:" أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى".

=

قال السعدي:" أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، {بِفَاكِهَةٍ} من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، {وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها".

قوله تعالى: {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا} [الطور: ٢٣]، أي:" يتعاطون في الجنة كأسًا من الخمر، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذذًا وتأنسا".

قال أبو عبيدة:" يتعاطون، أي: يتداولون، قال الأخطل :

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاح الشَّمول وقَدْ... صَاحَ الدَّجاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّاري".

قال الطبري:" يقول: يتعاطون فيها كأس الشراب، ويتداولونها بينهم".

قال السعدي:" أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس".

قال القرطبي:" أي: يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة. والكأس: إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره".

قال الزجاج:" «الكأسُ» -في اللُغة-: الإِنَاءُ المملوء، فإذا كان فارغًا فليس بكأس".

قال مجاهد:" الكأس: كل شيء يشرب فيه الخمر "".

قوله تعالى: {لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور: ٢٣]، أي:" لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إِثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا".

قال الطبري:" يقول: لا باطل في الجنة، ولا فعل فيها يُؤْثم صاحبه. وقيل: عنى بالتأثيم: الكذب".

قال السعدي:" أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها

=

سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم".

وفي قوله تعالى: {لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور: ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: لا باطل في الخمر ولا مأثم، قاله ابن عباس.

قال قتادة:" أي: لا لغو فيها ولا باطل، إنما كان الباطل في الدنيا مع الشيطان".

وقال قتادة:" ليس فيها لغو ولا باطل، إنما كان اللغو والباطل في الدنيا".

قال الزجاج:" معناه: لا يجري بينهم ما يُلْغَى، أي: لا يجري بينهم باطل ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لِشَرَبَةِ الخمر".

الثاني: لا كذب فيها ولا حلف، قاله الضحاك، ومقاتل.

قال مقاتل:" يعني: لا حلف في شربهم، ولا مأثم، يعني: ولا كذب كفعل أهل الدنيا إذا شربوا الخمير".

الثالث: لا لغو في الجنة ولا كذب، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا. و «اللغو» - ها هنا-: فحش الكلام كما قال ذو الرمة :

فلا الفحش فيه يرهبون ولا الخنا... عليهم ولكن هيبة هي ما هيا

لمُسْتَحْكِمٌ جَزْل المُرُوءَةِ مؤمِنٌ... مِنَ الْقَوْمِ، لَا يَهْوى الْكَلَامَ اللَّواغِيا

الرابع: لا يتسابون عليها ولا يؤثم بعضهم بعضًا، قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: "{لا لَغْوٌ فِيهَا}، قال: لا يستبون، {وَلا تَأْثِيمٌ}، يقول: ولا يؤثمون".

وعن ابن زيد:" لا سباب ولا تخاصم فيها".

قال ابن قتيبة:" أي: لا تَذهبُ بعقولهم فيَلْغُوا أو يَرفُثوا فيأثموا. كما يكون ذلك في خمر الدنيا".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أي: هَذَيَان ولا إثـم، أي: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها- كما تقدم- صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزفُونَ} [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال {لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزفُونَ} [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ} ".

وقال ابن عطاء: "أي: لغو يكون في مجلس محلّه جنة عدن، والساقي فيه الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم تحية من عند الله مباركة طيبة، والقوم أضياف الله".

وقرئ: «لا لَغْوَ فيها وَلا تَأْثِيَمَ»، نصبا غير منوّن على وجه التبرئة.

قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ} [الطور: ٢٤]، أي:" ويطوف عليهم غلمان مُعَدُّون لخدمتهم".

قال الطبري: يقول:" ويطوف على هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في الجنة غلمان لهم".

قال السعدي:" أي: خدم شباب".

قال مقاتل:" لا يكبرون أبدا {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُون}، يقول كأنهم في الحسن والبياض مثل اللؤلؤ المكنون في الصدف لم تمسسه الأيدي، ولم تره الأعين، ولم يخطر على قلب بشر".

قال سعيد بن جُبَير:" {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}، يعني: في الصّدف".

=

=

قال سعيد بن المسيب: "{ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} هو مخزون في الصّدف".

عن ابن جُرَيْج، " {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}، قال: الذي لم تمرّ عليه الأيدي".

قال عبد الله بن عمر -من طريق قتادة- " {ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}: وما من أحدٍ من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلامٍ، وكلّ غلام على عملٍ ما عليه صاحبه".

وفي قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ} [الطور: ٢٤]، وجهان:

أحدهما: أن يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقَرَّ الله بهم أعينهم.

الثاني: أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم.

قال ابن كثير: "إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٧، ١٨] ".

قال قتادة: "ذُكر لنا أن رجلا قال: يا نبيّ الله هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ قال: "والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب".

قال قتادة: "بلغني أنه قيل: يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ، فكيف المخدوم؟ قال: "والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ فَضْل ما بَيْنَهُمَا كفَضْل القَمَر لَيْلَة البَدر على النجوم".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} [الطور: ٢٤]، أي:" كأنهم في الصفاء والبياض والتناسق لؤلؤ مصون في أصدافه".

قال الطبري: يقول:" كأنهم لؤلؤ في بياضه وصفائه مكنون، يعني: مصون في كنّ، فهو أنقى له، وأصفى لبياضه. وإنما عنى بذلك أن هؤلاء الغلمان يطوفون على هؤلاء المؤمنين في الجنة بكئوس الشراب التي وصف جل ثناؤه صفتها".

=

=

قال السعدي:" {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم".

قوله تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الطور: ٢٥]، أي:" وأقبل أهل الجنة، يسأل بعضهم بعضًا عن عظيم ما هم فيه وسببه".

قال مقاتل:" يقول إذا زار بعضهم بعضا في الجنة فيتساءلون بينهم عما كانوا فيه من الشفقة في الدنيا،".

قال ابن كثير: "أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم".

قال الطبري: يقول: "وأقبل بعض هؤلاء المؤمنين في الجنة على بعض، يسأل بعضهم بعضا. وقد قيل: إن ذلك يكون منهم عند البعث من قبورهم".

عن ابن عباس، قوله: "{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}، قال: إذا بعثوا في النفخة الثانية".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [الطور: ٢٦]، أي:" قالوا: إنا كنا قبل في الدنيا -ونحن بين أهلينا- خائفين ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه يوم القيامة".

قال ابن كثير: "أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه".

قال الطبري: يقول: "قال بعضهم لبعض: إنا أيها القوم كنا في أهلنا في الدنيا مُشفقين خائفين من عذاب الله وجلين أن يعذبنا ربنا اليوم".

قال السعدي:" أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك

=

=

العيوب".

عن إبراهيم التيمي، قال: "ينبغي لمن يحزن أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن}، وينبغي لمن يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} ".

قوله تعالى: {فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٧]، أي:" فمنَّ الله علينا بالهداية والتوفيق، ووقانا عذاب سموم جهنم، وهو نارها وحرارتها".

قال الطبري: يقول: "{فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا} بفضله، {وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}، يعني: عذاب النار، يعني فنجَّانا من النار، وأدخلنا الجنة".

قال ابن كثير: "أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف".

قال السعدي:" {فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا} بالهداية والتوفيق، {وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} أي: العذاب الحار الشديد حره".

عن ابن زيد، قوله: "{عَذَابَ السَّمُومِ}، قال: عذاب النار".

عن ابن جُرَيْج، " {ووَقانا عَذابَ السَّمُومِ}، قال: وهَج النار".

قال الزجاج:" أي: عذاب سموم جهنم".

قال الحسن: "السموم: اسم من أسماء النار وطبقة من طبقات جهنم".

عن مسروق، عن عائشة أنها قرأت هذه الآية: "{فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} فقالت: اللهم منَّ علي وقني عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم".

عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، قال: "غدوت يوما، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فأسلم عليها، فوجدتها ذات يوم تصلي السبحة، وهي تقرأ: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧)} وترددها وتبكي، فقمت حتى مللت ثم ذهبت إلى السوق في حاجتي ثم رجعت، فإذا هي قائمة تقرؤها وتبكي

=

=

وتدعو".

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ} [الطور: ٢٨]، أي:" إنا كنا من قبلُ نضرع إليه وحده لا نشرك معه غيره أن يقينا عذاب السَّموم ويوصلنا إلى النعيم، فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا".

قال الطبري: "يقول: إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ندعوه: نعبده مخلصا له الدين، لا نشرك به شيئا".

قال الزجاج:" أي: نُوَحِّدُه ولا ندعو إلهًا غيره".

قال ابن كثير: أي: نتضرع إليه فاستجاب الله لنا وأعطانا سؤلنا".

قال السعدي: أي:" أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات وندعوه في سائر الأوقات".

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور: ٢٨]، أي:" هو البَرُّ الرحيم. فمن بِره ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا مِن سخطه والنار".

قال الطبري: "{إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ}، يعني: اللطيف بعباده، {الرَّحِيمِ}، يقول: الرحيم بخلقه أن يعذّبهم بعد توبتهم".

قال السعدي: "فمن بره بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار".

وفي تفسير: {الْبَرُّ} [الطور: ٢٨]، أقوال:

أحدها: أن البر الصادق في قوله، قاله الضحاك، وابن جريج، ومقاتل.

عن الضحاك:" {إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ} الصادق فيما وعد".

الثاني: اللطيف، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه فاعل البر المعروف به، قاله ابن بحر.

=

=

عن مسروق، عن عائشة؛ "أنها قرأت هذه الآية: {فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم".

عن أسماء: "أنها قَرأتْ هذه الآية، فوقفتْ عليها، فجَعلت تستعيذ وتدعو".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة {ندعوه إنه} بالكسر، وقرأ نافع والكسائي «أنه» نصبا، وقال ابن جماز عن نافع إنه كسر مثل حمزة.

قال العثيمين: قوله تعالى: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمن ألحقنا بهم ذريتهم} أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعًا هي الذرية الصغار، فيقول الله ﷻ {ألحقنا بهم ذريتهم} أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأما الكبار الذين تزوجوا فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بآبائهم، لأن لهم ذرية فهم في مقرهم، أما الذرية الصغار التابعون لآبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء، ولهذا قال: {ومآ ألتنهم من عملهم من شيء} أي: نقصناهم، يعني أن ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية، {كل امرىء بما كسب رهين} هذه قاعدة عامة في جميع العاملين أن كل واحد فإنه رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أما الزيادة فهي فضل من الله تبارك وتعالى على من شاء من عباده {وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون} أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمرًا إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، {ولحم مما يشتهون} أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله تبارك وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى ما يكون من اللحم وأبرأه وأمرأه {يتنزعون فيها

كأسًا} أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضًا على سبيل المداعبة، وعلى سبيل

=

=

الأنس والانشراح {كأسًا لا لغو فيها ولا تأثيم} والمراد بها كأس الخمر، ومعنى {لا لغو فيها ولا تأثيم} أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض {ويطوف عليهم} أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين {غلمان لهم} أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة {كأنهم} أي: الغلمان {لؤلؤ مكنون} أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} أي صار بعضهم يسائل بعضًا، لكنه على وجه الأدب يتكلم معه وهو مقابل له لوجهه فلا يصعر خده له ولا يستدبره، بل يتكلم معه بأدب ومقابلة تامة {قالوا} أي: قال بعضهم لبعض: {إنا كنا قبل} أي: في الدنيا {في أهلنا مشفقين} أي خائفين من عذاب الله {فمن الله علينا} أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، {ووقانا عذاب السموم} أي: عذاب النار {إنا كنا من قبل} أي: قبل أن نصل إلى هذا المقر، وذلك في الدنيا {ندعوه} أي: نعبده ونسأله، لأن الدعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السؤال، فمن إطلاقه على العبادة قول الله تبارك وتعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين}.

وأما الدعاء بمعنى السؤال ففي قوله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون}.

فقولهم: {إنا كنا من قبل ندعوه} يشمل دعاء العبادة كالصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين وصلة الأرحام، كل هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلو سألت الداعي لماذا تعبد الله، ولو سألت العابد لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدعاء، كذلك ندعوه دعاء

=

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩).

{فَذَكِّرْ} دُمْ عَلَى تَذْكِير الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَرْجِع عَنْهُ لِقَوْلِهِمْ لَك كَاهِن مَجْنُون {فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبّك} بِإِنْعَامِهِ عَلَيْك {بِكَاهِنٍ} خَبَر مَا {وَلَا مَجْنُون} مَعْطُوف عَلَيْهِ.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠).

{أَمْ} بَلْ {يَقُولُونَ} هُوَ {شَاعِر نَتَرَبَّص بِهِ رَيْب الْمَنُون} حَوَادِث الدَّهْر

=

مسألة، لا يسألون غير الله ولا يلجئون إلا إلى الله، لأنهم يعلمون أنهم مفتقرون إليه، وأنه هو القادر على كل شيء {إنه هو البر الرحيم} (البر) بمعنى الواسع الإحسان والرحمة، ومن ذلك البرية، للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنه جل وعلا واسع الإحسان والعطاء والجود (الرحيم) أي ذو الرحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تبارك وتعالى، وفي هذه الآيات بيان نعيم أهل الجنة، وفيها أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عذاب أهل النار ذكر نعيم أهل الجنة، لأن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر فيه الخير ذكر فيه الشر، وإذا ذكر فيه نعيم المتقين ذكر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتى يكون قارىء القرآن بين الخوف والرجاء، إن قرأ آيات النعيم رجا، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبد الله تبارك وتعالى بهذا وهذا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنات الناجين من الدركات، إنه على كل شيء قدير.

{فذكر فمآ أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون}، الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمذكر محذوف، والتقدير: ذكر الناس، أو إن شئت فقل: ذكر من أرسلت إليهم من الجن والإنس، {فمآ أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} هذا نفي لما ادعاه المكذبون للرسول ﷺ بأنه كاهن أو مجنون.

فَيَهْلَك كَغَيْرِهِ مِنْ الشعراء.

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١).

{قُلْ تَرَبَّصُوا} هَلَاكِي {فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} هَلَاكَكُمْ فَعُذِّبُوا بِالسَّيْفِ يَوْم بَدْر وَالتَّرَبُّص الِانْتِظَار.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢).

{أَمْ تَأْمُرهُمْ أَحْلَامهمْ} عُقُولهمْ {بِهَذَا} قَوْلهمْ لَهُ سَاحِر كَاهِن مَجْنُون أَيْ لَا تَأْمُرهُمْ بِذَلِكَ {أَمْ} بَلْ {هُمْ قَوْم طَاغُونَ} بِعِنَادِهِمْ.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣).

{أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ} اخْتَلَقَ الْقُرْآن لَمْ يَخْتَلِقهُ {بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} اسْتِكْبَارًا فَإِنْ قَالُوا اخْتَلَقَهُ.

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤).

{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ} مُخْتَلَق {مِثْله إنْ كَانُوا صَادِقِينَ} في قولهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن قريشًا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ؛ قال قائل منهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم؛ فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ١٩): ثني سعيد بن يحيى الأموي ثني أبي ثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس به.

وهذا سند ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، فإن وجد فيه موضع قد صرح فيه بالتحديث؛ فهو حسن، وإلا؛ فلا.

=

=

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى لأهل الجنة: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)} [الطور: ١٩]، قوله: هنيئًا؛ أي: لا تموتون فيها؛ فعندها قالوا: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)} [الصافات: ٥٨، ٥٩].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٤٤)، والنحاس في "الناسخ والمنسوخ" (ص ٢٣٠)، والبيهقي في "إثبات القدر" (ص ٦٢١) من ثلاث طرق عن أبي صالح ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف.

* قوله تعالى: {فَذَكِّرْ} [الطور: ٢٩]، أي:" فذكِّر -أيها الرسول- مَن أُرسلت إليهم بالقرآن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فذكر يا محمد من أرسلت إليه من قومك وغيرهم، وعظهم بنعم الله عندهم".

قال الزجاج:" أي: ذكرهم بما أعتَدْنَا للمتقِينَ المؤمنين والضلال للكافِرين".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه".

عن مجاهد في قوله:" {وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: ذَكِّر بالقرآن".

قوله تعالى: {فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور: ٢٩]، أي:" فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة ورجاحة العقل بكاهن يخبر بالغيب دون علم، ولا مجنون لا يعقل ما يقول كما يَدَّعون".

قال الطبري:" يقول: فلست بنعمة الله عليك بكاهن تتكهن، ولا مجنون له رئيّ يخبر عنه قومه ما أخبره به، ولكنك رسول الله، والله لا يخذلك، ولكنه ينصرك".

قال الزجاج:" أي: لست تقول ما تَقُولُه كهانَة، ولا تنطق إِلَّا بَوَحيٍ من الله ﷻ".

=

=

قال ابن كثير:" ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ}، أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، {وَلا مَجْنُونٍ}: وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس".

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور: ٣١]، أي:" أم يقول المشركون لك -أيها الرسول-: هو شاعر ننتظر به نزول الموت؟ ".

قال الطبري: يقول:" بل يقول المشركون يا محمد لك: هو شاعر نتربص به حوادث الدهر، يكفيناه بموت أو حادثة متلفة".

وفي قوله تعالى: {رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور: ٣١]، وجهان:

أحدهما: الموت، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد. وأنشد قول الشاعر :

تَرَبَّصْ بِها رَيْبَ المَنُونِ لَعَلَّهَا... سَيَهْلِكُ عَنْها بَعْلها أو تُسَرَّحُ

قال ابن عباس:" يتربصون به الموت".

قال قتادة:" قال ذلك قائلون من الناس: تربصوا بمحمد رسول الله ﷺ الموت يكفيكموه، كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان".

قال مقاتل:" يعني: حوادث الموت، قالوا توفي أبو النبي- ﷺ- عَبْد الله بن عبد المطلب وهو شاب، ونحن نرجو من اللات والعزى أن تميت محمدا شابا كما مات أبوه، يعني بريب المنون حوادث الموت".

الثاني: حوادث الدهر، قاله مجاهد، وهو مروي عن ابن عباس-في رواية أخرى عنه-، وبه قال ابن قتيبة، والزجاج، والمنون: الدهر، قال أبو ذؤيب :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِه تَتَوَجَّعُ... والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ

عن ابن عباس:" {ريب} شكٌّ، إلا مكانًا واحدًا في الطور؛ {رَيْبَ الْمَنُونِ} يعني: حوادث الأمور، قال الشاعر:

=

=

تَرَبَّصْ بها رَيبَ المَنُون لعلّها... تُطلّق يومًا أو يموت حَليلها".

قال ابن قتيبة:" أي: حوادثَ الدهر وأوجاعه ومصائبه و «المنون»: الدهر".

قال الفراء: {رَيْبَ الْمَنُون} : "أوجاعَ الدَّهر، فيشغل عنكم، ويتفرّقُ أصحابهُ أَوْ عُمْر آبائه، فإنَّا قد عرفنا أعمارَهم".

قال الزمخشري:" قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة".

وروي عن أبي سنان: "{رَيْبَ الْمَنُونِ}، قال: ريب الدنيا، والمنون: الموت".

قال ابن كثير:" أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ".

قال الأصمعي: "المنون والليل والنهار، وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه: أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمنة الحيوان أي قوته وكذلك المنية".

قال الكسائي: "تقول العرب: لا أكلمك آخرَ المنون، أي آخرَ الدهر".

قوله تعالى: {قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} [الطور: ٣١]، أي:" قل لهم: انتظروا موتي فإني معكم من المنتظرين بكم العذاب، وسترون لمن تكون العاقبة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقولون لك: إنك شاعر نتربص بك ريب المنون، تربصوا: أي: انتظروا وتمهلوا فيّ ريب المنون، فإني معكم من المتربصين بكم، حتى يأتي أمر الله فيكم".

قال ابن كثير:" أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة ".

قال الزمخشري: أي:" أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي".

=

=

قال الحسن البصري: "قال الله للنبي: {قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ}، كانوا يتربّصون بالنبي أن يموت، وكان النبي يتربّص بهم أن يأتيهم العذاب".

قال مقاتل:" فقتلهم الله ببدر".

قال الزجاج:" فجاء في التفسير أن هؤلاء الذين قالوا هذا- وكان فيهم أبو جهل- هلكوا كلهم قبل وفاة رسول اللهِ- ﷺ -".

قوله تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا} [الطور: ٣٢]، أي:" بل أتأمر هؤلاء المكذبين عقولهم بهذا القول المتناقض؟ ".

قال الطبري: يقول:" يقول تعالى ذكره: أتأمر هؤلاء المشركين أحلامهم بأن يقولوا لمحمد ﷺ: هو شاعر، وأن ما جاء به شعر".

قال الزجاج:" أي: أتأمرهم أَحْلَامُهُم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد وتأتيهم على ذلك بالدلائل، ويعملون أَحْجَارًا ويعبدونها".

قال ابن كثير:" أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ".

قال الزمخشري:" المعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى.. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قلت: هو مجاز لأدائها إلى ذلك، كقوله تعالى: {أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [هود: ٨٧] ".

قال الفراء:" (الأحلامُ)-فِي هَذَا الموضع-: العقولُ والألبابُ".

عن زيد بن اسلم:" {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ}، قال: العقول".

قال ابن زيد:" كانوا يعّون في الجاهلية أهل الأحلام، فقال الله: أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناما بُكما صما، ويتركوا عبادة الله، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لدنياهم، ولم تكن عقولهم في دينهم، لم تنفعهم أحلامهم".

=

=

قال الثعلبي:" كانوا يعدون في الجاهلية أهل الأحلام ويوصفون بالعقل، وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله سبحانه بالعقول؟. فقال: تلك عقول كادها الله، أي لم يصحبها التوفيق".

قيل لعمرو بن العاص: "ما بالُ قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم اللهُ سبحانه بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادَها الله".

قوله تعالى: {أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الطور: ٣٢]، أي:" بل هم قوم متجاوزون الحدَّ في الطغيان".

قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه: ما تأمرهم بذلك أحلامهم وعقولهم {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} قد طغوا على ربهم، فتجاوزوا ما أذن لهم، وأمرهم به من الإيمان إلى الكفر به".

قال الزجاج:" أي: أم هم يكفرون طغيانًا وقد ظهر لهم الحق".

قال ابن كثير:" أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك".

قال الزمخشري: أي:" مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم".

عن مجاهد، قوله: "{أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}، قال: بل هم قوم طاغون".

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ} [الطور: ٣٣]، أي:" بل أيقول هؤلاء المشركون، اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه؟ ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: تقوّل محمد هذا القرآن وتخلَّقه".

قال الزمخشري: "{تَقَوَّلَهُ}، اختلقه من تلقاء نفسه".

قال ابن كثير:" أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن".

عن عطاء: {تَقَوَّلَهُ}: "افتعله".

=

=

وقال الكلبي: "تكذّبه من تلقاء نفسه".
قوله تعالى: {بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الطور: ٣٣]، أي:" بل هم لا يؤمنون، فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوه".
قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: كذبوا فيما قالوا من ذلك، بل لا يؤمنون فيصدّقوا بالحقّ الذي جاءهم من عند ربهم".
قال ابن كثير:" أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة".
قال الزمخشري: "فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن، مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه، وما محمد إلا واحد من العرب".
القرآن
قوله تعالى: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} [الطور: ٣٤]
قال الطبري:" يقول: جلّ ثناؤه: فليأت قائلو ذلك له من المشركين بقرآن مثله، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ، ولن يتعذر عليهم أن يأتوا من ذلك بمثل الذي أتى به محمد ﷺ إن كانوا صادقين في أن محمدا ﷺ تقوّله وتخلَّقه".
قال الزجاج:" أي: إذا قالوا أن النبي- ﷺ- تقوله فقد زعموا أنه من قول البشر، فليَقولوا مثلَهُ فما رام أَحَدٌ مِنهم أن يقول مثل عَشْرِ سُور ولا مثل سورةٍ".
قال الثعلبي:" أي: مثل هذا القرآن يشبهه إِنْ كانُوا صادِقِينَ أنّ محمدا تقوّله من تلقاء نفسه، فإنّ اللسان لسانهم، وهم مستوون في البشرية واللغة والقوة".
قال ابن كثير:" أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تَقوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله".
عن ابن جُرَيْج، في قوله: "{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ}، قال: مثل القرآن".
قال ابن عباس: "بقرآن من تلقاء أنفسهم مثل هذا القرآن كما جاء به {إِنْ كَانُوا

=

=
صَادِقِينَ} أن محمدًا تقوّله".
عن مجاهد:" {سور مثله}، قال: مثل القرآن".
عن الحسن، في قوله: {سور مثله}، قال: فلا يستطيعون والله أن يأتوا بسورة من مثله ولو حرصوا".
قال الجصاص:" وقد تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، فلما ظهر عجزهم قال: {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود: ١٣]، فلما عجزوا قال: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} [الطور: ٣٤]، فتحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه".
قال ابن أبي زمنين:" أي: لا يأتون بمثله، وليس ذلك عندهم".
وقرئ: «بحديث مثله»، على الإضافة". قال الزمخشري: "والضمير لرسول الله ﷺ، ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرا عليه، فليأتوا بحديث ذلك المثل".
قال العثيمين: قوله تعالى: {فذكر فمآ أنت بنعمة ربك} أي بإنعام ربك عليك بما أنزل عليك، من الوحي لست {بكاهن ولا مجنون}، والكاهن هو الذي يخبر عن الغيبيات في المستقبل، وكانت الكهانة في الجاهلية مشهورة، يكون للإنسان رئي من الجن يصحبه ويخدمه، ثم يصعد الجني إلى السماء يستمع ما يقال في السماء، وينزل به على هذا الكاهن، فيكون هذا علم غيب عن أهل الأرض، لكن الكاهن يزيد عليه أشياء كثيرة يتخرصها، فإذا وقع ما سمعه من السماء صار عظيمًا في قومه، لأنه أخبر عن شيء مستقبل فوقع، فالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاء بالوحي رده المشركون وكذبوه، وقالوا: إنما جاء به محمد من الكهانة، لأن
=

=

الكهان يخبرون عن الشيء فيقع، ولأن الكهان أيضًا يأتون بكلام مسجوع يشبه القرآن، والقرآن آيات مفصلة، أتى بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولهذا قال النبي ﷺ في كلام حمل بن النابغة الذي قال: (يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل) فقال النبي ﷺ: «إنما هو من إخوان الكهان» من أجل سجعه الذي سجع، فهم يقولون: إن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاهن، فنفى الله ذلك، ثم قالوا: إنه مجنون يأتي بما لا يعرف، فكذبهم الله فقال: {فمآ أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} هذه الجملة منفية مؤكدة بالباء، الباء الزائدة إعرابًا، المفيدة معنى، وأصلها (فما أنت بنعمة ربك كاهنًا ولا مجنونًا) لكن زيدت الباء توكيدًا للنفي، ثم قال الله تعالى: {أم يقولون شاعر} يعني بل أيقولون، و (أم) هذه تسمى عند المعربين منقطعة، يعني لا عاطفة، لأن (أم) تأتي عاطفة وتأتي منقطعة، فهنا منقطعة، والتقدير (بل أيقولون شاعر؟) والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم، والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى ويتضمن شعره أحيانًا حكمًا، ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحرًا» «وإن من الشعر لحكمة» فيقولون: محمد شاعر {نتربص به} أي ننتظر به {ريب المنون} أي: حوادث الدهر وقوارعه، فيهلك كما هلك الشعراء من قبله، ولا يكون له أثر، فانظر - والعياذ بالله- كيف يترقبون موت الرسول عليه الصلاة والسلام يقولون: هذا شاعر من جنس الشعراء يهلك وينتهي أمره، وقوله: {ريب المنون}، قيل: إن المنون هو الدهر، وقيل: إن المنون هو الموت، وهما متلازمان، والمراد بذلك حوادث الدهر المهلكة المبيدة.

{قل} في جوابهم {تربصوا} والأمر هنا للتهديد والتحدي أيضًا، تربصوا بهذا الشاعر ريب المنون، وانظروا هل يموت وتموت دعوته، أو أنكم أنتم تموتون وتموت معارضتكم، {فإني معكم من المتربصين} يعني فأنا منتظر أيضًا، انتظروا

=

=

أنتم، وأنا أنتظر لمن تكون العاقبة، وصارت العاقبة والحمد لله للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، {أم تأمرهم} أم هنا نقول: إنها منقطعة، وأم المنقطعة تقدر ببل، والتقدير: بل أتأمرهم؟ وهذا انتقال من الأول إلى الثاني {أم تأمرهم أحلمهم بهذآ} فيقولون: إنه مجنون إنه كاهن، إنه شاعر، هل عقولهم تأمرهم بهذا؟ الجواب: {أم تأمرهم أحلمهم بهذآ} أي بل لا تأمرهم عقولهم بهذا، وكثير منهم يعلم أن محمدًا رسول الله ﷺ حق، لكن غلبتهم الكبرياء- والعياذ بالله- فأنكروا وكذبوا ولهذا قال: {أم هم قوم طاغون} أي: بل هم قوم طاغون معتدون ظالمون، وأصل الطغيان مجاوزة الحد، كما في قوله تعالى: {إنا لما طغا الماء} أي: ازداد وارتفع عن عادته {حملناكم في الجارية} بل هم قوم طاغون.

{أم يقولون تقوله} أم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة، والمعنى بل أيقولون تقوله أي: اختلقه وكذب به، وهذاقسم منهم، قالوا: محمد عليه الصلاة والسلام تقوَّل هذا القرآن واختلقه من عنده، وبعضهم يقولون: إنما يعلمه بشر {بل لا يؤمنون} يعني بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لعلموا أن القرآن لا يمكن أن يتقوَّله بشر، لأن كلام الله ﷻ لا يشبهه أي كلام، ثم تحداهم فقال: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} يعني إذا كنت أنت تقوَّلته فأنت مثلهم بشر تتكلم كما يتكلمون، وتخطب كما يخطبون، وتقول كما يقولون، فإذا كنت متقوِّلًا له وهو من عندك فليأتوا بحديث مثله، لأن البشر يمكن أن يأتي بكلام يشبه كلام البشر الآخر، فإذا كان محمد ﷺ تقوَّله فهاتوا مثله {فليأتوا}، اللام هنا للأمر، والمقصود به التحدي والتعجيز، {إن كانوا صادقين}، وهذا غاية التحدي، فعجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بحديث مثله، مع أنهم أمراء البلاغة، وسلاطين الفصاحة، لكن عجزوا، فدل عجزهم على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من كلام الله ﷻ ولهذا قال: {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} ومع قوة المعارضة وقوة

=

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥).

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْر شَيْء} مِنْ غَيْر خَالِق {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أَنْفُسهمْ وَلَا يُعْقَل مَخْلُوق بِغَيْرِ خَالِق وَلَا مَعْدُوم يَخْلُق فَلَا بُدّ لَهُمْ مِنْ خَالِق هُوَ الله الْوَاحِد فَلِمَ لَا يُوَحِّدُونَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ وَكِتَابه.

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦).

{أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَات وَالْأَرْض} وَلَا يَقْدِر عَلَى خَلْقهمَا إلَّا الله الْخَالِق فَلِمَ لَا يَعْبُدُونَهُ {بَلْ لَا يُوقِنُونَ} بِهِ وَإِلَّا لَآمَنُوا بِنَبِيِّهِ.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧).

{أَمْ عِنْدهمْ خَزَائِن رَبّك} مِنْ النُّبُوَّة وَالرِّزْق وَغَيْرهمَا فَيَخُصُّوا مَنْ شَاءُوا بِمَا شَاءُوا {أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ} الْمُتَسَلِّطُونَ الْجَبَّارُونَ وَفِعْله سَيْطَرَ وَمِثْله بيطر

=

البلاغة والفصاحة عجزوا أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، فدل ذلك على أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يتقوله، ولن يستطيع أن يأتي بمثله، وفي قوله: {فليأتوا بحديث مثله} كلمة (حديث) نكرة، والنكرة تدل على الإطلاق، لكن جاء في آية أخرى أن الله قال: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}. {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}.

وجاء في آية أخرى الإخبار بأنه لن يستطيع أحد أن يعارض القرآن، فقال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا}. فتبين بطلان قولهم: إنه تقوَّله؛ لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثله، إن كانوا صادقين في دعواهم أنك تقوَّلته فليأتوا بحديث مثله ولكنهم عجزوا.

وبيقر.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨).

{أَمْ لَهُمْ سُلَّم} مَرْقَى إلَى السَّمَاء {يَسْتَمِعُونَ فِيهِ} أَيْ عَلَيْهِ كَلَام الْمَلَائِكَة حَتَّى يُمْكِنهُمْ مُنَازَعَة النَّبِيّ بِزَعْمِهِمْ إنِ ادَّعَوْا ذَلِكَ {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعهمْ} مُدَّعِي الِاسْتِمَاع عَلَيْهِ {بِسُلْطَانٍ مُبِين} بِحُجَّةٍ بَيِّنَة وَاضِحَة وَلِشِبْهِ هَذَا الزَّعْم بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الملائكة بنات الله قال تعالى.

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩).

{أَمْ لَهُ الْبَنَات} بِزَعْمِكُمْ {وَلَكُمْ الْبَنُونَ} تَعَالَى الله عَمَّا زَعَمْتُمُوهُ.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠).

{أم تسألهم أجرا} على ما جئتهم بِهِ مِنْ الدِّين {فَهُمْ مِنْ مَغْرَم} غُرْم ذَلِكَ {مُثْقَلُونَ} فَلَا يُسْلِمُونَ.

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١).

{أَمْ عِنْدهمْ الْغَيْب} أَيْ عِلْمه {فَهُمْ يَكْتُبُونَ} ذَلِكَ حَتَّى يُمْكِنهُمْ مُنَازَعَة النَّبِيّ ﷺ فِي الْبَعْث وَأُمُور الْآخِرَة بِزَعْمِهِمْ.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢).

{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا} بِك لِيُهْلِكُوك فِي دَار النَّدْوَة {فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ} الْمَغْلُوبُونَ الْمُهْلَكُونَ فَحَفِظَهُ الله مِنْهُمْ ثُمَّ أَهْلَكَهُمْ بِبَدْرٍ.

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣).

{أَمْ لَهُمْ إلَه غَيْر الله سُبْحَان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ} بِهِ مِنْ الْآلِهَة وَالِاسْتِفْهَام بِأَمْ

فِي مَوَاضِعهَا لِلتَّقْبِيحِ وَالتَّوْبِيخ(١).

(١) قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ} [الطور: ٣٥]، أي:" أخُلِق هؤلاء المشركون من غير خالق لهم وموجد".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أخلق هؤلاء المشركون من غير شيء، أي من غير آباء ولا أمَّهات، فهم كالجماد، لا يعقلون ولا يفهمون لله حجة، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة. وقد قيل: إن معنى ذلك: أم خلقوا لغير شيء، كقول القائل: فعلت كذا وكذا من غير شيء، بمعنى: لغير شيء".

قال ابن كثير:" أي: أوجدوا من غير موجد".

قال ابن عباس: "من غير ربّ".

قال ابن كيسان: "أم خلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون".

قوله تعالى: {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: ٣٥]، أي:" أم هم الخالقون لأنفسهم، حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا؟ ".

قال الطبري:" يقول: أم هم الخالقون هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله، ولا ينتهون عما نهاهم عنه، لأن للخالق الأمر والنهي".

قال ابن كثير في الآية:" هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}، أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا".

قوله تعالى: {أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الطور: ٣٦]، أي:" أم خَلَقوا السموات والأرض على هذا الصنع البديع؟ ".

قال الطبري:" يقول: أخلقوا السماوات والأرض فيكونوا هم الخالقين، وإنما معنى ذلك: لم يخلقوا السموات والأرض".

=

=

قال ابن كثير:" أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له".

قوله تعالى: {بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور: ٣٦]، أي:" بل هم لا يوقنون بعذاب الله، فهم مشركون".

قال ابن كثير: أي:" ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك".

قال الطبري:" يقول: لم يتركوا أن يأتمروا لأمر ربهم، وينتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى، لأنهم خلقوا السموات والأرض، فكانوا بذلك أربابا، ولكنهم فعلوا، لأنهم لا يوقنون بوعيد الله وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة".

قوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ} [الطور: ٣٧]، أي:" أم عندهم خزائن ربك يتصرفون فيها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أعند هؤلاء المكذّبين بآيات الله خزائن ربك يا محمد، فهم لاستغنائهم بذلك عن آيات ربهم معرضون".

قال الزجاج:" أي: عندهم ما في خزائن ربك من العلم. وقيل- في {خزائن ربك}، أي: رزق ربك".

قال ابن كثير: "أي: أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن".

عن ابن عباس: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ} : "المطر والرزق".

وقال عكرمة: "يعني النبوّة".

قوله تعالى: {أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور: ٣٧]، أي:" أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله ﷻ هو الخالق المالك المتصرف".

قال ابن كثير: "أي: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، ﷻ، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد ".

=

=

وفي قوله تعالى: {أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور: ٣٧]،، وجوه من التفسير:

أحدها: المسلَّطون، قاله ابن عباس-أيضا-، والضحاك.

قال مقاتل:" يعني: أم هم المسيطرون على الناس فيجبرونهم على ما شاءوا ويمنعونهم عما شاءوا".

الثاني: أم هم المنزلون. قاله ابن عباس.

الثالث: معناه: أم هم المتولون، وهذا قد روي عن ابن عباس أيضًا.

الرابع: أنهم الأرباب، قاله الحسن، وعطاء، وأبو عبيد، وابن قتيبة.

قال عطاء: "أم هم أربابٌ قاهرون ".

قال أبو عبيد:" يقال: تصيطرت عليّ، اتخذتني خولا".

الخامس: أنهم الحفظة، مأخوذ من تسطير الكتاب، الذي يحفظ ما كتب فيه فصار المسيطر هنا حافظًا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، قاله ابن بحر.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أم هم الجبَّارون المتسلطون المستكبرون على الله، وذلك أن المسيطر في كلام العرب الجبار المتسلط، ومنه قول الله: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢٢]. يقول: لست عليهم بجبار مسلط".

قال الزجاج:" يقال: قد سيطر علينا وتسيطر وتسيطر. بالسين والصّاد. والأصل السين، وكل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صادًا، تقول: سيطر وصيطر، وسطا وصَطا".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ} [الطور: ٣٨]، أي:" أم لهم مصعد إلى السماء يستمعون فيه الوحي بأن الذي هم عليه حق؟ ".

قال ابن كثير: "أي: مرقاة إلى الملأ الأعلى".

قال الطبري:" يقول: أم لهم سلم يرتقون فيه إلى السماء يستمعون عليه الوحي،

=

=

فيدعون أنهم سمعوا هنالك من الله أن الذي هم عليه حقّ، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه، والسُّلَّم في كلام العرب: السبب والمرقاة؛ ومنه قول ابن مقبل :

لا تُحرزِ المَرْءَ أَحْجاءُ الْبِلاد وَلا... تُبْنَى لَهُ فِي السَّمَاواتِ السَّلاليمُ

ومنه قوله: جعلت فلانا سلما لحاجتي: إذا جعلته سببا لها ".

قال الزجاج:" قال أهل اللغة:- معنى: {يَسْتَمِعُونَ فِيهِ}، يستمعون عليه، ومثله: {لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]، أي: على جذوع النخل".

عن قادة:" {أو سلما في السماء} [الأنعام: ٣٥] يعني: الدرج".

قوله تعالى: {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [الطور: ٣٨]، أي:" فليأت مَن يزعم أنه استمع ذلك بحجة بينة تصدِّق دعواه".

قال الطبري: "يقول: فإن كانوا يدّعون ذلك فليأت من يزعم أنه استمع ذلك، فسمعه بسلطان مبين، يعني بحجة تبين أنها حقّ، كما أتى محمد ﷺ بها على حقيقة قوله، وصدقه فيما جاءهم به من عند الله".

قال الزجاج:" أي: بحجة واضحة، والمعنى- والله أعلم- أنهم كجبريل الذي يأتي النبي- ﷺ- بالوحي ويبيِّنُ تبيينه عن الله، ما كان وما يكون".

قال ابن كثير: "أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ}، قال: صاحبهم".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:" كل سلطان في القرآن حجة".

قال مجاهد:" «السلطان المبين»، البرهان والبينة، وقوله: {مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا} [سورة آل عمران: ١٥١ / سورة الأعراف: ٧ / سورة الحج: ٧١]، قال: بينَةً

=

=

وبرهانًا".

قوله تعالى {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩)} [الطور: ٣٩]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمشركين به من قريش: ألربكم أيها القوم البنات ولكم البنون؟ ذلك إذن قسمة ضيزي".

قال الزجاج:" ثم سفر أحلامهم في جعلهم البنات للهِ فقال: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ}، أي: أنتم تجعلون للهِ ما تكرهون وأنتم حكماءُ عند أنفسكم".

قال ابن كثير: "ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ} وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد".

عن قتادة:" {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} [الصافات: ١٤٩]، قال: لأنهم قالوا: -يعني مشركي قريش-: لله البنات، ولهم البنون ".

عن مجاهد في قوله: "{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [النحل: ٦٢]، قال: قول كفار قريش لنا البنون ولله البنات".

قوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا} [الطور: ٤٠]، أي:" بل أتسأل -أيها الرسول- هؤلاء المشركون أجرًا على تبليغ الرسالة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ثوابا وعوضا من أموالهم؟ ".

قال ابن كثير: "أي: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم على ذلك شيئا".

قوله تعالى: {فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ} [الطور: ٤٠]، أي:" فهم في جهد ومشقة من

=

=

التزام غرامة تطلبها منهم؟ ".

قال الطبري: أي:" فهم من ثقل ما حملتهم من الغرم لا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه؟ ".

قال ابن كثير: "أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم".

قال الزجاج:" المعنى: أن الحجة واجبة عليهم من كل جهة، لأنك أتيتهم بالبيان والبرهان ولم تسألهم على ذلك أجرًا".

عن قتادة، قوله: "{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}، يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرا يُجهدهم، فلا يستطيعون الإسلام".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: "{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}، يقول: أسألتَ هؤلاء القوم على الإسلام أجرًا، فمنعهم مِن أن يسلموا الجُعل؟! ".

قال ابن زيد:" يقول: أسألتَهم على هذا أجرا، فأثقلهم الذي يُبْتَغَى أخذُه منهم".

قوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١)} [الطور: ٤١]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس، فينبئونهم بما شاءوا، ويخبرونهم بما أرادوا".

قال ابن كثير: "أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله".

عن ابن عباس:" {أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ} أم عندهم اللوح المحفوظ؟ ".

عن ابن جريج:" {أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ}، قال: القرآن".

قال قتادة: "لَمّا قالوا: {نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ} قال الله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ} حتى علموا بموت محمد، وإلى ما يؤول أمره؟ ".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا} [الطور: ٤٢]، أي:" بل يريدون برسول الله

=

=

وبالمؤمنين مكرًا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: بل يريد هؤلاء المشركون يا محمد بك، وبدين الله كيدا".

قال الزجاج:" أي: أم يريدون لكفرهم وطغيانهم كيدًا".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه".

قال السعدي:" {أَمْ يُرِيدُونَ} بقدحهم فيك وفيما جئتهم به {كَيْدًا} يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟ ".

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ} [الطور: ٤٢]، أي:" فالذين كفروا يرجع كيدهم ومكرهم على أنفسهم".

قال الطبري: "يقول: فهم المكيدون الممكورُ بهم دونك، فثق بالله، وامض لما أمرك به".

قال ابن كثير: "فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم".

قال الزجاج:" فالله ﷻ يكيدهم ويجزيهم بكيدهم العذاب في الدنيا والآخرة".

قال السعدي:" أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك -ولله الحمد- فلم يبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئا إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم وخذلهم وانتصر منهم".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ} [الطور: ٤٣]، أي:" أم لهم معبود يستحق العبادة غير الله؟ ".

قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه: أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله، فيجوز لهم عبادته، يقول: ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه".

قال السعدي:" أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله

=

=

تعالى؟ ".

قال الزجاج:" المعنى: بل أَلَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ الله، فإن قال قائل: هم يزعمون أن الأصنام آلهتهم، فإن قيل لهم: {أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ} ؟ فالجواب: في ذلك أَلَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يخلق ويرْزق ويفعل ما يعجز عنه المخلوقون، فمن يفعل ذلك إلا الله ﷻ".

قال ابن كثير: "وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله".

قال ابن أبي زمنين:" إلى هذا الموضع كالاستفهام وكذبهم به كله".

قال الخليل بن أحمد: "ما في سورة الطور من ذكر {أَمْ} كلّه استفهام وليس بعطف".

قوله تعالى: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الطور: ٤٣]، أي:" تنزَّه وتعالى عما يشركون، فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة".

قال الطبري: "يقول: تنزيها لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره".

قال الزجاج:" جاء في التفسير وفي اللغة أن معناه تنزيه اللهِ- عمَّا يشركون، أي: عمن يجعلون شريكًا لِلَّهِ ﷻ".

قال ابن كثير: "ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ".

قال السعدي:" فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير

=

=

الحميد المجيد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} بمعنى بل، والهمزة (بل أخلقوا من غير شيء) أي: من غير خالق، أم هم الخالقون، والجواب: لا خلقوا من غير خالق، ولا هم الخالقون، أما كونهم لم يخلقوا من غير خالق، فلأن القاعدة العقلية الحسية التي أجمع عليها العقلاء أن كل محدث لابد له من محدث، فإذا كان كل محدث لابد له من محدث، فإذا نظرنا في أنفسنا فنحن حادثون قال الله تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا}.

فالواحد منا الذي له عشرون سنة، هو قبل اثنتين وعشرين سنة ليس شيئًا مذكورًا، ولا يعرف ولا يدرى عنه، إذن نحن حادثون، وكل حادث لابد له من مُحدث، فهل أنتم خلقتم بغير محدث؟ الجواب: لا، وهذا جواب عقلي لا ينكر، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ الجواب: لا، لأنهم قبل أن يوجدوا عدم، وكيف يمكن للعدم أن يخلق؟ لا يمكن هذا، فإذا تبين أنهم لم يخلقوا من غير خالق، وأنهم لم يخلقوا أنفسهم تعين أن يكون لهم خالق قادر على إيجادهم وهو الله ﷻ، ولا يستطيع أحد منهم أن يقول: إن الذي خلقني أبي أو أمي، فإذا لم يكن كذلك تعين أن يكون لهم خالق وهو الله تبارك وتعالى، وإذا كان لهم خالق وهم مخلوقون مربوبون مدبرون، فالواجب أن يخضعوا لهذا الخالق، وأن يعبدوه وحده، كما أنه هو الخالق وحده، وهذه الآية سمعها جبير بن مطعم وكان قد قدم إلى المدينة وهو مشرك، على النبي ﷺ في طلب الفداء لأسرى بدر، وغزوة بدر انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والحمد لله- وقتلوا من قريش سبعين رجلًا، وأسروا سبعين رجلًا، وجاءوا بهم إلى المدينة، وانقسموا إلى أقسام، منهم من أطلقه النبي عليه الصلاة والسلام، ومنّ عليه، ومنهم من فداه بمال، ومنهم من فداه بأسير ومنهم

=

=

من فداه بتعليم أهل المدينة الكتابة، وجبير بن مطعم أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام يطلب فداء أسرى بدر لأنه من صميم قريش، والأسرى أيضًا من قريش، ويظهر لي- والله أعلم- أن جبيرًا سمع قول النبي ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا فكلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

وذلك أن مطعم بن عدي لما رجع النبي عليه الصلاة والسلام من الطائف أجاره، وصار يمشي معه من حين دخل مكة إلى أن وصل إلى الكعبة، وأمر أبناءه وهم متقلدي السيوف أن يقف كل واحد على ركن من أركان الكعبة حتى لا يعتدي على الرسول أحد، وقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف فأقبل أبو سفيان إلى مطعم، فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذًا لا تُخْفَر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه.

فهو أحسن إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي عليه الصلاة والسلام وهو أوفى الناس عليه الصلاة والسلام بكرمه قال: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا فكلمني في هؤلاء النتنى» أي: الأسرى، ووصفهم بأنهم نتنى؛ لأن المشركين نجس، والنتن هو الرائحة الكريهة «في هؤلاء النتنى لتركتهم له» وجبير ابنه فلعله- والله أعلم- سمع بهذه المقالة فجاء إلى النبي ﷺ يطلب فداء الأسرى، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بسورة الطور ولما بلغ هذه الآية: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} قال جبير: (كاد قلبي يطير) لأن هذه حجة ملزمة لا يمكن أن يتخلص منها أحد، قال: (ووقر الإيمان في قلبي) يعني معناه أنه دخل الإيمان في قلبه، سبحان الله، فانظر تأثير القرآن الكريم مع أن الرسول ﷺ ما دعاه في تلك الساعة، لكن سمع هذه الآية العجيبة العظيمة، فكاد قلبه يطير، {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} والجواب بكل سهولة: لا،

=

في الأمرين، لا خلقوا من غير شيء، ولا هم الخالقون، بل لهم خالق وهو الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يمكن أن ينكر هاتين المقدمتين كلها حجة قطعية تدمغ كل كافر، يعني إذا قال: نعم لي خالق خلقني قلنا: إذن لماذا لا تعبده، لأنك عبد له مملوك له {أم خلقوا السماوات والأَرض} انتقل من الأدنى إلى الأعلى خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فانتقل من الأدنى إلى الأعلى {أم خلقوا السماوات والأَرض} والجواب: لا، لأن أم هنا مثل سابقاتها، بل أخلقوا السموات والأرض، والجواب: لا، وهم يقرون بهذا {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأَرض ليقولن خلقهن العزيز العليم}.

ولكن مع ذلك لا يعترفون بالرسالة، ولهذا قال: {بل لا يوقنون}، يعني ليس عندهم إيقان في خلق السموات والأرض أن الذي خلقهم هو الله، لأنه لو كان عندهم يقين لحملهم هذا اليقين على تصديق النبي ﷺ والإقرار برسالته. وهذه الإلزامات العظيمة التي ألزم الله تعالى بها قريشًا كل هذا من أجل إقامة الحجة عليهم، ولو شاء سبحانه وتعالى لعاقبهم بدون أن تكون هذه المجادلة وهذه المناقشة.

{أم عندهم خزآئن ربك أم هم المسيطرون} أم هنا بمعنى بل، والهمزة، يعني بل أعندهم خزائن الله، يعني خزائن رزق الله ﷻ حتى يمنعوا من شاءوا، ويعطوا من شاءوا، والجواب: ليس عندهم ذلك، ولا يملكون شيئًا من هذا، بل الذي يملك الرزق عطاء ومنعًا هو الله تبارك وتعالى، ولما نفى أن يكون عندهم خزائن الله، قال: {أم هم المسيطرون} يعني بل أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والكلمة؟ والجواب: لا، فإذا لم يكن لهم شيء من هذا صاروا مربوبين، وصاروا أذلاء أمام قوة الله ﷻ، ثم قال تعالى: {أم لهم سلم يستمعون فيه} يعني بل ألهم سلم يستمعون فيه، والسلم هو المصعد والمرقى، والمعنى: هل لهم سلم

=

يصعدون فيه على السماء يستمعون ما يقال في السماء؟ والجواب: لا، فإن ادعوا ذلك {فليأت مستمعهم بسلطان مبين} أي: بحجة بينة ظاهرة على أنه استمع ما يقال في السماء، والجواب: لن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، اللهم إلا الكهنة الذين لهم رئي من الجن يستمع إلى ما يقال في السماء، ثم يكذب مئة كذبة على ما سمع، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء، ثم قال تعالى: {أم له البنت ولكم البنون} وهذا أيضًا بمعنى بل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني أيكون لله البنات ولهم البنون، لأنهم ادعوا أن جند الله تعالى بنات، وأن لهم البنين، ومعلوم أن من له البنين غالب على من له البنات، لأن جنده رجال ذكور، أقوى وأحزم وأقدم من النساء، وقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، كما قال الله تعالى عنهم ذلك قال: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثًا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون}.

يعني لم يشهدوا خلقهم حتى يقولوا: إنهم بنات {ستكتب شهادتهم} أي شهادتهم هذه التي هي زور وكذب، {ويسئلون}، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام من قريش قالوا: لهم البنون ولله البنات، قال الله تعالى: {ويجعلون لله البنت سبحانه ولهم ما يشتهون}. والذين يشتهون هم الذكور حتى إن أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى {ظل وجهه مسودا وهو كظيم}. أي: مملوء غيظًا وغمًّا {يتوارى من القوم} يختبىء من القوم {من سوء ما بشر به}. ثم يتردد {أيمسكه على هون} أي: على ذل وهوان {أم يدسه في التراب} يرميه فيه وهذه المؤودة {ألا ساء ما يحكمون}.

{أم تسئلهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون} يعني بل أتسألهم، والاستفهام هنا للنفي وكل (أم) هنا الاستفهام للنفي والتوبيخ، يعني هل أنت يا محمد حين دعوتهم إلى الله ﷻ هل أنت تقول أعطوني أجرًا مثقلًا كبيرًا لا يستطيعونه حتى يردوك،

=

=

والجواب: لا، قال الله تعالى: {قل مآ أسئلكم عليه من أجر ومآ أنآ من المتكلفين}. فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد: أعطني أجرًا على دعوتي إياك، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب، كما أعطى المؤلفة قلوبهم من الأموال شيئًا عظيمًا، وليس يطلب من أحد أي عوض على ما جاء به من الرسالة، واستدل بعض أهل العلم على أنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجرًا على تعليم العلم بمعنى مؤاجرة، يقول الإنسان: لا أعلمك إلا بكذا وكذا، لكن هذا فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله». {أم عندهم الغيب فهم يكتبون} أي: ماغاب عن الناس فهم يحفظونه، والجواب: لا، ليس عندهم علم الغيب، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه لا يعلم شيئًا من الغيب، يكون الشيء في داره لا يعلمه، حتى إنه دخل ذات يوم والبرمة على النار تغلي باللحم، ولم يعلم ما هو، وحتى إن أبا هريرة كان معه فانخنس منه ولم يعلم لأي شيء ذهب، فالحاصل أن الرسول نفسه لا يعلم الغيب، فمن دونه من باب أولى، وقد أمره الله تعالى أن يعلن بأنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزآئن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك}.

وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين {أم عندهم الغيب فهم يكتبون}، والجواب: لا، ثم قال: {أم يريدون كيدًا} يعني أيريد هؤلاء أن يكيدوا لك يا محمد بإبطال دعوتك، وإهلاكك وإماتتك، الجواب: نعم، ولكن كيدهم ليس بشيء بالنسبة إلى كيد الله ﷻ، قال الله تعالى: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}. وقد كادوا له أعظم كيد، فإنهم اجتمعوا ماذا يصنعون بمحمد لما رأوا دعوته تنتشر، وأنه لا قبل لهم بردها، اجتمعوا يتشاورون، وذكروا ثلاثة آراء: الحبس، والقتل والإخراج، {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك} أي: يحبسوك {أو يقتلوك أو يخرجوك}، قال الله تعالى: {ويمكرون ويمكر الله} واستقر رأيهم على القتل،

=

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤).

{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا} بَعْضًا {مِنْ السَّمَاء سَاقِطًا} عَلَيْهِمْ كَمَا قَالُوا {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاء} أَيْ تَعْذِيبًا لَهُمْ {يَقُولُوا} هَذَا {سَحَاب مَرْكُوم} مُتَرَاكِب نُرْوَى بِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ.

=

لكن من يستطيع أن يقتله، لأن بني هاشم سوف يطالبون؟ قالوا: يجتمع عشرة شبان من قبائل متفرقة من العرب، ويعطى كل واحد منهم سيفًا صارمًا، ويضربون محمدًا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن المطالبة، فعلوا ذلك، ولكنهم مكروا ومكر الله {والله خير الماكرين} فأنجاه الله منهم ثم أذن له أن يهاجر، فهاجر إلى المدينة، {أم يريدون كيدًا فالذين كفروا هم المكيدون} الجملة هنا جملة اسمية معرف طرفاها مفصولة بضمير الفصل، مما يدل على التوكيد والحصر يعني فالكيد للذين كفروا.

وهنا قال تعالى: {أم يريدون كيدًا فالذين كفروا هم المكيدون} لم يقل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون، وهذا الأسلوب عند علماء البلاغة يسمى الإظهار في موضع الإضمار، ومعناه بدل أن يقال: (فهم المكيدون) قال الله تعالى: {فالذين كفروا} ولهذا فائدة بل أكثر، إذا قال (فالذين كفروا) معناه أن هؤلاء كفار، ومعناه أن من كان كافرًا فهو المكيد، وإن كان من غير هؤلاء، هاتان فائدتان معنويتان، الفائدة الثالثة: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد ربما يغفل الإنسان، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن النسق انتبه، ثم قال تعالى: {أم لهم إله غير الله} يعني بل ألهم إله غير الله؟ والجواب حقيقة: لا. وادعاءً: نعم لهم آلهة غير الله يعبدونها: اللات والعزى ومناة، وهبل وغيرها من الأصنام المعروفة عند العرب، ولهذا قال: {سبحان الله عما يشركون} فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يشرك به هؤلاء، ليبين أن هذه الأصنام باطلة، وأن الله منزه عن كل شريك.

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥).

{فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} يموتون.

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦).

{يَوْم لَا يُغْنِي} بَدَل مِنْ يَوْمَهُمُ {عَنْهُمْ كَيْدهمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} يُمْنَعُونَ مِنْ الْعَذَاب فِي الْآخِرَة.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧).

{وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} بِكُفْرِهِمْ {عَذَابًا دُون ذَلِكَ} فِي الدُّنْيَا قَبْل مَوْتهمْ فَعُذِّبُوا بِالْجُوعِ وَالْقَحْط سَبْع سِنِينَ وَبِالْقَتْلِ يَوْم بَدْر {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ لَا يَعْلَمُونَ} أَنَّ الْعَذَاب يَنْزِل بِهِمْ.

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨).

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّك} بِإِمْهَالِهِمْ وَلَا يَضِقْ صَدْرك {فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا} بِمَرْأًى مِنَّا نَرَاك وَنَحْفَظك {وَسَبِّحْ} مُتَلَبِّسًا {بِحَمْدِ رَبّك} أَيْ قُلْ سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ {حِين تَقُوم} مِنْ مَنَامك أَوْ مِنْ مجلسك.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩).

{وَمِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ} حَقِيقَة أَيْضًا {وَإِدْبَار النُّجُوم} مَصْدَر أَيْ عَقِب غُرُوبهَا سَبِّحْهُ أَيْضًا أَوْ صَلِّ فِي الْأَوَّل الْعِشَاءَيْنِ وَفِي الثَّانِي الْفَجْر وقيل الصبح[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} [الطور: ٤٤]، أي:" وإن يروا بأعينهم ويظهر لهم قطعة عظيمة من السماء تسقط عليهم لتهلكهم وتقضي عليهم".

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} [الطور: ٤٤]، وجوه من =

=
التفسير:
أحدها: يعني: قطعًا من السماء، قاله ابن عباس، وقتادة.
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإن يرَ هؤلاء المشركون قطعا من السماء ساقطا".
قال الزجاج:" أي: وإن يروا قطعة من العذاب".
قال السعدي:" يقول تعالى في ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا عن الحق وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا}، أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف، أي: قطع كبار من العذاب".
قال الزمخشري:" الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: {أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفًا}، يريد: أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب".
قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا}، أي: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا ".
الثاني: جانبًا من السماء. قاله الضحاك، وحكاه الماوردي دون نسبة.
الثالث: عذابًا من السماء، قاله السدي، والمفضل. وسمي كسفًا لتغطيته، والكسف: التغطية، ومنه أخذ: كسوف الشمس والقمر.
قوله تعالى: {يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطور: ٤٤]، أي:" لقالوا- من فرط طغيانهم وشدة عنادهم -: هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض".
قال ابن كثير: "بل يقولون: هذا {سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، أي: متراكم، وهذه كقوله
=

=

تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤، ١٥]".

قال الزجاج:" يقولوا لشدة طغيانهم وكفرهم: هذا سحاب مركوم، ومركوم قد ركم بعضا، على بعض، وهذا في قوم من أئمة الكفر وهم الذين قال الله ﷻ فيهم: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤ - ٥]. فأعلمَ اللهُ ﷻ أن هُؤلَاءِ لَا يَعْتَبِرونَ وَلَا يوقِنُونَ ولا يؤمنون بأَبْهَرِ ما يكون من الآيات".

قال الطبري: "يقولوا لذلك الكِسْف من السماء الساقط: هذا سحاب بعضه على بعض. وإنما عنى بذلك جلّ ثناؤه المشركين من قريش الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات، فقالوا له: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} [الإسراء: ٩٠]... إلى قوله: {عَلَيْنَا كِسَفًا} [الإسراء: ٩٢]، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: وإن ير هؤلاء المشركون ما سألوا من الآيات، فعاينوا كِسَفا من السماء ساقطا، لم ينتقلوا عما هم عليه من التكذيب، ولقالوا: إنما هذا سحاب بعضه فوق بعض، لأن الله قد حتم عليهم أنهم لا يؤمنون".

قال السعدي:" أي: هذا سحاب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال".

عن ابن زيد، قوله: "{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، قال: حين سألوا الكِسْف قالوا: أسقط علينا كِسْفا من السماء إن كنت من الصادقين؛ قال: يقول: لو أنا فعلنا لقالوا: سحاب مركوم".

عن قتادة:" يقولوا {سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، يقول: لا يصدّقوا بحديث، ولا يؤمنوا بآية".

قوله تعالى: {فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥)} [الطور: ٤٥]

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فدع يا محمد هؤلاء المشركين حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون، وذلك عند النفخة الأولى".

قال ابن كثير: "أي: دعهم- يا محمد- {حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}، وذلك يوم القيامة".

قال الزجاج:" أي: فذرهم إلى يوم القيامة".

قال مقاتل:" {يُصْعَقُونَ}، يعني: يعذبون".

قال ابن أبي زمنين:" أي: يموتون، وهي النفخة الأولى؛ في تفسير الحسن، يعني: كفار آخر هذه الأمة الذين يكون هلاكهم بقيام الساعة".

قال الزمخشري:" يُصْعَقُونَ يموتون، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق".

قال السعدي:" وهو يوم القيامة الذي يصيبهم فيه من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

قال الحسن البصري: "{فَذَرْهُمْ حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}، يعني: كفار آخر هذه الأُمّة الذين يكون هلاكهم بقيام الساعة".

عن اليزيدي عن أبي عمرو قال: قال عكرمة: إذا اختلف الناس في حرف، فانظر نظرة من القرآن فقس عليه ولا تقس القرآن على الشعر ولا غيره، مثل قوله جل وعلا: {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا} [البقرة: ٢٥٩]، {إِذَا شَاءَ أَنْشَرَه} [عبس: ٢٢]. {يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} [الطور: ٤٥] تصديق: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْض} [الزمر: ٦٨]، ومثل: {ملك يَوْمِ الدِّين} [الفاتحة: ٤] تصديق: {الْمَلِكُ الْحَقّ}

[طه: ١١٤/ المؤمنون: ١١٦]، {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ} [الحشر: ٢٣/ الجمعة: ١]، و {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس: ٢]، وما أشبهه".

وقرأ الأعمش وعاصم وابن عامر: «يُصْعَقُونَ»، بضم الياء وفتح العين، أي:

=

=

يهلكون.

قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [الطور: ٤٦]، أي:" وفي ذلك اليوم لا يَدْفع عنهم كيدهم من عذاب الله شيئًا".

قال الطبري: أي:" يوم القيامة لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله شيئا".

قال ابن كثير: "أي: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئا".

قال ابن أبي زمنين:" لا تغني عنهم عبادة الأوثان ولا ما كادوا للنبي شيئا".

قال السعدي:" أي: لا قليلا ولا كثيرا، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنا قليلا فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [الطور: ٤٦]، أي:" ولا ينصرهم ناصر من عذاب الله".

قال الطبري:" يقول: ولا هم ينصرهم ناصر، فيستقيد لهم ممن عذّبهم وعاقبهم".

قال ابن أبي زمنين:" إذا جاءهم العذاب".

قال القشيري في الآية:" أي فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يموتون، {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}، ولا يمنعون من عذابنا".

قوله تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} [الطور: ٤٧]، أي:" وإن لهؤلاء الظلمة عذابًا يلقونه في الدنيا قبل عذاب يوم القيامة من القتل والسبي وعذاب البرزخ وغير ذلك".

قال الطبري:" تأويل الكلام: وإن للذين كفروا بالله عذابا من الله دون يوم القيامة".

قال ابن كثير: "أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: ٢١] ".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} [الطور: ٤٧]، وجوه من

=

=

التفسير:

أحدها: الجوع لقريش في الدنيا، قاله مجاهد، والضحاك.

قال الضحاك:" هو الجوع والقَحْط سبع سنين".

الثاني: المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهاب الأموال والأولاد، قاله الحسن، وابن زيد.

قال الزجاج:" المعنى: وإن للذين ظلموا عذابًا دون عذاب الآخرة، يعني: من القتل والأسر وسبي الذَارَارِي الَّذِي نزل بهم".

قال ابن زيد:" دون الآخرة في هذه الدنيا ما يعذّبهم به من ذهاب الأموال والأولاد، قال: فهي للمؤمنين أجر وثواب عند الله، عدا مصائبهم ومصائب هؤلاء، عجلهم الله إياها في الدنيا، وقرأ: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ}... إلى آخر الآية".

الثالث: عذاب القبر قبل عذاب يوم القيامة، قاله علي، وابن عباس، والبراء،زاذان [أبو عمر الكندي] (.

عن قتادة: "أن ابن عباس كان يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} ".

عن قتادة:" أن ابن عباس كان يقول: إن عذاب القبر في القرآن. ثم تلا: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} ".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذابا دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخصص الله نوعا من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع بل عمّ فقال: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} فكلّ ذلك لهم عذاب، وذلك لهم

=

دون يوم القيامة".

وفي المراد بـ «الذين ظلموا» -ها هنا- قولان :

أحدهما: أنهم أهل الصغائر من المسلمين.

الثاني: أنهم مرتكبو الحدود منهم.

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الطور: ٤٧]، أي:" ولكن أكثرهم لا يعلمون أن العذاب نازل بهم".

قال الطبري:" بأنهم ذائقو ذلك العذاب".

قال السعدي:" أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب".

قال السمعاني:" أي: لا يعلمون أن العذاب نازل بهم، فهذا دليل على أنه قد كان فيهم من هو متعنت يعرف وينكر".

قال ابن كثير:" أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وفي الأثر الإلهي: «كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله: يا عبدي، كم أعافيك وأنت لا تدري؟ ".

عن الحسن: "{ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ} أي جماعتهم {لا يَعْلَمُونَ} يعني مَن لا يؤمن به".

قوله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الطور: ٤٨]، أي:" واصبر -أيها الرسول- لحكم ربك وأمره فيما حَمَّلك من الرسالة، وعلى ما يلحقك من أذى قومك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} يا محمد الذي حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته".

قال ابن كثير: "أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم".

=

قال الزمخشري:" {لِحُكْمِ رَبِّكَ}، بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة".
قال النحاس:" أي: لحكمه الذي قضى عليك وامض لأمره ونهيه وبلّغ رسالته".
قال ابن أبي زمنين:" أي: لما حكم الله عليك، فأمره بقتالهم".
قال السمعاني:" أي: لما حكم عليك، وهذا تعزية وتسلية له في الأذى الذي كان يلحقه من الكفار".
قال السعدي:" ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئا، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه".
قوله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨]، أي:" فإنك بمرأى منا وحفظ واعتناء".
قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين".
قال ابن كثير: أي:" فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس".
قال السعدي:" وعده الله بالكفاية بقوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك".
وفي قوله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨]، وجوه من التفسير:
أحدها: بعلمنا، قاله السدي.
الثاني: بمرأى منا، حكاه ابن عيسى. وحكي ذلك عن ابن عباس.
وقال ابن عباس: "نرى ما يعمل بك".
الثالث: بحفظنا وحراستنا، ومنه قوله تعالى لموسى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]،أي: بحفظي وحراستي، قاله الضحاك.
قال مقاتل: "يقول: إنك بعين الله- تعالى-".

=

=

قال النحاس:" أي: نراك ونرى عملك ونحوطك ونحفظك".

قال القشيري:" أنت بمرأى منّا، وفي نصرة منّا.. وفي هذا تخفيف عليه وهو يقاسى الصبر".

قال الزجاج:" أي: فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، ولا يصلون إلى مكروهك".

قال ابن أبي زمنين:" أي: نرى ما تصنع وما يصنع بك، فسنجزيك ونجزيهم".

وقال الماتريدي:" قوله ﷻ: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، أي: بمنظر وعلم منا، فإن كان الأمر بالصبر على القيام بتبليغ الرسالة إلى من ذكرنا؛ فيخرج قوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} مخرج وعد النصر والمعونة؛ كقوله تعالى: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}، وإن كان الأمر بالصبر على ترك مكافأتهم، أو على القيام بالأمور التي فيما بينه وبين ربه تعالى؛ فيصير كأنه قال: على علم منا بما يكون منهم من التكذيب والاستهزاء والأذى، كلفناك، لا عن جهل منا بذلك ".

قال السمعاني:" قال أهل المعاني: وهذا إنما قاله لتيسير الأمر عليه وتسهيله، لأنه إذا علم أن الأذى الذي يلحقه من الكفار بحكم الله ومرأى منه، سهل عليه بعض السهولة، فإنه لا يترك مجازاتهم على ذلك وإثابته على ما لحقه من الأذى".

قال الزمخشري:" {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا}، مثل، أي: بحيث نراك ونكلؤك".

جاء في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي:" من الناس من حمل العين المذكورة في الكتاب على الرؤية، وهذا تأويل، يعني: قال في قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه:٣٩] أي: بمرأى مني، وفي قوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور:٤٨] أي: بمرأى منا، وكذلك في قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر:١٤]، وقد يكون ذلك من صفات الذات، وتكون صفة واحدة، والجمع فيه للتعظيم، ومنهم من حملها على الحفظ والكلاءة -أي: الرعاية- وقال: إنها صفات فعل، والجمع فيها سائغ.

=

=

ومن قال بأحد هذين زعم أن المراد بالخبر نفي نقص العور عن الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين من الآفات والنقائص".

وقرئ: «بأعينا»، بالإدغام.

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور: ٤٨]، أي:" وسبِّح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة، وحين تقوم من نومك".

قال السمعاني:" {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، أي: صل حامدا لربك".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور: ٤٨]، وجوه:

أحدها: أن يسبح الله إذا قام من مجلسه، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء بن أبي رياح، وأبو الأحوص-في رواية.

عن طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء بن أبي رباح: أنه حدثه، عن قول الله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، يقول: "حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرا وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له".

عن أبي الأحوص:" {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك".

قال سعيد بن جُبَير: "{وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، أي: قُلْ حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك. فإن كان المجلس خيرًا ازددتَ فيه إحسانًا، وإن كان غير ذلك كان كفارة له".

عن مجاهد:" {وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، قال: من كلّ مجلس".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: "من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك".

الثاني: حين تقوم من منامك، ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله، قاله أبو الجوزاء، وأبو

=

=

الأحوص، وحسان بن عطية، وذكره عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه. وبه قال الطبري، والزجاج.

ويتأيد هذا القول بما رواه عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: "من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي- أو قال: ثم دعا- استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته".

قال أبو الأحوص:" من كل منامة، يقول حين يريد أن يقوم: سبحانَك وبحمدك".

عن أبي الأحوص عوف بن مالك: "{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، قال: سبحان الله وبحمده".

وعن زيد بن اسلم:" حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر".

قال السعدي:" ففيه الأمر بقيام الليل".

قال النحاس:" ويكون هذا نوم القائلة، يعني: صلاة الظهر، لأن المعروف من قيام الناس من نومهم إلى الصلاة إنما هو من صلاة الفجر، وصلاة الظهر وصلاة الفجر مذكورة بعد هذا".

الثالث: أنه التسبيح إذا قام إلى الصلاة المفروضة. قاله الضحاك، والربيع بن أنس، والقرظي.

عن الضحاك:" {وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، قال: حين تقوم إلى الصلاة تقول هؤلاء الكلمات: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدّك، ولا إله غيرك".

قال الربيع بن أنس: "{وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} إذا قمتَ إلى الصلاة فقُلْ: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدّك، ولا إله غيرك".

=

=

عن محمد بن كعب القُرَظيّ -من طريق أسامة بن زيد-:"أنه سمعه تلا هذه الآية: {وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، قال: حين تقوم للصلاة".

وقال الحسن البصري: "{وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} من مقامك، يعني: صلاة الصبح".

قال مقاتل: "يقول وصل بأمر ربك {حِينَ تَقُومُ} إلى الصلاة المكتوبة".

قال سهل:" يعني: صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها".

وروي عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة، ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك.

قال النحاس:" فأما قول الضّحاك إنه في افتتاح الصلاة فبعيد لاجتماع الحجة لأن الافتتاح في الصلاة غير واجب ولو أمر الله جلّ وعزّ به لكان واجبا إلّا أن تقوم الحجة أنّه على الندب والإرشاد".

وفي هذا التسبيح قولان:

أحدهما: هو قول: سبحان ربي العظيم، في الركوع، وسبحان ربي الأعلى، في السجود. حكاه الماوردي.

الثاني: التوجه في الصلاة بقوله: «سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك ولا إله غيرك». قاله الضحاك.

قال الطبري: والصواب" قول من قال: معنى ذلك: وصلّ بحمد ربك حين تقوم من مَنامك، وذلك نوم القائلة، وإنما عنى صلاة الظهر، وإنما قلت: هذا القول أولى القولين بالصواب، لأن الجميع مجمعون على أنه غير

واجب أن يقال في الصلاة: سبحانك وبحمدك، وما روي عن الضحاك عند القيام إلى الصلاة، فلو كان القول كما قاله الضحاك لكان فرضا أن يُقال لأن قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أمر من الله تعالى بالتسبيح، وفي إجماع الجميع على أن ذلك

=

=

غير واجب الدليل الواضح على أن القول في ذلك غير الذي قاله الضحاك.
فإن قال قائل: ولعله أريد به الندب والإرشاد. قيل: لا دلالة في الآية على ذلك، ولم تقم حجة بأن ذلك معنيّ به ما قاله الضحاك، فيحمل إجماع الجميع على أن التسبيح عند القيام إلى الصلاة مما خير المسلمون فيه دليلا لنا على أنه أُريد به الندب والإرشاد. وإنما قلنا: عُني به القيام من نوم القائلة، لأنه لا صلاة تجب فرضا بعد وقت من أوقات نوم الناس المعروف إلا بعد نوم الليل، وذلك صلاة الفجر، أو بعد نوم القائلة، وذلك صلاة الظهر؛ فلما أمر بعد قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}، بالتسبيح بعد إدبار النجوم، وذلك ركعتا الفجر بعد قيام الناس من نومها ليلا عُلِم أن الأمر بالتسبيح بعد القيام من النوم هو أمر بالصلاة التي تجب بعد قيام من نوم القائلة على ما ذكرنا دون القيام من نوم الليل".
عن سعيد بن المسيّب، قال: "حقٌّ على كلّ مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول: سبحان الله وبحمده؛ لأن الله يقول لنبيّه: {وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} ".
قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} [الطور: ٤٩]، أي:" ومن الليل فسبِّح بحمد ربك وعظِّمه، وصلِّ له".
قال الطبري:" يقول: ومن الليل فعظم ربك يا محمد بالصلاة والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء".
وفي قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} [الطور: ٤٩]، وجوه:
أحدها: أن ذلك صلاة المغرب والعشاء. قاله مقاتل، والطبري.
الثاني: صلاة العشاء. قاله ابن زيد.
الثالث: الصلاة بالليل في أيّ وقت صلى. قاله مجاهد.
عن مجاهد:" {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، قال: من الليل كله".
الرابع: أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ

=

=

بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَـسَى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّـكَ مَقَامًـا مَحْمُـودًا} [الإسـراء: ٧٩]. حكـاه الماوردي، وبه قال ابن كثير.

قال سهل:" يعني: لا تغفل عن ذكر من لا يغفل عن برك وحفظك في كل الأوقات صباحًا ومساء".

قوله تعالى: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} [الطور: ٤٩]، أي:" وصلِّ لـه في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} [الطور: ٤٩]، قولان:

أحدهما: أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر. قاله علي، ابن عباس، والحسن، وقتادة،والشعبي، وإبراهيم.

قال مقاتل:" يعني: الركعتين قبل صلاة الغداة وقتهما بعد طلوع الفجر".

قال ابن كثير:" فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة".

عن الحسن بن علي: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} [الطور: ٤٩] ركعتان قبل الصبح، {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٤٠]: «ركعتان بعد المغرب».

عن الشعبي قال: "{وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}، الركعتين بعد المغرب {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} الركعتين قبل الصبح".

عن إبراهيم:" أنه قال في هذه الآية: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} قال: الركعتين قبل الصبح {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} ركعتين بعد المغرب".

وقد روى في حديث ابن سيلان، عن أبي هريرة مرفوعا: "لا تَدَعُوهما، وإن طردتكم الخيل". يعني: "ركعتي الفجر".

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنها قالت: "لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر".

وفي لفظ لمسلم: "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها".

=

وفي لفظ للطبري: "هما خيرٌ مِنَ الدُّنْيا جميعا".

قال قتادة:"كنا نحدّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر. قال: وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: لهما أحبّ إليّ من حُمْر النَّعَم".

قال الزجاج:" أجمعوا في التفسير أن معنى {أَدْبَارَ السُّجُودِ}، معناه: صلاة الركعتين بعد المغرب، وأن {إِدْبَارَ النُّجُومِ}، صلاة ركعتي الغداة".

الثاني: أن معنى التسبح {إِدْبَارَ النُّجُومِ}: صلاة الصبح الفريضة. قاله الضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن.

عن ابن زيد عن ابيه:" {وأدبار السجود}، قال: النوافل خلف الصلوات، قال: {وإدبار النجوم}، قال: صلاة الصبح".

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بها: الصلاة المكتوبة صلاة الفجر، وذلك أن الله أمر فقال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، والركعتان قبل الفريضة غير واجبتين، ولم تقم حجة يجب التسليم لها، أن قوله فسبحه على الندب".

وقرئ: «وأدبار»، بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإن يروا كسفًا من السماء سقطًا يقولوا سحاب مركوم} الكسف معناه قطع العذاب، {يقولوا سحاب مركوم} وهذا يدل على أنهم يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، وأن هذا الكسف النازل قطع العذاب ما هي إلا سحب متراكمة، وهذا كقول عاد حين رأوا الرياح مقبلة عليهم قالوا: {هذا عارض ممطرنا}. لأن هؤلاء المكذبين- والعياذ بالله- معاندون يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، فإذا رأوا العذاب قالوا: هذا شيء عادي، ولن نهابه ولن نخافه، قال الله تعالى: {فذرهم} أتركهم {في خوضهم} بأقوالهم {يلعبون} بأفعالهم ويلهون في الدنيا ويرون أنهم على

=

حق {حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون} وهو يوم موتهم، يعني اترك هؤلاء فإن مآلهم إلى الموت وإن فروا، وهم إذا لاقوا يومهم الذي يوعدون عرفوا أنهم على باطل، وأن محمدًا ﷺ على الحق {يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئًا ولا هم ينصرون} فإذا جاءهم الموت ما أغنى عنهم كيدهم شيئًا؛ لأنهم في قبضة الله، وقد انتهى استعتابهم، وليس أمامهم إلا العذاب {وإن للذين ظلموا} والمراد بهم الكفار، قال الله تعالى: {والكافرون هم الظالمون}. {عذابًا دون ذلك}، يعني دون عذاب الموت، وهو ما أصيبوا به من الجدب والقحط والخوف والحروب وغير ذلك مما كان قبل الموت {ولكن أكثرهم لا يعلمون}، بل أكثرهم في غفلة عن هذا، ولا يظنون أن ذلك من العذاب في شيء.

{واصبر لحكم ربك} اصبر يا محمد عليه الصلاة والسلام، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقوله {لحكم ربك} يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي، يعني اصبر لما حكم به ربك من وجوب إبلاغ الرسالة وإن أصابك ما يصيبك، واصبر لحكم ربك القدري الكوني، وهو ما يقدره الله تعالى عليك من هؤلاء السفهاء من السخرية والعدوان والظلم، ولقد أوذي النبي ﷺ كما أوذي إخوانه من المرسلين، أوذي إيذاءً عظيمًا، وضع الكفار سلا الجزور على ظهره وهو ساجد تحت الكعبة، في آأمن مكان، وضرب، ورمي بالحجارة حين خرج إلى أهل الطائف حتى أدموا عقبه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يفق إلا وهو في قرن الثعالب، ويلقون القاذورات والأنتان على عتبة بابه عليه الصلاة والسلام، ويقول: «أي جوار هذا» وهذا من امتثال أمر الله، حيث قال الله له: {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا} أي: فإننا نراك بأعيننا ونراقبك ونلاحظك، ونعتني بك، وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى أنت مني على مرأى، وعلى

=

=

رقابة، وعلى حماية. وفي هذه الآية إثبات العين لله ﷻ وهي حقيقية ولكنها لا تماثل أعين الخلق، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

{وسبح بحمد ربك حين تقوم} حمل معنى القيام في هذه الآية على معان:

منها: أنه حمل على ذكر الله وتسبيحه عند القيام إلى الصلاة؛ وهذا قول الضحاك والربيع وعبد الرحمن بن زيد.

ومنها: أنه حمل على القيام من النوم؛ وبهذا قال أبو الجوزاء، وابن جرير الطبري، وعلى هذا فمعناه ذكر الاستيقاظ أو عند الانتباه والتعار على الفراش في الليل، ومن ذلك ما في "المسند" والبخاري؛ من حديث عبادة بن الصامت، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (من تعار من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده. لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي -أو قال: ثم دعا- استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى، تقبلت صلاته).

ومنها: أنه حمل على القيام من المجلس؛ وبهذا قال مجاهد وأبو الأحوص وعطاء بن أبي رباح، وذلك في معنى كفارة المجلس، فتختم المجالس بالذكر والحمد، وقد تقدم الكلام على الذكر في ختام المجلس عند قوله تعالى: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (١٠)} [يونس: ١٠].

والراجح العموم أي: قل: سبحان الله وبحمده {حين تقوم} من أي شيء، حين تقوم من مجلسك، أو حين تقوم من منامك، فهي عامة، ولهذا كان كفارة المجلس أن يقول الإنسان: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فينبغي للإنسان كلما قام من مجلس أن يختم مجلسه بهذا: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب

=

=

إليك».

قوله تعالى: {ومن الليل فسبحه} يعني وسبح ربك من الليل لا كل الليل، و (من) هنا للتبعيض، ولهذا لما سمع النبي ﷺ بأقوام من أصحابه قال أحدهم: (أنا أقوم ولا أنام) قال النبي ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام، ومن رغب عن سنتي فليس مني» ولذلك يكره للإنسان أن يقوم الليل كله حتى لو كان فيه قوة ونشاط، فلا يقوم الليل كله إلا في العشر الأواخر من رمضان، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يحيي ليلها كله، {وإدبار النجوم} يعني وقت أدبارها، وهل المراد أدبار ضوئها بانتشار نور الشمس، أو أدبار ذواتها عند الغروب؟ فالجواب هذا وهذا، والمراد بذلك صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر بها تدبر النجوم، وصلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا»

والمراد بالصلاة قبل طلوع الشمس أي صلاة الفجر، وقبل غروبها صلاة العصر، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من صلى البردين دخل الجنة» والبردان هما صلاة الفجر، وصلاة العصر، فصلاة الفجر براد الليل، وصلاة العصر براد النهار، {ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} وبهذا انتهى الكلام بما يسر الله ﷻ على سورة الطور، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣) والبيت المعمور (٤) والسقف المرفوع (٥) والبحر المسجور (٦) إن عذاب ربك لواقع (٧) ما له من دافع (٨)} [الطور: ١ - ٨]؛ تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته،

=

=

وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

فـ "الطور": هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف.

وعرفه هاهنا بـ "اللام"، وعرفه في موضع آخر بالإضافة؛ فقال تعالى: {وطور سينين (٢)} [التين: ٢].

وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبد الله بن أحمد في كتاب "الزهد" لأبيه:

حدثني محمد بن عبيد بن حساب، قال: حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: "أوحى الله ﷻ إلى الجبال: إني نازل على جبل منكم. قال: فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور، فإنه تواضع، وقال: أرضى بما قسم الله لي، فكان الأمر عليه".

وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به، وإنه لسيد الجبال.

الثاني: "الكتاب المسطور" في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب:

فقيل: هو اللوح المحفوظ. وهذا غلط؛ فإنه ليس بـ "رق".

وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم. قال مقاتل: "تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور".

وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين ومنهم من لم يذكر غيره؛ فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده، وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزلها الله على موسى.

وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران هذا الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن

=

=

التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه- سبحانه- وصف القرآن بأنه {في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)} [عبس: ١٣- ١٦]، فالصحف هي "الرق"، وكونه بأيدي السفرة هو كونه منشورا.

وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال، وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمنا للنبوتين العظيمتين : نبوة موسى، ونبوة محمد صلى الله عليهما وسلم. وكثيرا ما يقرن بينهما، وبين محلهما كما في سورة "والتين والزيتون".

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو "البيت المعمور".

وفي وصفه للكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبا مفروغا منه. وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

وأما "البيت المعمور"؛ فالمشهور أنه "الضراح" الذي في السماء الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. وهو بحيال البيت المعمور في الأرض.

وقيل: هو البيت الحرام.

ولا ريب أن كلا منهما بيت معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود. وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم- سبحانه- بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما:

السقف المرفوع؛ وهو السماء، فإنها من أعظم آياته قدرا، وارتفاعا، وسعة،

=

=

وسمكا، ولونا، وإشراقا. وهى محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، وهي محل النيرين اللذين بهما قوام الليل، والنهار، والسنين، والشهور، والأيام، والصيف، والشتاء، والربيع، والخريف. ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح وأعمالها وكلماتها الطيبة.

والثاني: البحر المسجور؛ وهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا الله.

واختلف في هذا البحر، هل هو البحر الذي فوق السماوات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين:

فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام، كما في الحديث الذي رواه أبو داود، من حديث سماك، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، أن العباس بن عبد المطلب قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: "ما تسمون هذه؟ " قالوا: السحاب، قال: "والمزن" قالوا: والمزن، قال: "والعنان"، قالوا: والعنان قال: "هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟ " قالوا: لا ندري، قال: "إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك".

وهذا لا يناقض ما في "جامع الترمذي": "إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام"؛ إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف. وهذا القول في البحر- أنه الذي تحت العرش- محكي عن: علي بن أبي طالب

=

=
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثاني: أنه بحر الأرض.

واختلف في "المسجور":

فقيل: المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال الفراء: "المسجور في كلام العرب: المملوء".

يقال: سجرت الإناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السري وصدعا ... مسجورة متجاوزا قلامها

وقال المبرد: "المسجور: المملوء عند العرب"؛ وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عينا مملوءة ماء.

وكذا قال ابن عباس: "المسجور: الممتلئ".

وقال مجاهد: "المسجور: الموقد".

قال الليث: "السجر: إيقادك في التنور، تسجره سجرا، والسجور: اسم الحطب".

وهذا قول: الضحاك، وكعب، وغيرهما.

قال: "البحر يسجر فيزاد في جهنم".

وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "مسجور بالنار". قاله الفراء.

وهذا يرجع إلى القول الأول؛ لأنك تقول: سجرت التنور؛ إذا ملأته حطبا.

وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أن المسجور: "اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب". وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف. وهذا القول اختيار أبي العالية.

قال أبو زيد: "المسجور: المملوء، والمسجور: الذي ليس فيه شيء"، جعله من
=

=

الأضداد.

وقد روي عن ابن عباس أن المسجور : المحبوس، ومنه: ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد يمسكه.

والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرا للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وفي هذا المعنى حديث ذكره الإمام أحمد مرفوعا: "ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم".

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز بعض جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره.

وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم: فنعم؛ هو كما ذكروا، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين = غير معقولة؟!

فالعناية الإلهية تقتضي حياته، وقدرته، ومشيئته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به، فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع. وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في "المسجور" أنه الموقد- وهذا هو المعروف في اللغة- من: السجر، ويدل عليه قوله تعالى: {وإذا البحار سجرت (٦)} [التكوير: ٦]، قال علي بن أبي طالب، وابن عباس: "أوقدت فصارت نارا".

ومن قال: "يبست وذهب ماؤها"؛ فلا يناقض كونها نارا موقدة. وكذا من قال: "ملئت"؛ فإنها تملأ نارا.

=

=

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله ﷻ، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير نارا. فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني. والله أعلم.

فصل: وأقسم- سبحانه- بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال تعالى: {إن عذاب ربك لواقع (٧)} [الطور: ٧].

ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر- سبحانه- أنه لا دافع له. وهذا يتناول أمرين:

أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه.

والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع.

ثم ذكر- سبحانه- وقت وقوعه فقال: {يوم تمور السماء مورا (٩) وتسير الجبال سيرا (١٠)} [الطور: ٩، ١٠].

و"المور": قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب.

والتحقيق؛ أنه حركة في تموج، وتكفؤ، وذهاب، ومجيء.

ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال، فقال: {وتسير الجبال سيرا (١٠)}، وقال تعالى: {وإذا الجبال سيرت (٣)} [التكوير: ٣]، فالجبال تسير من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ، وتتموج، وتذهب، وتجيء.

قال الجوهري: "مار الشيء يمور مورا: ترهيأ؛ أي: تحرك، وجاء، وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة- أي: الطويلة -، ومنه قوله تعالى: {يوم تمور السماء مورا (٩)}، قال الضحاك: تموج موجا.

وقال أبو عبيدة، والأخفش: تكفأ. وأنشد للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مور السحابة، لا ريث ولا عجل"

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها،

=

=

وهي "الخوض" الذي هو كلام باطل، و"اللعب" الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع، ولا عمل صالح؛ بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر؛ أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعا، أي: يدفعون في أقفيتهم وأكتافهم، دفعا بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: {هذه النار التي كنتم بها تكذبون (١٤)}، وتقولون لا حقيقة لها، ولا من أخبر بها صادق. ثم يقال لهم: {أفسحر هذا} الآن كما كنتم تقولون للحق الذي جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة؛ فهذا- الآن- سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصر الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذ: {فاصبروا أو لا تصبروا} [الطور: ١٦] كلاهما سواء عليكم لا يجدي عليكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدا؛ بل صارت عذابا لازما لهم، كما كانت إراداتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادات الفاسدة، والعقائد الباطلة، وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا.

فإن زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده، وبالتوبة النصوح زوالا كليا لم يعذبوا عليه في الآخرة؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر

=

=
يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها.
وإن لم تزل تلك الإرادات والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف.
وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه "جبال الأعراف" بين الجنة والنار.
فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره، ونهيه، وعقابه، ولا يظلم ربك أحدا.
فصل: ثم ذكر - سبحانه- أرباب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة؛ وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهي الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم.
وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم {فاكهين بما آتاهم ربهم} [الطور: ١٨]، و"الفاكه": المعجب بالشيء، المسرور المغتبط به. وفعله: فكه- بالكسر -، يفكه، فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس. والفاكه: المازح، ومنه "المفاكهة" وهي: المزاح الذي ينشأ عن طيب النفس. وتفكهت بالشيء: إذا تمتعت به، ومنه "الفاكهة" التي يتمتع بها.
ومنه قوله تعالى: {فظلتم تفكهون (٦٥)} [الواقعة: ٦٥]؛ قيل: معناه: تندمون. وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة: تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال: تحنث؛ إذا زال الحنث عنه، وتحرج، وتحوب، وتأثم، ومنه: تفكه. وهذا البناء يقال للداخل في الشيء كـ: تعلم، وتحلم، وللخارج منه كـ: تحرج، وتأثم.
والمقصود أنه- سبحانه- جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح.
=

=

ووقاهم عذاب الجحيم؛ فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا؛ لأنهم توقوا ما يكره، وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقا لأعمالهم.

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: {هنيئا}؛ إذ لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم، ولم يكن هنيئا لهم.

ثم ذكر مجالسهم، وهيئاتهم فيها؛ فقال: {متكئين على سرر مصفوفة} [الطور: ٢٠]، وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا، كما قال تعالى: {متكئين عليها متقابلين (١٦)} [الواقعة: ١٦]، فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته، ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدا منه قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه، ومقابله سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم "الحور العين". وقد تكرر وصفهن في القرآن بهاتين الصفتين، قال أبو عبيدة: "جعلناهم أزواجا كما تزوج النعل بالنعل، جعلناهم اثنين اثنين".

وقال يونس: "قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج".

واحتج على ذلك بأن العرب لا تقول: تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها. قال تعالى: {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها} [الأحزاب: ٣٧]، وفي الحديث: "زوجتكها بما معك من القرآن".

وقال غيره: "العرب تقول: تزوجت امرأة، وتزوجت بامرأة".

وقال الأزهري: "العرب تقول: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس في كلامهم: تزوجت بامرأة. وقوله تعالى: {وزوجناهم بحور عين (٢٠)} [الطور: ٢٠]؛ أي: قرناهم".

وعلى هذا "فزوجناهم" عند هؤلاء من الاقتران والشفع، أي: شفعناهم، وقرناهم

=

=

بهن.

وقالت طائفة- منهم مجاهد -: زوجناهم بهن، أي: أنكحناهم إياهن.

قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح، وتعديته بـ "الباء" المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد. والله أعلم.

وأما "الحور العين"؛ فقال مجاهد: "التي يحار فيها الطرف، باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون".

وقال قتادة: "بـ "حور" أي: بيض". وكذلك قال ابن عباس.

وقال مقاتل: ""الحور": البيض الوجوه، "العين": الحسان الأعين".

وعين حوراء: شديدة السواد، نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن. ولا تسمى المرأة "حوراء" حتى تكون مع حور عينها بيضاء لون الجسد.

فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال تعالى: {خيرات حسان (٧٠)} [الرحمن: ٧٠]، فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن. وقد وصف الله- سبحانه- نساء الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف على ما سكت عنه.

فإن شئت التفصيل؛ فالذي يحمد ويستحب من وجه المرأة، وبدنها، وأخلاقها:

"البياض" في أربعة أشياء: اللون، وبياض العين، والفرق، والثغر.

و"السواد" في أربعة: سواد العين، وسواد شعر الرأس، وسواد شعر الجفن، وسواد شعر الحاجبين.

و"الحمرة" في أربعة: اللسان، والشفتين، والوجنتين، وحمرة تشوب "البياض" فتحسنه وتزينه.

ومن "التدوير" أربعة أشياء: الوجه، والرأس، والكعب، والمقعد.

=

=

ومن "الطول" أربعة: القامة، والعنق، والشعر، والحاجب.

ومن "السعة" في أربعة: الجبهة، والعين، والوجه، والصدر.

ومن "الصغر" في أربعة: الثدي، والفم، والكف، والقدم.

ومن "الطيب" في أربعة: الفم، والأنف، والفرق، والفرج.

ومن "الضيق" في موضع واحد.

ومن "الأخلاق" كما قال الله تعالى: {عربا أترابا (٣٧)} [الواقعة: ٣٧]، فـ "العرب" جمع: عروب، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها بأخلاقها، ولطافتها، وشمائلها.

قال ابن الأعرابي: "العروب من النساء: المطيعة لزوجها، المتحببة إليه".

وقال أبو عبيدة: "هي الحسنة التبعل".

قال المبرد: "هي العاشقة لزوجها".

وقال البخاري في "صحيحه": "هي الغنجة، ويقال: الشكلة".

فهذا وصف أخلاقهن، وذاك وصف خلقهن. وأنت إذا تأملت الصفات التي وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها. والله المستعان.

فصل: ثم أخبر- سبحانه- عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة- وإن لم يعملوا أعمالهم- لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم.

وأخبر- سبحانه- أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق، فينزلهم من الدرجة العليا إلى السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء، ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر- سبحانه- أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل {كل امرئ بما كسب رهين (٢١)} [الطور: ٢١]، ففي هذا رفع لتوهم التسوية بين الفريقين في هذا الإلحاق، كما في قوله: {وما ألتناهم من عملهم

=

=

من شيء} [الطور: ٢١] رفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينتقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله: {وما ألتناهم من عملهم من شيء} أي: ما نقصناهم.

ثم ذكر إمدادهم باللحم، والفاكهة، والشراب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه، ولحوق الإثم لهم؛ فقال: {لا لغو فيها ولا تأثيم (٢٣)} [الطور: ٢٣]، فنفى بـ "اللغو": السباب، والتخاصم، والهجر، والفحش في المقال، والعربدة. ونفى بـ "التأثيم" جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر.

وقال سبحانه: {ولا تأثيم (٢٣)} ولم يقل: ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك، ولا الملائكة، فلا يلغون، ولا يأثمون.

قال ابن قتيبة: "لا تذهب بعقولهم فيلغوا، ولم يقع منهم ما يؤثمهم".

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم. و"المكنون": المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون.

ووصفهم في موضع آخر بأن رائيهم يحسبهم لؤلؤا منثورا؛ ففي ذكره "المنثور" إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم، وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم، وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر - سبحانه - ما يتحدثون به هناك، وأنهم يقولون: {إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦)} [الطور: ٢٦] أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا، فأمننا

=

=

مما نخاف {ووقانا عذاب السموم (٢٧)} [الطور: ٢٧]، وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورا. فهذا كان مسرورا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله- سبحانه- إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف. فبالله المستعان.

ثم أخبر تعالى عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها، فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته؛ فإنه هو "البر الرحيم".

فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة. والله أعلم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ- قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) (الطور: ٢٤)، وفي سورة الواقعة: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ) (الواقعة: ١٧- ١٨)، وفي سورة الإنسان: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) (الإنسان: ١٩)، فورد في سورة الطور: (غِلْمَانٌ لَهُمْ) وفي السورتين: (وِلْدَانٌ) والمراد في السور الثلاث الخدام. للسائل أن يسأل عن الموجب لتخصيص كل آية بما ورد فيها؟

والجواب، والله أعلم: يترتب على تمهيد، وهو أن الغلام هو الطار الشارب، وقيل باستصحابه هذا الاسم إلى أن يشيب، والجمع غلمان. وأما الوليد فاسم للمولود حين يولد، وهو فعيل وهي بنيه مبالغة، وفائدتها هنا استحكام الصغر، وجمعه ولدان، وعلى هذا لايرادف أحد الاسمين الآخر. فإن ورد أحدهما في موضع الآخر فعلى المجاز والتوسع، والأصل ما مهد. وإذا تقرر هذا فوجه ورود الغلمان في سورة الطور- والله أعلم- مناسبة اللفظ باتساع مواقعه في أحد القولين وهي استصحاب اسم الغلومية إلى المشيب، أو لاحتياج التوسع فيما يطوفون به

=

=

ويستخدمون فيه بحسب أسنانهم لمن تقدم من صنفي المخدومين وهم الآباء والأبناء في قوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) (الطور: ٢١)، فذُكر هنا الآباء الداخلون الجنة مجازاة على أعمالهم، والأبناء من الذرية ممن لم يبلغ سن التكليف فدخل الجنة بغير عمل، فناسب الاتساع.

وأما آية الواقعة فلم يقع فيها ذكر الاتباع فناسب ذلك ذكر الولدان الذيم لا تحتمل أسنانهم خدمة الغلمان، فناسب الاقتصار الاقتصار والتوسع التوسع، ووضح أن العكس لا يناسب، والله أعلم.

ووصَفَ الولدان بقوله: (مُخَلَّدُونَ) إعلامًا بأنهم باقون على مقتضى سن الوليدية لا تتغير أحوالهم عن ذلك، وإلا فالخلود الأخراوي عام (الهم) ولغيرهم.

وجواب ثان: وهو أنه لما ذكرت الذرية في سورة الطور بما كان يوهم ذكرهم من حيث دخولهم الجنة بغير عمل أنهم فيها خدام لمن اتبعوه بين قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ) (الطور: ٢٤) أن الكل من تابع ومتبوع مخدومون، وقيل: (لهم) باللام المقتضية الملك مع كون الضمير في لهم للكل من متبوع وتابع إشعارًا لأنهم ملكهم غلمان لهم، يتصرفون في كل بما يؤمرون به وينهون عنه، ولما لم (يقع) في سورة الواقعة وسورة الإنسان ذكر الأتباع من الذرية لم يرد فيهما إلا اسم الولدان، وهم في الخدمة بمقتضى أسنانهم دون الغلمان، وتناسب هذا، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الطور- قوله تعالى: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) (الطور: ٤١- ٤٢)، وفي سورة القلم: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) (القلم: ٤٧- ٤٨)، للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب هذه

=

الآية في السورتين بما ورد فيهما؟ ووجه المناسبة في ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه جل وتعالى أرغم معاندي رسول الله ﷺ، وقطع تعلقهم، وأوضح عجزهم، وأوقفهم على قبيح تكذيبهم وشنيع مرتكبهم في بضع وعشرين آية من سورة الطور وسورة القلم، وفي سورة الطور أكثرها، وباقيها في سورة القلم، وتصل محصورًا فيها كل متعلق بمجادلتهم ظنًا أو توهمًا، وقدم ذلك في السورتين حال المتقين وما منحوه، على تفصيل في سورة الطور واستيفاء يناسب ما فصل أيضًا من حال المعاندين في متعلقاتهم، وإيجاز في سورة القلم يناسب الوارد فيها من ذلك التعلق، مكتفي من ذلك في (وصف) المتقين بقوله تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (القلم: ٣٤). فلما تقعد في السورتين حال المتقين أعقب بتوبيخ من ارتكب ضد حالهم، فبدأ سبحانه في سورة الطور بقوله لنبيه ﷺ أمرًا له باستمراره على الدعاء (إلى ربه): (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) (الطور: ٢٩)، فنفي عنه ما نسبوه إليه ﷺ بهاتين، وقد علموا براءته من ذلك واعترفوا به في الخبر الصحيح بل كانوا يعلمون صدقة قال تعالى: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام: ٣٣)، فهذا إخبار منه سبحانه بمعتقدهم فيه، ولكنهم كانوا يرون أن رميه بالتكهن والجنون كأنه مخيل في توقفهم عن تصديقة واتباعه لذلك أكد سبحانه نفي ذلك عنه بالقسم في السورتين فقال (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) (الطور: ٢٩)، وهذا في قوة القسم الصريح، وقال في سورة القلم مفصحًا بذلك: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) (القلم: ١ - ٢)، ثم كرر ذلك توبيخًا لقائله فقال: (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) (القلم: ٥١)، ولم يتكرر في السورتين مفصحًا به من الصادر عنهم فيما كانوا يرمونه به غير صفة الجنون، ثم قال تعالى قاطعًا بهم في احتجاجهم (أَمْ

=
يَقُولُونَ شَاعِرٌ) (الطور: ٣٠)، وقد عرفوا أن ما جادلهم به ليس بشعر، ثم قال تعالى: (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا) (الطور: ٣٢)، ومن المعلوم الذي قد علموه هم أن عقولهم لا ترجع ذلك من مقالهم فكيف تأمرهم به؟ ثم قال: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ) (الطور: ٣٣) أي فإن قالوا- فليأتوا بمثله وعجزهم عن ذلك قاطع هذا التعليق، ثم قال: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) (الطور: ٣٥)، وقد كذبوا أنفسهم بهذا واعترفوا بخلق الله تعالى إياهم: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ) (الزخرف: ٨٧)، ثم قال: (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور: ٣٥) (أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (الطور: ٣٦)، وقد أخبر تعالى عنهم بقوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) (لقمان: ٢٥) فلا تعلق لهم بشيء من هذه المرتكبات لتكذيبهم أنفسهم وكل ما يقدر أن يتعلقوا به من المذكور بعد هذا من قوله: (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ) (الطور: ٣٧) إلى قوله: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) (الطور: ٤٠) لا توقف في اضحلال تعلقهم به، فلم يبق بعد وضوح الحق إلا الضلال ولما بلغ المتقرر من رد متعلقاتهم الغاية في قطع كل متوهم من متوهماتهم المفروضة قال تعالى: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ) (الطور: ٤١)، وهذا آخر ما يتوهم متعلقًا لهم وإن لم يقولوه، فلم يبق لهم إلا أعمال المكيدة فأخبر تعالى أنهم: (هُمُ الْمَكِيدُونَ) (الطور: ٤٢) (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر: ٤٥)، فقد وضح وجه تعقيب آي سورة الطور بهذه الآية.

ولما كمل في سورة (نوالقلم) ذكر كل ما يمكن تعلقهم به، واستوفي ما قد وقع منهم وما يشبه ذلك مما لم يقولوه لبعده كادعاء اطلاع الغيب واستراق السمع، وادعاء خلق السماوات والأرض، وإيجادهم من غير صانع مريد مختار قادر، أو أن خزائنه سبحانه عندهم، فلما لم يبق ما يتوهم إمكان تصوره، وانقطع تعلقهم، وتبين أن توقفهموامتناعهم عناد بّين، قال لنبيه ﷺ: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا
=

سورة النجم[1]

=

لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) (القلم: ٥١)، فأرغمهم وفضحهم وأعقب الآية من قوله: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ) (القلم: ٤٧) في سورة القلم بالأمر بالصبر لكمال ما قصد من قطعهم بكل جهة واستيضاح تمردهم من بعد ما تبين لهم الحق إلا الصبر عليهم حتى يحكم الله فيهم بما شاء، وقال له تحذيرًا من أنن تدركه السآمة والضجر: (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) (القلم: ٤٨) وبان أيضًا وجه هذا التعقيب. ولما كانت سورة الطور متقدمة في الترتيب المستقر، وورد بعدها في سورة القلم ما هو راجع إلى الوارد في الطور ومن تمامه أعقبت الآية هناك بقوله: (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا) (الطور: ٤٢)، وأعلم تعالى نبيه ﷺ أن كيدهم راجع عليهم، وأن ما راموه حال بهم: (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) (الطارق: ١٧) تأنيسًا له، عليه السلام، وإعلامًا أن العاقبة له، وأنه سيستجيبُ له غيرهم ممن سبقت له الحسنى فأناب وتذكر، قال تعالى: (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (القلم: ٥٢)، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٥٣-٤٥٦).

(١) السّورة مكِّيّة.

قال ابن عاشور:" ونسب إلى الحسن البصري: أن السورة كلها مدنية، وهو شذوذ".

قال الفيروزآبادي:" السورة مكية بالاتفاق".

قال ابن الجوزي:" هي مكّيّة بإجماعهم ".

قال ابن عطية:" هي مكية بإجماع من المتأولين، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون".

=

=

* آياتها اثنتان وستون فى عدّ الكوفيّين، وواحدة فى عدّ الباقين. وكلماتها ثلاثمائة وستون. وحروفها أَلْف وأَربعمائة وخمسون. والآيات المختلف فيها ثلاث: {مِنَ الحق شَيْئًا}، {عَن مَّن تولى} {الحياة الدنيا}. مجموع فواصل آياتها (واه).

* أسماء السورة:

سميت «سورة النجم» لافتتاحها بقسم الله تعالى بالنجم في قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}،

وقد سميت بـ «سورة النجم» بغير «واو» في عهد أصحاب النبي ﷺ، ففي "الصحيحين" عن عبد الله رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم، فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفا من حصى- أو تراب- فرفعه إلى وجهه، وقال: يكفيني هذا "، قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافرا".

عن ابن عباس رضي الله عنهما:" «أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». فهذه تسمية؛ لأنها ذُكِر فيها «النجم».

وسموها: «سورة والنجم» بـ «واو» بحكاية لفظ القرآن الواقع في أولها، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من "صحيحه"، والترمذي في «جامعه».

ووقعت في المصاحف والتفاسير بالوجهين، وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها، وهو لفظ «النجم» أو حكاية لفظ «والنجم».

وسموها: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيح: أن النبي ﷺ قرأ: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، فلم يسجد، أي: في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما.

وعن الأعرج؛ أن عمر بن الخطاب، قرأ ب: {والنجم إذا هوى} فسجد فيها ثم قام، فقرأ بسورة أخرى".

قال ابن عاشور: "وهذا كله اسم واحد مُتَوَسع فيه، فلا تُعَدُّ هذه السورة بين السور

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١).

{وَالنَّجْم} الثُّرَيَّا {إِذَا هَوَى} غَابَ.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢).

{مَا ضَلَّ صَاحِبكُمْ} مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عَنْ طَرِيق الْهِدَايَة {وَمَا غَوَى} مَا لَابَسَ الْغَيّ وَهُوَ جَهْل مِنْ اعْتِقَاد فَاسِد.

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣).

{وَمَا يَنْطِق} بِمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ {عَنِ الْهَوَى} هوى نفسه.

=

ذوات أكثر من اسم".

* معظم مقصود السورة: القَسَم بالوحى، وهداية المصطفى- ﷺ- وبيان معراج الكرامة، وذكر قبيح أَقوال الكفار، وعقيدتهم فى حَقِّ الملائكة والأَصنام، ومدح مجتنبى الكبائر، والشكوى من المعرضين عن الصّدَقة، وبيان جزاءِ الأَعمال فى القيامة، وإِقامة أَنواع الحجّة على وجود الصّانع، والإِشارة إِلى أَحوال مَن أُهلِكوا من القرون الماضية، والتخويف بسرعة مجئ القيامة، والأَمر بالخضوع والانقياد لأَمر الحقِّ تعالى، فى قوله: {فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا}.

* المتشابهات: قوله: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن}، وبعده: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن} ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بعبادتهم اللاَّت والعُزَّى [ومناة] والثَّانى بعبادتهم الملائكة، ثمّ ذَمَّ الظَّن، فقال: {إِنَّ الظَنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}.

قوله: {مَّآ أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ} فى جميع القرآن بالأَلف، إِلاَّ فى الأَعراف.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤).

{إِنْ} مَا {هُوَ إِلَّا وَحْي يُوحَى} إِلَيْهِ.

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥).

{علمه} إياه ملك {شديد القوى}.

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦).

{ذُو مِرَّة} قُوَّة وَشِدَّة أَوْ مَنْظَر حَسَن أَيْ جِبْرِيل عليه السلام {فَاسْتَوَى} اسْتَقَرَّ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، أي:" أقسم الله تعالى بالنجوم إذا غابت".

قال الفراء:" {إِذَا هَوَى}: نزل، وقد ذكر: أنه كوكب إذا غرب".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} [النجم: ١]، أقوال:

أحدها: معناه: والقرآن إذا نزل. لأنه كان ينزل نجومًا متفرقة. قاله عطاء عن ابن عباس، والأعمش عن مجاهد، وبه مقاتل، ويحيى بن سلام، والفراء.

قال الفراء:" أقسم- تبارك وَتعالى- بالقرآن، لأنّه كانَ يَنْزِلُ نجومًا، الآية وَالآيتانِ، وَكانَ بين أَوَّلِ نزولِه وآخره عشرون سنة".

قال ابن قتيبة:" يقال: كان القرآن ينزلُ نُجومًا؛ فأقسم الله بالنجم منه إذا نزل".

قال مقاتل:" وكان القرآن إذا نزل إنما ينزل نجوما، ثلاث آيات وأربع، ونحو ذلك، والسورة والسورتان".

قال يحيى:" يعني: نجوم القرآن إِذا نزل به جبريل على النَّبي يعني بذلك الآية والآيتين، والسورة والسورتين وفوق ذلك. وقال في سورة الواقعة {فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم} يعني أقسم بِمواقِعِ النُّجوم، نجوم القرآن إِذا نزل به جبريل على النبي".

عن المنهال بن عمرو -رفعه إلى عبد الله- في قوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُوم}، قال: هو محكم القرآن". قال محمد أبو زكريا: يعني: الذي لم ينسخ".

=

=

عن قتادة: "{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، قال: قال عُتبة بن أبي لهب: كفرتُ بربّ النجم، فقال رسول الله ﷺ: "أَمَا تَخَافُ أَنْ يَأْكُلَكَ كَلْبُ اللهِ" قال: فخرج في تجارة إلى اليمن، فبينما هم قد عرَّسوا، إذ سمعَ صوتَ الأسد، فقال لأصحابه إني مأكول، فأحدقوا به، وضرب على أصمخّتهم فناموا، فجاء حتى أخذه، فما سمعوا إلا صوته".

الثاني: معناه: والثريا إذا سقطت، رواه العوفي عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد، لأنهم كانوا يخافون الأمراض عند طلوعها.

قال مجاهد:" يعني: "الثريا، إذا سقط مع الفجر". وفي لفظ:"الثريا إذا غابت"، وفي لفظ: قال: "الثريا إذا وقعت".

عن سفيان: "{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، قال: الثريا".

وروي عن ابن عباس، قوله: "{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، قال: إذا انصبّ".

قال ابن قتيبة: "والعرب تسمي الثريا- وهي ستة أنجُم- نجمًا". وقال غيره: "هي سبعة، فستة ظاهرة، وواحد خفي يمتحن به الناسُ أبصارَهم".

واختار هذا القول الطبري، إذ قال:" والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله مجاهد من أنه عنى بالنجم في هذا الموضع: الثريا، وذلك أن العرب تدعوها النجم، والقول الذي قاله من حكينا عنه من أهل البصرة قول لا نعلم أحدا من أهل التأويل قاله، وإن كان له وجه، فلذلك تركنا القول به".

الثالث: أنها الزهرة، قاله السدي.

قال الماوردي: "لأن قومًا من العرب كانوا يعبدونها".

الرابع: أنها جماعة النجوم، أي: نجوم السماء كلها دون تحديد، عبر عنها باسم الجنس. وهذا قول الحسن، وقتادة، هو مروي عن مجاهد أيضًا.

واختار هذا القول السمعاني، وقال:" وهذا أظهر الأقاويل؛ لأنه يطابق اللفظ من

=

=

كل وجه. ويجوز أن يذكر النجم بمعنى النجوم، قال عمر بن أبي ربيعة :

أَحْسَنُ النَّجْم فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا... وَالثُّرَيَّا فِي الأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ

ومعناه: أحسن النجوم".

وقال أبو عبيدة: "أقسم بالنجم إذا سقط في الغَوْر". قال ابن قتيبة: "وكأنه لم يخصِّص الثُّرَيَّا دون غيرها".

الخامس: معناه: الرُّجوم من النُّجوم، يعني: ما يرمى به الشياطين. رواه عكرمة عن ابن عباس.

السادس: -ما حكاه الماوردي- بأنها " النجوم المنقضة، وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد ﷺ رسولاً، كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، فذعر أكثر العرب منها، وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير كان يخبرهم بالحوادث، فسألوه عنها، فقال انظروا البروج الاثني عشر، فإن انقض منها شيء، فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقض منها شيء، فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ، كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} ، أي: ذلك النجم الذي هوى، هو لهذه النبوة التي حدثت".

السابع: يعني: ومحمد ﷺ إذا رجع من السماء. قاله سهل التستري.

قال ابن الجوزي:" فعلى قول من قال: النجم: الثريا، يكون «هوى» بمعنى «غاب» ومن قال: هو الرُّجوم، يكون هُوِيُّها في رمي الشياطين، ومن قال: القرآن، يكون معنى «هوى»: نزل، ومن قال: نجوم السماء كلِّها، ففيه قولان: أحدهما: أن هُوِيَّها أن تغيب. والثاني: أن تنتثر يوم القيامة".

قال الماوردي:" وهذا قسم، وعلى القول الخامس في انقضاض النجوم خبر".

عن محمد ابن كعب القرظي:" أن رسول الله ﷺ كان يسجد في: {والنجم إذا هوى} ".

=

=

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله- ﷺ -: "قرأ بالنجم فسجد وسجد الناس معه إلا رجلين".

عن زيد بن ثابت- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: "أنه قرأ عند رسول الله- ﷺ- بالنجم فلم يسجد فيها".

قال الإمام الشافعي:" وفي هذين الحديثين دليل على أن سجود القرآن ليس بحتم، ولكنا نحب أن لا يترك؛ لأن النبي- ﷺ- سجد في النجم وترك".

قوله تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} [النجم: ٢]، أي:" ما حاد محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، وما خرج عن الرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد".

قال سهل:" أي: ما ضل عن حقيقة التوحيد قط، ولا اتبع الشيطان بحال".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما حاد صاحبكم أيها الناس عن الحقّ ولا زال عنه، ولكنه على استقامة وسداد، وما صار غويًّا، ولكنه رشيد سديد، وقوله: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ} جواب قسم {والنجم} ".

قال الماوردي:" وهذا جواب القسم على قول الأكثرين".

قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم: ٣]، أي:" وليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه".

قال الطبري: يقول:" وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه،، وقيل: بالهوى".

قال قتادة:" أي: ما ينطق عن هواه ".

قال سهل:" يعني: لا ينطق بالباطل قط. كان نطقه حجة من حجج الله تعالى، فكيف يكون للهوى والشيطان عليه اعتراض؟ ".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤]، أي:" ما القرآن وما السنة إلا وحي من الله إلى نبيه محمد ﷺ".

=

=

قال الطبري: "يقول: ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه".

عن قتادة:" قال: يوحي الله تبارك وتعالى إلى جبرائيل، ويوحي جبريل إلى محمد ﷺ".

قوله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: ٥]، أي:" علَّم محمدًا ﷺ القرآن مَلَك شديد القوة، وهو جبريل -عليه السلام-".

قال الطبري: يقول:" عَلَّم محمدا ﷺ هذا القرآن جبريلُ عليه السلام، وعُنِي بقوله: {شَدِيدُ الْقُوَى}: شديد الأسباب. والقُوى: جمع قوّة".

عن قتادة، والربيع: "{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}، يعني: جبريل".

قوله تعالى: {ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}، أي:" ذو حصافة في العقل، وقوةٍ في الجسم، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية".

قال ابن كثير:": {ذُو مِرَّةٍ}، أي: ذو قوة، {فَاسْتَوَى} يعني: جبريل، عليه السلام".

عن الربيع: "{ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}: جبريل عليه السلام".

وفي قوله تعالى: {ذُو مِرَّةٍ} [النجم: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ذو منظر حسن. قاله ابن عباس.

وقال قتادة:" ذو خَلْق طويل حسن".

الثاني: ذو قوة، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، وسفيان، وابن زيد. وبه قال ابن كثير.

قال مجاهد:" ذو قوة؛ جبريل".

قال القاسم بن سلام:" ذو قوة بلغة قريش".

قال ابن زيد:" المرّة: القوّة".

قال الزجاج:" المرة القوة"، ومنه قول خفاف بن ندبة :

فتَعلَّمي أنّي امرؤٌ ذُو مرَّةٍ... فيمَا ألمَّ مِنَ الخُطوبِ صَليبُ

=

=

إني امرؤ ذو مرة فاستبقني... فيما ينوب من الخطوب صليب

وقال أبو عبيدة:" ذو شدة وإحكام، يقال: حبل ممرّ، أي: مشدود".

قال الواحدي:" معنى «المِرَّة» -في اللغة-:شدة الفتل وشدة أسر الخلق، وأصل المرة من أمررت الحبل، أي: شددت فتله، وكل قوة من قوى الحبل مرة، وجمعها مِرر".

قال ابن كثير:" ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذو منظر حسن، وقوة شديدة".

قال الكلبي: "ذو شدة"، "وكان من شدة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدته أيضا: أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على بعض عقاب من الأرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدته: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف".

الثالث: ذو غناء، قاله الحسن.

الرابع: ذو عقل، قاله ابن الأنباري، قال الشاعر :

قد كنت عند لقاكم ذا مرة... عندي لكل مخاصم ميزانه

قال قطرب: "تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مرة".

قال القرطبي:" وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله: أن الله ائتمنه على وحيه إلى جميع رسله".

الخامس: ذو صحة في الجسم وسلامة من الآفات، قاله الخليل، والطبري، ومنه قول امرئ القيس:

كنت فيهم أبدًا ذا حيلة... محكم المرة مأمون العقد

=

=

قال الخليل:" المرة: شدة أسر الخلق، وقوله -جل وعز-: {ذو مرة فاستوى}، أي: سوي، يعني: جبريل عليه السلام خلقه الله قويا سويا. وذو مرة سوي، أي: قوي صحيح البدن. والمرير: الحبل المفتول".

قال الطبري:" عنى بـ «المرّة»: صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات. والجسم إذا كان كذلك من الإنسان، كان قويا، وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن المرة واحدة المرر، وإنما أُريد به: ذو مرة سوية. وإذا كانت المرّة صحيحة، كان الإنسان صحيحا. ومنه قول النبيّ ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدقَةَ لِغَنِيّ، وَلا لذي مرةٍ سَويَّ» ".

قال النحاس:" حقيقة «المرّة» -في اللغة-: اعتدال الخلق والسلامة من الآفات والعاهات، فإذا كان كذا كان قويا. {فَاسْتَوى}، قيل: فاعتدل بعد أن كان ينزل مسرعا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والنجم إذا هوى} النجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، وقوله {إذا هوى} : لها معنيان، المعنى الأول: إذا غاب، والمعنى الثاني: إذا سقط منه شهاب على الشياطين التي تسترق السمع وهو مقسم به {ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا جواب القسم، أي المقسم عليه {ما ضل صاحبكم} أي: ما جهل، {وما غوى} أي: ما عاند، لأن مخالفة الحق إما أن تكون عن جهل، وأما أن تكون عن غي، قال الله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} فإذا انتفى عن النبي ﷺ الجهل، وانتفى عنه الغي تبين أن منهجه ﷺ علم ورشد، علم ضد الجهل وهو الضلال، {ما ضل صاحبكم} ورشد ضد الغي {قد تبين الرشد من الغي} إذًا النبي عليه الصلاة والسلام كلامه حق وشريعته حق، لأنها عن علم ورشد، وقوله: {ما ضل صاحبكم} يخاطب قريشًا، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

=

=

الأولى: الإشارة إلى أنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون صدقه، ويعرفون أمانته، فهو ليس شخصًا غريبًا عنهم حتى يقولوا لا نؤمن به، لأننا لا نعرفه، بل هو صاحبهم الذي نشأ فيهم، فكيف بالأمس يصفونه بالأمين، والآن يصفونه بالكاذب الخائن.

الثانية: أنه إذا كان صاحبهم فإن مقتضى الصحبة أن يصدقوه وينصروه لا أن يكونوا أعداء له. فهو لم يقل «ما ضل رسول الله» أو «ما ضل محمد»، بل قال: {ما ضل صاحبكم}، فالفائدة من هذا هو أن مقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به، ومقتضى الصحبة أن يكونوا مناصرين له {وما ينطق عن الهوى} أي: لا يتكلم بشيء صادر عن الهوى بأي حال من الأحوال، فما حكم بشيء من أجل الهوى، ولكنه ينطق بما أوحي إليه من القرآن، وما أوحي إليه من السنة، وما اجتهد به صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجتهادًا يريد به المصلحة، فنطقه عليه الصلاة والسلام ثلاثة أقسام: الأول: أن ينطق بالقرآن. الثاني: أن ينطق بالسنة الموحاة إليه التي أقرها الله تعالى على لسانه.

الثالث: أن ينطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة، أما نحن فننطق عما نريد به المصلحة، وننطق عن الهوى، وليس كل إنسان منا سالم من الهوى، يميل مع صاحبه، ويميل مع قريبه، ويميل مع الغني، ويميل مع الفقير، لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يتكلم عن هوى، وإذا كان لايمكن أن ينطق عن الهوى صار لا ينطق إلا بحق {إن هو إلا وحي يوحى} يعني ما القرآن {إلا وحي يوحى}، أي: وحي من الله ﷻ والواسطة بين الله وبين الرسول {علمه شديد القوى} يعني علم النبي ﷺ هذا الوحي شديد القوى، أي: ذو القوة الشديدة، فهو من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو جبريل ؈، كما قال الله تعالى: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين} فجبريل ؈ قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبدًا أن

=

=

يفرط بهذا الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: {نزل به الروح الأَمين على قلبك لتكون من المنذرين}. {ذو مرة فاستوى} المرة: الهيئة الحسنة، فهو ذو قوة، وذو جمال وحسن، وقد رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق، فهو الذي نزل بهذا القرآن، حتى ألقاه على رسول الله ﷺ كما قال تعالى: {نزل به الروح الأَمين على قلبك لتكون من المنذرين}.

وقوله: {فاستوى} أي فعلى، أو فكمل؛ لأن الاستواء في اللغة العربية تارة يذكر مطلقًا دون أن يقيد، فيكون معناه الكمال، ومنه قوله تعالى: {ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا} أي: كمل، وتارة يقيد بعلى فيكون معناه العلو، كما في قوله تعالى: {وجعل لكم من الفلك والأَنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه} فقال: {لتستووا على ظهوره}، وقال: {إذا استويتم عليه} أي: علوتم عليه، ومنه قوله تعالى فيما وصف به نفسه: {الرحمن على العرش استوى} أي: علا عليه ﷻ العلو الخاص بالعرش، وهذا غير العلو المطلق على جميع المخلوقات، وتارة يتعدى بإلى، ويقال: استوى إلى كذا، فيفسر بأنه القصد والانتهاء، ومنه قوله تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان} وتارة يقيد بالواو فيكون معناه التساوي مثل قولهم: استوى الماء والخشبة، أي ساواه، فقوله هنا: {فاستوى} يحتمل أن المعنى استوى على؛ لأن جبريل ينزل من السماء، فيلقي الوحي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم يصعد إلى السماء، ويحتمل معناه كمل، ويكون كامل القوة، والهيئة، وكامل من كل وجه مما يليق بالمخلوقات.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣)} [النجم:

=

=

[١ - ٣].

أقسم- سبحانه- بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله، وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

واختلف الناس في المراد بـ "النجم":

فقال الكلبي، عن ابن عباس: "أقسم بالقرآن إذا نزل منجما على رسوله: أربع آيات، وثلاث آيات، والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة".

وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول: مقاتل، والضحاك، ومجاهد، واختاره الفراء.

وعلى هذا فسمي القرآن "نجما"؛ لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفرق: تنجما، والمفرق: منجما. ونجوم الكتابة: أقساطها، وتقول: جعلت مالي على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا.

وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم- يريدون "الثريا"- حل عليك الدين.

ومنه قول زهير في دية جعلت نجوما على العاقلة:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقا؛ وإن لم يكن موقتا بطلوع نجم.

وقوله تعالى: {هوى (١)}- على هذا القول- أي: نزل من علو إلى سفل.

قال أبو زيد: "هوت العقاب تهوي هويا- بفتح الهاء -: إذا انقضت على صيد أو غيره".

وكذلك قال ابن الأعرابي، وفرق بين "الهوي" و"الهوي"- بفتح الهاء وضمها -، وقال: "الفتح في السريع إلى أسفل، والضم: في السريع إلى فوق"، ثم أنشد شاهدا لقوله:

والدلو في إصعادها عجلى الهوي

=

=

وقال الليث: "العامة تقول: الهوي- بالضم- في مصدر: هوى يهوي".
وكذلك قال الأصمعي: "هوى يهوي هويا- بفتح الهاء -: إذا سقط إلى أسفل"، قال: "وكذلك الهوي في السير: إذا مضى".
وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط، فذكر في أسماء الرب -تعالى -: الهوي- بفتح الهاء -، واحتج بما في "الصحيح" من حديث عائشة: "أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: "سبحان ربي الأعلى" الهوي". فظن أبو محمد أن "الهوي" صفة للرب؛ وهذا من غلطه رَحِمَهُ اللَّهُ، وإنما "الهوي" على وزن "فعيل": اسم لقطعة من الليل. يقال: مضى هوي من الليل- على وزن "فعيل" -، ومضى هزيع منه؛ أي: طرف وجانب.
فكان يقول: "سبحان ربي الأعلى" في قطعة من الليل وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر، فقالت: "كان يقول: "سبحان ربي الأعلى" الهوي من الليل".
عدنا إلى قوله: {والنجم إذا هوى}:
وقال ابن عباس- في رواية علي بن أبي طلحة، وعطية -: "يعني: "الثريا" إذا سقطت وغابت". وهو الرواية الأخرى عن مجاهد.
والعرب إذا أطلقت "النجم" تعني به: "الثريا"، قال :
فباتت تعد النجم ...
وقال أبو حمزة الثمالي : "يعني: النجوم إذا انتثرت يوم القيامة".
وقال ابن عباس- في رواية عكرمة -: "يعني: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع".
وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال.
ويكون- سبحانه- قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة، التي نصبها الله-

=

=

سبحانه- آية، وحفظا للوحي من استراق الشياطين له؛ على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بـ "النجم" إذا هوى؛ رصدا بين يدي الوحي، وحرسا له.

وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بـ: النجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله: هويا، ولا عهد في القرآن بذلك فيحمل هذا اللفظ عليه.

وليس بالبين- أيضا- تخصيص هذا القسم بـ "الثريا" وحدها إذا غابت.

وليس بالبين- أيضا- القسم بالنجوم عند انتثارها يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلا، لعدم ظهوره للمخاطبين، ولاسيما منكرو البعث، فإنه- سبحانه- إنما يستدل بما لا يمكن جحده، ولا المكابرة فيه. فأظهر الأقوال قول الحسن. والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمى بها الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه، ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله، فبها ظهر دينه، وشرعه، وأسماؤه، وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا لهذه النجوم الهادية.

ونفى- سبحانه- عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد. ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في علمه، والرشد في عمله.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه. وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه؛ فقال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي".

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع

=

=

والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبا، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام:

ضال في علمه، غاو في قصده وعمله. وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه، غاو في قصده وعمله. وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه، راشد في قصده. وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وان كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا، وهم صفوة الله من عباده، وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: {ما ضل صاحبكم}، ولم يقل: ما ضل محمد؛ تأكيدا لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله، وأقواله، وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب، ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرا واحدا قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: {أم لم يعرفوا رسولهم} [المؤمنون: ٦٩]، وبقوله: {وما صاحبكم بمجنون (٢٢)} [التكوير: ٢٢].

فصل: ثم قال سبحانه: {وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤)} [النجم: ٣، ٤]، ينزه -تعالى- نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه ورشده.

وقال تعالى: {وما ينطق عن الهوى (٣)}، ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن

=

=

هوى فكيف ينطق به؟ فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه. فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.
ثم قال: {إن هو إلا وحي يوحى (٤)}؛ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى.
وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدا إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى.
وقد احتج الشافعي لذلك فقال: "لعل من حجة من قال بهذا قوله تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣] ". قال: "ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: "والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك..." الحديث.
وفي "الصحيحين" أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة، بعدما تضمخ بالخلوق ؟ فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء، فادخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر يغط، ثم سري عنه، فقال: "أين السائل آنفا؟ " فجيء به، فقال: "انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك".
وقال الشافعي: أخبرنا مسلم، عن ابن جريج، عن ابن طاووس، عن أبيه: "أن عنده كتابا نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة، وعقول؛ فإنما نزل به الوحي ".
وذكر الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: "كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، يعلمه إياها".

=

=

وذكر الأوزاعي- أيضا -: عن أبي عبيد- صاحب سليمان -، أخبرني القاسم بن مخيمرة، حدثني ابن نضلة قال: قيل لرسول الله ﷺ سعر لنا، قال: "لا يسألني الله عن سنة أحدثتها فيكم، لم يأمرني بها، ولكن سلوا الله من فضله ".

و"ابن نضلة" هذا يسمى: طلحة.

وقد صح عنه أنه قال: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"، وهذا هو "السنة" بلا شك، وقد قال تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣]؛ وهما القرآن والسنة. وبالله التوفيق.

فصل: ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، بما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية، فقال: {علمه شديد القوى (٥)}، وهذا نظير قوله تعالى: {ذي قوة عند ذي العرش} [التكوير: ٢٠]، وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة..

وقوله تعالى: {ذو مرة} أي: جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطانا- أقبح خلق الله، وأشوههم صورة- بل هو من أجمل الخلق، وأقواهم، وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله ﷻ.

وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له كما تقدم نظيره في "سورة التكوير".

فوصفه بالعلم، والقوة، وجمال المنظر، وجلالته. وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي؛ فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم.

والشياطين وتلامذتهم بالضد من ذلك كله، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم همما ونفوسا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه، وتدليه، وقربه من رسول الله ﷺ، وإيحاءه إليه ما أوحى.

=

=

فصور- سبحانه- لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده إلى أن استوى بالأفق، ثم دنى فتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونه هابطا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى مستويا عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلا: ربك يقول لك كذا وكذا.

وأخبر- سبحانه- عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك، بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين ألبتة؛ كما قال تعالى: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧)} [الصافات: ١٤٧] تحقيقا لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلا واحدا. ونظيره قوله تعالى: {ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة} [البقرة: ٧٤]؛ أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها.

وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل "أو" في هذه المواضع بمعنى "بل"، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرائي، وقول من جعلها بمعنى "الواو"، فتأمله.

فصل: ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان: إحداهما: بتخفيف "كذب". والثانية: بتشديدها.

يقال: كذبته عينه، وكذبه قلبه، وكذبه حدسه؛ إذا أخلف ما ظنه وحدسه. قال الشاعر:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

=

=

أي: أرتك ما لا حقيقة له.

فنفى هذا عن رسوله ﷺ، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه.

و"ما": إما أن تكون مصدرية؛ فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته.

وإما أن تكون موصولة؛ فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه.

وعلى التقديرين؛ فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه. وهذا ظاهر جدا في قراءة التشديد.

وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: "في هذه القراءة بعد"، قال: "لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه- أيضا- بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه؛ فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوما، فكيف يكون معه تكذيب؟ ".

قلت: وجواب هذا من وجهين:

أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى- سبحانه- ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه، كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني: أن يكون الضمير في {رأى (١١)} عائدا إلى الرائي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر. وهذا- بحمد الله- لا إشكال فيه، والمعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، بل صدقه.

وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره.

ثم أنكر- سبحانه- عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم، ومماراته له على ما علمه.

وفيها قراءتان: "أفتمارونه"، و"أفتمرونه".

=

=

وهذه المادة أصلها من: الجحد والدفع، تقول: مريت الرجل حقه؛ إذا جحدته. كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة ... لقد مريت أخا ما كان يمريكا

ومنه: المماراة، وهي: المجادلة، والمكابرة. ولهذا عدي هذا الفعل بـ "على" وهي على بابها. وليست بمعنى "عن" كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

ورجح أبو عبيد قراءة من قرأ "أفتمرونه"، قال: "وذلك أن المشركين إنما كان شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم".

يعني : أن من قرأ {أفتمارونه} فمعناه: أفتجادلونه؟ ومن قرأ "أفتمرونه" معناه: أفتجحدونه؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له.

وخالفه أبو علي وغيره، واختاروا قراءة {أفتمارونه}.

قال أبو علي: "من قرأ "أفتمارونه" فمعناه: أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده؟ ويقوي هذا الوجه قوله تعالى: {يجادلونك في الحق بعد ما تبين} [الأنفال: ٦]. ومن قرأ "أفتمرونه" كان المعنى: أفتجحدونه؟ ". قال: "والمجادلة كأنها أشبه في هذا؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وفي غيره، وقد جادله المشركون في الإسراء".

قلت: القوم جمعوا بين الجدال، والدفع، والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع؛ لا جدال استرشاد وتبين للحق.

وإثبات "الألف" يدل على المجادلة، والإتيان بـ "على" يدل على المكابرة؛ فكانت قراءة "الألف" منتظمة للمعنيين جميعا، فهي أولى. وبالله التوفيق.

فصل: ثم أخبر- سبحانه- عن رؤيته لجبريل مرة أخرى، عند سدرة المنتهى؛ فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند

=

=

سدرة المنتهى.

وقد صح عنه ﷺ أنه- يعني جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما في "الصحيحين" عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: {فكان قاب قوسين أو أدنى (٩)} قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

وفي "الصحيحين"- أيضا- عن عبد الله بن مسعود {ما كذب الفؤاد ما رأى (١١)} قال: "رأى جبريل في صورته؛ له ستمائة جناح".

وقال البخاري عنه: "رأى رفرفا أخضر، سد الأفق".

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة {ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)} قال: "رأى جبريل عليه السلام".

وفي "صحيحه"- أيضا- عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه؛ فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين؛ أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله ﷻ: {ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣)} [التكوير: ٢٣]، {ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)} [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء، سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض"، فقالت: أو لم تسمع أن الله ﷻ يقول: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣)} [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله ﷻ يقول: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم (٥١)} [الشورى: ٥١]، قالت: ومن زعم أن محمدا ﷺ كتم شيئا من كتاب الله؛ فقد أعظم على الله ﷻ

=

=

الفرية والله ﷻ يقول: {ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}
[المائدة: ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله} [النمل: ٦٥]. ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: ٣٧] ".
وفي "الصحيحين" عن مسروق- أيضا- قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: "سبحان الله! لقد قف شعري مما قلت".
وفيهما- أيضا- قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﷻ: {ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩)}؟ قالت: "إنما ذاك جبريل؛ كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق".
وفي "صحيح مسلم" أن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه".
وفي "صحيحه"- أيضا- من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".
وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المتقدم عقيبه، وهو كالتفسير له.
ولا ينافي هذا قوله في الحديث الصحيح- حديث الرؤية يوم القيامة -: "فيكشف الحجاب، فينظرون إليه"؛ فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشفه لم يقم له شيء، كما قال ابن عباس في قوله ﷻ: {لا تدركه الأبصار} قال: "ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له
=

=

شيء".

وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: {لا تدركه الأبصار} على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ذلك أن لا يرى؛ بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك.

وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه- وإن رأتها- مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق = فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم.

ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافى الجبل، واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: "جنتان من ذهب؛ آنيتهما، وحليتهما، وما فيهما، وجنتان من فضة؛ آنيتهما، وحليتهما، وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظرو إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن".

فهذا يدل على أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات، ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى. فإذا تجلى سبحانه وتعالى لعباده يوم القيامة، وكشف الحجاب بينهم وبينه، فهو الحجاب المخلوق.

وأما نور الذات الذي يحجب عن إدراكها؛ فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه.

وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن، وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة "النجم" هو: جبريل.

=

=

وأما قول ابن عباس: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين"؛ فالظاهر أن مستنده هذه الآية، وقد تبين أن المرئي فيها جبريل، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة رضي الله عنها، فقال- في نقضه على المريسي، في الكلام على حديث ثوبان، ومعاذ: أن رسول الله ﷺ قال: "رأيت ربي البارحة في أحسن صورة" فحكى تأويل المريسي الباطل له- ثم قال: "ويلك؛ إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه، لما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: "إنه لم ير ربه"، وقال رسول الله ﷺ: "لن تروا ربكم حتى تموتوا"، وقالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية". وأجمع المسلمون على ذلك؛ مع قول الله تعالى: {لا تدركه الأبصار} يعنون أبصار أهل الدنيا. وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، [وفي المنام] يمكن رؤية الله على كل حال.

كذلك روى معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ أنه قال: "صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة"، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم".

وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه في ليلة الإسراء أم لا؟ على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه. قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: يقولون إن عائشة قالت: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية"، فبأي شيء تدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: "رأيت ربي"، قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

قال: وذكر المروذي في موضع آخر أنه قال لأبي عبد الله: هاهنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة، ولا أقول إن محمدا رأى ربه في الدنيا. فغضب؛ وقال: هذا أهل أن يجفى، يسلم الخبر كما جاء.

=

=

قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين.

ونقل حنبل قال: قلت لأبي عبد الله: النبي ﷺ رأى ربه؟ قال: رؤيا حلم بقلبه.

قال: فظاهر هذا نفي الرؤية.

عن النبي ﷺ: "رأيت ربي في أحسن صورة"، فقال: مضطرب، لأن معمرا رواه عن أيوب، عن أبي معبد، عن عبد الرحمن بن عائش، عن النبي ﷺ.

ورواه حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس. ورواه يوسف بن عطية، عن قتادة، عن أنس.

ورواه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عائش، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ورواه يحيى بن أبي كثير فقال: عن ابن عائش، [عن مالك بن يخامر]، عن معاذ، عن النبي ﷺ.

وأصل الحديث واحد.

قال الأثرم: فقلت لأبي عبد الله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش، عن زياد بن الحصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس قال: "رأى محمد ربه بقلبه".

ونقل الأثرم أن رجلا قال لأحمد عن الحسن الأشيب أنه قال: لم ير النبي ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان وقال: لم [لا] تقول: رآه، ولا تقول: بعينه ولا بقلبه؟ كما جاء في الحديث. فاستحسن ذلك الأشيب، فقال أبو عبد الله: حسن.

قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه.

فهذه نصوص أحمد، وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، ولا دلالة فيهما؛ لأنها رؤية منام قطعا.

واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا: "لما كانت ليلة أسري بي؛ رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيم

=

=

يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث.

وهذا غلط قطعا؛ فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل: احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، ثم خرج فصلى بنا، ثم قال: "رأيت ربي البارحة في أحسن صورة، فقال: يا محمد؛ فيم يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث. فهذا كان بالمدينة، والإسراء كان بمكة.

وليس عن الإمام أحمد؛ ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل: بعينه، وإنما قال: رآه، واتبع في ذلك قول ابن عباس: "رأى محمد ربه"، ولفظ الحديث: "رأيت ربي"؛ وهو مطلق، وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل: إن من زعم أن محمدا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية.

وهذا يدل على أحد أمرين:

١ - إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفة للحديث.

٢- وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية.

وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية.

وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه؛ ولا يقول: بعينه ولا بقلبه.

وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة، وكيف يقول أحمد: رآه بعيني رأسه يقظة! ولم يجئ ذلك في حديث قط.

=

=

فأحمد إنما اتبع ألفاظ الأحاديث كما جاءت، وإنكاره قول من قال: "لم يره أصلا"؛ لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينيه. والله أعلم.

فصل: وقوله تعالى: {ما زاغ البصر وما طغى (١٧)} [النجم: ١٧]؛ قال ابن عباس: "ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا، ولا جاوز ما أمر به". وعلى هذا المفسرون.

فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يمينا وشمالا، ومجاوزة بصره لما بين يديه. وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبا، ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

فزيغ البصر: التفاته جانبا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي.

فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فصل: ولما ذكر - سبحانه - رؤيته لجبريل عند "سدرة المنتهى" استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنها يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى.

وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا، ومثل قوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩)} [الزخرف: ٩]، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: {الذي جعل لكم الأرض مهدا

=

=

وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠) والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (١١) والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢) لتستووا على ظهوره} [الزخرف: ١٠- ١٣]، وهذا ليس من جوابهم ولكن تقريرا له، وإقامة للحجة عليهم.

ومثله قوله تعالى: {قال فمن ربكما ياموسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠) قال فما بال القرون الأولى (٥١) قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (٥٢)} [طه: ٤٩- ٥٢] فهذا جواب موسى، ثم استطرد- سبحانه- منه إلى قوله: {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥)} [طه: ٥٣- ٥٥]، ثم عاد إلى الكلام الذي استطرده منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع؛ كقوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣)} [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره، فالأول: آدم، والثاني: بنوه.

ومثله قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠)} [الأعراف: ١٨٩- ١٩٠] إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم. انتهى كلام ابن القيم.

(منبهة): قال الله تعالى في وصف نبيه محمد- ﷺ -: (وما ينطق عن الهوى إن هو

=

=

إلا وحي يوحى) [النجم: ٣- ٤].

وفي الحديث : عن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- قال: "مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئا. قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به؛ فإني لن أكذب على الله عز وجل". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، حديث (٢٣٦١).

وعن عائشة وأنس رضي الله عنهما: "أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شيصا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، حديث (٢٣٦٣).

* ظاهر الآية الكريمة أن كل ما يقوله النبي- ﷺ- فهو وحي من الله تعالى، وأما الحديث فيوهم خلاف هذا الظاهر؛ إذ فيه أن ما قاله النبي- ﷺ- في قضية تأبير النخل إنما كان عن اجتهاد منه- ﷺ -، بدليل تراجعه عن رأيه هذا لما تبين له خلافه.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:

أجمع المسلمون قاطبة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاسيما خاتمهم محمد- ﷺ- معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله عز وجل من أحكام، كما قال عز وجل: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)، فنبينا محمد- ﷺ- معصوم في كل ما يبلغه عن الله تعالى من الشرائع، قولا، وعملا، وتقريرا.

واتفق العلماء على جواز الاجتهاد للنبي- ﷺ- في أمور الدنيا.

=

=

واختلفوا في جواز الاجتهاد له في أمور الدين على مذهبين:

الأول: الجواز، وعلى هذا المذهب عامة أهل الأصول، وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وعامة أهل الحديث.

المذهب الثاني: المنع، وهو مذهب الأشعرية، وأكثر المعتزلة، والمتكلمين.

وأما حديث الباب- الذي يوهم ظاهره التعارض مع الآية- فإن للعلماء في دفع التعارض بينه وبين الآية مسلكا واحدا، وهو مسلك الجمع بينهما، والذي عليه جماهير أهل العلم من مفسرين ومحدثين- ولم أقف على قول بخلافه -: أن معنى قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى) أن النبي- ﷺ- لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى، وقوله تعالى: (إن هو إلا وحي يوحى) يعني أن كل ما ينطق به من أمور الدين فهو وحي من الله؛ فإن النبي- ﷺ- معصوم عن الخطأ في كل ما يبلغه عن الله تعالى من أمور الدين، كالأحكام الشرعية، وإخباره عن أمور الغيب والأمم الماضية، وأما قضية التأبير الواردة في حديث الباب فهي من أمور الدنيا التي لا تعلق لها بالدين، ورأيه- ﷺ- في أمور الدنيا كغيره من الناس، فلا يمتنع وقوع الخطأ منه، ولا يقدح ذلك في معجزته- ﷺ -، ولا يقلل من شأنه.

وممن قال بهذا الجواب:

الطحاوي، وابن حزم، والقاضي عياض، وابن الجوزي، وأبو العباس القرطبي، والنووي، والبيضاوي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والمناوي، والآلوسي، والشنقيطي، وابن باز، وابن عثيمين.

قال ابن الجوزي: اعلم أن رسول الله- ﷺ- كان يتكلم بأشياء على سبيل الظن والقياس، والظن والقياس دليل معمول عليه، ولا ينسب إلى الخطأ من عمل على دليل، وقوله في حديث التأبير: "ما أظن يغني ذلك شيئا"، وقوله: "إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن"، يدل على أنه قاله بالظن، ولذلك اعتذر عنه. اهـ

=

=

وقال الشنقيطي: "التحقيق في هذه المسألة أن النبي - ﷺ- ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوصه؛ كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك، قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم، وكأسره لأسارى بدر،
وكأمره بترك تأبير النخل، وكقوله: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت"، إلى غير ذلك، وأن معنى قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى) لا إشكال فيه؛ لأن النبي- ﷺ- لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى، وقوله تعالى: (إن هو إلا وحي يوحى) يعني أن كل ما يبلغه عن الله فهو وحي من الله، لا بهوى ولا بكذب ولا افتراء، والعلم عند الله تعالى". اهـ
وما ذكره الجمهور في هذه المسألة هو المتعين جمعا بين الآية والحديث، وحسب اطلاعي فإني لم أقف على قول بخلافه؛ فكان له حكم الاتفاق.
وأما أقوال النبي- ﷺ- وأفعاله فتحرير القول فيها أنها على قسمين:
الأول: ما كان في أمر الشريعة والتبليغ عن الله تعالى، وهذا له حالتان:
١- أن يكون بوحي من الله تعالى، وهذا لا مجال للخطأ فيه، وهو الذي يسميه العلماء الخبر المعصوم، وعليه تحمل الآية الواردة في المسألة.
٢- أن يكون باجتهاد منه- ﷺ -، وهذا لا يخلو إما أن يقر عليه، أو ينبه إلى الصواب، وهو في كلا الحالتين في حكم الوحي؛ أما الحالة الأولى فلإقرار الله له، وأما الثانية فلتصويب الله إياه.
القسم الثاني: ما كان من أمور الدنيا، وهذا حكمه أن لا تعلق له بالرسالة والتبليغ، بل النبي- ﷺ- فيه كسائر الناس، في جواز الخطأ والصواب عليه، وعليه يحمل ما جاء في قضية تأبير النخل، وغيرها من الحوادث التي وقعت باجتهاد منه- ﷺ -.
ومما يؤكد هذا المعنى قوله- ﷺ- في حديث التأبير: "إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به؛ فإني لن أكذب على

=

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧).

{وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى} أُفُق الشَّمْس أَيْ عِنْد مَطْلَعهَا عَلَى صُورَته الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَرَآهُ النَّبِيّ ﷺ وَكَانَ بِحِرَاءٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُق إلَى الْمَغْرِب فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ وَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيه نَفْسه عَلَى صُورَته الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَوَاعَدَهُ بِحِرَاءٍ فَنَزَلَ جِبْرِيل لَهُ فِي صُورَة الْآدَمِيِّينَ.

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨).

{ثُمَّ دَنَا} قَرُبَ مِنْهُ {فَتَدَلَّى} زَادَ فِي القرب.

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩).

{فَكَانَ} مِنْهُ {قَاب} قَدْر {قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} مِنْ ذَلِكَ حَتَّى أَفَاقَ وَسَكَنَ رَوْعَهُ[1].

=

الله ﷻ". وفي رواية: "أنتم أعلم بأمر دنياكم". وفي رواية أخرى: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر". فهذا نص جلي منه- ﷺ- في جواز الخطأ عليه في أمور الدنيا، وأن ما قاله في قضية التأبير إنما كان باجتهاد محض منه- ﷺ -، ولم يكن بوحي من الله تعالى، وهو نص قولنا، وبالله تعالى التوفيق. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى} [النجم: ٧]، أي:" وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق".

قال ابن كثير:" يعني: جبريل، استوى في الأفق الأعلى، والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح ".

قال الحسن: «بأفق المشرق الأعلى منهما».

=

=

قال قتادة:" والأفق: الذي يأتي منه النهار".

عن إسحاق بن أبي الكَهْتَلَة- أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود-:" أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: {وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى} ".

وفي قوله تعالى: {فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى}، قولان:

أحدهما: انه جبريل -عليه السلام-. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع، وعلقمة، ومرة بن شراحيل، وأكثر أهل التفسير.

الثاني: معناه: فاستوى هذا الشديد القويّ -جبريل- وصاحبكم محمد بالأفق الأعلى. وهذا قول الفراء، والطبري.

قال الطبري:" وذلك لما أسري برسول الله ﷺ استوى هو وجبريل عليهما السلام بمطلع الشمس الأعلى، وهو الأفق الأعلى، وعطف بقوله: "وَهُوَ" على ما في قوله: "فاسْتَوَى" من ذكر محمد ﷺ، والأكثر من كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أن يظهروا كناية المعطوف عليه، فيقولوا: استوى هو وفلان، وقلّما يقولون استوى وفلان، وذكر الفرّاء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عودُهُ... وَلا يَسْتَوِي والخِرْوَعُ المُتَقَصِّفُ

فرد الخروع على «ما» في يستوي من ذكر النبع، ومنه قوله الله: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا}، فعطف بالآباء على المكنّى في {كنَّا} من غير إظهار نحن، فكذلك قوله: {فَاسْتَوَى وَهُو} ".

قال ابن كثير:" وقد قال ابن جرير هاهنا قولا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: {فَاسْتَوَى}، أي: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم {بِالأُفُقِ الأعْلَى}، أي: استويا جميعا بالأفق،

=

=

وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية... وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسولُ الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هَمّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تَبَدّى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عُظْم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله، عَزَّ وَجَلَّ، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قَدْره، وعلوّ مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه".

قال النحاس:" {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى} في موضع الحال، أي: فاستوى عاليا، هذا قول من تجب به الحجّة من العلماء، والمعنى عليه، والإعراب يقويه. وزعم الفراء، أن المعنى: فاستوى محمد ﷺ وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجعل {وهو} كناية عن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وعطف به على المضمر.

قال أبو جعفر النحاس: في هذا من الخطأ ما لا خفاء به عطف على مضمر مرفوع لا علامة له ومثله مررت بزيد جالسا وعمرو، ويعطف به على المضمر المرفوع. وهذا ممنوع من الكلام حتّى يؤكّد المضمر أو يطول الكلام ثم شبّهه بقوله: {أَإِذا كُنَّا تُرابًا وَآباؤُنا} [النمل: ٦٧] وهذا التشبيه غلط من جهتين، إحداهما أنه قد طال

=

=

الكلام هاهنا وقام المفعول به مقام التوكيد. والجهة الأخرى أنّ النون والألف قد عطف عليهما هاهنا، وقولك: قمنا وزيد أسهل من قولك: قام وزيد، وأيضا فليس المعنى على ما ذكر".

وحكي السمعاني عن الحسن البصري في قوله: {فاستوى}: "أنه الله تعالى". ثم قال:" والأصح هو الأول".

قوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى}، أي:" ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه".

قال الطبري: يقول:" ثم دنا جبريل من محمد ﷺ فتدلى إليه".

قال ابن قتيبة:" أي: تدلى فدنا، لأنّه تدلّى للدّنوّ، ودنا بالتّدلّي".

قال سهل:" يعني: قربًا بعد قرب".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: ٨]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه جبريل، قاله الحسن، وقتادة، والربيع.

الثاني: ما روي عن مجاهد، في قوله: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} - قال:" حيث الوتر من القوس، الله من جبريل".

الثالث: ثم دنا الربّ من محمد ﷺ فتدلى، قاله ابن عباس.

عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة المسرى برسول الله ﷺ "أنه عرج جبرائيل برسول الله ﷺ إلى السماء السابعة، ثم علا به بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه ما شاء، فأوحى الله إليه فيما أوحى خمسين صلاة على أمته كلّ يوم وليلة، وذكر الحديث".

قوله تعالى: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٩]، أي:" فكان منه على مقدار قوسين أو أقل".

=

=

قال ابن كثير:" أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أي: بقدرهما إذا مُدّا، وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها، وقوله: {أَوْ أَدْنَى} قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: {يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [النساء: ٧٧]، وقوله: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} ".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٩]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الذي دنا فكان قاب قوسين جبريل من محمد -صلى الله عيه وسلم-. هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة، وبه قال الحسن، وقتادة، والربيع.

قال الطبري:" يقول: فكان جبرائيل من محمد ﷺ على قدر قوسين، أو أدنى من ذلك، يعني: أو أقرب منه".

عن عبد الله بن مسعود في قوله: "{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}، قال: رأى جبرائيل ست مئة جناح في صورته".

قال عبد الله بن مسعود:" رأى النبيّ ﷺ جبريل عليه السلام له ستّ مئة جناح".

عن عبد الله بن مسعود:" {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض".

عن مسروق، قال: "قلت لعائشة: ما قوله {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى

=

=
فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}، فقالت: إنما ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرّة في صورته، فسدّ أفق السماء".

الثاني: أنه جبريل من ربه. قاله مجاهد.

الثالث: أنه محمد ﷺ من ربه، قاله محمد بن كعب.

عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ قال: قلنا يا نبيّ الله: هل رأيت ربك؟ قال: "لَمْ أَرَهُ بعَيْني، ورأيتُهُ بفُؤَادي مَرَّتَيْن"، ثم تلا: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} ".

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "لَمَّا عُرِجَ بي، مَضَى جِبْريل حتى جاءَ الجَنَّةَ، قالَ: فَدَخَلْتُ فأُعْطيتُ الكَوْثَر، ثُمَّ مَضَى حتى جاءَ السِّدْرَةَ المُنْتَهَى، فَدَنَا رَبُّكَ فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى".

قال العثيمين: {وهو}، أي جبريل عليه الصلاة والسلام {بالأُفق الأَعلى} أي: الأرفع، وهو أفق السماء، {ثم دنا} أي من النبي ﷺ، {فتدلى} أي: قرب من فوق، {فكان} أي: جبريل من النبي ﷺ {قاب قوسين أو أدنى}، وهذا مثل يضرب للقرب، {قاب قوسين} يعني قريبًا جدًا، بل أدنى، فقوله {أو أدنى} بمعنى بل، أي بل هو أدنى من ذلك.

(منبهة): قال الله تعالى: (علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) [النجم: ٥- ١٠].

وفي الحديث عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال: سمعت أنس بن مالك- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقول- ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة....- فذكر حديث الإسراء بطوله، وفيه: «... ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى،
=

=

فأوحى الله فيما أوحى إليه: خمسين صلاة على أمتك، كل يوم وليلة... » أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، حديث (٧٥١٧)، وأخرجه مختصرا: مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٦٢)، قال: حدثنا هارون بن سعيد الأيلي، حدثنا ابن وهب قال: أخبرني سليمان- وهو ابن بلال- قال: حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال: سمعت أنس بن مالك- ﵁- يحدثنا عن ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام. وساق الحديث بقصته نحو حديث ثابت البناني، وقدم فيه شيئا وأخر، وزاد ونقص.

وعن مسروق قال: «كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا- ﷺ- رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: (ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣)) [التكوير: ٢٣] (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)) [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله- ﷺ- فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض». أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٧٧)، وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، حديث (٤٨٥٥).

وفي رواية: قال مسروق: «قلت لعائشة: فأين قوله: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى)؟ قالت: إنما ذاك جبريل ﵇، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد أفق السماء» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٣٥)،

=

=

ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (٢٩٠)- (١٧٧).

وعن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيش، عن قول الله ﷻ: (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال: «أخبرني ابن مسعود- رضي الله عنه -، أن النبي ﷺ رأى جبريل له ست مائة جناح» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٣٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٧٤).

* ظاهر حديث أنس- رضي الله عنه- أن النبي- ﷺ- لما أسري به، دنا منه الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، وهذا الدنو يفهم منه أنه هو المراد من قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى).

وأما حديث عائشة وابن مسعود- رضي الله عنهما- فظاهرهما يوهم معارضة حديث أنس؛ لأنهما نسبا الدنو والتدلي في الآية لجبريل عليه السلام، وهما وإن لم يصرحا برفع ذلك للنبي- ﷺ -؛ إلا أن تفسيرهما هذا في حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الأحاديث:

اختلف العلماء في تفسير الآية، وفي دفع التعارض بين الأحاديث على مذاهب:

الأول: أن الدنو والتدلي في الآية المراد به دنو جبريل عليه السلام، من محمد ﷺ.

وهذا التفسير هو الثابت عن عائشة، وابن مسعود، رضي الله عنهما، وقد تقدم.

وروي عن الحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس.

وهو مذهب الجمهور من المفسرين والمحدثين، وممن قال به:

ابن جرير الطبري، وأبو الليث السمرقندي، والخطابي، والبيهقي، والواحدي، والسمعاني، والقاضي عياض، وابن عطية، والفخر الرازي، وأبو عبد الله القرطبي، والبيضاوي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والحافظ ابن كثير، وابن أبي العز الحنفي، وابن جماعة، والشوكاني، والآلوسي، والقاسمي، والشنقيطي.

وقد ذكر الإمام ابن القيم عدة أدلة تؤيد هذا المذهب:

=

=

«الأول: أن الله تعالى قال: (علمه شديد القوى) [النجم: ٥]، وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير فقال: (إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠)) [التكوير: ١٩- ٢٠].

الثاني: أنه تعالى قال: (ذو مرة) أي حسن الخلق، وهو الكريم المذكور في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: (فاستوى وهو بالأفق الأعلى) وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤))، والمرئي عند السدرة هو جبريل قطعا، وبهذا فسره النبي- ﷺ -، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله- ﷺ- عن هذه الآية فقال: «جبريل، لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين».

الخامس: أن مفسر الضمير في قوله: (ولقد رآه) وفي قوله: (ثم دنا فتدلى)، وفي قوله: (فاستوى)، وفي قوله: (وهو بالأفق الأعلى) واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسر من غير دليل.

السادس: أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين، الملكي والبشري، ونزه البشري عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانا قبيحا ضعيفا؛ بل هو قوي كريم حسن الخلق، وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء.

السابع: أنه أخبر هناك أنه رآه بالأفق المبين، وهاهنا أخبر أنه رآه بالأفق الأعلى، وهو واحد وصف بصفتين، فهو مبين، وهو أعلى؛ فإن الشيء كلما علا: بان وظهر.

الثامن: أنه قال: (ذو مرة فاستوى) والمرة الخلق الحسن المحكم، فأخبر عن

=

=

حسن خلق الذي علم النبي- ﷺ -، ثم ساق الخبر كله عنه نسقا واحدا.
التاسع: أنه لو كان خبرا عن الرب تعالى لكان القرآن قد دل على أن رسول الله- ﷺ- رأى ربه سبحانه مرتين، مرة بالأفق، ومرة عند السدرة، ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي- ﷺ- لأبي ذر وقد سأله هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه»، فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين ثم يقول رسول الله- ﷺ- أنى أراه؟ وهذا أبلغ من قوله: لم أره؛ لأنه مع النفي يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفي وطرفا من الإنكار على السائل، كما إذا قال لرجل: هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟
العاشر: أنه لم يتقدم للرب جل جلاله ذكر يعود الضمير عليه في قوله: (ثم دنا فتدلى)، والذي يعود الضمير عليه لا يصلح له، وإنما هو لعبده.
الحادي عشر: أنه كيف يعود الضمير إلى ما لم يذكر، ويترك عوده إلى المذكور مع كونه أولى به.
الثاني عشر: أنه قد تقدم ذكر «صاحبكم»، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، ثم ذكر بعده شديد القوى، ذا المرة، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، والخبر كله عن هذين المفسرين، وهما الرسول الملكي، والرسول البشري.
الثالث عشر: أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل هو تحتها قد دنا من رسول رب العالمين، ودنو الرب تعالى وتدليه على ما في حديث شريك كان من فوق العرش، لا إلى الأرض.
الرابع عشر: أنهم لم يماروه صلوات الله وسلامه عليه على رؤية ربه، ولا أخبرهم بها لتقع مماراتهم له عليها، وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها، ولو أخبرهم الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات.

=

=

الخامس عشر: أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول- ﷺ -، وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله: (لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨)) [النجم: ١٨]، فلو كان المرئي هو الرب سبحانه وتعالى، والمماراة على ذلك منهم، لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج».

وقد اختلف أصحاب هذا المذهب في الجواب عن حديث أنس- رضي الله عنه -، والذي يوهم ظاهره أن الذي دنا فتدلى في الآية هو الجبار رب العزة، وقد ذكروا أجوبة منها:

الأول: أن قوله في حديث أنس: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى»، زيادة شاذة؛ لم ترو عن أنس- رضي الله عنه- إلا من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر، وهي مما تفرد به في روايته لحديث الإسراء.

وهذا جواب: الخطابي، وابن حزم، والبيهقي، وعبد الحق الإشبيلي، وابن جماعة، وابن رجب.

قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية- من نسبة التدلي للجبار عز وجل- مخالف لعامة السلف، والعلماء، وأهل التفسير، من تقدم منهم ومن تأخر...، قال: وقد روي هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك فلم يذكر فيه هذه الألفاظ الشنيعة، وذلك مما يقوي الظن أنها صادرة من جهة شريك». اهـ

وقال ابن حزم: «لم نجد للبخاري ومسلم في كتابيهما شيئا لا يحتمل مخرجا إلا حديثين». ثم ذكر حديث أنس فقال: «وفيه ألفاظ معجمة، والآفة من شريك، من ذلك قوله: «قبل أن يوحى إليه»، وأنه حينئذ فرض عليه الصلاة، قال: وهذا لا خلاف بين أحد من أهل العلم إنما كان قبل الهجرة بسنة، وبعد أن أوحي إليه بنحو اثنتي عشرة سنة، ثم قوله: «إن الجبار دنا فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى»، وعائشة رضي الله عنها تقول: إن الذي دنا فتدلى جبريل». اهـ

=

=

وقال البيهقي: «ليس في رواية ثابت عن أنس لفظ الدنو والتدلي، ولا لفظ المكان، وروى حديث المعراج: ابن شهاب الزهري، عن أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عن أبي ذر، وقتادة، عن مالك بن صعصعة، ليس في حديث واحد منهما شيء من ذلك».

قال: «وفي حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأى الله عَزَّ وَجَلَّ، وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جبريل أصح». اهـ

وقال عبد الحق الإشبيلي- في الجمع بين الصحيحين -: «زاد فيه- يعني شريكا- زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث». اهـ

وقال ابن جماعة : «وأما حديث شريك بن أبي نمر الطويل؛ فقد خلط فيه، وزاد زيادات لم يروها غيره ممن هو أحفظ منه، وليس في رواية ثابت، ولا قتادة عن أنس لفظ الدنو، ولا التدلي، ولا المكان، ولا في رواية الزهري، عن أنس وأبي ذر، وذكر شريك في حديثه ما يدل على أنه لم يحفظ الحديث على ما ينبغي؛ فإنه خلط في مقامات الأنبياء، وقال في آخر حديثه: «فاستيقظ وهو في المسجد الحرام»، والمعراج إنما كان رؤية عين». اهـ

وقد سبق إلى التنبيه على ما في رواية شريك من المخالفة مسلم في صحيحه فإنه قال- بعد أن ساق سند الحديث وبعض المتن -: «وقدم فيه شيئا وأخر، وزاد ونقص». اهـ

إلا أن الحافظ أبا الفضل ابن طاهر لم يرتض دعوى تفرد شريك بهذه الزيادة، حيث قال: «تعليل الحديث بتفرد شريك، ودعوى ابن حزم أن الآفة منه، شيء لم يسبق إليه؛ فإن شريكا قبله أئمة الجرح والتعديل، ووثقوه، ورووا عنه، وأدخلوا

=

=

حديثه في تصانيفهم، واحتجوا به، وروى عبد الله بن أحمد الدورقي، وعثمان الدارمي، وعباس الدوري، عن يحيى بن معين أنه قال: لا بأس به. وقال ابن عدي: مشهور من أهل المدينة، حدث عنه مالك وغيره من الثقات، وحديثه إذا روى عنه ثقة لا بأس به؛ إلا أن يروي عنه ضعيف.

قال ابن طاهر: وحديثه هذا رواه عنه ثقة، وهو سليمان بن بلال. قال: وعلى تقدير تسليم تفرده برواية «قبل أن يوحى إليه»؛ فإن ذلك لا يقتضي طرح حديثه، فوهم الثقة في موضع من الحديث لا يسقط جميع الحديث، ولا سيما إذا كان الوهم لا يستلزم ارتكاب محذور، ولو ترك حديث من وهم في تاريخ، لترك حديث جماعة من أئمة المسلمين». اهـ

وكذا الحافظ ابن حجر، فإنه يميل إلى تقوية شريك، ويدفع دعوى تفرده بهذه الزيادة؛ فإنه قال بعد أن أورد إنكار الأئمة المتقدمين: «وفي دعوى التفرد نظر؛ فقد وافقه كثير بن خنيس- بمعجمة ونون، مصغر- عن أنس، كما أخرجه سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في «كتاب المغازي» من طريقه». اهـ

قال: «والأولى التزام ورود المواضع التي خالف فيها غيره، والجواب عنها؛ إما بدفع تفرده، وإما بتأويله على وفاق الجماعة». اهـ

الجواب الثاني: أن الحديث موقوف على أنس- رضي الله عنه -.

ذكر هذا الجواب: الخطابي، والبيهقي، وابن جماعة.

قال الخطابي مشيرا إلى رفع الحديث من أصله: «ثم إن القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه، لم يعزها إلى النبي- صلى الله عليه وسلم -، ولا نقلها عنه، ولا أضافها إلى قوله، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي، إما من أنس، وإما من شريك؛ فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة». اهـ

=

=

وقال ابن جماعة: «ثم الحكاية كلها موقوفة على أنس من تلقاء نفسه، لم يرفعها إلى النبي- ﷺ -، ولا رواها عنه، ولا عزاها إلى قوله، وقد روت عائشة، وابن مسعود، وأبو هريرة مرفوعا : أن المراد بالآية المذكورة جبريل، وهم أحفظ وأكثر، فكيف يترك لحديث شريك، وفيه ما فيه». اهـ

إلا أن الحافظ ابن حجر لم يرتض دعوى وقف الحديث على أنس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، حيث قال- في رده على الخطابي -: «وما نفاه- من أن أنسا لم يسند هذه القصة إلى النبي- ﷺ- لا تأثير له؛ فأدنى أمره فيها أن يكون مرسل صحابي، فإما أن يكون تلقاها عن النبي- ﷺ -، أو عن صحابي تلقاها عنه، ومثل ما اشتملت عليه لا يقال بالرأي، فيكون لها حكم الرفع، ولو كان لما ذكره تأثير لم يحمل حديث أحد روى مثل ذلك على الرفع أصلا، وهو خلاف عمل المحدثين قاطبة، فالتعليل بذلك مردود». اهـ

الجواب الثالث: أن الدنو والتدلي المذكورين في الآية هما غير الدنو والتدلي المذكورين في حديث أنس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فإن الذي في الآية هو دنو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأما الدنو والتدلي اللذين في حديث أنس فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك؛ بل فيها أنه رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، وهذا هو جبريل، رآه محمد- ﷺ- على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

ذكر هذا الجواب: ابن القيم، والحافظ ابن كثير، وابن أبي العز الحنفي، والقاسمي.

والظاهر من كلام هؤلاء الأئمة قبول رواية شريك، إلا أن الحافظ ابن كثير يميل إلى تفرد شريك بن عبد الله بهذه الرواية، حيث ذكر أن شريكا قد اضطرب في رواية هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه.

=

=

وثمة أجوبة أخرى عن حديث شريك؛ غير أن هذه الأجوبة صادرة عن استشكال ظاهر الحديث، والذي فيه نسبة الدنو والتدلي إلى الله تعالى، ومن هذه الأجوبة:

١ - أن الدنو والتدلي في الحديث المراد بهما قرب الكرامة، لا قرب المكان.

ذكر هذا الجواب: ابن فورك، والقاضي عياض، والعيني.

قال القاضي عياض: «اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله، أو إلى الله، فليس بدنو مكان، ولا قرب مدى، وإنما هو دنو النبي - ﷺ - من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس، وبسط وإكرام». اهـ

٢ - أن ما جاء في حديث شريك هي رؤيا رآها رسول الله - ﷺ - في نومه، ولا إشكال فيما يراه - ﷺ - في منامه.

ذكر هذا الجواب: الخطابي، والسهيلي.

قال الخطابي: «ليس في هذا الكتاب - يعني صحيح البخاري - حديث أشنع ظاهرا، ولا أشنع مذاقا من هذا الفصل؛ فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر، وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا إلى ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من فوق إلى أسفل، فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعا عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة وآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قصاراه: إما رد الحديث من أصله، أو الوقوع في التشبيه، وهما خطتان مرغوب عنهما، وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال؛ فإنه مصرح فيهما بأنه كان رؤيا؛ لقوله في أوله: «وهو نائم» وفي آخره: «استيقظ»، وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك، بل يأتي كالمشاهدة». اهـ

=

=

المذهب الثاني: أن الدنو والتدلي في الآية المراد بهما دنو الله تعالى من نبيه محمد- ﷺ -.

وقد روي عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، ما يدل على هذا المعنى:

فعن أبي سلمة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما- في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤)) [النجم: ١٣- ١٤]- قال: «دنا ربه منه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى. قال: قد رآه النبي- ﷺ -».

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه -، قال: «لما أسري بالنبي- ﷺ- اقترب منه ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى».

وروى ابن خزيمة، عن عباد بن منصور قال: «سألت الحسن، فقلت: ثم دنا فتدلى، من ذا يا أبا سعيد؟ قال: ربي».

ونسب ابن الجوزي هذا القول لمقاتل.

وقد مال إلى هذا التفسير الإمام ابن خزيمة؛ فإنه قال: «فأما قوله جل وعلا: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) ففي خبر شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن أنس بن مالك، بيان ووضوح أن معنى قوله: (دنا فتدلى) إنما دنا الجبار رب العزة، لا جبريل». اهـ

ثم أورد حديث أنس من طريق شريك بن عبد الله، وأتبعه بتفسير الحسن البصري للآية، ثم قال: «وفي خبر كثير بن حبيش، عن أنس: أن النبي- ﷺ- قال مثل هذه اللفظة التي في خبر شريك بن عبد الله». اهـ

ثم روى بإسناده حديث كثير بن حبيش، عن أنس- رضي الله عنه -، ولفظه: «فدنا إلى ربه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى».

وكما ترى فإن لفظ كثير بن حبيش مغاير للفظ شريك؛ إذ في لفظ «شريك» نسبة الدنو إلى الله تعالى، وأما لفظ «كثير بن حبيش» ففيه: أن محمدا- ﷺ- هو الذي

=

=

دنا إلى ربه ﷻ.

لكن روى الحديث ابن جرير في تفسيره، عن كثير بن حبيش، بلفظ موافق لرواية شريك، ولفظ الحديث كاملا: عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ -: «لما عرج بي مضى جبريل حتى جاء الجنة، قال: فدخلت فأعطيت الكوثر، ثم مضى حتى جاء السدرة المنتهى، فدنا ربك فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى».

وممن ذهب إلى نسبة الدنو إلى الله تعالى: القاضي أبو يعلى، في كتابه «إبطال التأويلات لأخبار الصفات»؛ فإنه أورد الآية ثم قال: «فعلم أن المتدلي هو الذي يوحي، وهو الله تعالى». اهـ

المذهب الثالث: أن الدنو والتدلي في الآية المراد بهما دنو جبريل عليه السلام من الله تعالى.

روي هذا القول عن مجاهد، وبه قال ابن حبان.

المذهب الرابع: أن المراد بالآية دنو الله تعالى من جبريل عليه السلام.

روي هذا القول عن مجاهد.

المذهب الخامس: أن المراد بالآية دنو محمد- ﷺ- من ربه تعالى.

جاء هذا التفسير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في تفسير قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى) [النجم: ٨] قال: «هو محمد- ﷺ- دنا فتدلى إلى ربه ﷻ».

وروي هذا التفسير عن الضحاك، ومحمد بن كعب.

والذي يظهر صوابه- والله تعالى أعلم- هو ما ذهب إليه عامة المفسرين من تفسير الآية بدنو جبريل عليه السلام من نبينا محمد- ﷺ -، وأن ما روي في حديث أنس- رضي الله عنه- من نسبة الدنو والتدلي إلى الله تعالى- هو مما تفرد به شريك، وهو لا يعدو أن يكون وهما منه، أو رأيا تأوله في تفسير الآية، ولم يسمعه من أنس- رضي الله عنه

=

=

-.

يدل على هذا الاختيار:

١- أن هذا التفسير هو الثابت عن عائشة، وابن مسعود، رضي الله عنهما، ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة؛ إلا ما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وسيأتي الجواب عنه.

٢- أنه قد ثبت عن عائشة، وابن مسعود، رضي الله عنهما، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- فسر قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤))، بأن المراد رؤية النبي- صلى الله عليه وسلم- لجبريل عليه السلام. ومرجع الضمير في قوله: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)) وقوله: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين) واحد، فلا يجوز أن يخالف بينهما إلا بدليل.

٣- إجماع الصحابة رضي الله عنهم على أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لم ير ربه ليلة الإسراء حكى الإجماع الدارمي، وقد نقله عنه: شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٦/ ٥٠٧)، وابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٧)، وفي إجماعهم هذا دليل على أن الآية لا يصح تفسيرها بدنو الله تعالى من نبيه- صلى الله عليه وسلم -؛ إذ لو كان الله تعالى قد دنا منه لرآه- صلى الله عليه وسلم -، ولأخبر بذلك، كيف وقد نفى ذلك بنفسه- صلى الله عليه وسلم -، فإنه حينما سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٧٨).

٤- ومما يؤكد وقوع الغلط في رواية شريك: أن الحديث رواه جمع غفير من الصحابة رضي الله عنهم، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- ومن هؤلاء الصحابة: أبو هريرة، وبريدة بن الحصيب، وجابر بن عبد الله، وحذيفة بن اليمان، وشداد بن أوس، وصهيب الرومي، وعبد الرحمن بن قرط، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، ومالك بن صعصعة، وأبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنهم جميعا، ولم يذكروا هذا اللفظ، ورواه جمع غفير من التابعين عن أنس- رضي الله عنه- ومن هؤلاء الرواة: الزهري، وقتادة، وثابت البناني، وعبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي

=

=

وقاص، وأبو عمران الجوني، ويزيد بن أبي مالك، وحميد، وسليمان التيمي، وراشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، وعلي بن زيد بن جدعان، وثمامة، وكثير بن سليم، وسليمان بن المغيرة، ولم يذكروا هذا اللفظ أيضا.

وأما المروي عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في تفسير الآية؛ فجوابه: أن الروايات عنه على نوعين:

النوع الأول: صريح غير صحيح، وهو ما ورد عنه من تفسير الآية بدنو محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من ربه تعالى، وهذه الرواية لا تصح عنه.

النوع الثاني: صحيح غير صريح، وهو ما ورد عنه من تفسير الآية بدنو الله تعالى من نبيه- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وهذا التفسير روي عنه من طريق واحدة، وهي طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لكن الرواة- عن محمد بن عمرو- وقع بينهم اختلاف في لفظه:

فرواه ابن جرير الطبري، واللالكائي، من طريق سعيد بن يحيى الأموي، عن أبيه، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤))- قال: «دنا ربه منه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى». قال: «قد رآه النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -».

ورواه الترمذي، والبيهقي، من الطريق نفسه، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في قول الله تبارك وتعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤))- قال: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى) [النجم: ٨- ١٠]، قال ابن عباس: «قد رآه النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -».

ورواه ابن أبي شيبة، وابن أبي عاصم، وابن خزيمة، والآجري، والطبراني، والدارقطني، جميعهم من طريق عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

=

=

(ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)) قال: «رأى ربه ﷻ».

ورواه ابن خزيمة، وابن حبان، والدارقطني، جميعهم من طريق يزيد بن هارون، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن ابن عباس قال: «قد رأى محمد- ﷺ- ربه». ولم يذكر الآية.

وهذه الروايات قد اتفقت على أن ابن عباس كان يثبت رؤية النبي- ﷺ- لربه تعالى، واختلفت في تنزيل الآيات على هذا المعنى، والذي يظهر لي- والله تعالى أعلم- أن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كان يستدل بمجموع هذه الآيات على إثبات الرؤية، دون تفسير منه لآية الدنو، وهذا هو الثابت عنه- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فإنه كان يذهب إلى أن النبي- ﷺ- رأى ربه ليلة الإسراء، دون تفصيل منه في ذلك، لكن بعض الرواة تصرف في النقل، فأوهم أن ابن عباس فسر قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى) بدنو الله تعالى من نبيه- ﷺ -.

يؤكد ذلك: أن ثمة طرقا أخرى عن ابن عباس، رويت عنه ولم يأت في شيء منها ذكر آية الدنو، أو تفسيرها، ومن هذه الطرق:

١- عن عكرمة، عن ابن عباس- في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣))- قال ابن عباس: «إن رسول الله- ﷺ- رأى ربه».

٢- وعن أبي العالية، عن ابن عباس- في قوله تعالى: (ما كذب الفؤاد ما رأى) [النجم: ١١] (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣))- قال ابن عباس: «رآه بفؤاده مرتين».

٣- وعن عطاء، عن ابن عباس- في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)) قال: «إن النبي- ﷺ- رأى ربه بقلبه».

٤- وعن يوسف بن مهران، عن ابن عباس- في قوله: (ما كذب الفؤاد ما رأى (١٨))- قال: «رأى محمد- ﷺ- ربه ﷻ بفؤاده».

وكما ترى فإن هذه الروايات صريحة بأن ابن عباس كان يستدل بالآيات على

=

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠).

{فَأَوْحَى} تَعَالَى {إِلَى عَبْده} جِبْرِيل {مَا أَوْحَى} جِبْرِيل إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَلَمْ يَذْكُر الْمُوحَى تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ.

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١).

{مَا كَذَبَ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد أَنْكَرَ {الْفُؤَاد} فُؤَاد النَّبِيّ {مَا رَأَى} بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَة جِبْرِيل.

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢).

{أَفَتُمَارُونَهُ} تُجَادِلُونَهُ وَتَغْلِبُونَهُ {عَلَى مَا يَرَى} خِطَاب لِلْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ رُؤْيَة النَّبِيّ ﷺ لجبريل.

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣).

=

إثبات الرؤية وحسب، وليس فيها أنه فسر قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى) بدنو الله تعالى من نبيه ﷺ.

وهذا الذي فهمه ابن عباس من الآيات- في إثبات رؤية النبي- ﷺ- لربه تعالى- قد خالفته فيه عائشة، وابن مسعود، رضي الله عنهما؛ فعن عائشة، أنها سألت النبي- ﷺ- عن قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)) فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»، وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣))- قال: قال رسول الله- ﷺ -: «رأيت جبريل، عليه السلام، وله ست مائة جناح»، وتفسير عائشة، وابن مسعود، أولى من تفسير ابن عباس؛ فإنهما قد صرحا برفع ذلك للنبي- ﷺ -، بخلاف ابن عباس، فإنه لم يسند شيئا من ذلك للنبي- ﷺ -، والمرفوع أولى من الموقوف، والله تعالى أعلم.

{ولقد رآه} على صورته {نزلة} مرة {أخرى}.

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤).

{عِنْد سِدْرَة الْمُنْتَهَى} لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ فِي السَّمَاوَات وَهِيَ شَجَرَة نَبْق عَنْ يَمِين الْعَرْش لَا يَتَجَاوَزهَا أَحَد مِنْ الْمَلَائِكَة وَغَيْرهمْ.

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥).

{عِنْدهَا جَنَّة الْمَأْوَى} تَأْوِي إلَيْهَا الْمَلَائِكَة وَأَرْوَاح الشهداء والمتقين(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}، أي:" فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله ﷻ".

وفي قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}، قولان:

أحدهما: أنه جبريل عليه السلام أوحى إليه ما يوحي إلى رسول الله ﷺ، قالته عائشة، والحسن، وقتادة، والربيع، وابن زيد.

قال ابن زيد:" أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى الله إليه".

قال الربيع:" على لسان جبريل".

الثاني: أنه محمد -ﷺ -أوحي إليه على لسان جبريل، قاله ابن عباس، والسدي.

قال ابن عباس:" عبده محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه".

قال ابن كثير:" وكلا المعنيين صحيح".

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فأوحى جبريل إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه، لأن افتتاح الكلام جرى في أوّل السورة بالخبر عن رسول الله ﷺ، وعن جبريل عليه السلام، وقوله {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} في سياق ذلك ولم يأت ما يدلّ على انصراف الخبر عنهما، فيوجه ذلك إلى ما صرف إليه".

قوله تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، أي:" ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره =

=

من صورة جبريل الحقيقية".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما كذب فؤاد محمد محمدا الذي رأى، ولكنه صدّقه".

وفي الذي رأى خمسة، أقوال:

أحدها: رأى ربه بعينه، وهو قول منسوب إلى ابن عباس، وأنس، والحسن، وعكرمة، والربيع.

روى عن ابن عباس، من طرق لا تحصى كثرة، قال: "رأى محمد ﷺ ربه".

عن عكرمة قال: "سمعت ابن عباس وسئل هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال: نعم. قال: فقلت لابن عباس: أليس يقول الله تعالى: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} [الأنعام: ١٠٣]؟ قال: لا أم لك، ذلك نوره إذا تجلى بنوره لم يدركه شيء".

عن أبي إسحاق عمّن سمع ابن عباس، يقول: "{ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى}، قال: رأى محمد ربّه".

عن المبارك بن فضالة، قال:" كان الحسن يحلف بالله ﷻ لقد رأى محمد ربّه".

عن ابن منصور، قال: "سألت عكرمة، عن قوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، قال: أتريد أن أقول لك قد رآه، نعم قد رآه، ثم قد رآه، ثم قد رآه حتى ينقطع النفس".

عن عيسى بن عبيد، قال: "سمعت عكرِمة، وسُئل هل رأى محمد ربه، قال نعم، قد رأى ربه".

قال ابن عباس:" إن الله اصطفى إبراهيم بالخُلَّة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدا بالرؤية صلوات الله عليهم".

عن عبد الله بن الحرث قال: "اجتمع ابن عباس وكعب فقال ابن عباس: أمّا نحن بنو هاشم فنقول: إنّ محمدا رأى ربّه مرتين، وقال ابن عباس يحبّون أن تكون

=

=

الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد. قال: فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال: إن الله سبحانه قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام، فكلّمه موسى ورآه محمد".

قال ابن كثير:" ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة، رضي الله عنهم، وقولُ البغوي في تفسيره: «وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسنُ وعكرمة». فيه نظر، والله أعلم".

الثاني: أنه رآه في المنام، قاله السدي.

الثالث: أنه رآه بقلبه. قاله أبو ذر، وابن عباس أيضا، وعكرمة، والربيع، ورواه ابن الحنفية عن أبيه.

عن أبي ذر قال: "رآه بقلبه، ولم يره بعينه".

عن عطاء، عن ابن عباس، قال: «رآه بقلبه».

الرابع: أنه رأى جلاله، قاله الحسن، ومجاهد، ورواه عكرمة عن ابن عباس.

عباد بن منصور قال: "سألت عكرمة: {ما كذب الفؤاد ما رأى}، فقال: عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن، فقال: رأى جلاله وعظمته ورداءه".

عن أبي العالية قال: "سئل رسول الله– صلى الله عليه وسلم– هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهرا، ورأيت وراء النهر حجابا، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير ذلك» ".

عن عبد الله بن شقيق، قال: "قلت لأبي ذر، لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت، فقال: «رأيت نورا». وفي رواية: «قد رأيت نورا، أنى أراه؟»".

الخامس: أنه رأى جبريل على صورته مرتين، قاله ابن مسعود، وقتادة.

عن عبد الله: "{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه

=

=

حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض".

عن عبد الله، أن النبي ﷺ قال: "رأيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، لَهُ سِتُّ مئَة جنَاح، يَنْفضُ مِنْ رِيشهِ التَّهاويلَ الدُّرَّ والياقُوتَ".

عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى لَهُ سِتُّ مئَة جنَاح" زاد الرفاعيّ في حديثه، فسألت عاصما عن الأجنحة، فلم يخبرني، فسألت أصحابي، فقالوا: كلّ جناح ما بين المشرق والمغرب".

قال قتادة:" رأى جبريل في صورته التي هي صورته، قال: وهو الذي رآه نزلة أخرى".

قال الشعبي: "فأخبرني مسروق أنّه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه، هل رأى محمد ﷺ ربّه تعالى قط؟، قالت: إنك لتقول قولا، إنّه ليقف منه شعري، قال: قلت: رويدا فقرأت عليها: {وَالنَّجْمِ إِذا هَوى حتى قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى}، فقالت: رويدا، أين يذهب بك؟ إنّما رأى جبريل في صورته. من حدّثك أن محمدا رأى ربّه فقد كذب، والله ﷻ يقول: {لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ}، ومن حدّثك أنّه يعلم الخمس من الغيب فقد كذب، والله سبحانه يقول: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الآية، ومن حدّثك أنّ محمدا كتم شيئا من الوحي فقد كذب، والله ﷻ يقول: {بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} الآية". قال عبد الرزاق: "فذكرت هذا الحديث لعمر، فقال: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس".

قوله تعالى: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم: ١٢]، أي:" أتكذِّبون محمدًا ﷺ، فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من آيات ربه؟ ".

قال الطبري: يقول:" أفتجادلون أيها المشركون محمدا على ما يرى مما أراه الله من آياته".

وفي قوله تعالى: {أَفَتُمَارُونَهُ} [النجم: ١٢]، قراءتان :

=

=

إحداهما: «أَفَتَمْرُونهُ»، بفتح التاء بغير ألف، قرأ بها عبد الله بن مسعود وعامة أصحابه، وهي قراءة حمزة والكسائي والمفضل وخلف ويعقوب، ووجهوا تفسيره إلى: أفتجحدونه.

عن إبراهيم:" أنه كان يقرأ: «أَفَتَمْرُونَهُ»، بفتح التاء بغير ألف، يقول: أفتجحدونه؛ ومن قرأ: {أَفَتُمَارُونَهُ}، قال: أفتجادلونه".

الثانية: {أَفَتُمَارُونَهُ}، بضم التاء والألف، بمعنى: أفتجادلونه. وهي قراءة عامة قرّاء المدينة ومكة والبصرة وبعض الكوفيين.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} [النجم: ١٣- ١٤]، أي:" ولقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قرب العرش".

قال الطبري: يقول:" يقول: لقد رآه مرّة أخرى، عن سدرة المنتهى، والسدرة: شجرة النبق".

واختلف أهل التفسير في الذي رأى محمد نزلة أخرى نحو اختلافهم في قوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، وفيه قولين:

أحدهما: أنه رأى جبريل في صورته مرّتين. قالته أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبو هريرة، ومجاهد، والربيع.

عن مسروق، عن عائشة، أن عائشة قالت: يا أبا عائشة من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله؛ قال: وكنت متكئا، فجلست، فقلت: يا أمّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، أرأيت قول الله: {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأفُقِ الْمُبِينِ}، قال: إنما هو جبريل رآه مرّة على خلقه وصورته التي خلق عليها، ورآه مرة أخرى حين هبط من السماء إلى الأرض سادّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض، قالت: أنا أوّل من سأل النبيّ ﷺ عن هذه الآية، قال "هو جبريل

=

=

عليه السلام".

عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن كعب أنه أخبره أن الله تباك وتعالى قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلَّمه موسى مرّتين، ورآه محمد مرّتين، قال: فأتى مسروق عائشة، فقال: يا أمّ المؤمنين، هل رأى محمد ربه، فقالت: سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت: أين أنت من ثلاثة من حدّثك بهنّ فقد كذب، من أخبرك أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، ومن أخبرك ما في غد فقد كذب، ثم تلت آخر سورة لقمان: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، ومن أخبرك أن محمدا كتم شيئا من الوحي فقد كذب، ثم قرأت: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} قالت: ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرّتين".

عن ابن مسعود: "{وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى}، قال: رأى جبريل في رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض".

قال ابن مسعود:" رأى جبريل في وبر رجليه كالدرّ، مثل القطر على البقل".

عن مجاهد: "{وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى}، قال: رأى جبريل في صورته مرّتين".

عن أبي هريرة:" {ولقد رآه نزلة أخرى} [النجم: ١٣]، قال: «رأى جبريل».

عن الربيع: "{وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى}، قال: جبريل عليه السلام".

الثاني: أنه رأى ربه عز وجل. قاله ابن عباس.

وروي عن العَوّام بن حَوْشَب -من طريق هشيم- في قوله: {ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى}، قال: رآه بقلبه، ولم يره ببصره".

عن ابن عباس، في قول الله: "{وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، قال: دنا

=

=

ربه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى؛ قال: قال ابن عباس قد رآه النبيّ ﷺ".

عن ابن عباس أنه قال:" {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى}، قال: إن رسول الله ﷺ رأى ربه بقلبه، فقال له رجل عند ذلك: أليس {لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ}؟ قال له عكرمة: أليس ترى السماء؟ قال: بلى، أفكلها ترى؟ ".

وفي سبب تسميتها سدرة المنتهى، وجوه:

أحدها: لأنه ينتهي علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله، قاله كعب، وابن عباس.

قال سهل:" هي شجرة ينتهي إليها علم كل أحد".

عن الأجلح، قال: "قلت للضحاك: لِم تسمى سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كلّ شيء من أمر الله لا يعدوها".

قال مقاتل:" وإنما سميت المنتهى، لأنها ينتهي إليها علم كل ملك مخلوق، ولا يعلم ما وراءها أحد إلا الله- عز وجل- كل ورقة منها تظل أمة من الأمم على كل ورقة منها ملك يذكر الله- عز وجل- ولو أن ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض نورا تحمل لهم الحلل والثمار من جميع الألوان، ولو أن رجلا ركب حقة فطاف على ساقها ما بلغ المكان الذي ركب منه حتى يقتله الهرم وهي طوبى التي ذكر الله- تعالى- في كتابه: {طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [الرعد ٢٩]، ينبع من ساق السدرة عينان أحدهما السلسبيل، والأخرى الكوثر فينفجر من الكوثر أربعة أنهار التي ذكر الله- تعالى- في سورة محمد - ﷺ- الماء واللبن والعسل والخمر".

عن شمر، قال: "جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال له حدثني عن قول الله: {عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}، فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش، إليها ينتهي علم كلّ عالم، مَلك مقرّب، أو نبيّ مرسل، ما خلفها غيب، لا يعلمه

=

=

إلا الله".

عن هلال بن يساف، قال: سأل ابن عباس كعبا، عن سدرة المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدرة على رءوس حملة العرش، وإليها ينتهي علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، ولذلك سميت سدرة المنتهى، لانتهاء العلم إليها".

الثاني: لأنه ينتهي إليها كل ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها، قاله ابن مسعود.

عن عبد الله، قال: "لما أُسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي من يعرج من الأرض أو من تحتها، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض فيها".

الثالث: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة رسول الله ﷺ ومنهاجه، قاله الربيع بن أنس.

قال الربيع:" إليها ينتهي كلّ أحد، خلا على سنة أحمد، فلذلك سميت المنتهى".

عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هُريرة، أو غيره "شكّ أبو جعفر الرازيّ" قال: "لما أُسري بالنبيّ ﷺ، انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كلّ أحد خلا من أمتك على سنتك".

قال الطبري:" الصواب من القول في ذلك أن يقال: إن معنى المنتهى الانتهاء، فكأنه قيل: عند سدرة الانتهاء. وجائز أن يكون قيل لها سدرة المنتهى: لانتهاء علم كلّ عالم من الخلق إليها، كما قال كعب. وجائز أن يكون قيل ذلك لها، لانتهاء ما يصعد من تحتها، وينزل من فوقها إليها، كما روي عن عبد الله. وجائز أن يكون قيل ذلك كذلك لانتهاء كلّ من خلا من الناس على سنة رسول الله ﷺ إليها. وجائز أن يكون قيل لها ذلك لجميع ذلك، ولا خبر يقطع العذر بأنه قيل ذلك لها لبعض ذلك دون بعض، فلا قول فيه أصحّ من

القول الذي قال ربنا جَلَّ جلاله، وهو أنها سدرة المنتهى. وبالذي قلنا في أنها

=

=

شجرة النبق تتابعت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وقال أهل العلم".

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "انْتَهَيْتُ إِلَى السِّدْرَة فإِذَا نَبْقَها مثْلُ الجرار، وإِذَا وَرَقُها مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ فَلَمَّا غَشيهَا مِنْ أمر اللهِ ما غَشيهَا، تَحَوَّلَتْ ياقُوتا وَزُمُرَّدًا وَنَحْوَ ذلكَ".

عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال: قال نبيّ الله ﷺ: "لَمَّا انْتَهَيْتُ إلى السَّماءِ السَّابِعَة أَتَيْتُ عَلى إِبْرَاهيمَ فَقُلْتُ: يا جبْريلُ مَنْ هَذا؟ قال: هَذَا أَبُوكَ إِبْراهِيمُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بالابن الصَّالحِ والنَّبِيّ الصَّالِح، قال: ثُمَّ رُفِعَتْ لي سِدرَةُ الْمُنْتَهَى فحدّث نبيّ الله أنّ نبقها مثل قلال هجر، وأن ورقها مثل آذان الفِيلة".

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ: "رَكَبْتُ البُرَاقَ ثُمَّ ذُهِبَ بي إلى سدْرَة المُنتهَى، فَإِذَا وَرَقُها كآذَانِ الفِيلَةِ، وإِذَا ثمَرُها كالقلال ؛ قال: فَلَمَّا غَشِيَها مِنْ أَمْرِ الله ما غَشيَها تَغَيَّرتْ، فَمَا أحَدٌ يَسْتَطيعُ أنْ يصِفَها مِنْ حُسْنها، قال: فأَوْحَى اللهُ إليّ ما أوْحَى".

عن ابن مسعود: "{سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، قال: من صُبْر الجنة، عليها أو عليه فضول السندس والإستبرق، أو جعل عليها فضول".

عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: "سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، فقال: يَسيرُ في ظِلّ الْفَنَن مِنْها مِئَةُ رَاكِبٍ، أو قال: يَسْتَظلُّ فِي الفَنَنِ مِنْها مِئَةُ رَاكِبٍ"،-شكّ يحيى -"فِيها فَراشُ الذَّهَبِ، كانَّ ثمرها القِلال".

عن الربيع، عن سدرة المنتهى، قال: "السدرة: شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، وإن ورقة منها غَشَّت الأمَّةَ كلها".

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "لما عرج بي إلى السماء رفعت إلى سدرة المنتهى، فرأيت عندها نورا عظيما، وإذا ورقها مثل آذان الفيول، وإذا نبقها

=

=

مثل قلال هجر، وإذا أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات".

قال مقاتل:" أغصانها اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة العليا".

قوله تعالى: {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: ١٥]، أي:" عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: عند سدرة المنتهى جنة مأوى الشهداء".

عن أبي إسحاق الشيباني قال: "سئل زر بن حبيش، وأنا أسمع: عندها جنة المأوى، أو جنة المأوى، فقال: جنة من الجنان".

وفي قوله تعالى: {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: ١٥]، وجهان:

أحدهما: جنة المبيت والإقامة، قاله علي، وأبو هريرة.

الثاني: أنها منزل الشهداء، وهي في يمين العرش. قاله ابن عباس، وقتادة.

قال مقاتل:" تأوى إليها أرواح الشهداء أحياء يرزقون".

وقال ابن عباس:" هو كقوله: {فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نزلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون} ".

وقال ابن عباس: "هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة".

وقال الحسن: "هي التي يصير إليها أهل الجنة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فأوحى} أي: جبريل {إلى عبده مآ أوحى} أي: إلى عبد الله، فالضمير في {أوحى} يعود على جبريل والضمير في {عبده ما أوحى} يعود إلى الله ﷻ، أي: أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى، ولم يبين ما أوحى به تعظيمًا له، لأن الإبهام

يأتي مرادًا به التفخيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: {فغشيهم من اليم ما غشيهم}

=

=

أي: غشيهم شيء عظيم، وهنا أوحى إلى عبده ما أوحى أي من الشيء العظيم، ولا كلام أعظم من القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله ﷻ.

ثم قال الله تبارك وتعالى في قصة المعراج: {ما كذب الفؤاد ما رأى} اعلم أيها الأخ المسلم أن للنبي ﷺ إسراءً ومعراجًا، فالإسراء ذكره الله في سورة الإسراء. والمعراج ذكره الله في سورة النجم وكلاهما في ليلة واحدة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، أو سنة ونصف، اختلف المؤرخون في هذا، ثم إن الإسراء والمعراج كان ببدن الرسول ﷺ وروحه، وليس بروحه فقط، وأما قوله تعالى: {وما جعلنا الرءيا التى أريناك إلا فتنةً للناس} فالمراد بها رؤية العين، لا رؤية المنام، يقول الله تعالى في سياق الآيات في المعراج: {ما كذب الفؤاد ما رأى} الفؤاد القلب، والمعنى أن ما رآه النبي ﷺ بعينه فإنه رآه بقلبه وتيقنه وعلمه، وذلك أن العين قد ترى شيئًا فيكذبها القلب، وقد يرى القلب شيئًا فتكذبه العين، فمثلًا قد يرى الإنسان شبحًا بعينه فيظنه فلانًا ابن فلان، ولكن القلب يأبى هذا، لأنه يعلم أن فلانًا ابن فلان لم يكن في هذا المكان، فهنا العين رأت، والقلب كذَّب، أو بالعكس، قد يتخيل الإنسان الشيء بقلبه ولكن العين تكذبه، أما ما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج فإنه رآه حقًّا ببصره وبصيرته، ولهذا قال: {ما كذب الفؤاد ما رأى} بل تطابق القلب مع رؤية العين، فلم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذبًا فما رآه من الآيات العظيمة في تلك الليلة بل هو صادق، ولكن المشركين كذبوه، وقالوا: كيف يمكن أن يصل إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء في ليلة واحدة، ولهذا قال: {أفتمارونه على ما يرى} والاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تجادلونه بقصد الغلبة، لهذا عداها بعلى دون (في)، فلم يقل: (أفتمارونه في ما يرى) بل قال {على ما يرى}، إشارة إلى أن الفعل ضمن معنى المغالبة، أي أفتجادلونه تريدون أن تغلبوه على ما يرى، أي:

=

=

على شيء رآه، ولكنه عبر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى استحضار هذا الشيء، وأنه عليه الصلاة والسلام حين أخبر به كأنما يراه الآن، لأن الإنسان إذا حدث عن ماضي فربما يقول قائل: لعله نسي فأخطأ، ولكن إذا عبر بالمضارع صار كأنه يتحدث عن شيء هو يشاهده، فالمعنى على ما رأى من قبل، ولكن عبر عمّا رأى من قبل بالمضارع لحكمة بالغة، والحكمة البالغة، حيث تكون تعبيرات القرآن الكريم إذا عبر بخلاف ما يتوقع فلابد أن يكون هناك حكمة تظهر للمتأمل {ولقد رءاه نزلـةً أخرى} رآه الفاعل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمفعول به جبريل، أي رأى محمدٌ جبريلَ {نزلـةً أخرى}، أي: مرة أخرى حين نزل، والمرة الأولى رأى الرسولُ عليه الصلاة والسلام جبريلَ وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول عليه الصلاة والسلام في حراء انسد من أجنحة هذا الملك الكريم، وهذا يدل على عظمته، ولهذا وصفه الله أنه ذو قوة عند ذي العرش مكين، وبأنه ذو مرة أي هيئة حسنة كما سبق في هذه السورة، والمرة الثانية: في السماء فوق السماء، فتارة رآه من تحت السماء من فوق الأرض، وتارة من فوق السماء، ولهذا قال: {ولقد رءاه نزلـةً أخرى} أي مرة أخرى {عند سدرة المنتهى}، أي رآه عند السدرة، والسدرة شجرة معروفة في الأرض، لكن السدرة التي في السماء السابعة ليست كصفة السدرة التي في الدنيا، بل نبقها كالقلال، وأوراقها كآذان الفيلة، فهي شجرة عظيمة، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها كل صاعد من الأرض، وينتهي إليها كل نازل من عند الله ﷻ،

فهي منتهى من الطرفين: الطرف الأول: ما يصعد من الأرض إلى السماء، ينتهي عند هذه السدرة، وما ينزل من الرب ﷻ ينتهي عند هذه السدرة، {عندها جنة المأوى}، أي: عند هذه السدرة جنة المأوى، إذًا الجنة فوق السماء السابعة، لأنه

=

=

إذا كانت السدرة فوق السماء السابعة وكانت الجنة عندها لزم أن تكون الجنة فوق السماء السابعة، وهو كذلك، وأعلاها وأوسطها الفردوس،- جعلنا الله من أهلها- فوقها عرش الرحمن جل وعلا، ولهذا قال تعالى: {كلا إن كتاب الأَبرار لفي عليين} وعليين مبالغة من العلو، يعني في أعلى الشيء، {المأوى} يعني المصير، مأوى من جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يأوون إليها ويخلدون فيها، وأما النار فهي مأوى الكافرين والعياذ بالله، وفي هذا دليل واضح على أن غاية الخلائق الجن والإنس إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا ثالث لهما، فالجن والإنس إما في النار وإما في الجنة، قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته:

وكل إنسان وكل جِنةٍ في دار نارٍ أو نعيم جنة

ويستفاد من قوله {المأوى} أن القبور ليست هي المأوى والمثوى، لأن القبور ممر ومعبر، إذ إن وراء القبور بعث، ويذكر أن بعض الأعراب في البادية سمع قارئًا يقرأ قول الله تعالى: {ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر} فقال الأعرابي بفطرته وعربيته: «والله ما الزائر بمقيم، وإن وراء ذلك شيئًا»، لأن الزائر يزور ويمشي، والقبور يمكث الناس فيها ما شاء الله أن يمكثوا، ثم يخرجون منها، قال الله تعالى: {ومن ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون} فالناس لابد أن يبعثوا، والعبارة التي نسمعها أو نقرأها أحيانًا أن الرجل حملوه إلى مثواه الأخير، يعني إلى المقبرة عبارة غير صحيحة، لأن القبور ليست المثوى الأخير، ولو كان قائلها يعتقد معناها لكان لازم ذلك أنه ينكر البعث. ا.هـ

(منبهة): قال الله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤)) [النجم: ١٣- ١٤].

وفي الحديث عن أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، أن مالك بن صعصعة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان.... »، ثم ذكر حديث

=

=

الإسراء بطوله، وفيه: «فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحبا به، ولنعم المجيء جاء. فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحبا بك من ابن ونبي. فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم، ورفعت لي سدرة المنتهى.... ». أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٠٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٦٤).

وعن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «.... ثم عرج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى.... » أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٦٢).

وعن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول- ليلة أسري برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «.... ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فأوعيت منهم: إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة، لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله. فقال موسى: رب لم أظن أن يرفع علي أحد. ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى.... » أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، حديث (٧٥١٧).

(٧٥) ـ (٦٤): وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أسري برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة.... » أخرجه مسلم في

=

=

صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٧٣).

* ظاهر الأحاديث المتقدمة أن لسدرة المنتهى ثلاثة أمكنة:

الأول: أنها «في السماء السابعة»، وهو ما دل عليه حديث مالك بن صعصعة، وأنس بن مالك، من طريق ثابت البناني، عنه.

الثاني: أنها «فوق السماء السابعة»، وهو ما دل عليه حديث أنس بن مالك، من طريق شريك بن عبد الله، عنه.

الثالث: أنها «في السماء السادسة»، وهو ما دل عليه حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه -.

وهذه الأحاديث الثلاثة يوهم ظاهرها التعارض فيما بينها في تعيين مكان سدرة المنتهى.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الأحاديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الأحاديث مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بين الأحاديث:

ولأصحاب هذا المسلك مذهب واحد في الجمع بين هذه الأحاديث، وجملة مذهبهم:

أن أصل سدرة المنتهى في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السماء السابعة.

وعلى هذا المذهب: النووي، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والعيني، والمناوي، والألباني.

قال النووي: «ويمكن أن يجمع بينها، فيكون أصلها في السادسة، ومعظمها في السابعة، فقد علم أنها في نهاية من العظم». اهـ

وقال الحافظ ابن حجر: «ولا يعارض قوله إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة؛ لأنه يحمل على أن أصلها في

=

=

السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها». اهـ

الثاني: مسلك الترجيح بين الأحاديث:

ويرى أصحاب هذا المسلك أن لسدرة المنتهى مكانا واحدا لا غير، وهذا المكان هو ما جاء مرفوعا في حديث أنس من أنها في السماء السابعة، وأما ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود من أنها في السادسة فموقوف عليه، والمرفوع أولى من الموقوف.

وهذا مذهب: ابن العربي، والقاضي عياض، وأبي العباس القرطبي، والحافظ ابن رجب، والملا علي القاري.

قال أبو العباس القرطبي: «في حديث أنس ما يقتضي أن السدرة في السماء السابعة أو فوقها؛ لقوله: «ثم ذهب بي إلى السدرة» بعد أن استفتح السماء السابعة ففتح له فدخل، وفي حديث عبد الله أنها في السماء السادسة، وهذا تعارض لا شك فيه، وما في حديث أنس أصح، وهو قول الأكثر، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل ملك مقرب...، وأيضا فإن حديث أنس مرفوع، وحديث عبد الله موقوف عليه من قوله، والمسند المرفوع أولى». اهـ

وقال الحافظ ابن رجب: «وقول ابن مسعود: «إن سدرة المنتهى في السماء السادسة» يعارضه حديث أنس المرفوع من طرقه كلها؛ فإنه يدل على أنها في السماء السابعة، أو فوق السماء السابعة، والمرفوع أولى من الموقوف». اهـ

والذي يظهر صوابه- والله تعالى أعلم- هو مسلك الجمع بين الأحاديث، إذ يحمل حديث عبد الله بن مسعود: على أن أصل السدرة في السماء السادسة، ويحمل حديث مالك بن صعصعة، وأنس: على أن فروعها وأغصانها في السماء السابعة.

=

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦).

{إذ} حين {يَغْشَى السِّدْرَة مَا يَغْشَى} مِنْ طَيْر وَغَيْره وإذ معمولة لرآه.

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧).

{مَا زَاغَ الْبَصَر} مِنْ النَّبِيّ ﷺ {وَمَا طَغَى} أَيْ مَا مَالَ بَصَره عَنْ مَرْئِيّه الْمَقْصُود لَهُ وَلَا جَاوَزَهُ تلك الليلة.

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨).

=

يدل على هذا الاختيار:

١- أنه قد روي عن النبي- ﷺ- ما يؤيد هذا الجمع؛ فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- في قوله تعالى: (عند سدرة المنتهى (١٤))- أن النبي- ﷺ- قال: «رفعت لي سدرة منتهاها في السماء السابعة».

فقوله: «منتهاها في السماء السابعة» يفهم منه أن أصلها ليس في السابعة، ولما جاء في حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أنها في السادسة، علمنا أن مراد الأحاديث أن أصلها في السادسة ومنتهاها في السابعة.

٢- أن الترجيح لا يصار إليه إلا إذا تعذر الجمع، أو تبين بجلاء ضعف الرواية المرجوحة، أو وقوع الخطأ فيها، وهذا كله مفقود في مسألتنا هذه؛ إذ الجمع ممكن، والروايات كلها صحيحة.

وأما رواية شريك- والتي فيها أن السدرة فوق السماء السابعة- فالأظهر أنها وهم منه رحمه الله، وقد عدت عليه أوهام في روايته لحديث الإسراء، وهذه منها.

وأما قول أصحاب المسلك الثاني: إن حديث ابن مسعود موقوف عليه؛ فغير مسلم لهم، بل هو في حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي، ولأن بعض ألفاظه قد رويت في حديث أنس المرفوع، فصار له حكم الرفع مثله، والله تعالى أعلم.

{لقد رأى} فيها {مِنْ آيَات رَبّه الْكُبْرَى} الْعِظَام أَيْ بَعْضهَا فَرَأَى مِنْ عَجَائِب الْمَلَكُوت رَفْرَفًا أَخْضَر سَدَّ أفق السماء وجبريل له ستمائة جناح(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}، أي:" إذ يغشى السدرة من أمر الله شيء عظيم، لا يعلم وصفه إلا الله ﷻ".

وفي قوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}، وجوه:

أحدها: أن الذي يغشاها فراش من ذهب، قاله ابن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وإبراهيم، ورواه ابن مسعود مرفوعًا.

الثاني: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه نور رب العزة، قاله ابن عباس-أيضا-، والضحاك، والربيع.

قال الربيع:" غشيها نور الربّ، وغشيتها الملائكة من حُبّ الله مثل الغربان حين يقعن على الشجر".

وقال مجاهد:" كان أغصان السدرة لؤلؤًا وياقوتا أو زبرجدا، فرآها محمد، ورأى محمد بقلبه ربه".

قال الماوردي: "فإن قيل لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولًا وعملًا ونية، فظلها بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره".

قوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، أي:" وكان النبي ﷺ على صفة عظيمة من الثبات والطاعة، فما مال بصره يمينًا ولا شمالا ولا جاوز ما أُمِر برؤيته".

قال الطبري: يقول: "ما مال بصر محمد يَعْدِل يمينا وشمالا عما رأى، أي ولا جاوز ما أمر به قطعا، يقول: فارتفع عن الحدّ الذي حُدّ له".

قال ابن عباس:": ما زاغ يمينا ولا شمالا ولا طغى، ولا جاوز ما أُمر به".

=

=

قال ابن عباس:" ما زاغ: ذهب يمينا ولا شمالا ولا طغى: ما جاوز".

قال ابن كثير:" وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي. وما أحسن ما قال الناظم:

رأَى جَنَّةَ المَأْوَى وَمَا فَوْقَها، وَلَو... رَأى غَيرُهُ ما قَد رَآه لتَاهَا".

عن محمد بن كعب القرظي:" {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، قال: رأى جبرائيل في صورة المَلك".

إن قلنا الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة، ففي قوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، وجهان :

أحدهما: أنه ﷺ لم يلتفت عنه يمنة ولا يسرة ولا يشتغل بغير مطالعة ذلك النور.

الثاني: ما زاغ البصر بصعقة ولا غشية كما أخبر عن موسى بقوله: {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} [الأعراف: ١٤٣]، وذلك أنه لما تجلى رب العزة وظهر نوره على الجبل قطع نظره وغشي عليه ونبينا ﷺ ثبت في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول وتزل فيه الأقدام وتميل فيه الأبصار فوصف الله ﷻ قوة نبينا ﷺ في ذلك المقام العظيم بقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى.

قال القشيري:" ما مال- صلوات الله عليه وسلامه- ببصره عمّا أبيح له من النظر إلى الآيات، والاعتبار بدلائلها. فما جاوز حدّه، بل راعى شروط الأدب في الحضرة".

قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، أي:" لقد رأى محمد ﷺ ليلة المعراج من آيات ربه الكبرى الدالة على قدرة الله وعظمته من الجنة والنار وغير ذلك".

قال الطبري: يقول: "لقد رأى محمد هنالك من أعلام ربه وأدلته الأعلام والأدلة الكبرى".

=

=

واختلف أهل التفسير في تلك الآيات الكبرى، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه -عليه السلام- رأى رَفْرفا أخضر قد سدّ الأفق. قاله ابن مسعود.

الثاني: رأى جبريل في صورته في السماء. قاله ابن زيد.

عن ابن زيد، قوله: "{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، قال: جبريل رآه في خلقه الذي يكون به في السموات، قدر قوسين من رسول الله ﷺ، فيما بينه وبينه".

وقال مجاهد: "مِن نحو أجياد منسوجٌ بالدُّر والياقوت".

الثالث: ما رآه حين نامت عيناه ونظر بفؤاده، قاله الضحاك.

قال الضحاك:" رأى سِدرة المنتهى".

قال القشيري:" هي تلك التي رآها في هذه الليلة. ويقال: هي بقاؤه في حال لقائه ربّه بوصف الصّحو، وحفظه حتى رآه".

قال الثعلبي:" قيل: المعراج، وما أري تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه. دليله قوله سبحانه: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} ".

قال الزجاج:" جاء في التفسير أن النبي- ﷺ- رأى رَبَّهُ عز وجل بقلبه، وأنه فَضْلٌ خُصَّ به كما خُصَّ إبراهيم عليه السلام بالخُلَّة، وقيل: رأى أمرًا عظيما".

قال ابن كثير:" قوله: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، كقوله: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا} [طه: ٢٣]، أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس".

عن إسحاق بن أبي الكَهْتَلة -قال محمد: أظنه عن ابن مسعود- أنه قال: "إن محمدا لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه في صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعد معه حين صعد به. وقوله: {وَهُوَ بِالأُفُقِ الأعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى

=

=

إِلَى عَبْدِهِ مَا

أَوْحَى} قال: فلما أحسَّ جبريل ربه، ﷻ، عاد في صورته وسجد. فقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} قال: خَلْقَ جبريل عليه السلام".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إذ يغشى السدرة ما يغشى} السدرة هي سدرة المنتهى، لأنه تعالى قال: {ولقد رءاه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى} : {إذ يغشى السدرة} وأل في مثل هذه العبارة تسمى عند النحويين (ال) للعهد الذكري كقوله تعالى: {كمآ أرسلنآ إلى فرعون رسولًا فعصى فرعون الرسول فأخذنه أخذًا وبيلًا} {ما يغشى}، أبهم الله ذلك للتفخيم والتعظيم، يعني غشيها شيء عظيم بأمر الله عزوجل بلحظة، كن فيكون، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنه غشيها من الحسن والبهاء ما لايستطيع أحد أن يصفها،

{ما زاغ البصر وما طغى} البصر بصر النبي ﷺ، يقول العلماء: {زاغ} أي انحرف يمينًا وشمالًا، {وما طغى} أي: تجاوز أمامه، فالرسول ﷺ كان على كمال الأدب في هذا المقام العظيم، لم يلتفت يمينًا وشمالًا، ولم يتقدم بصره أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه عليه الصلاة والسلام، وجرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلًا غريبًا تجده ينظر يمينًا وشمالًا في هذا المنزل، وخصوصًا إذا تغير تغيرًا عظيمًا في هذه اللحظة، لابد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه صلوات الله وسلامه عليه وتحمله ما لا يتحمله بشر سواه صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى عنه: {وإنك لعلى خلق عظيم}.

ثم قال ﷻ: {لقد رأى من آيات ربه الكبرى} وأنت أخي المسلم القارىء للقرآن يمر بك مثل هذا التعبير دائمًا {ولقد رءاه}، {لقد خلقنا الإنسان في كبد}، {ولقد

=

خلقنا الإنسان من سللة من طين} والأمثلة كثيرة، هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بأنواع ثلاثة من المؤكدات: الأول: قسم مقدر، والثاني: اللام.
والثالث: قد، لأن المعنى: (والله لقد) فتكون جملة مؤكدة بالقسم واللام، وقد، والقسم مقدر لكن دل عليه السياق، ورأى يعني النبي ﷺ {من آيات ربه الكبرى}، الآية هي العلامة المخصصة لمدلولها التي لا يشركه فيها أحد، وإلا لم تكن آية، فالآية لابد أن تكون خاصة بمدلوها، فليس كل علامة آية، بل هي التي تختص بمدلولها، فهذا الذي رآه النبي عليه الصلاة والسلام من آيات الله كبير عظيم، وقوله {الكبرى} قيل: إنها مفعول ثان لرأى، أي: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، وقيل: إن الكبرى صفة لآياته، والمعنى أنه رأى من آيات الله الكبيرة، والثاني أصح وأقرب، يعني أنه رأى من الآيات الكبرى ما رأى، وليس ما رآه أكبر شيء، بل قد يكون هناك شيء أكبر لا نعلمه، والحاصل أن الرسول ﷺ رأى في هذا المعراج من آيات الله الكبير ما لم يكن يره من قبل، وما لا يستطيع الصبر عليه أحد من البشر، ونحن لو رأينا سرادقًا عظيمًا لملك من الملوك لانبهرنا وتعجبنا، وجعلنا نلتفت يمينًا وشمالًا، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتغير عقله ولا اتزانه، بل كان على أكمل ما يكون الاتزان، وإلا فقد أسري به من المسجد الحرام من الحجر عند الكعبة- والحجر من الكعبة- أسري به من ذلك المكان إلى بيت المقدس مسيرة شهرين، في لحظة لأنه ركب البراق، والبراق دابة عظيمة قوية سريعة، خطوته مد بصره، وسريع جدًا وصل إلى هناك وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، والسماء بعيدة جدًا، ثم من سماء إلى سماء وتتلقاه الملائكة تسأل جبريل: من معك؟ فيقول: محمد، فيسألونه هل أرسله إلى الناس؟ فيقول: نعم، ثم يسلم على بعض من في السموات من أنبياء، ثم تفرض عليه الصلاة ويتردد بين الله ﷻ وموسى كل هذا وهو ثابت الجأش عليه الصلاة والسلام، وهذا شيء

=

حقيقي هو بنفسه

عليه الصلاة والسلام صعد، ولهذا لما جاء وحدث الناس من الغد أنكرته قريش، لأنها تنكر ما لا يمكن في عقلها، وإنكار ما لا يمكن في العقل ليس خاصًّا بكفار قريش حتى فيمن ينتسب إلى هذه الأمة أنكروا من صفات الله ما أثبته الله لنفسه، لأنه على زعمهم لا يمكن في العقل، فقريش أنكرت هذا المعراج: ولو كان منامًا لم تنكره قريش، لأن المنامات يكون فيها مثل هذا، لكنه أمر حسي حقيقي أسري بالرسول عليه الصلاة والسلام بجسده وعُرج به في ليلة واحدة، وحصلت كل هذه الأمور ثم عاد إلى الأرض وصلى الفجر في مكة عليه الصلاة والسلام. {لقد رأى من ءايات ربه الكبرى}، وفي هذا إشارة إلى أن آيات الله ﷻ منها الكبير ومنها ما دون ذلك، ولا نقول: منها الصغير. لأن الكبرى اسم تفضيل. وغلط من قال من المفسرين المتأخرين: إن الكبرى اسم فاعل، بل هي اسم تفضيل، لأن آيات الله ﷻ إما كبيرة، وإما كبرى عظمى، فالمعراج الذي حصل لا شك أنه من الآيات الكبرى العظيمة. ا.هـ

مسألة: هل ثبت رؤية النبي ﷺ لربه حين المعراج.

أختلف العلماء في المسألة على خمسة أقوال وهي:

القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقا.

وهو رواية عن الإمام أحمد، وقول ابن خزيمة، والآجري، والألوسي.

١- قول الإمام أحمد (١٢٤١هـ)

حكى أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦٣-٦٤) اختلاف الروايات عن الإمام أحمد في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه على ثلاث روايات أحدها أنه رآه مطلقا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام

=

=

أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده" ا.هـ.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا".

٢- قول ابن خزيمة (٣١١هـ) الإمام ابن خزيمة نصر في كتابه التوحيد (٢/ ٤٧٧-٥٦٢) القول بأن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وأطال في سرد الحجج على ذلك.

ولكن ابن كثير- رَحِمَهُ اللَّهُ- نسب إليه بأنه يقول بالرؤية البصرية كما سيأتي ذكر قوله.

٣- قول الإمام الآجري (٣٦٠ هـ) بوب الإمام الآجري في كتابه الشريعة ٣(/ ١٥٤١-١٥٥١) بابًا بعنوان "باب ذكر ما خصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ النبي ﷺ من الرؤية لربه عَزَّ وَجَلَّ".

ثم ساق مجموعة من الأحاديث والأثار التي تدل على أنه ينصر القول بأنه ﷺ رأى ربه عَزَّ وَجَلَّ ليلة المعراج.

٤- قول الألوسي: قال الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢٧/ ٥٤): "وأنا أقول برؤيته ﷺ ربَّه سبحانه وبدنوه على الوجه اللائق".

ونسبه إلى معظم الصوفية فقال: "ومعظم الصوفية على هذا، فيقولون بدنو الله عَزَّ وَجَلَّ من النبي ﷺ، ودنوه- سبحانه- على الوجه اللائق، وكذا يقولون بالرؤية كذلك".

القول الثاني: من قيد الرؤية بالعين.

نسب القول بتقييد الرؤية بالعين إلى بعض العلماء، ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين، وفي نسبة ذلك إلى بعضهم نظر، وممن نسب لهم القول بذلك: ابن عباس، وأنس بن مالك، والحسن البصري، وعكرمة، ورواية عن الإمام أحمد، وابن خزيمة، وابن جرير، وأبو الحسن الأشعري وعامة أتباعه، وأبو عبد الله بن حامد وأبو بكر النجاد والقاضي أبو يعلى، وعبد القادر الجيلاني، وجماعة من

=

=

المتأخرين.

فقد نسب البغوي هذا القول إلى ابن عباس فقال في تفسيره (٧/ ٤٠٥): "وعن ابن عباس أنه قال رأى ربه بعينه".

وقد سبق الرد على ذلك عند عرض أقوال الصحابة، وأن هذا التقييد بالعين لم يثبت عن ابن عباس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠): "سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين".

وقال البغوي أيضًا في معالم التنزيل (٧/ ٤٠٣):"وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة" ا.هـ

وبالنسبة لما نسبه البغوي إلى أنس وعكرمة من تقييد الرؤية بالعين فإن الروايات السابق ذكرها عنهما جاءت مطلقة، وكذا ما أوردناه عن الحسن البصري فإن الرواية جاءت مطلقة، وقد سبق كذلك الإشارة إلى ما ورد في تفسير البغوي عن الحسن البصري أنه قال: "رآه بعينه" ولكن البغوي لم يسندها فلا يعدل عن الرواية التي سبق إيرادها عن الحسن من إطلاق الرؤية وعدم تقييدها بالعين، والله أعلم.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): "وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله أعلم".

وقال ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى، أي: النبي ﷺ ربه ﷻ ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه في ذلك جماعة من المتأخرين".

وقال أيضًا في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير، وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين، وممن نص

=

=

على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه" ا.هـ

وحمل القاضي أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦١) وفي إبطال التأويلات (١/ ١١١) الرواية التي عن الإمام أحمد بأنها نص على الرؤية بالعين، فقال في كتاب الروايتين: "فظاهر هذا أنه أثبت رؤيا عين" وقال في إبطال التأويلات: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينيه".

وقد اعترض شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠) على هذا التوجيه من القاضي فقال: "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"، ولم يقل أحد: أنه سمع أحمد يقول رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق، ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك: فقال: "نور أنى آراه"" ا.هـ

وقال فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٧): "قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: وليس قول ابن عباس إنه رآه مناقضا لهذا ولا قوله رآه بفؤاده وقد صح عنه أنه قال: "رأيت ربي تبارك وتعالى" ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه -تبارك وتعالى- تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- وقال: نعم رآه حقا فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه الله تعالى- إنه رآه بعيني رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم

=

=

عليه، ولكن قال: مرة رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك" ا.هـ

وكذلك اعترض ابن القيم على توجيه القاضي أبي يعلى -أيضا- فقال كما التبيان في أقسام القرآن (ص٢٦٠-٢٦١): "وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي ولا دلالة فيهما، لأنها رؤية منام فقط، واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا: "لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث وهذا غلط قطعًا فإنما القصة كانت بالمدينة، كما قال معاذ بن جبل: "احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نترآى عين الشمس، ثم خرج وصلى بنا ثم قال: "رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال: يا محمد: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث فهذا كان بالمدينة والإسراء بمكة وليس عن الإمام أحمد، ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه فإنه لم يقل بعينه، وإنما قال: رآه. واتبع في ذلك قول ابن عباس: رأى محمد ربه. ولفظ الحديث "رأيت ربي" وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد الإمام أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية، وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية؛ إذ هو مخالفة للحديث وإما أن

=

=

يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية، وأطلق عنه بأنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد: "بعيني رأسه يقظة" ولم يجد ذلك في حديث قط، فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت، وإنكاره قول من قال: لم يره أصلا لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه والله أعلم.

قول الأشعري (٣٢٤هـ) وعامة أتباعه: ممن نسب هذا القول إلى أبي الحسن الأشعري وأكثر أتباعه القاضي عياض، والقرطبي في تفسيره، والنووي وابن كثير وابن حجر.

قال القاضي عياض: "وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه، وقال: كلُّ آية أوتيها نبيٌّ من الأنبياء -عليهم السلام- فقد أوتي مثلها نبيُّنا، وخُصَّ من بينهم بتفضيل الرُّؤية".

وهذا ما ذكره شارح جوهرة التوحيد (ص ١١٨) -وهو من الأشاعرة- في شرحه فقال: "والراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه وهما في محلهما، خلافا لمن قال: حولا إلى قلبه لحديث ابن عباس وغيره".

قول أبي بكر النجاد أحمد بن سليمان (٣٤٨ هـ) حكى القاضي أبو علي بن أبي موسى في إبطال التأويلات (١/ ١١٤) عن أبي بكر النجاد قال: "رآى محمد ربه إحدى عشرة مرة، منها بالسنة تسع مرات في ليلة المعراج، حين كان يتردد بين موسى وبين الله ﷻ يسأل أن يخفف عن أمته الصلاة فنقص خمسة وأربعين صلاة في تسع مقامات ومرتين بالكتاب".

قول أبي عبد الله الحسن بن حامد (٤٠٣ هـ) نقل أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦٤) أن اختيار شيخه أبي عبد الله ابن حامد أن النبي ﷺ رأى ربه

=

=

ليلة الإسراء بعينه.

وقال القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ١١١) -بعد أن أورد الرواية الأولى عن الإمام أحمد- بأنه ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعينه، وجعلها هي الصحيحة قال: "وهذه الرواية اختيار أبي بكر النجاد".

قول القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء (٤٥٨ هـ) رجح في إبطال التأويلات (١/ ١١١) القول بالرؤية البصرية فقال -في معرض ذكره للروايات الواردة عن الإمام أحمد-: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينه".

وقال في نفس المصدر السابق (١/ ١١٤): "وما رويناه عن ابن عباس أولى مما روي عن عائشة؛ لأن قول ابن عباس يطابق قول النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أثبت رؤيته في تلك الليلة؛ ولأنه مثبت والمثبت مقدم على النافي، ولا يجوز أن يثبت ابن عباس ذلك إلا عن توقيف؛ إذ لا مجال للقياس في ذلك".

قول عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ) وهذا القول قال به أيضًا- عبد القادر- الجيلاني في كتابه الغنية (١/ ٦٦)، حيث قال: "ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه عَزَّ وَجَلَّ ليلة الإسراء بعيني رأسه لا بفؤاده ولا في المنام".

قول النووي (٦٧٦ هـ): قال الإمام النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٩): "فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم عائشة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات".

قول الحافظ مغلطاي (٧٦٢ هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإشارة إلى سيرة المصطفى (ص١٣٩): "والصحيح أن الإسراء كان يقظة بجسده، وأنه مرات متعددة، وأنه

=

=

رأى ربه ﷻ بعيني رأسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم".

قول السيوطي (٩١١ هـ) قال السيوطي في الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ٢٢١): "الراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربَّه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره، وإثبات هذا لا يكون إلا بالسماع من رسول الله ﷺ، ولم تعتمد عائشة في نفي الرؤية على حديث رسول الله ﷺ، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات".

قول القسطلاني (٩٢٣ هـ) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في المواهب اللدنية (١/ ٣٧٣): "... ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سموات ورأى ربه بعيني رأسه وأوحى إليه ما أوحى".

قول محمد بن أحمد الصاوي (١٢٤١ هـ) قال في حاشيته على تفسير الجلالين (٤/ ١٣٧): "...... واختلف في تلك الرؤية، فقيل: رآه بعينه حقيقة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين منهم ابن عباس، وأنس ابن مالك، والحسن، وغيرهم،... وقيل: لم يره بعينه وهو قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والصحيح الأول؛ لأن المثبت مقدم على النافي؛ أو لأن عائشة لم يبلغها حديث الرؤية لكونها كانت حديثة السن".

القول الثالث: من قيدها بالرؤية القلبية

قول الإمام أحمد (٢٤١هـ) ذكر أبو يعلى في الروايتين والوجهين (ص٦٣) أن للإمام أحمد رواية أخرى أثبت فيها أن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه كما جاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"".

قول القرطبي المفسر. (٦٧١ هـ) قال في تفسيره (١٧/ ٩٢) في تفسير قوله تعالى

=

=

{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} : "أي لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية" ا؟هـ
قول أبي المظفر السمعاني (٤٨٩هـ) قال أبو المظفر السمعاني في تفسيره ٥(/ ٢٨٨): "وقد ثبت عن ابن عباس أنه قال رأى محمد ربه بفؤاده فإن قال قائل: المؤمنون يرونه بفؤادهم، وليس ذلك إلا العلم به فما معنى تخصيص النبي ﷺ؟. والجواب أنهم قالوا: إن الله تعالى خلق رؤية لفؤاده فرأى بفؤاده مثل ما يرى الإنسان بعينه".
قول شيخ الإسلام ابن تيمية كما هو مذكور هنا. أوهو
قول ابن كثير (٧٠٤ هـ) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): بعد ذكر الروايات عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين: ".... وقد خالفه ابن مسعود، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شئ عن الصحابة رضي الله عنهم وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله أعلم".
وقال رحمه الله في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "واختلفوا في الرؤية فقال بعضهم: رآه بفؤاده مرتين، قاله ابن عباس وطائفة، وأطلق ابن عباس وغيره الرؤية وهو محمول على التقييد. وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل- رضي الله عنهما -. وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين. وممن نص على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه. وقالت طائفة: لم يقع ذلك لحديث أبي ذر... وقالوا: لم يمكن رؤية الباقي بالعين الفانية... والخلاف في هذه المسألة مشهور بين السلف والخلف والله أعلم".

=

=

وقال- رَحِمَهُ اللَّهُ- في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه على ذلك جماعة من المتأخرين. وروى مسلم عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنه رآه بفؤاده مرتين، وأنكرت عائشة أم المؤمنين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- رؤية البصر، وروى مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله رأيت ربك فقال: "نور أنى أراه" وإلى هذا مال جماعة من الأئمة قديما وحديثا اعتمادًا على هذا الحديث، واتباعًا لقول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالوا: هذا مشهور عنها، ولم يعرف لها مخالف من الصحابة إلا ما روي عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده، ونحن نقول به، وما روي في ذلك من إثبات الرؤية بالبصر فلا يصح شيء من ذلك لا مرفوعا بل ولا موقوفا والله أعلم".

قول ابن أبي العز (٧٩٢ هـ) قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الطحاوية (١/ ٢٢٢): "واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة، منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ".

وقال في موضع آخر (١/ ٢٧٥): "... وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربَّه عَزَّوَجَلَّ بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه. وقوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١١]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها".

قول ابن حجر (٨٥٢ هـ) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (٨/ ٤٧٤): "جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها... وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول

=

=

العلم؛ لأنه ﷺ كان عالما بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه، كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلا، ولو جرت العادة خلقها في العين".

قول السفاريني (١١١٨هـ) قال -رحمه الله- في لوامع الأنوار (٢/ ٢٥٤-٢٥٥): "... وإذا علم ما حررناه فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة رضي الله عنهم بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب كما قاله الحافظ ابن حجر في شرح البخاري".

قول محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣ هـ) العلامة الشنقيطي- رحمه الله- ممن يرجح الرؤية القلبية فقد قال رحمه الله في أضواء البيان (٣/ ٣٩٩): "التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع أنه ﷺ لم يره بعين رأسه، وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه، فالمراد به الرؤية بالقلب، كما في صحيح مسلم أنه رآه بفؤاده مرتين، لا بعين الرأس".

القول الرابع: من قال رآه مرة بفؤاده ومرة بعينه.

وبه قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني، وأنور شاه الكشميري.

١- قول أبي القاسم الأضبهاني (٥٣٥ هـ) قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٥٢-٢٥٣): "ومن مذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وكان رؤيا يقظة لا رؤيا منام.

وروي عن أحمد بن حنبل- رحمه الله- قال: رآه بعين رأسه، وروي عنه أنه رآه بعين قلبه، والصحيح أنه رآه بعين رأسه، وعين قلبه.

قيل في التفسير {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} رآه في المرة الأولى بعيني قلبه، وفي المرة الأخرى بعيني رأسه".

٢- قول أنور شاه الكشميري: قال أنور شاه الكشميري- فيما نقله عنه صاحب

=

=

فتح الملهم – (١/ ٢٢٨): "إن الراجح في آية النجم أن الرؤية في قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} أن الرؤية هنا للفؤاد، والرؤية في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} أن الرؤية هنا بالعين.

وقال: وعن ابن عباس أنه كان يقول أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات كذا في الزوائد".

القول الخامس: من نفى الرؤية مطلقا: وقال بهذا القول: الدارمي، وابن عطية، وأبو حيان.

قول الإمام الدارمي (٢٨٠ هـ) قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي – في رده على بشر المريسي – (ص٥٢٣ – ضمن عقائد السلف):"ويلك، إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه لما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: إنه لم ير ربه، وقال رسول الله ﷺ: "لن تروا ربكم حتى تموتوا" وقالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية" وأجمع المسلمون على ذلك مع قول الله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله على كل حال، وفي كل صورة".

قول ابن عطية (٥٤٦ هـ) ذهب ابن عطية في تفسيره (١٥/ ٢٦٠، ٢٦١) إلى ترجيح مذهب عائشة – رضي الله عنها – ومن معها في أنه ﷺ لم ير ربَّه، ونسبه إلى الجمهور.

قول أبي حيان الأندلسي (٧٥٦ هـ) كما ذهب أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ١٥٦) إلى ترجيح مذهب عائشة ومن معها.

القول السادس: من توقف في المسألة.

قول القاضي عياض (٥٤٤ هـ) قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦١): "ووقف

=

=

بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.
قال القاضي أبو الفضل: الحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلًا، وليس في العقل ما يحيلها".
وقال في الشفا أيضا (١/ ٢٦٥): "وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضا، ولا نص، إذ المعول فيه على آية النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.
وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجب العلم باعتقاد مضمنه.
ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن.
وحديث أبي ذر الآخر محتمل مشكل فروي: "نور أنى أراه" وحكى بعض شيوخنا أنه روي: "نَورَاني أراه".
وفي حديثه الآخر: سألته فقال: "رأيت نورا" وليس ممكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية فإن كان الصحيح رأيت نورا فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نورا منعه وحجبه عن رؤية الله.
وإلى هذا يرجع قوله: "نور أنى أراه" أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر، وهذا مثل ما في الحديث الآخر: "حجابه النور" وفي الحديث الآخر: "لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين" وتلا {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء لا إله غيره.
فإن ورد حديث نص بين في الباب وجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده والله الموفق".
قول أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (٦٥٦هـ) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في المفهم
=

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩).

{أفرأيتم اللات والعزى}.

وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠).

=

(١/ ٤٠١-٤٠٣): "وذهبت طائفة من المشايخ إلى الوقف، وقالوا: ليس عليه قاطع نفيًا ولا إثباتًا، ولكنه جائز عقلًا وهذا هو الصحيح".

وقال في موضع آخر: "... ثم هل وقعت رؤية الله تعالى لمحمد ﷺ ليلة الإسراء أو لم تقع؟ ليس في ذلك دليل قاطع، وغاية ما للمستدل على نفي ذلك أو إثباته التمسك بظواهر متعارضة معرّضة للتأويل، والمسألة ليست من باب العمليات فيكتفى فيها بالظنون، وإنما هي من باب المعتقدات ولا مدخل للظنون فيها".

قول الذهبي (٧٤٨ هـ) قال رَحِمَهُ اللهُ في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٤): "والذي دلَّ عليه الدليل عدم الرؤية مع إمكانها، فنقف عن هذه المسألة، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإثبات ذلك أو نفيه صعب، والوقوف سبيل السلامة والله أعلم، ولا نعنف من أثبت الرؤية لنبينا في الدنيا، ولا من نفاها، بل نقول الله ورسوله أعلم، بل نعنف ونبدع من أنكر الرؤية في الآخرة؛ إذ رؤية الله في الآخرة ثبتت بنصوص متوافرة.. " ا.هـ

ولكن ورد في كتابه العرش (٢/ ٣٠١) ما يناقض ذلك حيث صرح بإثبات الرؤية فقال: "وأكثر الصحابة على أنه ﷺ رأى ربه....قلت: لأنه رآه في عالم البقاء حين خرج من عالم الفناء، وارتقى فوق السموات السبع فهذا الحديث أيضًا دال على أنه- سبحانه وتعالى- فوق السموات وفوق جميع المخلوقات، ولولا ذلك لكان معراج النبي ﷺ إلى فوق السماء السابعة إلى السدرة المنتهى، ودنو الجبار منه، وتدليه- سبحانه وتعالى- بلا كيف حتى كان من النبي ﷺ قاب قوسين أو أدنى، وأنه رآه تلك الليلة، وأن جبريل علا به حتى أتى به إلى الله تعالى".

{وَمَنَاة الثَّالِثَة} لِلَّتَيْنِ قَبْلهَا {الْأُخْرَى} صِفَة ذَمّ لِلثَّالِثَةِ وَهِيَ أَصْنَام مِنْ حِجَارَة كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفَع لَهُمْ عِنْد الله ومفعول أفرأيتم الأول اللات وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ وَالثَّانِي مَحْذُوف وَالْمَعْنَى أَخْبِرُونِي أَلِهَذِهِ الْأَصْنَام قُدْرَة عَلَى شَيْء مَا فَتَعْبُدُونَهَا دُون الله الْقَادِر عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْره وَلَمَّا زَعَمُوا أَيْضًا أَنَّ الْمَلَائِكَة بَنَات الله مع كراهتهم البنات نزلت.

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١).

{ألكم الذكر وله الأنثى}.

تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢).

{تلك إذا قسمة ضِيزَى} جَائِرَة مِنْ ضَازَهُ يَضِيزهُ إذَا ظَلَمَهُ وجار عليه.

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣).

{إنْ هِيَ} أَيْ مَا الْمَذْكُورَات {إلَّا أَسْمَاء سميتموها} أي سميتم بها {أنتم وآباؤكم} أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا {مَا أَنْزَلَ الله بِهَا} أَيْ بِعِبَادَتِهَا {مِنْ سُلْطَان} حُجَّة وَبُرْهَان {إنْ} مَا {يَتَّبِعُونَ} فِي عِبَادَتهَا {إلَّا الظَّنّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُس} مِمَّا زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَان مِنْ أَنَّهَا تَشْفَع لَهُمْ عِنْد الله تَعَالَى {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} عَلَى لِسَان النَّبِيّ ﷺ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِع فَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها المشركون اللات، وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل عمرو للذكر، وللأنثى عمرة؛ وكما قيل للذكر عباس، ثم قيل للأنثى عباسة، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى =

=

ذكره، وتقدّست أسماؤهم، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزَّى؛ وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا، فقال جلّ ثناؤه لهم: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعُزَّى ومناة الثالثة بنات الله".

قال الزجاج:" كأن المعنى- واللهُ أعلم- أخبرونا عن هذه الآلهة التي لكم تعبدونها من دون الله ﷻ هل لها من هذه القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة- جلَّ وعزَّ- شيء".

قال ابن كثير:" كانت «اللات» صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من

يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها".

وأما «اللاّت»، فقد كان الأعمش يشددها، وسائر القراء على تخفيفها، فمن خففها فلهم فيها قولان:

أحدهما: أنه كان صنمًا بالطائف زعموا أن صاحبه كان يلت عليه السويق لأصحابه، قاله السدي.

عن قتادة: "{أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى}، أما اللات، فكان بالطائف". وفي رواية:" وكانت اللات لأهل الطائف".

قال ابن زيد:" اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش".

الثاني: أنه صخرة يَلُتّ عليها السويق بين مكة والطائف، قاله عكرمة.

وأما من شددها فلهم فيها قولان:

=

=

أحدهما: أنه رجلًا كان يلُتُّ السَّوِيقَ للحاجّ، فلمّا مات عكفوا على قبره فعبدوه، قاله ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عباس:" {اللاتَ وَالْعُزَّى} قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق، سويق الحاج".

قال مجاهد:" اللات: كان يلتّ السويق للحاجِّ".

قال مجاهد:" كان يَلُتّ السويق للحاجِّ، فعكف على قبره".

قال مجاهد:" كان يَلُتّ السويق فمات، فعكفوا على قبره".

قال مجاهد:" رجل يلتّ للمشركين السويق، فمات فعكفوا على قبره".

عن أبي صالح، في قوله: {اللاتَّ}، قال: اللاتّ: الذي كان يقوم على آلهتهم، يَلُتّ لهم السويق، وكان بالطائف".

قال الزجاج:" من قرأ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَّ وَالْعُزَّى}، بتشديد التاء فزعموا أن رَجُلًا كان يَلِتُّ السَّويق وَيَبيعُة عند ذلك الصنم فسمي الصنمُ اللَّاتّ- بتشديد التاء- والأكثر " اللَّاتَ " بتخفيف التاء".

الثاني: أنه كان رجلًا يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق بالطائف. قاله السدي.

وقيل:" إنه عامر بن ظرب العدواني ثم اتخذوا قبره وثنًا معبودًا".

قال ابن إسحاق: "وقال شداد بن عارض الجشمي في مسير رسول الله ﷺ إلى الطائف :

لَا تَنْصُرُوا اللّاتَ إِنّ اللهَ مُهْلِكُهَا... وَكَيْفَ يُنْصَرُ مَنْ هُوَ لَيْسَ يَنْتَصِرُ
إِنَّ الَّتِي حُرِّقَتْ بِالسُّدِّ فَاشْتَعَلَتْ... وَلَمْ يُقَاتَلْ لَدَى أَحْجَارِهَا هَدَرُ
إِنَّ الرَّسُولَ مَتَى يَنْزِلْ بِلَادَكُمْ... يَظْعَنْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا بَشَرُ".

قال الزجاج:" وكان الكسائي يقف عليها بالهاء، يقول: «اللاه»، وهذا قياس، والأجود في هذا اتباع المصحف والوقف عليها بالتاء".

=

=

وأما «الْعُزَّى»، ففيه أقوال:

أحدها: أنه صنم كانوا يعبدونه، قاله الضحاك، وحكاه الماوردي عن الجمهور.

قال قتادة:" كانت العزى لقريش".

قال ابن زيد: العزّى: بيت بالطائف تعبده ثقيف".

عن سعيد بن جُبَير، قال:" {الْعُزَّى}، حَجَرا أبيض".

قال قتادة:" أما مناةُ فكانت بقُدَيد، آلهة كانوا يعبدونها، يعني اللات والعُزَّى ومَناة".

الثاني: أنها شجرة لغطفان كانوا يعبدونها، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{وَالْعُزَّى}، قال: العُزَّى: شُجيرات".

حكي الماوردي:" أنها شجرة كان يعلق عليها ألوان العهن تعبدها سليم، وغطفان، وجشم".

قال مقاتل: "وهي سَمُرة".

وحكي الزجاج:" أن العُزَّى سَمُرة، وهي شجرة كانت لغطفانَ يعبدونها".

وقال أبو صالح: "بل كانت نخلة يعلق عليها الستور والعهن".

قال الكلبي: "هي التي بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حتى قطعها".

عن أبي الطُّفَيْلِ قال: "لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: "ارجع فإنك لم تصنع شيئًا". فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة- وهم حَجَبتها- أمعنوا في الحِيَل وهم يقولون: "يا عزى، يا عزى". فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: "تلك العزى".

=

=

قال ابن كثير:" كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «"قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» ".

وقيل: في «اللات والعزى»، قول ثالث: "أنهما كانا بيتين يعبدهما المشركون في الجاهلية، فاللات بيت كان بنخلة يعبده كفار قريش، والعزى بيت كان بالطائف يعبده أهل مكة والطائف".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أُقَامِرْك، فليتصدق".

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: "حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت! قلت هجرا! فأتيت رسول صلى الله عليه سلم، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وانفث عن شمالك ثلاثا، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد» ".

قال ابن كثير:" وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية".

وفي قوله تعالى: {وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}، أربعة أقوال:

أحدها: أنه بيت كان بالمشلَّل يعبده بنو كعب. قاله ابن زيد.

الثاني: أنها أصنام من حجارة كانت في الكعبة يعبدونها. حكاه الماوردي.

الثالث: أنه وثن كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه، وبذلك سميت: «منى»، لكثرة ما يراق بها من الدماء. حكاه الماوردي-أيضا-.

الرابع: أنه كان صنمًا بقديد بين مكة والمدينة، قاله أبو صالح.

قال قتادة:" كانت مناة للأنصار".

=

=

وحكي الزجاج:" أن «مَنَاة»، صخرة كانت لِهذَيْلٍ وخزاعة يعبدونها من دون الله".
عن ابن إسحاق، قال: "نصب عمرو بن لحي مناة على ساحل البحر مِمّا يلي قُدَيْد، يحجونها ويطوفونها، إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا مِن منى أتوا مناة، فأهلُّوا لها، فمَن أهلَّ لها لم يطف بين الصفا والمروة".
قال ابن إسحاق: "وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد".
قال ابن هشام: "فبعث رسول الله ﷺإليها أبا سفيان بن حرب فهدمها، ويقال: علي بن أبي طالب".
قال: "وكانت ذو الخَلَصة لدَوس وخَثعم وبَجِيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بِتبَالة.
قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية. فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه.
قال: وكانت فلْس لطيئ ومن يليها بجبلى طيئ، يعني: سلمى وأجأ".
قال ابن هشام: "فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليها علي بن أبي طالب فهدمها، فوجد فيها سيفين، يقال لأحدهما: الرسوب، وللآخر: المخذم. فأتى بهما رسول الله ﷺفوهبهما له، فهما سيفا علي رضي الله عنه".
قال ابن إسحاق: "وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت".
قال ابن إسحاق: "وكانت «رُضَاء» بيتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام:
ولقد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدّةً... فَتَرَكْتُها قَفْرًا بِقَاعِ أسحَمَا".

=

=

قال ابن هشام: "ويقال: إن المستوغر عمر ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة، وكان أطول مضر كلها عمرا، وهو الذي يقول:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحيَاةِ وَطُولِهَا... وَعُمّرْتُ منْ عَدَد السّنِينَ مِئِينَا

مائَةً حَدّتها بَعْدَها مائَتَان لي... وازددت مِنْ عَدَد الشّهور سِنِينَا

هَلْ مَا بَقِي إلا كَمَا قَدْ فَاتَنَا... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلةٌ تَحْدُونَا".

قال ابن إسحاق: "وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابني وائل، وإياد بِسَنْداد، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير وَبَارِقٍ... والبيت ذو الكَعَبَات من سَنْدَاد".

وإنما قال: "{مناة الثالثة الأخرى}، لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللات والعزى".

قال السعدي في الآية:" لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا "اللات" من "الإله" المستحق للعبادة، و"العزى" من "العزيز" و "مناة" من "المنان" إلحادا في أسماء الله وتجريا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها".

قال مقاتل:" وإنما سميت: «اللات والعزى»، لأنهم أرادوا أن يسموا «الله»، فمنعهم الله فصارت: اللات، وأرادوا أن يسموا «العزيز»، فمنعهم فصارت:

=

=

العزى".

قال أبو سليمان الخطابي: "كان المشركون يتعاطَون «الله» اسمًا لبعض أصنامهم، فصرفه الله إلى: «اللاّت»، صيانةً لهذا الاسم وذَبًّا عنه".

قوله تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى}، أي:" أتجعلون لكم الذَّكر الذي ترضونه، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم؟ ".

قال الطبري:" يقول: أتزعمون أن لكم الذكر الذي ترضونه، ولله الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم".

قال ابن كثير: "أي: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور".

قال السعدي:" أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟ ".

قوله تعالى: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم: ٢٢]، أي:" تلك إذًا قسمة جائرة".

قال الطبري: يقول: قسمتكم هذه قسمة جائرة غير مستوية، ناقصة غير تامة، لأنكم جعلتم لربكم من الولد ما تكرهون لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه، والعرب تقول: ضزته حقه بكسر الضاد، وضزته بضمها فأنا أضيزه وأضوزه، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته".

قال ابن كثير: أي:"فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت {قِسْمَةٌ ضِيزَى}، أي: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها".

وفي قوله تعالى: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم: ٢٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: قسمة عوجاء، قاله مجاهد.

الثاني: تلك إذا قسمة جائرة لا حقّ فيها، قاله ابن عباس، وقتادة. وبه قال الفراء، وابن قتيبة.

=

=

قال ابن قتيبة:" يقال: ضِرت في الحكم؛ أي: جُرْت".

وقال أبو عبيدة: ناقصة، ضرته حقه، وضزته حقه تضيزه وتضوزه، تنقصه وتمنعه".

الثالث: قسمة منقوصة، قاله مجاهد-أيضا-، وسفيان، وحكاه الماوردي عن أكثر أهل اللغة، قال الشاعر :

فإنْ تَنْأَ عَنَّا نَنْتَقِصْكَ وَإِنْ تَغِبْ... فَسَهْمُكَ مَضْئُوزٌ وأنْفُك رَاغِم

ومعنى مضئوز، أي: منقوص.

الرابع: قسمة مخالفة، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:" جعلوا لله تبارك وتعالى بنات، وجعلوا الملائكة لله بنات، وعبدوهم، وقرأ: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ}... الآية، وقرأ: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ}... إلى آخر الآية، وقال: دعوا لله ولدا، كما دعت اليهود والنصارى، وقرأ: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، قال: و «الضيزى» في كلام العرب: المخالفة، وقرأ: {إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} ".

قال الزجاج:" الضِّيزى -في كلام العرب-: الناقصةُ الجائرة".

قال مقاتل:" يعنى: جائزة عوجاء أن يكون لهم الذكر وله الأنثى".

قال السعدي:" وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ تعالى عن قولهم علوا كبيرا".

قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [النجم: ٢٣]، أي:" ما هذه الأوثان إلا أسماء ليس لها من أوصاف الكمال شيء، إنما هي أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم بمقتضى أهوائكم الباطلة".

قال ابن كثير: أي: من تلقاء أنفسكم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ما هذه الأسماء التي سميتموها وهي اللات

=

=

والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم أيها المشركون بالله، وآباؤكم من قبلكم".

قوله تعالى: {مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: ٢٣]، أي:" ما أنزل الله بها مِن حجة تصدق دعواكم فيها".

قال ابن كثير: "أي: من حجة".

قال النحاس:" أي: من حجّة ولا وحي، وإنما هو شيء اخترفتموه".

قال السعدي:" أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينا".

قال الطبري: "يقول: لم يبح الله ذلك لكم، ولا أذن لكم به".

قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم: ٢٣]، أي:" ما يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، وهوى أنفسهم المنحرفة عن الفطرة السليمة".

قال النحاس:" أي: ما يتّبعون في هذه التسمية إلّا الظنّ وهواهم".

قال ابن كثير: "أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين".

قال الطبري: يقول: "ما يتبع هؤلاء المشركون في هذه الأسماء التي سموا بها آلهتهم إلا الظنّ بأنّ ما يقولون حقّ لا اليقين وهوى أنفسهم، لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله، ولا عن رسول الله أخبرهم به، وإنما اختراق من قِبل أنفسهم، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه".

قال السعدي:" وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم

=

=

الظن، من فقد العلم والهدى".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: ٢٣]، أي:" ولقد جاءهم من ربهم على لسان النبي ﷺ، ما فيه هدايتهم، فما انتفعوا به".

قال النحاس:" أي: البيان بأن لا معبود سواه وأن عبادة هذه الأشياء شرك وكفر".

قال ابن كثير: "أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له".

قال الطبري: "يقول: ولقد جاء هؤلاء المشركين بالله من ربهم البيان مما هم منه على غير يقين، وذلك تسميتهم اللات والعزّى ومناة الثالثة بهذه الأسماء وعبادتهم إياها. يقول: لقد جاءهم من ربهم الهدى في ذلك، والبيان بالوحي الذي أوحيناه إلى محمد ﷺ أن عبادتها لا تنبغي، وأنه لا تصلح العبادة إلا لله الواحد القهار".

عن ابن زيد، في قوله: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}، قال: "فما انتفعوا به".

قال مقاتل:" يعني: القرآن".

قال السعدي:" أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم".

قال العثيميتن: ولما بين الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي ﷺ من آيات ربه العظيمة في الآفاق، قال{أفرءيتم اللات والعزى} وهذا الاستفهام للتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله ﷻ يعني أخبروني بعد أن سمعتم من آيات الله الكبرى ما سمعتم، أخبروني عن شأن هذه الأصنام وما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزتها

=

=

{أفرءيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى} هذه ثلاثة أصنام مشهورة عند العرب يعبدونها من دون الله، ويخضعون لها كما يخضعون لله، ويتقربون إليها كما يتقربون لله ﷻ، ومع ذلك هم يعتقدون أنها لا تنفعهم عند الشدة، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وعلموا أنه لا منجي من هذه الشدة إلا رب العالمين، لكن الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم في عبادة هذه الأصنام التي يدعون أنها تقربهم من الله تعالى، كما قال الله عنهم {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} ولكن في الحقيقة لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم منه، {أفرءيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى} الثالثة بالنسبة لاثنتين قبلها {الأُخرى} يعني المتأخرة وكأنها- والله أعلم- دون اللات والعزى في المرتبة عند العرب، ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين {ألكم الذكر وله الأُنثى} يعني أتجعلون لكم الذكور، ولله الإناث، وذلك بقولهم إن الملائكة بنات الله، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يطلعوا على ذلك، كما قال الله تعالى: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا أشهدوا خلقهم} والجواب: لا، لم يشهدوا خلقهم، ولكن مع ذلك ستكتب هذه الشهادة عليهم ويسألون، نسأل الله العافية، وهم {وإذا بشر أحدهم بالأُنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به}، ومع ذلك يجعلون لرب العالمين الذي خلق الذكر والأنثى البنات، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهذه القسمة قسمة جور، {تلك إذًا قسمة ضيزى}، يعني تلك القسمة، وهي أن يجعل لله البنات ولهم البنين {قسمة ضيزى} أي: جائرة مائلة عن الحق، لأننا لو قلنا بأنه جائز أن يكون لله ولد لكان الأولى أن يكون له البنون، لأن البنين أعلى من البنات بلا شك، وهو سبحانه وتعالى أعلى من المخلوقين، فيجب أن يكون الأعلى للأعلى، والأدنى للأدنى، هذه القسمة العادلة، ثم هناك قسمة أخرى دونها في العدل، ولكن فيها عدل أن يجعلوا لله البنات ولهم بنات،

=

=

ولله البنين، ولهم بنين لكن ما فعلوا هذا، جعلوا الأدنى للخالق، والأعلى لهم، ولهذا قال ﷻ: {تلك إذًا قسمة ضيزى} ثم عاد الله ﷻ إلى بيان حقيقة هذه الأصنام المعبودة، فقال: {إن هي إلا أسماء سميتموهآ} {إن} هنا نافية بمعنى ما، وهذا ضابط ينتفع به طالب العلم أنه إذا أتت (إلا) مثبتة بعد (أن) فإن (إن) هنا تكون نافية مثل: إن هذا إلا بشر، إن هذا إلا مجتهد، وما أشبه ذلك فـ (إن) هنا نافية بمعنى، ما هي إلا أسماء سميتموها، يعني ما هذه الأصنام إلا مجردأسماء لا حقيقة لها، سموها إلهًا معبودًا، ولكنه لا حقيقة لذلك، ما هي إلا مجرد أسماء، والاسم لا يدل على مسماه، فلو أنك سميت الحديد خشبًا، ما صار خشبًا، ولو سميت الخشب حديدًا، ما صار حديدًا، ولو سميت البغل حمارًا، لم يكن حمارًا، وهكذا هذه الأصنام يسمونها آلهة، ولا تكون إلهًا، بل مجرد اسم، والاسم بلا مسمى لا فائدة منه، ولهذا قال {إن هي}، أي: ما هذه الأصنام والمسميات {إلا أسماء سميتموهآ أنتم وءابآؤكم مآ أنزل الله بها من سلطان}، المخاطبون هم الذين أدركوا البعثة.

وآباؤكم يعني الأجداد السابقين مجرد أسماء {مآ أنزل الله بها من سلطان} (ما) نافية، والمعنى أن الله ﷻ لم ينزل بها دليلًا، وسمي الدليل سلطانًا لأن صاحب الدليل معه سلطة يعلو بها على خصمه، ومن ليس له دليل ليس له سلطان، فالسلطان يأتي دائمًا بمعنى الحجة أي الدليل، لأن من معه الدليل ذو سلطة على خصمه {إن يتبعون إلا الظن}. (إن) نافية بمعنى (ما) {يتبعون} أي: هؤلاء وآباؤهم {إلا الظن}، أي: الوهم الذي لا حقيقة له، لأنهم يقولون هذه آلهة، واعتمدوا في ذلك على الوهم، فالظن هنا بمعنى الوهم، يعني ما يتبع هؤلاء بقولهم إنها آلهة إلا الظن، أي الوهم الخيال الذي لا حقيقة له، {وما تهوى الأنفس}، يعني وما تميل إليه نفوسهم من الباطل، ثم قال ﷻ: {ولقد جاءهم من

=

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤).

{أَمْ لِلْإِنْسَانِ} أَيْ لِكُلِّ إنْسَان مِنْهُمْ {مَا تَمَنَّى} مِنْ أَنَّ الْأَصْنَام تَشْفَع لَهُمْ لَيْسَ الأمر كذلك.

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥).

{فَلِلَّهِ الْآخِرَة وَالْأُولَى} أَيْ الدُّنْيَا فَلَا يَقَع فيها إلَّا مَا يُرِيدهُ تَعَالَى.

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦).

{وَكَمْ مِنْ مَلَك} أَيْ وَكَثِير مِنْ الْمَلَائِكَة {فِي السماوات} وَمَا أَكْرَمهمْ عِنْد الله {لَا تُغْنِي شَفَاعَتهمْ شَيْئًا إلَّا مِنْ بَعْد أَنْ يَأْذَن الله} لَهُمْ فِيهَا {لِمَنْ يَشَاء} مِنْ عِبَاده {وَيَرْضَى} عَنْهُ لِقَوْلِهِ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَمَعْلُوم أَنَّهَا لَا تُوجَد مِنْهُمْ إلَّا بَعْد الْإِذْن فِيهَا مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَع عِنْده إلا بإذنه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧).

=

ربهم الهدى} الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وتقديره: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، فيؤكد الله هنا أنه قد جاءهم من ربهم الهدى، وفي قوله: {من ربهم} ولم يقل: من الله.

إشارة إلى أنه لا يجوز تلقي الشريعة إلا من عند الله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرب، والرب هو الخالق المالك المدبر {الهدى}، فاعل والمراد به العلم المقابل بقوله {إن يتبعون إلا الظن} فهم يتبعون الظن، والعلم جاء من عند الله، {ولقد جاءهم من ربهم الهدى} أي: العلم على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين خُتموا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى} حَيْثُ قَالُوا هُمْ بَنَات الله.

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨).

{وَمَا لَهُمْ بِهِ} بِهَذَا الْقَوْل {مِنْ عِلْم إِنْ} مَا {يَتَّبِعُونَ} فِيهِ {إِلَّا الظَّنّ} الَّذِي تَخَيَّلُوهُ {وَإِنَّ الظَّنّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقّ شَيْئًا} أَيْ عَنْ الْعِلْم فِيمَا الْمَطْلُوب فِيهِ العلم(١).

---

(١) قوله تعالى: {أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى}، أي:" ليس للإنسان ما تمناه من شفاعة هذه المعبودات أو غيرها مما تهواه نفسه".

قال الطبري: يقول:" أم اشتهى محمد ﷺ ما أعطاه الله من هذه الكرامة التي كرّمه بها من النبوّة والرسالة، وأنزل الوحي عليه، وتمنى ذلك، فأعطاه إياه ربه".

عن ابن زيد، قوله: "{أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى}، قال: وإن كان محمد تمنى هذا، فذلك له".

قال ابن كثير: أي: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئا يحصل له".

قال السعدي:" أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته".

قال الفراء: {أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى}، أي:" ما اشتهى".

قال النحاس:" قيل: أي: ليس له ذلك".

=

=

قال الماتريدي:" كأنه قال: ليس للإنسان ما تمنى".

قال مقاتل:" بأن الملائكة تشفع لهم.

قوله تعالى: {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}، أي:" فلله أمر الدنيا والآخرة".

قال الفراء: أي:" ثوابهما".

قال الطبري: يقول:" فلله ما في الدار الآخرة والأولى، وهي الدنيا، يعطي من شاء من خلقه ما شاء، ويحرم من شاء منهم ما شاء".

قال النحاس:" يعطي من شاء ما يشاء".

قال السعدي:" فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيهم، ولا موافقا لأهوائهم".

وقال ابن زيد: "يعني إن كان محمد- ﷺ- تمنى شيئا فأعطاه الله إياه فلا تنكروا ذلك فلله الآخرة والأولى يملكها فيعطي من يشاء ويحرم من يشاء".

قوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا}، أي:" وكثير من الملائكة في السموات مع علوِّ منزلتهم، لا تنفع شفاعتهم شيئًا".

قال الطبري: يقول:" وكم من ملك في السموات لا تغني: كثير من ملائكة الله، لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له شيئا".

قال السعدي:" يقول تعالى منكرا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ} من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، {لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها".

قال الزجاج:" معنى شفاعتهم -ههنا- يفسرها قوله ﷻ: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا

=

=

وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: ٧- ٩] ".

قال ابن أبي زمنين:" لا تنفع شفاعتهم المشركين شيئا، إنما يشفعون للمؤمنين".

عن ابن جريج في قوله:" {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا}، قال: لقولهم: إن الغرانقة ليشفعون".

روى عن كعب الأحبار أنه قال: «ما من موضع شبر في السماء إلا وفيه ملك قائم أو ساجد» ". قال السمعاني:" وقد روى مثل هذا في الأرض أيضا عن غيره. و «كم» -في اللغة-: للتكثير".

قوله تعالى: {إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦]، أي:" إلا من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة، ويرضى عن المشفوع له".

قال الطبري: يقول:" إلا أن يشفعوا له من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة لمن يشاء منهم أن يشفعوا له، ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له، فتنفعه حينئذ شفاعتهم، وإنما هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملأ من قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، فقال الله جلّ ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم".

قال أبو الليث:" ثم استثنى فقال: {إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}، يعني: من كان معه التوحيد، فيشفع له بإذن الله تعالى".

قال ابن عباس: "يريد لا تشفع الملائكة، إلا لمن رضي الله عنه".

قال محمد بن كعب:" أي: فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده؟! ".

=

=

قال القشيري:" وهذا ردّ عليهم حيث قالوا: إنّ الملائكة شفعاؤنا عند الله".

قال القرطبي:" هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له".

قال الزمخشري في الآية:" يعنى: أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السماوات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن بأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم".

قال السعدي:" {إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله،

موافقا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى}، أي:" إن الذين لا يصدِّقون بالحياة الآخرة من كفار العرب ولا يعملون لها ليسمُّون الملائكة تسمية الإناث؛ لاعتقادهم جهلا أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله".

قال الطبري: يقول:" إن الذين لا يصدّقون بالبعث في الدار الآخرة، وذلك يوم القيامة ليسمون ملائكة الله تسمية الإناث، وذلك أنهم كانوا يقولون: هم بنات الله".

قال الشوكاني:" أي: إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة، وهم الكفار، يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء، وهي أنهم يسمون

=

=

الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله، فجعلوهم إناثا، وسموهم بنات".

قال مقاتل:" حين زعموا أن الملائكة إناث وأنها تشفع لهم".

عن مجاهد، قوله: "{تَسْمِيَةَ الأُنْثَى}، قال: الإناث".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} [النجم: ٢٨]، أي:" وما لهم بذلك من علم صحيح يصدِّق ما قالوه".

قال الطبري: يقول:" وما لهم يقولون من تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى من حقيقة علم".

قال القشيري:" هذه التّسمية من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علما أو تحقيقا.. بل ظنّا- والظنّ لا يفيد شيئا".

قال ابن كثير:" أي: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع".

قال الشوكاني:" جملة في محل نصب على الحال، أي: يسمونهم هذه التسمية والحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، ولا شاهدوهم، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلا وضلالة وجرأة".

قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}، أي:" أنما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام".

قال ابن عباس: "يريد ظنًا ليس بيقين".

قال الطبري: "يقول: ما يتبعون في ذلك إلا الظنّ، يعني: أنهم إنما يقولون ذلك ظنا بغير علم".

قال الشوكاني:" أي: ما يتبعون في هذه المقالة إلا مجرد الظن والتوهم".

=

=

قال مقاتل:" يقول ما يتبعون إلا الظن وما يستيقنون أنها إناث".

قوله تعالى: {وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، أي:" وإن الظنَّ لا يجدي شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق".

قال الطبري: "يقول: وإن الظنّ لا ينفع من الحق شيئا فيقوم مقامه".

قال النحاس:" أي: لا ينفع من الحقّ ولا يقوم مقامه".

قال السمعاني:" أي: لا ينوب على الحق أبدا".

قال ابن كثير:" أي: لا يجدي شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» ".

قال الشوكاني:" ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه فقال: {وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، أي: إن جنس الظن لا يغني من الحق شيئا من الإغناء، والحق هنا العلم. وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم قيام العلم، وأن الظان غير عالم. وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم وهي المسائل العلمية، لا فيما يكتفى فيه بالظن، وهي الحقائق العملية".

عن عطاء: {وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، قال: "يريد: لا ينتفعون به".

وقال الكلبي: "أي: لا يدفع من عذاب الله شيئًا".

عن عمر بن الخطاب، قال: "احذروا هذا الرأيَ على الدين، فإنّما كان الرأي مِن رسول الله- ﷺ- مصيبًا؛ لأنّ الله كان يريه، وإنما هو مِنّا تكلُّفٌ وظنٌّ، {وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا} ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أم للإنسان ما تمنى} (أم) هنا منقطعة؛ لأنها تأتي منقطعة وتأتي متصلة، فإذا كان هناك مقابل فهي متصلة، وإذا لم يكن مقابل فهي منقطعة، فإذا قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ فهي متصلة، وإذا قلت في مثل هذه الآية {أم للإنسان ما تمنى} فهي بمعنى بل، وهمزة استفهام، يعني بل أللإنسان ما

=

=

تمنى، والاستفهام هنا للإنكار والنفي، أي ليس للإنسان ما تمنى، كم يتمنى الإنسان من شيء ولكن لا يحصل، لأن هناك مدبرًا، وهو الله ﷻ فليس للإنسان ما تمنى، وفي هذا إشارة إلى رد صنيع هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويقولون: إنها تقربهم إلى الله، وليس لهم ذلك، وأيضًا رد لقولهم: إن لله البنات ولهم البنين، وليس لهم ذلك، وهم وإن تمنوا ذلك وصار في مخيلتهم فإنه لا يحصل، وليس للإنسان ما تمنى، كثيرًا ما يتمنى الإنسان شيئًا ولكن لا يحصل، كثيرًا ما يتمنى الشيء ويسعى في أسبابه ولكن لا يحصل، لأن الأمر بيد الله- جل وعلا- ولهذا قال: {فلله الآخرة والأُولى} وبدأ بالآخرة، لأن ملك الله ﷻ في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا، فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيرًا، لكن في الآخرة لا يوجد هذا {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار} قال الله ﷻ {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن
الله لمن يشاء ويرضى} كم تكثيرية لأنها تأتي تكثيرية، وتأتي استفهامية، فإذا قلت: كم مالك؟ فهي استفهامية، وهنا {وكم من ملك في السماوات} يعني كثير من الملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم وهنا نقول: كم من ملك وما أكرم الملائكة، كما قال الله تعالى: {بل عباد مكرمون} {في السماوات} لا في الأرض، والسماوات أعلى من الأرض وإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام الذين مقرهم السماوات- إلا من أذن له ينزل الأرض- إذا كانت شفاعتهم لا تنفع، فهل يمكن أن تنفع شفاعة اللات والعزى ومناة؟ الجواب: لا، كأن الله تعالى يقول لهؤلاء: ما أصنامكم هذه التي تشفعون بها إلى الله، كم من ملك وهو أشرف من هذه الأصنام في السماوات وهي أشرف من الأرض، لا تغني شفاعتهم شيئًا لو شفع إلا بثلاثة شروط: الأول: أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بأن يشفع فيشفع، الثاني: أن

=

=

يرضى عن المشفوع له، الثالث: يرضى عن الشافع لأنه لا يمكن أن يأذن للشافع إلا بعد أن يرضى عنه، ولابد أن يرضى عن المشفوع له وإلا فلا تنفع الشفاعة، كما قال ﷻ: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} فأصنامكم هذه لن تنفع ولن يقبل الله شفاعتها، فشروط الشفاعة ثلاثة: الأول: رضى الله عن الشافع بأن يكون أهلًا للشفاعة لكونه من المقربين لله ﷻ والثاني: أن يرضى عن المشفوع له، بأن يكون أهلًا لأن يشفع له، أما الكافر فما تنفعهم شفاعة الشافعين. الثالث: الإذن لقوله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وقوله تعالى: {وكم من ملك في السماوات لا تغنى شفعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} وهذا فيه تيئيس هؤلاء المشركين من شفاعة آلهتهم.

{إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأُنثى} أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما القسم المقدر واللام: ومعنى {لا يؤمنون بالآخرة} أي: لا يصدقون بها ولا بما فيها من الثواب والعقاب، إذ إن الإيمان بالآخرة لابد أن يكون إيمانًا بأن هذا اليوم سيكون، وإيمانًا بكل ما ثبت من حصوله ووقعه فيه، إما في القرآن وإما في السنة، حتى إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن مما يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وانتهى من الدنيا كأن لم يكن، فكما أنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فسيأتي عليه حين من الدهر لم يكن إلا خبرًا من الأخبار، كما قال الشاعر الحكيم:

في الدنيا بين يرى الإنسان فيه مخبرًا

حتى يرى خبرًا من الأخبار

فأنت الآن تخبر تقول: حصل كذا وحصل كذا، وقال فلان كذا وفي يوم من الأيام. سوف يخبر عنك، قال فلان كذا وأنت رميم، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة

=

=

أمور: الأول: الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن. الثاني: الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من: أهوال، وحساب، وموازين، وصراط، وجنة، ونار لابد من هذا، الثالث: الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ {إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة} هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟ نعم كثير من الناس، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في الإنسان: {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلًا} يعجزنا فيه {ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم} ما أحسن قوله: {ونسي خلقه} قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان، يعني هذا الإنسان قال: {من يحي العظام وهي رميم} {ونسي خلقه}، ما هو خلقه؟ إنه لم يكن شيئًا، خلق من ماء دافق، فصار عظامًا وعصبًا ولحمًا، وصار إنسانًا ينطق ويخاصم {من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} وذكر الأدلة على إمكان ذلك، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر، ويقول: لا بعث.

وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلى بالأمر والنهي، ويحصل الجهاد وقتال الأعداء، واستحلال دمائهم وأموالهم، ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء، هذا لا يمكن، وتأباه الحكمة، إذًا الذين لا يؤمنون بالآخرة، سفهاء عقولًا، ضلال دينًا {ليسمون الملائكة تسمية الأُنثى} يعني يجعلون الملائكة إناثًا كالمشركين، قالوا: الملائكة بنات الله، فسموا الملائكة تسمية الأنثى، وهي البنت، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالعقاب ما قالوا هذا، لكنهم لا يؤمنون، فيقولون ما يريدون، قال الله تعالى: {وما لهم به من علم} نفى أن يكون لهم بذلك علم، لأن هذا هو الواقع: هل شهدوا خلق الملائكة؟ ولهذا قال الله في آية أخرى: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن

=

إناثًا أشهدوا خلقهم} والجواب: لا، لكن {ستكتب شهادتهم ويسئلون} حين لا يجدون جوابًا فهؤلاء الذين قالوا: الملائكة بنات الله، يقول الله ﷻ: {ما لهم به من علم} وعلم هنا مجرورة بحرف الجر وحرف الجر، هنا عند المعربين، حرف جر زائد، الفائدة منه توكيد النفي، ولهذا هنا قاعدة مفيدة: جميع الحروف الزائدة يقصد بها التوكيد، وهي من أدوات التوكيد.

{وما لهم به من علم} يعني لا قليل ولا كثير، لأنهم لم يشهدوا خلقهم {إن يتبعون إلا الظن}، {إن} هنا بمعنى ما، والضابط أنه إذا جاءت {إلا} بعد {إن} فهي بمعنى ما، {إن هذا إلا بشر} أي: ما هذا إلا بشر {إن هذا إلا ملك كريم} أي: ما هذا إلا ملك كريم {إن أنتم إلا بشر مثلنا} أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا: {وإن هم إلا يظنون} أي ما هم إلا يظنون، والأمثلة على هذا كثيرة {إن يتبعون إلا الظن} يعني ما يتبعون إلا الظن، والمراد بالظن هنا الوهم الكاذب، وليس المراد بالظن هنا الراجح من أحد الاحتمالين، وانتبه لهذا فالظن يأتي بمعنى التهمة، ويأتي بمعنى رجحان الشيء، ويأتي بمعنى اليقين. قال الله تعالى: {الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم} والمراد: اليقين ولا يكفي الظن في اليوم الآخر، بل لابد تيقن، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب» والتحري هنا يعني هو الظن الغالب.

{وإن هم إلا يظنون} ظن الاتهام يعني يظنون ظنًّا، هو وهم، ليس له أصل، وبعض العلماء أخذ من هذه الآية أنه لا يجوز العمل بالظن في المسائل الفقهية وغيرها، وهذا خطأ، لأن كثيرًا من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة: ليس كل مسألة في الفقه يقول بها الإنسان على سبيل اليقين أبدًا، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكرًا، لكن الظن الذي ليس

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩).

{فأعرض عن من تَوَلَّى عَنْ ذِكْرنَا} أَيْ الْقُرْآن {وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاة الدُّنْيَا} وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْجِهَادِ.

ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠).

{ذَلِكَ} أَيْ طَلَب الدُّنْيَا {مَبْلَغهمْ مِنَ الْعِلْم} أَيْ نِهَايَة عِلْمهمْ أَنْ آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَة {إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله وَهُوَ أَعْلَم بِمَنِ اهْتَدَى} عَالِم بهما فيجازيهما.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١).

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} هُوَ مَالِك لِذَلِكَ وَمِنْهُ الضَّالّ وَالْمُهْتَدِي يُضِلّ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤوا بِمَا عَمِلُوا} مِنْ الشِّرْك وَغَيْره {وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا} بِالتَّوْحِيدِ وَغَيْره مِنْ الطَّاعَات {بِالْحُسْنَى} الْجَنَّة وَبَيَّنَ الْمُحْسِنِينَ بِقَوْلِهِ.

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ

=

له أصل يبنى عليه منكر. فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنيًا على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم {وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا} أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئًا، أي لا يفيد شيئًا من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد.

أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢).

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِر الْإِثْم وَالْفَوَاحِش إِلَّا اللَّمَم} هُوَ صِغَار الذُّنُوب كَالنَّظْرَةِ وَالْقُبْلَة وَاللَّمْسَة فَهُوَ اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع وَالْمَعْنَى لَكِنَّ اللَّمَم يُغْفَر بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِر {إِنَّ رَبّك وَاسِع الْمَغْفِرَة} بِذَلِكَ وَبِقَبُولِ التَّوْبَة وَنَزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَقُول صَلَاتنَا صِيَامنَا حَجّنَا {هُوَ أَعْلَم} أَيْ عَالِم {بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْض} أَيْ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَم مِنْ التُّرَاب {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّة} جَمْع جَنِين {فِي بطون أمهاتكم فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسكُمْ} لَا تَمْدَحُوهَا عَلَى سَبِيل الْإِعْجَاب أَمَّا عَلَى سَبِيل الِاعْتِرَاف بِالنِّعْمَةِ فَحَسَن {هو أعلم} أي عالم {بمن اتقى}[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ثابت بن الحارث الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صدّيق، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فقال: "كذبت يهود؛ ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد"؛ فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٨١، ٨٢ رقم ١٣٦٨) -وعنه أبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ٢٤٣، ٢٤٤ رقم ١٣٣٤)- من طريق ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن ثابت به. وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات، وأما ما يخشى من ضعف ابن لهيعة؛ فإن الراوي عنه عند الواحدي هو عبد الله بن وهب وهو من قدماء أصحابه؛ فتنبه.

والحديث ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠١)، و"الدر المنثور" (٧/ =

=
٦٥٧) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
* قوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا}، أي:" فأعْرِضْ عمَّن تولى عن ذكرنا، وهو القرآن".
قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فدع من أدبر يا محمد عن ذكر الله ولم يؤمن به فيوحده".
قال النحاس:" أي: فدع من تولّى عن ذكرنا ولم يؤمن ولم يوحّد".
قال ابن كثير:" أي: أعرِضْ عن الذي أعرَضَ عن الحق واهجره".
قال الشوكاني:" أي: أعرض عمن أعرض عن ذكرنا، والمراد بالذكر هنا القرآن، أو ذكر الآخرة، أو ذكر الله على العموم، وقيل: المراد بالذكر هنا الإيمان، والمعنى: اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف".
قال السمعاني:" يقال: إن هذه الآية نزلت قبل نزول آية السيف، ثم نسختها آية السيف".
عن ابن عباس:: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا}، "يريد القرآن".
عن السدي:" {وأنزلنا إليك الذّكر}، قال: هو القرآن".
عن السديّ، في قوله: "{قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولا}، قال: الذكر: القرآن، والرسول: محمد ﷺ".
قوله تعالى: {وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، أي:" وليس له همٌ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية".
قال الطبري: يقول:" ولم يطلب ما عند الله في الدار الآخرة، ولكنه طلب زينة الحياة الدنيا، والتمس البقاء فيها".
قال النحاس:" ولم يرد إلا زينة الحياة الدنيا".
=

=

قال ابن كثير:" أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه".

قال الشوكاني:" أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها، بل قصر نظره عليها فإنه غير متأهل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه".

عن الأعمش: "{متاع الحياة الدنيا}، قال: مثل زاد الراعي".

عن قتادة: "{متاع الحياة الدنيا}، قال: هي متاع متروكة أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله".

عن هشام بن حسان، قال: سمعت الحسن يقول: "متاع الدنيا قليل، قال: رحم الله عبدا صاحبها على ذلك".

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [النجم: ٣٠]، أي:" ذلك الذي هم عليه هو منتهى علمهم وغايتهم".

قال الفراء: أي:" ذلك قدر عقولهم، ومبلغ علمهم حين آثروا الدنيا على الآخرة".

قال الطبري: "هذا الذي يقوله هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة في الملائكة من تسميتهم إياها تسمية الأنثى، ليس لهم علم إلا هذا الكفر بالله، والشرك به على وجه الظنّ بغير يقين علم".

قال ابن كثير:" أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه".

قال مقاتل:" يعني: من مبلغ رأيهم من العلم أن الملائكة إناث وأنها تشفع لهم".

عن مجاهد: {ذلك مبلغهم من العلم} [النجم: ٣٠]، يعني: «مبلغ رأيهم».

قال ابن زيد:" يقول ليس لهم علم إلا الذي هم فيه من الكفر برسول الله، ومكايدتهم لما جاء من عند الله، قال: وهؤلاء أهل الشرك".

قال الزجاج:" إنّما يعلمون ما يحتاجون إليه في مَعَاشِهِم، فقد نبذوا أمر الآخرة

=

=

وراء ظهورهم".

قال السمعاني:" أي: لا يعلمون إلا أمر المعاش في الحياة الدنيا".

قال الشوكاني:" ثم صغر سبحانه شأنهم، وحقر أمرهم فقال: {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، أي: إن ذلك التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم، ليس لهم غيره، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين".

عن الحسن البصري قال: "رب رجل ينقر درهما بظفره فيذكرونه ولا يخطئ فيه، وهو لا يحسن يصلي".

عن أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: قال رسول الله ﷺ: "الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له".

وفي الدعاء المأثور: "ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [النجم: ٣٠]، أي:" إن ربك هو أعلم بمن حادَ عن طريق الهدى، وهو أعلم بمن اهتدى وسلك طريق الإسلام".

قال الطبري: يقول:" إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن طريقه في سابق علمه، فلا يؤمن، وذلك الطريق هو الإسلام، وربك أعلم بمن أصاب طريقه فسلكه في سياق علمه، وذلك الطريق أيضا الإسلام".

قال السمعاني:" أي: يعلم المهتدي والضال، والمؤمن والكافر، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم".

قال ابن كثير:" أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبدًا، لا في شرعه ولا في قَدَره ".

قال الشوكاني:" فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض، والمعنى: أنه سبحانه أعلم بمن

=

=

حاد عن الحق، وأعرض عنه، ولم يهتد إليه، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصر على الضلالة وسبقت له الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد".

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)} [النجم: ٣١- ٣٢]

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النجم: ٣١]، أي:" ولله سبحانه وتعالى ملك ما في السموات وما في الأرض".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {وَلِلَّهِ} مُلك {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} من شيء. وهو يضلّ من يشاء، وهو أعلم بهم".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا} [النجم: ٣١]، أي:" ليجزي الذين أساءوا بعقابهم على ما عملوا من السوء".

قال الطبري:" يقول: ليجزي الذين عصوه من خلقه، فأساءوا بمعصيتهم إياه، فيثيبهم بها النار".

قال زيد بن أسلم:" الذين أساؤوا هم المشركون".

قوله تعالى: {وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: ٣١]، أي:" ويجزي

=

=

الذي أحسنوا بالجنة".

قال الطبري:" يقول: وليجزي الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياه في الدنيا بالحسنى وهي الجنة، فيثيبهم بها".

قال زيد بن أسلم:" والذين أحسنوا: المؤمنون".

عن عبد الله بن عياش، قال: "قال زيد بن أسلم في قول الله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا} : المؤمنون".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [النجم: ٣٢]، أي:" وهم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب".

قال ابن عاشور:" صفة لـ {الذين أحسنوا}، أي: الذين أحسنوا واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي فعلوا الحسنات واجتنبوا المنهيات، وذلك جامع التقوى. وهذا تنبيه على أن اجتناب ما ذكر يعد من الإحسان لأن فعل السيئات ينافي وصفهم بالذين أحسنوا فإنهم إذا أتوا بالحسنات كلها ولم يتركوا السيئات كان فعلهم السيئات غير إحسان ولو تركوا السيئات وتركوا الحسنات كان تركهم الحسنات سيئات".

وأما «كبائر الإثم»، ففيها خمسة أقوال:

أحدها: أنه الشرك بالله، قاله زيد بن أسلم، وبه قال الطبري.

قال الطبري:" يقول: الذين يبتعدون عن كبائر الإثم التي نهى الله عنها وحرمها عليهم فلا يقربونها، وذلك الشرك بالله".

الثاني: أنه ما زجر عنه بالحد، حكاه الماوردي عن بعض الفقهاء.

الثالث: ما لا يكفر إلا بالتوبة، حكاه ابن عيسى.

الرابع: ما حكاه عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود: "قال رجل: يا رسول

=

=

الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله ندا وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «ثم أن تزاني بحليلة جارك» فأنزل الله ﷻ تصديقها: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: ٦٨]، الآية".

الخامس: ما روى سعيد بن جبير: "أن رجلا قال لابن عباس: كم الكبائر؟ أسبع هي؟ قال: إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار".

عن طاووس قال: "جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أرأيت الكبائرَ السبع التي ذكرهن الله؟ ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منها إلى سبع".

قال ابن عاشور:" المراد بكبائر الإثم: الآثام الكبيرة فيما شرع الله وهي ما شدد الدين التحذير منه أو ذكر له وعيدا بالعذاب أو وصف على فاعله حدا".

وأما «الفواحش»، ففيها قولان:

أحدهما: أنها جميع المعاصي.

الثاني: أنها الزنى. قاله زيد بن أسلم.

قال الطبري:" هي الزنا وما أشبهه، مما أوجب الله فيه حدّا".

قال ابن عاشور:" عطف {الفواحش}، يقتضي أن المعطوف بها مغاير للكبائر ولكنها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي، فالفواحش أخص من الكبائر وهي أقوى إثما. و «الفواحش»: الفعلات التي يعد الذي فعلها متجاوزا الكبائر مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة".

واختلفوا في معنى «اللمم» ونوع الاستثناء في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَم} [النجم: ٣٢]، على قولين:

=

=

أحدهما: أن هذا استثناء متصل، و «اللمم»: من الكبائر والفواحش، ومعنى الآية: إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب، ويقع الوقعة ثم ينتهي، ولايعود. وهو قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس.

عن الحسن، عن أبي هُريرة، -أراه رفعه-: "{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، قال: اللَّمة من الزنى، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود؛ واللَّمة من شرب الخمر، ثم يتوب ولا يعود، قال: فتلك الإلمام".

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: "اللمم ما دون الشرك".

قال الحسن:" اللَّمة من الزنى أو السرقة، أو شرب الخمر، ثم لا يعود".

قال الحسن:" قد كان أصحاب النبيّ ﷺ يقولون: هذا الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللَّمة من شرب الخمر، فيخفيها فيتوب منها".

عن الحسن: "{إِلا اللَّمَمَ}، قال: أن يقع الوقعة ثم ينتهي".

قال معمر: "كان الحسن يقول في اللَّمم: تكون اللَّمة من الرجل: الفاحشة ثم يتوب".

عن أبي صالح، قال: "الزنى ثم يتوب".

عن عطاء، عن ابن عباس: "{إِلا اللَّمَمَ}، يلمّ بها في الحين، قلت الزنى، قال: الزنى، ثم يتوب".

عن عطاء، عن ابن عباس قال: "اللَّمم: الذي تُلِمُّ المرَّةَ".

وقال السدي: "قال أبو صالح: سئلت عن {اللَّمَمَ} فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم".

روى عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس:" {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، قال: هو الرجل يلمّ بالفاحشة ثم يتوب؛ قال: وقال رسول

=

=

الله ﷺ:

إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمَّا".

عن مجاهد، أنه قال في هذه الآية: {إِلا اللَّمَمَ}، قال: "الذي يلم بالذنب ثم يدعه، وقال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمَّا".

عن مجاهد، في قوله: "{إِلا اللَّمَمَ}، قال: الرجل يلمّ بالذنب ثم ينزع عنه. قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمَّا".

عن عبد الله بن القاسم، في قوله: "{إِلا اللَّمَمَ}، قال: اللَّمة يلم بها من الذنوب".

قال الزجاج: قوله ﷻ: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}، يدل هذا على أن «اللمم»: هوَ أن يَكونَ الإِنْسانُ قد ألم بالمعصية ولم يُصِرّ ولم يُقِمْ على ذلك، وإنما «الإِلْمَامُ» - في اللغة-: يوجب أنك تأتي الشيء الوقت ولا تقيم عليه، فهذا- والله أعلم- معنى اللْمَم في هذا الموضع".

قال البغوي:" أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له إعادة، ولا إقامة عليه".

القول الثاني: أن هذا استثناء منقطع، لأن «اللمم» ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش، والمعنى: لكن اللمم، وعلى هذا القول أن اللمم ليس من الكبائر والفواحش.

ثم اختلفوا في معناه، على أقوال:

أحدها: أنه ما سلف من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام، فلا يؤاخذهم الله به. قاله زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم وابنه.

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ

=

=

وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، قال: المشركون إنما كانوا بالأمس يعملون معناه، فانزل الله ﷻ: {إِلا اللَّمَمَ} ما كان منهم في الجاهلية. قال: واللمم: الذي ألموا به من تلك الكبائر والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، وغفرها لهم حين أسلموا".

عن زيد بن أسلم، قوله: "{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، قال: كبائر الشرك والفواحش: الزنى، تركوا ذلك حين دخلوا في الإسلام، فغفر الله لهم ما كانوا ألموا به وأصابوا من ذلك قبل الإسلام".

الثاني: أن «اللمم» صغار الذنوب، كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا، قاله ابن مسعود، وأبو هريرة، والشعبي، ومسروق، ورواية طاووس عن ابن عباس.

قال الشوكاني:" فالجمهور على أن اللمم صغائر الذنوب".

قال ابن مسعود:" زنى العينين: النظر، وزنى الشفتين: التقبيل، وزنى اليدين: البطش، وزنى الرجلين: المشي، ويصدّق ذلك الفرْج أو يكذّبه، فإن تقدّم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللمم".

قال منصور بن عبد الرحمن: "سألت الشعبي، عن قول الله: {يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَم}، قال: هو ما دون الزنى، ثم ذكر لنا عن ابن مسعود، قال: «زنى العينين: ما نظرت إليه، وزنى اليد: ما لمست، وزنى الرجل: ما مشت والتحقيق بالفرج» ".

عن عبد الرحمن بن نافع -الذي يقال له ابن لُبابة الطائفيّ-، قال: "سألت أبا هُريرة عن قول الله: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، قال: القُبلة، والغمزة، والنظْرة والمباشرة، إذا مسّ الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنى".

عن مسروق في قوله: "{إِلا اللَّمَمَ}، قال: إن تقدم كان زنى، وإن تأخر كان لَمَمًا".

روى طاوس عن ابن عباس، قال:" ما رأيت شيئا أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة:

=

=

عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» ".

الثالث: أن اللمم ما لم يجب عليه حد في الدنيا ولم يستحق عليه في الآخرة عذاب، قاله ابن عباس، وابن الزبير، وقتادة، والضحاك، وعكرمة.

قال الضحاك:" كلّ شيء بين حدّ الدنيا والآخرة فهو اللمم يغفره الله".

قال قتادة:" اللمم: ما كان بين الحدّين لم يبلغ حدّ الدنيا ولا حدّ الآخرة موجبة، قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليه الحدّ في الدنيا".

عن عكرمة، في قوله: "{إِلا اللَّمَمَ}، يقول: ما بين الحدين، كل ذنب ليس فيه حدّ في الدنيا ولا عذاب في الآخرة، فهو اللمم".

عن ابن الزبير: "{إِلا اللَّمَمَ}، قال: ما بين الحدّين، حدّ الدنيا، وعذاب الآخرة".

قال ابن عباس:" اللمم: ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة".

قال ابن عباس:" كلّ شيء بين الحدّين، حدّ الدنيا وحدّ الآخرة تكفِّره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب؛ فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حدّ الآخرة فكلّ شيء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة".

الرابع: أنه النَّظر من غير تعمُّد، فهو مغفور، فإن أعاد النظرة فليس بلمم وهو ذنب. قاله الحسين بن الفضل ـ وحكاه الماوردي عن بعض التابعين، واستشهد بقول الشاعر:

وما يستوي من لا يرى غير لمة... ومن هو ناو غيرها لا يريمها".

الخامس: أنه ألَّم بالقلب، أي: خَطَر، قاله سعيد بن المسيّب.

السادس: أنه ما يَهُمُّ به الإنسان، قاله محمّد ابن الحنفية.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال {إلا}، بمعنى

=

=

الاستثناء المنقطع، ووجّه معنى الكلام إلى {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ}، بما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإن ذلك معفوّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله جلّ ثناؤه: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا}، فوعد جلّ ثناؤه باجتناب الكبائر، العفو عما دونها من السيئات، وهو اللمم الذي قال النبي ﷺ: "الْعَينانِ تَزْنيَانِ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَالرِّجلانِ تَزْنِيَانِ، وَيُصَدّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ"، وذلك أنه لا حد فيما دون ولوج الفرج في الفرج، وذلك هو العفو من الله في الدنيا عن عقوبة العبد عليه، والله جلّ ثناؤه أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه، كما رُوي عن النبيّ ﷺ واللمم في كلام العرب المقاربة للشيء، ذكر الفرّاء أنه سمع العرب تقول: ضربه ما لمم القتل يريدون ضربا مقاربا للقتل. قال: وسمعت من آخر: ألمّ يفعل في معنى: كاد يفعل".

قال أبو حيان:" {إِلا اللَّمَمَ}: استثناء منقطع، لأنه لم يدخل تحت ما قبله، وهو صغار الذنوب، أو صفة إلى كبائر الإثم غير اللمم، كقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ} [الأنبياء: ٢٢]، أي: غير الله لفسدتا".

قال ابن كثير:" الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ} هذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال".

قال القشيري:" الأصحّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم: ٣٢]، أي:" رحمته وَسِعَت كل شيء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {إِنَّ رَبَّكَ} يا محمد واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم. وإنما أعلم جلّ ثناؤه بقوله هذا عباده أنه يغفر اللمم بما وصفنا من الذنوب لمن اجتنب كبائر الإثم

=

=

والفواحش".

قال ابن كثير:" أي: رحمته وَسِعَت كل شيء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] ".

عن ابن زيد، في قوله: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}، قال:" قد غفر ذلك لهم".

قال الشوكاني:" جملة: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} تعليل لما تضمنه الاستثناء، أي: إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة فليس يخلو عن كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة الله ويحتاج إلى رحمته".

قوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [النجم: ٣٢]، أي:" هو أعلم بأحوالكم حين خلق أباكم آدم من تراب".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ربكم أعلم بالمؤمن منكم من الكافر، والمحسن منكم من المسيء، والمطيع من العاصي، حين ابتدعكم من الأرض، فأحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها".

قال ابن كثير: "أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة وفريقا للسعير".

عن مجاهد، في قوله: "{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ}، قال: كنحو قوله: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ".

عن ابن زيد، قوله: "{إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ}، قال: حين خلق آدم من الأرض ثم خلقكم من آدم".

قوله تعالى: {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [النجم: ٣٢]، أي: وهو أعلم بأحوالكم" حين أنتم أجنَّة في بطون أمهاتكم".

=

=

قال الطبري: "يقول: وحين أنتم حمل لم تولدوا منكم، وأنفسكم بعدما صرتم رجالا ونساء".

قال ابن كثير: أي:" قد كتب الملك الذي يُوَكَّل به رزقَه وأجَلَه وعمله، وشقي أم سعيد".

قال الفراء:" يقول: هو أعلم بكم أولا وآخرا".

قال مكحول: "كنا أجنة في بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقي، ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا يَفَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شبابًا فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخا- لا أبا لك- فماذا بعد هذا ننتظر؟ ".

قال السعدي في قوله: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} :" أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجودا فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبا وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيبا".

=

=

قوله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} [النجم: ٣٢]، أي:" فلا تزكُّوا أنفسكم فتمدحوها وتَصِفُوها بالتقوى".

عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: "كانت يهود تقول إن أهلك لهم صبي صغير، قالوا: هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله، في بطن أمه إلا أنه شقي، وسعيد، فأنزل الله ﷻ عند ذلك هذه الآية: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [النجم: ٣٢] " الْآيَةَ كُلَّهَا".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} [النجم: ٣٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: فلا تبرئوها من المعاصي. قاله مجاهد مجاهد، وزيد بن أسلم.

قال زيد بن أسلم:" فلا تبرئوها". وروي عن مجاهد مثله.

قال النحاس:" وشرح هذا لا تقولوا إنّا أزكياء".

الثاني: لا تعملوا بالمعاصي وتقولوا نعمل بالطاعة، قاله ابن جريج.

الثالث: لا تبادلوا قبحكم حسنًا ومنكركم معروفًا. حكاه الماوردي.

الرابع: لا تراؤوا بعملكم المخلوقين لتكونوا عندهم أزكياء. أفاده الماوردي.

الخامس: إذا عملتم خيرا، فلا يقولن أحدكم: عملت كذا، أو فعلت كذا. قاله الفراء.

وقال الكلبي: "كان أناس يعملون أعمالا خبيثة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجّنا. فأنزل الله سبحانه هذه".

السادس: يعني: لا تمادحوا، قاله ابن عباس، وابن شوذب.

قال ابن عباس: "لا تمدحوها".

=

=

قال ابن شوذب:" لا تمادحوا".

قال السعدي:" أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح".

قال ابن كثير:" أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}، كما قال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا} [النساء: ٤٩] ".

قال الزمخشري:" فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها".

عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: "سميت ابنتي بَرّةَ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب» ".

عن عبد الرحمن بن أبي بكْرَة، عن أبيه قال: مدح رجل رجلا عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "ويلك، قطعت عنق صاحبك مرارا، إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، إن كان يعلم ذلك، أحسبه كذا وكذا".

عن همام بن الحارث:" أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، وكان رجلا ضخما، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب» ".

عن عطاء بن أبي رَبَاح قال: "كان رجل يمدح ابن عمر، قال: فجعل ابنُ عمر يقول هكذا، يَحْثُوا في وجهه التراب، قال: سمعت رسول الله -صلي الله عليه وسلم- يقول: "إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب".

=

=

قوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]، أي:" هو أعلم بمن اتقى عقابه فاجتنب معاصيه من عباده".

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يعني: عمل حسنة وارعوى عن سيئة".

قال الحسن: أخلص العمل لله".

قال الحسن: "قد علم الله كل نفس ما هي عاملة وما هي صانعة وإلى ما هي صائرة".

قال الطبري: يقول:" ربك يا محمد أعلم بمن خاف عقوبة الله فاجتنب معاصيه من عباده".

قال السمعاني:" أي: هو أعلم بالمتقين".

قال النحاس: أي:" {بِمَنِ اتَّقى} المعاصي وخاف وأدى الفرائض".

قال السعدي:" فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئا".

قال الزمخشري:" فقد علم الله الزكي منكم والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم".

قال القشيري:" يقال: من اعتقد أنّ على البسيطة أحدا شرّ منه فهو متكبّر. ويقال: المسلم يجب أن يكون بحيث يرى كلّ مسلم خيرا منه فإن رأى شيخا، قال: هو أكثر منّي طاعة وهو أفضل منّي، وإن رأى شابا قال: هو أفضل منى لأنه أقلّ منّي ذنبا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا} {فأعرض} الخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو المراد به كل من يصح أن يوجه إليه الخطاب، فعلى الأول يكون المعنى: أعرض يا محمد، وعلى الثاني يكون: أعرض أيها الإنسان المؤمن {عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد

=

=

إلا الحياة الدنيا} يعني أعرض عنه لا تتبعه ولا يهمنك أمره، وليس المعنى: أعرض عنه لا تنصحه.

لأن التذكير واجب، قال الله تعالى: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} يعني ذكر كل أحد، فمن الناس من ينتفع، ومنهم لا ينتفع، والذي ينتفع هو المؤمن، فعلى هذا نقول معنى أعرض يعني لا تبالي به ولا يهمنك أمره، ولا تستحسر من أجل توليه، بل ادع إلى سبيل الله ﷻ أيا كان، لكن من أعرض وتولى لا يهمك أمره، {عن ذكرنا} هو القرآن، ويحتمل أن يكون الذكر بمعنى التذكير، أي عن تذكيرنا، وكلا المعنيين متلازمان صحيحان. لأن القرآن ذكر كما قال تعالى: {وإنه لذكر لك ولقومك} وقال تعالى: {إن هو إلا ذكر وقرءان مبين} أو المعنى {عن ذكرنا} أي: عن تذكيرنا بالمواعظ التي ينزلها الله ﷻ {ولم يرد إلا الحياة الدنيا} يعني لا يريد الآخرة ولا يهتم بها، بل همه الدنيا ما المركوب؟ وما الملبوس؟ وما المسكن؟ فلا يهتم بالآخرة، وأهم شيء عنده الدنيا، أما ذكر الله القرآن، أو تذكير الله فإنه متول عنه- والعياذ بالله- نسأل الله السلامة والعافية، والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة، لأن الدار الدنيا هي أول دار ينزلها الإنسان، وهي سابقة في الزمن على الآخرة، فهي دنيا قريبة، وهي أيضًا دنيا من حيث المرتبة، ليست بشيء بالنسبة للآخرة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه: «لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها »

فليست خيرًا من الدنيا التي أنت فيها فقط؛ بل من الدنيا منذ أن خلقها الله إلى أن تفنى، موضع السوط الذي يكون بقدر المتر في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إذًا هي دنيا حقيقة، ولهذا إذا مات الإنسان وهو مؤمن- جعلنا الله منهم- ثم حمل من بيته الذي يسكنه ويأوي إليه، وفيه أهله وماله وحشمه، إذا خرج تقول روحه:

=

=

قدموني قدموني، لأن ما ستذهب إليه خير مما تخرج منه، قال الله تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى} لكن لمن؟ {لمن اتقى} لكنها شر لمن لم يتق، ويذكر أن ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ وكان رئيس القضاء في مصر، مر يومًا من الأيام في موكبه على العربة تجرها البغال، وحوله الجنود برجل يهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تدنست ثيابه بالزيت، وشقي في طلب المعيشة فأوقفه اليهودي وقال لابن حَجَر: إن نبيكم يزعم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر! فكيف يتفق هذا الحديث مع الواقع، أنت الآن مؤمن وهو يهودي فأيهما الشقي؟ قال: نعم ما أنا فيه الآن بالنسبة للآخرة سجن، لأن الآخرة خير لمن اتقى، وما أنت فيه بالنسبة للآخرة جنة، لأن الآخرة ليس لك فيها إلا النار وبئس القرار، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فانظر كيف فتح الله عليه حيث ظهر صدق كلام الرسول عليه الصلاة والسلام بكل سهولة، فالآخرة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا ذم الله تعالى الذي أعرض عن ذكر الله، {ولم يرد إلا الحياة الدنيا} ومن أراد الحياة الدنيا لن تحصل له قطعًا، قال الله تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} أي: ما يشاء الله، لا ما يشاء هو {ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا}.

وقال تعالى: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه} لأنه يعطى الدنيا والآخرة {ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها} أي بعضها وليس كلها {وما له في الآخرة من نصيب}.

{ذلك مبلغهم من العلم} والمشار إليه كونهم متولين معرضين، لا يريدون إلا الحياة الدنيا، يعني ذلك منتهى بلوغ علمهم، لأن علمهم قاصر، لا ينظرون إلى المستقبل، ولا يصدقون بخبر، فتجد أكبر همهم أن يصلحوا حالهم في الدنيا

=

=

معرضين عن حالهم في الآخرة، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»، ثم قال ﷻ: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى} هو أعلم ﷻ بمن ضل عن سبيله فعلًا، ومن سيضل، لأنه عالم بما كان وبما يكون، فقوله: {بمن ضل} لا تعني أنه لا يعلم إلا من حصل منه الضلال بالفعل بل هو يعلم من حصل منه الضلال بالفعل، ومن سيحصل منه، لأن الله سبحانه وتعالى موصوف بالعلم التام في الحاضر والمستقبل والماضي، وقوله: {وهو أعلم بمن اهتدى} ضد الضلال، فالناس بين فئتين: إما مهتدٍ وإما ضال، وإنما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن نعلم أن ما وقع من الضلال والهداية فهو صادر عن علم الله وبإرادته، إذ لا يمكن أن يوجد في خلقه خلاف معلومه، ولو قدر أن يوجد في خلقه خلاف معلومه لكان الله جاهلًا- وحاشاه من ذلك -.

الفائدة الثانية: التحذير من الضلال، والترغيب في الاهتداء، مادام الإنسان يعلم أن أي عمل صدر منه فعلمه عند الله، فإنه سوف يخشى أن يعصي الله، وسوف يسعى أن يرضي الله ﷻ.

كأنه يقول: إن ضللت فالله أعلم بك، وإن اهتديت فالله أعلم بك، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

{ولله ما في السماوات وما في الأَرض} يقول علماء البلاغة: إنه إذا تقدم شيء حقه التأخير فهو دليل على الحصر والتخصيص، فلننظر في هذه الآية هل فيه تأخير وتقديم: {ولله ما في السماوات وما في الأَرض} (لله) خبر مقدم (وما في السموات) مبتدأ مؤخر، إذًا قدم فيها ما حقه التأخير وهو الخبر؛ لأن حق الخبر أن يكون متأخرًا عن المبتدأ. تقول: الرجل قائم ولا تقول: قائم الرجل، فالأصل أن المبتدأ

=

=

على اسمه يكون هو الأول والخبر هو الثاني، لكن أحيانًا يقدم الخبر لفائدة، فهنا الفائدة: الحصر يعني: لله لا لغيره {ما في السماوات وما في الأَرض} ولا أحد يملك ما في السماوات ولا ما في الأرض إلا الله تبارك وتعالى، ونحن نملك ما نملك من أموالنا ولكن ملكنا ليس عامًا، فملكي ليس ملكًا لك، وملكك ليس ملكًا لي، فأملاكنا ليست عامة، ثم نحن لا نملك التصرف بما هو ملكنا كما نشاء، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، ولهذا لو تراضى اثنان في بيع الربا قلنا: لا تملكان ذلك، ولو أراد الإنسان أن يحرق ماله قلنا: هذا ممنوع، فملك غير الله قاصر، وغير شامل، والملك التام الواسع الشامل لله ﷻ ولهذا قال: {ولله ما في السماوات وما في الأَرض} فهو مالك لذواتهما، ومالك لما فيهما أيضًا، وكم من ملك في السماوات، وكم من مخلوق في الأرض كله ملك لله ﷻ يتصرف فيه كما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته، وإيماننا بأن لله ملك السماوات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضى بقضاء الله، وأن الله ﷻ لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر، يمضي أو لا يمضي، ويتصرف في الشمس والقمر، ويتصرف في المخلوقات، يتصرف فيك أيضًا كما يشاء، إن شاء أعطاك صحة، وإن شاء سلبها، إن شاء أعطاك عقلًا، وإن شاء سلبك، إن شاء أعطاك مالًا، وإن شاء سلبك، أنت ملكه، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه.

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به، لأنك ملكه، إذا قال لك: افعل. فافعل، وإذا قال: لا تفعل. فلا تفعل، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسيادة ناقصة، إذًا أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرم وإما بترك واجب، فإنك خرجت عن مقتضى العبودية التامة؛ لأن مقتضى

=

=

العبودية التامة أن تخضع لشرعه، كما أنك خاضع كرهًا أو طائعًا لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: {ولله ما في السماوات وما في الأَرض} أن يخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك. {ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى} جاءت كلمة {ليجزى} كأن قائلًا يقول: وإذا تبين أن الملك لله ﷻ فما النتيجة؟ النتيجة أن الناس بين محسن وبين مسيء كما قال ﷻ: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن} وإذا كانوا بين محسن ومسيء فما جزاء كل واحد {ليجزى الذين أساءوا بما عملوا} الذين أساءوا هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحظور، هؤلاء الذين أساءوا ليجزيهم بما عملوا، السيئة بالسيئة لا تزيد، أو يعفو ﷻ عمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: {ليجزى الذين أساءوا بما عملوا}.

بدون زيادة {ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى} ولم يقل: بما عملوا، لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت إذا فعلت حسنة فتكون عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ونضرب مثلًا قريبًا، الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلى الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، فخطواتك لا يحصيها إلا الله ﷻ، مع أن المقصود شيء واحد وهو الصلاة، لكن سعيك إلى الصلاة فيه أجر مادمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة، وتأهبت في بيتك، أسبغت الوضوء في بيتك، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة، والخطوات لا يحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله، ثم

=

=

انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي، «لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»، وهذا أحسن من أعمالنا ولهذا قال: {ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى} أي بما هو أحسن وأكثر من عملهم، وهذا يدلك على سعة فضل الله ﷻ وإحسانه وكمال عدله.

فالمسيئون يجازيهم بالعدل أو يعفو، والمحسنون يجازيهم بالفضل ثم ذكر شيئًا من أوصافهم فقال: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم} أي: يبتعدون عنه، وسمي الابتعاد اجتنابًا؛ لأن الإنسان في جانب، والذي أبعد عنه في جانب آخر، فيبعدون، ولا يتصلون بكبائر الإثم والفواحش إلا اللمم {كبائر الإثم} كبائر جمع كبيرة، والكبيرة بعض العلماء عدها، وبعض العلماء حدها، والصواب الحد، أي أنها محدودة وليست معدودة، والذين ذكروا عددًا الظاهر- والله أعلم- أنهم أرادوا المثال، فمثلًا إذا قال الإنسان: هي الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، هذه سبع، إذا قال الإنسان هذه هي الكبائر ليس معنى قوله إنها محصورة في هذا، إذ من الممكن أن يحمل كلامه أن ذلك على سبيل التمثيل فقط، أما الذين حدوها يعني جعلوا له ضابطًا. فقالوا في ضابطها: (كل ذنب رتب الله عليه لعنة، أو غضبًا، أو سخطًا، أو تبرأ منه، أو ما أشبه ذلك فهو كبيرة)، ورأيت لبعضهم ومنهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: (كل ذنب جعلت له عقوبة خاصة إما في الدنيا، أو في الآخرة فهو كبيرة)، فالزنا كبيرة، لأن فيه عقوبة وهو الجلد أو الرجم، والسرقة كبيرة، وقطع الطرق كبيرة، وعقوق الوالدين كبيرة، وهلم جرا، فكلما رأيت شيئًا من الذنوب جعل الشارع له عقوبة خاصة فهو كبيرة، أما الذنب الذي نهى عنه فقط فهو صغيرة: كنظر الرجل للمرأة الأجنبية للشهوة، هذا ليس كبيرة هو صغيرة من الصغائر، لكن إن أصر الإنسان

=

=

عليه وصار هذا ديدنه، صار كبيرة بالإصرار لا بالفعل.

ومكالمة المرأة الأجنبية على وجه التلذذ حرام وليس بكبيرة، ولكن إذا أصر الإنسان عليه وصار ليس له هم إلا أن يشغل الهاتف على هؤلاء النساء ويتحدث إليهن صار كبيرة، فالإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من حيث الإصرار، لأن إصراره على الصغيرة يدل على تهاونه بالله ﷻ، وأنه غير مبال بما حرم الله، وقوله: {والفواحش} أي: كبائر الكبائر، لأن الكبائر منه ما هو فاحش يستفحش ويستعظم ويستقبح بشدة، ومنها ما هو دون ذلك، فمثلًا الزنا فاحشة {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً} واللواط فاحشة أعظم من الزنا، لأن الله قال في الزنا: {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً} وقال في اللواط: {أتأتون الفاحشة} فأتى بأل الدالة على القبح، وأنها جامعة لكل أنواع الفواحش، ونكاح المحارم فاحشة، قال الله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتًا وساء سبيلًا} فهو أشد من الزنا، فلو زنا الإنسان بامرأة أجنبية منه، وبأم زوجته مثلًا صار زناه بأم زوجته أعظم وأشد وأشنع، ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: أن من زنا بامرأة من محارمه وإن لم يكن محصنًا فإنه يرجم، لأن الله فرق بين الزنا وبين نكاح ذوات المحارم فالزنا بذوات المحارم وصفه الله تعالى: {إنه كان فاحشةً ومقتًا وساء سبيلًا} والزنا وصفه بوصف بواحد وهو: {إنه كان فاحشةً} وجاءت السنة بالتفريق بين من زنا بامرأة من محارمه أو بامرأة أجنبية، فجعلت حد الأول القتل بكل حال، وإن لم يتزوج وإن لم يكن ثيبًا، لأن هذا أعظم والعياذ بالله، إنسان يزني بأمه أو أخته أو أم زوجته، أو بنت زوجته التي دخل بها هذا فاحشة عظيمة، إذًا هم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، والفواحش كبائر الكبائر وأعظم، ونأخذ من هذه الآية الكريمة أن الكبائر والفواحش تختلف؛ لأن كبائر وصف

=

=

كل ما كان أعظم صار أشد كبيرة، والفواحش كذلك، وفيما سقناه من الآيات دليل على ذلك: {ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتًا وساء سبيلًا} {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً} {أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ففرق الله بينها، مع أنها كلها فواحش، لكن بعضها أعظم من بعض.

قوله: {إلا اللمم} قيل: إنه استثناء متصل. وقيل: إنه استثناء منقطع، لأن اللمم الشيء القليل، فهل المعنى إلا الشيء القليل من الكبائر، أي أنهم يأتون الشيء القليل من الكبائر، أو المعنى إلا الصغائر من الذنوب. إن قلنا بالأول، فالاستثناء متصل، وإن قلنا بالثاني، فالاستثناء منقطع. وتكون بمعنى لكن، والمعنى الثاني أقرب من حيث التقسيم، لأن الله ذكر الكبائر والفواحش والصغائر، وعلى هذا فيكون معنى {إلا اللمم} يعني: أن هؤلاء الذين أحسنوا يأتون الصغائر، والصغائر والحمد لله مكفرة بالحسنات، قال الله تعالى: {إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئتكم} وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، وقال عليه الصلاة والسلام: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما»،

وعلى هذا فيكون المعنى أن الصغائر تقع مكفرة إما باجتناب الكبائر، أو باجتناب الكبائر مضمومًا إليها فعل هذه الحسنات العظيمة: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والخلاصة أن الصغائر التي تقع مغفورة للإنسان إذا اجتنب الكبائر، وإذا أحسن في الصلوات الخمس والجمعة ورمضان {إن ربك وسع المغفرة} في هذه الجملة إشارة إلى قوله: {إلا اللمم} يعني أن اللمم يقع في سعة مغفرة الله ﷻ فيغفره الله ﷻ والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه، ولا يكفي ستر الذنب بل لابد من تجاوز، والدليل على هذا أمران:

=

=

لغوي وسمعي، أما اللغوي فلأن المغفرة مشتقة من المغفر، والمغفر وهو ما يوضع على الرأس عند القتال ويسمى خوذة، ويسمى بيضة، يوضع على الرأس ليتقي السهم. هذا الذي يوضع على الرأس جمع بين أمرين الوقاية والستر، فإذا المغفرة لابد من ستر ووقاية، وأما السمعي فهو أن الله تبارك وتعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرره بذنوبه وأقر قال: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فدل هذا على أن الوقاية من الذنوب وعدم المؤاخذة من المغفرة، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر.

وفي قوله تعالى: {إن ربك واسع المغفرة} إشارة إلى أن الصغائر تغفر، وقد ثبت في القرآن الكريم أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، فقال جل وعلا: {إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلًا كريمًا} . ولهذا قال: {إن ربك واسع المغفرة} أما إذا قلنا: اللمم القليل من الفواحش والكبائر، فيكون قوله: {إن ربك واسع المغفرة} إشارة إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، هذه الكبيرة، وللأسف يوجد قوم من هذه الأمة يقولون: إن الكبيرة لا تغفر، وهم الخوارج والمعتزلة يقولون: إن الإنسان إذا فعل كبيرة خرج من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: خارج من الإيمان داخل في الكفر. والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتين، لكن قولهم باطل، والصواب: أن فاعل الكبيرة داخل تحت قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فلو قال قائل: إذا قلت هذا فتحت الباب على مصراعيه لفعل الكبائر، لأن أي إنسان يفعل كبيرة ويقول: أنا يمكن أن يغفر الله لي، وهذا يحتج به العوام، يقول: إذا كان الله يقول: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} أي ما دون الشرك لمن يشاء، إذًا سأفعل الكبائر، ويغفر الله لي، فهذه

=

حجة فكيف تجيبه؟

نجيبه: أن الله تعالى قال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ولم يقل لكل أحد بل قال: {لمن يشاء} فهل أنت تتيقن أنك ممن يغفر الله له، أأحد يتقين هذا؟ لا أحد يتيقن، إذًا لا حجة في هذه للعاصي، ثم إن قوله تعالى: {لمن يشاء} نعلم أن الله حكيم، لا يشاء أن يغفر للمذنب غير الشرك إلا إذا اقتضت الحكمة أن يغفر ذلك، ومن منا يستطيع أن يقول إن حكمة الله تقتضي أن يغفر لي؟ لا أحد يقول هذا، بل لو قال هذا لقلنا: إن قولك هذا من أسباب المؤاخذة والمعاقبة؛ لأنك تأليت على الله.

ثم قال ﷻ: {هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأَرض} أعلم بنا من ذاك الوقت الطويل البعيد {إذ أنشأكم من الأَرض}، أي بخلق أبينا آدم، لأن آدم خلق من التراب، ثم صار طينًا، ثم صار صلصالًا، ثم خلقه الله بيده جسمًا ونفخ فيه الروح، فصار آدميًّا إنسانًا، هذا معنى قوله تعالى: {إذ أنشأكم من الأَرض}، إذًا نحن من الأرض أول نشأة: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى} أي الإخراج الذي ليس بعده وفاة يوم القيامة، ولذلك الآن بنو آدم كالأرض تمامًا، فيهم الحزم الصلب الشديد، وفيهم السهل، وفيهم ما بين ذلك، وفيهم الأبيض، وفيهم الأحمر، وفيهم الأسود، لأن الأراضي تختلف، هكذا، وقد ذُكر أن الله لما أراد أن يخلق آدم أخذ من كل الأرض سهلها وحزنها، وأسودها وأبيضها كلها: {وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم} هذه النشأة الثانية (أجنة) جمع جنين وهو الحمل، وسمي الحمل جنينًا، لأنه مستتر {وإذ أنتم أجنة} أي مستترين {في بطون أمهاتكم}، أي من حين كان الإنسان نطفة، ومن النطفة يخلق، وهذا معنى قوله: {ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين} فمن حين يكون نطفة يكون جنينًا ثم يتطور أربعة، أولًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم أنشأناه خلقًا آخر.

=

الطور الأخير الذي تحل فيه الروح، إذًا هو عالم بنا حين النشأة الأولى، وحين النشأة الثانية في بطون أمهاتنا: {فلا تزكوا أنفسكم} أي: لا تزكوها وتقول عملت كذا وكذا، وصليت، وزكيت، وصمت، وجاهدت، وحججت، لا تقل هكذا، تُدل بعملك على ربك، هذا لا يجوز.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: {قد أفلح من زكاها} ؟

فالجواب: بلى، لكن معنى {من زكاها} أي: من عمل عملًا تزكو به نفسه، وليس المعنى من زكاها من أثنى عليها ومدحها بأنها عملت وعملت، بل المراد عمل عملًا تزكو به نفسه، فلا معارضة بين الآيتين، ولهذا نقول: من زكى نفسه بذكر ما عمل من الصالحات فإنه لم يزك نفسه. فمن زكى نفسه بمدحها فإنه لم يزكِّ نفسه، وفرق بينهما، فالتزكية التي يحمد عليها الإنسان أن يعمل الإنسان عملًا صالحًا تزكو به نفسه، والتزكية التي يذم عليها أن يدل بعمله على ربه ويمدح، وكأنه يمن على الله، يقول: صليت، وتصدقت، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبريت والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه، وفي هذا رد على أولئك الصوفية الذين يدعون أنهم أئمة ويزكون أنفسهم، ويقولون: وصلنا إلى حد لا تلزمنا الطاعة، وصلنا: إلى عالم الملكوت فليس علينا صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ولا يحرم علينا شيء، وهؤلاء منسلخون من الدين انسلاخًا تامًّا، ولذلك نقول: هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أبعد الناس عن الزكاة، لأنهم أعجبوا بأعمالهم، وأدلوا بها على الله ﷻ وجعلوا لأنفسهم منصبًا لم يجعله الله تعالى لهم {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} كأنه يقول: لماذا تزكون أنفسكم؟ أتريدون أن تعلموا الله بما أنتم عليه؟ الجواب: لا، ولهذا قال: {هو أعلم بمن اتقى} يعني إن كنت متقٍ لله، فالله أعلم بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلت وفعلت، وفي هذا إشارة إلى أن النطق بالنية عند فعل العبادة قد يدخل في نوع من

=

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣).

{أَفَرَأَيْت الَّذِي تَوَلَّى} عَنْ الْإِيمَان ارْتَدَّ لَمَّا عُيِّرَ بِهِ وَقَالَ إنِّي خَشِيت عِقَاب

=

التزكية، فإذا أردت أن تتوضأ فلا تقل: اللهم إني نويت أن أتوضأ وبعض العلماء يقول: قلها سرًّا، بينك وبين نفسك، وعللوا هذا قالوا: من أجل أن يطابق اللسان القلب، فالقلب نوى، لكن قل باللسان: اللهم إني نويت أن أتوضأ، وأنت تصلي قل: اللهم نويت أن أصلي الظهر مثلًا أو العصر، وبعض
العلماء يقول هكذا، وهم علماء أجلاء من الفقهاء.

فيقال: هذا غلط، وهذا قياس في مقابلة النص: والرسول عليه الصلاة والسلام لم يشرع لأمته النطق بالنية، لا في حديث صحيح ولا ضعيف، ومن الطرف الطريفة أن رجلًا عاميًا في المسجد الحرام سمع شخصًا يريد أن يصلي، فقال بعد أن أقيمت الصلاة: اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات في المسجد الحرام، ولما أراد أن يكبر قال الرجل: باقي عليك، قال: ما الباقي؟ قال: باقي التاريخ، قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك {يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور} وعند الصيام مثلًا إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام، لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: لبيك عمرة، إن كنت في عمرة، أو لبيك حجًّا، إن كنت في حج، أو لبيك عمرة وحجًّا، إن كنت قارنًا، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال ﷻ: {هو أعلم بمن اتقى}.

الله فَضَمِنَ لَهُ الْمُعِير لَهُ أَنْ يَحْمِل عَنْهُ عَذَاب الله إِنْ رَجَعَ إِلَى شِرْكه وَأَعْطَاهُ مِنْ مَاله كَذَا فَرَجَعَ.

وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤).

{وَأَعْطَى قَلِيلًا} مِنْ الْمَال الْمُسَمَّى {وَأَكْدَى} مَنَعَ الْبَاقِي مَأْخُوذ مِنْ الْكَدِيَّة وَهِيَ أَرْض صُلْبَة كَالصَّخْرَةِ تَمْنَع حَافِر الْبِئْر إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا من الحفر.

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥).

{أَعِنْده عِلْم الْغَيْب فَهُوَ يَرَى} يَعْلَم مِنْ جُمْلَته أَنَّ غَيْره يَتَحَمَّل عَنْهُ عَذَاب الْآخِرَة لَا وَهُوَ الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة أَوْ غَيْره وَجُمْلَة أَعِنْده الْمَفْعُول الثَّانِي لِرَأَيْت بِمَعْنَى أَخْبِرْنِي.

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦).

{أَمْ} بَلْ {لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُف مُوسَى} أَسْفَار التَّوْرَاة أَوْ صُحُف قَبْلهَا.

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧).

{و} صُحُف {إِبْرَاهِيم الَّذِي وَفَّى} تَمَّمَ مَا أُمِرَ بِهِ نَحْو وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيم رَبّه بكلمات فأتمهن وبيان ما.

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨).

{أ} ن {لَا تَزِر وَازِرَة وِزْر أُخْرَى} إلَخْ وَأَنْ مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ لَا تَحْمِل نَفْس ذنب غيرها.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩).

{وَأَنْ} أَيْ أَنَّهُ {لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} مِنْ خَيْر فَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَعْي غيره للخير شيء.

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠).

{وَأَنَّ سَعْيه سَوْف يُرَى} يُبْصَر فِي الْآخِرَة.

ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١).

{ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى} الْأَكْمَل يُقَال جَزَيْته سعيه وبسعيه.

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢).

{وَأَنَّ} بِالْفَتْحِ عَطْفًا وَقُرِئَ بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا وَكَذَا مَا بَعْدهَا فَلَا يَكُون مَضْمُون الْجُمَل فِي الصُّحُف عَلَى الثَّانِي {إِلَى رَبّك الْمُنْتَهَى} الْمَرْجِع وَالْمَصِير بَعْد الْمَوْت فَيُجَازِيهِمْ.

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣).

{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ} مَنْ شَاءَ أَفْرَحَهُ {وَأَبْكَى} مَنْ شَاءَ أَحْزَنَهُ[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة: أن النبي ﷺ خرج في مغزاة، فجاء رجل فلم يجد ما يخرج عليه، فلقي صديقًا له فقال: أعطني شيئًا، قال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمل بذنوبي؛ فقال له: نعم؛ فأنزل الله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٥٩)، و"لباب النقول" (ص ٢٠١) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن دراج أبي السمح؛ قال: خرجت سرية غازية، فسأل رجل رسول الله ﷺ أن يحمله، فقال: "لا أجد ما أحملك عليه"؛ فانصرف حزينًا، فمر برجل رحاله منيخة بين يديه فشكا إليه، فقال له الرجل: هل لك أن أحملك فتلحق الجيش؟ فقال: نعم؛ فنزلت: {أَفَرَءَتتَ اَلَّذِى تَوَلَّى (٣٣)} إلى قوله: {ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، و"اللباب" ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده =

=

ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)}؛ قال: هذا رجل أسلم، فلقيه بعض من يعيره فقال: أتركت دين الأشياخ وضللّتهم، وزعمت أنهم في النار؟! كان ينبغي لك أن تنصرهم، فكيف يفعل بآبائك؟ فقال: إني خشيت عذاب الله، فقال: أعطني شيئًا وأنا أحمل كل عذاب كان عليك عنك، فأعطاه شيئًا، فقال: زدني، فتعاسر حتى أعطاه شيئًا، وكتب له كتابًا، وأشهد له؛ فذلك قول الله تعالى {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥)} نزلت فيه هذه الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٤٢): ثنا يونس نا ابن وهب؛ قال: قال ابن زيد.

وسنده ضعيف جدًا؛ لضعف عبد الرحمن، وإعضاله.

* قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} [النجم: ٣٣]، أي:" أفرأيت -أيها الرسول- الذي أعرض عن طاعة الله".

قال الطبري: يقول:" أفرأيت يا محمد الذي أدبر عن الإيمان بالله، وأعرض عنه وعن دينه".

وفي قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} [النجم: ٣٣]، أربعة أقوال:

أحدها: أنه العاص بن وائل السهمي، وكان رّبما وافق رسول الله ﷺ في بعض الأُمور. قاله السدي.

=

=

الثاني: أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، قاله مجاهد، ومقاتل، كان يأتي النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، يسمع ما يقولان ثم يتولى عنهما.

قال مقاتل:" {تَوَلَّى} عن الحق، يعني: الوليد بن المغيرة".

الثالث: أنه النضر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه وضمن له أن يتحمل مأثم رجوعه، قاله الضحاك.

الرابع: أنه أبو جهل، وذلك أنه قال: واللهِ ما يأمُرُنا محمدٌ إلاّ بمكارم الأخلاق، قاله محمد بن كعب القرظي.

قلت: وأثر مجاهد المتقدم أصح الأقوال في سبب النزول.

قوله تعالى: {وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى} [النجم: ٣٤]، أي:" وأعطى قليلا مِن ماله، ثم توقف عن العطاء وقطع معروفه؟ ".

قال الطبري: يقول:" وأعطى صاحبه قليلا من ماله، ثم منعه فلم يعطه، فبخل عليه".

وفي قوله تعالى: {وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى} [النجم: ٣٤]، أربعة وجوه:

أحدها: أنه أعطى قليلًا من نفسه بالاستمتاع ثم أكدى بالانقطاع، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{وَأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى}، قال: انقطع فلا يُعْطِي شيئا، ألم تر إلى البئر يقال لها أكدت".

عن مجاهد: "{وَأَكْدَى}، انقطع عطاؤه".

الثاني: أطاع قليلًا ثم عصى، قاله ابن عباس.

الثالث: أعطى قليلًا من ماله ثم انقطع عطاؤه، قاله ابن عباس-أيضا-، والضحاك، وابن طاوس، وقتادة، وعكرمة.

عن ابن طاوس وقتادة، في قوله: {وَأَكْدَى}، قالا: "أعطى قليلا ثم قطع ذلك".

قال قتادة:" أي بخل وانقطع عطاؤه".

=

=

قال الضحاك:" يقول: انقطع عطاؤه".

وعن ابن زيد، في قوله: {وَأَكْدَى}، قال:"عاسره".

الرابع: أعطى قليلا من الخير بلسانه، وانقطع، قاله مقاتل.

قال أبو عبيدة:" معنى «أكدى»: قطع، اشتقت من كدية الركيّة وكدية الرّحل، وهو أن يحفر حتى ييئس من الماء، فيقول: بلغنا كديتها".

قال ابن قتيبة:" أي: قطع. وهو من: كُدْية الرَّكِيَّة، وهي: الصلابة فيها، وإذا بلغها الحافر يئس من حفرها فقطع الحفر. فقيل لكل من طلب شيئا فلم يبلغ آخرَه أو أعطَى ولم يتمِّمْ -: أكْدَى".

قال الزجاج:" معنى «أكدى»: قطع، وأصله من الحفر في البئر، يقال للحافر -إذا حَفَر البئر- فبلغ إلى حَجَرٍ لا يمكنه معه الحفر-: قد بلغ إلى الكدية، فعند ذلك يقطع الحفر".

قوله تعالى: {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥)} [النجم: ٣٥]

قال ابن كثير:" أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا؛ ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلالا ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا»، وقد قال الله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]".

عن مجاهد:" {أعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ}، قال: الغيب: القرآن، أرَأى فيه باطلًا أنفذه ببصره؛ إذ كان يختلف إلى النبيِّ - ﷺ- وأبي بكر؟!".

قال الحسن البصري: "{أعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرى} يختار لنفسه الجنّة إن كانت جنّة".

=

=

قال الشوكاني:" الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه أمر العذاب، فهو يعلم ذلك".

{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)} [النجم: ٣٦-٣٧]

قوله تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} [النجم: ٣٦]، أي:" أم لم يُخَبَّر بما جاء في أسفار التوراة".

قال الطبري: يقول" أم لم يُخَبَّرْ هذا المضمون له، أن يتحمل عنه عذاب الله في الآخرة، بالذي في صحف موسى بن عمران عليه السلام".

عن أبي العالية، قال: "نزلت الصحف في أول ليلة من شهر رمضان، ونزلت التوراة لست، ونزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة، ونزل الإنجيل لثماني عشرة، ونزل الفرقان لأربع وعشرين من شهر رمضان".

قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: ٣٧]، أي:" وصحف إبراهيم الذي وفَّى ما أُمر به وبلَّغه؟ ".

قال الطبري: "يقول: وإبراهيم الذي وفى من أرسل إليه ما أرسل به".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: ٣٧]، على وجوه:

أحدها: أنه وفّى عمل كل يوم بأربع ركعات في أول النهار، رواه الهيثم عن أبي أمامة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الثاني: أنه وفَّى في كلمات كان يقولها كلما أصبح وأمسى، وهي: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} [الروم: ١٧]، الآية. رواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الثالث: وفّى طاعة الله، وبلَّغ رسالات ربه إلى خلقه. قاله قتادة.

=

=

الرابع: أنه بلَّغ ما أمر به. قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وسفيان، وابن زيد.
عن سفيان: "{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، قال: بلَّغ".
وحكي ابن الجوزي عن سفيان:" أنه أدَّى الأمانة".
قال ابن زيد:" بلغ رسالات ربه، بلَّغ ما أُرسل به، كما يبلغ الرجل ما أُرسل به".
عن مجاهد: "{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، ما فُرِض عليه".
الخامس: أن وفائه بما عهد إليه ربه من تبليغ رسالاته: {أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، لأنه كان بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وأبيه فأول من خالفهم إبراهيم، قاله ابن عباس، وعكرمة.
قال ابن عباس:" كانوا قبل إبراهيم يأخذون الوليّ بالوليّ، حتى كان إبراهيم، فبلغ: {أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره".
عن عكرمة: "{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، قالوا: بلغ هذه الآيات: {أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ".
وكان عكرمة يقول: "وفَّى هؤلاء الآيات العشر: {أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}... حتى بلغ {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأخْرَى} ".
السادس: أنه وفَّى ربَّه جميع شرائع الإسلام. روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس. وبه قال الطبري.
قال ابن عباس: "الإسلام ثلاثون سهما. وما ابتلي بهذا الدين أحد فأقامه إلا إبراهيم، قال الله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، فكتب الله له براءة من النار".
السابع: أنه وفَّى الطاعة فيما فعل بابنه. رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال القرظي.
قال القرظي:" أوفى يذبح ابنه".
الثامن: وفَّى شأن المناسك، قاله الضحاك.

=

التاسع: أنه عاهد أن لا يَسأل مخلوقًا شيئًا، فلمّا قُذف في النار قال له جبريل، أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال: أمّا إليك فلا، فوفَّى بما عاهد، ذكره عطاء بن السّائب.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: وفى جميع شرائع الإسلام وجميع ما أُمر به من الطاعة، لأن الله تعالى ذكره أخبر عنه أنه وفى فعم بالخبر عن توفيته جميع الطاعة، ولم يخصص بعضا دون بعض".

وقال ابن عطية:" الأقوى من هذه الأقوال كلها القول العام لجميع الطاعات المستوفية لدين الإسلام، فروي أنها لم تفرض على أحد مكملة فوفاها الأعلى وإبراهيم ومحمد عليهما السلام ومن الحجة لذلك قوله تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [البقرة: ١٢٤]".

قوله تعالى: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [النجم: ٣٨]، أي:" أنه لا تؤخذ نفس بمأثم غيرها، ووزرها لا يحمله عنها أحد".

قال الطبري:" وإنما عُني بقوله: {أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، الذي ضَمِن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة، يقول: ألم يُخْبَرْ قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان بالذي في صحف موسى وإبراهيم مكتوب: أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها".

عن السديّ:" {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، قال: لا يؤخذ أحد بذنب أحد".

قال في التسهيل: أي:" لا يحمل أحد ذنوب أحد، وأصل «الوزر»: الثقل، ثم استعمل في الذنوب".

وفي أصل «الوزر»، وجهان:

أحدهما: أن أصله: الثقل، من قوله: {وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ} [الشرح: ٢- ٣]، ومنه سمي: «وزير الملك»، لتحمله الثقل عنه.

والثاني: أن أصله: الملجأ من قوله: {كَلاَّ لاَ وَزَرَ} [القيامة: ١١]، ومنه سُمِّي

=

«وزير المَلِكِ»، لأنه يلجأ إليه في الأمور.

عن عروة عن أبيه قال: "سئلت عائشة عن ولد الزنا؟ فقالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء، وقالت: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ".

عن أبي مالك الغفاريّ، في قوله: "{أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى}، إلى قوله: {مِنَ النُّذُرِ الأولَى}، قال: هذا في صحف إبراهيم وموسى".

عن عمرو بن أوس، قال: "كان الرجل يؤخذ بذنب غيره حتى نزلت: {وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى} [النجم: ٣٨] ".

عن مجاهد في قوله: "{وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء}، كنحو: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ".

قوله تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم: ٣٩]، أي:" وأنه لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه بسعيه".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: أوَ لم يُنَبأ أنه لا يُجَازي عامل إلا بعمله، خيرا كان ذلك أو شرّا".

عن ابن وهب:" قال ابن زيد في قوله: "{وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى}، وقرأ: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}، قال: أعمالكم".

عن ابن عباس، قوله: "{وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى}، قال: فأنزل الله بعد هذا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}، فأدخل الأبناء بصلاح الآباء الجنة".

وقال عكرمة: "كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى عليهما السلام، فأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى غيرهم بخبر سعد بن عبادة- رضي الله عنه -: أنه سأل رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، هل لأمي أجر إن تطوعت عنها؟ قال: «نعم»، وفي حديث أنه حفر بئرا

=

=

وقال: «يا رب هذه لأم سعد». وخبر المرأة التي سألت النبي - ﷺ - فقالت: إن أبي مات ولم يحج، قال: «فحجي عنه» ".

وقال الربيع بن أنس: "يعني: الكافر، فأما المؤمن فله ما سعى وما سعى غيره له".

قال ابن عطية:" روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى} منسوخ بقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطور: ٢١]، وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائل.. والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو في اللام من قوله: لِلْإِنْسانِ فإذا حققت الشيء الذي هو حق الإنسان يقول فيه لي كذا لم يجده إلا سعيه، وما بعد من رحمة ثم شفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته ببدن ولا مال. وفرق بعض العلماء بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تذكر للمعمول عنه، وقد أمر رسول الله ﷺ سعدا بالصدقة عن أمه، والسعي: التكسب".

قيل: "سأل عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله: {وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ} [البقرة: ٢٦١]، فقال: ليس له بالعدل {إِلا مَا سَعَى}، وله بفضل الله ما شاء الله، فقبل عبد الله رأس الحسين".

قال الجصاص:" فيه الدلالة على أن كل أحد من المكلفين فأحكام أفعاله متعلقة به دون غيره، وأن أحدا لا يجوز تصرفه على غيره ولا يؤاخذ بجريرة سواه".

قوله تعالى: {وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠)} [النجم: ٤٠]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأن عمل كلّ عامل سوف يراه يوم القيامة، من

=

=

ورد القيامة بالجزاء الذي يُجازى عليه، خيرا كان أو شرّا، لا يؤاخذ بعقوبة ذنب غير عامله، ولا يثاب على صالح عمله عامل غيره. وإنما عُنِي بذلك: الذي رجع عن إسلامه بضمان صاحبه له أن يتحمل عنه العذاب، أن ضمانه ذلك لا ينفعه، ولا يُغْنِي عنه يوم القيامة شيئا، لأن كلّ عامل فبعمله مأخوذ".

قال أبو عبيدة: {وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى}، أي:" عمله".

قال السعدي: أي:" في الآخرة فيميز حسنه من سيئه".

قال السمعاني:" أي: يراه على معنى أن الله تعالى يريه إياه، وهو الجزاء الذي يجازيه عليه".

قال التستري:" أي: سوف يرى سعيه ويعلم أنه لا يصلح للحق ويعلم الذي يستحقه سعيه، وأنه لو لم يلحقه فضل الله لهلك سعيه".

قال الزجاج:" إن قَالَ قَائِلٌ: إن الله ﷻ يَرَى عَمَلَ كل عَامِلٍ ويعلمه، فما معنى {سَوْفَ يُرَى}؟ فالمعنى: أنه يرى العَبْدُ سَعْيَهُ يوم القيامَةِ، أي: يرى في مِيزَانه عَمَلَه".

قال ابن عطية:" {يُرى} فاعله حاضر والقيامة، أي: يراه الله ومن شاهد الأمر، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين وتوبيخ للمسيئين، ومنه قول النبي ﷺ: «من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة» ".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى} [النجم: ٤١]، أي:" ثم يُجزى الإنسان على سعيه الجزاء المستكمل لجميع عمله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم يُثاب بسعيه ذلك الثواب الأوفى. وإنما قال جل ثناؤه {الأوْفَى}، لأنه أوفى ما وعد خلقه عليه من الجزاء".

قال الزجاج:" أي: يجزي عمله أوفى جزاء".

قال السمعاني:" أي: الأكمل الأتم".

=

=

قال السعدي: "أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد".

قوله تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم: ٤٢]، أي:" وأنَّ إلى ربك -أيها الرسول- انتهاء جميع خلقه يوم القيامة".

قال ابن كثير:" أي: المعاد يوم القيامة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وأن إلى ربك يا محمد انتهاء جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم".

قال الثعلبي:" أي: منتهى الخلق ومصيرهم، وهو مجازيهم بأعمالهم، وقيل: منه ابتداء المنّة وإليه انتهاء الآمال".

قال السمعاني:" أي: مصير العباد ومرجعهم إليه".

قال السعدي: "أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات".

قال الزجاج:" أي: إليه المرجع، وهذا كله في صحف إبراهيم ومُوسَى".

عن عمرو بن ميمون الأَوْديّ قال: "قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار".

قال محمد بن علي الباقر: "تاه فيه العقول". أي: "تحيرت".

فعلى هذا معنى الآية: "أن العقول إذا انتهت إلى أوصافه تحيرت، يعني: أنها لا

=

=

تدرك أوصافه على الكمال".

وفي بعض التفاسير: "أن بعض الملائكة تفكر في الله تعالى فصيحت عليه صيحة، فتاه عقله، فهو يسمى بين الملائكة التائه".

عن سفيان الثوري -من طريق عبد العزيز بن خالد- في قوله: {وأَنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى}، قال: "لا فِكرة في الرّبّ".

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: مر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله، فقال: «تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره».

وفي الصحيح: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَه".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣)} [النجم: ٤٣]

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأن ربك هو أضحك أهل الجنة في الجنة بدخولهم إياها، وأبكى أهل النار في النار بدخولهموها، وأضحك من شاء من أهل الدنيا، وأبكى من أراد أن يبكيه منهم".

قال الزمخشري:" خلق قوتي الضحك والبكاء".

قال ابن كثير:" أي: خلق في عباده الضحك، والبكاء وسببهما وهما مختلفان".

قال السعدي: "أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك".

قال مجاهد في الآية:" أضحك أهلَ الجنة في الجنة، وأبكى أهلَ النار في النار".

قال الضحاك:" أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر".

قال الحسن البصري: "هو خلق الضحك والبكاء".

قال عطاء الخراساني: "{وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكى}، يعني: أفرحَ وأحزنَ".

قال القشيري:" أراد به الضحك والبكاء المتعارف عليهما بين الناس فهو الذي

=

=

يجريه ويخلقه.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

ويقال: أضحك أهل الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافر في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافر بهوانه.

ويقال: أضحك قلوب العارفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداء بسخطه ".

عن حبان الطائي، قال: "شهدت جنازة أم مصعب بن الزبير وفيها ابن عباس على أتان له فمر، وحاذى عبد الله بن عمرو وابن عمر وقال: فسمعوا أصوات صوائح، قال: قلت: يا ابن عباس يصنع هذا وأنت هاهنا قال: «دعنا منك يا حبان فإن الله أضحك وأبكى» ".

عن قتادة، قال: "سُئل عبد الله بن عمر: هل كان أصحاب رسول الله- ﷺ- يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظمُ مِن الجبل".

عن سِماك بن حرب، قال: "قلت لجابر بن سَمُرة: أكنتَ تجالس النبيَّ - ﷺ -؟ قال: نعم، وكان أصحابه يجلسون، ويتناشدون الشِّعر، ويذكرون أشياء مِن أمر الجاهلية، فيضحكون، ويتبسّم معهم إذا ضحكوا. يعني: النبي- ﷺ -".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أفرأيت الذي تولى} الخطاب في قوله: {أفرأيت} للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني وكلما جاءت (أرأيت) في القرآن فهي

=

=

بمعنى أخبرني {الذي تولى}، أي: عن طاعة الله ﷻ وعن الإيمان بالله ورسوله ﷺ وعن إقامة شعائر الإسلام، {وأعطى قليلًا وأكدى} يعني أحيانًا يعطي، وإذا أعطى أعطى قليلًا، وأحيانًا يكدي، أي: يمنع فلا يعطي شيئًا، لأنه ليس ينفق المال ابتغاء وجه الله، فلذلك كانت حاله بين أمرين: إما المن، أو الإعطاء قليلًا، قالوا: وأكدى مأخوذة من الكدية، وهي الصخرة الشديدة التي لا تتفتت إلا بالمعاول، فهذا الرجل ليس مطيعًا لله وليس نافعًا لعباد الله فهو متولٍ عن طاعة الله، وهو مانع فضل الله ﷻ، ولهذا يقول الله ﷻ: {أفرأيت} وهذا الاستخبار ليس لعدم علمه جل وعلا، ولكن لشحذ النفوس والهمم إلى الاستماع إلى ما يلقى، وهذا الذي أعطى قليلًا وأكدى، يزعم أنه إذا بعث فإنه سوف يعطي المال الكثير، وهذه عادة من ينكر البعث، كما في صاحب الجنة الذي قال: {ولئن رددت إلى ربي لأَجدن خيرًا منها منقلبًا} فهو يظن أنه سوف يمتع في الدنيا ويمتع في الآخرة أكثر وأكثر إن كان آمن بها، قال الله تعالى: {أعنده علم الغيب فهو يرى} وهذا الاستفهام استفهام استنكار بمعنى النفي، يعني ليس عنده علم الغيب، وهو يرى أنه سينتقل إلى دار أفضل من التي هو فيها، وعلى هذا فتكون الجملة جملة نفي، وليست جملة إثبات، وليست جملة استخبار، بل هي جملة نفي واستنكار، إذ لا أحد عنده علم الغيب، ولولا ما أخبر الله به من النعيم في الجنة والجحيم لأهل النار، ما علمنا بهذا شيء.

{أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى} أم هنا للإضراب والمعنى بل: {لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى} ذكر موسى لأن موسى عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل والتوراة هي التي عليها عمدة ما نزل على بني إسرائيل. وصحف إبراهيم عليه السلام أنزلها الله تعالى على إبراهيم فيها المواعظ، وفيها الأحكام، لكن لم يبين لنا منها شيئًا سوى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام

=

=

كان على التوحيد وعلى الملة المستقيمة، كما قال الله تعالى: {إن إبراهيم كان أمةً قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين شاكرًا لأَنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم}.

{وإبراهيم الذي وفى} ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه أبو الأنبياء، فهو أبو الأنبياء في بني إسماعيل، وأبو الأنبياء في بني إسرائيل، وهنا قدم موسى على إبراهيم، وفي سورة الأعلى قدم إبراهيم على موسى، ولا شك أن الأحق بالتقديم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه أسبق زمنًا وأعلى مرتبة، ولكن مراعاة لفواصل الآيات قدم موسى، ولأجل الثناء الخاص بإبراهيم قدم موسى، وقوله تعالى: {وإبراهيم الذي وفى} أي وفَّى بما أمر به ربه، ومن أعظم ما وفاه أنه أمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله عَزَّ وَجَلَّ وصمم على تنفيذه، حتى إنه تله على جبينه ليمر السكين على رقبته، ولكن الفرج من عند الله {وفديناه بذبح عظيم} والذي في هذه الصحف قال: {ألا تزر وازرة وزر أخرى} هذه بيان ما في صحف إبراهيم وموسى {ألا تزر وازرة وزر أخرى} أي: لا تحمل إثم {وزر أخرى} أي: أن الإنسان لا يحمل ذنب غيره، إلا أنه يستثنى من ذلك، إذا كان صاحب سنة آثمة فإن عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولكن الحقيقة أن هذا لا يتحمل وزر غيره، لأن غيره قد وزر وأثم، لكن هو تحمل إثم السنة السيئة والبدء بالشر، فيكون حقيقة أنه لم يوزر وزر غيره ولكنه وزر بوزر نفسه {ألا تزر وازرة وزر أخرى} وقد كذَّب الله تعالى قول الذين كفروا للذين آمنوا {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم} فقال الله تعالى: {وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون} حتى لو قال لك القائل: افعل هذا الذنب والإثم عليَّ فإنه لا يتمكن من هذا، ولا يمكن، فإن فعل هذا، وقيل له: الإثم عليَّ فالإثم على الفاعل، ثم إن كان الفاعل ممن يغتر بالقول ولا يفهم، فعلى القائل إثم التغرير، أي أنه غرر وخدع {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} يعني ليس للإنسان

=

=

من الثواب إلا ثواب ما سعى وما عمل، فلا يمكن أن يعطى من ثواب غيره، يعني لا يمكن أن

نأخذ من أجر زيد ونعطيه عمرًا، كما لا يمكن أن نأخذ من سيئات زيد ونضيفها إلى سيئات عمرو، فهذا لا يمكن إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم، فصار الإنسان مرتهن بكسبه: {كل امرئ بما كسب رهين} {كل نفس بما كسبت رهينة} فلا يمكن أن يؤخذ من حسناته إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فيحمل عليها إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم.

وقد استدل بعض أهل العلم على أنه لا يمكن أن ينتفع الميت بثواب عمل غيره، لأن الله قال: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} وعلى هذا فلو أنك صليت ركعتين لزيد وهو ميت، أو صمت يومًا لزيد وهو ميت فإنه لا ينفعه، لعموم قوله: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} فإذا أورد عليهم أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» قالوا: هذا في الواجب، لأن عليه صيام وليس في التطوع، وكذلك الحج الواجب لحديث: «أفحج عنه؟» قال: «نعم»، وإذا أورد عليهم أن رجلًا قال يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، وأظنها لو بقيت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»، قالوا: هذا مستثنى بالنص، وليس لنا أن نرد النص. والعام يجوز تخصيصه بحكم مخالف، وإذا أورد عليهم قول سعد بن عبادة رضي الله عنه في مخارفه أي في نخله الذي يخرف أنه يريد أن يجعله صدقة لأمه فأجاز النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم

قالوا: هذا ورد به النص، وما ورد به النص فإنه لا يمكن أن يرد، لأن نصوص الشريعة الإسلامية جاءت بتخصيص العام، يعني بإخراج بعض أفراد العام، فيحكم له بحكم مخالف لأحكام العام، وعلى هذا نقول: لا يمكن أن ينتفع الإنسان بعمل غيره حيًّا كان أو ميتًا إلا ما وردت به السنة، ولا شك أن هذا القول

=

له وجهة نظر قوية، ولكن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أي قربة فعلها وجعل ثوابها لميت أو حي من المسلمين فإن ذلك ينفعه، وقال: إن الذي وقع قضايا أعيان، بمعنى أن رجلًا حصلت له حادثة فسأل النبي ﷺ فأجازها، فإذا أجاز الرسول عليه الصلاة والسلام جنس العبادات ولو كانت مالية دل ذلك على جواز جنس جميع العبادات، وقالوا أيضًا: الصيام ليس عبادة مالية، ومع ذلك قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وإذا أجيز هذا في الواجب، والواجب متحتم، فهو كالدين، والدين إذا قضاه الغير عن المدين أجزى، وحملوا قوله تعالى: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} على أن المعنى أنه لا يمكن أن يأخذ من عمل غيره، لكن إذا أهدى إليه غيره من العمل فإنه لا بأس به، كما أن الإنسان ليس له التصرف في مال غيره، ولو أعطاه شخص مالًا لتصرف فيه. وقد نقل الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) في هذا الموضع عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يجوز إهداء القرب وأن الميت ينتفع بذلك، وذكر لهذا أكثر من عشرين وجهًا، فمن أحب أن يراجعه فليراجعه.

وعلى كل حال حتى ولو قلنا بما ذهب إليه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أي قربة فعلها الإنسان وجعلها لمسلم فإن ما عليه عمل الناس اليوم مخالف لهذا الكلام، إذ إن الناس اليوم تجدهم يهدون كثيرًا من العمل الصالح للأموات، يعتمر للميت دائمًا ويصوم عنه تطوعًا دائمًا، ويضحي عنه دائمًا، ولو ضحى لنفسه كل هذا ليس من عمل السلف، والسلف يهتدون بهدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وهدي النبي ﷺ هو أنه قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» فأرشد إلى الدعاء للميت، لكن كونك كل ما سبحت قلت: اللهم اجعل ثوابه لأبي، لأمي، وكل ما عملت تقول: اجعل ثوابه إلى أبي إلى أمي، أو جدي، أو خالي، أو عمي فهذا غير صحيح، وأنت محتاج إلى

=

العمل كما هم محتاجون للعمل، فلا تجعل عملك لهم، اجعل لهما ما أرشدك إليه الرسول ﷺ وهو الدعاء، أما العمل فخص به نفسك. {وأن سعيه سوف يرى} سعيه يعني عمله سوف يرى، وهل المراد ثواب السعي يرى في الآخرة عند الجزاء، أو أن السعي يرى في الدنيا ويعرف، الجواب: أن هذا عام سوف يرى في الدنيا وفي الآخرة، الذي يرى في الآخرة وفي الدنيا هو نفس العمل، ولهذا قال الله تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} يعني عملكم لن يخفى علي {فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى أن بعض الناس إذا عمل عملًا كمكتبة، أو مسجد، أو عمارة للفقراء أو ما أشبه ذلك كتب: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} وهذا لا يجوز، لأن أحد الأطراف الثلاثة لا يمكن أن يراه، وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، صحيح أن الله ﷻ يرى والمؤمنون في هذا الوقت يرون، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يرى، ثم هذا في المنافقين وهو تهديد لهم وليس ثناء عليهم، وعلى كل حال نقول: سعي الإنسان سوف يرى، ولكن قد يستر الله تعالى عن العبد ذنوبه فضلًا منه ومنة، وإذا لاقاه في الآخرة خلا به سبحانه وتعالى وقرره بذنوبه وقال: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا ليست في {صحف إبراهيم وموسى} بل تكون استئنافية، وإذا كانت بالفتح صارت الجملة وما بعدها مما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وعلى كلٍّ فهي كلام الله ﷻ.

{وأن إلى ربك المنتهى} أي: المنتهى في أمور الدين والدنيا، فإلى الله المنتهى في مسائل العلم، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول} والنبي ﷺ لا يقول شيئًا من عنده، إنما هو من عند الله ﷻ فيكون المنتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس: {إلى ربك المنتهى} أي منتهى الخلائق أيضًا؛ لأن هذا

=

=

الخلق الموجود الآن سوف يفنى وينتقل إلى خلق آخر، كما قال الله ﷻ: {أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد} والمنتهى على هذا التقدير هو يوم القيامة، فإلى الله المنتهى، وإلى الله المصير، فمنتهى أحوالنا وأحكامنا وجميع ما يصدر منا وعلينا إلى الله ﷻ وإذا كان إلى الله المنتهى، فإلى من تشكو إذا أصابك الضر؟ إلى الله ﷻ وإذا أردت النفع فتطلبه من الله ﷻ، لأنه المنتهى، وكم من إنسان انعقدت له أسباب الرزق وإذا هو يحرم منها في آخر لحظة، إذًا لا يجلب لك الخير إلا الله، ولا يمنع عنك الضرر إلا الله ﷻ فاجعله منتهاك في كل أمورك، {وأنه هو أضحك وأبكى} هل المراد حقيقة الضحك، أو المراد لازم ذلك وهو الفرح، وكذلك يقال في أبكى: هل المراد حقيقة البكاء، أو المراد الحزن، إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: الضحك الحقيقي، والضحك الحقيقي لا ينشأ إلا عن سرور، وأبكى البكاء الحقيقي، وهو لا يحصل إلا عن حزن، فالله تعالى أضحك في الدنيا وأبكى، وأضحك في الآخرة، وأبكى، والكفار في الدنيا يضحكون على المسلمين، وعلى المؤمنين {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون} لكن هذا الضحك سيعقبه بكاء يوم القيامة {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون} فالذي أضحك في الدنيا وأبكى، والذي أضحك

في الآخرة وأبكى هو الله ﷻ، إذًا هو مقدر ما يكون به الضحك، ومقدر ما يكون به البكاء، وأتى بالأمرين وهما متقابلان، ليعلم بذلك أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهو القادر على خلق الضدين.

(منبهة): قال الله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]، وقد تكررت هذه الآية في السور الآتية: الإسراء، الآية: ١٥، وفاطر، الآية: ١٨، والزمر، الآية: ٧، والنجم، الآية: ٣٨.

وفي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "ولد الزنا شر

=

=

الثلاثة". روي هذا الحديث عن أبي هريرة من طريقين:

الأول: طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، به. وقد رواه عن سهيل:

١ -... خالد بن عبد الله: أخرجه من طريقه: الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣١١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٦٥)، ومن طريق أحمد: ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٧٦٩).

٢ -... سفيان الثوري: أخرجه من طريقه: البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٥٩)، والطحاوي في المشكل

(١/ ٣٦٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٢)، زاد البيهقي في آخره: قال سفيان: "يعني إذا عمل بعمل والديه".

٣ -... جرير بن عبد الحميد: أخرجه من طريقه: أبو داود في سننه، في كتاب العتق، حديث (٣٩٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٣)، وفي الحديث زيادة في آخره، قال أبو هريرة: "لأن أمتع بسوط في سبيل الله ﷻ أحب إلي من أن أعتق ولد زنية".

الثاني: طريق عثمان بن سعيد الدارمي، عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به. أخرجه من هذه الطريق: الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٣) و (٤/ ١١٢)، ومن طريق الحاكم: البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٥٨).

والحديث صححه الحاكم، وأحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٥/ ٢٣٤)، وقال الذهبي في تلخيص العلل المتناهية، ص (٢٧٥)، حديث (٢٧٥): "مع غرابة الحديث سنده قوي"، وحسن إسناده: ابن القيم في المنار المنيف (١/ ١٣٣)، والألباني في الصحيحة (٢/ ٢٨١).

=

=

وعن عبد الله بن عمرو- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا منان، ولا ولد زنية". روي هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو من عدة طرق:

أولا: طريق منصور بن المعتمر، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به.

وله عن منصور عدة طرق:

الأول: طريق سفيان الثوري، عن منصور، به. وقد رواه عن سفيان جمع من الرواة، وهم:

١- عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٥٤)، ومن طريق عبد الرزاق: الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٥٨)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٦٥)، إلا أن ابن خزيمة رواه مختصرا بلفظ: "لا يدخل الجنة ولد زنية".

٢- محمد بن كثير البصري: أخرجه من طريقه: الدارمي في سننه، في كتاب الأشربة، حديث (٢٠٩٣).

٣- مؤمل: أخرجه من طريقه: البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٩١)، وابن خزيمة في التوحيد

(٢/ ٨٦٥)، والمروزي في البر والصلة (١/ ٥٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١١٠)، وليس فيه عند ابن خزيمة قوله: "ولد زنية"، وفي إسناد البيهقي سقط بين سفيان وجابان، وليس في إسناد المروزي ذكر لجابان.

٤- محمد بن كثير: أخرجه من طريقه: ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٥).

٥- يزيد بن هارون: أخرجه من طريقه: عبد بن حميد في مسنده (١/ ١٣٢).

٦- يحيى: أخرجه من طريقه: النسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٥).

=

=

الثاني: طريق جرير، عن منصور بن المعتمر، به.

أخرجه من طريقه: ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٦٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٥).

الثالث: طريق شيبان، عن منصور، به.

أخرجه من طريقه: الطحاوي في المشكل (١/ ٣٧٣)، إلا أنه أورده مختصرا بلفظ: "لا يدخل الجنة ولد زنية".

ثانيا: طريق عمر بن عبد الرحمن، عن منصور بن المعتمر، عن عبد الله بن مرة، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به.

أخرجه من طريقه: الطبري في تهذيب الآثار (٣/ ١٨٨)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٠٩).

ثالثا: طريق شعبة، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن شريط بن نبيط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به.

هكذا رواه شعبة بزيادة شريط بن نبيط بين سالم وجابان، وقد رواه عن شعبة بهذا الإسناد جمع من الرواة، وهم:

١- الطيالسي في مسنده (١/ ٣٠٣)، ومن طريق الطيالسي: البيهقي في الشعب (٦/ ١٩١)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٧٥).

٢- ابن مهدي: أخرجه من طريقه: ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٨)، وليس فيه: "ولد زنية".

٣- محمد بن جعفر: أخرجه من طريقه: ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٦٥)، وليس فيه: "ولد زنية".

٤- عبد الرحمن بن مهدي: أخرجه من طريقه: الدارمي في سننه، في كتاب الأشربة، حديث (٢٠٩٤)، وليس فيه: "ولد زنية".

=

=

٥- وهب: أخرجه من طريقه: البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٢٦٢)، وفي الكبير (٢/ ٢٥٧).

رابعا: طريق سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن عمرو، به.

وقد رواه عن سالم:

١- الحكم: أخرجه من طريقه: النسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٦)، والطبري في تهذيب الآثار

(٣/ ١٨٩)، كلاهما من طريق محمد بن جعفر، عن شعبة، عن الحكم، به. موقوفا على ابن عمرو.

٢- يزيد بن أبي زياد: أخرجه من طريقه: النسائي في الكبرى (٣/ ١٧٦)، عن عمرو بن عثمان، عن بقية، عن شعبة، عن يزيد، به. مرفوعا. وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٣/ ١٨٩)، عن أبي كريب، عن محمد بن العلاء، عن ابن إدريس، عن يزيد، به. مرفوعا. وأخرجه البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٢٦٣)، عن عبدان، عن أبيه، عن شعبة، عن يزيد، به. موقوفا. والحديث فيه خمس علل:

الأولى: الانقطاع، قال البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٢٦٢)، وفي الكبير (٢/ ٢٥٧): "لا يعرف لجابان سماع من عبد الله بن عمرو، ولا لسالم من جابان، ولا من نبيط". اهـ

الثانية: جهالة جابان، قال الذهبي في الميزان (٢/ ١٠٠): "لا يدرى من هو"، وقال ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٦٥): "مجهول".

الثالثة: الاضطراب في إسناده، حيث رواه سفيان الثوري، وجرير، وشيبان، عن منصور بن المعتمر، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو.

ورواه شعبة، عن منصور، عن سالم، عن شريط بن نبيط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، فزاد فيه شعبة ابن نبيط.

=

=

ورواه الحكم، ويزيد بن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن عمرو، فأسقطا منه جابان.

وقد دافع عن هذا الاضطراب ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٨) فقال: "اختلف شعبة والثوري في إسناد هذا الخبر، فقال الثوري: عن سالم عن جابان، وهما ثقتان حافظان، إلا أن الثوري كان أعلم بحديث أهل بلده من شعبة وأحفظ لها منه، ولا سيما حديث الأعمش وأبي إسحاق ومنصور، فالخبر متصل عن سالم عن جابان، فمرة روي كما قال شعبة، وأخرى كما قال سفيان". اهـ

هكذا قال ابن حبان، فهو يرى أن الحديث له طريقان، وليس هناك اضطراب، لكن الحق أن فيه اضطرابا على منصور بن المعتمر، وعلى سالم بن أبي الجعد، ولو سلم له الأول فلن يسلم له الثاني.

الرابعة: الاختلاف في وقفه ورفعه؛ حيث جاء موقوفا من طريق الحكم، عن سالم، عن عبد الله، ومن طريق شعبة، عن يزيد، عن سالم، عن عبد الله، وجاء مرفوعا في بقية الطرق.

الخامسة: اختلاف الرواة في لفظه، فبعضهم لا يذكر ولد الزنا، والبعض الآخر يذكره.

وهذه العلل تضعف الحديث، خاصة الزيادة الواردة في آخره، وهي قوله: "ولا ولد زنية"، إلا أن هذه الزيادة لها شواهد، وقد صححها الألباني في الصحيحة (٢/ ٢٨٥) باعتبار تلك الشواهد، وسيأتي تخريجها والكلام عليها بعد هذا.

وعن ميمونة بنت سعد- مولاة النبي ﷺ- قالت: سئل رسول الله ﷺ عن ولد الزنا فقال: "لا خير فيه، نعلان أجاهد بهما في سبيل الله أحب إلي من أن أعتق ولد زنا". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٦٣)، وابن ماجة في سننه، في كتاب الأحكام، حديث (٢٥٣١)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٥)، وإسحاق بن

=

=

راهويه في مسنده (٥/ ١٠٨)، والطحاوي في المشكل (١/ ٣٧٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ٢١٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٣٤)، جميعهم من طريق إسرائيل بن يونس، عن زيد بن جبير، عن أبي يزيد الضبي، عن ميمونة، به.

والحديث إسناده ضعيف؛ من أجل أبي يزيد الضبي، فإنه رجل مجهول، قال البخاري - فيما نقله عنه الترمذي في العلل (١/ ١١٧): "أبو يزيد لا أعرف اسمه، وهو رجل مجهول"، وقال الدارقطني في سننه (٢/ ١٨٤): "أبو يزيد الضبي ليس بمعروف"، وكذا قال أبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٨٩)، وابن حزم في المحلى (٦/ ٣٤٠)، (٨/ ١٩٩)، وقال عبد الغني بن سعيد وابن ماكولا: "منكر الحديث". انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر (١٢/ ٣٠٥).

وممن حكم بضعف الحديث: البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ١٠١)، والألباني في ضعيف ابن ماجة (١/ ٢٠٠). وقد روي موقوفا على عمر - رضي الله عنه -، أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٥٥)، عن معمر، عن الزهري قال: بلغني أن عمر بن الخطاب كان يقول: "لأن أحمل على نعلين في سبيل الله أحب إلي من أن أعتق ولد الزنا". وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٠٧)، قال: حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، به. وهذا الأثر عن عمر ضعيف؛ للانقطاع بين الزهري وعمر. وروي موقوفا على عائشة رضي الله عنها، أخرجه ابن أبي شيبة في الموضع السابق (٣/ ١٠٨)، قال: حدثنا ابن فضيل، عن يزيد، عن مجاهد، عن عائشة قالت: "لأن أتصدق بثلاث نويات، أو أمتع بسوط في سبيل الله، أحب إلي من أن أعتق ولد الزنا". وهذا الإسناد ضعيف؛ من أجل يزيد، وهو ابن أبي زياد، القرشي الهاشمي، ضعفه الحافظ ابن حجر في التقريب (٣/ ٣٧٣).

وقد روي في أولاد الزنا أحاديث أخر غير ما تقدم، وهي:

=

أولا: حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل ولد الزنا الجنة، ولا شيء من نسله، إلى سبعة آباء".

أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١/ ٤٢٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٢)، ومن طريق عبد بن حميد: ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١١١)، جميعهم من طريق عمرو بن أبي قيس، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن أبي هريرة، به.

قال الطبراني: "لم يروه عن إبراهيم إلا عمرو". اهـ

قال الألباني في الضعيفة (٣/ ٤٣٦): "وعمرو صدوق له أوهام، لكن شيخه إبراهيم بن المهاجر - وهو ابن جابر البجلي - صدوق لين الحفظ؛ فهو علة الحديث". اهـ

وأورده ابن الجوزي في "الموضوعات" (٣/ ١١١) وقال: "لا يصح، إبراهيم بن مهاجر ضعيف". وكذا قال السيوطي في "اللآلىء" (٢/ ١٩٣).

ورواه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٧٠- ٣٧١)، من طرق عن مجاهد، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن أبي ذباب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة ولد زنية".

قال الدارقطني في العلل (٩/ ١٠٢): "اختلف على مجاهد في هذا الحديث: فرواه أبو إسرائيل الملائي عن فضيل بن عمرو عن مجاهد عن ابن عمر عن أبي هريرة، وخالفه إبراهيم بن مهاجر، فرواه عن مجاهد عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد بن أبي ذباب، عن أبي هريرة، ورواه الحسن بن عمر الفقيمي؛ واختلف عنه، فرواه أبو شهاب الحناط عن الحسن بن عمرو عن مجاهد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن أبي ذباب عن أبي هريرة، وقال مروان بن معاوية الفزاري: عن الحسن بن عمرو عن مجاهد، نحو قول أبي شهاب، ورواه ابن فضي

=

وعبد الرحمن بن مغراء وعمرو بن عبد الغفار عن الحسن بن عمرو عن مجاهد عن أبي هريرة، لم يذكروا بينهما أحدا، والأشبه من ذلك قول من ذكر ابن أبي ذباب". اهـ

وكذا قال أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٤٩) وزاد: "وتارة عن مجاهد عن مولى لأبي قتادة عن أبي قتادة، وتارة عن مجاهد عن أبي سعيد الخدري، وتارة عن مجاهد عن ابن عباس، وتارة عن مجاهد عن أبي زيد الجرمي، وتارة عن مجاهد مرسلا". اهـ وانظر: السنن الكبرى للنسائي (٣/ ١٧٧).

وقد تكلم على الحديث جماعة من العلماء كالحافظ ابن حجر في "تخريج الكشاف" (٤/ ٥٧٦)، والسخاوي في "المقاصد الحسنة"، ص (٥٤٨)، وابن القيم في "المنار المنيف" (١/ ١٣٣)، وابن عراق في "تنزيه الشريعة" (٢/ ٢٢٨)، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢/ ١٦٤)، وابن طاهر في "تذكرة الموضوعات"، ص (١٨٠)، واتفقوا جميعا على أنه ليس على ظاهره، وعلى أنه ليس له إسناد صالح للاحتجاج به. وانظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني (٣/ ٤٤٧).

ثانيا: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فرخ الزنا لا يدخل الجنة".

أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٦٦)، من طريق حسان بن غالب، عن يعقوب بن عبدالرحمن، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، به.

وفي سنده حسان بن غالب، متروك.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٤٤٨- ٤٤٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١١٠)، من طريق حمزة بن داود، عن محمد بن زنبور، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن سهيل، به.

قال الألباني في الضعيفة (٣/ ٦٥٧): "حمزة بن داود لم أجد له ترجمة، ومحمد

=

=

بن زنبور: ضعيف".

ثالثا: حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: "ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم".

أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٢)، جميعهم من طريق مروان بن معاوية، عن الحسن بن عمرو، عن معاوية بن إسحاق، عن جليس له بالطائف، عن عبد الله بن عمرو، به.

وهذا سند ضعيف من أجل إبهام شيخ معاوية، والحديث ضعفه الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٩٩).

رابعا: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: "يحشر أولاد الزنا في صورة القردة والخنازير".

أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٧٥)، والخطيب البغدادي في تالي تلخيص المتشابه (١/ ٥٤)، كلاهما من طريق عارم أبي النعمان، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن زيد بن عياض، عن عيسى بن حطان، عن عبد الله بن عمرو، به. وفي سنده زيد بن عياض ضعفه العقيلي، وأورده الحافظ ابن حجر في الميزان (٢/ ٥٠٩)، ونقل تضعيف العقيلي له، والحديث أورده السيوطي في اللآلئ (٢/ ١٦٢- ١٦٣)، وحكم بوضعه.

* وظاهر الأحاديث أن ولد الزنا ملوم بفعل أبويه، وأنه بسبب زناهما صار هو شر الثلاثة، وأنه لا يدخل الجنة، وأنه لا خير فيه، وهذا الظاهر يوهم معارضة الآية، التي فيها أن أحدا لا يحمل من إثم غيره شيئا، إلا أن يكون له فيه تسبب، وولد الزنا لا ذنب له في زنا أبويه، ولم يتسبب في زناهما، فكيف جاز أن يلام ويعاقب على فعل ليس له فيه تسبب؟.

=

=

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

أولا: مسالك العلماء في حديث: "ولد الزنا شر الثلاثة": للعلماء في دفع التعارض بينه وبين الآية مسلكان:

الأول: مسلك قبول الحديث، وتأويله على معنى لا يعارض الآية.

وعلى هذا المسلك الجمهور من العلماء، وقد اختلفوا في تأويل الحديث على مذاهب:

الأول: أن هذا الشر ـ الذي يلحق ولد الزنا ـ إنما هو في حال إذا عمل الولد بعمل أبويه.

وهذا التأويل روي من قول سفيان الثوري عند روايته للحديث، وهو اختيار المناوي، والألباني.

وأيد الألباني هذا التأويل بما روي عن عائشة، وابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ولد الزنا شر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه". (٣)

قال: "وهذا التفسير، وإن لم يثبت رفعه، فالأخذ به لا مناص منه؛ كي لا يتعارض الحديث مع النصوص القاطعة في الكتاب والسنة أن الإنسان لا يؤاخذ بجرم غيره". اهـ

المذهب الثاني: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما قصد بكلامه هذا إنسانا بعينه، كان يؤذي النبي – صلى الله عليه وسلم –، وكان مع أذيته له ولد زنا، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "هو شر الثلاثة"، باعتبار أذاه.

وهذا التأويل جاء مرفوعا من حديث عائشة رضي الله عنها، فعن عروة قال: بلغ عائشة رضي الله عنها أن أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولد الزنا شر الثلاثة"، فقالت: يرحم الله أبا هريرة، أساء سمعا، فأساء إجابة، لم يكن الحديث على هذا، إنما كان رجل يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنه مع ما به ولد زنا"، وقال

=

=

رسول الله ﷺ: "هو شر الثلاثة". ولكنه حديث ضعيف، لكن جاء عن عائشة ما يؤيد رواية ابن إسحاق؛ فعن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أنها كانت إذا قيل لها: هو شر الثلاثة، عابت ذلك وقالت: ما عليه من وزر أبويه، قال الله: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ".

أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٥٤)، عن معمر، وسفيان، كلاهما عن هشام، به. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٠٧)، عن عبدة، عن هشام، به. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٥٨)، من طريق أبي نعيم، عن سفيان، عن هشام، به. وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ١٣٦)، من طريق يزيد بن هارون، عن سفيان، عن هشام، به. وهو صحيح بهذه الأسانيد.

واختار هذا التأويل: أبو جعفر الطحاوي، وأبو محمد ابن حزم.

ولأبي جعفر تأويل آخر في معنى الحديث حيث قال: "يحتمل أن يكون المراد بالحديث هو من تحقق بالزنا حتى صار غالبا عليه، فيكون بذلك شرا ممن سواه، ممن ليس كذلك". اهـ

وهذا التأويل ذكره أيضا في الجواب على حديث: "لن يدخل الجنة ولد زنية"، وسيأتي.

المذهب الثالث: أن شر الأبوين عارض، وولد الزنا نطفته خبيثة، فشره في أصله، وشر الأبوين من فعلهما.

وهذا التأويل قال به ابن القيم؛ فإنه ذكر حديث: "لا يدخل الجنة ولد زنا"، ثم حكى قول ابن الجوزي: إنه معارض لآية: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [فاطر: ١٨] ثم قال ابن القيم: "وليس هو معارض لها - إن صح - فإنه لم يحرم الجنة بفعل والديه، بل لأن النطفة الخبيثة لا يتخلق منها طيب في الغالب، ولا يدخل الجنة إلا نفس طيبة، فإن كانت في هذا الجنس طيبة دخلت الجنة، وكان الحديث من العام

=

=

المخصوص.

قال: وقد ورد في ذمه أنه شر الثلاثة، وهو حديث حسن، ومعناه صحيح بهذا الاعتبار، فإن شر الأبوين عارض، وهذا نطفة خبيثة، فشره في أصله، وشر الأبوين من فعلهما". اهـ

ويرد على هذا القول: أن النطفة إنما خبثت بفعل الأبوين، والولد المتخلق منها لا ذنب له في خبثها، فكيف يكون خبيثا وهو لم يقصد الخبث، ولم يتسبب فيه؟ وعليه فالإشكال باق ولم يتم دفعه.

المذهب الرابع: أن معنى الحديث أن ولد الزنا شر الثلاثة نسبا.

وهذا تأويل السرخسي حيث قال: "تأويل الحديث: (شر الثلاثة نسبا) فإنه لا نسب له، أو أن النبي - ﷺ - قال ذلك في ولد زنا بعينه نشأ مرتدا، فكان أخبث من أبويه.

قال: وذلك لأن لأولاد الزنا من الحرمة ما لسائر بني آدم، ولا ذنب لهم، وإنما الذنب لآبائهم، كما ذكر عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تتأول في أولاد الزنا: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤] ". اهـ (٣)

المذهب الخامس: أن ولد الزنا إنما يذم لأنه مظنة أن يعمل عملا خبيثا.

وهذا تأويل شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: "ولد الزنا إن آمن وعمل صالحا دخل الجنة، وإلا جوزي بعمله كما يجازى غيره، والجزاء على الأعمال لا على النسب، وإنما يذم ولد الزنا لأنه مظنة أن يعمل عملا خبيثا، كما يقع كثيرا، كما تحمد الأنساب الفاضلة لأنها مظنة عمل الخير، فأما إذا ظهر العمل فالجزاء عليه، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم". اهـ

المسلك الثاني: مسلك تضعيف الحديث وعدم قبوله.

وهذا المسلك حكاه ابن عبد البر عن الإمام مالك.

=

=

وإليه ذهب أبو بكر الجصاص في كتابه "أحكام القرآن"؛ فإنه حكم على الحديث بالضعف، لشذوذه، ومخالفته للأصول، لكنه في كتابه "الفصول في الأصول" (٣) ذهب إلى قبول الحديث مع تأويله، على نحو ما جاء في المذهب الثاني، حيث قال: "وأما حديث أبي هريرة - في ولد الزنا أنه شر الثلاثة - فإنما معناه عندنا أنه أشار به إلى أشخاص بأعيانهم، فحكم فيهم بهذا الحكم؛ لعلمه عليه السلام بأحوالهم التي يستحقون بها ذلك". اهـ

وممن ذهب إلى تضعيف الحديث: ابن الجوزي؛ فإنه أورده في العلل المتناهية، وقال: لا يصح.

وقد جاء عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، ما يدل على معارضتهما للحديث:

فعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت إذا قيل لها في ولد الزنا: هو شر الثلاثة، عابت ذلك وقالت: ما عليه من وزر أبويه، قال الله: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) "..

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في ولد الزنا: "لو كان شر الثلاثة لم يتأن بأمه أن ترجم حتى تضعه".

وعن ميمون بن مهران، أنه شهد ابن عمر صلى على ولد زنا فقيل له: إن أبا هريرة لم يصل عليه، وقال: هو شر الثلاثة. فقال ابن عمر: "هو خير الثلاثة".

وروي نحو ذلك عن عكرمة، والشعبي (٣).

ثانيا: مسالك العلماء في حديث: "لا يدخل الجنة ولد زنية": للعلماء في دفع التعارض بينه وبين الآية مسلكان:

الأول: مسلك قبول الحديث، وتأويله على معنى لا يعارض الآية.

وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في تأويل الحديث على مذاهب:

الأول: أن المراد بالحديث هو من تحقق بالزنا حتى صار غالبا عليه.

وهذا التأويل قال به أبو جعفر الطحاوي، وهو اختيار الألباني.

=

=

قال الطحاوي ـ بعد أن ساق الحديث ـ: "هذا الحديث أريد به من تحقق بالزنا حتى صار غالبا عليه، فاستحق بذلك أن يكون منسوبا إليه، فيقال: هو ابن له، كما ينسب المتحققون بالدنيا إليها، فيقال لهم: بنو الدنيا، لعملهم لها، وتحققهم بها، وتركهم ما سواها، وكما قد قيل للمتحقق بالحذر: ابن أحذار، وللمتحقق بالكلام: ابن الأقوال، وكما قيل للمسافر: ابن سبيل، وكما قيل للمقطوعين عن أموالهم، لبعد المسافة بينهم وبينها: أبناء السبيل، كما قال تعالى في أصناف أهل الزكاة: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ [التوبة: ٦٠]، حتى ذكر فيهم ابن السبيل...، ومثل ذلك ابن زنية، قيل لمن قد تحقق بالزنا حتى صار بتحققه به منسوبا إليه، وصار الزنا غالبا عليه، أنه لا يدخل الجنة بهذه المكان التي فيه، ولم يرد به من كان ليس من ذوي الزنا الذي هو مولود من الزنا". اهـ

المذهب الثاني: أن الحديث محمول على الغالب؛ فإن ولد الزنا في الغالب لخباثة نطفته يكون خبيثا لا خير فيه، فلا يعمل عملا يدخل به الجنة.

وهذا التأويل قال به ابن حبان، وهو اختيار الآلوسي.

قال ابن حبان: "معنى نفي المصطفى- ﷺ- عن ولد الزنية دخول الجنة ـ وولد الزنية ليس عليهم من أوزار آبائهم وأمهاتهم شيء ـ أن ولد الزنية على الأغلب يكون أجسر على ارتكاب المزجورات، أراد- ﷺ- أن ولد الزنية لا يدخل الجنة، جنة يدخلها غير ذي الزنية، ممن لم تكثر جسارته على ارتكاب المزجورات". اهـ (٣)

المذهب الثالث: أن المراد بالحديث: أن ولد الزنا لا يدخل الجنة إذا عمل بعمل أبويه.

وهذا التأويل قال به البيهقي، والحافظ ابن حجر، فيما نقله عنه السخاوي.

المذهب الرابع: أن المراد بالحديث: أنه لا يدخل الجنة مع السابقين الأولين.

=

=

وهذا التأويل قال به المناوي، قال: "وذلك لأنه يتعثر عليه اكتساب الفضائل الحسنة، ويتيسر له رذائل الأخلاق". اهـ

المذهب الخامس: أن المراد بالحديث: أنه لا يدخل الجنة بعمل أصليه، بخلاف ولد الرشد؛ فإنه إذا مات طفلا وأبواه مؤمنان ألحق بهما، وبلغ درجتهما بصلاحهما، على ما قال تعالى: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) [الطور: ٢١]، وولد الزنا لا يدخل بعمل أصليه، أما الزاني فنسبه منقطع، وأما الزانية فشؤم زناها ـ وإن صلحت ـ يمنع من وصول بركة صلاحها إليه.

وهذا التأويل قال به الطالقاني.

المذهب السادس: أن الحديث فيه تغليظ وتشديد على ولد الزنية، تعريضا بالزاني؛ لئلا يورطه في السفاح، فيكون سببا لشقاوة نسمة بريئة.

وهذا التأويل قال به الطيبي، قال: "ومما يؤذن أنه تغليظ وتشديد: سلوك ولد الزنية في قرن العاق والمنان ومدمن الخمر، ولا ارتياب أنهم ليسوا من زمرة من لا يدخل الجنة أبدا". اهـ (٣)

المسلك الثاني: مسلك تضعيف الحديث.

حيث ذهب جمع من العلماء إلى أن الحديث لا يصح عن النبي - ﷺ -؛ فوصفه بالاضطراب الدارقطني، وضعفه الحافظ ابن حجر، وحكم عليه بالوضع: ابن الجوزي، والسيوطي، وابن عراق، وابن طاهر، والعجلوني، والشوكاني.

ثالثا: مسالك العلماء في حديث: "نعلان أجاهد بهما في سبيل الله أحب إلي من أن أعتق ولد زنا".

هذا الحديث لم يصححه أحد من العلماء حسب ما وقفت عليه، وقد تأوله الطحاوي بعد روايته له، بأنه محمول على من تحقق بالزنا حتى صار غالبا عليه.

وتأوله السندي: بأن المراد أن أجر إعتاقه قليل، وذلك لأن الغالب عليه الشر

=

=

عادة، فالإحسان إليه قليل الأجر، كالإحسان إلى غير أهله..

والتحقيق أنه لا يصح في المسألة إلا حديث أبي هريرة- رضي الله عنه -، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "ولد الزنا شر الثلاثة"، وأما بقية الأحاديث فلا يصح منها شيء، وقد بينت في أول المسألة ما فيها من علل.

والذي يظهر لي في معنى حديث أبي هريرة: أن ولد الزنا هو شر الثلاثة شؤما بالزنا، وأن معنى قوله- صلى الله عليه وسلم -: "شر الثلاثة" أي: أشد الثلاثة تضررا بالزنا، وذلك لأن الأبوين إذا تابا وسترا على أنفسهما فقد اندفعت عنهما معرة الزنا، فلا يعلم أحد بحالهما، وأما الابن فلا يزال شؤم الزنا يلاحقه طيلة حياته، فهو معروف بين الناس بأنه ولد زنا، ولا يستطيع بحال أن يتخلص من ذلك، ومن هذا الباب أصبح شر الثلاثة، أي شر الثلاثة شؤما بالزنا، وهذا المعنى لا يلزم منه أن يكون ابن الزنا ملوما بزنا أبويه، أو أنه يعاقب على ذلك، بل هو بريء كل البراءة من إثم أبويه، وإذا كان صالحا لم يلحقه من شؤم الزنا إلا وصفه به، ولا يلحقه من إثم أبويه شيء.

وقد جاء في السنة إطلاق الشر على الضرر، وإن لم يكن الموصوف به آثما أو ملاما عليه، فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار، وقد أنزلت عليه: (والمرسلات عرفا) [المرسلات: ١] فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حية فقال: اقتلوها، فابتدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقاها الله شركم، كما وقاكم شرها". (٣) ففي هذا الحديث تسمية النبي- صلى الله عليه وسلم- مبادرة الصحابة لقتل الحية شرا، وليس في وصفه- صلى الله عليه وسلم- لفعلهم بالشر ما يدل على كراهته له أو تحريمه، وإنما سماه النبي- صلى الله عليه وسلم- شرا باعتبار الضرر الذي يلحق الحية؛ لا باعتبار أن الفعل شر، أو أن فاعله آثم، والله تعالى أعلم. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

=

=

(منبهة): قال الله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) [النجم: ٣٩].
وفي الحديث عن عائشة- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أن رجلا قال للنبي- ﷺ -: إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: "نعم، تصدق عنها". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوصايا، حديث (٢٧٦٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الوصية، حديث (١٠٠٤). واللفظ للبخاري.
وفي الباب عن ابن عباس- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أن سعد بن عبادة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- توفيت أمه وهو غائب عنها فقال: "يا رسول الله: إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال: نعم. قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوصايا، حديث (٢٧٥٦).
وعن أبي هريرة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، أن رجلا قال للنبي ﷺ: "إن أبي مات وترك مالا ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الوصية، حديث (١٦٣٠).
وعن عائشة- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أن رسول الله- ﷺ- قال: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصوم، حديث (١٩٥٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصيام، حديث (١١٤٧). وفي الباب عن بريدة بن الحصيب، وابن عباس- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أما حديث بريدة: فأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصيام، حديث (١١٤٩)، عن بريدة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: "بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت. قال: فقال: وجب أجرك، وردها عليك الميراث. قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: صومي عنها. قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجي عنها".
وعن ابن عباس- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي
=

=

نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: "نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضية؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء".

أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحج، حديث (١٨٥٢). وفي الباب عن بريدة- رَضِوَاللَّهُعَنْهُ -، وقد تقدم.

* ظاهر الآية الكريمة أن الميت ليس له من ثواب الأعمال إلا ما سعى إليه بنفسه في حياته، وأنه لو أهدى إليه أحد من الأحياء ثواب عمله لم ينتفع به، وأما الأحاديث فظاهرها يدل على انتفاع الميت بالصدقة، والصوم، والحج، وأن ثواب هذه الأعمال يصل إلى الميت، إذا أهديت إليه من الأحياء، وهذا يوهم الاختلاف والتناقض بين الآية والأحاديث.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بين الآية والأحاديث:

وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في الجمع على مذاهب:

الأول: مذهب إعمال حديث الصدقة، وتأويل الآية.

وهذا محل إجماع بين علماء أهل السنة، حيث أجمعوا على وصول ثواب الصدقة إلى الميت مطلقا، سواء كانت من ولده أو من غيره، حكى الإجماع: ابن عبد البر، والنووي، وغيرهم.

الثاني: مذهب إعمال حديث الصوم، وتأويل الآية.

وهذا مذهب الإمام أحمد، وعلق الشافعي في القديم القول به على صحة الحديث، فقال: "قد روي في الصوم عن الميت شيء؛ فإن كان ثابتا صيم عنه، كما يحج عنه". اهـ

وهو قول: الربيع بن أنس، وطاووس، والحسن البصري، والزهري، وقتادة، وأبي

=

=

ثور، والليث، وإسحاق، وأبي عبيد.

واختاره: ابن خزيمة، والنحاس، وابن حبان، وابن حزم، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن عطية، وابن الجوزي، والفخر الرازي، وابن قدامة، وأبو العباس القرطبي، وعز الدين بن عبد السلام، وأبو عبد الله القرطبي، والنووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، والآلوسي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين.

حيث ذهب هؤلاء إلى وصول ثواب الصوم إلى الميت، على اختلاف بينهم في نوع الصوم، فبعضهم أطلق فيه، فجعله شاملا لصوم النذر، وقضاء رمضان، والكفارات الواجبة، وغيرها، والبعض الآخر قيده بالنذر، فلا يصام عن الميت إلا ما نذره في حياته، ولم يف به.

الثالث: مذهب إعمال حديث الحج، وتأويل الآية.

وهذا مذهب: مالك في رواية، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد.

وروي عن عكرمة، والربيع.

واختاره: ابن خزيمة، والنحاس، وابن حبان، والخطابي، ومكي بن أبي طالب- إلا أنه اشترط أن يوصي الميت- وابن حزم، وابن عبد البر، وابن العربي، والقاضي عياض، وابن عطية، والفخر الرازي، وابن قدامة، وأبو العباس القرطبي، وعز الدين بن عبد السلام، وأبو عبد الله القرطبي، والنووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، والآلوسي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين.

ومذهب هؤلاء جميعا جواز الحج عن الميت، وأن ثواب الحج يصل إليه، وينتفع به.

أجوبة القائلين بإعمال الأحاديث عن الآية الكريمة:

اختلف القائلون بإعمال أحاديث الصدقة والصوم والحج، في الجواب عن قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩))، فذكروا أجوبة، منها:

=

=

الأول: تخصيص الآية بالأحاديث، فالآية دلت بعمومها على أن أحدا لا ينتفع بسعي غيره، إلا أن هذا العموم مخصوص بالأحاديث الدالة على انتفاع الميت بالصدقة، والصوم، والحج.

ذكر هذا الجواب: ابن خزيمة، وابن حزم، والقاضي عياض، وابن قدامة، وعز الدين بن عبد السلام، والنووي، والحافظ ابن حجر، والعيني، والشوكاني.

الجواب الثاني: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: "وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى"، وإنما قال: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩]، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه، إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه.

ذكر هذا الجواب: النحاس، وابن عطية، والفخر الرازي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والآلوسي، وعبد الرحمن السعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين.

الجواب الثالث: أن حكم الآية مختص بقوم إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعي لهم، كما دلت عليه أحاديث الباب.

قاله عكرمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا ضعيف؛ لأن الله تعالى إنما ذكر هذا ليختبر به هذه الأمة، وليعلموا أن هذا حكم شامل، ولو كان هذا مخصوصا بقوم إبراهيم وموسى لم تقم به حجة على أمة محمد- ﷺ -، وجميع المسلمين يحتجون بما في هذا، فمن أين لهم أن تلك الأمم لم تكن تنفعهم الصدقة عنهم بعد الموت....، وما زال الدعاء والشفاعة نافعين لجميع الأمم، فإبراهيم وموسى والأنبياء قد دعوا للصالحين من قومهم، وهو نافع لهم، وليس من سعيهم، والملائكة يستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين، ممن مضى ومن بقي". اهـ

=

=

الجواب الرابع: أن المراد بالإنسان في الآية: الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعي له، كما دلت عليه أحاديث الباب.

قاله الربيع بن أنس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا أيضا ضعيف جدا؛ فإن الذي في صحف إبراهيم وموسى لا يختص به الكافر، وقوله بعده: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩] الآيات، يتناول المؤمن قطعا، وهو ضمير الإنسان. بل لو قيل: إنه يتناول المؤمن دون الكافر لكان أرجح من العكس، مع أن حكم العدل لا فرق فيه بين مؤمن وكافر، وما استحقه المؤمن بخصوصه؛ فهو بإيمانه ومن سعيه". اهـ

الجواب الخامس: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) [الطور: ٢١].

روي ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة - في قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) - قال ابن عباس: "فأنزل الله بعد هذا: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) [الطور: ٢١]، قال: فأدخل الله تعالى الأبناء بصلاح الآباء الجنة".

واعترض: بأن لفظ الآيتين لفظ خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ.

إلا أن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يرى أن هذا المروي عن ابن عباس يدخل في النسخ، حيث قال: "اللفظ المنقول عن ابن عباس: رواه علي بن أبي طلحة الوالبي، عنه - وقد قيل: إنه لم يسمعه منه، بل من أصحاب ابن عباس - قال: "فأدخل الله الأبناء بصلاح الآباء الجنة"، ولم يذكر نسخا، ولو ذكره فمراد الصحابة بالنسخ: هو المذكور في قوله: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) [الحج: ٥٢]، وهو فهم معنى الآية على غير الصواب والمراد بها.

=

=

فقد بين ابن عباس أنه لم يرد بهذه الآية أن الإنسان لا ينتفع بعمل غيره، فإن الأبناء انتفعوا بعمل آبائهم، فهذا نسخ لما فهم منها، لا لما دلت عليه، وهذا القول المنقول عن ابن عباس أحسن ما قيل فيها، وقد ضعفه من لم يفهمه.

قال: وقد نقل البغوي هذا عن ابن عباس، وقال: "هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة"، ولم يقل ابن عباس هذا، وما أكثر ما يحرف على ابن عباس ويغلط عليه". اهـ

الجواب السادس: أن قوله: (ما سعى)، بمعنى: ما نوى.

قاله أبو بكر الوراق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "هذا ليس قولا في محل الاشتباه، وإنما هو تفسير للفظ السعي، والسعي هو: العمل ونية الخير، يثاب عليها وإن لم يعملها، وأما إذا هم بالشر فلا يعاقب عليه إلا أن يعمله، والإنسان قد ينتفع بما لم ينو، كانتفاعه بالصدقة عنه بعد موته، والحج، وغير ذلك". اهـ

الجواب السابع: أن المراد بالآية أن الكافر ليس له من الخير إلا ما عمله، فيثاب عليه في دار الدنيا، حتى لا يبقى له في الآخرة خير.

ذكره الثعلبي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا لا يدل عليه قوله: (للإنسان)، فليس في هذا اللفظ تخصيص الكافر، ولا تخصيص الجزاء بالدنيا".

الجواب الثامن: أن اللام في الآية بمعنى "على"، والتقدير: ليس على الإنسان إلا ما سعى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا القول من أرذل الأقوال؛ فإنه قلب لمعنى الآية". اهـ

الجواب التاسع: أنه ليس له إلا سعيه، غير أن الأسباب مختلفة، فتارة يكون سعيه

=

=

في تحصيل قرابة، وولد يترحم عليه، وصديق يدعو له، وتارة يسعى في خدمة أهل الدين والعبادة، فيكسب محبة أهل الدين؛ فيكون ذلك سببا حصل بسعيه.

حكاه والذي قبله أبو الحسن ابن الزاغوني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا القول أمثل من غيره، وقد استحسنه ورجحه جدي أبو البركات، وهو أيضا ضعيف؛ فإنه قد ينتفع بعمل غيره من لم يحصل سببا، كأولاد المؤمنين". اهـ

الجواب العاشر: أنه ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ﷻ ما يشاء. قاله الحسين بن الفضل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهو أمثل من غيره من الأقوال، ومعناه صحيح، لكنه لم يفسر الآية؛ فإن قوله: (ليس للإنسان) نفي عام، فليس له إلا ذلك، وهذا هو العدل، ثم إن الله قد ينفعه ويرحمه بغير سعيه، من جهة فضله". اهـ

الجواب الحادي عشر: وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل، قال: "الجواب الجيد عندي أن يقال: الإنسان- بسعيه وحسن عشرته- اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير، وتودد إلى الناس؛ فترحموا عليه، وأهدوا له العبادات، وكان ذلك أثر سعيه، كما قال النبي- ﷺ -: "إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه". ". اهـ

الجواب الثاني عشر: وهو جواب أبي عبد الله القرطبي، قال: "ويحتمل أن يكون قوله: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩] خاص في السيئة، بدليل ما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة- رضي الله عنه -، عن رسول الله- ﷺ- قال: "قال الله ﷻ: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات، إلى سبع مائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة". ". اهـ

=

=

الرابع: مذهب إعمال الآية، وتخصيص الأحاديث.

وهذا مذهب الشوكاني، وتبعه الألباني، حيث ذهبا إلى تخصيص الأحاديث بالآية.

أما الشوكاني فاقتصر على تخصيص حديث الصدقة دون بقية الأحاديث، وأما الألباني فيرى تخصيص جميع الأحاديث.

قال الشوكاني- بعد أن أورد الأحاديث الدالة على وصول ثواب الصدقة إلى الميت- قال: "وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما، بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها، فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩]، ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه، فلا حاجة إلى دعوى التخصيص، وأما من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنه لا يصل ثوابه إلى الميت، فيوقف عليها حتى يأتي دليل يقتضي تخصيصها". اهـ

وقال الألباني- بعد أن ساق كلام الشوكاني -: "وهذا هو الحق الذي تقتضيه القواعد العلمية، أن الآية على عمومها، وأن ثواب الصدقة وغيرها يصل من الولد إلى الوالد؛ لأنه من سعيه، بخلاف غير الولد". اهـ

لكن يرد على قولهما ما حكي من الإجماع على وصول ثواب الصدقة إلى الميت مطلقا، سواء كانت من ولده أو من غيره.

وقد ناقش الألباني حكاية الإجماع، ورجح عدم صحته، حيث قال: "نقل النووي وغيره الإجماع على أن الصدقة تقع عن الميت، ويصله ثوابها، هكذا قالوا: (الميت)، فأطلقوه ولم يقيدوه بالوالد، فإن صح هذا الإجماع كان مخصصا للعمومات التي أشار إليها الشوكاني فيما يتعلق بالصدقة، ويظل ما عداها داخلا في العموم، كالصيام، وقراءة القرآن، ونحوهما من العبادات، ولكنني في شك كبير من

=

=

صحة الإجماع المذكور، وذلك لأمرين: الأول: أن الإجماع بالمعنى الأصولي لا يمكن تحققه في غير المسائل التي علمت من الدين بالضرورة، كما حقق ذلك العلماء الفحول...، وقد أشار إلى ذلك الإمام أحمد، في كلمته المشهورة في الرد على من ادعى الإجماع....

الثاني: أنني سبرت كثيرا من المسائل التي نقلوا الإجماع فيها، فوجدت الخلاف فيها معروفا! بل رأيت مذهب الجمهور على خلاف دعوى الإجماع فيها، ولو شئت أن أورد الأمثلة على ذلك لطال الكلام، وخرجنا به عما نحن بصدده". اهـ

الخامس: مذهب إعمال الآية، وتخصيص حديث الحج.

وهذا مذهب الإمام مالك في رواية، حيث حكي عنه أنه قال: لا يحج أحد عن أحد مطلقا، سواء أوصى الميت أو لم يوص.

وأجاب عن حديث الحج، بأنه مخصوص بالجهنية التي سألت النبي - ﷺ - عن ذلك.

المسلك الثاني: مسلك الترجيح بين الآية والأحاديث:

وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في الترجيح على مذاهب:

الأول: مذهب إعمال الآية، ورد حديث الصوم. وهذا مذهب الإمام مالك، وأبي حنيفة، والشافعي في الجديد.

وحكاه القاضي عياض، والنووي: مذهب الجمهور. ونقله ابن المنذر عن: ابن عمر، وابن عباس، وعائشة، ورواية عن الحسن البصري، والزهري.

واختار هذا المذهب: الطحاوي، والخطابي، وابن العربي، والقاضي عياض، والشاطبي، والعيني.

ومذهب هؤلاء: أنه لا يصوم أحد عن أحد، لا في نذر ولا في غيره، ومن مات وعليه صيام فإنه يطعم عنه فقط.

=

=

أما المالكية فأعلوا حديث الصوم بدعوى الاضطراب في إسناده، وأنه خلاف عمل أهل المدينة.

قال أبو العباس القرطبي: "إنما لم يقل مالك بحديث ابن عباس؛ لأمور: أحدها: أنه لم يجد عليه عمل أهل المدينة. الثاني: أنه حديث اختلف واضطرب في إسناده. الثالث: أنه رواه البزار وقال في آخره: "لمن شاء". وهذا يرفع الوجوب الذي قالوا به. الرابع: أنه معارض بقوله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]، ولقوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩]. الخامس: أنه معارض بما خرجه النسائي، عن ابن عباس، عن النبي -ﷺ- أنه قال: "لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة". السادس: أنه معارض للقياس الجلي، وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها، فلا تفعل عمن وجب عليه، كالصلاة، ولا ينقض هذا بالحج؛ لأن للمال فيه مدخلا". اهـ

وأما الحنفية فأعلوا الحديث بما روي عن عائشة أنها سئلت عن امرأة ماتت وعليها صوم، فقالت: "يطعم عنها"،

وعن عائشة قالت: "لا تصوموا عن موتاكم، وأطعموا عنهم"، وبما روي عن ابن عباس قال- في رجل مات وعليه صوم رمضان- قال: "يطعم عنه ثلاثون مسكينا"،

وروى النسائي عن ابن عباس قال: "لا يصوم أحد عن أحد". قالوا: فلما أفتى ابن عباس، وعائشة بخلاف ما روياه، دل ذلك على أن العمل على خلاف ما روياه.

وتعقب: "بأن الآثار المذكورة عن عائشة، وعن ابن عباس، فيها مقال، وليس فيها ما يمنع الصيام، إلا الأثر الذي عن عائشة، وهو ضعيف جدا، والمعتبر عند أهل الأصول أن ما رواه الراوي مقدم على ما رآه، لاحتمال أن يخالف ذلك لاجتهاد

=

=

مستنده فيه لم يتحقق، ولا يلزم من ذلك ضعف الحديث عنده، وإذا تحقق من صحة الحديث، لم يترك المحقق للمظنون".

وأجيب: "بأن الاحتمال المذكور باطل؛ لأنه لا يليق بجلالة قدر الصحابي أن يخالف ما رواه عن النبي - ﷺ - لأجل اجتهاده فيه، وحاشا الصحابي أن يجتهد عند النص بخلافه؛ لأنه مصادمة للنص، وهذا لا يقال في حق الصحابي، وإنما فتواه بخلاف ما رواه إنما يكون لظهور نسخ عنده".

وأما الشافعي - في الجديد - فأعل حديث ابن عباس بأن ذكر الصيام فيه غير محفوظ، حيث قال: "فإن قيل: أفروي عن رسول الله - ﷺ - أنه أمر أحدا أن يصوم عن أحد؟ قيل: نعم، روى ابن عباس عن النبي - ﷺ - أنه يصوم عنه وليه. فإن قيل: فلم لا تأخذ به؟ قيل: لأن الزهري حدث عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - نذرا ولم يسمه. مع حفظ الزهري، وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس، فلما جاء غيره عن ابن عباس، بغير ما في حديث عبيد الله، أشبه أن لا يكون محفوظا". اهـ

قال البيهقي: "يعني به الحديث الذي أخبرناه أبو عبد الله الحافظ، وأبو زكريا ابن أبي إسحاق، وغيرهما، قالوا: ثنا أبو العباس، أنبأ الربيع، أنبأ الشافعي، أنبأ مالك، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس: "أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله - ﷺ - فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر. فقال النبي - ﷺ -: اقضه عنها".

قال البيهقي: "وهذا حديث ثابت، قد أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، من حديث مالك، وغيره، عن الزهري؛ إلا أن في رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "أن امرأة سألت". وكذلك رواه الحكم بن عتيبة، وسلمة بن كهيل، عن مجاهد، عن ابن عباس. وفي رواية عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس.

=

=

ورواه عكرمة، عن ابن عباس. ثم رواه بريدة بن حصيب، عن النبي - ﷺ -. فالأشبه أن تكون القصة - التي وقع السؤال فيها عن الصوم نصا - غير قصة سعد بن عبادة التي وقع السؤال فيها عن النذر مطلقا، كيف وقد روي عن عائشة، عن النبي - ﷺ -، بإسناد صحيح، النص في جواز الصوم عن الميت".

قال البيهقي: "وقد رأيت بعض أصحابنا يضعف حديث ابن عباس، بما روي عن يزيد بن زريع، عن حجاج الأحول، عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس، أنه قال: "لا يصوم أحد عن أحد، ويطعم عنه"، وبما روينا عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن ابن عباس: في الإطعام عمن مات وعليه صيام شهر رمضان، وصيام شهر نذر. وفي رواية ميمون بن مهران، عن ابن عباس، ورواية أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال - في صيام شهر رمضان -: يطعم عنه، وفي النذر يقضي عنه وليه.

قال البيهقي: ورواية ميمون، وسعيد توافق الرواية عنه، عن النبي - ﷺ -، في النذر؛ إلا أن الروايتين الأوليين تخالفانها.

قال: ورأيت بعضهم ضعف حديث عائشة بما روي عن عمارة بن عمير، عن امرأة، عن عائشة - في امرأة ماتت وعليها الصوم - قالت: "يطعم عنها". وروي من وجه آخر عن عائشة أنها قالت: "لا تصوموا عن موتاكم، وأطعموا عنهم". وليس فيما ذكروا ما يوجب للحديث ضعفا؛ فمن يجوز الصيام عن الميت يجوز الإطعام عنه، وفيما روي عنهما في النهي عن الصوم عن الميت نظر، والأحاديث المرفوعة أصح إسنادا، وأشهر رجالا، وقد أودعها صاحبا الصحيح كتابيهما، ولو وقف الشافعي - رحمه الله - على جميع طرقها وتظاهرها لم يخالفها - إن شاء الله تعالى - وبالله التوفيق". اهـ

وقد نقل النووي كلام البيهقي بطوله ثم قال: "الصواب الجزم بجواز صوم الولي

=

=

عن الميت، سواء صوم رمضان، والنذر، وغيره من الصوم الواجب؛ للأحاديث الصحيحة السابقة، ولا معارض لها، ويتعين أن يكون هذا مذهب الشافعي؛ لأنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، واتركوا قولي المخالف له. وقد صحت في المسألة أحاديث كما سبق. والشافعي إنما وقف على حديث ابن عباس من بعض طرقه، كما سبق، ولو وقف على جميع طرقه وعلى حديث بريدة، وحديث عائشة، لم يخالف ذلك، كما قال البيهقي، فيما قدمناه عنه في آخر كلامه، فكل هذه الأحاديث صحيحة صريحة، فيتعين العمل بها، لعدم المعارض لها". اهـ

وللإمام ابن القيم كلام طويل في مناقشة القائلين برد الحديث، والإجابة عن اعتراضاتهم، حيث قال في كتابه "الروح" :

"وأما رد حديث رسول الله- ﷺ- وهو قوله: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه"- بتلك الوجوه التي ذكرتموها، فنحن ننتصر لحديث رسول الله- ﷺ -، ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه....

فأما قول الإمام مالك: "لا يصوم أحد عن أحد، وهو أمر مجمع عليه عندنا، لا خلاف فيه"، فمالك- رَحِمَهُ اللَّهُ- لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها، وإنما حكى قول أهل المدينة، فيما بلغه، ولم يبلغه خلاف بينهم، وعدم اطلاعه على الخلاف في ذلك لا يكون مسقطا لحديث رسول الله- ﷺ -، بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة، الذين لم تضمن لنا العصمة في قولهم دون الأمة، ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها، بل قال الله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) [النساء: ٥٩].

وأما قولهم: إن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- هو راوي حديث الصوم عن الميت، وقد قال:

=

=

"لا يصوم أحد عن أحد"، فغاية هذا أن يكون الصحابي قد أفتى بخلاف ما رواه، وهذا لا يقدح في روايته، فإن روايته معصومة، وفتواه غير معصومة، ويجوز أن يكون نسي الحديث، أو تأوله، أو اعتقد له معارضا راجحا في ظنه، أو لغير ذلك من الأسباب، على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث؛ فإنه أفتى في رمضان أنه لا يصوم أحد عن أحد، وأفتى في النذر أنه يصام عنه، وليس هذا بمخالف لروايته، بل حمل الحديث على النذر. ثم إن حديث: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه"، هو ثابت من رواية عائشة رضي الله عنها، فهب أن ابن عباس خالفه، فكان ماذا؟ فخلاف ابن عباس لا يقدح في رواية أم المؤمنين، بل رد قول ابن عباس برواية عائشة، أولى من رد روايتها بقوله. وأيضا فإن ابن عباس قد اختلف عنه في ذلك، وعنه روايتان، فليس إسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من إسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث.

وأما قولهم: إنه حديث اختلف في إسناده، فكلام مجازف فيه، ولا يقبل من قائله، فالحديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيحين، ولم يختلف في إسناده.

وقولهم: إنه معارض بنص القرآن، وهو قوله: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩] إساءة أدب في اللفظ، وخطأ عظيم في المعنى، وقد أعاذ الله رسوله أن تعارض سنته نصوص القرآن، بل تعاضدها وتؤيدها.

وقولهم: إنه معارض بما رواه النسائي، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه كل يوم مدا من حنطة"، فخطأ قبيح؛ فإن النسائي رواه هكذا: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حجاج الأحول، حدثنا أيوب بن موسى، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: "لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن

=

=

يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة"، هكذا رواه قول ابن عباس، لا قول رسول الله- ﷺ -، فكيف يعارض قول رسول الله- ﷺ- بقول ابن عباس، ثم يقدم عليه، مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورسول الله- ﷺ- لم يقل هذا الكلام قط، وكيف يقوله وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه"، وكيف يقوله وقد قال في حديث بريدة- رضي الله عنه- الذي رواه مسلم في صحيحه -: "أن امرأة قالت له: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر؟ قال: صومي عن أمك".

وأما قولهم: إنه معارض بحديث ابن عمر- رضي الله عنهما -: "من مات وعليه صوم رمضان، يطعم عنه"، فمن هذا النمط، فإنه حديث باطل على رسول الله- ﷺ -.

قال البيهقي: "حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن نافع، عن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي- ﷺ -: "من مات وعليه صوم رمضان، يطعم عنه"، لا يصح، ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم، وإنما رواه أصحاب نافع، عن ابن عمر- رضي الله عنهما- من قوله".

قال ابن القيم: وأما قولهم: إنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة؛ فإن أحدا لا يفعلها عن أحد، فلعمر الله إنه لقياس جلي البطلان والفساد، لرد سنة رسول الله- ﷺ- الصحيحة الصريحة له، وشهادتها ببطلانه، وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته، وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة، ولعمر الله إن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى، وهل في القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب عمله؛ على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته، أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته.

قال: وأما كلام الشافعي- رحمه الله- في تغليط راوي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن

=

=

نذر أم سعد كان صوما، فقد أجاب عنه أنصر الناس له، وهو البيهقي، ونحن نذكر كلامه بلفظه.... ".

ثم نقل ابن القيم كلام البيهقي بطوله- وقد تقدم - وقال: "وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صيام شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال النبي- صلى الله عليه وسلم -: "لو كان عليها دين، أكنت قاضيه عنها"؟ قال: نعم. قال: "فدين الله أحق أن يقضى".

ورواه أبو خيثمة، حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، فذكره.

ورواه النسائي عن قتيبة بن سعيد، حدثنا عبثر، عن الأعمش، فذكره.

قال ابن القيم: فهذا غير حديث أم سعد، إسنادا ومتنا؛ فإن قصة أم سعد، رواها مالك، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس- رضي الله عنهما -أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر؟ فقال النبي- صلى الله عليه وسلم -: "اقضه عنها"، وهكذا أخرجاه في الصحيحين، فهب أن هذا هو المحفوظ في هذا الحديث، أنه نذر مطلق لم يسم، فهل يكون هذا في حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير؟ على أن ترك استفصال النبي- صلى الله عليه وسلم- لسعد في النذر- هل كان صلاة أو صدقة أو صياما، مع أن الناذر قد ينذر هذا وهذا- يدل على أنه لا فرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة، وإلا لقال له: ما هو النذر؟ فإن النذر إذا انقسم إلى قسمين:

نذر يقبل القضاء عن الميت، ونذر لا يقبله، لم يكن بد من الاستفصال". اهـ كلام ابن القيم.

الثاني: مذهب إعمال الآية، ورد جميع الأحاديث.

وهذا مذهب المعتزلة، حيث ذهبوا إلى أنه لا يصل إلى الميت شيء ألبتة، لا

=

=

دعاء، ولا صدقة، ولا صوم، ولا حج، ولا غيره، أخذا بظاهر الآية الكريمة.

وأجابوا عن الأحاديث: بأنها أخبار آحاد، وهي عندهم مردودة إذا عارضت المتواتر القطعي، ومعارض هذه الأحاديث عندهم: هو قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)).

والذي يظهر صوابه- والله تعالى أعلم- هو وصول ثواب الصدقة والصوم والحج إلى الميت مطلقا، سواء كان ذلك من ولد الميت أو من غيره.

وأما الآية فأحسن الأجوبة عنها: "أنها إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: "وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى"، وإنما قال: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩]، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه، إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه".

وما قيل من أن ثواب هذه الثلاث لا يصل إلا من الولد إلى والده؛ فغير مسلم، وذلك لأمور:

"الأول: أن النبي- ﷺ- لم يعلل جواز حج الولد عن والده بكونه ولده، ولا أومأ إلى ذلك؛ بل في الحديث ما يبطل التعليل به؛ لأن النبي- ﷺ- شبهه بقضاء الدين الجائز، من الولد وغيره؛ فجعل ذلك هو العلة، وهو كونه قضاء شيء واجب عن الميت.

الثاني: أنه قد جاء عن النبي- ﷺ- ما يدل على جواز الحج عن الغير، حتى من غير الولد: فعن ابن عباس- رضي الله عنهما -: "أن النبي ﷺ سمع رجلا يقول: لبيك عن شبرمة. قال: من شبرمة؟ قال: أخ لي، أو قريب لي. قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا. قال: حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة".

الثالث: أنه قد ثبت في حديث عائشة: "أن من مات وعليه صيام صام عنه وليه"،

=

=

والولي هو الوارث، سواء كان ولدا، أم غير ولد؛ وإذا جاز ذلك في الصيام، مع كونه عبادة محضة، فجوازه بالحج المشوب بالمال أولى وأحرى".

الرابع: أن كون السؤال جاء مقيدا في صدقة أو صوم أو حج الولد عن والده؛ فإن ذلك لا يعني تقييد الحكم به؛ لأن النبي - ﷺ - لم يقيده بالولد، ولأنا لا نعلم لو أن النبي - ﷺ - سأله أخ عن أخيه، هل يجيبه بالجواز، أم لا؟

وأما حديث ابن عباس، في الصوم، وما ادعي عليه من الاضطراب؛ فالذي يظهر لي أن أحسن ما يجمع به بين رواياته: أن السؤال وقع عن صوم نذر مطلق؛ وذلك لأن جميع الروايات - التي جاءت من طريق سعيد بن جبير - قد نصت على ذكر الصوم، ولما جاء - في طريق عبيد الله بن عبد الله - التنصيص على النذر دون تسميته، وجب تفسيره برواية سعيد بن جبير، التي نصت على أنه في الصيام، ويؤكد هذا أن حديث بريدة وقع فيه السؤال عن صوم شهر، وجاء في حديث عائشة التنصيص على أن من مات وعليه صيام صام عنه وليه، ولما أفتى ابن عباس بأن من مات وعليه صوم نذر صام عنه وليه، دل على أن السؤال الذي وقع في حديثه إنما كان عن صوم نذر؛ إذ يبعد أن يفتي راوي الحديث بخلاف ما رواه.

وأما مذهب عائشة: فالتحقيق أنها فهمت من الحديث الذي روته عن النبي - ﷺ -، أنه مخصوص بصوم النذر؛ بدليل أنها كانت تفتي بالإطعام عمن مات وعليه صوم رمضان، والروايات وإن لم تنص على أنها كانت تفتي بصوم النذر، إلا أن حملها على هذا المعنى هو المتعين، جمعا بين ما روته ورأته، إذ يبعد أن تخالف ما روته لمجرد رأي رأته، والله تعالى أعلم.

الفهرس

